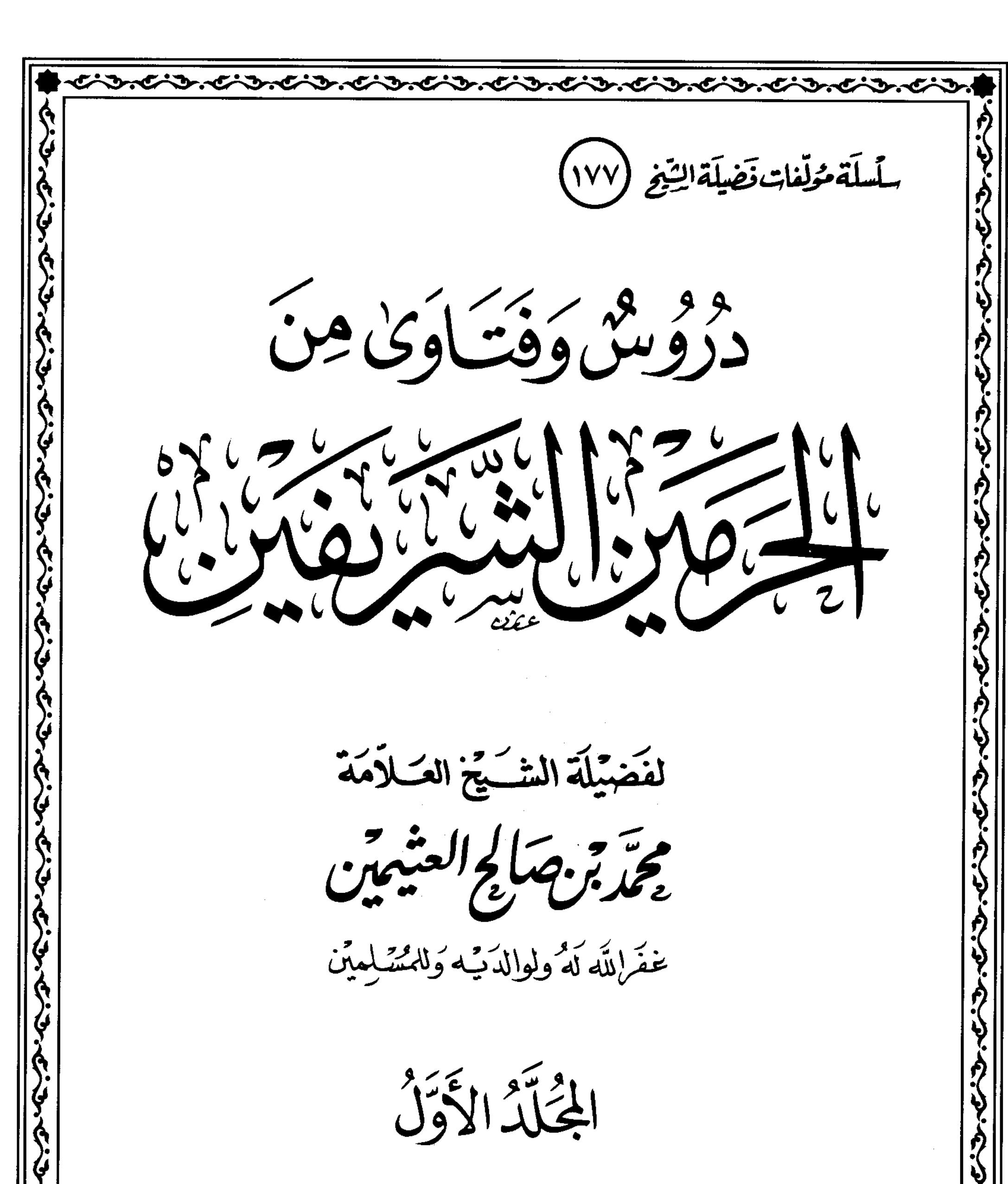


سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٧)

دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

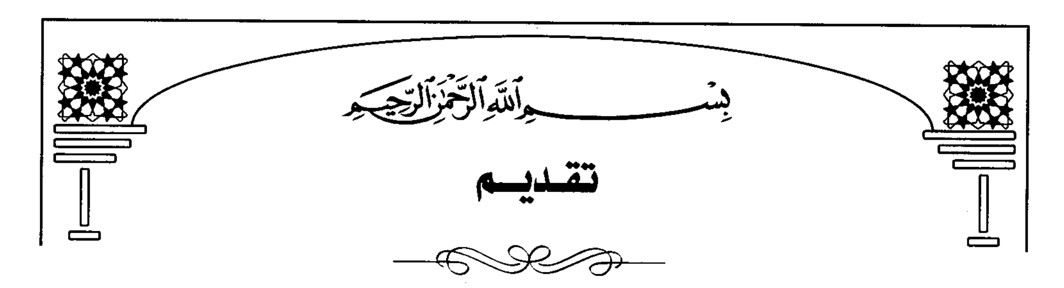
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الأول

دروس (العقيدة، العلم، علوم القرآن، تفسير القرآن الكريم)

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شَريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة وأدَّى الأمانةَ ونَصَح الأمَّة وجاهَد في الله حقَّ جِهادِه حتَّى أتاهُ اليَقينُ، فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ، وعلَى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أمَّا بعدُ؛ فلَقد كانَ لصاحِبِ الفَضيلةِ العلَّامَةِ شيخِنا الوالِدِ محمَّدِ بنِ صالحٍ العُثَيْمين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى- جُهودٌ مُوَفَّقَةٌ وأعمالٌ جَليلةٌ فِي نَشْرِ العِلْم وتَعْليمِه وإِلْقاءِ الدُّروسِ العِلميَّة واللِّقاءاتِ والخُطَبِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى.

ومِنْ تِلْكَ النَّماذجِ: لِقاءاتُ فَضيلتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى- بالوافِدِينَ إلَى بَيْتِ الله الحَرَام وإلَى مَسجدِ نَبِيِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الحُجَّاج والمُعتمِرِينَ والزَّائِرِينَ، واغتِنامُ مَشاهِدِ الجُمُوعِ الغَفِيرةِ مِنَ المُسلمِينَ فِي شَهْرِ رَمَضانَ المُبارَكِ وأَيَّامِ الحَجِّ والإِجازاتِ السَّنويَّةِ، فكانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَعْقِدُ لهُمْ دُرُوسًا عِلْميَّةً فِي شتَّى العُلُومِ الشَّرعيَّة؛ فِي العَقِيدةِ والتَّفْسِيرِ وأَحْكامِ العِباداتِ والمُعاملاتِ والسِّيَرِ والآدابِ والدَّعْوةِ إلَى الله عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يُجِيبُ علَى الأَسْئلةِ المُقدَّمةِ إليهِ مِنهُم، وذَلِك مُنْذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى لَيلَةِ الثَّلاثِين مِن شَهْرِ رَمضانَ المُبارَك عامَ (١٤٢١هـ) قَبْل وَفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- بخَمْسةَ عشَرَ يومًا، حيثُ كانَتْ آخِر دُرُوسِهِ بالمَسْجِد الحَرامِ.

وسَعْيًا لتَعْمِيم النَّفع بتِلْك الدُّرُوس والفَتاوَى، وإنفاذًا للقَواعد والضَّوابط والتَّوْجيهات التِي قرَّرها شيخُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإخراج تُراثِه العِلْميِّ باشَر القِسمُ العِلميُّ بالمؤسَّسة تهْيئةَ وقائعِ الدُّروس والفَتاوَى المُسجَّلة صوتيًّا في الحرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وتَصْنِيفَهَا مَوْضُوعيًّا، وتَجْهيزَهَا للطِّباعة وتَقْديمَها للنَّشر، وقَد بَلَغَ مجمُوعُ تِلْكَ الفَتاوَى (٥٢٣٥) فتوًى في مُختَلَفِ المَواضِيع.

ويَطِيبُ لـ(**مُؤسَّسةِ الشَّيْخ مُحمَّدِ بنِ صالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ**) أنْ تَتقدَّم بجَزِيلِ الشُّكر لمَقامِ **الرِّئاسَةِ العامَّةِ لِشُؤُونِ المسجِدِ الحَرامِ والمسجِدِ النَّبَوِيِّ** لِتَزْوِيدِهَا بنُسخَةٍ مِنَ التَّسْجيلاتِ الصَّوْتيَّة لِتِلْكَ الدُّرُوس العِلمِيَّةِ، كَما تُسجِّلُ المُؤسَّسةُ عَظِيمَ تَقْدِيرِهَا **لمَعالِي الشَّيْخِ الأُستاذِ الدُّكْتُور/ عَبْد الرَّحمَن بن عَبْد العَزِيز السّديس**، الرَّئِيس العامِّ لِشُؤُونِ المسجِدِ الحَرامِ والمسجِدِ النَّبَوِيِّ، الَّذِي تَفضَّلَ بكِتابَةِ المُقدِّمَةِ التَّالِيةِ، فجَزَاهُ اللهُ خَيْرَ الجَزَاءِ.

نَسْأَلُ اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوَجْهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عَبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لـهُمْ بإِحْسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

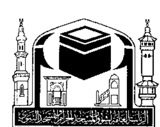
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم



المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
مكتب الرئيس



الرقم :
التاريخ :
المشفوعات :

١٠٤   ٧٠٠٠٨٧٥٠٠٠

الحمد لله رب العالمين، و أصلي و أسلم على خاتم الأنبياء و المرسلين، سيد الأولين و الآخرين، نبينا محمد الأمين، و على آله و صحبه الغر الميامين، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن مَنّ عليها بنعمة الإسلام، وأكرمنا ببعثة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، و هيأ لها عبر العصور أئمة يهتدى بهم، ويقتفى أثرهم.

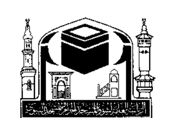
ومن هؤلاء الأئمة العالم الجليل سماحة الشيخ/ محمد بن صالح بن عثيمين _رحمه الله_، المربي الفاضل، والقدوة الصالحة، والطود الشامخ في العلم والزهد والصدق والإخلاص والتواضع والورع والفتوى، شيخ التفسير والعقيدة والفقه والسيرة النبوية والأصول والنحو و البلاغة، الداعي إلى الله على بصيرة، المشهود له بالصدق، ومواقف الخير، والدعوة والإرشاد والإفتاء، الذي انتفع بعلمه المسلمون في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وكُتب له القبول والمحبة و الفضل وعلو المرتبة.

كان للشيخ ـ رحمه الله ـ أسلوب تعليمي رائع فريد، فهو يسأل ويناقش، ليزرع الثقة في نفوس طلابه ويلقي الدروس والمحاضرات في عزيمة ونشاط وهمة عالية ويمضي الساعات يلقي دروسه ومحاضراته وفتاواه بدون ملل ولا ضجر بل يجد في ذلك متعته وبغيته من أجل نشر العلم وتقريبه للناس على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم.

و قد درّس رحمه الله في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج وشهر رمضان والإجازات الصيفية لسنوات طويلة، والتي هي من أميز دروسه وفتاواه ـ رحمه الله ـ لبركة المكان والزمان والرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم





الرقم :
التاريخ :
المشفوعات :

١٠٤ ٧٠٠٠٨٧٥٠٠٠

وجهوده العلمية وخدمته العظيمة التي قدمها للناس في مؤلفاته العديدة ذات القيمة العلمية الفريدة، ومصنفاته من كتب ورسائل وشروح للمتون العلمية طبقت شهرتها الآفاق، وأقبل عليها طلبة العلم في أنحاء العالم وقد بلغت مؤلفاته أكثر من تسعين كتاباً ورسالة

ولا ننسى تلك الكنوز العلمية الثمينة المحفوظة في أشرطة الدروس والمحاضرات فإنها تقدر بآلاف الساعات فقد بارك الله تعالى في وقت هذا العالم الجليل وعمره.

كان الشيخ رحمه الله تعالى قدوة صالحة ونموذجاً حياً فلم يكن علمه مجرد دروس ومحاضرات تلقى على أسماع الطلبة وإنما كان مثالاً يحتذى في علمه وتواضعه وحلمه وزهده ونبل أخلاقه.

تميز بالحلم والصبر والجلد والجدية في طلب العلم وتعليمه وتنظيم وقته والحفاظ على كل لحظة من عمره كان بعيداً عن التكلف كان قمة في التواضع والأخلاق الكريمة والخصال الحميدة، وقدوةً في عمله وتعبده وزهده وورعه، وكان بوجهه البشوش اجتماعياً يخالط الناس ويؤثر فيهم ويدخل السرور إلى قلوبهم، تقرأ البشر يتهلل من محياه، والسعادة تشرق من جبينه وهو يلقي دروسه ومحاضراته.

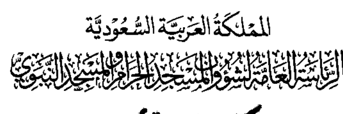
كان رحمه الله عطوفاً على الشباب يستمع إليهم ويناقشهم ويمنحهم التربية والتوجيه بكل لين ورفق.

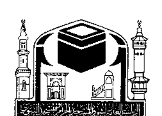
كان حريصاً على تطبيق السنة في جميع أموره - رحمه الله -.

ومن ورعه أنه كان كثير التثبت فيما يفتي ولا يتسرع في الفتوى قبل أن يظهر له الدليل فكان إذا أشكل عليه أمر من أمور الفتوى يقول انتظر حتى أتأمل المسألة، وغير ذلك من العبارات التي توحي بورعه وحرصه على التحرير الدقيق للمسائل الفقهية.

ولم تفتر عزيمته في سبيل نشر العلم حتى في رحلته العلاجية قبل وفاته.
وكان يحمل همَّ الأمة الإسلامية وقضاياها في مشارق الأرض ومغاربها.







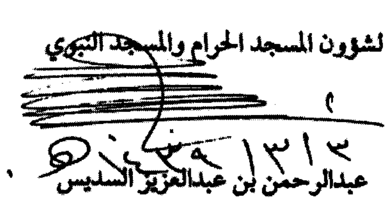
الرقم :
التاريخ :
المشفوعات :

خلّف الشيخ ـ رحمه الله ـ إرثاً عظيماً من المؤلفات المباركة النافعة، و منها هذه الموسوعة العظيمة: (دروس و فتاوى من الحرمين الشريفين)، في ثمانية عشر مجلداً.

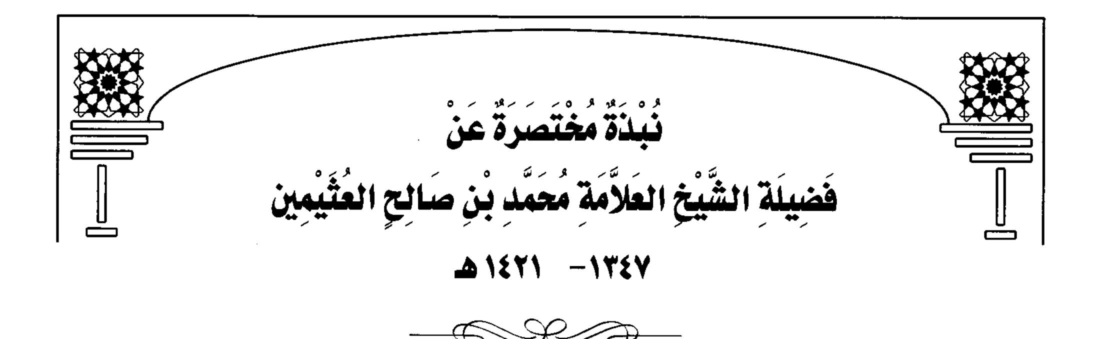
وإنه ليسرني باسمي واسم أئمة وخطباء ومدرسي الحرمين الشريفين وباسم زملائي في الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي أن أقدّم هذه الكلمات بين يدي هذه الموسوعة القيمة؛ وفاءً بحق شيخنا ـ رحمه الله ـ وإسهاماً من الرئاسة في نشر رسالة العلم من رحاب الحرمين الشريفين وتعاوناً وتكاملاً مع جميع الأجهزة والمؤسسات المباركة، ومنها مؤسسة الشيخ ـ رحمه الله ـ التي قام عليها أبناؤه البررة وتلاميذه المباركون لتخليد إرثه العلمي المتميز فجزاهم الله خيراً ويارك في جهودهم.

ونسأل الله تعالى أن يرحم شيخنا رحمة الأبرار، ويسكنه فسيح جناته، وأن يغفر له، وأن يجزيه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيراً، وأن يثيبه عن العلم وطلابه خير ما جزى عالماً عن تلامذته ومحبيه، وأن يوفق ولاة أمرنا وعلماءنا لكل خير، وأن يديم على بلادنا وسائر بلاد المسلمين الإيمان والأمن والأمان، إنه جواد كريم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



كتبه
محب شيخنا وتلميذه
الرئيس العام
لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس



١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِـمُ المحقِّق، الفَقِيه المفسِّر، الوَرِع الزَّاهد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إِحدَى مُحافظَات القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُه العِلْمِيَّةِ:

أَلحقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَريمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه المعلِّم عَبْد الرَّحمن بن سُلَيْمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيزِ بن صالِحِ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة المعلِّم عليِّ بنِ عَبْدالله الشّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولـمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُرِه بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ علَى طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ فضيلةُ الشَّيْخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرٍ السّعْـديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّس العُلـوم

الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبير بعُنَيْزَة، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ[١] مِن طَلَبته الكِبار لِتَدريسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إِلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلم -فِي التَّوْحِيد، والفِقه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرٍ السّعْديِّ رَحِمَهُ اللهُ، فدرَس عليه فِي التّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُختَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- هُو شيخَه الأوَّلَ؛ إِذْ أخَذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَريقةً- أَكْثَرَ مِمَّا أخَذ عَنْ غَيرِه، وتَأَثَّر بمَنْهجِه وتَأصِيلِه، وطَريقةِ تَدْريسِه، واتِّباعِه لِلدَّليل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليٍّ بن عـودانَ -رَحِمَهُ اللهُ- قـاضيًا فِي عُنَيْزَة قـرَأ عليه فِي عِلـم الفَرائضِ، كـما قـرأ علَى الشَّيْخ عَبْدِ الـرَّزَّاقِ عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي النَّحو والبَلاغَة أَثناءَ وُجودِه مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولـمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[٢] أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامَةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرٍ السّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَأَذِنَ له، والتَحق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلَـماءِ الَّذين كانُـوا يُدرِّسـونَ فِيه حِـينذَاكَ، ومِنْهُمْ: العـلَّامَةُ المُفَسِّـرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ، والشَّيْخُ المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإِفْرِيقِيُّ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالَى-.

---

(١) هما الشَّيْخان محمد بن عَبْد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تَعالَى.

(٢) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى.

وفِي أَثناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بنِ عَبْدِ الله بنِ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، فقرَأ عليه فِي المسجدِ: مِن صَحيحِ البُخارِيِّ، ومِن رَسائِلِ شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظرِ فِي آراءِ فُقهاءِ المَذاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عادَ إلَى عُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابعُ دِراسَتَهُ انتِسابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّريعَةِ، الَّتِي أَصْبحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإِمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ النَّجابَةَ وسُرْعةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ علَى التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأَ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِعِ الكَبيرِ بعُنَيْزَةَ.

ولـمَّا تخرَّجَ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ بعُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- فتوَلَّى بعدَه إمامَةَ الجامِعِ الكَبيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنِيَّةِ التَّابعةِ لِلجامِعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ- عامَ (١٣٥٩هـ).

ولـمَّا كَثُرَ الطَّلَبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تَكْفِيهِم؛ بدأَ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامِعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَةَ

تَحصيلٍ جادٍّ، لَا لِـمُجرَّدِ الاستماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عام (١٣٧٤هـ) إلَى عام (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إلَى التَّدريسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّريعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِالقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِد الحَرامِ والمسجِد النَّبَوِيِّ، فِي مَواسِم الحَجِّ ورمَضانَ والإِجازاتِ الصَّيْفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

وَللشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فَريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلَتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بِهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إلَى النَّاسِ.

آثارُهُ العِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خِلالَ أَكْثَرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإِرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإِلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعالَى-.

ولقَدِ اهتَمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَمَيَّزَتْ بالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتِيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإِذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزَةِ لِلحَدِيثِ الشَّرِيفِ والسِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعيَّةِ والنَّحْوِيَّةِ.

وَإنفاذًا لِلقَـواعِدِ والضَّـوابِطِ والتَّوْجيهاتِ التِي قَرَّرهـا فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِنَشْرِ مُؤلَّفاتِه، ورَسائِلِه، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولقاءاتِه؛ تَقُـوم مُؤسَّسةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ وتَـوْفِيقِه- بوَاجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ علَى شَبَكَةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ[1]، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أعْمالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إِلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إِلَى اللهِ -سبحانه وتَعَالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئة كِبارِ العُلماء فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجْلس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفِي آخِرِ فَترةِ تَدريسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضويَّةِ لجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.

---

(١) www.binothaimeen.net

- عُضوًا فِي لجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الحَجِّ، مِن عام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأحكامِ الشَّرعيَّة.
- تَرأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةً داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كَما أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّة فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرينَ حولَ أَحكامِ الدِّينِ وأُصُولِه؛ عَقِيدةً وشَريعةً، وذَلكَ عَبْرَ البَرامِجِ الإذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (**نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ**).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْريَّةً وسَنَويَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإرشادِهِم إلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجادِّ فِي طَلَبِ العِلْمِ وتَحْصيلِه، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْلِيمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ المُتَعدِّدةِ، والاهتِمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثَائِق والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَةً عَظِيمةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِـمَا تَحلَّى بِه مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا على دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لَجْنَةُ الاخْتِيارِ لَمِنْحِهِ الجائِزَةَ مَا يَأْتِي:

- **أَوَّلًا:** تَحلِّيهِ بِأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لَمِصْلحةِ الُمسلِمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- **ثانِيًا:** انتِفاعُ الكَثِيرينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- **ثالِثًا:** إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- **رابِعًا:** مُشاركتُه الُمفيدةُ فِي مُؤتَمراتٍ إسلامِيَّةٍ كَثِيرةٍ.
- **خامِسًا:** اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِـمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَنَاتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللهِ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيم.

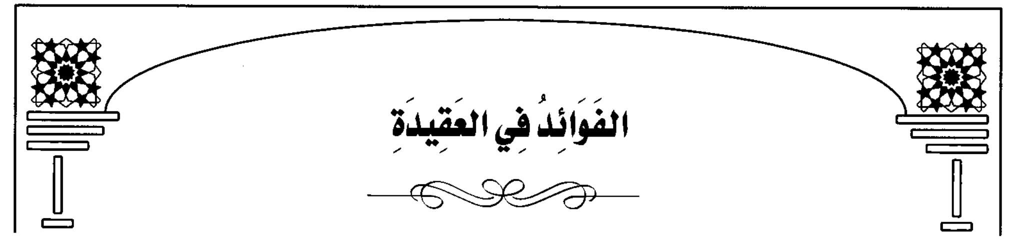
وَفَاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَدِينَةِ جُدَّةَ، قُبَيلَ مَغْرِبِ يَومِ الأَرْبعاءِ، الخامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّي عَلَيه فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ عَصْرِ يَوم الخَمِيسِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤَثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّي عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْـرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِـهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمِغْفِرَتِـهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ



الفَوائِدُ فِي العَقِيدَةِ

بِسْمِ اللهِ، والصلاةُ والسلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ المُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإِنَّ عَقِيدَةَ المُسْلِمِ فِي رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ هِيَ أَسَاسُ الدِّينِ، والعَقِيدَةُ مَحَلُّهَا القَلْبُ؛ لقولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، وَفِي الآيةِ الأُخْرَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، إِذَنْ يكونُ عقدُ الإيمانِ فِي القَلْبِ، وهكذا العقيدةُ محلُّها القَلْبُ.

وقولُ بعضِ الناسِ: إنَّ العقيدةَ لَيسَتْ موجودةً فِي القرآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، يريدُ بذَلِكَ أَنْ يُنْكِرَ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ العلماءُ، فَهَذَا فِي الحقيقةِ قولٌ بغيرِ تَأَمُّلٍ وَلَا نظرٍ وَلَا عِلْمٍ، وَإِلَّا لَوْ تَأَمَّلَ لَوَجَدَ أَنَّ العقيدةَ موجودةٌ فِي القرآنِ ومَحَلَّهَا القَلْبُ.

والعقيدةُ: مَا يَعْتَقِدُه الإنسانُ فِي رَبِّه عَزَّوَجَلَّ، فَكُلُّنَا نَعْتَقِدُ -وللهِ الحمدُ- أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَيٌّ لَا يمُوتُ، ويُذْكَرُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «**وَلَوْ قَالُوا: نعَمْ لكَفَرُوا**».

فانْظُرُوا لِعِظَمِ الأمرِ!

لو قَالُوا فِي جوابِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: نَعَمْ، لَكَانَ المَعْنَى: لَسْتَ بِرَبِّنَا، وَإِذَا قَالُوا: بَلَى، صَارَ المَعْنَى: نَعَمْ أَنْتَ رَبُّنَا.

وهَذَا يقالُ فِي قومٍ يَعْرِفُونَ اللغةَ العربيةَ، أما أَمْثَالُنَا فيُتسامَحُ مَعَهُمْ، فلو قُلْنَا: نَعَمْ، أو قُلْنَا: بَلَى، فَالمَعْنَى مَفْهُومٌ، ولو قَالَ إنسانٌ لرجلٍ: أَلَسْتَ طَلَّقْتَ امرأتك؟ وقيلَ لآخرَ: أَلَسْتَ طَلَّقْتَ امرأتك؟ فقَالَ أَحَدُهُمَا: نَعَمْ، وقَالَ الآخرُ: بَلَى، فَمَنِ الَّذِي تُطَلَّقُ امرأتُه؟ قَدْ يقولُ قائلٌ: الأولُ. وَقَدْ يَقُولُ قائلٌ: الثَّانِي. وَلَعَلَّ ثالثًا يقولُ: الأَوَّلُ وَالثَّانِي، وَلَعَلَّ رابعًا يقولُ: لَا تُطَلَّقُ مِنْهُمَا، لَكِنْ عَلَى كُلِّ حالٍ، الَّذِي قِيلَ له: أَلَسْتَ طَلَّقْتَ امْرَأَتَكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. هَذَا لَا تُطَلَّقُ امرأتُه، وَالَّذِي قِيلَ لَهُ: أَلَسْتَ طَلَّقْتَ امرأتك؟ فَقَالَ: بَلَى. تُطَلَّقُ.

ولَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُخاطَبُ عامِّيًّا، وقِيلَ له: أَلَسْتَ طَلَّقْتَ امْرَأَتَكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَمَعْنَى (نَعَمْ) عِنْدَهُ: بَلَى، فإِذَنْ تُطَلَّقُ امرأتُه.

فَنَحْنُ **أَوَّلًا** نؤمنُ بأنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان:٥٨].

ثَانِيًا: نعتقدُ أَنَّ اللهَ وَحْدَه خَالِقُ السمواتِ والأرضِ، مِن غَيْرِ مشاركٍ وَلَا مُعِينٍ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر١٣-١٤]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

إِذَنْ، كُلُّنَا نُؤمِنُ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ الخالقُ للسمواتِ والأرضِ، لَمْ يَخْلُقْهُما أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَلَمْ يُشَارِكْه أَحَدٌ فِي خَلْقِهِمَا، وَلَمْ يُعِنْه أحَدٌ عَلَى خَلْقِهما، وكلنا نؤمنُ

بأنَّ اللهَ تَعالَى وَحْده المُدبِّرُ لِلأُمُورِ، لَا يُدبِّرُ الأمورَ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، تارةً عَلَى هَذَا وتارةً عَلَى هَذَا.

وكلنا نؤمنُ بأنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي لَا معبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، فَلَا معبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ كلَّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ عَبَدُوا بَاطِلًا، وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ القمرَ عَبَدُوا بَاطِلًا، وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِبادَتُهم باطلةٌ، وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِبادَتُهم باطلةٌ، وكُلُّ مَنْ عُبِد سِوَى اللهِ فعِبادَتُه باطلةٌ.

وكلنا يؤمنُ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ، أي إِنَّ جَمِيعَ صِفَاتِ الكمالِ ثابتةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ والدليلُ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، والمَثَلُ بِمَعْنَى الوصفِ، كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، مَثَلُها أي وَصْفُها وصِفَتُها كذا وكذا.

وكلنا يؤمنُ بأنَّ اللهَ تَعَالَى موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ مِن كلِّ وَجْهٍ، موصوفٌ بِأَنَّهُ حَيٌّ، وَأَنَّهُ سميعٌ، وَأَنَّهُ بصيرٌ، وَأَنَّهُ عليمٌ، وَأَنَّهُ قديرٌ، وَأَنَّهُ حكيمٌ، وَأَنَّهُ حليمٌ، وَأَنَّهُ شكورٌ... إِلَى آخِرِ مَا ذكَرَ عن نَفْسِه عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْلَمَ مَا يُثْبَتُ للهِ عَلَى وَجْهِ التفصيلِ مِن الصفاتِ، لَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ نَعرِفَهَا مِن حيثُ العمومُ، فاللهُ تَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يكونَ موصوفًا بصفاتِ الكمالِ، وَلَكِنَّنَا لَا نَعْرِفُ التفصيلَ.

وَمَعْرِفَةُ أَنَّ اللهَ يوصفُ بصفاتٍ معينةٍ يكونُ مِنَ الكتابِ والسُّنةِ وَلَيْسَ لك الحقُّ أَن تُثْبتَ مِن صفاتِ اللهِ مَا لم يكنْ فِي الكتابِ والسُّنةِ، وَلَيْسَ لك الحقُّ أَنْ تُنْكِرَ مِنْ صفاتِ اللهِ مَا ثَبَتَ فِي الكتابِ والسُّنةِ، هَذِهِ قاعدةُ صفاتِ اللهِ عَلَى وجهِ الإجمالِ معلومةٌ لنا، ونعلمُ أنَّ مَن لَيْسَ كَامِلًا لَا يَصِحُّ أَنْ يكونَ رَبًّا، وَلِهَذَا قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، وَنَحْنُ لَا نعلمُ تفصيلَ الصفاتِ بعقولِنَا، فَهَذَا أمرٌ فوقَ مَا تُدْرِكُهُ العقولُ.

إِذَنْ، يَلْزَمُنَا أَنْ نُثْبتَ كُلَّ وصفٍ أَثْبَتَه اللهُ لِنَفْسِهِ فِي القرآنِ الكريمِ أو فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ويجبُ عَلَيْنَا أَنْ نؤمنَ بِكُلِّ مَا وَصَفَ اللهُ به نَفْسَهُ، فإِنْ نَحْنُ أنكرنا شَيْئًا مِن ذَلِكَ فذلك جنايةٌ عظيمةٌ فِي حقِّ اللهِ وَفِي حقِّ النصوصِ مِنَ القرآنِ والسُّنةِ، لأننا أقصرُ مِنْ أَنْ نحيطَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وأقصرُ مِنْ أَنْ نَحْكُمَ بعقولِنا عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إنما نرجعُ فِي هَـذَا إِلَى الكتابِ والسُّنةِ، وَإِذَا ذَكَرَ اللهُ عن نَفْسِهِ شَيْئًا قُلْنَا: سَمِعْنَا وآمَنَّا، وَلَا نَقُولُ: هَذَا مجازٌ عن كذا، بل نَقُولُ: هَذَا حقٌّ عَلَى حقيقَتِه، وَإِلَّا لَمْ نَكُنْ مؤمنين بما أَنْزَلَ اللهُ.

فَهَذِهِ قاعدةٌ احْيَوْا عَلَيْهَا ومُوتوا عَلَيْهَا ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١]، لَا أَن يقولوا: هَذَا لَا يقبلُه العقلُ فَلَا نقبلُه. مَن أَنْتَ لكي تحكُمَ عَلَى ربِّ العالمين بأنَّ هـذَا يصلُحُ وَهَذَا لَا يصلُحُ، فاجعلوا هَذِهِ القاعدةَ راسخةً فِي قلوبِكُمْ، مطمئنةً بها نفوسُكُمْ، تَحْيَوْن عَلَيْهَا وتموتون، لِأَنَّ هَذِهِ طريقُ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- وطريقُ الخُلفاءِ الرَّاشِدِينَ وطريقُ الصحابةِ والتابعين لَهُمْ بإحسانٍ.

إِذَنْ، كُلُّ مَا أَخْبَرَ اللهُ به عن نَفْسِهِ فالواجبُ الإيمانُ به إِنْ نَفْيًا وإِنْ إثباتًا، فَإِذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨]، وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نعتقدَ بِأَنَّ لَهُ الحياةَ الكاملةَ، وَأَنَّهُ لَا يموتُ، وَهَذَا إثباتٌ ونفيٌ، الإثباتُ الحياةُ، والنفيُ الموتُ، فَيَجِبُ أَنْ نُثْبِتَ هَذَا كما نَنْفِي هَذَا.

وكيفَ يمكنُ أَنْ يلقَى الإنسانُ رَبَّهُ وَهُوَ يقولُ: لَا أُؤْمِنُ بِهَذِهِ الصفةِ لِأَنَّ عقلي لم يقبلْهَا؟! يُوجَدُ الآنَ أُنَاسٌ ينتسبون للإسلامِ وهم مسلمون -ولا نقولُ: إنهم كفارٌ- لَكِن يقولون عن بَعْضِ الصفاتِ: لَا نَقْبَلُهَا لِأَنَّ العقلَ لَا يَقْبَلُهَا. واللهُ قد أَخْبَرَ بها. سُبْحَانَ اللهِ! أَأَنْتَ تَحْكُمُ عَلَى اللهِ؟! أَأَنْتَ أَعْلَمُ باللهِ مِن اللهِ؟! أَتَظُنُّ أَنَّ اللهَ لما أَخْبَرَ عِبَادَهُ بهذه الصفةِ يريدُ أَن يُضِلَّ عِبادَه وَأَنْ يَعْتَقِدُوا فِيهِ مَا لَا يجوزُ؟! إِنْ كَانَ أمرُكَ هَكَذَا فالأمرُ خطيرٌ جِدًّا، فعليكم بهذه القاعدةِ، وهي: كُلُّ مَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ إثباتًا أو نَفْيًا وَجَبَ عَلَيْنَا الإيمانُ به والتصديقُ به، ويجبُ عَلَى عُقولِنَا أَنْ تَرْضَخَ له، وألا نقولَ: قَالَ فلانٌ، قَالَ فلانٌ، فمَن فلانٌ حَتَّى يقولَ عَلَى اللهِ؟

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤]، ماذا تَعْنِي كلمةُ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؟ هل تَعْنِي عَلَا عَلَى العرشِ أو ارتفعَ عَلَى العرشِ، لكي نُجيبَ عَلَى ذَلِكَ يجبُ أَن نعرفَ مَا هُوَ العرشُ؟ العرشُ مخلوقٌ عظيمٌ لا يَعْلَمُ قَدْرَه إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فيما يروى: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**». الحَلْقَةُ: حَلْقَةُ الدرعِ، وَهِيَ صغيرةٌ جِدًّا مثلُ السلسلةِ، والفَلَاةُ: هِيَ الأرضُ الواسعةُ، فَضَعِ الحلقةَ فِي فلاةٍ مِن الأرضِ، ستكونُ الحلقةُ بالنسبةِ لهذه الفلاةِ لَا شَيْءَ، قال: «**وَفَضْلُ**

العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ»[1]. سُبْحَانَ اللهِ! مخلوقاتٌ واللهِ عظيمةٌ، يحارُ العقلُ منها، لَكِنَّه لَا يُحِيلُها، لِأَنَّ اللهَ أعظمُ قَدْرًا وأعظمُ قُوَّةً.

إِذَنْ، عرَفْنَا العرشَ وَأَنَّهُ مخلوقٌ عظيمٌ لَا يَقْدِرُ قَدْرَه إِلَّا اللهُ، فربما يأتي متنطعٌ متعمقٌ يقولُ: مِن أي شَيْءٍ خُلِقَ هَذَا العرشُ؟ فنقولُ له: اللهُ أعلمُ، آمِنْ بأَنَّ هُنَاكَ عَرْشًا عظيمًا هَذِهِ سَعَتُه، وَأَنَّهُ لَا يعلمُ قَدْرَها إِلَّا اللهُ وَهَذَا حَسْبُكَ.

قَوْلُهُ: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤] أي عَلَا عليه، وَلَيْسَ عُلُوُّ اللهِ عَلَى العرشِ يَعْنِي أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُفْتَقِرٌ إِلَى هَذَا العرشِ بحيثُ لو أُزِيلَ لَسَقَطَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ، لَا واللهِ أَبَدًا، بل العرشُ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ، وجميعُ المخلوقاتِ مفتقرةٌ إِلَى اللهِ، لكنَّ الاستواءَ عَلَى العرشِ مِن كمالِ العظمةِ والسُّلطانِ.

ومَن يقولُ: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي مَلَكَ العرشَ واسْتَوْلَى عَلَيْهِ مخطئٌ خطئًا عظيمًا فِي حقِّ اللهِ، ومخطئٌ فِي حقِّ النصوصِ، فَلَا يُمْكِنُ أبدًا أَنْ يكونَ هَـذَا التعبيرُ بِمَعْنَى المُلْكِ والاستيلاءِ ولَقَدْ نَزَلَ القرآنُ بلسانٍ عَرَبِيٍّ، وَلَا توجـدُ كلمةٌ فِي اللغةِ مِن أَوَّلِ مَن نَطَقَ بها إِلَى آخرِ مَن ينطِقُ تقولُ: اسْتَوَى عَلَى كذا بِمَعْنَى: اسْتَوْلَى عَلَيْه، مَا تَجِدُ أبدًا، كُلُّ عربيٍّ يُخَاطَبُ: اسْتَوَى فلانٌ عَلَى كذا، أي عَلَا عليه، اسْتَوَى اللهُ عَلَى العرشِ أي عَلَا عليه، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَلَّا يُزِيغَ قُلوبَنا، وَأَنْ يجعلَ فِي قلوبِنا نُورًا نَسْتَضِيءُ به، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

إِذَنْ إِذَا قُلْنا: اسْتَوَى بِمَعْنَى: اسْتَوْلَى ومَلَكَ، كَانَ معنى ذَلِكَ أَنَّ العرشَ كَانَ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات، ذكر الاستحباب للمرء أَنْ يَكُونَ له من كل خير حظ، رقم (٣٦١)، وأبو الشيخ فِي العظمة (٢/ ٥٦٩).

لِغَيْرِ اللهِ قَبْلَ هَذَا، وَأَنَّهُ جَرَى قتالٌ وحربٌ حَتَّى استولى اللهُ عليه، وَلَا يُمكِنُ لعاقلٍ أَن يقولَ هَذَا، ثُمَّ هَذَا جنايةٌ عَلَى النصِّ مِن وجهين:

الوجه الأول: أَنَّهُ أَبْطَلَ مَا يَدُلُّ عَلَيْـهِ مُقْتَضَى اللغةِ العربيةِ ومُقْتَضَى شهادةِ السلفِ الصالحِ.

الوجه الثاني: أَنَّهُ أَوْجَدَ للكلمةِ مَعْنًى مِن عِنْدِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ قال: اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى، فَإِذَا قَالَ: إِذَا أَثبَتَّ أَنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العرشِ كاستواءِ الراكبِ عَلَى البعيرِ -وَهَذَا تمثيلٌ- واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ فِي القرآنِ الكريمِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]، ومعلومٌ أننا إِذَا اسْتَوَيْنَا عَلَى هَـذِهِ الأشياءِ وَسَقَطَتْ أو خَرَّتْ لَسَقَطْنَا لأننا مُحْتَاجُونَ لَهَا، فَإِذَا أَثْبَتَّ أَنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العرشِ أَثْبَتَّ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إليه وَأَنَّهُ مُشَابِهٌ لاسْتِوَائِنَا عَلَى الفُلْكِ والأنعامِ؟! فنقولُ: سُبْحَانَ اللهِ، هل تُثْبِتُ للهِ ذاتًا أو لَا تثبتُ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، فَقَدْ صَاحَ عَلَى نفسِه بالخَصْمِ أي إِنَّهُ مَخْصُومٌ، وإِنْ قَالَ: لَا. فَقَدْ أَعْلَنَ عَلَى نَفْسِهِ جحودَ الخالقِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ، إِذَا قَالَ: لَا أُثْبِتُ للهِ ذاتًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَنْكَرَ اللهَ، وَإِذَا قَالَ: أُثْبِتُ للهِ ذاتًا، قُلْنَا: أليس لك ذاتٌ؟ فسيقولُ: نَعَمْ. فنقولُ: أَثْبَتَّ لنفسِكَ ذاتًا وللهِ ذاتًا، أَفَيَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ ذَاتِ اللهِ أَنْ تكونَ مُماثِلةً لذاتِكَ؟ فسيقولُ: لَا يُمْكِنُ، للهِ ذاتٌ تَلِيقُ به، ولي ذاتٌ تَلِيقُ بي، فنقولُ: أَثْبِتْ للهِ استواءً يَلِيقُ بِهِ، ولَكَ استواءً يَلِيقُ بِكَ.

والعرشُ معلـومٌ أَنَّهُ فوقَ المخلـوقاتِ كُلِّهَا، فَهُوَ سقفُ المخلـوقاتِ كُلِّهَا، وَلَا نعلمُ أَنَّ فوقَ العرشِ شَيْءٌ مِن المخلـوقاتِ، فَيَلْزَمُ مِنْ إثباتِكَ استـواءَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

عَلَى العرشِ أَنَّهُ بِمَعْنَى عَلَا، يَلْزَمُ مِنْ هَذَا عُلُوُّ اللهِ عَلَى الخلقِ، وَهَذَا معلومٌ بالفطرةِ، فنحن نؤمنُ بعُلُوِّ اللهِ عَلَى خَلقِه بالفِطرةِ بقَطعِ النظرِ عن الدليلِ العقليِّ أو السمعيِّ، ونؤمنُ بأنَّ اللهَ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ، والعجائزُ فِي قعرِ بُيُوتِهَا الَّتِي لَمْ تَقْرَأْ تَعْرِفُ أَنَّ اللهَ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ، فَهَذَا دليلٌ فطريٌّ.

وَمَنْ قَالَ: إنَّ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ مكانٍ. فقولُه خطأٌ عظيمٌ، ويَلْزَمُ مِن قولِه أَنَّ اللهَ فِي المسجدِ، وَفِي السُّوقِ، وَفِي دورِ اللَّهوِ والسينما، وَفِي الحماماتِ والمراحيضِ!! وَلَا يمكنُ لعاقلٍ أَنْ يؤمنَ بِهَذَا وَلَا لمؤمنٍ أَنْ يؤمنَ بِهَذَا، حَاشَا للهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يكونَ فِي الأرضِ، لَكِنْ مِنَ الناسِ مَنْ يعتقدُ أَنَّ اللهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مكانٍ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ حَتَّى يَلْقَوْا رَبَّهُمْ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِعُلُوِّه عَزَّوَجَلَّ وَإِلَّا لَهَلَكُوا.

وَهُنَاكَ أُنَاسٌ آخَرُون: قَالُوا: لَا تَقُلْ: إنَّ اللهَ فِي كُلِّ مكانٍ، وَلَا تَقُلْ: إِنَّ اللهَ لَهُ مَكَانٌ، بَلْ قُلِ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا مَكَانَ له، وَلَيْسَ فوقَ وَلَا تحتَ، وَلَا يمينَ وَلَا يسارَ وَلَا أمامَ وَلَا وراءَ. إِذَنْ هُوَ بقولِهِمْ هَذَا عَدَمٌ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ العلماءِ: لو قِيلَ لنا: صِفُوا اللهَ بالعَدَمِ، لَمْ نَجِدْ أَدَقَّ مِنْ هَذَا الوصفِ وَلَا أَعَمَّ مِنْهُ، إِذَا كَانَ سُبْحانَه لَيْسَ فوقَ الناسِ وَلَا تحتَهم، وَلَا يمينَ وَلَا يسارَ وَلَا أمامَ وَلَا خَلْفَ، فأينَ يكونُ؟ يكونُ عَدَمًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَلِهَذَا قَالَ مَحْمُودُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَحَدُ الأُمراءِ الَّذِينَ فَتَحَ اللهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ بِلادًا كبيرةً فِي السِّندِ والهندِ، قَالَ لِأَحَدِ علماءِ الكلامِ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ؟ قال: لَا فَوْقَ وَلَا تَحْتَ وَلَا يمينَ وَلَا يسارَ وَلَا محاطٌ وَلَا متصلٌ وَلَا منفصلٌ. فَقَالَ لَهُ: يا أَخِي،

لو قِيلَ لَنَا: صِفِ اللهَ بالعَدَمِ، مَا وَجَدْنَا أَدَقَّ مِنْ هَذَا الوصفِ. وأَنْكَرَ عَلَيْهِ إنكارًا عَظِيمًا[1].

إِذَنْ، لدينا ثلاثةُ أقوالٍ: قول يقولُ: لَا تَصِفِ اللهَ أبدًا بمكانٍ. وثانٍ يقولُ: اللهُ فِي كُلِّ مكانٍ، فَإِذَا كنتَ فِي غرفةِ النومِ يكونُ فِي غرفةِ النومِ مَعَكَ، وَإِذَا كنتَ فِي الحمامِ يكونُ معك. وحَاشَا للهِ أَنْ يكونَ فِي الحمامِ، لكنْ مَا دُمْتَ تقولُ: إنَّ اللهَ معكَ فِي كُلِّ مكانٍ كنتَ فيه، فَيُلْزِمُكَ هَذَا أَنْ تقولَ بِمَا سَبَقَ، فإنْ أَقْرَرْتَ به هَلَكْتَ، وإنْ أَنْكَرْتَ هَذَا اللازمَ كَابَرْتَ.

بَقِيَ القولُ الثالثُ: وَهُوَ أَنَّ اللهَ فِي العُلُوِّ، أي فِي السماءِ، فوقَ كُلِّ شيءٍ، وَلَيْسَ معنى قولِنَا: إِنَّهُ فوقَ كُلِّ شيءٍ، أَنَّ شَيْئًا يُحيطُ به، لَيْسَ ذَلِكَ صحيحًا، لِأَنَّ الَّذِي فوقَ المخلوقاتِ فضاءٌ، فليس هُنَاكَ إحاطةٌ، فَلَا توجدُ جُدْرَانٌ وَلَا جِبَالٌ وَلَا أشجارٌ وَلَا غيرُها، لَا يوجدُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هَذِهِ هِيَ عقيدتُنا، ونرجو اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَن يُمِيتَنا عَلَيْهَا، ونَسْأَلُ اللهَ أَن يُثَبِّتَنا عَلَى الحقِّ.

فإن قَالَ قائلٌ: أنا لَا أطمئنُّ إِلَّا إِذَا ذكرتَ لي دَلِيلًا يَدُلُّ عَلَى العُلوِّ.

قُلْنَا: عَلَى العينِ والرأسِ، فيجبُ عَلَيْنَا أَن نُبَيِّنَ لعِبادِ اللهِ مَا تَبَيَّنَ لَنَا مِن دليلِ القُرآنِ والسُّنةِ، فالعلماءُ يجبُ عَلَيْهِمْ أَن يُبَلِّغُوا مَا عَلِموا مِن شريعةِ اللهِ، لِأَنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وأرجو اللهَ أَن أكونَ منهم، نقولُ: نُعْطِيكَ الدليلَ أولًا مِن كتابِ اللهِ، وثانيًا مِن سُنَّةِ رسولِ اللهِ، وثالثًا مِن إجماعِ السلفِ الصالحِ، ورابعًا بالعقلِ، وخامسًا بالفطرةِ، فَهَذِهِ خمسةُ أدلةٍ.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٣٧)، والصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٢٨٧).

أولًا: جاءَ فِي القرآنِ فِي عددٍ مِن الآياتِ ذِكرُ وَصْفِ اللهِ بأنه عَلِيٌّ، كقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وكقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، وكقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، فَهَذِهِ آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ عَلَى عُلوِّ اللهِ.

ثَانِيًا: والسُّنةُ أيضًا دَلَّت عَلَى عُلوِّ اللهِ بالقَوْلِ والفِعْلِ والإقرارِ، أما القولُ فَإِنَّهُ ثَبَتَ عن النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- ثُبوتًا لَا ريبَ فيه، فكَانَ يقولُ فِي سجودِه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[1]، مُقِرًّا بها مُؤْمِنًا بها.

أما الفعلُ فكَانَ فِي أكبرِ اجتماعٍ للمسلمين مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حجةِ الوداعِ فِي السَّنةِ العاشرةِ فِي عرفةَ، لما خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ الخطبةَ العظيمةَ الَّتِي قررَ فيها قواعدَ الإسلامِ، وقال: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ. قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**». وجعلَ يرفعُ إِصْبَعَه إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ[2]. فأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ فوقَ عندَ قَوْلِهِ: «**اشْهَدْ**»، وأشارَ تحتَ إِلَى المشهودِ عَلَيْهِمْ فِي الأرضِ، فَهَذَا دلالةٌ عَلَى علوِّ اللهِ بالفعلِ.

أما الإقرارُ، فما رواه معاويةُ بْنُ الحكمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ جاريةٌ مملوكةٌ غَضِبَ عَلَيْهَا يومًا مِن الأيامِ، فصَكَّها، وأرادَ أَن يُعْتِقَها بَدَلًا عن صَكِّها، فأَمَرَه النَّبِيُّ ﷺ أَن يأتِيَ بها، فأَتَى بها، فقالَ لها النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منى، رقم (١٧٤١)، ومسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

«مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[١]. فَهَذِهِ جارِيَةٌ أَعْلَمُ مِن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يقولونَ: إِنَّهُ فِي كُلِّ مكانٍ، أو إِنَّهُ لَيْسَ فِي مكانٍ، فهل صَاحَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- بهذه الجـاريةِ مُنْكِرًا قولَها؟! لَا لَمْ يَصِحَّ، بل أَقَرَّه، وقال له: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، فَهَذَا إقرارٌ.

إِذَن، السُّنةُ -والحمدُ للهِ- دَلَّت عَلَى عُلوِّ الربِّ عَزَّوَجَلَّ بالقولِ والفعلِ والإقرارِ، فليس بَعْدَ هَذِهِ الأدلةِ شيءٌ.

أما إجماعُ الصحابةِ فإننا نطلبُ مِن كُلِّ مَن ينكرُ عُلُوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ دَلِيلًا واحدًا مِن قولِ الصحابةِ يقولون فيه: إنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السماءِ. مَا قَالَ أحدٌ مِن الصحابةِ: إنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السماءِ أَبَدًا، والحبلُ ممدودٌ لمن أرادَ أَن يأتيَ بدليلٍ مِن كلامِ السلفِ.

وسَأُعْطِي طلبةَ العلمِ قاعدةً مفيدةً وهي: كُلُّ مَا فِي الكتابِ والسُّنةِ فالسلفُ والصحابةُ والتابعون لَهُمْ بإحسانٍ قَدْ قَالُوا به، لأَنَّهُمْ لو كَانَ رأيُهم خِلَافَه لَبَيَّنوه، ولِذَلِكَ مِن طُرقِ إثباتِ إجماعِ السلفِ ألا يُوجدَ فِي كلامِهم مخالفةٌ لما فِي القرآنِ، فَإِنَّهُم يقرءُونَ القرآنَ صباحًا ومَساءً، ولو كَانَ عندَهم مخالفةٌ لَهُ لَبَيَّنُوها، فَانْتَبِهْ لِهَذِهِ القاعدةِ.

وكذلك الأئمةُ بَعْدَ الصحابةِ، لَيْسَ عن واحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ يقولُ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السماءِ، بل قَالَ رجلٌ للإمامِ مالكِ بْنِ أَنَسٍ إمامِ دارِ الهجرةِ إمامِ المدينةِ النبويةِ، وسَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] فقال له: يا أبا عَبْدِ اللهِ، كيف اسْتَوَى؟ فأطرقَ الإمامُ مالكٌ برأسِه، وتَصَبَّب عَرَقًا، وقال:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غَيْرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعةٌ، ثُمَّ قَالَ: وما أُرَاكَ -أي مَا أَظُنُّك- إِلَّا مُبْتَدِعًا. وأَخْرَجُوه مِن المسجدِ مسجدِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-[1]، لِأَنَّ هَذَا دَمٌ فاسدٌ وعِرقٌ فاسدٌ يجبُ أَن يُخْرَجَ كما يُخْرَجُ الدمُ الفاسدُ مِن البدنِ بالحجامةِ، فما دَامَ يُشَكِّكُ ويُضِلُّ الناسَ بالسؤالِ عن الكيفيةِ فلْنَطْرُدْه مِن المساجدِ.

فانظرْ كيف كَانَ تقديرُ السَّلَفِ لعَظَمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وحياؤُهم منه، نَسْأَلُ اللهَ أَن يُتْبِعَنا آثارَهم.

وَبَعْضُ العلماءِ ينقلُ هَذِهِ القصةِ فيقولُ: الاستواءُ معلومٌ، والمعنى واحدٌ، لَكِنِ اللفظُ الَّذِي وَرَدَ: الاستواءُ غَيْرُ مجهولٍ.

إِذَنْ، الاستواءُ معلومٌ لَا يحتاجُ إِلَى أَن يُسْأَلَ عنه، لَكِنْ هَذَا الرجلُ سَأَلَ عن الكيفيةِ، إما أَنَّهُ صادِقٌ فِي سؤالِه ويريدُ الاستعلامَ، أو أَنَّهُ يريدُ أَن يُلْزِمَ مَالِكًا بأنَّه إِذَا لم يَعْرِفِ الكيفيةَ فلْيُنْكِرِ الاستواءَ، واللهُ أعلمُ، لَكِنْ ظَنُّ الإمامِ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعلَّه هُوَ الواقعُ، وَأَنَّهُ رَجُلٌ مبتدعٌ يريدُ أَن يُفْسِدَ العقائدَ.

بَقِيَ مِن الأَدِلَّةِ عَلَى عُلُوِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **الدليلُ العقليُّ**، فهل مِن المعقولِ أَن يكونَ كاملُ الصفاتِ جَلَّ وَعَلَا أسْفَلَ المخلوقات؟! بل مِن كمالِهِ عقلًا أَن يكونَ عاليًا، فإِذَنْ العقلُ دَلَّ عَلَى أَن اللهَ لَا بُدَّ أَن يكونَ عاليًا، ثُمَّ يقالُ: هل العُلُوُّ صِفةُ كمالٍ أَمْ صِفةُ نقصٍ؟ فنقولُ: بل هُوَ صِفةُ كمالٍ، فإِذَنْ يجبُ أَن يُثْبَتَ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

أما الفطرةُ فطرةُ الإنسانِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَلَيْهَا الخلقَ، فواضحةٌ، فما قَالَ قائلٌ: يا رَبِّ. إِلَّا ويذهبُ قلبُهُ إِلَى السماءِ، وَلَا أَظُنُّ أحَدًا يَدْعُو اللهَ ويقولُ: يا ربِّ، يجعلُ يَدَيْه إِلَى الأرضِ، مَا يقولُ أحَدٌ هَذَا، وَلَا يجعلُ يَدَيْه يمينًا وَلَا شمالًا، فكُلُّ إنسانٍ يدعو اللهَ يجدُ ضرورةً بطلبِ العُلُوِّ، فَهَذَا فِطريٌّ، ولِذَلِكَ العجائزُ وعوامُّ الناسِ إِذَا لَمْ يوجدْ مَن يُضِلُّهُم ويقولُ: إِنَّ اللهَ فِي كُلِّ مكانٍ، لَا يمكنُ أَنْ يعتقدوا أَنَّ اللهَ فِي كُلِّ مكانٍ أَبَدًا .

وَلِهَذَا كَانَ أبو المعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ المُلَقَّبُ بإمامِ الحَرَمَيْنِ، يُقَرِّرُ فيقولُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ وَلَمْ يكنْ شَيْءٌ معه، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ. ليُقَرِّرَ إنكارَ الاستواءِ الَّذِي هُوَ العلوُّ، فقال لَهُ الإِسْفرائينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أستاذُ، دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ العرشِ واستواءِ اللهِ عَلَى العرشِ، مَا تقولُ فِي هَذِهِ الضرورةِ، مَا قَالَ عارفٌ قطُّ: يا اللهُ إِلَّا ووَجَدَ مِن قلبِه ضرورةً بطَلَبِ العُلُوِّ. اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بالفطرةِ، فجَعَلَ يَضْرِبُ عَلَى رَأْسِهِ: حَيَّرَنِي الهَمَذانيُّ، حَيَّرَنِي الهَمَذانيُّ، حَيَّرَنِي الهَمَذانيُّ[1]. لِأَنَّهُ لَا يقدرُ أَن ينكرَ الفِطرةَ، وَلِهَذَا رَجَعَ علماءُ الكلامِ البارزون إِلَى مذهبِ أهلِ السُّنةِ ومذهبِ السَّلَفِ فِي إثباتِ الصفاتِ، وَقَالَ بعضُهم: هَا أَنَا أَموتُ عَلَى عقيدةِ أمِّي الَّتِي مَا قَرَأَتْ علمَ الكلامِ وَلَا تَعْرِفُه.

والرَّازِيُّ -وهو مِن فُحولِ أئمةِ الكلامِ- يقولُ عن نفسِه: نَظَرْتُ فِي العُلُوِّ فِي الطرقِ الكلاميةِ والمناهجِ الفلسفيةِ فما رَأَيْتُها تَرْوِي غَلِيلًا، وَلَا تَشْفِي عَلِيلًا. ووَجَدَ أقربَ الطرقِ طريقةَ القرآنِ، اقْرَأْ فِي الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]،

---

(١) العرش، للذهبي (١/ ١٥٣).

واقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. يَعْنِي فأَثْبِتْ مَا أَثْبَتَه اللهُ، وانْفِ مَا نَفَاهُ اللهُ، وأَقُولُ: إنَّ اللهَ استوى حقيقةً عَلَى العرشِ، ولَكِنَّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، ومن جَرَّبَ مِثْلَ تجربتي عَرَفَ مثلَ معرفتي، ثُمَّ أنشدَ لِنَفْسِه أو لِغَيْرِه(١):

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

فرَجَعَ الرجلُ عن عِلمِ الكلامِ، وعن قولِ أُولَئِكَ المتكلمين الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَى اللهِ بعقولِهم، واللهِ لو رَجَعَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَّعونَ أَنَّهُمْ عُقلاءُ إِلَى العَقْلِ حَقًّا لوَجَدُوا أَنَّ طريقَتَهم مُخالفةٌ للعقلِ، لِأَنَّ العقلَ يَقْتَضِي أَنَّ الأمورَ الغَيْبِيَّةَ نَعْتَمِدُ فيها عَلَى الخبرِ وعَلَى السمعِ، وَلَا نتجاوَزُها، ولو أَنَّنا رَجَعْنَا إِلَى العقولِ لكانَ كُلُّ واحدٍ يقولُ: العقلُ عِنْدِي، ولِذَلِكَ تَجِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلَى العقلِ مُتناقِضِينَ، يُوجِبُ بعضُهم مَا يَرَى الآخَرُ أَنَّهُ مُستحيلٌ عَقْلًا أو جائزٌ عَقْلًا، والواحدُ منهم فِي كُتُبِه يَتَغَيَّرُ، فيُوجِبُ فِي بَعْضِ كُتُبِه مَا كَانَ يُنْكِرُه أَوَّلًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ قانونٌ مستقيمٌ، عقولٌ تَتَغَيَّرُ، وَلَيْسَ الحقيقةُ عقولًا، لِأَنَّ العقلَ يَقْتَضِي أَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ به عَنْ نَفْسِهِ إثباتًا أو نفيًا فالواجبُ الإيمانُ به واتِّبَاعُه إثباتًا للثَّابِتِ ونفيًا لِلْمَنْفِيِّ، هَذَا العقلُ.

فيجبُ عَلَيْنَا أَن نؤمنَ بأنَّ اللهَ تَعَالَى فوقَ كُلِّ شيءٍ، ويجبُ عَلَيْنَا أَن نؤمنَ بأَنَّه اسْتَوَى عَلَى العرشِ، أي عَلَا عَلَيْهِ عُلُوًّا خاصًّا يَلِيقُ به، ويجبُ عَلَيْنَا أَن نُنْكِرَ قولَ

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٠٩).

مَن يقولُ: إنَّ اللهَ بذاتِه فِي كُلِّ مكانٍ. وَأَنْ نَدْعُوه إِلَى أَنْ يتوبَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَهُ الموتُ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ العقيدةِ الباطلةِ، واللهِ لَا نُحِبُّ لَهُمْ إِلَّا مَا نُحِبُّ لِأَنْفُسِنَا، وَلَا نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا أَنْ نقولَ هَـذَا القولَ: إنَّ اللهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مكانٍ -سُبْحَانَ اللهِ- واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، كَيْفَ يكونُ الربُّ عَزَّوَجَلَّ فِي كُلِّ مكانٍ وَهُوَ واحدٌ؟! إِذَا قُلْنَا فِي كُلِّ مكانٍ. لَزِمَ أَن يكونَ متعددًا، أو يكونَ مُتَجَزِّئًا بعضُه هُنَا وبعضُه هُنَاكَ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قولِهِم عُلُوًّا كبيرًا.

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يهديَ هَـؤُلَاءِ إِلَى الحقِّ، وَأَنْ يَقْتَلِـعَ مِن قلوبِهم تِلْكَ العقيـدةَ الفاسدةَ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ مكانٍ، وَأَنْ يَقْدُرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه ويُعَظِّموه حقَّ تعظيمِه.

فإنْ سَأَلَ سَائِلٌ بماذا نُجِيبُهُ عن قولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]، وعَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] ؟

فالجوابُ أَنْ نقـولَ: لَا معارضةَ، فَهُوَ معنا وَهُوَ فـوقَ السمواتِ، وَلَا مانعَ، لِأَنَّ اللهَ لَيسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ، فَهُوَ عالٍ فِي عُلُوِّه، وَهُوَ مَعَ عبادِه، لَكِنْ لَيسَ بِذَاتِه، وَفِي اللغةِ العربيةِ يقولُ المسافرُ: مَا زِلْتُ أَسِيرُ والقَمَرُ مَعِي حَتَّى غَابَ. والقمرُ فِي السماءِ، فسُبْحَانَ اللهِ! فَاحْتَمَلَتِ اللغةُ العربيةُ أَنْ يقالَ: هُوَ مَعَنَا.

مثالٌ آخرُ، يقـالُ: فلانةُ المسكينةُ طَلَّقَها زوجُها، فيقـالُ: لَمْ يُطَلِّقْها، هِيَ مَعَ زَوْجِهَا. وزوجُها فِي المدينـةِ، وَهِيَ فِي مكةَ، فـ(مَعَ زَوْجِهَا) يَعْنِي هِيَ مُصاحِبةٌ له،

وَلَيْسَت مَعَهُ فِي المكانِ، فالمعيَّةُ مَعْنَاهَا المطلقُ فِي اللغةِ العربيةِ المُصَاحَبَةُ، وتكونُ فِي كُلِّ موضعٍ بحَسَبِه.

وَلِهَذَا كَانَ مِنْ دعاءِ السفرِ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**»(١). جَمَعَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا، لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، وهؤلاء الَّذِينَ يَسْتَدِلُّونَ بآيةِ المعيَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مكانٍ هُمْ مِن الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ القرآنِ وتَرَكُوا المُحْكَمَ، لِأَنَّ الجمعَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا واضحٌ، هُوَ فوقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّه مَعَ الخَلْقِ.

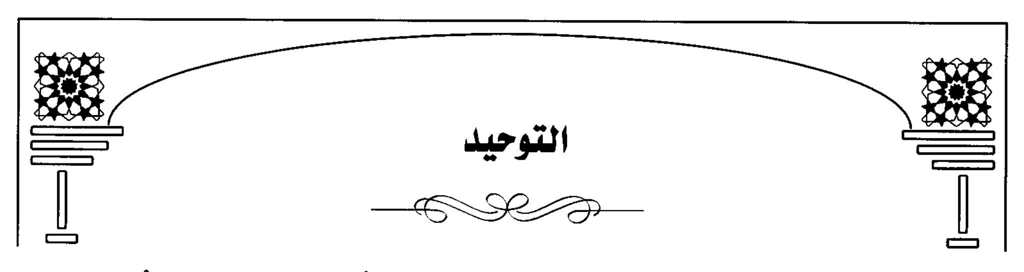
فَإِذَا كَانَ اللهُ يَعْلَمُ بِكَ وَيَسْمَعُ قَوْلَكَ وَيُبْصِرُ فِعْلَكَ، فإِذَنْ هُوَ مَعَكَ وَلَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ، الأَمْرُ وَاضِحٌ وللهِ الحمدُ، أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَوَفَّانِي وَإِيَّاكُمْ عَلَى هَذِهِ العقيدةِ عقيدةِ أَنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ، وَأَنَّهُ وَاسِعُ العِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالسُّلْطَانِ.

والعقيدةُ لَهَا فُرُوعٌ تَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ وَاجِبًا أَنْ نُبَيِّنَها، ولَكِنْ إِذَا لَمْ تَسْتَطِعِ الكُلَّ فَخُذْ بِالبَعْضِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَا لَا يُدْرَكُ جُلُّهُ لَا يُتْرَكُ كُلُّه، نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢).



التوحيد

إن الحمدَ للهِ نحمده ونَستعينه ونَستغفره، ونعوذُ باللهِ مِن شُرُور أنفُسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أرسله الله تَعَالَى بالهدى ودِين الحقِّ رحمةً للعالمينَ، وقُدوةً للعامِلينَ، وحُجَّةً عَلَى الَّذِينَ أُرسلَ إليهم أجمعينَ، فبَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ فِي اللهِ حقَّ جهادِهِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فإن الأُمَّة كانتْ قبل بَعثة النَّبِيِّ ﷺ فِي جاهليَّةٍ عمياءَ، وضلال، عَلَى غير هُدًى، وتَشَتُّت وتفرُّق وقِتال وانتحار، فيَنحر بعضُهم بعضًا، ويضرِب بعضُهم رِقابَ بعضٍ.

ولما كانَ النَّاس فِي أشدِّ الضرورةِ إِلَى الرسالاتِ الإلهيَّة، وكانوا أشدَّ إليها من الحاجَة للطعامِ والشرابِ؛ أرسلَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى حِينِ فَترةٍ مِنَ الرُّسُل، وانطماسٍ مِن السُّبُل، فبعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي أُمِّ القُرى، وكان أول ما دعا إليه توحيد الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِي خلَقَ اللهُ مِن أَجلِه الخَلْقَ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] أي: يُوحِّدوني فِي العبادة.

وكما قالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومِن أَجْلِ تحقيقِه قامتِ المعاركُ الكلاميَّة والقتـاليَّة بين الرسُل وأعدائِهم، ولكن كانَ النصرُ للرُّسل وأوليائهم؛ إما فِي الدُّنيا وإما فِي الآخرة؛ كما قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعـالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

وبقيَ النَّبيُّ ﷺ فِي أوَّل رسالتِه يدعـو النَّاس إِلَى تحقيقِ توحيدِ اللهِ؛ بقي عَلَى ذلك أكثرَ مِن عَشْرِ سنواتٍ لم تُفرَض عليه صَلَاة ولا زَكاة ولا صِيام ولا حَجٌّ، كل هَذَا مِن أَجْلِ تحقيقِ التَّوْحِيد؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا حقَّق توحيد الله عَزَّوَجَلَّ سهُلت عليه بقيَّة العباداتِ؛ إذ إِنَّ العباداتِ إِلَى التَّوْحِيد بمنزلة الماءِ إِلَى الشجرِ يَروي التَّوْحِيدَ ويُبقي حياتَه، فهو الأصل.

ولما عُرج بالنبي ﷺ قبل الهجرةِ إما بِسَنة أو بثلاث سنواتٍ؛ لما عُرج به ﷺ فَرَضَ اللهُ عليه الصلواتِ الخمسَ، ولما هاجر فرضَ الله عليه الصِّيَامَ فِي السنةِ الثَّانيةِ مِن الهجرةِ، والسَّنةُ الثَّانيـةُ مِن الهجرةِ تمثِّل بالنِّسْبَة للبَعثة خمسَ عشْرةَ سَنـةً، يعني لم يُفرَض الصِّيَام إِلَّا بعدَ خمسَ عشْرةَ سَنة مِن البعثةِ.

ولما فتحَ اللهُ مَكَّة فِي السَّنَةِ الثـامنةِ مِن الهجرةِ، وكانت مَكَّة بلادَ إسلامٍ بَعد أن كانتْ بلادَ كُفرٍ، فَرَضَ اللهُ عليه الحجَّ.

إذنْ كل إِنْسَان عاقل يَفهَم تدرُّجَ الشريعـةِ عَلَى هَذَا الوجهِ، فيَعلم أن أهم شيءٍ فِي شريعة رسول الله ﷺ كما فِي شريعة غيرِه هُوَ تحقيق التَّوْحِيد.

وبأيِّ شيءٍ نوحِّد اللهَ؟

أوَّلًا: التوحيدُ في العِبادة:

يُوحَّد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادةِ، فلا نَعبُد غيرَه؛ لا مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبِيًّا مُرسَلًا، ولا زعيمًا دِينيًّا، ولا زَعيمَ سلطانٍ، وإنما نعبدُ اللهَ وحدَه لا شريكَ له فقط.

ثانيًا: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في الخَشيةِ:

والخَشيةُ هي الخوفُ المقرونُ بالعِلمِ؛ لأنَّ الخوف قد يكونُ سببه عَظَمَةَ المَخُوف، وعِلم الخائف بذلك، وحينئذٍ يكون خشية، وقد يكون سببُ الخوفِ ضعفَ الخائفِ وجهلَه بحقيقةِ المَخوف، وحينئذ نقول: إنه خَوْفٌ ولا نقول: إنه خَشية.

ودليل ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]. وهل هُم العُلَماء بالذَّرَّة، وبالتكنولوجيا، وبقِيعان البِحار، وبِطَبَقات الأرض؟

الجواب: لا، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ باللهِ، وبما له منَ العظمةِ، وبما له مِن الصِّفَاتِ، وبما له مِن الحقوقِ، وبما له مِن الحكمةِ، وبما له من السُّلطان، إِلَى غير ذلك مِن صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأحكامِه الكونيَّة والشَّرعيَّة، فهَؤُلاءِ هُم العُلَماء، فأفقهُ النَّاسِ وأعلمُ النَّاسِ هم العُلَماءُ باللهِ.

إذن أُفرِدُ اللهَ بالخشيةِ، لا أخشى غيرَ اللهِ؛ كما قالَ الله تَعالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤].

وقال تَعالَى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فإنْ قالَ قائلٌ: ما علامة خشيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

فالجواب عَلَى ذلك سهل: علامةُ خشيةِ الله أن تتقيَ اللهَ فِي السرِّ والعلانيَة، يعني تمتثِل أمرَ اللهِ وتَجتنب نَهْيَه، سواء كُنتَ فِي سِرٍّ أو فِي عَلَنٍ؛ لأنك إنَّما تخاف مِن الله وحدَه، ولا يُهِمُّك النَّاسُ.

وهذا الأمرُ -أعني الخشية- أمرٌ مهمٌّ بالنِّسْبَة للعبادِ؛ لأننا نرى مِن النَّاس مَن يخشى عِبادَ اللهِ أكثرَ ممَّا يخشى اللهَ، لَيْسَ كمَن قالَ الله فيهم: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

وفِي حديث عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[1].

وكثير مِن النَّاس -مَعَ الأسفِ- عنده دِينٌ، لكن فِي مَقام الرئاسةِ أو الجاهِ أو الشَّرَفِ يَخشَى النَّاسَ، ويخاف إنْ ظَهَر عليهم بشيءٍ أَنْ يَفقِد مَنصِبَه، وهذا الرأي والفِكر إنَّما وُرِّثَ عن المشركينَ الَّذِينَ رَدُّوا ما جاءتْ به الرسلُ حِفاظًا عَلَى جاههم وشَرَفِهم.

أما المؤمنُ حقًّا فإنَّه يعلَم أنَّه إذا أسخطَ النَّاسَ برضا اللهِ كانت العاقبة أنْ يَرضَى اللهُ عنه، ويرضى عنه النَّاسُ، أما إذا أَرضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ فستكون العاقبة أنْ يَسخَط اللهُ عليه ويُسخِط عليه النَّاسَ؛ لأنَّ قلوب العبادِ بيدِ اللهِ؛ كما صحَّ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّه قالَ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ،**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم (٧١٩٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، رقم (١٧٠٩).

كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1].

اللَّهُمَّ مُصرِّف القلوبِ صَرِّفْ قلبي إِلَى طاعتِك، اللَّهُمَّ مُصرِّف القلوبِ صَرِّفْ قلبي إِلَى طاعتِك، اللَّهُمَّ مُصرِّف القلوبِ صَرِّفْ قلبي إِلَى طاعتِك.

والقائلُ هَذَا رسول الله ﷺ المعصومُ، فما بالُك بنا نحن، وإن العلماءَ فِي هَذَا المقام يَنقسمونَ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: علماء دَولة، وعلماء أُمَّة، وعلماء مِلَّة.

وعلماء الدولة: هم الَّذِينَ يَنظرون ماذا تريد الدولةُ فيجعلونه الحقَّ، ولو كانَ باطلًا، هَؤُلاءِ عَلَى خطرٍ عظيمٍ، قد ضيَّعوا الأمانةَ، ولم يَقُوموا بما أمرَ اللهُ به مِن نَشْرِ العلمِ الَّذِي جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ، بل كَتَموه اتِّباعًا لأهواءِ مَن يريدون إرضاءَه مِن دَولتِهم الَّتِي تريد منهم أَنْ يقولوا بغير الحقِّ.

وما أكثرَ هَؤُلاءِ، ولكنهم -والحمدُ للهِ- ليسوا أكثر النَّاس، لكنهم كثيرون.

ونَحْنُ نذكر أَنَّه حينما قامتْ فِكرة الاشتراكيَّة فِي الدولِ العربيَّة قام أُناس مِن العُلَماء يقولون: إن الاشتراكيَّة مِن الإسلامِ، ثمَّ يستدلُّون بأدلَّةٍ تُرضي الحُكَّام ولا تُرضي اللهَ. يقولون: إن الله قالَ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]. قَالُوا: قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ يعني الاشتراكية، مَعَ أن هَذَا داخلٌ فِي المنفيِّ، يعني هل أنتم سواء فِي أموالكم أنتم ومَن كانوا عبيدًا عندكم؟

الجواب بالنفي وليس بالإيجاب: لَسْتُم سَواء.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تَعَالَى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

وقَالُوا أيضًا: إنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: «النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ؛ فِي المَاءِ وَالكَلَأِ وَالنَّارِ»(١).

فهَذَا لا يدلُّ عَلَى ما ذهبوا إليه، بل يدلُّ عَلَى عكسِ ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ تخصيص الاشتراك فِي هَذِهِ الثَّلاثة يدلُّ عَلَى أن ما سِواها لَيْسَ مشتركًا.

يقولون: إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمرَ مَن كانَ عنده فضلُ أرضٍ أَنْ يَزْرَعَه أو يَمْنَحَه(٢)، وهذا قد يكون لهم فيه نوع تمسُّك، لكنه مِن النصوص المشتبِهة، وطريق الراسخينَ فِي العلمِ مِن النصوص المشتبِهة أَنْ يَحمِلوها عَلَى النصوصِ المحكَمة؛ لتكونَ النصوصُ كلُّها محكمةً، أما مَن يَتَّبعُ المتشابِهَ ويَدَع المحكَم فقد وَصَفَهُمُ الله تَعَالَى بأقبحِ وصفٍ، فقالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧].

وأنشدوا قول الشاعرِ يُخاطِب النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٣):

وَالِاشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ ....

وكذبَ الشاعرُ، بل إنَّ النَّبِيَّ ﷺ إمام أهلِ العدلِ ودفعِ الظُّلمِ، وليس إمامَ أهلِ الظُّلم.

وإنما ضربتُ هَذَا مثلًا لِيَتَحَقَّقَ به ما قلنا: إن مِن النَّاس مَن يكون مِن عُلماء الدولةِ، ومِن النَّاس مَن هُوَ مِن علماء الأُمَّة.

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب الإجارة، باب في منع الماء، رقم (٣٤٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المزارعة، باب ما كان من أصحاب النبي ﷺ يواسي بعضهم بعضًا في الزراعة والثمرة، رقم (٢٣٤٠)، ومسلم: كتاب البيوع، باب كراء الأرض، رقم (١٥٣٦).

(٣) صدر بيت لأحمد شوقي من قصيدة وُلد الهُدَى. الشوقيات (ص:٣٢)، ط دار الكتب العلمية.

وعالم الأُمة: ينظر ماذا يَصلُح للمجتمع فيُفتي به، وينظر ما يَنفِر منه المجتمعُ فيسكُت عنه، فيسكُت عنه قولًا، أو يسكت عنه عملًا، فتجده يدع كثيرًا مِن السُّنَن؛ لأنَّ النَّاس يَنفِرون منها، وهذا أيضًا خطأٌ عظيمٌ.

والواجبُ عَلَى الإِنْسَان أَنْ يقولَ الحقَّ، ولا يخشى فِي اللهِ لومةَ لائمٍ، وإذا كانَ بين قومٍ قد يُفسِد عليهم أمرَهم إذا قالَ ما يجهلون، أو فَعَلَ ما يجهلون، فبإمكانه أَنْ يستعمل أسلوبَ الحِكمة.

وأسلوب الحكمةِ أنْ يَقولَ للنَّاسِ قبل أَنْ يقومَ بالفعلِ: إنَّ مِن هَدْيِ النَّبِي ﷺ كذا وكذا، إنَّ مِن هَدْيِ النَّبِي ﷺ كذا وكذا، حتَّى يُوَطِّنَ نفوسَهم عَلَى هَذَا، ثمَّ بَعد ذلك يأتي التطبيقُ عَلَى قلوبٍ مطمئنَّة.

وأنا أضرِب مثلًا بما يُخِلُّ به كثيرٌ من النَّاس اليومَ فِي الصَّلاةِ، وهو تسويةُ الصُّفوفِ، وتسويةُ الصفوفِ فِي الصَّلاةِ أمرٌ واجبٌ كما تدلُّ عليه أحاديثُ كثيرةٌ، منها أمر النبيِّ ﷺ بذلك: «**سَوُّوا صُفُوفَكُمْ**»[1].

ومنها ما فِي حديث النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ؛ أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانَ يسوِّي الصفوفَ حتَّى كأنما يُسوِّي بها القِداح، فخرج ذاتَ يومٍ وتقدَّم ليصليَ، فرأى رَجُلًا باديًا صَدْرُه، يعني مُتَقَدِّمًا، فقال: «**عِبَادَ اللهِ، لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ**»[2]. يعني: إذا لم تُسَوُّوها، وأهلُ العلمِ بالعربيَّة يعلمون أن الجملتين

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، رقم (٧٢٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، رقم (٧١٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف ... رقم (٤٣٦).

مُؤَكَّدَتَانِ بثلاثة موكداتٍ: القَسَم واللام والنـون، فمعنى «لَتُسَوُّنَّ» والله لتسـونَّ «أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ» أي: أو واللهِ لَيُخالفنَّ. فشيءٌ يَتَوَعَّدُ عليه الرَّسُول ﷺ عَلَى تركِه بهذا الوعيد أَنْ يُخالف الله بين الوجوه لا يكون حُكْمُه قاصرًا عَلَى الاستحبابِ، بل هُوَ للوجوب.

والمخالفةُ بين الوجوهِ هل هِيَ مخالفةٌ مَعنويَّة أو مخالفة حِسِّيَّة.

فِي هَـذَا قولان للعلماءِ فِي شرح الحَـدِيث. بعضهم يقول: لَيُخـالِفَنَّ الله بين وجوهكم، بمعنى أَنْ يَكُونَ وجه هَذَا عن يساره والثَّاني وجهُه عن يمينه، فلا يكون وجهُه تِلقاء وجهِه، بل إما عَلَى اليمين أو عَلَى اليسار، ومنهم مَن قالَ: إِنَّ اختلاف الوجوهِ اختلافٌ معنويٌّ، أي: لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بين وِجْهَاتِ نَظَرِكم، وهذا الأخيرُ أصحُّ؛ بدليل قولِه فِي الرواية الأخرى: «أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ»(١)، والقلب كما نعلم هُوَ المدبِّر للجسدِ.

وبعض الأئمَّة الآن إذا أُقيمت الصَّلاة وتقدَّم ليصليَ بالجماعةِ قد يلتفِت وقد لا يلتفِت، وقد يقول: اسْتَوُوا، وقد لا يقول، وإذا قالَ: اسْتَوُوا، فكأنما يقولها عَلَى أنها بِمَنزِلة عادة، أو شريطٍ مُسَجَّل، فقد يقول: استووا ويجد الصفَّ مائلًا تمامًا، ولا يقول: تقدَّمْ أو تأَخَّرْ، فما هِيَ الفائدة مِن هَذِهِ الكلمة! فليس فيها فائدة الآن أبدًا.

ولهذا نجد بعض الأئمَّةِ جزاهم الله خيرًا إذا وجـدوا الصفَّ لم يكنْ مُستوِيًا وقـفَ واستقبلَ الصفَّ بوجهِه كما كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يفعـل وقال: استووا، تَقَـدَّمْ يا فُلَانُ، تأَخَّرْ يا فُلَانُ، حتَّى يبقى الصف مستويًا تمامًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٦٦٢).

لكن الصِّنف الأول مِن الأئمَّة لا يَفعل مِثل هَذَا الفعل، ولا يقول مِثل هَذَا القول؛ لأَنَّه يَخشَى مِن اعتراضِ بعضِ الجُهَّال عليه، وفي الحقيقة أَنَّه لا ينبغي له هَذَا الشَّيْء: أولًا لأَنَّه إمام، والإمام متبوعٌ، وثانيًا: لأَنَّه ينبغي لكل إمامٍ مِن أئمَّة المَسَاجِد أَنْ ينظرَ هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ كيف يَؤُمُّ النَّاسَ، وكيف يفعل حتَّى يهتديَ بِهَدْيِه ويتَّبع سُنَّته.

مثالٌ آخرُ، ونحن نضرب الأمثلةَ لعلَّ الله أَنْ ينفع بها: أهل العِلم يعلمونَ أن سجود السَّهْو له أحوال؛ فإذا سَهَا الإِنْسَان فِي صلاتِه فإنه أحيانًا يسجد للسهو قبل السَّلامِ، وأحيانًا يكون بَعد السَّلام، فيكون قبل السَّلامِ في موضعينِ، ويكون بعدَ السَّلامِ فِي موضعينِ.

أما الموضعان اللذان يكونان قبل السَّلام فهما:

الموضع الأول: إذا تَرك واجبًا مِن واجباتِ الصَّلاةِ، سواء كانَ قوليًّا أو فِعليًّا، وإذا شكَّ فِي عدد الركعاتِ ولم يترجَّحْ عنده شيءٌ، فإنَّه يَبني عَلَى الأقلِّ ثمَّ يسجدُ للسهوِ قبلَ السَّلامِ.

وكل هذا ثبت عنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أما الأول فقد ثبت عنه -صلوات الله وسلامه عليه- أَنَّه نسي التَّشَهُّد الأَوَّل وقام، فلمَّا قضى الصَّلاةَ وانتظرَ النَّاسُ تسليمَه كبَّر فسجدَ سجدتينِ ثمَّ سَلَّم [1].

فَقَدْ ترَكَ واجبًا مِن واجباتِ الصَّلاةِ، وسجد قَبْلَ السَّلامِ، والحِكمة مِن هَذَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من لم ير التشهد الأول واجبًا؛ لأن النبي ﷺ قام من الركعتين ولم يرجع، رقم (٨٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٠).

لأَنَّه سجدَ عن نقصٍ، فكانَ الأَولى أَنْ يجبُر النقصَ قبل أَنْ يُسَلِّمَ.

مثال: رَجُلٌ نسيَ أَنْ يقول: سبحانَ ربِّي العظيم فِي الرُّكُوع، يعني أَنَّه ركع ولكن لم يقل: سبحان ربي العظيم، ثمَّ رفع، فإن يسجد قبل السلامِ؛ لأَنَّه ترك واجبًا وهو قول: سبحان ربي العظيم.

رجل آخرُ نسي أَنْ يكبِّر للسجود، فسجد ونسي أَنْ يكبرَ، فإنه يسجد قبل السَّلامِ؛ لأَنَّه ترك واجبًا.

والموضع الثَّاني ممَّا يكون فيه السُّجُود قبل السَّلامِ إذا شكَّ في عددِ الركعاتِ، ولكنه لم يترجَّح عنده شيءٌ، فشكَّ هل صَلَّى ثلاثًا أَمْ أربعًا، ولم يترجَّح عنده أنها أربعٌ أو ثلاثٌ، فيجعلها ثلاثًا، ويكمل عليها الرَّابعة، ويسجد قبل أَنْ يُسَلِّمَ، هكذا ثبت عنِ النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ، وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ**»[(١)].

ويكون سجود السَّهْو بعد السَّلامِ فِي موضعينِ:

الموضعُ الأولُ: إذا زادت الصَّلاة ركوعًا، أو سجودًا، أو قيامًا، أو قعودًا، فإذا زاد فِي الصَّلاة فإنَّ سجودَ السَّهْو يكون بعد السَّلامِ.

ومثال الزيادة: صَلَّى خمسَ ركعات، ولم يعلمْ بذلك إلا وهو فِي التَّشَهُّد، فهنا يسجد بعد السَّلامِ، يعني فِي التَّشَهُّد الأخير ذَكر أَنَّه صَلَّى خمسًا، فنقول: كَمِّل وَصَلِّ واسجدْ بعد السَّلامِ؛ لأنَّ النَّبي ﷺ صَلَّى خمسًا وسَلَّم، فأخبروه أَنَّه صَلَّى خمسًا،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧١).

فسجد سجدتينِ بعد السَّلامِ[١].

إذن الزيادةُ تكون بعد السَّلامِ.

مثال: لو ركعَ شخصٌ مرتينِ ناسيًا، فإنه يسجدُ بعدَ السَّلامِ، ولو سجد ثلاثَ مراتٍ فإنه يسجد بعد السَّلامِ.

الموضع الثَّـاني: إذا شك فِي الصَّلاة فِي عـدد الركعاتِ، وتَرَجَّح عنده أحـدُ الطرفينِ؛ فإنَّه يبني عَلَى الراجِح، ويسجد بعد السَّلامِ.

مثال ذلك: رجل يُصَلِّي الظُّهْر والآن هو فِي الركعة الرَّابعة وشكَّ: هل هَذِهِ الرَّابعة أو الثَّالثة، لكن ترجَّح عنده أنها الثَّالثة، فإنه يأتي بالرَّابعة ويسجد بعد السَّلامِ، ولو ترجَّحَ عنده أنها الرَّابعةُ فإنه لا يأتي بركعة، فيُكمل ويسجد بعد السَّلامِ؛ هكذا ثبتَ في السُّنة؛ كما فِي حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ مَن شكَّ فِي صلاتِه أَنْ يتحرَّى الصوابَ ويَبْنِيَ عليه ثمَّ يسجد سجدتين بعد أَنْ يُسَلِّمَ[٢].

فعرفنا الآن أن سجود السَّهْو منه ما يكونُ قَبل السَّلامِ، ومنه ما يكون بَعد السَّلام.

ومِنَ الأئمَّة مَن لا يسجد إِلَّا قبل السَّلام دائمًا، فتموت السُّنَّة الأخرى وهي السجود للسَّهو بَعد السَّلام، ولهذا يُنكِر العوامُّ السُّجُودَ بَعد السَّلام، فمِنَ الأئمَّة مَن يخاف منهم، ويجعلون سجودهم دائمًا قبل السَّلام.

(١) أخرجه البخاري: أبواب ما جاء في السهو، باب إذا صلى خمسا، رقم (١٢٢٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢/ ٩١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

نقول: هَذَا خطأٌ، وهَذَا نُسَمِّيه عالِمَ أُمَّة.

كذلك فِي مسائل، مِثل مسائل البُيوع، ومسائل التأمين، ومسائل الرِّبَا، بعضُ العُلَمَاء إذا رأى اتجاه النَّاس إِلَى شيءٍ ذَهَب يُحلِّله، وإنْ كانَ يَعلم أو يغلِب عَلَى ظنه أن الشَّرع حرَّمه.

القِسمُ الثَّالث مِن العُلَمَاء: عالم المِلَّة الَّذِي يريد إحياء مِلَّة الرَّسُول ﷺ رضيَ النَّاس أَمْ كَرِهُوا، هَذَا هُوَ أفضلهم، بل الفضل له عَلَى غيره، فهَذَا لا يخافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائمٍ، فيبيِّن الحقَّ ويعمل بالحقِّ؛ رضيَ النَّاس أَمْ سَخِطوا، اعترضوا أَمْ سَكَتوا؛ لأنَّه يريد إحياء مِلَّة الرَّسُول ﷺ.

لذلك نقول: هَذَا الرَّجُل هُوَ الَّذِي خشيَ اللهَ وقدَّم خشيةَ اللهِ عَلَى خشيةِ النَّاسِ.

ثالثًا: التَّوْحِيد فِي المَحَبَّة:

التَّوْحِيد فِي المَحَبَّة، أي أن تملأَ قلبَكَ بمَحَبَّة اللهِ ومَحَبَّة رسولِ اللهِ ﷺ.

ومَحَبَّةُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تابعة لمَحَبَّة الله، فلولا أنَّه رسول رب العالمينَ لم يجِبْ علينا له مِن الطاعةِ والمَحَبَّة كما وجب حين كانَ رسولُ رَبِّ العالمين.

إذن مَحَبَّة الرَّسُول ﷺ ووجوبُ العملِ بسُنته كلاهما تابع لمَحَبَّة اللهِ، فالأصلُ كُلُّه مَحَبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، فلا بُدَّ أن توحد الله بالمَحَبَّة وأن تجعل مَحَبَّة ما سِواهُ تابعةً لمَحَبَّة اللهِ، ولكن مَعَ الأسف أن كثيرًا مِن النَّاس اليوم -نسألُ اللهَ أَنْ يحمِينا وإياكم- يُحب مَعَ الله، بل قد يُحب دونَ الله، فتجده يُقَدِّم الدُّنيا عَلَى ما يُرضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فيُقَدِّم مَحَبَّةَ الزَّوْجة عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ، ويُقدِّم مَحَبَّةَ الولدِ عَلَى مَحَبَّة الله، ويُقَدِّم مَحَبَّةَ الصديقِ

عَلَى محَبَّة الله، وهذا شِرك قد يصل إِلَى الشركِ الأكبرِ، وقد يكون دون ذلك، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] مِن هَؤُلاءِ لِأَنْدَادِهِم.

فالمَحَبَّةُ فِي الحقيقةِ -يا إخواني- هِيَ الَّتِي تُحرِّك الإرادةَ، والإِنْسَان إذا أحبَّ شيئًا فإنه يتحرَّك لإرادتِه والوصول إليه.

أقول: المَحَبَّة هِيَ المحرِّك للإرادةِ، فإذا كنتَ تحبُّ الله فلا بدَّ أن تَحمِلك هَذِهِ المَحَبَّة على إرادةِ مرضاتِه، وأضرب مثلًا بسيطًا: إذا كنت تحب صديقًا لك، فإنك تُسارع لما يحبُّ هَذَا الصديق، فإذا وَعَدَك موعدًا لم تُخْلِفْه، وإذا طلب منك شيئًا لم تَمْنَعْهُ، فتنظر ماذا يَشتهي وتحقِّقه له، فالمَحَبَّة هِيَ المحرِّك للإرادةِ، والإرادة مَعَ القُدرة مُوجِدة للفعل.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ انْتَظِرُوا العذابَ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

إذن لا بُدَّ أن نُوَحِّدَ اللهَ بمحبَّته عَزَّوَجَلَّ، ولكن مَعَ الأسَف أنَّه يوجد أناس من المُسْلِمِينَ يُفرِدون الرَّسُول بالمَحبَّة، ولا يُحبون اللهَ كمَحَبَّة الرَّسُولِ، فيُفردون الرَّسُول بالمَحَبَّة التامَّة ولا يحبون اللهَ كمَحَبَّة الرَّسُول، وهذا خطأ عظيم، فمَن الَّذِي أرسلَ الرَّسُولَ؟ اللهُ، ومَنِ الَّذِي خَلَقَهُ؟ اللهُ، ومَنِ الَّذِي شَرَعَ له الشَّرعَ؟ اللهُ، فكيف تُفرِد عبدًا مِن عَبيدِ الله بِقِمَّةِ المَحَبَّة دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهَذَا خطأ.

ولْيعلمْ هَذَا الفاعل أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَرضَى هَذَا أبدًا، فلا يرضى مِنَّا أن نقدِّم محبَّته عَلَى مَحَبَّة اللهِ.

وقد قالَ رَجُلٌ للنبي ﷺ ذات يومٍ: ما شاء اللهُ وشئتَ، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1]، وإذا كانَ لا يجوزُ للمسلمِ أَنْ يُقدِّم مَحَبَّة رسولِ اللهِ ﷺ الَّذِي هُوَ أفضلُ الخَلقِ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ، فما دون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، فلا يجوز أن نقدِّم مَحَبَّة آبائِنا أو أمهاتنا أو أنفسنا أو عُلمائنا أو مشايخنا عَلَى مَحَبَّة اللهِ أبدًا، بل ولا نُسوِّي مَحَبَّة هَؤُلاءِ بمحبَّةِ اللهِ؛ فإن مَحَبَّة اللهِ هِيَ الأصلُ، فالمتحابُّون إذا تَحابَّوْا فِي اللهِ انتفعوا بالمَحَبَّة، وإذا تَحابَّوْا في غير ذلك فقد تكون المَحَبَّة ضررًا، وقد تكون لا له ولا عليه.

فإذا قالَ قائلٌ: ما هِيَ علامة مَحَبَّة الله؟ وكُلنا نقول: نَحْنُ نُحب اللهَ، ونسأل اللهَ أَنْ يُحقِّق هَذِهِ المَحَبَّة فِي قُلوبنا، ولكن ما هِيَ العلامة؟

الجواب: قال الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، هَذَا ميزان المَحَبَّة؛ لأنَّ المَحَبَّة -كما ذكرتُ آنِفًا- تَحمل عَلَى الإرادةِ، فإذا أحبَّ الإِنْسَانُ ربَّه فلا بدَّ أَنْ يَتعبَّد له بشرعِه، وشرعُه هُوَ ما جاء به رسولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واتباع الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الذي يُحقِّق مَحَبَّة الله.

واتباعُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ محفوفٌ بمحبَّتَينِ؛ مَحَبَّة سابقة، ومَحَبَّة لاحِقَة:

المَحَبَّةُ السابقة مِن الإِنْسَان، والمَحَبَّة اللاحقة مِن الله، واللَّاحقة أعظمُ ثمرةً، قال الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ فهَذِهِ مَحَبَّة سابقة ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥٧١، رقم ١٨٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد، رقم (٧٨٣).

يُحببكم الله هِيَ اللَّاحِقة، وهي الأصل، وهي النافعة، ولهذا لم يَقُل الربُّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: فاتَّبِعوني تَصْدُقوا فِي مَحَبَّتكم للهِ فتتبعوني، بل قال: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني هَذِهِ الثمرة، ولهذا جاء فِي الدُّعاء المأثور: «وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ»[1].

إذن المَحَبَّة لا بُدَّ مِن توحيد الله تَعَالَى بها، بحيثُ لا يكون أحدٌ مِن الخَلْقِ مساويًا لله فِي هَذِهِ المَحَبَّة، ومَحَبَّةُ الخَلق كلهم تابعة لمَحَبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه -أعني المَحَبَّة التابعة لمَحَبَّة الله- هِيَ النافعةُ، أما المَحَبَّة الطبيعية أو المَحَبَّة لِغَرَضٍ دُنيويٍّ، فهذه قد تنفَع وقد تضرُّ، لكن المَحَبَّة النافعة هِيَ مَحَبَّة الله عَزَّوَجَلَّ.

فهَذِهِ ثلاثةُ أُمورٍ: توحيدُ الله فِي العِبادةِ، وفي الخَشية، وفِي المَحَبَّة.

رابعًا: توحيدُ الله في الإِنَابَةِ:

وهناك أيضًا مسألةٌ رابعة نَذْكُرُها، وهي توحيدُ الله فِي الإنابةِ، ومِن فُروعها الدُّعاء، فنُوَحِّدُ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالدُّعاء، يعني لا ندعو غيرَ اللهِ؛ لأنَّ غير الله عَزَّوَجَلَّ لا يَملِك لنا شيئًا، لاسيَّما إن كانَ ميتًا، فإن المَيِّتَ جُثَّة، إن كانَ مِن غيرِ الأنبياءِ فالأرضُ قد أكلتْه عَلَى الأصل، وإن كانَ مِن الأنبياءِ فالأرضُ لا تأكُل أجساد الأنبياءِ؛ فإن الله حرَّم عَلَى الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياءِ[2]، أمَّا غيرُ الأنبياءِ فإن الأصلَ أن الأرضَ تأكلُه، فلا يُمكِن أَنْ ينفعَ أحدٌ مِن الأمواتِ أحدًا مِن الأحياءِ أبدًا؛

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، رقم (٣٢٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾، فسمَّى اللهُ دعاءَهُم شِركًا ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

إذن لا يَحِلُّ لنا أن نَدْعُوَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو نقول: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنَا، فالرسول ﷺ مَيِّتٌ، واستمِعوا إِلَى أمرِ اللهِ له حيثُ يقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١] هَذَا بالنِّسْبَة لغيره ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢٢] هَذَا بالنِّسْبَة له هُوَ.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [لأعراف:١٨٨]، هذا لِنَفْسِهِ، فكيف بغيره!

وقال الله له: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام:٥٠]، يعني أنا عبدٌ أَتَّبِـع ما يُوحَى إليَّ، أمَّا أَنْ أَمْلِك هَذِهِ الأشياءَ فلا.

وانظر كيف يَتلاعَب الشيطانُ بالإِنْسَان، فأيُّ فَرْقٍ بالنسبة للإِنْسَان بين أنْ يَقولَ القائل: يا ربِّ اغفِرْ لي، أو يقول: يا رسولَ اللهِ، اغفرْ لي؟ أقول: أيُّ فرقٍ عَلَى اللسانِ؛ هل يَتْعَبُ مِن الأُولى ولا يَتْعَبُ مِن الثَّانية؟ أبدًا.

لكن الشيطان يُسَوِّلُ له أَنْ يدعوَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا يدعو ربَّ الرَّسُولِ، مَعَ أن الرَّسُول لا يملِك له شيئًا أبدًا، والرَّسُول ﷺ لو عَلِم بدعاءِ هَذَا الرجلِ له

لَغَضِبَ ولم يَرْضَ بذلكَ، فإذا كان أَنْكَرَ على مَن قالَ: «**مَا شَاءَ اللهُ وشِئْتَ**»[١]، فما بالُ مَن يَدْعُوه مِن دُونِ اللهِ!

إذن يا إخواني، يجب عليكم أنتم يا طلبةَ العِلم، وأنتم فِي هَذَا البلدِ؛ فِي مَسْجِدِ رسولِ اللهِ ﷺ وعند قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ إذا رأيتم مَن يدعو الرَّسُولَ أن تُبيِّنوا له، فتقول: لا تُقضَى حاجتُك إِلَّا من عند الله عَزَّوَجَلَّ وتقولون له: الرَّسُول لا يريد هَذَا ويَغضَب منك، ويَغضَب من هَذَا الفعل، ولا يَرضَى هَذَا الفعلَ، فبدلَ أن تقولَ: يَا رَسُولَ اللهِ قلْ: يا الله.

وما أحسنَ ما سمِعت عن شخصٍ من العُلَماء؛ أَنَّه قدم مَكَّة فِي زمانٍ سابقٍ، وكان فيها شيخٌ يقرأ أو يُدرِّس، فأعجبه كلامُه، أي أَعجبَ هَذَا الرجلَ كلامُ الشيخِ، فلما أراد أَنْ يقومَ مِن الكرسيِّ بعد أن أُذِّن قالَ: يا كعبةَ اللهِ. فدعا الكعبةَ، فحزِن الرجلُ وقال: هَذَا العالِم الَّذِي هَذَا كلامه وهذا عِلْمُه كيف يجهَل هَذِهِ المسألةَ! فقال: لعلها سَبقَتْ عَلَى لسانه بدون قصدٍ.

فلما جلس الشيخ الَّذِي كانَ يُدَرِّس للنَّاسِ جلس هَذَا الرَّجُل إِلَى جانبه وسلَّم عليه واحتفَى به، وقال له: جزاك الله خيرًا، أنا أريد أن أقرأ عليك شيئًا مِن القُرْآن حفِظتُه، وأُحِبُّ أن تَسمَعَه، وأخشى أن أكونَ أخطأتُ فيه. فقالَ الشيخ: يُمْكِنك هذا قبل أن تُقام الصَّلاةُ. قالَ: نعم لأنَّ الَّذِي عندي من قِصار السُّور. قالَ: اقرأْ. فقرأ عليه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد:١]، والنصرَ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥٧١، رقم ١٨٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد، رقم (٧٨٣).

والكافرونَ، والكوثَرَ، والماعونَ، وقُرَيْش، فلما وصل ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ [قُرَيْش:٣] قالَ: «فَلْيَعْبُدوا هَذَا البيتَ» عَلَى وزن (يا كعبةَ اللهِ) -والدُّعاءُ عبادة- فردَّه الشيخ، فكرَّر عليه مرتينِ أو ثلاثًا، فقال له الرَّجُل: ألم تَقُلْ يا شيخ: يا كعبةَ اللهِ؟!

ونأخذ مِن هذه القصة أيضًا فائدة الحكمة في الدعوةِ إِلَى اللهِ، فلو أن هَذَا الرجلَ لَمَّا سمِع الشيخ يقول: يا كعبةَ اللهِ. قالَ: أعوذ باللهِ، أشركتَ، حَبِطَ عَمَلُك، أنت مِن أهل النَّارِ؛ لَقامَ عليه هُوَ وطُلَّابه وقتلوه، أو أوجعوه ضربًا، لكنه عامله بهذه الحكمة، واقتنع الرجلُ بدون أيِّ عَنَاءٍ.

فأقول: الدُّعاء لله عَزَّوَجَلَّ، والعجيب -يا إخواني- أن كل مسلمٍ يقول فِي كل صَلَاة: اللَّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، ويقول: السَّلام عليك أيها النبيُّ، وهذا دعاءٌ للرَّسُول، فأنا أدعو الله أَنْ يُسلمه، وأدعو الله أَنْ يُصَلِّيَ عليه، فكيف أجعله مدعوًّا وهو يُدعَى له! سُبْحَانَ اللهِ!

النبيُّ ﷺ يُعَلِّمنا التَّشَهُّدَ والصَّلاةَ عليه مِن أجلِ أن ندعوَ اللهَ له؛ ثمَّ نذهب فندعوه وهُوَ محتاجٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى أننا ندعو اللهَ له! ولكنه فِي الحقيقة حاجتُه إلينا دون حاجتنا إليه، فنَحْنُ إذا صلَّينا عليه صلَّى الله علينا بها عشرًا، يعني إذا قلتَ: اللَّهُمَّ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليك عَشْرَ مراتٍ[1].

ونحن فِي كل صَلَاة نقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ**»، وهو دُعاء، يعني أُثْنِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل له الوسيلة، رقم (٣٨٤) أنه ﷺ قال: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**».

عَلَى عبـدِكَ واذكرْه بالخيرِ فِي الملأِ الأعلَى؛ عنـد الملائكةِ المقرَّبين، فإذا قلتَ هكـذا أَثنَى اللهُ علـيك أنتَ فِي الملأِ الأعلَى عَشْرَ مراتٍ، يا لها مِن نعمةٍ! ولهذا ينبغي لنا أن نُكثِرَ مِن الصَّلاة عَلَى النَّبي ﷺ ولا سِيَّما فِي يوم الجُمُعَة.

المهم أن رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يعلم الغَيْب، ولا يملِك لِنَفْسِهِ نفـعًا ولا ضرًّا، ولا يملِك لغيرِه نفعًا ولا ضرًّا، ولما أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] جمعَ عشيرتَه الأقربينَ وقال فيما قالَ: «**يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَـاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»(١). وإذا كانَ لا يُغني عن عمَّته صَفِيَّةَ بنتِ عبد المطَّلب، ولا عن بنتِه فاطمةَ بنتِ مُحَمَّدٍ، فمَن سِواهما مِن باب أَولى.

والشَّيْء الذي أدعو إليه إخواني أَنْ يَكُونَ التجاؤُهم ودعاؤُهم للهِ عَزَّوَجَلَّ وحدَه، وأن تكون إنابَتُهم لله وحدَه، وأَلَّا يتعلَّقوا بأحدٍ سِواه؛ لا برسولِ اللهِ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه-، ولا بغيرِه مِن بَشَرٍ، ولا بغيرِه من المشايخِ، ولا بِغَيْرِه مِن الملائكةِ، ولا بِغَيْرِه مِن سائر النَّاسِ، وإنما يكون رجاؤُهم وتعلُّقهم باللهِ وحدَه، فبذلك تُقضَى حاجاتُهم، وتُيَسَّر أُمُورُهم.

إذن -يا إخواني- باب التَّوْحِيد مُهِمٌّ جدًّا، وإذا بنَى الإِنْسَان عبادتَه عَلَى غير التَّوْحِيدِ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يَقبلُها، قالَ الله تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال النَّبي ﷺ فيما رَوَاه عن ربِّه أنَّه تعالَى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، رقم (٤٧٧١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

قالَ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

فاللهَ اللهَ أيها الإخوة لتحقيقِ التَّوْحِيدِ؛ فإنه بتحقيقِ التَّوْحِيدِ تصلُح الأعمالُ، وتَطِيب الأحوالُ، ويَزُول السُّوء، وبالخِلاف فِي التَّوْحِيدِ تَفسُد الأعمالُ والأحوالُ.

فالمهمُّ أن باب التَّوْحِيدِ أعظمُ أبوابِ العِلمِ، ويجب عَلَى طَلَبَة العلمِ أَنْ يَعتنوا به، وَأَنْ يَحذروا مِن مخالفة التَّوْحِيد مِن الشركِ باللهِ صغيرِه وكبيرِه.

وبابُ الشِّركِ بابٌ واسعٌ، وقد قَسَّمه العُلَمَاء إِلَى شِركٍ أصغرَ وشِركٍ أكبرَ، وشِركٍ جَلِيٍّ وشِرْك خَفِيٍّ، وهذا معلوم فِي كُتبِ أهلِ العلمِ.

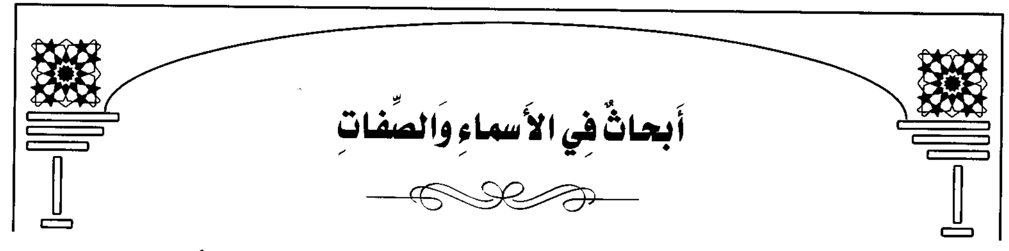
أقول: إن تحقيق التَّوْحِيد أمرٌ شاقٌّ، ولا سيَّما عَلَى مَن عاش فِي بلاد فيها خَلَل فِي هَذَا الباب، ولكن المؤمن حقيقة يَرجِع إِلَى الحقِّ أينما كانَ، فالحقُّ ضالَّة المؤمنِ؛ أينما وَجَدَهُ أخذهُ، ولا يجوز للإِنْسَان إذا عُرِض عليه الحقُّ أنْ يَقولَ: إنا وجدنا آباءنا عَلَى أُمَّةٍ، فهَذَا قولُ أعداء الرُّسل الَّذِينَ ردُّوا ما جاءت به الرُّسل بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

فالمؤمن يقول: أين الحقُّ لِأَتْبَعَهُ. وإذا نظرنا إِلَى هَدْيِ الصَّحَابَة، والخلفاء الراشدينَ، ومَن بَعْدَهُم، والتابعينَ، وأئمة الأُمَّة الإسلاميَّة، وجدنا أنَّهم إذا تبيَّن لهم الحقُّ رَجَعوا إليه حتَّى وإنْ قَالُوا أوَّلًا بخلافِه.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).



أَبحاثٌ فِي الأَسماءِ وَالصِّفاتِ

الحمدُ للهِ، نَحمدهُ، ونَسْتعينهُ، ونَسْتغفرهُ، ونَتوبُ إِليه، ونعوذُ بِالله مِن شُرورِ أَنْفُسنا، ومِن سَيِّئاتِ أَعْمالنا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضلَّ لَه، ومَنْ يُضلِلْ فَلا هَـادِيَ لَهُ، ونَشْهدُ أَنْ لَا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحده لَا شَريكَ لهُ، ونَشهدُ أَنَّ محمدًا عبدهُ ورَسولهُ، صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلهِ وأَصْحَابه وَسَلَّم تَسليمًا كثيرًا، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإِنَّ اللهَ تَعَـالَى بعثَ مُحَـمَّدًا ﷺ بِالهدَى ودينِ الحقِّ، رَحمةً للعـالمينَ، وقُدْوَةً لِلْعَامِلينَ، وجعلهُ حُجَّةً عَلى مَن أَرسله إِلَيْهم أَجْمعين، فبلَّغ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ فِي اللهِ حقَّ جِهادِهِ، فصَلواتُ اللهِ وَسلامهُ عَلَيهِ، وعَلَى آله وَأَصْحَابه، ومَنْ تَبِعهمْ بِإِحسانٍ إِلى يَومِ الدِّينِ.

البَحثُ الأَوَّلُ:

إِنَّ منَ القَـواعدِ الهامَّةِ فِي بابِ الأَسماءِ والصِّفاتِ أَنَّ كُلَّ اسمٍ منْ أسماءِ اللهِ متضمِّن لِصِفةٍ منْ صِفاتهِ؛ وذَلِك لأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَصف أَسْمَاءَه بِأَنَّهَا حُسنَى، وهذَا يَقْتضي أَنْ تَكونَ مُتضمِّنة لِمعاني الحُسْنى؛ لأَنَّهَا لَو كَانت أَعْلامًا مُجَرَّدةً مَا صحَّ أَن تُوصَفَ بأَنَّها حُسنى، إِذْ إِنَّ العَلَم المجرَّد لَا يُفيد إِلَّا تَعيين المُسمَّى فَقَطْ.

فكلُّ اسمٍ مِن أَسماءِ اللهِ فَهو متضمِّن لِصفةٍ مِن صِفاتِهِ، ودَليلُه قَوله تَعَـالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فَوصفَ أَسماءه بأَنَّها حُسْنى، ولَوْلا أَنَّها تَتَضمَّن مَعَـانيَ عظِيمةً جَليلةً مَا صحَّ أَنْ تُوصَـفَ بأَنَّها حُسنَى؛ لأَنَّ الاسمَ إِذَا

لَم يَتضمَّن مَعنًى صارَ مَدلولُه مُجرَّدَ تَعيينِ المُسمَّى، وإذَا كانَ مَدلولهُ مُجرَّد تعيينِ المُسمَّى فإنَّه لَا يَكون مُتضمِّنًا لمعانٍ تستحقُّ أنْ تُوصَفَ مِن أَجْلِهَا الأسماءُ بأنَّها حُسنَى[١].

فكلُّ اسمٍ منْ أَسماءِ اللهِ فَهو مُتضمِّنٌ لِصفةٍ مِنْ صِفاته، وهذَا التَّضمُّن يَكون بِوجوهِ الدِّلالة الثَّلاثة:

الأُولى: دِلالةُ المطابَقَةِ، وهِي دِلالةُ اللَّفظ عَلى جَميعِ مَعناهُ.

الثَّانيةُ: دِلالةُ التَّضمُّنِ، وهيَ دِلالةُ اللَّفظ عَلى جُزءِ مَعناه.

الثَّالثةُ: دِلالةُ الالتِزام، وهِي دِلالةُ اللَّفظ عَلى اللَّازم الخَارج.

مِثالُ ذَلك: اسمُ اللهِ (الخَالِقُ) المذكورُ فِي آخرِ سُورةِ الحَشرِ، فِي قَوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر:٢٤]، فدِلالةُ هذَا الاسمِ عَلى جَميعِ المعْنَى، أَي عَلى الذَّاتِ والخَلق دِلالةُ مُطابقةٍ.

ودِلالةُ هذَا الاسمِ علَى الذَّاتِ فقطْ، أَو عَلى الخَلقِ فَقَطْ دِلالةُ تضمُّنٍ؛ لأنَّ اللَّفظ دلَّ عَلى جُزءِ مَعناهُ.

ودِلالةُ هذَا الاسم عَلى العِلْمِ والقُدرةِ، دِلالةُ التزامٍ، إذْ لا خَلْقَ بلا عِلمٍ، ولا خَلْقَ بِلَا قُدرةٍ، فَيكون اسمُ الخَالقِ دالًّا عَلى صِفتينِ أُخْرَيين خَارجَيْن عَن مَدلولِ اللَّفظ، وهُما: العِلمُ والقُدرةُ.

ودِلالةُ الالتزامِ دِلالةٌ عَظيمةٌ إذَا فَتحَ اللهُ عَلى العبدِ فِيها، فإنَّه إذَا فُتِحَتْ لَه أَنواعُ الدِّلالاتِ، ولَا سِيَّما الالتزامُ، حَصل عَلى عِلمٍ كثيرٍ، فَتجدهُ يَستنبطُ منَ الآيةِ

---

(١) الاعتقاد للبيهقي (ص:٢١).

أَوِ الحديثِ معانِيَ كثيرةً لَا يَفهمها غَيرُهُ.

مثالٌ حِسِّيٌّ: إذَا قُلنا: (هذَا قَصْرٌ مَبْنِيٌّ)، فدِلالةُ الكلمةِ عَلى جَميع مَا فِي القصرِ مِن غُرَفٍ، وحُجَرٍ دلالةُ مُطابقةٍ.

ودِلالتُه عَلى حُجْرَةٍ مِن الحُجرِ دِلالةُ تضمُّن.

ودلالةُ القصرِ عَلى بَنَّاءٍ بَنَاهُ دِلالةُ التزامٍ.

فإنْ قِيل: كلُّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ مُتضمِّن لِصفةٍ، فَهل يُمكن أَن نَقـولَ: إِنَّ كلَّ صفةٍ مُتضمَّنةٌ لِاسمٍ؟

الجوابُ: لَا يُمكن أنْ نَقولَ ذَلك؛ فصفةُ الكلامِ هِي مِنْ صِفاتِ اللهِ، بَل هيَ مِن أَعظمِ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّ اللهَ مُتكلِّمٌ، يَتكلم مَتى شاءَ، وكَيف شاءَ، وَبِمَا شاءَ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وقالَ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فَلَا يَصحُّ أَن نَصوغَ للهِ اسمًا منَ الكلامِ؛ لأنَّ الأسماءَ تَوْقيفيَّةٌ[١].

وَبِهذا يَتبيَّن أنَّ الصِّفاتِ أَكثرُ منَ الأَسماءِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ تَكونُ فِيما لَمْ يُسَمِّ اللهُ بِه نَفْسَهُ، والأسماءُ لَا تَكون إلَّا فِيما سَمَّى اللهُ به نَفسهُ، فكلُّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ مُتضمِّنٌ لِصفةٍ مِن صِفاته، ولَيْس كلُّ صِفةٍ متضمِّنةً لاسمٍ.

ومِن صفاتِ اللهِ: الإِرادةُ، ودَليلُها قَولهُ تَعالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، وقوله تَعـالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد:١١]، وقولُهُ تَعـالَى:

---

(١) الاعتقاد لابن أبي يعلى (٢٥).

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ [يس:٨٢]، والآيَاتُ فِي هذَا كَثيرةٌ.

فلَا يَصحُّ أنْ نَصوغَ منَ الإِرادةِ اسمَ المريدِ، وإنْ كَان مِن صِفتهِ الإِرادةُ؛ لأنَّ الأسماءَ تَوقيفيَّةٌ، ولَم يَرِد فِي القرآنِ، أَوِ السُّنَّةِ أنَّ مِن أسماءِ اللهِ المُريد.

ومِن صِفاتِ اللهِ: الصُّنع، فلَا يَصحُّ أنْ نُسمِّيَ اللهَ بِالصَّانع، ولكنْ نَصفُ اللهَ بأنَّ له صُنعًا.

والاستهزاءُ مِن صفاتِ اللهِ، قالَ تَعـالَى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥]، فَلا يصحُّ أنْ نَصوغ مِن هذهِ الصِّفة اسمًا، معَ أنَّ الاستهزاءَ لَيس مِنَ الصِّفات المُطلَـقَةِ، بَل هِي منَ الصِّفاتِ المُقيَّدةِ بمَن يَفعل هذَا الفِعـلَ، فلَا يَصحُّ أنْ يوصَفَ اللهُ بِالاستهزاءِ مُطلقًا، بَلْ يُقالُ: مُستهزئٌ بِمَن يَستهزئُ بِهِ.

ومِن صِفاتِ اللهِ المَكرُ، ذُكر ذَلك فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، ولكنْ لَا يصحُّ أَن نَصوغَ مِنها اسمًا مِن أَسماءِ اللهِ، فَنقولُ: هوَ المَاكرُ، كَما أنَّه لَا يَجـوزُ أنْ يُوصَفَ اللهُ بِصفةِ المَكرِ عَلى سبيلِ الإطلاقِ؛ لأنَّ اللهَ إنَّما ذَكَرها فِي مُقابَلَةِ مَن يَمكرُ بِه وبِرُسُلِهِ، فلَا يُوصفُ اللهُ بالمَكرِ عَلَى الإطلاقِ.

ومِن صِفاتِ اللهِ الخداعُ، جاءَ ذَلك فِي قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢]، ولكنْ لَا يَصحُّ أنْ نَصوغَ مِن هذِهِ الصِّفةِ اسمًا منْ أَسماءِ اللهِ، ولا نَصفُ اللهَ أيضًا بِالخداعِ عَلى سبيلِ الإِطلاقِ، بَل نَقـولُ: هُو خَادعُ مَن يَخدعهُ، أو مَن يَخدعُ رسولَه والمؤمنين.

وَلا يُمكـن أنْ نَصفَ اللهَ بِالخيانةِ، فَالخيانةُ لَا تَكونُ إلَّا صِفةَ نقـصٍ؛ لأنَّهُ خِداعٌ في غَير محلِّه، فَتكونُ نقصًا، أمَّا الخداعُ فِي محلِّه فَهُو صفةُ كمالٍ.

وَلِهَذَا لَم يصفِ اللهُ نَفسه بِالخِيانةِ أبدًا، بَل قالَ النبيُّ ﷺ: «**وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»(١).

وأمَّا قولُ العوامِّ: (خانَ اللهُ مَن يَخونُ)، فقولٌ مُنكرٌ، ويَجبُ إِنكارهُ، ولَا يجوزُ إِقرارهُ؛ لأنَّ اللهَ لَا يُمكن أَن يَخونَ؛ لأنَّ الخيانةَ صِفةُ ذمٍّ عَلى كلِّ حالٍ.

البَحثُ الثَّاني: هلْ أَسماءُ اللهِ مَحصورةٌ فِي تِسعةٍ وتسعينَ اسمًا؟

إنْ قالَ قـائلٌ: هلْ أَسماءُ اللهِ مَحصورةٌ فِي تسعةٍ وتسعينَ اسمًا كَما جـاءَ فِي قولهِ ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٢).

فالجوابُ: مِنَ العُلماءِ مَن قالَ: إنَّها مَحصورةٌ فِي هذهِ الأَسماءِ التِّسعةِ وَالتسعينَ، ولَا يَجوزُ أَن يُسمِّيَ أَحدٌ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بِسواهَا.

ومِنهم مَن يَقول: لَيست دالةً عَلى الحَصْرِ، والدَّليل عَلى هذَا قـولُ النبيِّ ﷺ فِي حديثِ الكَرْبِ الَّذي رَواهُ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْـدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَـابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»(٣)، والشَّيءُ الَّذي استأْثرَ اللهُ بِهِ فِي عِلمِ الغَيب عِنده لَا يُمكِنُ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب أبواب الدعوات، باب أسماء الله الحسنى، رقم (٣٨٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٦، رقم ٣٧١٢).

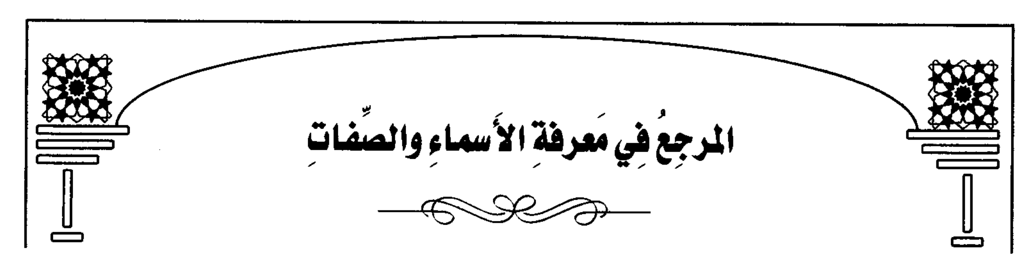
الإِحاطةُ بِه، فهَذا الحـديثُ يَدُلُّ عَلى أنَّ أَسماءَ اللهِ غَيرُ محصورةٍ، ولَا مَعلـومةٍ لكلِّ أحدٍ.

وعَلى هذَا، فنقولُ: أسماءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْست محصورةً بِتسعةٍ وتسعينَ اسمًا، وإِنَّما المرادُ بِالحديثِ: أنَّ مِن أَسماءِ اللهِ تَسعةً وتِسعينَ اسمًا مَن أَحْصاها دَخلَ الجنَّةَ.

البحثُ الثَّالثُ:

صفاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخَبرِيَّةُ الَّتي نَظيرُهَا مُسمَّاهُ بِالنِّسبة لَنَا أَبعاضٌ وأجزاءٌ، مِثلُ اليَدِ، فاليدُ هيَ بعضٌ منَ الإنسانِ، لكنَّها بِالنِّسبة للهِ لَا نقولُ: إنَّها بعضٌ مِنه؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى منزَّهٌ عنِ الأَبعاضِ، ولكنْ نَقـولُ: إنَّ يدَ اللهِ يدٌ حَقيقيَّةٌ ثابتةٌ مِن غيرِ تَكييفٍ ولَا تمثيلٍ، بِها يَأخُـذ، وبِها يَقبضُ، ولَا تُشْبِهُ ولَا تُماثِلُ أَيْدِيَ المخلـوقِينَ، ولَا نقولُ: هيَ جُزءٌ أو بعضٌ؛ لأنَّك لَو قُلتَ ذَلك لَأَثْبَتَّ أنَّ اللهَ يتَجزَّأ، ويتبعَّضُ، ويَجوز أنْ يُفقَد منْه هذَا البعضُ مَع بقاءِ الكُلِّ، كما يُفقد هَذا البعضُ منَ الإنسانِ مَعَ بَقاءِ الكلِّ، وهذهِ لَوَازِمُ باطِلَةٌ.





المرجعُ فِي معرفةِ الأسماءِ والصِّفاتِ

أوَّلًا: المرجعُ فِي معرفةِ أسماءِ اللهِ وَصفاتِهِ هُوَ الكتابُ والسُّنَّةُ، وليسَ العقلَ، فينْحصرُ التَّلقِّي فِي الكتابِ والسُّنَّة، ولَا يُمكن أنْ نَرجعَ إلى العقلِ فِي هذَا الأمرِ، ومَن قالَ: نَرجعُ إلى العقلِ فقَدْ خالفَ العقلَ؛ لأنَّ أسماءَ اللهِ وَصفاتِهِ منَ الأُمورِ الغَيبيَّةِ الَّتي لَا يُمكنُ أنْ تُدرَكَ إلَّا بالخَبَرِ؛ وَلِذَا وَجبَ الرُّجوعُ فِيها إلَى الخبرِ عَقْلًا، فمنِ استعملَ عَقلهُ فِيها وأَثْبتَ مَا يَقْتضيه عَقلُه، ونفَى مَا لَا يَقْتضيه، فقدْ خالفَ العقلَ فِي الواقعِ.

ومِن مَنهج أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ أنَّ أسماءَ اللهِ وَصِفاتِه توقيفيَّةٌ، أَي: يُتوقَّفُ فِيها عَلى الكتابِ والسُّنَّةِ، فَلا يُسمَّى اللهُ إلَّا بِما سَمَّى بِه نَفسَهُ، ولَا يُوصفُ اللهُ إلَّا بِما وَصَفَ بِه نَفسهُ.

ثانيًا: صفاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيست كَصِفاتِ المخلوقينَ، فَلا يَرد عَليها مَا يَرِد عَلى صِفات المَخلوقينَ، ودَليلُ ذَلكَ قَولهُ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقَولهُ تَعالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، أَيْ: مُشابهًا ونَظيرًا، وقَوْلهُ تَعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]، فلَا يُمكن أنْ نَقيسَ صِفاتِ اللهِ بِصفاتِ الخَلقِ، أَو أَن نُورِد عَلَى صِفاتِ اللهِ ما يَرِد عَلى صِفةِ الخَلقِ، أَو أَن نَتصورَ أَن صِفاتِ اللهِ كَصفاتِ الخَلقِ.

وما ضلَّ مَن ضلَّ مِنَ النَّاس سَواءٌ بالتَّحريفِ أَوِ التَّعطيل أَوِ التَّكييف، إلَّا حيثُ ظنُّوا أنَّ صفاتِ اللهِ كَصفاتِ المَخلوقينَ، فَأَثْبَتَ قومٌ صِفاتِ اللهِ عَلى وجهِ التَّمثيلِ، وأنْكرَ قومٌ مَا ثبتَ مِن صِفاتِ اللهِ بالدَّليلِ، ومَشربهُم واحدٌ، فظنُّوا أنَّ هذهِ الصفاتِ تَقْتضي التَّمثيلَ، فأَثْبتـوا التَّمثيلَ وهُمُ المُمَثِّلةُ، وظنَّ المُعـطِّلةُ أنَّ الصفـاتِ تَقْتضي التَّمثيلَ، فمِن أَجْلِها نَفَوْا هَذِهِ الصِّفاتِ.

فأهلُ التَّمثيلِ يُثْبتونَ الصِّفاتِ مَعَ التَّمثيلِ، وأهلُ التَّعطيل يَنفُونَ الصِّفاتِ، إمَّا كُلَّها أَو بَعْضَها.

مثالُ ذَلك صِفةُ الاستِواءِ:

نَضربُ مثلًا لِهَـذِهِ المسأَلةِ: وهوَ استواءُ اللهِ علَى العَرشِ، فقـالَ أهلُ التَّمثيلِ: إنَّ اللهَ مُستوٍ عَلى عَرشه كَاستواءِ الإنسانِ عَلى الكرسيِّ؛ لأنَّهم لَم يَفْهموا منَ الاستواءِ إلَّا هَذا المعنَى، وقالتِ المُعـطلةُ: إنَّ اللهَ لم يَسْتَوِ عَلى العرشِ، وإنَّما مَعنى الاستِواء: الاستيلاءُ والمِلكُ؛ لأنَّنا لَو أَثبتنا للهِ استواءً لَزِمَ أنْ يَكونَ مُماثلًا لِاستواءِ المَخلوقِ عَلى السَّريرِ مَثلًا.

فَالمُمثِّلةُ أَثبتُوا للهِ الصفةَ علَى وَجهٍ يُماثِلُ صِفاتِ المَخلـوقين، والمُعطِّلة أَنْكروا مَا سمَّى اللهُ تَعالَى وَوَصَف بِه نَفسهُ إنكارًا كُليًّا، أو جُزئيًّا، وحَرَّفُوا مِن أَجْلِ ذَلِكَ نُصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ.

أَمَّا أهلُ السُّنَّة وَالجماعةِ فَيَقولونَ: إنَّ استواءَ اللهِ عَلى العَرشِ مَعناه علُّوُهُ عَلَيْه عُلُوًّا خاصًّا يَليق بِهِ، ولَا يُماثِلُ استواءَ الإنسانِ عَلَى الكرسيِّ والسَّريرِ، ولَا استواءَ الإنسـانِ علَى الدَّابة وَالفُلكِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقـولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فَهوَ استواءٌ يَليقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ نُثبته حَقِيقةً حقًّا بِدونِ تَمثيلٍ، فَإِثباتنَا إِيَّاه حَقيقةً حقًّا نَرُدُّ به علَى أهلِ التَّعطيلِ، وقوْلُنا: (بِلَا تَمثيلٍ) نَرُدُّ بِهِ عَلى المُمثِّلةِ؛ لأنَّ التَّعبير بنَفيِ التَّمثيلِ أَولى بِالتَّعبير بِنفيِ التَّشبيهِ؛ لِوجوهٍ ثلاثةٍ:

الوَجْهُ الأَوَّل: أنَّ التَّعبير بِالتَّمثيل هُوَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولمْ يَقلْ كَشِبْهِهِ شَيءٌ.

الوَجهُ الثَّاني: مَا مِن شَيْئين ثَابتينِ إلَّا وَبَيْنهما شَيءٌ منَ التَّشابهِ فِي أصلِ المعنَى، فَنُثبتُ للهِ العلمَ، ونُثبتُ للعَبدِ العلمَ، ولكنْ هناكَ فَرقٌ بَين عِلمِ اللهِ وعِلمِ المخلوقِ.

الوَجْهُ الثَّالثُ: أنَّ التَّشبيهَ اختلفَ فيهِ النَّاس، فمِنَ النَّاس مَن يَرى أنَّ إثباتَ أَيِّ صِفةٍ يَقتضي تَشبيهًا؛ وَلِذَلك نَفَوُا الصِّفاتِ، وهذَا اعتِقاد المُعَطِّلَةِ، فالمُعَطِّلَةُ يَرون أنَّك إذَا أثبتَّ لله صِفـةً فإنَّك شبَّهتَ؛ ولِذَلك يُنْكرونَ الصفـاتِ، إمَّا أَن يُنكروا الصِّفاتِ كُلَّها كَالمعتزلةِ، وإمَّا أَن يُثبتوا مِنَ الصِّفات سَبعَ صفـاتٍ فَقَطْ، ويُنْكروا الباقِيَ كالأَشْعرِيَّة، فإنَّ الأشعريَّة لَا يُثْبتون مِن صِفـاتِ اللهِ إلَّا سَبعًا فَقَطْ، فكلُّ الصِّفات الكثيرةِ الَّتي أَثْبتها اللهُ لِنَفسها يُنكرونَهَا، وَيُحَرِّفونها إِلَى مَعانٍ يُعَيِّنونها هُم بِعُقولِهم مَعَ اخْتِلَافِهم فِيها، ولَا يُثْبتون إلَّا سَبْعَ صِفاتٍ ادَّعَوْا أنَّ العقلَ دَلَّ علَيْها، وأمَّا مَا سِواها فإنَّ العَقْلَ لم يَدُلَّ علَيْها، ونحنُ وإنْ وافَقْناهم بأنَّ العَقل دَلَّ عَليها، فإنَّنا نَقـول لَهم: إنَّ العقلَ قَد دَلَّ عَلى الصِّفـاتِ التِي أنْكرتموهَا أدلَّ عَلى ذَلك مِمَّا أَثْبتُّموه، ولَيس هَذا مَوضعَ البَسط فِي هَذهِ المسألَةِ؛ لأنَّهَا تَحتاجُ إِلَى مُناقشةٍ طويلةٍ.

إِجراءُ نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ عَلى ظَاهرِهَا:

وَمِما يَتعلق بِهذا البحثِ العظيمِ أَنَّه يَجب أنْ نُجرِيَ نُصوصَ الكتابِ والسُّنَّة

عَلى ظَاهرهَا، مَع إِثباتِ حَقيقةِ المعْنى، ونَفيِ المُماثَلةِ، وإِدْراكِ الحقيقَةِ.

مِثالُ ذَلِكَ: ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ مِن وُجوهٍ متعدِّدةٍ أَنَّه قالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(١).

قَولهُ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا**»: ظاهرُ النَّصِّ أنَّ الَّذي يَنزل هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإذَا قالَ إِنسانٌ: «**يَنزِلُ رَبُّنَا**»، أَي: يَنزلُ أَمرُه إِلَى السَّماءِ الدُّنيا. فَهَذَا خطأٌ، وهوَ خِلافُ ظاهرِ النَّص، والواجبُ علَينا أنْ نُثبتَ ظَاهرَ النَّصِّ، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهوَ أَفصحُ الخَلقِ، وأعلمُ الخَلقِ باللهِ، وأنصحُ الخَلقِ للخَلقِ، وأصدقُ الخَلقِ، فهذهِ الأربعُ هِي مُقوِّماتُ الخبرِ: العلمُ، والنُّصحُ، والفَصاحةُ، والصِّدقُ، فقدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا**» وهُو كلامٌ واضحٌ أنَّ الَّذي يَنزل هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلى السَّماءِ الدُّنيا(٢).

فإنْ قالَ قائلٌ: يَنزل أَمْره.

قُلنا: هذَا تَحريفٌ لَا يَجوز، ويَجب أنْ نُجريَ النَّصَّ عَلى ظَاهرِه.

فإِن قِيل: كَيف نُزولُه؟

قلنا: نَقول مَا قَالهُ الإمامُ مَالكٌ فِي الاستواءِ، فَقد سُئلَ الإمامُ مَالكٌ عنِ الاستوَاءِ، فقالَ: الاستواءُ مَعلومٌ، وَالكيفُ مجهولٌ، والسُّؤالُ عَنه بِدعةٌ، وقالَ لِلسَّائلِ: أنتَ رَجلٌ مبتدعٌ، ثمَّ أَمَرَ بِهِ الإمامُ مَالكٌ فأُخرجَ منَ المسجدِ النَّبويِّ تعزيرًا لَه، ونَكالًا لِغَيرِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٧١).

فَلو سَألنا سائلٌ هَذا السُّؤال: كَيف يَنزِلُ اللهُ؟

قُلنا: النُّزولُ مَعلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ بِه واجبٌ، والسُّؤالُ عَنه بِدعة، **ونَقول لَهُ:** مَا نَراك إلَّا مُبتدعًا؛ لأنَّ السُّؤال عنِ الكيفيَّة فِي جَمِيع الصِّفاتِ بِدعةٌ، فكلُّ صفـةٍ يُسألُ الإنسانُ فِيها عنِ الكيفيَّةِ فَهو مُبتـدعٌ؛ لأنَّ سَلَفَنَا الصَّالحَ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لما حَدَّثهم نبيُّهم ﷺ بأنَّ اللهَ يَنزل إلَى السَّماءِ الدُّنيا لَمْ يَسْألوا عنِ الكيفيَّةِ بَل آمَنوا، وصدَّقوا، واستَسْلموا، وسَلَّمُوا، ونَحن لَسْنَا أَحْرَصَ مِنهم عَلى العِلمِ باللهِ وَصِفاتهِ، ولَسنا أَحْرَصَ مِنَ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلى بيانِ الحقِّ.

فإنْ سألَ سائلٌ: هلْ يَخلُو العرشُ مِنَ اللهِ إِذَا نزلَ، أَم يَكون نَازِلًا وهوَ عَلى عرشِهِ؟

الجوابُ: هذَا سُؤالُ بدعةٍ، وسؤالُ تنطُّعٍ؛ لأنَّ الصَّحابَة لَم يَسألوا عَنْهُ؛ فَالإنسانُ فِي حِلٍّ مِن هذَا، وقَد قَالَ النَّبيُّ ﷺ فِيما صحَّ عنهُ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»(١)، فلا تُوقِعْ نَفسَك فِي الهلاكِ.

فإنْ قِيـل: إذَا كانَ اللهُ يَنزل فِي ثُلثِ اللَّيـلِ الآخِرِ، فالثُّلث يَدور عَلى الكُرةِ الأَرضيَّة، فَيكون فِي كُلِّ الزَّمن نَازِلًا إلَى السَّماءِ الدُّنيا؟

قُلنـا: هَذا سُؤالُ مبتدعٍ، فَاللهُ أَعظَمُ وأَجَلُّ مِن أَن تُورِدَ عَلى صفةٍ مِن صِفاتهِ هذَا السُّؤال، فالنُّزول الإلهيُّ مِن ثُلثِ اللَّيل إِلى طُلوعِ الفَجرِ، فإِذا كُنَّا فِي مكانٍ الزَّمنُ فِيه ثُلثُ اللَّيل، فالنُّزولُ الإلهيُّ حاصلٌ، فإذا طلعَ الفجرُ انتهَى النُّزولُ الإلهيُّ، وليكنْ فِي موضعٍ آخرَ ثُلثُ اللَّيل واقعًا، لكنْ نَحن مكلَّفون بِثُلثِ اللَّيلِ الَّذي عَلى المنطِقة الَّتي نَحن فِيها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

ومَن أَورد هذَا الإيرادَ سَوف يَنْقطع قَلبُه عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسوفَ يَكونُ الزَّمن كلُّه عِنده ثلثَ اللَّيل، وسَوف لَا يَجد طَعمًا لَذيذًا لِهَذا الثُّلث الَّذي هُو وقتُ النُّزولِ الإلهيِّ، والشَّيطانُ هُوَ الَّذي يُلقي عَلى العِبادِ هذَا السُّؤال، حتَّى يَبقوا متحيِّرينَ: هَلِ اللهُ نَازلٌ دائمًا وأبدًا فِي السَّماء الدُّنيا، فَلَا فضلَ لثُلثِ اللَّيل الآخِرِ عَلى الثُّلثِ الأوَّل، أَو غيرِهِ منَ الأَوقاتِ، وحِينئذٍ تُنزَع مِن قُلوبكمْ مَهابةُ هذَا الثُّلث، ويُنزعُ مِن قُلوبكمُ الحنينُ إلى هَذا الثُّلثِ الذي يَنزل فِيهِ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويقُول لِعبادهِ: مَن يَسأل عَن عِبادِي غَيْري «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[1].

فإذَا كانَ ثُلثُ اللَّيلِ الآخرُ فهَذا وَقتُ النُّزولِ الإلهيِّ، فأَكْثِروا منَ الدُّعاء، وأَكْثِروا مِنَ الاستغفَارِ، وأَكْثِروا منَ السُّؤالِ، وأَعْرِضوا بِقُلُوبكم وَأَلْسنتكم عَن هَذهِ الإِيراداتِ، إنَّ هذِهِ الإيراداتِ سَببٌ لِنَزعِ تَعظيمِ البارِي منَ القُلوبِ، حتَّى يُجعلَ البَاري جَلَّ وَعَلَا كأنَّه بَشَرٌ تُورَد عليهِ الإِيراداتُ.

فَقد ثبتَ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّه قالَ: «**وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[2]، فيبدأُ الإنسانُ يَسأَلُ: هلِ اللهُ يَشمُّ أَو لَا، ويَأتي آخَرُ ويَبحث: هلْ للهِ أنفٌ أَو لَا، فَلا يَجبُ السُّؤالُ فِي بابِ الصِّفات، بَل يَجبُ التَّسليم، فإنَّ هذَا أَبْقى لعَظَمَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ فِي القلوبِ وتَعظيمِهِ.

ويَأتي إنسانٌ ويقُول: هلْ للرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصابعُ؛ لِقولِهِ ﷺ: «**مَا مِنْ قَلْبٍ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك، رقم (٥٩٢٧).

إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»(١)، فَيَأتي إِنسانٌ ويُفصِّلُ: هلِ الأصابعُ فِيها أظفارٌ، وكَمْ أُنملَة فِي هذَا الأُصْبُع، وكَمْ للهِ مِن أُصْبُعٍ؟ فنَحن غَير مُلْزَمِين بِهَذَا، ويَجِب أَنْ نَقتصرَ عَلى مَا جَاء بِهِ النَّصُّ، وإِثبات مَعناهُ الحقيقيِّ، ولَا تَبحثُ فِيما وَراء ذَلِكَ، فإِنَّك إِن فعلتَ ذَلك وَقَعْتَ في التِّيهِ الَّذي لَا يُمكنكَ أَن تَتَخلَّص مِنه إِلَّا بِأَحدِ أَمرينِ؛ إِمَّا تَمثيلٍ، وإِمَّا تَعطيلٍ(٢).

فيجبُ الاقتصارُ فِي بابِ أَسْماءِ اللهِ وَصِفاته عَلَى مَا جَاء بِهِ النَّصُّ، وأَلَّا نُدخِلَ أَنْفسنا فِي مَتاهاتٍ تُقلِّلُ مِن هَيبَةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ وعَظَمتِهِ فِي النُّفوسِ، حتَّى يُصبحَ وكأَنَّه بَشرٌ يُشرح، والعياذُ بِاللهِ(٣).

والنَّبيُّ ﷺ سُئِل: هَل رَأيتَ ربَّك، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»(٤)، وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

وقالَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ ذاتَ الربِّ تُخالفُ كلَّ عنصرٍ منْ عَناصرِ المادةِ الَّتي خُلِق مِنها الخَلْقُ، ودليلُ ذَلك قَولُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١](٥).

فإِذا كانَ الرَّبُّ يُخالفُ جميعَ العناصرِ الماديَّةِ، فمعْنَى ذَلك أَنَّه لَا يُمكن لِأَيِّ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب أبواب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٩).
(٢) الاعتقاد للبيهقي (١١٦).
(٣) النعوت الأسماء والصفات للنسائي (٣٥٠).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نور أنَّى أراهُ وفي قوله: رأيتُ نورًا، رقم (١٧٨).
(٥) انظر مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ٣١٨).

عقلٍ بشريٍّ أَنْ يُدرِكَ ذَاتَ الربِّ عَزَّوَجَلَّ أَو مَا لم يُخبِر عَنه مِنْ صِفاتِه، ومَا أَخبر عَنه مِن صِفَاته فإِنَّه لَا يُدرِكُ حَقيقتَهُ، ولا يُدرِكُ المعنَى الَّذي دَلَّ عَليهِ اللَّفظُ.

أيضًا منَ القواعِدِ المُفيدةِ فِي بابِ الأَسماءِ وَالصِّفاتِ، أَلَّا نَتَجاوزَ حُدودَ عُقولِنا فِي هذَا البابِ، والعقلُ الصَّريحُ يُوافِقُ تَمامًا النَّقلَ الصَّحيحَ، والعقلُ الصَّريحُ هوَ الخالِصُ مِنَ الشَّوائبِ كَشوائبِ الشُّبَهِ، وشَوائبِ الشَّهواتِ، ولَيسَ المرادُ بالشَّهواتِ شَهَواتِ الجِنسِ، بَل شَهَواتِ الإيرادَاتِ السَّيئةِ، فالعقلُ الصَّريحُ هُوَ الَّذي قَد خَلُصَ وَسَلِمَ منَ الشُّبهاتِ والإيرادَاتِ السَّيئةِ، ويُوَافقُ النقلَ الصَّحيحَ ولَا يُخالفهُ أبدًا.

ومنِ ادَّعى أنَّ شيئًا منَ النَّقلِ الصَّحيحِ يُخالفُ العقلَ الصَّريحَ فإنَّه جاهلٌ؛ لأنَّ النصَّ الصَّحيحَ لَا يَأتي بِالمُحالِ، فقدْ يَأتي بِما يَتحيَّر فِيهِ العقلُ، لكنْ لَا يَأتي بِما يُحيلهُ العقلُ، وبناءً عَلى ذَلكَ نَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالَى أَثبت لِنَفسه صِفاتٍ مُتعددةً، مِنها صفاتٌ معنويَّةٌ، ومِنها صِفاتٌ نَظيرُها بِالنسبةِ لَنَا أَعضاءٌ وأجزاءٌ، لكنْ لَا نقولُ: إِنَّها بِالنسبةِ للهِ أَعْضاءٌ وَأَجْزاءٌ، فَالعِلمُ صِفةٌ معنويَّةٌ، والقُدرةُ صِفةٌ مَعنويَّةٌ، والرَّحمةُ صِفةٌ معنويَّةٌ، والإرادَةُ صِفةٌ معنويَّةٌ، والأمثلةُ عَلى هَذا كثيرةٌ.

والصفاتُ الأُخْرَى الَّتي نَظيرُهَا أَجزاءٌ لَنا وَأَبْعاضٌ مثلُ: الوَجْهِ والعَيْنِ واليَدِ والقَدَمِ والإِصْبَعِ ومَا أَشْبهها، هذهِ الصفاتُ أَخذَ أهلُ السُّنَّةِ وَالجماعةِ بِها وأَجْرَوْها عَلى ظَاهِرها، لكنْ بِدُونِ تَمثيل، فَنقولُ: للهِ يَدٌ، ولكنْ لَا تُماثِلُ أَيْدِيَ المخلوقينَ، ولهُ وَجهٌ، ولَكنْ لَا يُماثِلُ أَوجُهَ المخْلوقينَ، ولَه عينٌ، ولَكن لَا تُماثِلُ أعينَ المخلُوقينَ، وهَكَذا بَقيَّةُ الصِّفاتِ.

والَّذين أَنْكَرُوا هـذَا النَّوعَ منَ الصِّفاتِ قالُوا: لَيس للهِ وَجهٌ، ولَيسَ للهِ يدٌ

حَقيقيَّةٌ، ولَيس للهِ عينٌ حقيقيَّةٌ، وإنَّما المرادُ بِالوجهِ الثَّوابُ، والمرادُ بِالعينِ الرُّؤيةُ، والمرادُ باليدِ القُدْرَةُ، وَهَكَذَا.

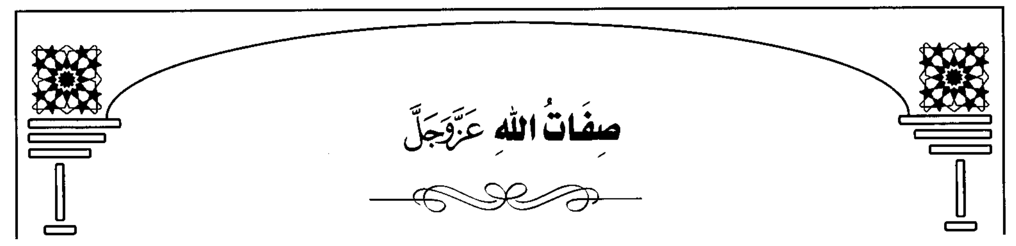
أَمَّا أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ فَيقولونَ: إنَّ ربَّنا أَعلمُ بِنفسهِ مِن غَيرِهِ، ورَبُّنا أَصدقُ حديثًا مِن غيرِهِ، وإنَّ ربَّنا أَحسنُ حَديثًا مِن غَيرِهِ، وقَد أَخْبَرَ عَن نَفسهِ بِذلكَ، فَوجب عَلَيْنا أنْ نَقبلهُ وأَنْ نُصَدِّقَ بِه، لكنْ مَع نفيِ التَّمثيل والتَّشبيهِ.

فَنفيُ التَّمثيلِ لأنَّ اللهَ تَعالَى قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فإذَا قالَ: نَحنُ لَا نُكيِّفُ هذهِ الصِّفاتِ، فلَا نَقولُ: إنَّ وجهَ اللهِ كوجهِ كذَا، لكنْ هَل لَنَا أنْ نُكيِّفَ هذهِ الصِّفاتِ ونَقولَ: كَيْفيتُها كَذَا وَكَذَا؟

الجوابُ: لَا نُكيِّف هذهِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ التَّكييفَ يَحتاجُ إِلى خبرٍ، ولَيس لَدينَا خبرٌ؛ ولأنَّ الصِّفاتِ فَرعٌ عنِ الذَّات، والذَّاتُ لا تُكيَّف، فَكذلك الصِّفاتُ؛ وَلِذَلك قالَ بعضُ العلماءِ كلمةً وَجِيزةً ولكنَّها قَويَّةٌ: (إذَا قالَ لكَ الجَهْمِيُّ أو المُعطِّلُ: كَيف صفاتُ اللهِ؟ فقلْ لَه: كيفَ ذاتُ اللهِ فَسينقطعُ؟)؛ لأَنَّه لَا يُمكن أَنْ يُكيِّف ذَاتَ اللهِ، فَنقولُ لَه: إذَا كُنتَ لَا تَعلمُ ذَاتَهُ، فَكَذلك لَا نَعْلَمُ كَيف صِفاتُه، والكلامُ فِي الصِّفاتِ فَرعٌ عَنِ الكلامِ فِي الذَّاتِ.

وإذَا كُنت تُثبت ذَاتَ اللهِ إِثباتَ وُجـودٍ لَا كَيفيَّةٍ لَزِمَكَ أَن تُثبتَ صِفاتِ اللهِ إِثباتَ وجودٍ لَا كيفيَّةٍ.





الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، وأُصَلِّي وأسلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المتَّقِينَ، وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فصِفاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي وَصَفَ نَفْسَهُ بِهَا على حَقِيقَتِهَا لا يجوزُ أن تُحَرَّفَ، ولا تُغَيَّرَ عَنْ ظاهِرِهَا؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى خاطَبَنَا بالقُرآنِ وهو أعلَمُ بنفْسِهِ مِنَّا، وأعلَمُ بغيرِهِ مِن غَيرِهِ، هو أعلَمُ منا بما في نُفُوسِنَا، نحن لا نعلمُ المستَقْبَلَ في حَياتِنَا واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُ مُستَقْبَلَنَا، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا أَخْبَرَ عن نَفْسِه بشيءٍ فواجِبُنَا ونحنُ عَبيدٌ للهِ أن نقولَ: سَمِعْنَا وآمَنَّا على مُرادِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا يحِلُّ لنا أن نَصْرِفَ ما وَصَفَ اللهُ به نَفْسَهُ عن ظاهِرِهِ إلا بدليلٍ مِنَ اللهِ وحْدَهُ، أو مِن رسولِهِ ﷺ.

رؤيَةُ اللهِ يومَ القِيامَةِ

هلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يُرَى يومَ القيامَةِ أو لا يُرَى؟

الجوابُ: هذه مسألةٌ مُهِمَّةٌ أثْبَتَهَا أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ المتَّبِعُونَ لرَسولِ اللهِ ﷺ ولخُلفائِهِ الراشدِينَ ولأئمَّةِ الهُدى مِنْ بَعدِهِمْ، أثْبَتُوها لأنَّ القرآنَ دَلَّ عليهَا، والسُّنَّةُ المتواتِرَةُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ الصحِيحَةُ الصريحَةُ دَلَّتْ عليهَا، هذان دليلانِ، والدليلُ الثالثُ: إجماعُ الصحابَةِ عَلَى ثُبُوتِهَا، أي: ثُبوتُ رؤيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هكذا أقولُ ولكُلِّ إنسانٍ مِنْكُمْ أَنْ يقولَ ما الدليلُ عَلَى ما تَقولُ؟ أليسَ كذلِكَ؟ كلُّ إنسانٍ يحكُمُ بشيءٍ فلِكُلِّ إنسانٍ أَنْ يقولَ: ما دَلِيلُكَ؟ لأنه لو يُعْطَى الناسُ بدَعْواهُم لادَّعى رجالٌ

ما شَاؤوا، فلا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ.

إذَنْ: رؤيَةُ اللهِ في الآخِرَةِ دَلَّ عليها القُرآنُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الصحابَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، أسأَلُ اللهَ ألَّا يَحْرِمَنِي وإياكُمْ رُؤيَتَهُ، وهذه هي الأدِلَّةُ:

أوَّلًا: الدَّلِيلُ مِنَ القُرآنِ: هناكَ عِدَّةُ آياتٍ، مِن أَصْرَحِهَا قولُهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: يَعْنِي حَسَنَةً بَهِيَّةً تتلألأُ نُورًا ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تأمَّلْ يا أَخِي أسلُوبَ القُرآنِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ ولم يَقُلْ: (إلى اللهِ)؛ لأن هذه رُبُوبِيَّةٌ خاصَّةٌ أَوْصَلَهُم اللهُ بها إلى هذَا المقامِ العَظِيمِ، وهذِهِ المنزلَةِ العالِيَةِ، وهي أنهم ينظُرونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إلى ربها الَّذِي وَفَّقَها حتى وصَلَتْ إلى هذه المنزلَةِ.

والفَرْقُ بين ناضِرَةٍ وبين ناظِرَةٍ مِن حيثُ الرَّسْمُ أَنَّ الأُولى بالضاد، والثانية بالظاء، والفَرْقُ بينهما واضحٌ مِن حيثُ المَعْنَى، فالأُولى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ مَعْنَاهُ: أَيْ بَهِيَّةٌ وجميلَةٌ تَتَلألأُ نُورًا، أسأَلُ اللهَ أَنْ يجْعَلَ وُجُوهَنا جَمِيعًا على هذَا، والثانية: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تَنْظُرُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وتأمَّلْ قولَهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ولم يَذْكُرْ أنها تَنْظُرُ إلى نَعِيمِهَا الذي أُعِدَّ لها في الجنَّةِ، هي تنْظُرُ إلى النَّعِيمِ العَظِيمِ في الجنَّةِ الَّذِي قالَ اللهُ عنْهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقال في الحديثِ القُدُسِيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، بل قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ والعارِفُونَ منكُمْ بالبلاغَةِ واللُّغَةِ يقولونَ: إن هذه الجملَةَ تُفيدُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٤٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، بابٌ، رقم (٢٨٢٤).

الحصَرَ، لأنه قالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ فقدَّمَ المعمولَ، وتَقْدِيمُ المعمُولِ يدُلُّ على الحصْرِ، لأن أعظَمَ شيءٍ تَنْظُرُ إليهِ هو النَّظَرُ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكأنَّهَا لا تريدُ سِواهُ، كأنَّ نظرَهَا محصورٌ في هذا الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، أسألُ اللهَ ألَّا يَحْرِمَنِي وإياكُمْ مِن ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مع أنَّها تنظُرُ إلى كلِّ النَّعِيمِ، لكن هذا نَظَرٌ خاصٌّ، ولهذا لا يَجِدُ أهلُ الجنَّةِ شيئًا ألَذَّ عندَهم، ولا أنْعَمَ مِنَ النَّظَرِ إلى وجهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه الآيَةُ الصريحَةُ.

فإذا قالَ مُحرِّفٌ مِن المحرِّفِينَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: إلى ثوابِ رَبِّها منتَظِرَة. قلنا: هذا تحريفٌ، فالقرآنُ لا يَدُلُّ على هذا، أتُريدُ أن تُحرِّفَ كلامَ اللهِ عَلَى ما تعتقِدُهُ أنتَ وتَلْوِي أعناقَ النُّصوصِ إلى ما تُريدُ؟ كَلَّا الآيةُ صَريحَةٌ.

الآية الثانيَةُ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الفُجَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] هذا في الفُجَّارِ، ولو كان الناسُ كُلُّهُم محجُوبِينَ عنِ اللهِ فلا يكونُ لتخصيصِ الفُجَّارِ بالانْحِجَابِ عنه فائدة، ولهذا قالَ الإمامُ الشافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَمَّا أَنْ حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السُّخْطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا. قَالَ الرَّبِيعُ: فَقُلْتُ يا أَبَا عَبْدِ اللهِ وَبِهِ تَقُولُ؟ قَالَ: نَعَمْ وبه أَدِينُ لله عَزَّوَجَلَّ وَلَوْ لَمْ يُوقِنْ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ أَنَّهُ يَرَى اللهَ لَمَا عَبَدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ[1]. وهذا دليلٌ واضِحٌ.

وفيما سَمِعْنَا مِنْ تِلاوَةِ الليلةِ دَلِيلٌ على رُؤيَةِ اللهِ، فَقَدْ قرَأَ الإمامُ في هذِهِ الليلَةِ قولَهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ وهذه الآية يَسْتَدِلُّ بها مَنْ يُنكِرُ الرؤيَةَ،

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي (١/ ٣٤١).

وهذا خطأٌ، لأن الآيَةَ عامَّةٌ، فالإدراكُ أَخَصُّ مِن مُطْلَقِ الرُّؤيَةِ، ولهـذا نحنُ نَرى الشمسَ في رابِعَةِ النهارِ، ولا نُدْرِكُها، فالرُّؤيةُ أَخَصُّ، يعني: قَصْدِي الرُّؤْيَةُ أعمُّ من الإدْرَاكِ، فإذا نَفَى اللهُ الإدراكَ دَلَّ على وُجودِ الرُّؤْيَةِ؛ لأن نَفْيَ الأَخصِّ يدُلُّ على وجودِ الأعَمِّ، ولو كان كِلاهُما منْتَفِيًا لنَفَى الأعَمَّ حتى يدْخُلَ فيه الأخصُّ.

ولهذا كانَتْ هذه الآيَةُ التي يتبَجَّحُ بها منكرُ رُؤيَةِ الله بأنَّها في مِيزانِهِمْ كانَتْ دَلِيلًا عليهِمْ، وأنا سأُعْطِيكُم قاعِدَةً وأَخُصُّ بهذا طلبَةَ العِلْمِ: (كُلُّ إنسانٍ قالَ قَولًا غيرَ صَحِيحٍ واستَدَلَّ بدليلٍ صحِيحٍ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ هذا الدَّليلُ دَليلًا عليهِ).

وقد التزَمَ بهذا شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابِهِ (دَرْء تعارُضِ العقْلِ والنقْلِ) بأنه ما مِن أحدٍ مِن أَهْلِ الكلامِ أو الفلْسَفَةِ، أو المنطِقِ يستَدِلُّ بدليلٍ على باطِلِهِ، والدليلُ صحيحٌ إلا كانَ هذا الدَّلِيلُ دَليلًا عليه، فهذِهِ الآيَةُ دليل عليهِمْ.

ومِن أدِلَّةِ القُرآنِ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] هذه في سُورة المطففين، وفي أولها: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، إذن ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينْظُرون إلى مَن حُجب عنه الكفارُ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكذلك مَا أعَدَّ اللهُ لهم مِنْ نَعِيمٍ.

أما السُّنَّةُ فَانظُر إلى قولِ أعْلَمِ البَشَرِ باللهِ، وإلى قولِ أَفْصَحِ البَشَرِ بما ينْطِقُ به، وإلى قولِ أَنْصَحِ البَشَرِ للبَشَرِ، وإلى قولِ أَصْدَقِ البَشَرِ قوْلًا، اجتَمَعَ في كلامِ الرَّسولِ ﷺ كمالُ العِلْمِ، وكمالُ الصِّدْقِ، وكمالُ النُّصْحِ، وكمالُ الفَصاحَةِ، يقـول: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»، يعني: كلُّ واحِدٍ يَرَاهُ في مكانِهِ، والسينُ في قولِهِ: «سَتَرَوْنَ» لتحقِيقِ مدْخُولها، يعني: تُفِيدُ التَّحْقِيقَ،

فلا أحدَ يشُكُّ إذا كانَ القمَرُ ليلةَ البَدْرِ ممتَلِئا نورُهُ أن هذَا القَمَرُ.

نحن نَرَى ربَّنَا، ونسألُ الله أَنْ يُحَقِّقَ لنا هَذَا، نراه كما نَرَى القَمَرَ ليلَةَ البَدْرِ، «**لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»، أي: لا يَلحقُكُم ضَيْمٌ، وفي لفظٍ: «**لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤيتِهِ**» بِتَشْدِيد المِيم، يعني: لا يَنْضَمُّ بعضكُم إلى بعضٍ يقولُ: انظُر انظُرْ؛ لأن الأمرَ واضِحٌ كالقمَرِ ليلةَ البَدْرِ، ثم قال: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»[(١)].

الصلاتانِ هُما: الفَجْرُ والعَصْرُ، الفجرُ قبلَ طُلوعِ الشَّمْسِ، والعصْرُ قبْلَ غُروبِها، كأنَّ الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحُثُّنا على هاتَيْنِ الصلاتَيْنِ، أمَّا الأُولى فلأنَّ الناسَ نِيامٌ، ولا يقومُ أحدٌ مِن منَامِهِ اللذيذِ إلا مُخْلِصًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما الثانية فَلِشَرَفِهَا، لأن أفضلَ الصلواتِ الخَمْسِ هي صلاةُ العَصْرِ التي سمَّاهَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الوُسطى، ونَصَّ عليها مِن بينِ سائرِ الصَّلواتِ فقالَ: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ**﴾ [البقرة:٢٣٨].

ففي هذا الحَدِيثِ، أيُمكِنُ لأحدٍ أَنْ يقولَ: المرادُ أننَا سَنرَى ثوابَ ربِّنَا كما نَرَى القَمَرَ؟ لا يُمكِنُ إلا مَن صُرِفَ قلبُهُ عن الحَقِّ، فنسألُ اللهَ له الهدَايَةَ.

والحديث واضح، وأحاديثُ رؤيةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن المتواتِرِ، والمتواتِرُ يُفيدُ العِلْمَ اليَقِينِيَّ وقَد أَنْشَدْنَا في هذا المكانِ بيتَيْنِ في المتواتِرِ وهُمَا[(٢)]:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن التاودي (ت ١٢٠٩هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

مِمَّـا تَـواتَرَ حَـدِيثُ مَـنْ كَـذَبْ وَمَــنْ بَنَـى للهِ بَيْتًـا وَاحْتَسَـبْ

وَرُؤْيَــةٌ شَــفَاعَةٌ وَالحَــوضُ وَمَسْـحُ خُفَّـيْنِ وَهَـذِي بَعْـضُ

إذن رؤيَةُ الله بالعَيْنِ يومَ القيامَةِ متَواتِرَةٌ عن محـمَّدٍ رسولِ اللهِ، كما جاء في الحديثِ الصَّحِيحِ أيضًا: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا**»[1]، أي: بالعَيْنِ لا بالقَلْبِ.

بقي علينَا الدَّليلُ الثالِثُ، وهو إجماعُ الصحابَةِ.

وسأعْطِيكُم فائدَةً تَنْتَفِعُونَ بها -إن شاء الله- وهي: كلُّ ما جاءَ في الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ولم يَرِدْ عن الصحابَةِ سِواهُ، فإنه إجماعٌ.

فالدليلُ على إجمَاعِ الصحابَةِ أنه لم يَرِدْ عنْهُم خلافٌ في مخـالَفَةِ ظاهِرِ النَّصِّ، فيكون هذا إجْماعًا.

إذن في هذَا الدَّرْسِ الآن استَفَدْنَا أن مِن عَقـيدَةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ إثباتَ أنَّ اللهَ يُرَى في الآخِرَةِ، وعلى هذا يجِبُ عليكم أيها الإخْوَةُ ألَّا تَنْظُرُوا إلى التَّحْرِيفِ في النُّصوصِ زَعْمًا مِنَ المحرِّفِ أنه مُنَزِّهٌ للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنَّ إثباتَ رؤْيَتِهِ تَعَالَى يعني تَنقُّصُ اللهِ، نسألُ اللهَ العافِيَةَ.

ووالله إنَّ تَنَقُّصَ النُّصوصِ هو تحْرِيفُها عن ظاهِرِهَا، بل نقول: كلُّ ما دَلَّ على نَفْيِ رُؤيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيَجِبُ أَنْ يُمسَحَ مِنْ أذْهَانِنَا، وأن نؤمِنَ إيمانًا نَلْقَى اللهَ بِهِ أنَّ اللهَ تَعَـالَى يُرى في الآخِرَةِ، وعندنا على ذلك دليلٌ مِن كلامِ اللهِ، وكلامِ رسولِهِ،

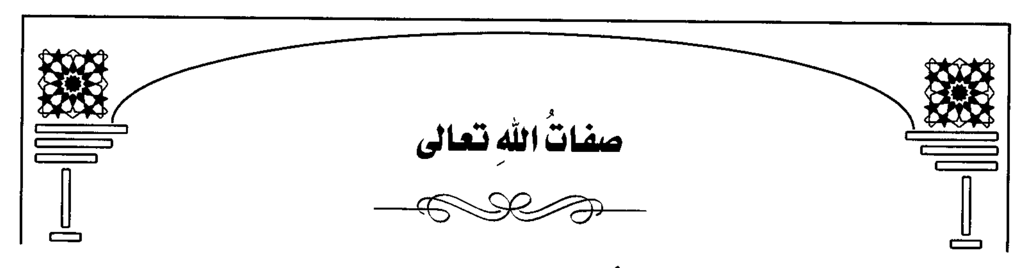
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٥).

وإجماعِ الصحابَةِ، فإذا سألَنَا اللهُ تعَالَى يوم القِيامَةِ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥] نقولُ: أجَبْنَا رُسُولَكَ بأنا صَدَّقنَا ما جاءَ به مِنْ رؤْيَتِك حَقًّا.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





صفاتُ اللهِ تعالى

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأُصَلِّي وأسلم على نبيِّنا محمدٍ، خاتَمِ النبيين وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فيَجِبُ علينا أن نَعْتَقِدَ بأنَّ اللهَ تَعَالَى له المَثَلُ الأعلى، كما جاءَ ذلك في آيتين مِن القرآن، الآية الأولى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠] والمقصودُ بالمَثَل الأعلى هو الوَصْفُ الأعلى، وذكرنا شاهدًا لمجيءِ المَثَل بمعنى الوصف، وهو قولُه تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥] أي وَصْفُها.

كما أنَّ للهِ تَعَالَى الأسماءَ الحُسْنَى، ذكَرَ اللهُ ذلك في أربعِ آياتٍ مِن القرآنِ:

الآية الأُولى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

الآية الثانية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

الآية الثالثة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٩]

الآية الرابعة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر:٢٤].

يَجِبُ علينا أن نُؤمِنَ بكلِّ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه على وَجهِ الحَقيقةِ دُونَ المَجازِ، والدَّلِيلُ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢] أي: لا أَحَدَ أَصْدَقُ، وإذا كانَ كلامُ اللهِ تَعَالَى أصدقَ القولِ، وجَبَ أن نُؤمِنَ بما أخبر اللهُ به عن نفسِه،

وعدمُ الإيمانِ بذلك يعني التكذيبَ.

وَيجُب أنْ يَكـونَ ذلك على الحـقيقةِ التي تَقْتَضِيها اللُّغـةُ العربيةُ، أو الأدلةُ الشرعيةُ، ودليلُ هذا قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وعلى هذا يَجِـبُ أن نُنَزِّلَ هذا القرآنَ على ما يَقْتَضِيهِ اللِّسانُ العربيُّ المبين، أو تَقْتَضِيهِ الشريعة؛ لأنَّ الشريعةَ نَقَلَت بعضَ الألفاظِ عن مَدْلولها اللغويِّ إلى مدلولٍ شَرْعِيٍّ، كالصلاةِ مثلًا.

وهنـاك **دَلِيلٌ آخَرُ**، وهو قولُه تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: صَيَّرْناه بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣]، أي تَعْقِلُـونَ المعنى وتَفْهَمونَه، وهذا يعني أنْ نُنَزِّلَ القرآنَ على ما يَقْتَضِيهِ اللِّسانُ العربيُّ.

وعلى هـذا فكلُّ ما أخبر اللهُ به عن نفسِه يجب أَنْ يُنَزَّل على حقيقتِـه اللغوية أو الشرعية، ولا يجـوزُ لنا أن نَتحَكَّم في ذلك بعُقـولِنا؛ لأننا إذا حَكَمنا على ذلك بالعقـول فمعناه أننا حَوَّلنا كُلَّ ما أنزل اللهُ إلى ما يقتضيه العَقْلُ، فيكـونُ ارتكازُ الناسِ في العقائد على عُقـولِهم، وقد قال بعضُ أهلِ العِلْم: ليتَ شِعْرِي بأيِّ عَقْلٍ يُوزنُ الكتابُ والسُّنة، أفكُلَّما جاءنا رجلٌ أَجْدَلُ مِن رَجُلٍ تَرَكْنَا الكِتابَ والسُّنة إلى جَدَلِ هذا؟

ولهذا أقولُ لكم: إن شِئْتُم فطالعوا كُتُبَ الذين يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضِعِه مِن المُتكَلِّمين، وسوف تَجِدونَ تَناقضًا واضحًا، هذا يقول: هذا واجبٌ للهِ، واجبٌ إثباتُه. وهذا يقول: مُسْتحيلٌ على اللهِ يجبُ نَفْيُه. وهذا يقول: هذا جَائِزٌ، يجوزُ إثباتُه ونفيُه. فهم مُتناقِضُونَ، وقـد أنشدناكم الشِّعر الذي قاله إمامٌ مِن أئمة المُتكَلِّـمين،

وهو الرازيُّ حيث قالَ[(١)]:

نِهَايَــةُ إِقْــدَامِ العُقُــولِ عِقَــالُ وَأَكْثَــرُ سَــعْيِ العَــالَمِينَ ضَــلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُـومِنَا وَغَايَــةُ دُنْيَانَــا أَذًى وَوَبَــالُ
وَلَـمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَـا سِـوَى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

وقال: لقـد تَأَمَّلْتُ الطُّرق الكَلامية والمَنـاهِجَ الفَلْسفيَّةَ، فما رأيتُها تَرْوِي غَلِيلًا، ولا تَشْفِي عَلِيلًا، ووَجَدْتُ أقْرَبَ الطُّرقِ طَرِيقةَ القُرآنِ، فأقرأ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وأقرأ في النـفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، مَن جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مثلَ معرفتي.

وكثيرٌ ممن مَنَّ اللهُ عليهم بالرجوعِ عن طَرِيقِ المتكلمين رَجَعوا للحَقِّ، فهذا أبو المعالي الجُويني إمامُ الحرمين رجَعَ عن مذهب الأشاعرةِ إلى المذهب الصحيحِ، وكذلك أبو الحَسَنِ الأشعريُّ الذي يَنْتَسِبُ إليه الأشاعرةُ اليوم، رجَعَ عن هذا المذهب، فقد كان أبو الحسنِ الأشعريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مَذْهبِ المُعْتزلةِ، وبَقِيَ على هذا المذهبِ أربعين سَنَةً، يُجادِلُ عنه ويُقَرِّرُه، حتى بَدَا له بُطلانُه، ثم قام يومَ الجمعة خَطِيبًا في المَسْجِدِ، فوضَع عِمامتَه وقال: أيها الناسُ، مَن عَرَفَنِي فقد عَرَفَنِي، ومن لم يَعْرِفْنِي فأنا أبو الحَسَنِ الأشعريُّ[(٢)].

وأعلن أنه راجِعٌ عن مَذْهَبِ المُعْتزلةِ، وجَعَلَ يُفَنِّده ويُبْطِلُه، ثم صارَ في مَذْهَبٍ بينَ مَذْهَبِ المُعتزلةِ ومذهبِ أَهْلِ السُّنـة على طريقِ عبدِ اللهِ بنِ سَعِيـدِ بنِ كُلَّابٍ،

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٠٩).
(٢) انظر تاريخ الإسلام، للذهبي (٢٤/ ١٥٥).

ثم مَنَّ اللهُ عليه أخيرًا بأنْ نَهَجَ مَنْهَجَ أهلِ السُّنة، واعْتَرَفَ في كتابِه (الإبانة) أنه على مذهبِ الإمامِ المُبَجَّلِ أحمدَ بنِ حَنْبلٍ، رَحِم اللهُ الجميع.

لكن كبار مُتَّبِعِيهِ أخذوا بمَذْهَبِهِ الأوسطِ، فلم يكونوا على سُنَّةٍ مَحْضَةٍ، ولا على اعْتِزالٍ مَحْضٍ، وجعلوا يُقَرِّرونَ هذا المَذْهَبَ إلى يَوْمِنا هذا.

ولكن يَجِبُ على المُسْلِمِ عندَ اختـلافِ العُلماءِ في المَسائِلِ الأُصولية والمَسائِلِ الفِقْهِيَّةِ أَنْ يَرْجِعَ إلى الكتاب والسُّنة، لا إلى غيرهما، ويجبُ أَنْ يُجَرِّدَ عقلَه مِن أَيِّ معنًى حتى يَقْرَأَ الكتابَ والسُّنة، أما أَنْ يَعْتقِدَ عقيدةً، ثم يبحثَ عن الكتابِ والسُّنة، فإنَّ الهَوَى ربما يَحْمِلُه على لَيِّ أعناقِ النصوصِ إلى المعنى الذي يُوافِقُ مَذْهبَه، كما وَجَدْنا هذا في كُتُبِ الأصولِ في العَقيدةِ، ووجدناه في كُتبِ الفُروعِ في الفِقْه، فإنَّ الإنسانَ إذا اعْتَقَدَ عَقِيدةً، أو رأى رأيًا، حَاوَلَ أَنْ يَلْوِيَ أعناقَ النصوص إليه، وجَعَلَ يُحَرِّفُها بنَوْعٍ مِن التأويلِ.

واعْلَمْ -أخي المسلم- أنه لن يَنْفَعَك يومَ القيامةِ إلا اتِّباعُ النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- فيَجِبُ أن تُجَرِّدَ نفسَك مِن الهَوَى، ويجب أن تَستدِلَّ أولًا، ثم تَحْكُمَ بعدَ ذلك، لكن أن تَحْكُمَ ثم تَسْتَدِلَّ فرُبَّما تَزِيغُ عن الحقِّ.

وَلْنضرِبْ أمثلةً في العقيدةِ:

قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢١-٢٤].

هكذا جاءَ القرآنُ مِن عندِ رَبِّنا، أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَجِيءُ، وكذلك الملائكةُ تَجِيءُ،

وهذا ما يَقَعُ في عَقْلِ أَيِّ عَامِّيٍّ تَقْرَأُ عليه هذه الآياتِ، فوجَبَ علينا أن نُثْبِتَ للهِ المَجِيءَ، وإذا سَأَلَنِي رَبِّي يوم القيامة: كيف تُثْبِتُ أني أَجِيءُ؟ أقولُ: يا ربِّ، هذا كَلامُكَ، أَنْزَلْتَه لِنُؤْمِنَ بما جاءَ به القرآن، وحينَئِذٍ أَسْلَمُ.

ولكنْ المُتأَوِّلون الذين سَلَكوا طَرِيقَ العقـل، وقالوا بتَحْكِيمِ العَقْـلِ دونَ الكتاب والسُّنة، بما يَتعلَّق بالصفاتِ، قالوا: جاءَ رَبُّكَ، أي جاءَ أَمْرُ رَبِّك! ولا أَعْلَمُ كيف سيُجِيبُ هؤلاءِ رَبَّهم يومَ القَيامةِ، إذا قال: إِنِّي قُلْتُ في كِتابي: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وأنتم تقولون: جاء أَمْرُ ربي. فمِن أَيْنَ لكم الدَّلِيلُ؟ مِن أين لكم هذا المعنى؟ وواللهِ لن يَسْتَطِيعُوا جَوابًا مَهْما فَعَلوا.

والقرآنُ واضحٌ بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، فها هو يَقولُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وأنت تقولُ: جاء أَمْرُ رَبِّك. فربما يأتي مَن يقول: جَاء عَذَابُ رَبِّك. وهذا القولُ أَقْوَى من سَابِقِه، فقد قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: جاءَ عَذابُ رَبِّك. وقد يأتي ثالثٌ فيَقولُ كلامًا آخَرَ حَسب هواهُ ورأيِه، وكلُّ هذه المعاني التي تُخـالِفُ ظاهِرَ اللفظ لا نَتَّبِعُها، بل نَجْـعَلُها صِفْرًا على اليَسارِ، ونَعتقِدُ ظَاهِرَ اللفظِ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: جاءَ رَبُّ العالمين عَزَّوَجَلَّ.

وقد يقول قائل: كيف يَجِيءُ؟ ومِن أين يَجِيءُ؟ فنقولُ له كما قالَ الإمام مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الاستواءِ: المَجِيءُ غيرُ مجْهولٍ، بل مَعْروفٌ، والكيفُ غَيْرُ مَعْقولٍ. فنُثْبِتُ المَجِيءَ ولا ندري كيف يَجِيءُ، فهـو يَجِيءُ كيفَ شاءَ، على أيِّ صِفَةٍ كانت. فهذه أمورٌ غَيْبِيَّةٌ، ومعانيها أكبرُ مِن أَنْ تُدْرِكَها عُقولُنا، أي كَيْفيتُها أكبرُ مِن أن تُدْرِكَها عُقولُنا، فَلْنُثْبِتِ المَعْنَى، ونَدَعِ الكَيْفيَّةَ؛ لأنه لا عِلْمَ لنا بها.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة:٢١٠] والذي نَفْهَمُه مِن الآياتِ أنَّ اللهَ هو الذي يأتي، فنُثْبِتُ مَجِيءَ اللهِ، نُثْبِتُ إتيانَ اللهِ، ونحن في سَلامةٍ، وعلى حقٍّ.

فيأتي مَن يُلَبِّس على العامِّيِّ، أو على طَالِبِ العِلْمِ الصغير، فيقول: كيف يأتي اللهُ يومَ القيامة في ظُلَلٍ من الغَمامِ، فهذا معناه أنَّ الظُّلَلَ مُحِيطةٌ باللهِ؛ لأن (في) للظَّرْفيَّةِ، والظرفُ مُحِيطٌ بالمَظروفِ؟ فنقولُ: هذا مِن تَلْبيسِ إبليسَ، ولابنِ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابٌ اسْمُه (تَلْبِيس إبليس)، بل قُلْ ما قالَ اللهُ عن نفسِه، ولا تَتجاوَزْ. و(في) هنا تَحْتَمِلُ أن تَكونَ بمعنَى (مع)، أو أن تكونَ بمعنَى (على)، هذا إن أَرَدْنَا أن نُخاطِبَ هذا الرَّجُل المُلَبِّسَ المُضَلِّل، وإلا لقُلْنا كما قال القرآنُ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾، ونسكت عما سِوَى ذلك، ونَعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالَى لا يُحِيطُ به شيءٌ؛ لأنَّ اللهَ أعْظَمُ مِن أَنْ يُحِيطَ به شيءٌ.

فاسلُكْ أخي المسلم طريقَ السلامةِ، فسوف تَمُوتُ، وتُواجِهُ ربَّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، وقد أَنْزَلَ عليك الكِتابَ، وهو أَبْيَنُ ما يَكونُ تِبْيانًا لكلِّ شيءٍ، فلا تَتَعَدَّ ظَاهِرَ القرآنِ فيما يَتعلَّقُ بصفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

إن عَقيدتَنا التي نَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُثَبِّتَنا عليها، وَأَنْ يُميتَنا عليها، وأن نَلْقاه بها، أننا نُثبتُ مَجِيءَ الله عَزَّوَجَلَّ، كما أخبر بذلك عن نفسِه، ولكننا لا نقولُ: كيف جاءَ.

وقد ذكَرْنا قبلَ ذلك الاستواءَ، وكيف أن أَحَدَ المُتَحَذْلِقِينَ يقولُ في معنَى قولِه تَعالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ إنَّ استوى بمعنى استولى. ثم يأتي بشاهدٍ

من الشِّعْرِ(١):

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ

وبِشْرٌ هذا هو بِشْرُ بنُ مَرْوانَ مِن بَنِي أُمَيَّة، فيقول: اسْتَوى على العِرَاقِ، أي استولى. فنُجِيبُ: أولًا: نُطالِبُه بأن يُثْبِتَ مَن قَائِلُ هذا البيتِ، وَلْيأتِنا بالسَّنَدِ: حَدَّثَنا فُلانٌ عن فُلانٍ، حتى يَنْتَهِيَ إلى الشاعرِ، ولنا الحَقُّ في هذا، حتى نَعْرِفَ هل قال هذا القَائِلُ هذا البيتَ قبلَ أَنْ يَتَغَيَّرَ اللِّسانُ العَرَبِيُّ، فإنَّ اللِّسانَ العربيَّ تَغَيَّرَ مِن عَهْدِ عليِّ بنِ أبي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كما في قِصَّةِ أبي الأَسْودِ الدُّؤَلِيِّ التي يَرْويها النحْوِيونَ.

وتقول القِصَّةُ: إنَّ أبا الأَسْوَدِ الدُّؤَلي قالت له ابنتُه: يا أَبَتِ ما أحسنُ السماءِ؟ قال أبو الأسود: نُجومُها. لأنها عندما رَفَعَتْ كَلِمَة (أحسنُ)، فمعنى ذلك أنها تَسْأَلُ، والمعروفُ أن أَحْسَنَ السماءِ النُّجومُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥] ولذلك كان جوابُه صحيحًا لما سَمِعَ منها، فقالت: يا أبتِ لستُ أَسْأَلُك عن هذا، إنما أَتَعَجَّبُ مِن حُسْنِ السماءِ، فالليلةُ صافيةٌ، والنجومُ لامِعةٌ. فقال: يا ابنتي افْتَحِي فَاكِ -أي فَمَكِ- وقولي: ما أحسنَ السماءَ، بالفتحِ. ثم قيل: إنه اتَّصلَ بعليِّ بنِ أبي طَالِبٍ، واتفقا على أَنْ يَضَعَا قَواعِدَ يَسيرةً في النحو. فاللسان قد تَغَيَّرَ قبل أَنْ يَتولَّى بنو أُمَيَّة الخِلافةَ.

وإذا صَحَّ السند، وصَحَّ أن هذا الرَّجل مِن أَقْحاحِ العَرَبِ، فمعنى استوى على العراق أي كَمُلَ اسْتِيلاؤُه عليه؛ لأنَّ الاستواءَ بمعنى الكمالِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) انظر العرش للذهبي (١/ ١٩٧، ٢٠٣)، وانظر الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٦١٩).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، أي: كَمُلَ. وكما تقولُ: اسْتَوتِ التمرةُ، أي كَمُلَ نُضْجُها. فمعنى استوى على العراق أي: كَمُلَ استيلاؤُه عليه، وليسَ استيلاءً فَقَط.

وهناك شيءٌ آخرُ، قد يكونُ معنى قولِه: استوى على العِراقِ، أي اسْتِواءً مَعْنَوِيًّا، لا حِسِّيًّا، وحينَئذٍ يَبْطُلُ الاستدلالُ بهذا الشِّعْرِ، ويَصِيرُ المعنى كما ذَكَرْنَا قبلَ ذلك، ولا حاجةَ إلى التَّكْرارِ.

وعَقِيدَتُنا بأنَّ اللهَ فوقَ كلِّ شيء مُسْتَوٍ على عرشِه هي عقيدةُ كلِّ مُسلِمٍ -والحمدُ للهِ- خَلَا مِن الشُّبهات الكلامية، فالمسلمون حين يسجدون يقولون: سُبْحانَ رَبِّي الأعلى. والأعلى تعني أنه فوقَ كلِّ أحدٍ؛ ولهذا لما أَنْزَلَ الإنسانُ نفسَه إلى أسفلِ مكانٍ -لأنَّ وَجْهَك إذا سجدتَ يكونُ في مَواطِئِ الأقدامِ، ووَجْهُكَ هو أعزُّ شيءٍ في بَدَنِكَ- قال: سُبْحان ربي الأعلى، أي: المُنَزَّه عن السُّفُول.

فيَجِبُ علينا في العقيدةِ أن نَحْذَرَ غايةَ الحَذَرِ مِن التمثيلِ، أي مِن اعتقادِ أنَّ اللهَ مُماثِلٌ للخَلْقِ في صِفاتِه؛ لأنَّ المُمَثِّلَ إذا مَثَّلَ الربَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَقَدْ عبدَ صَنَمًا، كما قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مُقَدِّمَةِ النُّونية[1] قال: «المُشَبِّهُ يعبُد صَنَمًا، والمُعطِّلُ يعبُد عَدَمًا، والمُوَحِّدُ يعبُدُ إلهًا وَاحِدًا صمدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]». اللَّهُمَّ اجْعَلْنا منهم يا ربَّ العالمين.

فاحذر مِن التمثيلِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفَى أَنْ يكونَ له مَثِيلٌ فقالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ونهى أَنْ يُمَثَّلَ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

---

(١) النونية، مع توضيح المقاصد وتصحيح القواعد (١/ ٢٨).

فنحن إذا اعتقدنا أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُسْتوٍ على عَرْشِه فلا يعني هذا أنه جِسْمٌ كالأجسامِ المُسْتويةِ على عُروشِها، كالمُلوك مثلًا، فهذا لا يجوزُ، لأنَّ اللهَ ليسَ كمِثْلِه شيءٌ.

فإذا اعتقدنا أنَّ اللهَ يَجِيءُ فلا نَعْتَقِد أنه يجيءُ كما يجيءُ الإنسانُ، بل نُنْكِرُ هذا أشدَّ الإنكارِ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فليسَ ضَيْرٌ أو مسؤولية عليك، إذا أثبتَّ للهِ تَعَالَى الصفاتِ التي أَثْبَتَها لنفسِه، دونَ أن تُمَثِّلَها بالخَلْقِ.

فنُثْبِتُ للهِ وَجْهًا، والدليلُ قولُه تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، لكن لا يَجوزُ إذا أَثْبَتْنا الوَجْهَ للهِ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن نَعْتَقِدَ أنه مِثْلُ وُجوهِنا، ونعلم عِلْمَ اليقين أنه لا يُماثِلُ الوُجوهَ، ونَعلَمُ عِلم اليقين أنه لا يجوز أن نَتَصَّورَ كيفية هذا الوجهِ؛ لأنك إذا كَيَّفْتَه فأنت كَاذِبٌ؛ لأنك لا تَعْلَمُ؛ وحِينَئِذٍ يَجِبُ أن تَكُفَّ عن الكيفية، ويَجِبُ أن تُؤْمِنَ أنه ليسَ كالوُجوهِ؛ لقولِه تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فلا يَلْزَمُ في المخلوقات التي لها وُجوهٌ أن تَتَماثَلَ وُجوهُها، بل الوجوه لا تتماثَلُ في النوعِ الواحد، فمثلًا نحن البَشَر وجوهُنا غيرُ مُتَماثِلَة، مِنَّا المستطيل، ومِنَّا المستدير، ومِنَّا البارِز، ومِنَّا المُنْخَفِض، وهكذا. لكن لا أريد هذا، ففيه نوعٌ مِن المشابهة، لكن لا يَتماثَلُ وَجْهُ الحِصَانِ مثلًا ووجه راكبِ الحِصان، فإذا كان الاشتراك في الاسم في المخلوقات لا يَلْزَمُ منه التماثُل والتساوي، فكيف بين الخالِق والمخلوقِ؟!

فإذا قال المُعَطِّلُ المُحَرِّفُ لكتابِ اللهِ: اللهُ ليسَ له وَجْهٌ؛ لأننا لو أثبتنا له وجهًا

لَزِمَ التماثُل. نقول: ليسَ بصحيحٍ، بل له وَجْهٌ لا يُماثِلُ أَوْجُهَ المخلوقين. وانظر إلى وَجْهِكَ وإلى وَجْهِ حِصانِكَ، لا يتماثلان، فلا تُلْزِمْنا بهذا.

ثم نقول: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثبتَ أنَّ للنَّهار وَجْهًا، والدليلُ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران:٧٢]، فهل للنهارِ وَجْهٌ حقيقةً؟ نعم، واللهِ له وَجْهٌ حَقِيقةً، ولا نَرْضَى بمَن يَنْفِي ذلك، فكيف يقولُ: ليسَ له وَجْـهٌ، واللهُ حَكَى هذا الوَجْهَ مُقَرِّرًا إياه؟! لكن نقول: له وَجْهٌ، لكن ليسَ وَجْهُ النهارِ كوَجْهِ الأجسامِ، بل معناه: أَوَّلُ النهار؛ لأن أَوَّلَ ما يُواجِهُ الإنسانَ مِن النهارِ أَوَّلُه.

على كلِّ حـالٍ أُكَرِّرُ، ثم أُكَرِّرُ، ثم أُكَرِّر؛ إبلاغًا لكم، وإبراءً لذِمَّتِي، وإقـامةً للحُجَّةِ، على أنه يَجِبُ علينا أن نُؤْمِنَ بما في القرآنِ والسُّنة مِن صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومِن أسماءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بدُونِ تَحْرِيفٍ، أي صَرْفٍ لها عن ظَاهِرِها، وبدُونِ تَمْثِيلٍ، رَضِيَ مَن رَضِيَ، وسَخِطَ مَن سَخِطَ؛ لأننا يومَ القيامةِ سَوْفَ نُسْأَلُ كما قالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، وَلْيَرْضَ مَن يَرْضَى، وَلْيَسْخَط مَن يَسْخَط، فإن كان معنا نُورٌ بينَ أيدينا نمشي به، فلا يُهِمُّنا غيرُنا، حتى مَن أراد أَنْ يُشَوِّهَ الأمرَ فليُشَوِّه على نفسِه؛ فالحقُّ مَنصورٌ على كلِّ حالٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية[1]:

الحَـقُّ مَنْصُـورٌ وَمُمْـتَحَنٌ فَـلَا ... تَعْجَـبْ فَهَـذِي سُـنَّةُ الـرَّحْمَنِ

---

(١) انظر النونية (ص:١٧).

وهكذا قد بَيَّنْتُ بيانًا واضحًا:

أولًا: أنَّ الوَاجِبَ علينا اعتقـادُ ما دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنـةُ مِن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه على وَجْهِ الحَقيقةِ.

ثانيًا: يَجِبُ علـينا أنْ نَنْفِيَ ونُنْكِرَ كُلَّ تَمثيلٍ مِن أيِّ إنسانٍ أرادَ أَنْ يُمَثِّلَ اللهَ بخَلْقِه؛ لأنَّ اللهَ أخبرَ أنه ليسَ كَمِثْلِه شيءٌ، ونهى أن نَضْرِبَ له الأمثالَ.

وهنا نسأل: هل يُرى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ نعم، ولكن يومَ القيـامةِ، فلا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى في الدُّنيا؛ لقـولِ النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: «**وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا**»(١).

فإن جاء أَحَـدٌ وقال: أنا رأيتُ اللهَ أَمْسِ، وحـدَّثَنِي وقال: يا فلان... فإننـا لا نَقْبلُه، ولا نُصَدِّقُ كَلامَه؛ لأننا نَعْلَمُ أنه لن يَرَى أحدٌ رَبَّه إلا إذا ماتَ، ولن يُرَى عَزَّوَجَلَّ إلا في القيامةِ أو في الجَنَّةِ. اللهُمَّ ارزقنا لذَّةَ النظرِ إلى وَجْهِكَ الكَريمِ.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ سوف يُرى حقًّا، ولكن إذا رآه المؤمنون يومَ القيامة فلا يُمكن أَنْ يُدْركوه، كما أننا نَعْلَم أنه عليمٌ، ولا يمكن أن نُحِيطَ بعِلْمِه، ولا يمكن أن نُدْرِكَه، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، فإذا قال إنسانٌ: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قـال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] قال ذلك شوقًا إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أي: في الدُّنيا، أي لن تَرَانِي كما طَلَبْتَ مني ذلك، فهذا لا يُمْكِنُك، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾، فضَرَبَ الله له مثلًا

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج، رقم (٤٠٧٧).

حتى يَعْلَمَ ذلك، ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، وتعليقُ الشيءِ بالمُسْتحيلِ يَجْعَلُه مُسْتحِيلًا أيضا؛ ولهذا قال الشاعر[1]:

إِذَا شَـابَ الغُـرَابُ أَتَيْـتُ أَهْـلِي وَصَـارَ القَـارُ كَـاللَّبَنِ الحَلِيـبِ

يريد أَنْ يقـول: إن الغرابَ وهو أسودُ اللونِ إذا شابَ صارَ أَبْيَض، والقارُ كذلك أسودُ اللون، إذا صار أبيضَ مِثْلَ اللبنِ، إذا حَدَثَ هذان الأمرانِ فسوف يأتي أَهْلَه، وهما مُستحيلانِ، فعَلَّقَ الفِعْلَ بأمرٍ مُستحيلٍ نَفْيًا له.

كذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ لموسى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ واللهُ أَعْلَمُ كيف تَجَلَّى، فنحن لا ندري، فلما تَجَلَّى للجبل انْدَكَّ أمامَ موسى، وهو ينظر إليـه، فصار تُرابًا، ولا يُمْكِنُ بعد هذا كُلِّه أَنْ يَتَحَـمَّلَ موسى رُؤْيَةَ اللهِ؛ فإذا كان الجَبَلُ لم يَتَحَمَّلْ فكيف بمُوسَى، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: غُشِيَ عليه مِن هَوْلِ ما رَأَى، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تابَ إلى اللهِ كما حَدَثَ مع نُوحٍ عندما سأَلَ ما ليسَ له به عِلْمٌ، وموسى سَأَلَ أَنْ يَرَى ربَّه شوقًا إليه، ولكن تَبَيَّنَ أن هذا مُستحِيلٌ.

والدليلُ على أنَّ اللهَ يُرَى يومَ القيامةِ نقولُ والحمدُ للهِ: الأدلةُ كثيرةٌ، وهي عندَنا ثلاثةُ أصنافٍ: القرآنُ والسُّنة وإجماعُ الصحابة.

أما القرآنُ فقولُه تعَـالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

---

(١) انظر الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص:٣٧)، وانظر حياة الحيوان الكبرى (٢/ ٢٤٤).

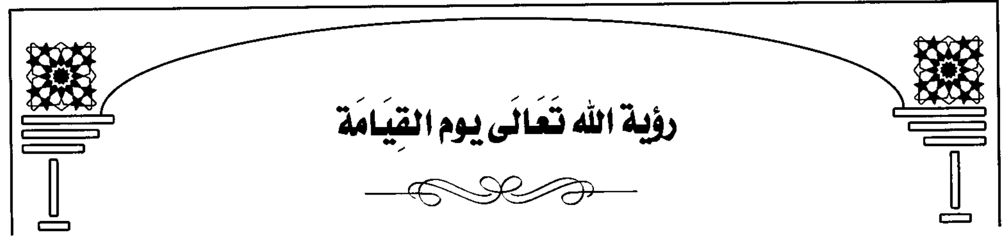
[القيامة:٢٢-٢٣]، أي: تَنْظُرُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فتَزْدَادُ بذلك حُسْنًا.

وكذلك قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، ووَجْهُ الدَّلالةِ من هذهِ الآيةِ كما قال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَلَمَّا حَجَبَهُمْ فِي السَّخَطِ: كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا)[1]؛ ولهذا في قال آخرِ السورة: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥]، فلما كان هؤلاء محجوبين عن اللهِ صار الأبرارُ يَنْظرون إلى اللهِ، ولو كان الأبرارُ لا يَنْظرون إليه، لم يكن بينَهم وبين الفُجَّار فَرْقٌ في هذا.

وكذلك قولُه تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:١١] فَسَّرَ أعلمُ الخَلْقِ بكلامِ اللهِ مُحَمَّدٌ رسولُ الله بأن الزِّيادةَ هي النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ. وقولُه تَعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] هذا المَزِيدُ يُفَسَّرُ بأنه رُؤْيةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.



(١) انظر أحكام القرآن للشافعي جمع الإمام البيهقي(١/ ٤٠).



الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّينَ وإمامِ المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فيَجدُر بنا أن نتكلم على رُؤيةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فنقول: رؤيةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثابتة بالقُرآنِ، والسنَّة، وإجماعِ الصَّحَابَةِ:

أولًا: الكتابُ:

الدليل الأول: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، ناضِرة: بمعنى حَسَنَة بَهِيَّة، ونَاظِرَة: بمعنى تنظُر بالعينِ.

ومنه ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] بعض العلماء يقول: إن الإنسان إذا قرأ: (ولا الظَّالِّين) بَطَلَتْ صلاتُه؛ لأن المعنى يَختلِف، وبعض العلماء يقول: إنَّه يُعفى عن ذلك؛ لأن التفريقَ بينهما خفِيٌّ، ولا سِيَّما على العَوامِّ، ولأن مخارجَ الحروفِ في الضاد والظاء متقاربةٌ، وهذا القولُ هو الصحيحُ؛ أن الإنسان إذا قال بغيرِ قصدٍ لتحريفِ المعنى (ولا الظَّالِّين) كما نسمع مِن كثيرٍ من الأئمةِ فإن ذلك لا يضرُّ.

الدَّلِيل الثَّاني: قوله تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وهي النظَرُ إلى وجهِ اللهِ.

الدَّلِيل الثَّالث: قولُ اللهِ في الفُجَّار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

واستدلَّ الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآيةِ على ثُبُوت النظرِ إلى وجهِ اللهِ للأبرارِ،

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله لم يحجب هَؤُلاءِ عن النظر إليه إلَّا لِيُثْبِتَه للأبرارِ(١)؛ لأن الله ذَكَرَ في سُورَة المطففينَ فُجَّارًا وأبرارًا، فإذا قال في الفجار: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فالمعنى أن الأبرارَ غيرُ محجوبينَ؛ لأنَّه لو كان الكل محجوبينَ لم يكن لقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فائدة؛ لأن الكلَّ محجوب.

ثمَّ انظر آخرَ السُّورة: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥] فإنَّ أوَّلَ ما ينْظُرونَ إلى الله؛ لأن أولئك الفُجَّار محجوبون.

الدَّلِيل الرَّابع: قول اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تُدرِكه الأبصارُ وهو يُدرِك الأبصار، ووجه الدَّلالة أنَّه تعَالَى لم يَقُل: لا تراه الأبْصارُ؛ بل قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ يعني أنَّها تراهُ لكن لا تُدركه؛ لأنَّه أعظمُ وأجلُّ مِن أنْ يُدرَك بالبصرِ.

ولما سألَ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُرِيَه نفسَه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ﴾ له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولا يُمكِنك أن تراني، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ يعني أعطاه علامةً، ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فانهارَ الجبَل واندكَّ؛ لأنَّه لا أحدَ ولا شيءَ يَستقيمُ لرؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا في الدُّنيا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ غُشِي عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وجهُ الدَّلالة مِن الآيةِ أنَّه لو كان النظرُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُسْتَحِيلًا عقلًا أو شَرعًا ما سأله مُوسَى؛ لأن سؤال المستحيلِ مِن الاعتداءِ في الدُّعاءِ، وموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣)، ونصه: قَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا أَنْ حُجِبُوا هَؤُلَاءِ فِي السَّخَطِ كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا.

أَحَدُ أُولِي العَزْمِ الكِرام، ولا يمكِن أَنْ يسأل الله شيئًا مستحيلًا، فسأل الله إلَّا أَنَّ اللهَ بَيَّن له أنَّه لا يمكِن أَنْ يصمـدَ أمامَ رؤيةِ اللهِ في هذه الدُّنيا، فقـال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾.

ولوْ قال قائلٌ: إن قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يَشمل الدُّنيا والآخرةَ. لقُلنا: هذا غلطٌ؛ لأنَّ موسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سأل شيئًا حاضِرًا، فيكون جـوابُه عن شيءٍ حاضرٍ، وليس عن شيءٍ مُستقبَل.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في الَّذِينَ يَدَّعـون أنَّ لهم الدارَ الآخِرة: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٩٤-٩٥]، مع أن أهل النَّار كلُّهم يقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] ليُميتَنا، فتَمَنَّوُا الموتَ، فدلَّ هذا على أن النَّفيَ بـ(لن) يختصُّ بالحالِ أو بالوقتِ أو بالمكانِ الَّذِي يُناسِب المعنى.

فهذه أربعةُ أدلَّة، ويكفي مِن هذه الأدلَّة دليلٌ واحدٌ، والقُرآنُ يقرؤه المسلمونَ منذ نَزَلَ إلى اليوم.

ثانيًا: السُّنَّة:

قالَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّـونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَـبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**» وهي صلاةُ الفجر «**وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**» وهي صلاةُ العصر «**فَافْعَلُوا**»[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣).

أَتَرَوْنَ بيانًا أحسنَ مِن هذا البيان؟ لا واللهِ، أَتَرَوْنَ أحدًا أصدقَ مِن رسولِ الله مِن المخلوقين؟ أبدًا، أَتَرَوْنَ أحدًا مِن المخلوقين أعلمَ بالله مِن رسول اللهِ؟ أبدًا.

إذن كمالُ البيانِ، وكمالُ الصِّدق، وكمالُ العِلم في كلام الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ينفي أَنْ يكونَ المرادُ بهذا الحديثِ الرؤية القَلبيَّة اليَقِينِيَّة، بل المراد الرؤية بالعَيْنِ.

وفي هذا الحدِيث إشكالٌ، وهو قولُه: «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ» واللهُ تَعَالَى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

والجواب أن نقولَ: إنَّه لم يَقُلْ: إنكم سَتَرون ربَّكم كالقمرِ، بل شَبَّهَ الرؤية بالرؤيةِ، فقال: «كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ». فالكافُ حَرْفُ جَرٍّ ويدلُّ على التشبيهِ، و(ما) مصدريَّة، والتقدير: كرُؤيتكم، والمعْنَى: إنكم سَتَرَوْنَ ربَّكم كرُؤيتكم هذا القمرَ، إذن التشبيهُ للرؤيةِ بالرؤيةِ، وليس للمَرئيِّ بالمرئيِّ.

وأخبر النبيُّ ﷺ في حديثٍ آخرَ أننا نرى اللهَ عَزَّوَجَلَّ عِيَانًا كما نرى الشمسَ صَحوًا ليسَ دونها سَحاب[1]، وهو تبيينٌ واضحٌ، وعِيَانًا: يعني بالعين، فلا يُنكِر أحدٌ رؤيةَ الشمسِ في جَوٍّ صَحْوٍ ليس فيه سَحاب إلَّا مُكابِر.

فهذان حديثانِ صحيحانِ واضحانِ في أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُرى حقًّا بالعينِ.

إجماعُ الصَّحَابَة:

ما مِن أحدٍ مِن الصَّحَابَة نُقِلَ عنه نفيُ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان الصَّحَابَة يَقرءون كلامَ اللهِ، ويحفظون أحاديثَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم يُنقَلْ عنهم تفسيرُ القُرآنِ

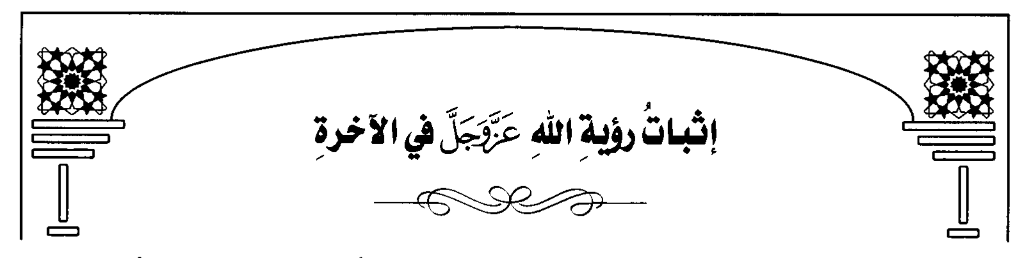
(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

بغيرِ ظاهرِه، ولا تفسير السنَّة بغيرِ ظاهرها، فهذا إجماعٌ منهم على أن معناهما هو الظاهِر منهما، وإلا لفسَّروا القُرآنَ بما فسَّره به مُنكِر الرؤيةِ، وفسَّرُوا السُّنةَ كذلك.

وإني في هذا المقام أسألُ اللهَ تَعَالَى أنْ يَهديَ مَن أنكرَ رؤيةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى الحقِّ، وإلى التصديقِ بما جاء في القُرآنِ والسُّنَّة بدون تحريفٍ، ولن تسمحَ نفسي أن أقولَ: أسألُ الله أَنْ يَحرِمَه النظرَ إلى وجـهِه، لا أقول هذا، ولكني أقول: أسألُ اللهَ أَنْ يهديَه إلى الحقِّ بإثباتِ ما أثبتَه اللهُ لنفسِه، وأثبتَه له رسولهُ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





إثباتُ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الآخرةِ

إن الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شرورِ أنفُسِنا ومِن سيئاتِ أعمالنا، منْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسولهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومَنْ تَبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد:١٨].

فالذين استجَابُوا لربهمْ هُمُ الذينَ آمنُوا بهِ وأطاعوهُ وامْتَثَلُوا ما أمرَ بهِ إيجابًا، واجتنبوا ما نَهَى عنهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والحُسنَى ليس المرادُ بها المجازاةُ بالحُسنى، بل المرادُ بها شيءٌ معينٌ، بَيَّنَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ يونسَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فسرَهَا النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- وهو أعلمُ الخَلقِ بمعنى كلامِ اللهِ؛ ففسَّرَ الحُسنى بالجنةِ، والزيادةَ بالنظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ[1].

وعلى هذا نقولُ: مِن عقيدةِ السلفِ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ إثباتُ أنَّ اللهَ تعالَى يُرى يومَ القيامةِ، يُرى رؤيةً حقيقيةً بالعَيْنِ، سبحانَ اللهِ، اللهُ يُرى رؤيةً حقيقيةً بالعينِ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

والدليلُ مِنَ القرآنِ والسُّنةِ:

الأدلةُ منَ القرآنِ على رؤيةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يوم القيامة:

في القرآنِ: قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] الأولى بالضادِ يعني أخت الصادِ، والثانيةُ بالظاءِ يعني أختَ الطاءِ؛ لأن بينهما فرقًا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي حسنةٌ مضيئةٌ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي رائيةٌ، أي ترى اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فهذهِ آيةٌ صريحةٌ؛ لأنهُ أضافَ النظرَ إلى الوجوهِ، والنظرُ بالوجوهِ يعني بالعُيونِ؛ لأن الإنسانَ إذا أرادَ أَنْ ينظرَ إلى شيءٍ فلا يُقَدِّمُ أنفَه لينظرَ إليهِ، ولا يُقَدِّمُ وَجْنَتَيهِ ولا شَفَتَيْهِ، ولكن يُقدمُ عينَيه، فينظرُ بالعينِ.

إذنِ الآيةُ صريحةٌ في أن اللهَ تَعَالَى يُنظرُ إليهِ بالعينِ.

وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]. وجهُ الدَّلالةِ منَ الآيةِ أنه لما حَجَبَ أعداءَه في السّخطِ رآهُ أولياؤُه في الرضا، ولو كانَ الكلُّ محجوبينَ عنهُ لم يكنْ هناكَ فرقٌ بينَ الفُجَّارِ والأبرارِ، وهذا واضحٌ.

ولذلكَ استدلَّ الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذهِ الآيةِ على إثباتِ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الآخرة[1].

ومِنْ ذلكَ أيضًا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورةِ ق: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] والمزيدُ فسَّرَهُ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في سُورةِ يونسَ حيثُ قالَ في قولِه تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قالَ: إن الزيادةَ هيَ النظرُ إلى وجهِ اللهِ، والقرآنُ يُفَسِّرُ بعضُه بعضًا.

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٠، رقم ٨٨٣).

ومِنَ الأدلَّةِ على ذلكَ قولُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] فإن هذهِ الآيةَ فيها دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يُرى بالبَصرِ، والاستدلالُ واضحٌ، ففي هذهِ الآيةِ دليلٌ على أن اللهَ يُرى؛ لأنهُ لو كانَ لا يُرى لقالَ: لا تراهُ الأبصارُ، ولكنهُ قالَ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾، يعني أنها تراهُ، ولكن لا تُدركُه؛ لأن اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أعظمُ مِن أنْ يُدْرِكَه البصرُ، وأعظمُ مِن أَنْ يُدركَه الذِّهْنُ، ولهذا قالَ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠].

إذن ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فيها إثباتُ رؤيةِ اللهِ؛ لأن نفيَ الإدراكِ يدلُّ على وجودِ أصلِ الرؤيةِ؛ لأنهُ عَزَّوَجَلَّ لا يُدْرَكُ لأنهُ أعظمُ مِن أن تحيطَ بهِ الأبصارُ.

الأدلةُ مِن السُّنَّةِ على رؤيةِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ:

أما السُّنـةُ فإنها متواتِرةٌ عن أعلَـمِ البَشَرِ بِرَبِّه، وهوَ محـمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ، والمتواترُ قالَ علماءُ الحديثِ: إنهُ يفيدُ العِلمَ اليَقِينِيَّ، يعني أن ما طريقُهُ الخبرُ المتواترُ كالذي طريقُه المحسوسُ المنظورُ، فالخبرُ المتواترُ مخبرهُ كالمنظورِ بالعينِ، يعني أنه يفيدُ اليقينَ.

والأدلةُ في إثباتِ رؤيةِ اللهِ منَ السُّنةِ متواترةٌ، وإني أُنشِدُكمْ هذينِ البيتينِ[1]:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَن كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

يعني هذهِ بعضٌ مما تواترَ، وإلا هناكَ أحاديثُ أخرى.

---

(١) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن التاودي (ت ١٢٠٩هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

إذنْ رؤيةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثابتةٌ بالسُّنةِ عن طريقِ النَّقْـلِ المتواترِ، فلا إشكالَ فيها، قالَ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَـذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ -أو: لَا تُضَامُونَ- فِي رُؤْيَتِهِ**»[1].

فلا أحـدَ يشكُّ في القمرِ ليلةَ البدرِ، فكلُّ الناسِ يرونَهُ، وفي اليومِ الثاني منَ الهلالِ يمكنُ أَنَّ أكثرَ الناسِ لا يراهُ، لكن ليلة البَدْرِ كلٌّ يراهُ.

وأخبرَ ﷺ أن المؤمنينَ يرونَ رَبَّهُم عِيانًا بأبصارِهم كما يرونَ الشمسَ صَحْوًا ليسَ دُونَها سَحَابٌ[2].

وحينئذٍ يجبُ على كلِّ مؤمنٍ باللهِ ورسولِه أَنْ يؤمنَ بأن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُرى يومَ القيامةِ رؤيةً حقيقيةً بالبَصَرِ، ولكن هل يُحاطُ بِهِ إذا رُئِيَ؟

الجوابُ: لا؛ لقولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. وهـذا أمرٌ لا يمكنُ فيه التكذيبُ؛ لأنه ثابتٌ في الكتابِ والسُّنـةِ، ولا يمكنُ فيهِ التأويلُ؛ لأنه صريحٌ، والتأويلُ إنما يكونُ فيما ليسَ بصريحٍ، أما ما كانَ صريحًا واضحًا فإنهُ لا يمكنُ إطلاقًا أَنْ يَحِلَّ فيهِ التأويلُ، بل إِنَّ أَيَّ تأويلٍ يَرِدُ عليهِ فإنما يُسمَّى تحريفًا وليس تأويلًا.

بقيَ أَنْ يقالَ: إنَّ فريقًا منَ الناسِ أَنْكَرَ ذلكَ وقالَ: لا يمكنُ وعندنا دليلٌ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

والدليلُ أن موسى قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما كلمَهُ ربُّه اشتاقَ إلى رؤيةِ اللهِ، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾، فقال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقالَ: إنَّ (لَنْ) تعني النفيَ المؤبدَ، يعني لن تراني أبدًا؛ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، وهذا في القرآنِ، وهـذا خبر أيضًا، والخبرُ لا يدخلُه النفيُ، ونفيُـه تكذيبٌ، فاللهُ تَعَالَى يقولُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ و(لَنْ) للتأبيدِ.

فيقالُ: أولًا: منِ ادَّعى أَنَّ (لَنْ) للتأبيدِ! فإنَّ اللغةَ العربيةَ والقرآنَ الكريمَ يُكَذِّبانِه؛ قالَ ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَمَنْ رَأَى النَّفْـيَ بِـ(لَنْ) مُؤَبَّـدَا فَقَوْلَـهُ ارْدُدْ وَسِـوَاهُ فَاعْضُـدَا

(ومَن رأى) يعني من علماءِ النحـوِ (النفيَ بـ(لنْ) مؤبدًا فقولَهُ اردُدْ وسواهُ فاعضُدَا) أي فانصُرْ سِوى هذا القولِ. هذهِ واحدةٌ.

والدليلُ على أَنَّ (لن) لا تستلزمُ التأبيدَ أنَّ اللهَ تَعَالَى قالَ في اليهودِ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة:٩٤-٩٥] مع أن أهلَ النارِ، واليَهود والنصَارى منهمْ، حيثُ لم يؤمنُوا بمحمدٍ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كُلهم يقولونَ: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] ومعنى يقضي: يُميتُنا، فيسألونَ الموتَ، فقالَ لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧] مع أنه قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾.

ثم نقولُ: إنَّ موسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سألَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يراه فقالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي في الدنيَا، أما في الآخرةِ فلها أحكامٌ أخرى؛ لأن البشرَ في الدُّنيا لا يستطيعونَ رؤيةَ اللهِ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا لما تجلَّى الربُّ عَزَّوَجَلَّ إلى الجبلِ اندكَّ الجبلُ

---

(١) شرح الكافية الشافية، لابن مالك (٣/ ١٥١٥).

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، ولا يمكنُ لأحدٍ أَنْ يُثبتَ رؤيةَ اللهِ في الدُّنيا، لكنْ في الآخرةِ يمكنُ أَنْ يُثبتَ، ففي الآخرةِ يَرى الإنسانُ في الجنةِ مُلكَهُ مسيرةَ ألفيْ عامٍ، يرى أقصاه كما يرى أدناهُ، وأعتقدُ أنَّ كثيرًا منَ الناسِ لو نظرَ فإنهُ لا يُدركُ الذي في الجانبِ الآخَرِ منَ المسجدِ الحرامِ، إلا القليل، فيعطِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ الناسَ يومَ القيامةِ قوةً ليستْ كقُوَّةِ الدُّنيا، أليسَ يَبقَونَ خمسينَ ألفَ سَنةٍ والشمسُ تدنو منهمْ بقَدْرِ ميلٍ، ولا يحترقونَ، فالآخرةُ أحوالُها غيرُ أحوالِ الدُّنيا، ومَنْ قاسَ أحوالَ الآخرةِ على أحوالِ الدُّنيا فَقَدْ حاولَ أَنْ يجمعَ بينَ المُتبايِنَيْنِ، وهذا مِنَ المُحَالِ.

على كلِّ حالٍ، نسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَمُنَّ علينا جميعًا بلذَّةِ النظرِ إلى وجههِ، والشَّوْقِ إلى لقائِه، مِن غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتنةٍ مُضلةٍ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ.





العُلُوُّ والاِسْتواءُ

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، إمامُ المتقينَ، وخاتَمُ النبيينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج:١-٣].

بيَّنَ اللهُ تَعالَى بهذهِ الآياتِ أنهُ سَيُوقِعُ العذابَ بالكافرينَ، وهذا كقولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٧-٨].

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ (ذي) بمعنى صاحبٍ، والمعارجُ جمعُ مِعراجٍ، وهيَ آلةُ العُروجِ، أي التي يُصعدُ بها إلى فَوق، وذُو المعارجِ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥]، رفيعُ الدرجاتِ يعني أن درجاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ رفيعةٌ؛ لأنهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فوقَ كلِّ شيءٍ؛ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال تَعالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠].

واعلمْ أخي المسلمُ أنهُ لا أحدَ ذا عقلٍ سليمٍ، وفِطرةٍ مستقيمةٍ، ينكرُ أنْ

يكونَ اللهُ تَعَالَى بذاتِه فوقَ كُلِّ شيءٍ، فكلُّ أحدٍ بفطرتِه المستقيمةِ وعقلِهِ القويمِ لا بُدَّ أَنْ يُقرَّ إقرارًا ضروريًّا بأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذاتِه فوقَ كلِّ شيءٍ.

فعُلُوُّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذاتيُّ ثابتٌ بأنواعِ الأدلةِ كُلِّها: القرآنِ، والسنةِ، وإجماعِ السلفِ، والعقلِ، والفطرةِ، خمسةُ أدلةٍ كلُّها تدلُّ على علوِّ اللهِ تَعَالَى فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يُمكنُ لإنسانٍ ذي عقلٍ سليمٍ وفطرةٍ مستقيمةٍ أَنْ يُنكرَ علوَّ اللهِ الذاتيَّ، كما لا أحدَ يُنكرُ عُلوَّ اللهِ المعنويَّ؛ لأن عُلوَّ اللهِ تَعَالَى نوعانِ: معنويٌّ وذاتيٌّ، فالمعنويُّ لا إشكالَ فيهِ، ولا إنكارَ فيهِ، وكذلكَ الذاتيُّ ليسَ فيهِ إشكالٌ ولا يُنكرُهُ إلا مقلوبُ العقلِ والفطرةِ.

الدلالةُ مِنَ القرآنِ على العُلوِّ:

القرآنُ الكريمُ مملوءٌ بذِكرِ الأدلةِ الدالَّةِ على عُلوِّ اللهِ بأنواعٍ منَ الدَّلالاتِ، فتارةً يُثبتُ لنفسِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنهُ الأعلى، قالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، التي قالَ عَنها الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[1].

وتارةً بالصِّفةِ المُشبَّهةِ الدالَّةِ على العلُوِّ، قالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وتارةً بذِكرِ عُروجِ الأشياءِ إليهِ؛ أي صُعودِها إليهِ؛ قالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقالَ تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤].

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيه، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

وتارةً بنزولِ الأشياءِ منـهُ، قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، ففيها دلالتانِ: النزولُ منهُ، والعروجُ إليهِ.

وتـارةً بذكرِ الفوقيـةِ، قالَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٦١]. والآياتُ في هذا لا تُحصى.

الدَّلالةُ مِنَ السُّنةِ على العُلوِّ:

وبالنسبةِ للسُّنةِ النبويةِ فقدْ ثبتَ عنِ النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- مِنْ قولِه وفِعلِه وإقرارِهِ علوُّ اللهِ تَعَالَى الذاتيُّ، وأنهُ فوقَ كلِّ شيءٍ؛ كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في سجودِه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**» يقولُ ذلكَ مؤمنًا بهِ، مُقرِّرًا لهُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وثَبَتَ عُلوُّ اللهِ بفعـلِ الرسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وإشارتِه في خُطبـةِ الوداعِ في عَرَفةَ، أعظمِ موقفٍ يجتمعُ فيهِ المسلمونَ، وأفضلِ يومٍ في السَّنَةِ، وهوَ أيضًا وافقَ يومَ الجمعةِ، أعلنَ النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- عُلُوَّ اللهِ تَعَالَى بإشارتِه الفِعليةِ حينَ خطبَ الناسَ وذَكَرَ أصولًا عظيمةً في هذهِ الخُطبةِ، وليسَ هذا موضعَ ذِكرِهَا، فقالَ بعدَ أن ذكرَ هذهِ الأُصولَ العظيمةَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ**»، قالُوا: نعمْ. قالَ: «**اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**» يرفعُ أُصبُعَه إلى السماءِ ويَنكُتُها إلى الناسِ[1]، يعني اللهمَّ يا مَن أنتَ في السماءِ اشهدْ على هؤلاءِ أنهُم أَقَرُّوا أني بلَّغْتُ.

ونحنُ نُشهدُ اللهَ وملائكتَه وجميعَ خَلقِه أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- بلَّغَ البلاغَ المبينَ، وأنهُ تركَ أُمَّتَه على بيضاءَ نَقِيَّةٍ، وأنهُ لم يَدعْ شيئًا يحتاجُه النـاسُ في أمورِ دِينِهم ودُنيـاهُم إلا بلَّغَهُم بهِ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

حتى قالَ رجلٌ منَ المشركينَ لسلمانَ الفارسيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ، قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ[1].

وعَلَّمَنَا كيفَ نَلبَسُ، وكيفَ نَخلَعُ، وكيفَ ندخلُ البيوتَ، وكيفَ نخرجُ منهَا، وكلُّ شيءٍ نحتاجُه عَلَّمنَا إياهُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

المهمُّ أن الرسولَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في حَجَّةِ الوداعِ، وفي أعظمِ مجتمعٍ للأمةِ الإسلاميةِ جَعَلَ يَرفَعُ أُصبُعَهُ للسماءِ ويَنكُتُها إلى الناسِ، يعني اشهَدْ عَليهِمْ أنهُم أَقَرُّوا بأنهُ بَلَّغَ قالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» ثلاثَ مراتٍ، فهذا دليلٌ فِعليٌّ بالإشارةِ.

أما الإقراريُّ فإن معاويةَ بنَ الحكمِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّئبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ -أراد أَنْ يعتقها لأن الحسنات يذهبن السيئات- قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ - اللهُ أكبرُ! جاريةٌ لم تتعلمْ ولم تعرفِ العِلمَ شهدتْ بفطرتِها أنَّ اللهَ في السماءِ - قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[2]. فهذا مِن ثبوتِ السُّنةِ بالإقرارِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

إذنِ اجتمعَ في السُّنةِ أنواعٌ الدلالةُ القوليةُ والفعليةُ والإقراريةُ على أن اللهَ تَعَالَى في السماءِ، وهذا أمرٌ لا يَمتري فيهِ أحدٌ أبدًا، ولكنْ معَ ذلكَ نَكَّسَ اللهُ عُقولَ قومٍ وأفكارَهُم فأنكرُوا أَنْ يكونَ اللهُ في السماءِ، وقالُوا: إِنَّ اللهَ موجودٌ في كلِّ مكانٍ، تعالى اللهُ عَن قولِهِم عُلُوًّا كبيرًا!

ويلزم من قولهم إن الله في كل مكان أحدِ أمرينِ؛ إما التبعُّضُ وَأَنْ يكونَ اللهُ -وحاشَاهُ سبحانه من ذلك- في كلِّ مكانٍ مُتجزِّئًا، وإما أَنْ يكونَ الإلهُ متعددًا، وكلا اللازمينِ كفرٌ لا إشكالَ فيهِ. فهذا قولُ مَطْمُوسِ البَصَرِ والبَصِيرَةِ.

وقولٌ آخَرُ يقولُ: لا تَقُلْ: إِنَّ اللهَ في مكانٍ، قلْ: إِنَّ اللهَ لا داخلَ العالَمِ ولا خارجَ العالَمِ، ولا مُتَّصل بالعالَمِ، ولا منفصل عنِ العالَمِ، ولا يمينَ العالَمِ، ولا شِمالَ العالَمِ، فأينَ يكونُ؟! لا شيءَ إطلاقًا، ولهذا قالَ بعضُ أهلِ العلمِ[1]: لو قالَ لنَا قائلٌ: صِفُوا لنَا العَدَمَ ما وَجدُوا أَدَقَّ مِن هذا الوصفِ؛ أَنْ يُقالَ: العَدَمُ ما ليسَ في العالَمِ ولا خارجَهُ ولا مُتصل ولا منفصل ولا مُباين، فهذا العَدَمُ.

فتأملْ هذهِ العقولَ الفاسدةَ المخالِفَةَ للكتابِ والسُّنةِ، ولإجماعِ السَّلَفِ، وللعقلِ السليمِ، وللفطرةِ المستقيمةِ.

دَلالةُ الإجماعِ على العُلُوِّ:

دلالةُ الإجماعِ إذا دلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ على شيءٍ ولم يَرِدْ عنِ السلفِ خلافُه، فهوَ إجماعٌ منهمْ عليهِ؛ لأن السَّلفَ -الصحابةَ والتابعينَ- يَفهمونَ معانيَ القرآنِ، حيثُ إِنَّ القرآنَ نزلَ باللغةِ العربيةِ، وهمْ عربٌ أَقحاحٌ، يعرفونَ المعنى، فلو كانَ

---

(١) انظر درء التعارض، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ٢٥٣).

المرادُ خِلافَ ما هُو في الكتابِ والسُّنَّةِ لَنُقلَ عنهمْ ذلكَ، فلمَّا لم يُنقَلْ عنهمْ ما يخالفُ الكتابَ والسُّنَّةَ عُلم أنهمْ مُجمعونَ على ذلكَ.

وهـذه مسألةٌ تنفعُكَ يا طالبَ العِلمِ؛ لأنهُ قد يَصعُبُ عليـكَ أن تقولَ: قالَ أبُو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ، وابنُ مسعودٍ، وأُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عباسٍ، وثابتُ ابنُ قيسٍ، وغيرُهم، فيصعُبُ أن تَنقُلَ عن كلِّ واحدٍ منهمْ قولًا في مسألةٍ فيها إجماعٌ، لكن كونُ القرآنِ والسُّنَّةِ دَلَّا على ذلكَ، ولم يَردْ عنْ واحـدٍ منهمْ خلافُه، فإن هذا يدلُّ على إجماعِهم على مضمونِ هذا الكلامِ؛ إذ لو كانَ عندَهُم ما يخالِفُ لَبيَّنُوهُ.

وهذهِ قاعدةٌ تنفعُكَ في بابِ المناظراتِ، وفي بابِ اليَقِينياتِ أيضًا؛ لأنكَ تَطمئنُّ إلى أن الصحابةَ قالُوا بما دلَّ عليهِ الكتابُ والسُّنَّةُ، ولم يَرِدْ عنْ أحـدٍ مِنَ الصحابةِ أنهُ قالَ: إنَّ اللهَ ليسَ في السماءِ، أو إنَّ اللهَ ليسَ فوقَ عِبادِه، وهذهِ كُتبُ الآثارِ والسُّننِ لم يُنقلْ عن واحدٍ منهمْ أنهُ قالَ: إنَّ اللهَ ليسَ في السماءِ، أو إنَّ اللهَ تَعالَى ليسَ فوقَ العِبادِ، أو إنَّ اللهَ ليسَ العَلِيَّ العظيمَ، أو ما أشبهَ ذلكَ أبدًا.

دَلالةُ العقلِ على العُلُوِّ:

أما بالنسبةِ لدَلالةِ العقلِ على عُلوِّ اللهِ فيقالُ: أيُّها أعظمُ سلطانًا، وأيُّها أكملُ حالًا؛ مَن كَانَ نَازِلًا، أو مَن كانَ عاليًا؟

الجوابُ: مَن كانَ عاليًا، لا شكَّ في هذا، والعلوُّ صفةُ الكمالِ، والربُّ قدْ ثبتَ لهُ جميعُ صفاتِ الكمالِ، والسُّفولُ نزولٌ ونقصٌ، والربُّ عَزَّوَجَلَّ مُنزهٌ عنِ السُّفولِ والنقصِ، فوجبَ ثبوتُ العُلوِّ لهُ عقلًا.

دلالةُ الفطرةِ على العلوِّ:

أما الفـطرةُ فحَدِّثْ ولا حرجَ؛ فقـدْ ذكرنَا قبلَ قليلٍ دليلًا منَ الفـطرةِ على عُلوِّ اللهِ تَعَالَى في ذاتِه، وهوَ قولُ الجاريةِ التي سألَها الرسولُ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: «أَيْنَ اللهُ؟» قالتْ: في السماءِ، قالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[١].

وتكـلمَ رجلٌ ممنْ ينكرونَ استـواءَ اللهِ على العرشِ ويقـولونَ: إنَّ اللهَ ليسَ مستويًا على العرشِ، بمعنى ليسَ عاليًا عليـهِ، ولكنهُ مُسْتَوٍ على العرشِ أي مُستولٍ عليهِ، وهذا تحريفٌ واضحٌ نذكرُه إن شاءَ اللهُ الآنَ، فقالَ لهُ أحدُ العلماءِ المتبعينَ للسلفِ: دَعنَا منْ ذكرِ العَرشِ؛ لأن استـواءَ اللهِ على العرشِ دليـلُه سمعيٌّ، ولكنْ -يقـولُ هذا الرجلُ العالِمُ السلفيُّ-: ولكنْ أَخْـبِرْنَا عنْ هذهِ الضرورةِ، ما قـالَ عارفٌ قطْ: يا اللهُ إلا وجدَ مِن قلبِه ضرورةً بطلبِ العُلوِّ؟

فكلُّ إنسانٍ يقولُ: يا اللهُ لا يجـدُ قلبَه يطيرُ يمينًا ولا شِمالًا، ولكنْ يَتجِـهُ إلى العُلوِّ، ولا يمكنُ لإنسانٍ يقولُ: يَا اللهُ، يا ربّ، ويكونُ قلبُه منحـدرًا إلى أسفلَ، أو يذهبُ يمينًا وشمالا، وإنما يكونُ إلى أَعلى، فجعلَ هذا الرجلُ الذي يتكلمُ بإنكارِ الاستواءِ يضربُ على رأسِه ويقولُ: حَيرَنِي حَيرَنِي[٢]. يعني أنهُ أتى إليَّ بدليلٍ تحيرتُ فيهِ ولم أستطعْ أن أردَّهُ؛ لأن الأدلةَ الفطريةَ لا يمكنُ أَنْ يَرُدَّها أحدٌ.

فتبينَ أن عُلوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثابتٌ بأنواعِ الأدلةِ كلِّها: الكتـابِ والسُّنةِ، وإجماعِ السلفِ وليسَ الصحـابة فقطْ، والعقلِ، والفطرةِ، خمسةُ أنـواعٍ، وأما آحادُ هذهِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٤٤)، ومختصر العلو للذهبي (ص:٢٧٦).

الأدلةِ فلا تُحصى وتبلغُ المئاتِ.

الاستواءُ:

أما الاستواءُ على العرشِ فإن اللهَ تَعَالَى ذكرَهُ في القرآنِ في سبعةِ مواضعَ بلفظِ استوَى عَلَى، ولم يَرِدْ في موضعٍ واحدٍ التعبيرُ باستولَى حتى نقولَ: يُحملُ الباقي عليهِ، بل كلُّ استوَى عَلَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس:٣]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، واعدُدْ إلى سبعةِ مواضعَ في كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الذي قالَ اللهُ فيهِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، فلا يمكنُ أبدًا أن تَرِدَ كلمةُ (استوَى على) بِمَعْنَى (اسْتولَى على)، بل كلُّ الأدلةِ منَ المواضعِ السبعةِ بهذا التعبيرِ: استوَى على العرشِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وما أشبهَ ذلكَ.

ومعنى (استوَى على العرشِ): (علَا عليهِ)، هذا مُقتضَى اللسانِ العربيِّ الذي نزلَ بهِ القرآنُ؛ قالَ اللهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] أي تفهمونَ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩].

فالقرآنُ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، واستوَى على كذا بمَعنَى علَا عليهِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] فهلْ يُمكنُ لأحدٍ أَنْ يقولَ: لتستَولُوا على ظُهورِه ثم تَذكُروا نعمةَ ربِّكم إذا استولَيتُم عليهِ؟! أبدًا، وقالَ تَعالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] يخاطبُ نوحًا، ومعنى استويتَ عليهِ علوتَ عليهِ،

ولا يمكنُ لأحدٍ أَنْ يقولَ: فإذا استوليتَ أنتَ ومَن معكَ على الفُلكِ، فما بالُنا نفسرُ استَوَى على كذَا بالنسبةِ للمخلوقِ أي علَا عليهِ وبالنسبةِ للخالقِ لا؟! ولكنهُ التحكمُ والهوَى، أجارَني اللهُ وإياكُم مِنَ الهوَى، إلا ما كانَ تابعًا لرسولِ اللهِ ﷺ.

إذنِ: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ يعني علا عليهِ، وهوَ عُلوٌّ خاصٌّ بالعرشِ، ليسَ العُلوَّ العامَّ لكلِّ المخلوقاتِ، فاللهُ تَعَالَى عالٍ على كل شيءٍ؛ على السمواتِ وعلى الأرَضينَ، وعلى ما بَينهُما، لكن الاستواءُ خاصٌّ بالعرشِ، ولهذا نقولُ: استوَى على العرشِ أي علا عليهِ عُلوًّا يليقُ بجلالِه وعَظَمتِهِ، لا نُكَيِّفُه ولا نُمَثِّلُه، ولا نقولُ: إنهُ استواءٌ عامٌّ على المخلوقاتِ كلِّها؛ لأنهُ لا يجوزُ لأحدٍ أَنْ يقولَ: إنَّ اللهَ استوى على السماءِ، ولا إنَّ اللهَ استوَى على الأرضِ، معَ أنه عالٍ عليهِما، ولذلكَ إذا ألزمَكَ المُعطِّلُ وقالَ لكَ: إذا قلتَ: عَلا على العرشِ، لَزِمَكَ أن تقولَ: استوى على السماءِ، أي علا على السماءِ؛ لأنكَ تُقِرُّ أنَّ اللهَ عالٍ على السماءِ. فنقولُ: هذا لا يلزمُني؛ لأن الاستواءَ عُلُوٌّ خاصٌّ، يختصُّ بالعَرشِ، ليسَ العُلوَّ العَامَّ.

إذنْ نحنُ نؤمنُ بأن اللهَ استوى على العرشِ، أي عَلا عليهِ على الوجهِ اللائقِ بهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِن غيرِ تحريفٍ ولا تمثيلٍ ولا تكييفٍ.

قالَ بعضُ علماءِ السلفِ: إن زيادةَ اللامِ في استوَى على العرشِ كزيادةِ النُّونِ في (حِطةٌ)؛ فاليهودُ قيلَ لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة:٥٨]، أي مسألتُنا أن تَحُطَّ ذُنوبَنا، فقالتِ اليهودُ أصحابُ البطونُ: (حِنْطةٌ)، يعني مسألتُنا حِنْطةٌ ومِلءُ البطنِ.

قالُوا: الذِي قالَ: استولَى زادَ اللامَ في الكلمةِ كما زادتِ اليهودُ النونَ في

كلمةِ حِطَّة. ولا غرابةَ في ذلكَ؛ لأن النبيَّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- قال محذرًا أُمَّتَه: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١).

ولقدِ اتَّبَعَتْ هذهِ الأُمةُ سَنَنَ مَن كانَ قَبلَها: فالحسدُ موجودٌ في الأُمةِ، وموجودٌ في اليهودِ وأهلِ الكتابِ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤].

ووُجدَ مِن هذهِ الأُمةِ مَن يعبدُ الأصنامَ، فيعبدونَ القُبورَ؛ فرَجلٌ دُفنَ بالأمسِ ويعرفونَه قبلَ أمس أنهُ مِثلُهم يجوعُ ويَبرَدُ ويشعرُ بالحرِّ، واليومَ لما دُفن ورُمِسَ(٢)، وكانَ لا يَستطيعُ أَنْ يدفعَ عن نفسِه، ولا أَنْ يرفعَ اللَّبِنَ عن رأسِه، صارَ اليومَ مَعبودًا إلهًا، وبنُو إسرائيلَ عَبدُوا العِجلَ المصنوعَ مِنَ الحُليِّ -وليسَ المخلوق مِن لحمٍ ودمٍ وعَظمٍ- صَنَعَ السامِريُّ لهم عِجْلًا منَ الذَّهَبِ وجَعلَ لهُ رأسًا ورَقبةً، وأُذُنَيْنِ وعَيْنَيْنِ، ودُبرًا وذَيْلًا، وقَوَائمَ، فهو عِجلٌ تمامًا، وجعلَه مُجَوَّفًا؛ يَدخلُ الهواءُ مِن دُبرِه ويخرجُ مِن فَمِه، فيكونُ لهُ صوتٌ كخُوارِ الثَّورِ: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وقالَ السامريُّ لبني إسرائيلَ: هذَا إلهكُم وإلهُ مُوسَى. قاتَلَكَ اللهُ! أهذَا الذي صنعتَهُ وليسَ فيهِ حياةٌ تقولُ: هذا إلهُكُم وإلهُ موسَى! لكنها هيَ الحكمةُ؛ لأن موسَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

(٢) الرمس: الستر والتغطية والدفن. اللسان: رمس.

وعدَه اللهُ ثلاثينَ ليلةً، وأَتمَّها عَشْرًا، فتَمَّ الميقاتُ أربعينَ ليلةً، وهذا التأخُّرُ جعلَ بني إسرائيلَ يقولونَ: إن موسى ضَلَّ وضَاعَ وما وجدَ اللهَ، ولكنْ هذا العِجلُ إلهُكم وإلهُ موسَى! عُقولٌ عجيبةٌ مِن بني إسرائيلَ، فمِنْ أعجبِ ما يكونُ عُقولُ هذِه الأُمةِ الغَضَبيَّةِ وهمُ اليهودُ. المهمُّ أنهُ وُجدَ في هذهِ الأُمةِ مَن يعبدُ الأصنامَ.

وأهلُ الكتابِ يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِه، وقدْ وُجدَ مِن هذهِ الأُمَّةِ مَن يفعلُ ذلكَ، فوُجدَ مَن يُحرِّفُ النصوصَ مِن أجْلِ أَنْ يلويَ أعناقَها لتوافقَ ما كانَ عليهِ مِن طريقٍ أو مَذهبٍ؛ لأن كلَّ بلاءٍ في الأُممِ السابقةِ لا بُدَّ أَنْ يُوجدَ مثلُه في هذهِ الأُمةِ أو نظيرُه، ولكنْ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» مُحَذِّرًا وليسَ مُقررًا؛ حتى لا نرتكبَ سَنَنَ مَن كانَ قبلَنا.

ولهذا يَحسُنُ بطالبِ العِلمِ أَنْ يقرأَ بتمهُّلٍ وتدَبُّرٍ ما أَلَّفَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِهِ (اقتضاءِ الصراطِ المستقيمِ لمخالفةِ أصحابِ الجحيمِ) فإنهُ قدْ قرَّرَ الأدلةَ السمعيةَ والعقليةَ على وجوبِ مخالفةِ أصحابِ الجحيمِ بتقريراتٍ لا نجدُها في غيرِه.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ فوقَ جميعِ خَلْقِه، وهوَ مُسْتوٍ على عرشِه جَلَّوَعَلَا أي عالٍ عليهِ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه وعَظَمَتِه، لا يحتاجُ إلى تحريفٍ، ولا يجوزُ فيهِ تكييفٌ ولا تمثيلٌ، فهذهِ عقيدةٌ أَضعُها بينَ أيديكُم، وأنطِقُ بها لتسمَعُوها بآذانِكُم، وأرجُو أن أكونَ وضحتُها لتفهمُوها ولتعقِلُوها بقلوبِكم، فهذهِ عقيدةٌ يجبُ أَنْ يموتَ الإنسانُ عليهَا، فإنْ حادَ عنهَا يمينًا وشِمالا فهوَ على خطرٍ عظيمٍ.

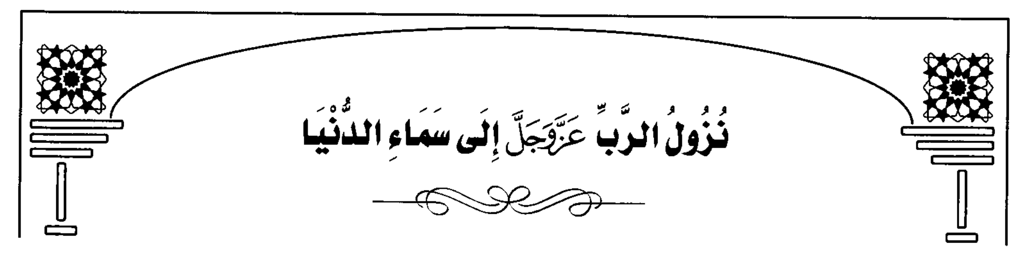
وأرجُو اللهَ تَعَالَى أَلَّا نلقَى اللهَ ونحنُ ننكرُ هذا، وأرجُو اللهَ أن نلقَاهُ ونحنُ

نؤمنُ بعلُوِّه، وباستوائِه على عرشِه، وَأَنْ يكونَ هذا عقيدةَ كلِّ مسلمٍ، وحسبُنا ما كانَ عليهِ رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- وأصحابُه، ولن تأتيَ بحرفٍ واحدٍ عنْ رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- أو عنْ أصحابِه أنهُ أنكرَ عُلُوَّ اللهِ الذاتيَّ، أو حرَّفَ الكَلِمَ عَن مواضِعِه لِيُخْضِعَ النُّصوصَ حتى توافقَ مذهبَه وطريقتَهُ.

والواجبُ على كلِّ مسلمٍ أَنْ يجعلَ نُصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ مَتبوعةً لا تابعةً، يعني يَتبعُها ولا يَجعلُها تَتْبَعُه، فأنتَ مأمورٌ بأن تُطيعَ اللهَ ورسولَه على حسبِ ما جاءَ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-.

أسألُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يهدِيَني وإياكُم صراطَهُ المستقيمَ، وَأَنْ يهدِيَ مَن ضلَّ عنِ الصراطِ المستقيمِ إلى الصراطِ المستقيمِ؛ حتى يكونَ على بصيرةٍ مِن أمرِه، وحتى يكونَ على الجادةِ التي مَشى عليهَا مَن أرسلَهُ اللهُ تَعَالَى رحمةً للعالمينَ، وقُدوةً للعامِلينَ، وحُجةً على المبعوثِ إليهمْ أجمعينَ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.





نُزُولُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، إمامُ المتقينَ، وخاتَمُ النبيينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فإنَّ حديثَ نُزول الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ إِلَى السَّماء الدُّنْيا حِينَ يبقى ثُلث اللَّيْل الآخِر حديثٌ مشهورٌ مُستفيض عِنْدَ العُلَماء، بل تجاوز به بَعْضهم إِلَى حد التَّواتر:

«**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[(١)]، هُوَ نفسه عَزَّوَجَلَّ يَعْرِضُ عَلَى عباده الفضل والإحسان، وهَذَا كَمَا جاء فِي الحَدِيث: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

مَسْأَلَةٌ: ينزلُ ربنا إِلَى السَّماء الدُّنْيـا، أهو نفسُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ينزلُ، أم الَّذِي ينزلُ شَيْء آخرُ؟

الجَوَابُ: يَقُول ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماءِ الدُّنْيَا**»، ولكنْ المُحرِّفون للْكَلِم عن مَواضِعه، الَّذِين يَحْكُمُون عَلَى اللهِ بعقُولِهم لا بكتابِ الله وسُنَّة رسوله ﷺ قَالُوا: ينزل إِلَى السَّماء أمرُه! وأمرُ الله لا ينتهي بالسَّماء الدُّنْيَا، فَاللهُ يُدَبِّرُ الأمرَ مِن السَّماء إِلَى الأَرْض، وكذلك أَمرُ الله النَّازلُ مِن عِنْـدِ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَختصُّ بِجُزء مِن اللَّيْلِ، بل أَمْرُهُ دَائِمًا وأبدًا.

ولا يمكنُ لأمر الله أنْ يَقُولَ: «**مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ**»، ولا أَنْ يَقُول: «**مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ**» ولا يمكنُ أَنْ يَقُول: «**مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**» فلماذا نُحرِّفُ الكَلم عن مَواضعه، والنَّاطقُ به أَعْلَمُ النَّاس بالله، وأَفصحُ الخَلق، وأَنصحُ الخَلق، سُبْحَانَ اللهِ، لكن: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠] حَتَّى لو أُعطي ذَكَاءً عظيمًا بالِغًا، إِذَا لم يجعلِ اللهُ له نورًا، فما له مِن نُور.

وما أحسنَ ما قَالَ شيخُ الإِسْلام ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي أَهْلِ الكلام، قال: «إن هَـؤُلاءِ أُوتوا فُهومًا وما أوتوا عُلـومًا، وأُوتوا ذَكاءً وما أُوتوا زكاء»[1]. رَحِمَهُ اللهُ، كلامٌ مُنطبق تمَامًا عَلَى أَهْلِ الكلام.

فنقـولُ: ينزلُ ربنا عَزَّوَجَلَّ هُوَ نفسُه إِلَى السَّماء الدُّنْيَا، ويَقْرُبُ مِن خَلْـقِه كَما يشاءُ، ويَقُولُ: «**مَنْ يَدْعُونِي**».

لو قَالَ قائل: فَهِمْنَا أنَّه ينزلُ، لكن كيف ينزلُ، هل إِذَا نزل تَكُونُ السَّموات

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥/ ١١٩).

الأُخْرَى فوقه، أم ماذا؟

نقـولُ: يَحْرُم عليك أن تقـول: كيف ينزلُ، لا تَقُلْ: كيف ينزلُ، قـل: ينزلُ، وسَمِعنا وأَطَعْنا وآمَنَّا. لو كَانَ هَذَا السؤالُ واردًا لأَوْرَدَهُ مَنْ هُم أشدُّ منك تعظيمًا لله، وأشدُّ منك حُبًّا لله، وهُمُ الصَّحَـابَةُ، ما أَوردُوه عَلَى الرَّسُـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما قَـالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، كيف ينزلُ؟ فَإِذَا سُئلنا قُلْنَا: هَذَا السـؤالُ مُحَرَّم وبِدعة، احبِسْ لِسـانَك عَنك، وقل: آمنتُ بالله ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصَدِّقْ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ أعظمُ مما تَتَصورونه فِي أذهانكم.

وما أحسنَ ما قَالَ الإمامُ مالك رَحِمَهُٱللَّهُ فِي صِفَةٍ كهَذِهِ، الإمامُ مالِكٌ كَانَ فِي المَدِينَة النَّبوية، وله مِن الشُّهرة، وله مِن العِلْم، وله مِن الوَرَع، وله من العِبادة، ما لا يحتاج إِلَى البَسط عنه، كان جالسًا مع الطلاب، فجاء رَجُل، وَقَالَ: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف اسْتَوَى؟ أَيْ: صِف اسْتِواءه عَلَى العرش؟ فأطرق الإمامُ مالك برأسه، ثُمَّ جعل يتصبَّبُ عَرَقًا لِقُوَّةِ الوَارِدِ عَلَى قَلْبِه، كأنما حَمَلَ شيئًا ثقِـيلًا، ثُمَّ رفع رأسه، وَقَالَ كلماته المشهورة الَّتِي تَستحـقُّ أنْ تُكتبَ بماء الذَّهب عَلَى وَرَقِ الفِّضة، قال: «الاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيمانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ». ويَنقلُ هَذَا الكلامَ بَعْضُ العُلَماء بلفظٍ آخَرَ، فيَقُولُ: «الاسْتِواءُ معلـومٌ، والكيفُ مجـهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ»[1]، ولا فرق بَيْنَ العبارتين فِي المعنى.

ثُمَّ قَالَ للرجل: ما أراكَ إِلَّا مبتدعًا، أَيْ: ما أظنُّك إِلَّا مبتدعًا، ثُمَّ أَمَرَ، فَأُخرِجَ

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات: (٥١٥)، عن الإمام مالك بإسناد جوَّده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠٧).

الرَّجُلُ مِن مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأنَّ هَذَا السؤال يَفتحُ بابَ البِّدع، وجديرٌ لمن سأل أَنْ يُعاقَبَ ويُعَـذَّرَ ويُقالَ: اخرج من المسجـد، يَعْنِي: أن مالكًا لم يَطرِدْه من الحلَقةِ، بل طردَه من المسجِدِ.

شَرْحُ قَوْلِ الإمَامِ مَالِكٍ:

قَوْلُهُ: «الاسْتِواءُ غيرُ مجهولٍ»، أو إن شئتَ قل: «الاسْتِواءُ معلومٌ» أَيْ: معلومُ المعنى فِي اللغة العربية الَّتِي نَزَلَ بها القُرْآنُ، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ القُرْآن نَزَلَ باللُّغة العربية فِي عِدَّة آيات:

الآيةُ الأُولَى: قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

الآيةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] أَيْ: فَصِيح.

الآيةُ الثَّالِثةُ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] ومعنى: ﴿جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أَيْ: صيَّرناه بلُغة العرَب، وليس كَمَا قالت الجَهْمِيَّة إنا خَلَقْناه، ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أَيْ: لعلَّكم تَفْهَمُون.

فلو نزل القُرْآنُ الكَرِيمُ باللغة السُّريَانيَّة عَلَى العرب، لكانوا لا يعقلون، فالقُرْآنُ نزل بلسانٍ عَرَبِيٍّ.

فاسْتَوَى عَلَى كذا فِي اللُّغة العربية معناها: عَلا عليه، واسمَعْ لِقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣].

إذن، اسْتَوَى عَلَى العرش أَيْ: علا عَلَى العَرش، ولا يمكنُ أنْ نسألَ: كيف علا، يَقُولُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السؤالُ عن هَـذَا بدعة، لأنَّ مَن هُم خيرٌ مِنَّا، وأَحْرَصُ مِنَّـا عَلَى معرفة الله بأسمائه وصفاته، وهُم الصَّحَـابَةُ لم يسألوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عن الاسْتِواء، هم عرَفوا الاسْتِواء ومعناه، لكن ما قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، كيف اسْتَوَى؟ لأنَّ الصَّحَـابَة أشدُّ أَدَبًا، وأقوى إيمانًا مِن أَنْ يتكلمـوا فِي هَذَا الأمر الغَيبيِّ الَّـذِي لا تُدْرِكُه العُقول، فالسؤالُ عن كَيْفِيَّة الاسْتِواء وكَيْفِيَّة النُّزول بدعة.

قَوْلُهُ: «الإيمانُ به واجبٌ»:

الإيمان بالاسْتِواء واجب؛ لأنَّ اللهَ أخبر به عن نفسـه، وما أخبر به عن نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَجَبَ علينا الإيمان به، فيجب الإيمان بما أَخْبَرَنا اللهُ به عن نفسه.

قَـوْلُهُ: «والسؤالُ عنه بِدعةٌ» أَيْ: السؤالُ عن كيفيتـه بدعة، لأنَّ الصَّحَـابَة لم يسألوا عنه.

فعلينا الإيمانُ بما وصَف اللهُ به نفسه، ولا نتعـدَّ ما جاء به الخبرُ، ولا نُحَـكِّم عُقولنا فِي هَذَا الأمر؛ لأنَّ هَذَا الأمر أكبرُ مِن أَنْ يُدركَه العقلُ، وإياكَ أن تُحَكِّمَ العقلَ، فتَضِلَّ كَما ضَلَّ بِذَلِكَ أُناس، وَقَالَوا: اسْتَوَى عَلَى العرش، أَي اسْتَولى عَلَى العَرش، ومَلَك العرش، ما أَجْهَلَهُم بلُغَةِ العرب! وما أشدَّ تحجُّرَ عقُولِهم وهم يَزعمون أَنَهُم العُقلاء! ووالله إنَّهم غيرُ عُقلاء، فالعَاقِلُ مَن يَقُولُ: آمنتُ بالله، وبما جاء فِي كتاب الله عَلَى مُراد الله.

فمن قَـالَ: اسْتَوَى بمعنى اسْتَولى، ويؤمنـون بِأَنَّ الله مُسْتَوْلٍ عَلَى الأَرْض، مَالِكٌ لها، فنقولُ لهم نعم، الله مَالِكُ الأَرْض: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]،

نَقُولُ: إذن، قولوا: إِنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى الأَرْض، ولا يَسْتَطيعون أنْ يَقُولوا هَذَا.

ونقولُ لهم: هل تؤمنون بِأَنَّ اللهَ مالِكٌ للبَعير والفَرَس؟ سيقُولون: نعم، نَقُولُ: إذن قولوا: إِنَّ الله اسْتَوَى عَلَى البَعير وعلى الفَرس.

ثُمَّ نَقُولُ لهم أيضًا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، ثُمَّ بَعْدَ خَلْقِها اسْتَوَى عَلَى العرش، فلِمَنْ العرشُ قبل ذَلِكَ؟

فعلى كلامهم لَيْسَ لله؛ لأَنَّهُ خَلَق السَّموات، ثُمَّ اسْتَوَى -و(ثُمَّ) تُفيد التَّرتيب والتَّراخِي- نَقُولُ: مَن الَّذِي عَارَض اللهَ عَزَّوَجَلَّ ونَازَعَهُ وخَاصَمَهُ حَتَّى غَلَبَه اللهُ، فاسْتَولى عَلَى العرش؟ هَذِهِ أَشْيَاءُ واضحة.

سمع أحدُ العَوامِّ كَانَ عِنْدَ بَعْض طلبة العِلْم، قول أحد الطلبة: إن أُناسًا يَقُولون: إِنَّ الله اسْتَوَى عَلَى العرش، أَيِ اسْتَولى عَلَى العرش، فقال العامِّي بفطرته: قاتَلَهُ اللهُ! فلِمَنِ العَرْشُ مِنْ قَبلُ؟ كيف جاء واسْتَولى عَلَى العَرْشِ بَعْدَ خَلقِ السَّموات؟

فانظر هَذَا الأُميَّ الَّذِي لا يَعْرِفُ إِلَّا ما يعرفُ مِن قِرَاءَة الصَّلَاة، وبفطرته أدرك أن هَذَا التَّفْسِير خطأ.

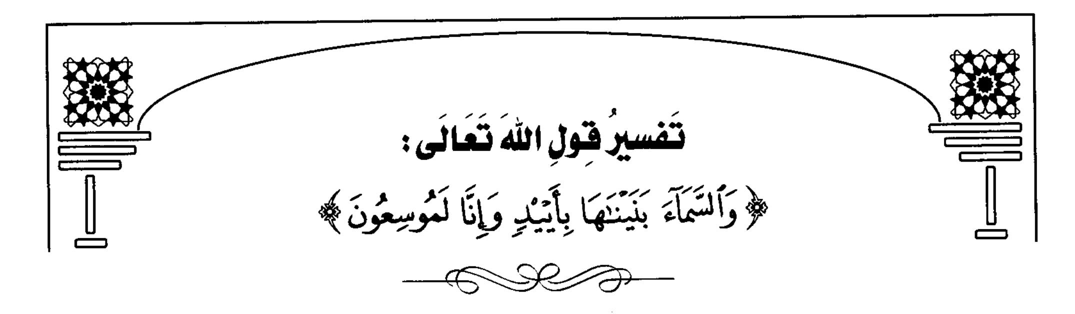
فعلينا أن نَنبذَ هَذَا التَّحريف وأَمْثَالَه، وأن نَقُولَ: إِنَّ الله أخبر عن نفسه أَنَّه اسْتَوَى عَلَى العرش، فيَجِبُ أَنْ نؤمنَ بِذَلِكَ، وأَلَّا نُخرجَ الكلامَ عن ظاهره.

مَسْأَلَةٌ: بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّ الله معنا فِي كُلّ مكان؟

الجَوابُ: مَنْ قال: «إنَّ الله فِي كُلِّ مكانٍ»، وأراد (أنَّ الله فِي كُلِّ مكانٍ بذاته) فهَذَا كُفْرٌ؛ لأَنَّهُ تكذيبٌ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النصوصُ، بَلِ الأدلَّةُ السمعيةُ، والعقليةُ، والفِطريةُ تَدُلُّ على أنَّ الله تَعَالَى فوقَ السَّمواتِ مُستوٍ عَلَى عَرْشِه.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





تَفسيرُ قولِ اللهِ تعَالى:
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، إمامُ المتقينَ، وخاتَمُ النبيينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعْدُ:**

فإني أودُّ أنْ أُنبِّه عَلى مَسألةٍ مُهمةٍ جدًّا فِي العقيدةِ، ألَا وَهِي قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، حيثُ ظنَّ كثيرٌ منَ الناسِ أنَّ (أَيْدٍ) هُنا جَمعُ (يَدٍ)، وأنَّ اللهَ خلقَ السماءَ بِأَيدٍ كَثيرةٍ، وهـذَا خطرٌ جِدًّا؛ لأنَّ (أَيْدٍ) هُنا بِمَعنى (قُـوَّة) مَصدر (آدَ يَئيد أَيدًا)، مثلُ: (بَاع يَبِيع بَيـعًا)، والربُّ عَزَّوَجَلَّ ليس لَه إلَّا يَدَان اثْنَتَانِ فَقَط بِدَلالةِ الكتابِ وَالسُّنةِ.

أمَّا الكتابُ فقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُثنِيًا عَلى نَفسهِ وَردًّا عَلى اليَهـودِ الَّذينَ قَالوا: يَدُ اللهِ مَغلولةٌ قالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وهذَا نَصٌّ صَريحٌ فِي العَددِ؛ لأنَّ التَّثنيةَ نصٌّ صَريحٌ فِي مَدْلولها فِي انحصارِ العددِ باثْنين بِخِلافِ الجَمعِ، فإنَّه قَد يَكونُ لِلتعظيمِ وَلَا يَدلُّ عَلى عَدد، لكنَّ التَّثنيةَ نَصٌّ فِي مَدْلُولها فِي العَددِ وأنَّه اثنـانِ، فَمَدحَ اللهُ نَفْسه بأنَّ لَه يَدَيْنِ، قالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وقالَ النبيُّ ﷺ:

«اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ»[(١)]، كِلْتا يَدَيه تَثْنية، وأَجْمع أهلُ السُّنةِ وأَئِمةُ الأُمَّةِ عَلى أنَّ اللهَ له يَدَانِ اثنَتَانِ فَقطْ.

فإنْ قالَ قائلٌ: أَلَستُمْ تُنْكرونَ عَلى الَّذينَ يُحَرِّفُونَ الكلامَ عَنْ مَوْضِعه، وَيُفَسرون آياتِ الصفاتِ بِمَعانٍ لَا يُريدُهَا اللهُ وَرَسولُه، وَيَدَّعُون أنَّ التَّعبيرَ بِها مجازٌ عَن كَذا وكَذا؟

فالجوابُ: بَلَى نُنكرُ ذَلك، ولَكنَّا فِي هَذهِ الآيةِ مَا حَرَّفناها وَلا صَرَفناها عَن ظَاهِرها، هَلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أضافَ الأيدِي إِلَيْه؟ لَا لَمْ يُضِفها إِلَيْه حتَّى نَقولَ: إنَّه يَتعينُ أنْ تكونَ أيدِيَ اللهِ، بَل قالَ: ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾، وكلُّ مَن عرفَ اللغةَ العربيةَ عَرف أنَّ المرادَ بِهَا القوةُ، واذْكُرْ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ:١٢] أَيْ: قَويَّةٌ، وَحِينئذٍ لَا تَحْريفَ.

بَل لَو قَالَ قائلٌ: إن (أَيْدٍ) هُنا هِي أَيدي، قُلنا: هذَا لَا يَجوزُ؛ لأنَّ اللهَ لم يُضِفْها لِنَفسه، ومِثلُ هذَا قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، فكلمةُ ساقٍ ورَدَ فِيها عنِ السلفِ قَوْلان:

القَولُ الأولُ: أنَّ المرادَ بِالسَّاقِ الشِّدةُ، وَقَالوا: إنَّ هَذا مِثلُ قَولِ العربِ: كَشَفتِ الحربُ عَنْ ساقِهَا.

القول الثاني: أنَّ المرادَ بِالساقِ سَاقُ اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وَ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، بعد باب سورة المعوذتين، رقم (٣٣٦٨) واللفظ له.

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فَأَيها أَسعـدُ بِالدَّليلِ مَن حيثُ اللَّفـظُ، الأوَّلُ أَوِ الثَّاني؟ ليست مَسألةً هَيِّنَةً، المسألةُ صِفةٌ مِنْ صِفاتِ اللهِ، هَلِ الأسعدُ بِالدليلِ مَن قالَ: إنَّهُ الشِّدَّةُ، أَو مَن قالَ: إنَّه سَاقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

الجواب: **الأولُ**؛ لأنَّ اللهَ لَم يُضِفهُ إِلى نَفسهِ، فَلَا يَحِـلُّ لَنا أَنْ نُضيفَ إِلى اللهِ مَا لَم يُضِفْهُ إِلى نَفسهِ، لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَم يَقُل فِي الكتابِ العزيزِ: يَوْمَ يُكشفُ عَن سَاقِ اللهِ، فَالأسعدُ بِالدليلِ مِنْ حيثُ اللفظُ مَنْ قالَ: إنَّهُ الشِّدَّةُ. والحُجةُ أَنَّ اللهَ لَم يُضِفْهُ إِلَى نَفْسهِ، لكنْ هُنـاكَ حَديثٌ جَاءتْ بِهِ السُّنـةُ عنِ النبيِّ ﷺ رواهُ أُبو سَعيـدٍ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ مُطولًا، وَفِيه أنَّ اللهَ يَكْشف عَنْ سَاقهِ فَيَسجدُ للهِ كُلُّ مَن كَانَ يَسجد فِي الدُّنيا للهِ عَزَّوَجَلَّ[1]، وإذَا قَرأتَ الحديثَ وقرأتَ الآياتِ وَجدتَ أَنَّ مَعْناها وَاحدٌ.

وعلى هَذَا، فيَتَرجح أَنْ يكونَ المرادُ بِالسَّاقِ سَاقُ اللهِ، لَا مِن حَيثُ مُجردِ اللفظِ، ولكنْ مِن حَيثُ بَيانِ السُّنـةِ؛ ولهذا كَانَ القـولُ الراجحُ أَنَّ المرادَ بِالسَّاقِ فِي قولهِ تَعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ هوَ ساقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنْ لَا تَظُنوا أنَّ ساقَ اللهِ يُشبه أَوْ يُماثل سُـوقَ المخلوقينَ أبدًا، كَما نُثْبت للهِ وَجـهًا وَنُثْبتُ للهِ عَينًا، لكنْ لَا يُماثل أَوْجهَ المخلوقِينَ وَأَعْيُنهمْ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾:

إنْ قالَ قائلٌ: فِي قوله تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] هل المراد بالأيدِ هنا هُوَ المراد بقوله تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس:٧١] أو المراد سِوى ذلك؟ وبمعنًى آخَرَ: هل الأَيْدِ الأُولى هِيَ الأيدي الثَّانية أو لا؟

قلنا: الجواب: لا، ومَن ظنَّ أن قوله تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ كقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ فقد أخطأَ فِي الواقعِ:

الوجه الأول: لأنَّ (أَيْدٍ) فِي قوله تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ غير مضافة، فما أضافَها اللهُ إِلَى نفسه، وما قالَ: بأيدينا، فإذا لم يُضِفها الله إِلَى نفسِه فكيف يَسُوغ لك أن تُضِيفَها إِلَى الله! أما ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ فقد أضافَها اللهُ إِلَى نفسه، هَذَا وجهٌ.

الوجه الثَّاني: أنَّ قولَهُ: ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ مَصْدَر: آدَ يَئِيدُ أَيْدًا، ونظيرُها فِي التصريف: باع يَبيعُ بَيعًا، وكالَ يَكِيل كيلًا، إذن ليست (أَيْدٍ) فِي قوله: ﴿بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ جَمْعَ يَدٍ، ولكنها مَصدر: آدَ يئِيدُ أَيْدًا؛ كما قالَ تعالَى ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ:١٢] أي قوية، فمعنى ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أي بقوةٍ، ولا يجوز لأحد أنْ يقولَ: المراد بالأَيْد أي أَيْدِي الله عَزَّوَجَلَّ.

الوجه الثَّالث: أنَّه لم يَقُلْ أحدٌ: إن السَّماء قد بناها اللهُ بيدِه، بخلاف آدمَ، فقد خَلَقه اللهُ بيدِه، والسَّماء بناها اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالكلمةِ كسائرِ المخلوقاتِ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فهذه ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن اللهَ لم يُضِفها إِلَى نفسه، فإذا لم يُضِفها إِلَى نفسه فلا يحِلُّ لنا أن نُضِيفَها إِلَى نفسِه.

الوجهُ الثاني: أنها ليست جمعًا، إنَّما هِيَ مصدرُ: آدَ يَئِيدُ أَيْدًا، ونظيره فِي التصريفِ: باعَ يَبيعُ بَيْعًا، وكال يَكيلُ كَيلًا.

الوجه الثالث: أنَّه لم يَقُـلْ أحدٌ مِن السَّلفِ: إنَّ اللهَ بنَى السَّماءَ بيدِه، بل بَناها بقول: كُن؛ اعتمادًا عَلَى قـولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فإنْ قالَ قائلٌ: الوجه الأول يَنتقض عليك بقوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم:٤٢]، فكلمة ساقٍ غير مضافةٍ إِلَى اللهِ، وأنت تقول: إن المرادَ ساقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقد انتقَضَت عليك القاعدةُ؟

قلنا: هَذِهِ الآية فيها قولانِ للسلَف: قـول: إنَّ المرادَ بالساق الشِّدَّة، وقول آخرُ: إن المراد بالساق ساقُ الباري عَزَّوَجَلَّ. ولكن الَّذِينَ قَالُوا بالثَّاني لم يَعتمِدوا عَلَى ظاهِرِ الآيةِ؛ لأنَّ ظاهِرَ الآية أَنَّ الساقَ غيرُ مضافٍ، ولا يجوز أن نُضِيفَ إِلَى اللهِ ما لم يُضِفه إِلَى نفسِه أبدًا، لكنهم اعتمدوا عَلَى السُّنَّة فِي حديث أبي سَعيدٍ الطويلِ أَنَّ رَبَّنَا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يكشف عن ساقِه فيسجدُ له كُلُّ مَن كانَ يسجد لله تَعَالَى فِي الدُّنيا، ويعجِز عن السُّجُود مَن كانَ يسجد رياءً وسُمعةً[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ رقم (٤٩١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

فإذا قارنتَ الحَدِيث بالآيةِ وجدتَ أن سياقَ الآيةِ يَنطبق تمامًا عَلَى ما دلَّ عليه الحَدِيثُ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]

إذن نقول: نَحْنُ لم نُثبتِ الساقَ إِلَّا حيث كانَ سياق الآية موافقًا للسُّنَّة فِي الحَدِيث عن الرَّسُول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإلا لَقُلنا: لا يجوز أن نُضيف الساقَ إِلَى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ ما أضافها إِلَى نفسه.

ومسائلُ الصِّفَات مِن بابِ الأمورِ الغَيْبية الَّتِي لا نتطلَّع عَلَى شيء منها إِلَّا بما أَطْلَعَنَا اللهُ عليه، ثمَّ هِيَ أيضًا أمورٌ غَيْبِيَّةٌ لا نظيرَ لها فِي الشاهدِ، وانتبهْ لهذه النقطة أيضًا: لا نظير لها فِي الشاهِد أي فيما نُشاهِده، وإن الله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء.

إذن لا يمكِن أن نَقيس، ولا يمكِن أن نتخيَّل، ولو أراد أحدٌ أَنْ يقيسَ يَدَ اللهِ بيَدِ المخلوقِ فإننا نقول له: هَذَا حرامٌ، وهذا ضلالٌ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١].

فإن قالَ: أنا لا أعقِل يدًا إِلَّا مِثل يَدِ المخلوق.

قلنا: إنَّ أَيْدِيَ المخلوقات مُختلِفة، وليستْ متَّفقةً متماثِلة، فإذا كانت أيدي المخلوقاتِ مختلفةً مَعَ الاتفاقِ فِي الاسمِ، فالاختلافُ بين الخالقِ والمخلوقِ أَولى وأَجلَى وأظهرُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

نُزول الله تَعَالَى في الثلُث الأخير:

إذن ما دُمنا نؤمِن بأن صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ مِن الأمورِ الغَيْبية؛ فإنه يجب أن نقتصر عَلَى ما جاء به النصُّ، لا نُقصِّرُ ولا نَزيدُ.

وقد تُشكِل بعضُ الأمور عَلَى بعض النَّاس، ولا سِيَّما بعد أن انفتحتِ الدُّنيا الآن، فيُورِد بعضُ النَّاس إيرادًا يقول فيه: ثَبَتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ينزل إِلَى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقَى ثُلُث اللَّيْل الآخِرُ فيقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[(١)]، فكيف ينزل؟ وهل يَلزم مِن نُزوله أَنْ يَكُونَ دائمًا فِي السَّماء الدُّنيا، لأنَّ ثُلث اللَّيْل دائمًا عَلَى الكرة الأرضية، فما الجواب عَن السُّؤال الأول؟ وما الجواب عَن السُّؤال الثَّاني؟ فهذان سؤالان: السُّؤال الأول: كيف ينزل؟ والسُّؤال الثاني: هل يبقى دائمًا فِي السَّماء الدُّنيا؛ لأنَّ ثُلث اللَّيْل يتكرر دائمًا، فثُلث الليل يدور على الكرة الأرضية؟

والجواب عن السُّؤال الأوَّل جوابٌ سَدِيدٌ قاله مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الاستواءِ عَلَى العرش: قال رَجُلٌ فِي حَلْـقة الإمام مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أبا عبـد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأطرَقَ مالِكٌ برأسِه حتَّى عَلاهُ الرُّحضَاء، يعني العَرقَ؛ لأنَّ هَذَا السُّؤالَ ثَقِيلٌ، فكُلُّ مَن قَدَرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وعرَف عَظَمَته عرفَ أن هَذَا السُّؤال ثَقيل جدًّا، ولهذا عَلاه العَرَقُ، رَحِمَهُ اللهُ ورضيَ عنه.

ثُمَّ رفع رأسَه وقال: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ» وهَذَا مشهور، ولكن الرواية المنقولة بالسَّنَد: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» والمعنى متقارِب، «وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

إذن إذا سألَنَا سائلٌ يقول: كيف يَنزِل؟

فإننا نقـول: هَذَا السُّؤال مِن أَصْلِه بِدْعَـة، فلا تسأل يا أخي هذا السؤالَ، فهل أنت أحرصُ عَلَى العِلمِ باللهِ مِن أصحابِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ سيقـول: لا. إذن هل سأل الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ عن ذلك؟ الجـواب: لا، إذن السُّـؤال عنه بِدعة، فقُـل: سمِعنا وصدَّقنا وآمنَّا، ولا تقُـل: كيف يَنزِل، ومَن أنت الَّذِي تقول: كيف ينزل وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعَليٌّ وابنُ مَسعودٍ ومُعاذُ بنُ جَبَلٍ وابنُ عبَّاسٍ وغيرُهم مِن فُقَـهَاء الصَّحَابَة ما سألوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: كيف يَنزِل! أفلا يَسَعُكَ ما يَسَعُهم! هَذَا هُوَ الواجب.

إذن هَـذَا السُّؤال يجبُ ألَّا يَرِدَ أَصْلًا، ثمَّ إذا ورَدَ وجاءنا رجـلٌ لُكَعٌ يقول: لا بُدَّ مِن إجابةٍ، قلنا: يَنْزِلُ نُزولًا يَليق بجلالِه، لا نَعلَم كيفيَّته، ولا تُدرِك عقولُنا كيفيته، كيف وقد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فهَذَا أمر لا تُدرِكه العقولُ أبدًا، وعليك أن تؤمن.

أما السؤال الثاني وهو: هل يبقى دائمًا فِي السَّماء الدُّنيا؛ لأنَّ ثُلث الليل يَدُور على الكُرة الأرضية؟

فنقول: هل تُؤمن بالحَدِيث؟ فسيقول: نعم، فنقول: الرَّسُول ﷺ حَدَّدَ ثُلُثَ اللَّيْل إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الفَجْر، فإذا كنت فِي منطقة فِي ثُلُث اللَّيْل فالنُّزول الإلهيُّ حاصلٌ، وإذا طلع الفَجْر انتهى وقتُ النُّزول، ولا تقُلْ سِوى ذلك، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُقاس بِخَلْقِه، فيكون نازلًا فِي الجهة الغربيَّة، وفِي الجِهة الشرقيَّة ليس بنازلٍ، فقد انتهى وقت النزول، فآمِن باللهِ ورسولِه ولا تُورِدِ الشبُهات؛ لأنَّ الَّذِينَ يُورِدون مِثل هَذِهِ

الأشياء قد يكون عن استشكال صحيح، وقد يكون عن مُعارضةٍ، ولكن الجواب يسيرٌ والحمد لله، نقول: هكذا جاء الحَدِيث عن رسول الله ﷺ ولا تتجاوزه، فما دام الثلثُ باقيًا فالنزول الإلهي باقٍ، وإذا طلع الفَجْرُ فلا نُزولَ، ويختلف هَذَا باختلاف الأماكن، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُقاس بِخَلْقِه، وهَذِهِ الأمور لا تُدركها العُقول.

صفاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

إذن نَحْنُ نتكلم عن أن صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ مِن الأمور الغَيْبية، فلا يجوزُ أن نُثبت لله إِلَّا ما أثبتَهُ لِنَفْسِهِ، أو أثبتَهُ له رسولهُ، كما لا يجوز أن نَنفيَ عن اللهِ ما أَثبتَه لِنَفْسِهِ، وهذه قاعدة مِن أَهَمِّ ما يكون مِن قواعد باب الأسماءِ والصِّفَاتِ، وهي مُفيدة لطالبِ العِلمِ، فكلُّ سؤال يَرِد عليك فِي باب الأسماءِ والصِّفَاتِ والصَّحَابَةُ لم يُورِدُوه عَلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقُـلْ فيه قولَ مالِكٍ: هَذَا الشَّيْء معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمانُ به واجب، والسُّؤال عنه بِدْعَة، فهَـذَا هُوَ واجبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَـذِهِ الأمورِ الَّتِي هي مِن أَهَمِّ الأشياء.

إذن هذه قاعدةٌ هامَّة: أن الصِّفَاتِ مِن الأمور الغَيْبية، فيجب الاقتصارُ فيها عَلَى ما وردَ إثباتًا ونَفْيًا. هَذِهِ واحدة.

ثانيًا: إذا قالَ قائل فِي باب الصِّفَات: هل ما أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّه مُماثِل للخَلق فيما أَثبتَه؟

فالجواب: لا، فلا يَلزَم فيما أثبتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ مُماثلًا للخَلقِ؛ لا باعتبار الدَّلِيل الأثريِّ، ولا باعتبار النظريِّ، أما الدَّلِيلُ الأثريُّ فقـد قالَ الله تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

وقال الله تَعَالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] ومعنى سَمِيًّا أي: نَظيرًا ومُشابهًا. وقال تَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٣-٤]. وقال الله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]. وقال الله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

والآياتُ فِي هَذَا كثيرة، والنصوصُ عن رسول الله ﷺ أيضًا كثيرة، وإن كانت لا تكون بهذا اللفظ، لكن بمعناه، مِثل قوله ﷺ: «**شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ**»[1]، ومثل قوله «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا**»[2].

والدَّلِيل النظريُّ أن نقولَ لمن فَهِم، أو حاولَ أَنْ يفهمَ، أو لَبَّس عَلَى النَّاس بأن صفاتِ اللهِ مُماثِلَة لصفاتِ المخلوقينَ؛ نقول: هل تَعقِل لله ذاتًا؟ فإن قال: ما أعقِل أَنَّ للهِ ذاتًا. إذن يكفُر، وإن قال: أعقل أَنَّ للهِ ذاتًا. فنقول: هل تعقل أَنَّ هَذِهِ الذات مُماثلةٌ لصفاتِ المخلوقينَ؟ سيقول: لا. فنقول له: إذا كنت تعقِل ذاتًا لا تُماثل ذواتِ المخلوقين، فلتعقلْ صفاتٍ لا تُماثل صفاتِ المخلوقينَ؛ لأنَّ الصِّفَات تابعة للذاتِ، فكما أن ذات الله عَزَّوَجَلَّ لا تُماثل ذَوَاتِ المخلوقينَ، فكذلك صفاتُه لا تُماثِل صِفات المخلوقين، هَذَا وجه.

وجهٌ آخرُ: أن نقول: كُلُّنا يفهم أَنَّ للذَّرَّة رِجلًا، وأن للفِيل رِجلًا، وأن للجَمَل رِجلًا، فلا يمكِن لأحدٍ أَنْ يفهمَ أَنَّ رِجل الذَّرَّةِ كَرِجلِ الفِيلِ، ورِجل الفيلِ كرِجلِ الجَمل أبدًا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص:٢٧٤)، رقم (٧٨٣).

فإذا كنت لا تعقل هَذَا فِي المخلوقات فهي فِي الباري مِنْ بَابِ أَوْلَى؛ لأنَّ ظُهور التبايُن بين الخالق والمخلوقِ أَجلَى وأَوْلَى مِن التبايُن بين المخلوقات بعضِها البعض، ولهـذا أتدرون لماذا عَطَّل أهلُ التعطيل صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ لأنَّهم فهِموا أولًا أَنَّ إثباتَ هَـذِهِ الصِّفَات يَسْتَلْزِم التمثيـلَ، فلما فهموا هَذَا الفهـمَ أنكروها، ففهِموا أننا إذا أثبتنا للهِ وجهًا فلازم ذلك أَنْ يَكُونَ وجهُه مماثلًا لأوجهِ المخلوقينَ، قَالُوا: إذن يجب أن نُنكِرَ هَذَا الوجهَ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، فإذا كانَ يقول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وهم يفهمون أن الوجه يُماثِلُ أَوْجُهَ المخلوقينَ؛ لزِم أن نُنْكِرَ الوجهَ.

ولهذا نقـول: كل مُعَطِّل فهو مُمَثِّل، نقول: هُوَ مُعَطِّل وهو مُمَثِّل لأَنَّه إنَّما عَطَّلَ بناءً عَلَى فَهمِ التمثيلِ، فمَثَّل أولًا وعَطَّل ثانيًا.

كذلك أيضًا نقول لهـذا الممثِّل مثلًا: أنت تُثْبِت للهِ حياةً وعِلمًا وقُدرةً وإرادةً وسَمْعًا وبَصرًا وكلامًا؛ سَبْعَةَ صفاتٍ، فهل إثباتُك هَذِهِ الصِّفَاتِ عَلَى وجهٍ مماثِلٍ لصفاتِ المخلوقينَ أو لا؟

إنْ قالَ: نعم مُماثِل. **قلنا:** يجب عليك أن تَنفِيَها، وإن قالَ: لا أنا لا أُثبِتها عَلَى وجهٍ يُماثِل صفاتِ المخلوقينَ. قلنا: فلْتُثْبِتْ بقيَّةَ الصِّفَات عَلَى وجهٍ لا يُماثِل صفاتِ المخلوقينَ.

فإن كابرَ وقالَ: المراد باليدِ القوةُ أو القُدرة، فتقول: إذا أَثْبَتَّ قُوَّةً فإنَّ للمَخلوقِ قوةً، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ

بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت:١٥].

نقـول: إذا أَثبَتَّ القُوةَ أو القُدْرةَ كما تريدُ فللمخلوقِ قُوَّةٌ وقُدرةٌ، فوقـعتَ الآن فِي مِثل ما فَرَرْتَ منه؛ منَ التمثيلِ، بل فِي شرٍّ مِن ذلك؛ لأنك أخذتَ النصَّ عن ظاهرِه، وهذه جنـايةٌ عَلَى النصوصِ، ثمَّ وقعتَ فِي معنًى يَلزَمُكَ فيـه مِثلُ ما يَلزَمُك فِيما لو أثبتَّ ظاهرَ النصوصِ.

ولهذا لا يمكن أن تجدَ مَذهَبًا مخالفًا لمذهبِ السلفِ إلَّا وهو مَعَ مخالفتِه للكتابِ والسنَّة مُتناقِضٌ، يعني ينقُض بعضُه بعضًا، لكن طريق السلَف مُطَّرِد وواضحٌ بيِّن، لا يختلف، ولا يتناقَض.

فلهذا أُوصي نفسي وإياكم بلزومِ مذهبِ السلفِ، وأن تأخذوا عقيدتكم لا مِن كتاب فُلَان وفُلَان، ولكن مِن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنة رسوله ﷺ.

وأنا طالعتُ بعـضَ الكتبِ فِي العـقائدِ -ولا حاجة إِلَى التعيينِ- ووجـدتُ أكثرَها يعتمد عَلَى شُبُهاتٍ يَظنُّونها عقليَّات، ويَنْدُر جِدًّا أن تجد كتابًا يقول: الدَّلِيل قوله تَعَالَى أو قول الرَّسُول ﷺ كذا وكذا. إنَّما هِيَ شُبهات عقلية يظنونها حُجَجًا وهي فِي الواقع لُجَج، وليستْ بِحُجَجٍ، أو كما قيل[1]:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُـهَا حَقًّـا وَكُـلٌّ كـاسِرٌ مَكْسُـورُ

ولكن مذهب السَّلَفِ واضحٌ ونَقِيٌّ وبَيِّن، وهَذَا الوضوحُ والبيانُ يُبيِّنه قولُ الرازيِّ، وهو من علماء أهل الكلام، يقول الرَّازِيُّ: «لقدْ تأمَّلتُ الطُّرُق الكلاميَّة،

(١) البيت للخطابي، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨).

والمناهِجَ الفَلسفيَّة، فما رأيتُها تَشفِي عَليلًا، ولا تَروي غليلًا، ورأيتُ أقربَ الطرُق طريقةَ القرآنِ، أَقْرَأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأُ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]، ومَن جَرَّب مِثلَ تَجرِبَتِي عَرَفَ مثل مَعْرِفَتِي»(١).

الله أكبرُ! هَذَا الكلامُ له معنًى عظيمٌ: «أَقْرَأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾» فأَثْبَتَ العُلُوَّ والاستواءَ عَلَى العَرشِ. وهل هَذَا الاستواء يُشبِه استواءَ الإِنْسَانِ عَلَى السَّريرِ أو عَلَى الناقة؟ لا، فمِن أين أخذَه؟ قالَ: وأقرأُ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾.

وهكذا المؤمنُ يقرأ في الإثباتِ فيُثبِت، ويقرأ في النفي فينفي.

ويقول هُوَ بنفسه، وهو مِن علماء الكلامِ، بل مِن رؤسائهم؛ يقول: (ومَن جَرَّب مِثلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثلَ مَعْرِفَتِي)؛ لأَنَّه يقول: (لقدْ تأمَّلتُ الطُّرُقَ الكلاميَّة، والمناهِجَ الفَلسفيَّة، فما رأيتُها تَشفِي عَليلًا، ولا تَروي غليلًا). وصَدَقَ والله، فالمناهج الفلسفية والطرق الكلاميَّة لا تَروي غليلًا، ولا تَشفي عليلًا، بل تَزيد الداءَ داءً، حتَّى يَهلِك صاحبُه، ولا تَروي غَليلًا.

ومعنى الغَلِيل: العَطشان. ويُمكننا معرفة معناها مِن قولِه: (تَروِي)، وهَذِهِ طَريقةٌ جَيِّـدة؛ أَنْ تَعْرِفَ الشَّيْءَ بمُقابلِه، فلـو قالَ لك قائل: قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (١/ ١٦٠).

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] فما معنى ثُباتٍ؟ قلت: فُرادى، وتَعرِفها مِن قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، فالشَّيْءُ يُعرَف بمُقابلِه.

عَلَى كل حالٍ، أنا أقول: العقيدة السلفيَّة واضحة، وليس فيها تناقُضٌ ولا اختلافٌ، ولكن كما قالَ الرازيُّ مُقِرًّا عَلَى نفسِه بالخطأِ، يقول: (أَقْرَأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]).

فأكثرُ النَّاس، بل يمكنني أن أقول وأكون إنْ شَاءَ اللهُ فِي حِلٍّ: إن الَّذِينَ يتأوَّلون فِي صفات الله ويُثبتون صفاتٍ مُعَيَّنةً ويتأولون فِي صفاتٍ أخرى؛ تجدُهم مُتناقِضينَ لَيْسَ لهم قانون مستقيم أبدًا.

والعجيب أن بعضهم يقول: إننا لم نستطعِ الردَّ عَلَى المعتزِلة والفلاسفة إِلَّا بهذه الطريقةِ الَّتِي هِيَ طريقُ التأويلِ.

وأنا أقول: إن هَذِهِ الطريق هِيَ الَّتِي تفتح للفلاسفةِ والمعتزِلة الدخولَ فِي التحريفِ؛ لأنَّ أولئك إذا أوَّلوا يقولون لهؤلاء: لماذا أنتم تُسَوِّغون لأنفسكم أن تُؤولوا ولا تُسَوِّغون لنا أن نُؤَوِّل.

ثمَّ لماذا تتناقضون؛ تؤولون فيما تشاءون وتُبقون النصَّ عَلَى ظاهره فيما تشاءون، وما هَذَا إِلَّا تحكُّم فِي أدلَّة الله فِي الكتاب والسُّنَّة، فأيُّ إِنْسَانٍ يقول: والله هَذَا النص أَقْبَلُه، ولا أَقْبَل النَّصَّ الآخر فهو ليس صحيحًا، يقول: النَّص فِي الإرادة أَنَّ اللهَ يُريد أقبلُه، وأما أَنَّ اللهَ يغضب فلا أَقبله، فالله ما يَغضَب، فالغضب يعني يريد أَنْ

ينتقمَ، فلَيْسَ يغضب، بل يريد أَنْ ينتقم.

يقول: ما دمتَ أثبتَّ الإرادة فلماذا لا تُثبِت الغضبَ، فإن أثبتَّ إرادةً لا تُشْبِهُها إرادةُ المخلوقينَ فأثبِتْ غَضَبًا لا يُشْبِهُه غضبُ المخلوقينَ، وإلا فاجعل الأمر مُطَّرِدًا؛ إما إثباتًا وإما نفيًا فِي الجميع، أما أن تتناقَض فهذا لَيْسَ طريقًا عِلميًّا ولا منهجًا سَليمًا.

ففي قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣] قَالُوا: الغضب يعني الانتقام، أو إرادة الانتقام، ففسروه إما بشيءٍ مخلـوقٍ مُنفصِل عن الله، وهو الانتقام، وإما بشيءٍ يُقِرُّون به وهو الإرادةُ.

فنقول لهم: لماذا أنكرتم الغضبَ؟ قَالُوا: لأنَّ الغضب غَلَيَان دمِ القلبِ لمَحَبَّة الانتقامِ مِن المغضوبِ عليه، واللهُ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّه عن ذلك التفسيرِ للغضبِ بهذا المعنى، فلَيْسَ بلائقٍ باللهِ عَزَّوَجَلَّ بلا شَـكّ، ولا يمكِن أن نفسِّر غضبَ اللهِ بهذا؛ لأنَّ هَـذَا غضبُ المخلوق، وقد قالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

نقول لهم: هل تُثبتون الإرادةَ لله؟ قَالُوا: نعم، نُثبت الإرادة لله، فاللهُ يريدُ.

والإرادة هِيَ الميلُ للشيءِ لرجـاءِ منفعةٍ أو انتفاء مَضَرَّةٍ، فأنت مَثَلًا تريد أن تأكل الطعامَ لدفعِ الجُوعِ، وتُريد أن تتزوجَ لطلبِ الولدِ، إذن الإرادة تفسيرها: الميل للشيءِ لرجاء منفعةٍ أو انتفاءِ مضرةٍ، فهل الإرادة بهذه المعنى تليق بالله؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضرُّه معصية العاصين، فما يَلِيق بالله؟ قَالُوا: الَّتِي فسَّرتُم إرادة مخلوقة، ونحن نُثبت لله إرادةً تَليق به، قلنا لهم: هَذَا حَقٌّ، إذن الغضب الَّذِي قُلتم: إنه غليان دَمِ القلبِ هَذَا غضب مِنَ المخلوقِ، وغضبُ الخالقِ يَليق به عَزَّوَجَلَّ، فكما أثبتُّم الإرادة فإنه يَلزَمُكم أن تُثبِتوا الغضبَ، فإنْ نَفَيْتُمُ الغَضَبَ

لَزِمَكُم أن تَنْفُوا الإرادةَ، يعني: اجعلوا القاعدة مطَّردةً، فإما أن تُثبِتوا الجميعَ أو تَنفوا الجميعَ، وإما أن تَتَنَاقَضوا، فهذا يعني أن قانونكم غير مستقيمٍ، وأنكم متناقضون.

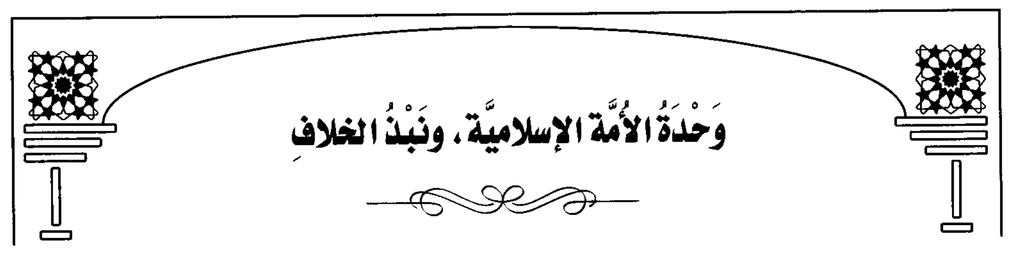
فما المرجع إذن؟

المرجع إِلَى كتاب اللهِ وسُنة رسولِه ﷺ، فنقول: نُثبت أن للهِ غضبًا كما أثبته اللهُ لِنَفْسِهِ، ولكن لَيْسَ مِثل غَضَبِ المخلـوقينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وهكذا جميع الصِّفَات، ونَسلَم بهذا مِن شُرورٍ كثيرةٍ، ومِن تناقضاتٍ عظيمةٍ.

إذن أقـول فيما وصفَ اللهُ به نفسه: أُثبت ما أثبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وأَنفي ما نفَى عن نفسه، فأقـول: للهِ غضَبٌ لَيْسَ مِثل غضبِ المخلـوقينَ، وله رحمة ليستْ كرحمـةِ المخلوقينَ، وله رضا لَيْسَ كرِضا المخلوقينَ، وله محَبَّة ليستْ كمَحَبَّة المخلوقينَ، ولا يَمتنِع أن نقول مِثل هَـذَا كما نقول: إن لله تَعَـالَى ذاتًا لا تُشبه ولا تُماثل ذواتِ المخلوقينَ، وبهذا نَسلم ونكون متَّبعينَ للكتاب والسُّنة.

ننتهي مِن هذا القَدْرِ مِن الكلامِ عَلَى ما يَتَعَلَّق بالصِّفَات، وهو بابٌ مُهِمٌّ يجب عَلَى طالبِ العِلمِ أَنْ يَرجعَ فيه إِلَى الكِتَابُ والسُّنَّة، أما العقائدُ المؤلَّفَة الَّتِي ليستْ مَقرونةً بالكِتَابِ والسُّنَّة، فهذه جَافَّة تُضَيِّع الإِنْسَانَ، وما ذُكر فيها من الحُجَج فإنَّه لُجَجٌ مُغْرِقة، لا يَستفيد منها الإِنْسَان.

واللهُ الموفِّق، وصلى الله عَلَى نبينا مُحَمَّد وعلى آلِه وأصحابِه أجمعينَ.



وَحْدَةُ الأُمَّة الإسلاميَّة، ونَبْذُ الخلافِ

الحمدُ للهِ نَحْمَدُه ونَستعينهُ ونَستغفرهُ ونتوبُ إليه، ونَعُوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِن سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أرسله الله تَعَالَى بالهدَى ودِين الحقِّ، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونصح الأُمَّةَ، وتركها عَلَى مَحَجَّةٍ بَيْضَاءَ، ليلُها كنهارها، لا يَزِيغ عنها إِلَّا هالِكٌ.

فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِه وأصحابه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

ثمَّ خَلَفَه فِي أُمَّتِه خلفاؤُه الراشدونَ؛ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهم أجمعينَ.

ثمَّ ما زالتِ الأئمَّة -أئمَّة الدِّين والهدى- فِي هَذِهِ الأُمَّة يرِثُون شريعة مُحَمَّد ﷺ جيلًا بَعد جِيلٍ حتَّى بَقِيَتْ -وللهِ الحمدُ- الشَّريعة طاهرةً نَقِيَّةً صافيةً لِمَن أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ هدايته، لا يَزيغ عنها إِلَّا هالِكٌ.

والهالك كما قالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وكان هديُ رسولِ اللهِ ﷺ الَّذِي دعا النَّاس إليه وحَثَّهُم عليه هُوَ صراطُ اللهِ المستقيم، صراطُ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِن النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصَّالحِينَ،

وهؤلاء الأصنافُ هُمُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أمِّ القُرْآنِ فاتحة الكتابِ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧] مِن النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهداء والصَّالِحِينَ.

فالنَّاسُ فِي شَرِيعةِ النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنقسمون إِلَى هَـذِهِ الأقسامِ الثَّلاثةِ: قِسم أنعمَ اللهُ عليهم، وقِسمٌ مغضوبٌ عليهم، وقِسمٌ ضالُّون.

فالَّذِينَ أنعـمَ اللهُ عليهم هم الَّذِينَ علِموا الحقَّ وعَمِلوا به، وقَبِلـوه ظاهرًا وباطنًا، لم يَتَّبعوا أهـواءَهم، ولم يتَّبعوا آباءَهم عَلَى غير هُـدًى مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إنَّما كانوا يتَّبعون ما دلَّت عليه كتبُ اللهِ، وما جاءت به رُسُلُه -عليهم الصَّلاة والسَّلامُ- يُطَبِّقـون ذلك ظاهرًا وباطنًا فِي أعمالِ القُلـوبِ وعقائدها، وأعمال الجوارح مِن الأقوالِ والأعمالِ، فهَؤُلاءِ هم الَّذِينَ أنعمَ الله عليهم.

وذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أربعـةَ أصنافٍ فِي قولِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩] هَؤُلاءِ هم الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عليهم، أربعة أصناف: النبيُّون والصدِّيقون، والثَّالث: الشهداء، والرَّابع: الصَّالِحون، لكن يجمعهم هَذَا التعريفُ أنَّهم علِموا الحقَّ وعمِلوا بالحقِّ.

أما القِسم الثَّاني فهم المغضوبُ عليهم، الَّذِينَ علِموا الحقَّ، ولكن تَنكَّبُوا عنه وكَذَّبوا الخـبرَ، واستكبروا عن الأمر، فهَـؤُلاءِ مغضوب عليهم، فقـد كذَّبوا الخبرَ واستكبروا عن الأمرِ بعد أن عَلِموا الحقَّ وعرَفُوه وبان لهم، وقامت الحُجَّة عليهم فيه، لكنهم تَنكَّبُوا ذلك وتركوه زُهدًا فيه واستكبارًا عنه، والعِياذُ باللهِ.

وأَبْيَنُ مَثَلٍ لهم أولئك اليهـود الَّذِينَ علِموا الحقَّ، ولكن تَنكَّبُوا عنه، ولهـذا

قالَ سُفيان بنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليَهُودِ»[1]؛ لأنَّ اليهود عَرَفوا الحقَّ ولكن تنكَّبوا عنه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] ولكن -والعِيَاذُ باللهِ- كفروا به واستكبروا عنه، فصاروا مغضوبًا عليهم.

أما الضالُّون -وهُمُ الصِّنفُ الثَّالثُ- فهُمُ الَّذِينَ جَهِلوا الحقَّ ولم يَعلَموه، سواء كانوا مُعرِضين، ولم يَلْتَفِتُوا إِلَى طلبِ العِلمِ وإلى طلبِ الحقِّ، أو كانوا غيرَ مُعْرِضِينَ، ولكن لم يُوفَّق لهم الحقُّ، ولم يُيَسِّرِ اللهُ لهم مَن يَدُلُّهم عَلَى الحَقِّ، وأَبْرَزُ مِثال لذلك النَّصارَى؛ فإنَّهم كانوا ضالِّينَ، ولكن المراد بالنَّصارَى النَّصارَى الَّذِينَ كانوا قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحين بَعْثَتِهِ، أمَّا نَصارى اليوم فقد عَلِمُوا الحقَّ، وبان لهم الحقُّ، ولكن صاروا كاليهود فِي ردِّ الحق والاستكبار عنه، وعَدَمِ الرُّضوخ له، فاستحقُّوا أَنْ يكونوا مغضوبًا عليهم كما كانَ اليهود مغضوبًا عليهم.

وهذا يجب أن نعلم أن الوصفَ إذا استحقَّه جِنس مِن النَّاس؛ فإن هَذَا الوصف لا يكون دائمًا وصفًا لهم؛ لأنَّ حالهم قد تتغيَّر، فهؤلاء النَّصارَى كانوا قبل بَعثة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يعرفون عن الحق شيئًا؛ لأنَّ أَحْبارَهُم ورُهْبانَهُم أَضَلُّوهم، لكن بعد أن بُعث الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبان لهم الحقُّ ولكنهم تَنكَّبُوا عنه؛ لا يحِقُّ لهم أن نَصِفهم بأنهم ضالُّون، بل نقول: هم مغضوبٌ عليهم؛ إذ لا فَرْقَ بينهم وبين اليهود الَّذِينَ عَلِموا الحق ولكن تَنكَّبوا عنه، ولم يَعْمَلُوا به.

أقول: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ترك أُمَّته عَلَى مَحَجَّةٍ بيضاءَ واضحةٍ نَقِيَّةٍ، ولكن تفرَّقتْ

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٩٧).

هَـذِهِ الأُمَّة بَعْدَ نَبيِّها ﷺ إِلَى فِرَقٍ كثيرةٍ؛ إِلَى ثلاثٍ وسبعين فِرقةً، كُلُّها فِي النَّـار إِلَّا واحدة، وهي مَن كانَ عَلَى مِثل ما عليه النَّبي ﷺ وأصحابه، وهَذِهِ الفِرقة الناجية هِيَ الَّتِي عَلِمتِ الحقَّ وعَمِلَتْ به، ولم تتبعْ أهواءَها ولا آراء مَن يَزعمونهم علماءَ، ولا طريقة مَن يزعمونهم أولياء، وإنما اتَّبَعُوا طريق النَّبي ﷺ فقـط، يؤمنون بالله ورسوله حقَّ الإيمانِ، فهَذِهِ الفِرقة هِيَ الفِرقة الناجية إِلَى قيام الساعة، وهَذِهِ الفِرقة يحصُل بينها مِن الاختلاف فِي المسائلِ الَّتِي يَسُوغُ فيها الاجتهاد، ومع ذلك فهُم عَلَى قلب رَجُلٍ واحدٍ لا يتفرَّقون ولا يتنازعون.

أقول: إِنَّ هَذِهِ الفِرقة لا يمكن أبدًا أن تَجْعَلَ مِن الخلاف الَّذِي يكون بينها -فيما هُوَ مِن مسائل الاجتهاد- لا يمكن أن تجعل هَذَا سببًا للتفرُّق، فنجد مثلًا الصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يختلفون فِي مسائلَ كثيرةٍ مِن مسائلِ الأحكامِ العَمَلِيَّة، بل أحيانًا مِن مسائل الأمور العِلمية العَقَدِيَّة، ومع ذلك فهُم عَلَى قلبِ رَجُلٍ واحدٍ، لا يَتنازعون ولا يَتَبَاغَضُون، ولا يَسُبُّ بعضُهم بعضًا، ولا يُنكِّلُ بعضُهم بِبَعْضٍ، بل هُمْ أُمَّة واحـدة، عكسَ ما كانَ عليه المتأخرونَ، تجـد الواحد إذا خالَفَكَ فِي مسألةٍ صغيرةٍ -يعني صغيرة بالنِّسْبَة لما هُوَ أكبرُ منها- يكون فِي قلبك عليه شيء.

ونحن نضرب لهذا مثلًا بمسألةٍ مِن مسائلِ العلمِ العَمَلِيَّة الَّتِي لا تبلُغ أن تكون مشكلةً لعبادةٍ أو مُبطِلة لها، مثلًا: اختلف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي جِلْسَةِ الاستراحةِ، وهي الجِلسة الَّتِي يجلسها الإِنْسَان إذا قام إِلَى الثَّانية فِي الرُّباعيَّة أو الثُّلاثية أو الثنائية، وإذا قام إِلَى الرَّابعة فِي الرباعية؛ هل هَذِهِ الجِلسة مَسْنُونة أو غير مَسْنُونة؟ وهل هِيَ مَسْنُونَة عَلَى كل حالٍ أو فِي ذلك تفصيل؟

فالأقوال فِي هَذَا ثلاثة: قول بأنها مَسْنُونة بكل حالٍ، وقول بأنها غير مَسْنُونَةٍ بكل حَالٍ، وثالث بالتفصيل: أنَّ الإِنْسَان إنِ احتاج لِكِبَرٍ أو مرضٍ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فلْيجلسْ، وإلا فلا يجلِس، فهَذَا خلاف العُلَمَاء.

لكن مِن النَّاس الآن مَنِ اتخذَ مِن هَذَا الخلاف سببًا للنزاع والعداوة والبغضاء، حتَّى إنه إذا رأى أَنَّ هَذَا الرَّجُل لم يجلسْ وهو يعتقد أن الجلوس سُنة كرِهه وأَبْغَضَهُ -والعِيَاذُ باللهِ- وإذا رآه جَلَس وهو ممَّن لا يرى الجلوس كرِهه وأبغضه، وهذا لا ينبغي.

إن الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ اختلفوا فيما هُوَ أعظمُ مِن ذلك، وكذلك العُلَمَاء الأئمَّة اختلفوا فيما هُوَ أكبرُ مِن ذلك، ولا عداوةَ بينهم ولا بَغضَاء، فاختلفوا مثلًا فِي مسألةٍ وقعتْ فِي عهد الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهي أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما رجع مِن غزوةِ الخَنْدَقِ ووضع لَأْمَةَ[1] الحربِ والسلاحَ أتاه جبريلُ فأمره أَنْ يخرُجَ إِلَى يهودِ بني قُرَيْظَةَ؛ لأنَّهم نَقَضوا العهدَ الَّذِي بينهم وبين الرَّسُول ﷺ، فندَبَ النَّبِيُّ ﷺ أصحابَه إِلَى الخروجِ وقال: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**». فخرج الصَّحَابَة ودخل وقتُ العَصْر، وحان خُروج وقت العَصْر، فاختلفوا: قالَ بعضُهم: نُصلي العَصْرَ قبل خُروج وقتِه، وقال آخرون: لا نصلي ولو خرج الوقتُ إِلَّا فِي بني قُرَيْظَة، فصلى الأوَّلون ولم يُصَلِّ الآخرونَ.

فاختلفوا الآن فِي الصَّلاة، وهي أهمُّ شيءٍ، فلو صَلَّى الإِنْسَان بعد خُروج الوقت قلنا: هَذَا حرام عليه، ومع ذلك اختلفوا فِي هَذَا.

---

(١) اللَّأْمَةُ: الدِّرْعُ، وقيل: السلاح، ولَأْمَةُ الحَرْبِ: أداتُها. النهاية لابن الأثير: لأم.

ولما بلغ ذلك النَّبِيَّ ﷺ لم يُعَنِّفْ واحدًا منهم[١]، ولم يَحمِلْ أيُّ واحدٍ منهم عَلَى الآخَرِ بُغضًا أو كراهيةً؛ لأنَّهم مُجتهِدون، والمَقامُ مقامُ اجتهادٍ، فلا يُعنَّف المجتهِدُ، ولا يحِقُّ لك حتَّى مِن الناحية النظرية أن تُعَنِّفَهُ عَلَى اجتهادِه؛ لأنك إنْ عَنَّفْته عَلَى اجتهاده فسيقول لك: قلِ الحقَّ والعدلَ، أنا أيضًا أُعنِّفك عَلَى اجتهادِك إذا عَنَّفْتَنِي عَلَى اجتهادي وكرِهتني مِن أَجْلِهِ، فأنا إن عاملتُك بالمِثْلِ عَنَّفْتُكَ مِن أَجْلِ اجتهادِكَ وكرِهتُك مِن أَجْلِهِ. وحينئذٍ تتنازع الأُمَّة وتَتَفرَّق الأُمَّة فِي مسائلَ اجتـهاديةٍ يَسوغُ فيها الخلافُ.

كذلك أيضًا اختلف العُلَمَاء فيما إذا ما سجد الإِنْسَان هل يُقدِّم يَدَيْهِ أو يُقَدِّم رُكبتيه؛ فمنهم مَن قالَ: قَـدِّم اليدينِ، ومنـهم مَن قالَ: قَـدِّم الرُّكبتينِ، وكلٌّ مِنَ الطائفتينِ احتجَّ بحُجَّـة، فإذا اختلف النَّـاس فِي مِثل هَذِهِ المسألةِ فإنـه لا يكون الاختلاف سببًا للكراهيَةِ أبدًا، ولا يكون الاختلاف إِلَّا مِن الشيطانِ الَّذِي يريد أَنْ يُوقِعَ بينكم العَدَاوَةَ والبَغْضَاء.

والراجح فِي هَذِهِ المسألةِ أَنْ يُقَدِّمَ الإِنْسَان رُكبتيه قَبْلَ يَدَيْهِ؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ يقول: «**إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَبْرُكْ كَمَا يَبْرُكُ الْبَعِيرُ**»[٢].

وانتبـهْ للتشبيهِ حتَّى يَتبيَّنَ لك الأمرُ، فالتشبيه هُـوَ بالهيئةِ؛ هيئة السُّجُـود، وأنت إذا شاهدتَ البعير يبرُك وجدتَه يُنزِل يَديه قبل رِجليه، فيُنزل مُقدَّم جِسمه

(١) أخرجه البخاري: أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم (٩٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم (١٧٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود: أبواب استفتاح الصلاة، باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه، رقم (٨٤٠)، والترمذي: أبواب الصلاة، باب آخر منه، رقم (٢٦٩). والنسائي: كتاب التطبيق، باب أول ما يصل إلى الأرض من الإنسان في سجوده، رقم (١٠٩١).

عَلَى مُؤخَّره، ولو قالَ الرَّسُول ﷺ: فلا يَبْرُك عَلَى ما يَبرُك عليه البعـيرُ -ولاحِظِ الفَرْقَ بين العبارتينِ- قلنا: لا تَبْرُك عَلَى الرُّكَب؛ لأنَّ البعير يَبْرُك عَلَى ركبتيه لا شَكَّ، ولا أحدَ يُنكِر هَذَا؛ أَنَّ رُكْبَتَي البَعير فِي يَديه، وأنه يَبرُك عليهما، فهَذَا لا إشكالَ فيه، ولكن لفظ الحَـدِيث لا يساعد عَلَى هَذَا: «فَلَا يَبْرُكْ كَمَا يَبْرُكُ البَعِيرُ» ولم يَقُـلْ: عَلَى ما يَبْرُك.

فإذن إذا اختلفنا فِي هَذِهِ المسألةِ، ووجدنا شخصًا يُصَلِّي إِلَى جانِبنا يُقَدِّم يديه وآخَرَ يُقَدِّم رُكبتيه، فلا يَسُوغ لنا ونحن أُمَّة واحدة أن نجعلَ مِن هَذَا الخلافِ سببًا للكراهيَة أبدًا، بل أقول: ما دُمْتَ خالَفْتَنِي مِن أَجْلِ أَنَّ هَذَا هُوَ الحَقُّ عندك، وأنك مُتَّبعٌ للدليلِ، فأنت مُوافق لي فِي الواقع؛ لأني أنا ما خالفتُك إِلَّا بِمُقتضَى الدَّلِيل عندي، فإذن العملُ واحد، والهدف واحد، وينبغي أَلَّا يُضلِّل بعـضُنا بعضًا بِمِثْل هَذِهِ المسائلِ الَّتِي فيها مَساغٌ للاجتهادِ.

لا نُقِرُّ مَن خالفَ النصوصَ وإجماعَ السلَف:

أما الشَّيْء الذي يُمكِن الاجتهاد فيـه، وهو الَّذِي دلَّت عليه النصوصُ دلالةً واضحةً، فهذا لا يمكِن أن نُقرَّه، أو دلَّ عليه إجماعُ السلَفِ، فهذا لا يمكن أن نُقرَّه، فمثلًا لو قالَ قائل: إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول فِي كتابه العزيز: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:٦٤] وقال جَلَّوَعَلَا يخـاطب إبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]؛ لو قـالَ قائل: المراد باليدينِ النعمةُ أو القُدرة أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فلا نوافقـه عَلَى اجتهادِه ولا نُقِره؛ لأنَّ النصَّ صَريح فِي هَذَا وواضِح، وإذا جاز لنا أن نُؤوِّل مثل هَذَا النصّ فلْيجُز أن نؤوِّل

حتَّى نصوص الصَّلاة والصِّيَام والحجِّ؛ كما فعل الفلاسفةُ أهل التحريفِ، لَمَّا رأَوْا هَؤُلاءِ حرَّفوا مثل هَذِهِ الآيات الصريحة قَالُوا: إذن نَحْنُ نحرِّف الآياتِ الأخرى، قَالُوا: المرادُ بالصَّلاة مَعرِفة أسرارِ مَشايخهم؛ أن الإِنْسَان يتطلَّع عَلَى أسرار الشيوخِ، وليس أنَ يُصَلِّيَ للهِ ويَركَع ويَسجُد، هَذِهِ الصَّلاة! ومعنى الصِّيَام عندهم هُوَ الإمساك، بأن تكتُمَ أسرارَ هَؤُلاءِ الشيوخِ والأولياء، ولا تُخبِر بها أحدًا! والحجُّ هُوَ القصدُ؛ أن تَقصِد الأولياءَ -الَّذِينَ يُسمونهم أوْلِياء- والشيوخ وتَدْعُوَهُم.

فإنْ قِيل: لماذا تؤولون هَذِهِ النصوصَ الصريحةَ؟

قَالُوا: لأنكم أنتم يا أهل التأويل أوَّلتم نصوصًا صريحةً واضحةً فِي صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فقلتم: المرادُ باليدينِ النعمتانِ، فيكون معنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لَمَا خلقتُ بنِعمتيَّ! فليس لها معنًى أبدًا، وكذلك: بقُوَّتَيَّ! والقوة صِفة واحدة، وكل المخلوقات خلقَها الله تَعَالَى بقُوَّتِه، فأين الفضل لآدم عَلَى إبليس إذا قلنا: المرادُ باليدِ القُوَّةُ! لا فضلَ له عليه.

إذن مِثل هَؤُلاءِ لا نسكُت عن بيانِ خَطئهم، ولا نُوافقهم عليه، ولا نقول: أنتم مَعذُورون بهذا الخطأ؛ لأنَّ النصَّ واضِح صَريح فِي هَذَا، ولا يمكِن أَنْ يُقبَل هَذَا مثلُ هَذَا التأويل، وأحسن ما يُوصَف به ما سماه شيخ الإسلام بقولِه: (تحريف) فِي العقيدة الواسطيَّة، قالَ: «إن أهل السُّنَّة والجَماعَة يُثبتون ما أثبته الله لِنَفْسِهِ من غير تحريف ولا تعطيل»[1]. فعدل عن قوله: تأويل إِلَى قوله: تحريف؛ لأنَّ هَذَا هُوَ

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة، (ص:٥٧).

الموافِق لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ذكر الله ذلك فِي قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

ثانيًا: إن التأويل يَنقسِم إِلَى صحيحٍ وفاسدٍ، فالتأويلُ المطابِقُ لكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه صحيحٌ، والتأويلُ المخالِفُ لمرادِ اللهِ ورسولِه هَذَا فاسدٌ، فإذا قلنا: مِن غير تأويلٍ. أَوْهَمَ ذلك أننا نَنفي الفاسدَ والصحيحَ، وهذا له خَطَرُه.

إذن نَحْنُ نقولُ: مِن الأشياءِ ما لا يُمكِن السكوتُ عليه؛ لأَنَّه مخالِفٌ للنصِّ ولطريقِ السلَف -رَحِمَهُمُ اللهُ ورضي عنهم- فهَـذَا لا يمكِن أن نَعْذِرَ أحدًا فيه بعد أَنْ يَتبَيَّنَ له الحـقُّ، أما لو كانَ هَذَا الرجلُ عائشًا فِي وسطِ قومٍ لا يَعرِفون إِلَّا هَذَا فهذا ربما نَعْذِرُه؛ لأَنَّه جاهِل، والإِنْسَانُ الجاهلُ قد يُعذَر بإنكارِ ما هُوَ معلومٌ مِن الدِّينِ ومِنَ الشريعةِ.

أَلم تعلموا أن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنكر عَلَى الصحابيِّ الَّذِي سمِعه يقرأ بسورة الفُرقان عَلَى خلاف ما كانَ عمر قَرَأَها، مَعَ أن هَذِهِ القراءة الَّتِي كانَ يقرأ بها هَذَا الصحابيُّ صحيحة أَقْرَأَهُ إياها رسولُ الله ﷺ.

ومِن المعلوم أن أحدًا لو أنكر شيئًا مِن القُرْآن لكان يَصِل به إِلَى الكفرِ، لكن عمر لم يكن يعلَم أن الرَّسُول أقرأه هَـذَا، ولهذا احتكم عمر مَعَ هَـذَا الرجل إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقـال الرَّسُول ﷺ لعـمرَ: «**اقْرَأْ**»، فقَرَأَ، قَـالَ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**»، ثُمَّ قَالَ لعمر: «**اقْرَأْ**»، فقَرَأَ، فقَالَ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم (٢٤١٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، رقم (٨١٨).

فالإِنْسَان قد يُنكِر ما يكون إنكارُه كفرًا لعدم عِلمه به، وحينئذٍ يكون مَعذورًا.

ألم تَعلَموا أن بعضَ السلَف قالَ: إن النَّار تَفنَى، مَعَ أن هَذَا مخالِف لِصَريح القُرْآن؛ فقد ذكَرَ اللهُ تَعالَى تأبيدَ أهلِ النَّارِ فِي ثلاثِ آياتٍ مِن كتابِه؛ فِي سُورَة النِّسَاء، وفِي سُورَة الأحزاب، وفِي سُورَة الجنِّ، فهي ثلاثُ آيات واضحة فيها ذِكر التأبيدِ صَريحًا:

قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وفِي سُورَة الجنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فِي ثلاث آياتٍ، ولو جاءت فِي آيةٍ واحدةٍ لكفَى، فكيف وقد جاءت فِي ثلاثِ آياتٍ فِي كتابِ اللهِ، ومع هَذَا ما قالَ النَّاس: إن هَؤُلاءِ الَّذِينَ خالفوا فِي هَذِهِ المسألة كفَّار أو ضُلَّال؛ لأنَّ الإِنْسَان بشرٌ، ولا نقول: إنَّه ما بلغه؛ لأنَّ الآياتِ فِي القُرْآنِ كلٌّ يَقرؤُها، لكن الإِنْسَان بشرٌ قد يَفوته الفهمُ، كما أنَّه قد يفوته العِلمُ؛ لأنَّ أسباب الخطأ ثلاثة:

السبب الأول: قِلَّة العِلم.

السبب الثاني: قُصور الفَهم، أَنْ يَكُونَ الإِنْسَان عنده عِلم ولكن يكون قاصِرَ الفَهم، وكثير مِن النَّاس عندهم عُلوم كثيرة لكن لا يفهمون.

السبب الثَّالث: سُوء القَصد، فيكون الإِنْسَان عنده عِلم وعنـده فَهْمٌ لكنه سيِّئ القصد، يريد إضلالَ الخَلقِ، وإخراجَهم منَ النـور إِلَى الظلُمات، وصَدَّهم عن سبيل الله.

فهذه ثلاثة أمور كلها سبب للضلالِ.

فالأول: القُصور، فلا يكون عند الإِنْسَان اطلاع.

والثاني: القُصور فِي الفهم؛ فيكون عنده اطلاع واسعٌ لكنْ فَهْمُه قاصر لا يفهم النصوص، وربما يفهم لكن لا يستطيعُ أن يَسْتَنْبِطَ منها مسائل وأحكامًا، ولهذا تجد بعض العُلَماء يستنبطون مِن الآية عشَرة أحكامٍ أو عشرينَ حُكمًا، بينما لا يُخرج الثَّاني منها إِلَّا خمسةَ أحكامٍ أو ثلاثة أحكام، وكذلك فِي الحَدِيث.

والثَّالث: قصور القصد، فيكون الإِنْسَان عنده عِلم وعنده فهمٌ، لكن لَيْسَ له قصد صالحٌ، يريد أَنْ يُضِلَّ النَّاسَ وَأَنْ يقلِّد آباءَه وعلماءَه ولو كانوا عَلَى طريق الباطل.

أما إذا وهب اللهُ الإِنْسَان عِلمًا واسعًا، وفَهمًا ثاقبًا، وقصدًا صالحًا، فلْيَبْشُرْ بالخيرِ ويَبْشُرْ بالعِلم. وما أقلَّ مَن يُوفَّقُ لذلك، ولكنَّ فضلَ اللهِ واسِع.

ولهذا ينبغي لنا -يا إخواني- أن نسأل الله دائمًا أَنْ يُعَلِّمَنا ما يَنفعُنا، وأَنْ ينفَعَنا بما علَّمَنا، وَأَنْ يَزيدَنا علمًا؛ لأنَّ هَذِهِ الأشياءَ مهمَّة، فلا تَقُـلْ: إنِّي أدركتُ العِلمَ، فالعِلم بحرٌ لا ساحِلَ له أبدًا، ومَن قالَ: إنه أدركَ العِلمَ فهو أجهلُ النَّاسِ بنفسِه، وأجهلُ النَّاس بالعِلمِ؛ لأنَّ العِلمَ لا مُنتهى له، فأحيانًا يجيء واحدٌ مِن الطلبةِ صغيرٌ ويتكلَّم بكلـمةٍ غائبةٍ عن أكبر النَّـاسِ وليستْ عَلَى بالِهم، وهذا موجـود حتَّى فِي عهد الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

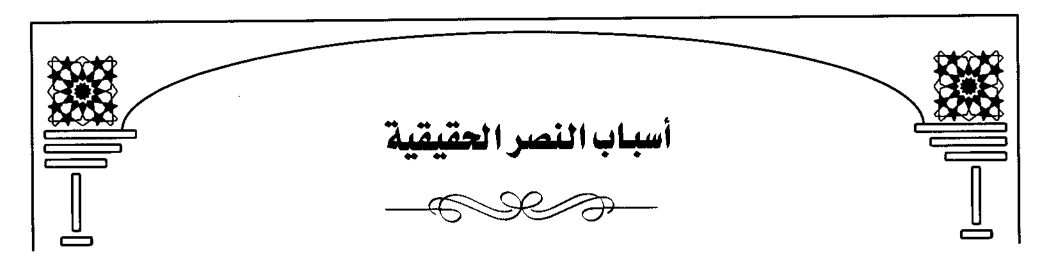
المهم أننا نقـول: المسائلُ الَّتِي تُخالف النصَّ الصريحَ أو تُخالف ما كانَ عليه السلفُ هَذِهِ لا يمكِن السكوتُ عليها، بل يجب إنكارُها وبيانُ بُطلانها، ولكن لا بُدَّ مِن اتباع الحِكمةِ أيضًا، واتباعُ الحكمةِ بأن تتكلمَ مَعَ صاحبك بهدوءٍ وألَّا تَقصِد الانتصارَ لنفسِكَ ورأيِكَ؛ لأنك إنْ قصدتَ الانتصارَ لرأيِك فأنتَ إذن لا تدعو إِلَى اللهِ، وإنَّما تدعو إِلَى نفسك، وإنَّما تريد الانتصارَ للحقِّ، فاجعلْ هَذَا الَّذِي خالفَ الحقَّ فيما تَرَى كأنَّه مَريض تريد أن تُعَالِجَه، لا كأنَّه مُجرِمٌ تريد أن تُعَاقِبَه؛ لأنَّ هناك فرقًا بين النظرتينِ؛ بين شخص ينظرُ لَمَن خالَفَه فِي الرأيِ كأنَّه مُجرِم يريد أَنْ يُعاقبه، وبين آخَر ينظر إليه كأنَّه مَريض يريد أَنْ يعالجَه.

ولهـذا تختلف مناهج النَّاس فِي بيانِ الحقِّ وبيانِ الصوابِ فِي هَـذِهِ الأمورِ، والموفَّقُ مَن وفَّقه اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولكن لا شَكَّ أن الرِّفقَ يأتي بالخيرِ أكثرَ مما يأتي به العنفُ؛ كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ[1].

ونحن إذا عاملنا النَّاس بهذه المعاملة ربما يتقبَّلون منَّا، لكن لا نعاملهم بالعُنفِ، فإذا قال أحدهم مثلًا: المراد باليدين بالنسبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القُدرة أو النعمة. فلَيْسَ مِن الحِكمة أن أقول: يا مُبتدِعُ، يا ضالُّ، يا محرِّفُ، أخطأتَ، فهَذَا لَيْسَ من الحكمةِ، بل أتكلَّم معه بهدوءٍ ومناقشةٍ صحيحةٍ، وأعتقِد -إِنْ شَاءَ اللهُ- أن كل واحدٍ يريد الخيرَ لا بُدَّ أَنْ يقنعَ به.



(١) أخرج مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣) أن رسول الله ﷺ قال: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**».



أسباب النصر الحقيقية

إنَّ الحَمدَ لله، نَحمَدُه ونَستَعينُه ونَستَغفِرُه، ونَتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفُسِنا ومن سَيئاتِ أعمالِنا، من يَهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلِ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحْدَه لا شَريكَ له، وأشهَدُ أنَّ مُحمدًا عَبدُه ورَسولُه، أرسَلَه الله تعالى بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ ليُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه، فبَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصحَ الأمَّةَ، وجاهَدَ في الله حَقَّ جِهادِه حتَّى أتاه اليَقينُ، فصَلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آله وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يَومِ الدينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فإنَّه يَسرُّنا في هذه الليلةِ -ليلةِ السَّبتِ الثامِنِ والعِشرينَ مِن شهرِ رَجب عامَ اثنَي عَشَرَ وأربعمِائةٍ وألفٍ- أنْ نَبدَأ دُروسَنا اليَومِيَّةِ في المَسجِدِ الحَرامِ، والتي ستكونُ بحَولِ الله بعدَ المَغرِبِ، وبَعدَ صَلاةِ الصُّبحِ، هذه الدُّروسُ ليسَت في كِتابٍ مُعَيَّنٍ، ولكنَّها ستكونُ بإذنِ الله في مَواضيعَ مُعَيَّنةٍ يَحتاجُ لها المُسلِمون، ولاسِيَّما في هذا العَصرِ الَّذي كَثُرَت فيه أنواعُ الفِتَنِ الظاهِرةِ والباطِنةِ الَّتي تَكونُ مِنَ البَلدِ، ومِنَ الوارِدِ إلى البَلَدِ.

ولكِنَّنا في هذه الليلةِ نُذَكِّرُ إخوانَنا المُسلِمينَ بما مَنَّ الله به عَلَينا في هَذِه البلادِ وما جاوَرَها، فقَبلَ اثنَي عَشَر شَهرًا كان الناسُ في مِثلِ هذا الشَّهرِ في أزمةٍ شَديدةٍ، وفي حَربٍ طاحِنةٍ، ولَولا أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدَّرَ ولَطَفَ وأَعانَ، وإلا لكانَت قاضِيةً، لا أقولُ قاضِيةً على الأَموالِ، أو على مِساحاتٍ مِنَ الأرضِ، ولَكِنَّها قاضِيةً على

الأَمنِ، ورُبَّما تكونُ قاضِيةً على الدِّينِ أيضًا؛ فعَلَينا -ونحنُ نتذَكَّرُ مِثلَ هذا اليَومِ مِنَ العامِ الماضي- أنْ نَشكُرَ الله على هَذِه النِّعمةِ، عَلَينا أنْ نُجَدِّدَ إنابةً إلى الله، وإقبالًا إليه، وتَمسُّكًا بِدينِه؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تكفَّلَ لِمَن تَمسَّكَ بِدينِه أنْ يَنصُرَهُ الله في الدُّنْيا والآخِرةِ، فَقالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافِر:٥١]، وقالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

ولكنْ، ما هيَ أَسبابُ النَّصرِ الحَقيقِيَّةُ الَّتي إذا اتَّصفَ بها الناسُ حَصَلوا على الانتِصارِ؟

لنستَمِع إلى قَولِ الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج٤٠-٤١].

فذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ أربعةَ أوصافٍ لِمَن يَستَحِقونَ النَّصرَ:

﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ولَكِنْ متى يَكونُ التَّمكينُ؟ فلا بُدَّ أنْ يَكونَ للتَّمْكينِ أساسٌ يَقومُ به، واستَمِع إليه في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥].

فلا بُدَّ مِن هذا الأساسِ ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ الَّذي هو مَدخَلُ الإسلامِ، والَّذي هو أساسُ كُلِّ عِبادةٍ؛ ولهذا قالَ العُلَماءُ: إنَّ مِن شُروطِ صِحَّةِ

العِباداتِ كُلِّها أنْ يَكونَ الإنسانُ مُوَحِّدًا مُسلِمًا، فلو أنَّ الإنسانَ تَصدَّقَ بِآلافِ المَلايين، أو بَنا آلافَ المَساكِنِ والمَلاجِئِ للمُحتاجينَ، ولكنَّه غَيرُ مُسلِمٍ لم يَنفَعْه ذلك عِندَ الله؛ لقَولِ الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

إذًا، الأساسُ هو عِبادةُ الله عَزَّوَجَلَّ، والعِبادةُ لها رُكنانِ أساسِيَّانِ، ولها شَرطانِ: أما أساسُ العِبادةِ فهُما: المَحَبَّةُ والتَّعظيمُ: مَحبَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وتَعظيمُ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يُمكِنُ أنْ تَكونَ العِبادةُ إلَّا عَلى هَذا الأساسِ وهو: المَحَبَّةُ والتَّعظيمُ.

ووَجهُ ذلك: أنَّ مَن أَحبَّ شَيئًا، وتَمكَّنَ حُبُّه مِن قَلبِه، فلا بُدَّ أنْ يَكونَ طالبًا له طَلَبًا حَثيثًا، فلو أَحبَّ الإنسانُ أنْ يَدرسَ في جامِعةٍ مِنَ الجامِعاتِ، فإنَّه يَسعى لِلوُصولِ إلى هَذِه الجامِعةِ بكُلِّ وَسيلةٍ، فيُحضِرُ الشَّهاداتِ ويَأتي بالوَسائِطِ حتَّى يَصِلَ إلى مَحبوبِهِ، إذا كان كَذلِك فلا يُمكِنُ أنْ تَعبُدَ الله حَقَّ عِبادَتِه حتَّى تكونَ مُحبًّا له.

فإذا أَحبَبتَ الله سَهُلَت عَليكَ العِبادةُ وقُمتَ بأوامِرِه؛ لِأنَّك متى أَحبَبتَه عَزَّوَجَلَّ سَعيتَ في الوُصولِ إليه بكُلِّ طَريقٍ، ولا طَريقَ للوُصولِ إلى الله إلَّا شَريعَتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قالَ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

أمَّا الأَساسُ الثاني: فهو تَعظيمُ الله، أي: أنْ يَكونَ الله تعالى عِندَك أعظَمَ شَيءٍ، وأنتَ إذا عَظَّمتَ رَبَّكَ فسَوفَ يَصغُرُ عِندَك كُلُّ الناسِ إلَّا مَن كان مُعظِّمًا لله،

وسَوفَ تَرى جَميعَ الناسِ لَيسوا بشَيءٍ أمامَ عَظمةِ الله إلَّا مَن كان مُعَظِّمًا لله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه سيَكونُ عَظيمًا عِندَك، أما مَن سِواه فلَيسَ بشَيءٍ؛ لِأَنَّ القُوَّةَ لله جَميعًا.

وبتَعظيمِ الله يَكونُ الخَوفُ مِنه، ويَكونُ الهَربُ مِن مُخالَفَتِه، فَهَذان أيُّها الإخوةُ رُكنانِ أساسِيانِ:

الرُّكنُ الأوَّلُ: مَحَبَّةُ الله.

والرُّكنُ الثاني الأساسي: تَعظيمُ الله.

فبِمَحَبَّةِ الله يَكونُ السَّعيُ إلى الوُصولِ إليه، وذلك بطاعَتِه، ووَجهُ هذا مِنَ الناحِيةِ العَقليَّةِ: أنَّ مَن أحَبَّ شَيئًا فلا بُدَّ أنْ يَسعى في الوُصولِ إليه بكُلِّ طَريقٍ، حتَّى يَتحقَّقَ له مَقصودُه ومُرادُه.

والتَّعظيمُ لله يَستَلزِمُ الخَوفَ منه، وإذا خِفتَ مِن الله فلا بُدَّ أنْ تَهربَ مِن مَعصِيَتِه إلى طاعَتِه.

إذًا، بالمَحَبَّةِ يَكونُ فِعلُ الأوامِرِ، وبِالتَّعظيمِ يَكونُ تَركُ النَّواهي، والدينُ كُلُّه أوامِرٌ ونَواهي، أوامِرٌ يُطلَبُ مِنَ الناسِ فِعلُها، ونَواهٍ يُطلَبُ مِن الناسِ تَركُها.

هذان رُكنانِ أساسِيانِ في العِبادةِ، وهُناك أيضًا شَرطانِ لِصِحَّةِ العِبادةِ، يَعني: بعدَ أنْ تَتَّجِه لله عَزَّوَجَلَّ للتَّعَبُّدِ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا تُقبَلُ عِبادَتُك، ولا تَصِحُّ إلا بشَرطَينِ أساسِيَّينِ أيضًا وهُما:

- الإخلاصُ له.
- والمُتابَعةُ لرَسولِ الله ﷺ.

وإنْ شِئتَ فقُل: الإخلاصُ لله ومُوافَقةُ شَريعةِ الله؛ لِأَنَّ مُوافقةَ شَريعةِ الله لا تَكونُ إلا باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ، فمَن عَمِلَ عَملًا أشرَكَ فيه مع الله غَيرَه؛ فإنَّ عَمَلَه مَردودٌ عليه، لا يُقبَلُ منه، ومَن عَملَ عَملًا مُخلِصًا به لله، ولكنْ ليسَ مُوافِقًا لشَريعةِ الله؛ فَإِنَّه مَردودٌ عليه، لا يُقبَلُ منه؛ لِأَنَّ هَذينِ الشَّرطَينِ أساسِيانِ وهما: الإخلاصُ والمُتابَعةُ.

ومَعنى **الإخلاصِ لله**: أنْ لا تُريدَ بعِبادَتِكَ سِوى الله عَزَّوَجَلَّ، لا تُريدُ التَّزَلُّفَ لَمِلِكٍ، ولا لرَئيسٍ، ولا لوَزيرٍ، ولا لأبٍ، ولا لِأُمٍّ، ولا لعامَّةِ الناسِ؛ مِن أجلِ أنْ يَمدَحوكَ! فلا تَنوي بعِبادَتِك إلَّا وَجه الله عَزَّوَجَلَّ، فَهَذا هو الإخلاصُ، والإخلاصُ دَليلُ اشتِراطِه لقَبولِ العِبادةِ قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمَر:١١].

فَالرَّسولُ ﷺ أُمِرَ، وكَذَلِك الأُمَمُ أُمِروا أنْ يَعبُدوا الله مُخلِصينَ له الدينَ، ومَن أشرَكَ مع الله أحَدًا في عَمَلِه؛ فإنَّ عَمَلُه مَردودٌ عليه؛ لقَولِ الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠]، ولقَولِه تعالى في الحَديثِ القُدسِيِّ الَّذي رَواه النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رَبِّه: «**مَن عَمِلَ عَملًا أشرَكَ فيه مَعي غَيري؛ تَركتُه وشِركَه**»؛ لأَنَّه سبحانه أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، كما في صَدرِ الحَديثِ: «**أنا أَغنى الشُّرَكاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَملًا أشرَكَ فيه مَعي غَيري؛ تَركتُه وشِرْكَه**»[1].

فلو قامَ رَجُلٌ يُصَلِّي صَلاةً مُوافِقةً للشَّرعِ في ظاهِرِها، ولكنْ يُرائي فيها،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

ومَعنى: يُرائِي فيها: أي: يُريدُ أنْ يَراهُ الناسُ مِن أجلِ أنْ يَمدَحوه عَلَيها، فحُكمُ صَلاتِه: أنَّها باطِلةٌ؛ لفَقدِ الإخلاصِ فيها.

ولو أنَّ رَجُلًا دَخلَ في الصَّلاةِ مُخلِصًا لله فأحَسَّ بداخِلٍ، أو أحَسَّ برَجُلٍ حاضِرٍ، ثم اتَّجَهت نِيَّتُه إلى المُراءاةِ، فأوَّلُ العِبادةِ كان مُخلِصًا لله، وآخِرُ العِبادةِ كان مُشرِكًا بالله بالرِّياءِ، فلا تُقبَلُ؛ لِأَنَّ الصَّلاةَ عِبادةٌ واحِدةٌ، إذا بَطلَ آخِرُها بَطلَ أوَّلُها، فتَبطُلُ صَلاتُه لوجودِ الرِّياءِ فيها -في آخِرِها- وهذا يُبطِلُها.

فإنْ طَرَأ عَلَيه الرِّياءُ في أثناءِ الصَّلاةِ، وصارَ يُدافِعُه مُدافَعةً شَديدةً؛ فلا تَبطُلُ هذه الصَّلاةُ؛ وذلك لِأَنَّ الرِّياءَ قد يَهجُمُ على القَلبِ هُجومًا لا يَستَطيعُ دَفعَه، ولكِنَّه إذا كانَ كارِهًا له مُحاوِلًا لِدَفْعِه فإنَّ ذلك لا يَضُرُّه، والدَّليلُ على أنَّه لا يَضُرُّه: قَولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] ولَيسَ في طاقَتِه أنْ يَدفَعَ ما هَجمَ على قَلبِه مِنَ الرِّياءِ؛ ولِذَلِك هو يُدافِعُ ويُحاوِلُ أنْ يَتخَلَّصَ مِنه، ولكنْ أحيانًا يَعجَزُ.

فنَقولُ: هذا الرَّجُلُ صَلاتُه صَحيحةٌ؛ لِأَنَّه حاوَلَ بكُلِّ جُهدِه أنْ يَدفَعَ الرِّياءَ ولكنْ لم يَتمَكَّنْ، وقد قالَ الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وحينَئذٍ نَحكُمُ بصِحَّةِ الصَّلاةِ.

فإن قالَ قائِلٌ: لو أنَّ الرَّجُلَ عَزلَ مِن مالِه مِئةَ ألفٍ ليَتصَدَّقَ بها، فتَصدَّقَ بخَمسينَ ألفًا صَدَقةً خالِصةً بدونِ رِياءٍ، وفي النِّهايةِ تَصدَّقَ بخَمسينَ ألفًا مع الرِّياءِ، فهل تُقبَلُ صَدقَتُه الَّتي تَصدَّقَ بها أوَّلًا بدونِ رِياءٍ وتَبطُلُ صَدَقتُه الأخيرةُ، أو تَبطُلُ صَدقَتُه الأولى والأخيرةُ؟

فالجَوابُ: تُقبَلُ الأولى ولا تُقبَلُ الأخيرةُ؛ لأنَّ الصَّدقةَ تتجَزَّأُ، فيُمكِنُ أنْ يَتصَدَّقَ الإنسانُ بشَيءٍ خالِصٍ لله، وفي آخِرِه يتصدَّقُ بشَيءٍ غَيرِ خالِصٍ لله عَزَّوَجَلَّ، فلما كانَت الصَّدَقةُ تَتجَزَّأُ، قُلنا: الجُزءُ الَّذي كان سالِمًا مِنَ الرِّياء يَكونُ مَقبولًا عندَ الله، والجُزءُ الَّذي حَصلَ فيه الرِّياءُ يَكونُ غَيرَ مَقبولٍ عندَ الله عَزَّوَجَلَّ.

وإنَّني أقولُ: إنَّ مِنَ الُمهِمِّ جِدًّا أنْ يُصَحِّحَ الإنسانُ إخلاصَه؛ لِأَنَّ الشِّركَ -ولاسِيَّما الرِّياءُ- قد يَطرَأُ على القَلبِ فيُفسِدُ عليه العِبادةَ؛ ولِهَذا قال بَعضُ السَّلفِ: ما جاهَدتُ نَفسي على شَيءٍ مُجاهَدَتِها عَلى الإخلاصِ. لأنَّ الإخلاصَ صَعبٌ شَديدٌ، يَحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ حتَّى يَكونَ خالِصًا لله عَزَّوَجَلَّ.

لعَلَّنا أدرَكنا الآنَ الشَّرطَ الأوَّلَ وهو: الإخلاصُ لله.

فإذا قالَ قائِلٌ: نحن في طَلَبِنا للعِلمِ في الجامِعاتِ والمَعاهِدِ والمَدارِسِ نَجِدُ أنَّنا نَطلُبُ العِلمَ ونَحنُ نُلاحِظُ الشَّهادةَ الَّتي نَحصُلُ بها على راتِبٍ ومَرتَبةٍ، فهل طَلَبُنا للعِلمِ مع هذه المُلاحَظةِ يُفقِدُنا أجرَه أو لا؟

والجَوابُ على ذلك: أن نَقولَ: إذا كان الحامِلُ لك إرادةُ هذا الشَّيء ولا سِواه؛ فإنَّه لا يُكتَبُ لك مِن أجرِ طَلَبِ العِلمِ شَيءٌ؛ لفَقدِ الإخلاصِ، بَل إذا كانَ العِلمُ شَرعِيًّا مما يُبتَغى به وَجهُ الله، كنتَ آثِمًا على ذلك؛ لما رَواه أهلُ السُّنَنِ مِن قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَن طَلَبَ عِلمًا يُبتَغى به وَجهُ الله** -وهو العِلمُ الشَّرعِيُّ- **لا يُريدُ بذلك إلَّا أنْ يَنالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنيا لم يَرَحْ رائِحةَ الجَنَّةِ**»[1] وهذا وَعيدٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ.

ولَكِني أقولُ -ولاسِيَّما للطَّلَبةِ-: يُمكِنُ أنْ تُصَحِّحَ النِيَّةَ، بأنْ يُريدَ الإنسانُ الوُصولَ إلى الشَّهادةِ لا لِأجلِ أنْ يَنالَ الشَّهادةَ فَقَط، ولكنْ مِن أجلِ أنْ يَنالَ مَقامًا يُمَكِّنُه أنْ يَنفَعَ الناسَ؛ لِأَنَّنا نَعلَمُ أنَّ المُستَنَدَ الآن في تَوظيفِ الإنسانِ في التَّعليمِ، أو الإداراتِ، أو الرِّئاساتِ: الشَّهادةُ.

ولو أنَّ شَخصًا كان مِن أفقَهِ الناسِ وأرادَ أنْ يَتوَظَّفَ في جامِعةٍ لِيُعَلِّم لم يَحصُلْ لَه ذلك، ولكنْ لَو أتى بِهَذه الرُّقعةِ في يَدِه حَصلَ له.

إذًا، تَنوي أيُّها الطالِبُ، بأنَّك إنَّما تُريدُ الوصولَ إلى هذه الشَّهادةِ مِن أجلِ أنْ تَتمكَّنَ مِن نَفعِ الناسِ، والعَمَلِ في المَجالاتِ الَّتي يَحتاجُ الناسُ إليها؛ وذلك لِأَنَّك إذا لم تَحصُلْ على هذه البِطاقةِ، فسوفَ تَفقِدُ مَنفَعةَ ما أعطاكَ الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ العِلمِ؛ لهذا يَجبُ على الطالِبِ الَّذي يُريدُ أنْ يُثابَ على طَلَبِه للعِلمِ أنْ يُلاحِظَ هذه المَسألةَ.

وأنتَ أيُّها الطالِبُ، وأخُصُّ بذلك طالِبَ العِلمِ الشَّرعِيِّ، أنتَ والمُجاهِدُ في سَبيلِ الله في مَيدانِ المَعارِكِ على حَدٍّ سَواءٍ؛ لِأَنَّ طَلَبَ العِلمَ الشَّرعِيَّ كالجِهادِ في سَبيلِ الله، ودَليلُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة:١٢٢] يَعني: لا يُمكِنُ ولا يَليقُ أنَّ المؤمنينَ يَنفِرونَ كُلُّهم مِن أجلِ الجِهادِ في المَيدانِ.

فهذا لا يُمكِنُ؛ لِأَنَّهم لو خَرَجوا كُلُّهم هَكَذا ضاعَت مَصالِحُ الأُمَّةِ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التَّوبة:١٢٢]، يَعني: جَماعةٌ، لَكِنْ مَعنى الآيةِ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وتَأخَّرَت طائِفةٌ، وتَأَخُّرُ الطَّائِفةِ الأُخرى لصالِحِ الأُمَّةِ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التَّوبة:١٢٢].

إذن، فقولُه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ الضَّميرُ فيها يَعودُ على الطائِفةِ المُتأخِّرةِ، وليس على الطائِفةِ النافِرةِ؛ لِأَنَّ النافِرةَ ليس لها مَجالٌ في الفِقهِ في الدِّينِ، فالمُتأخِّرةُ الَّتي تَبقى في المَدينةِ عند النَّبيِّ ﷺ يُعَلِّمُها أمرَ دينِها هَذه هي الَّتي إذا رَجَعَ قَومُها أنذَروهُم، وبَيَّنوا لهم أحكامَ الله، وبَيَّنوا لهم شَريعةَ الله، فاسْتَبشِر أيُّها الطالِبُ للعِلمِ الشَّرعِيِّ بأنَّكَ في طَلَبِكَ للعِلمِ الشَّرعِيِّ مُعادِلٌ للخارِجِ في مَيادينِ القِتالِ، وهذه مِن نِعمةِ الله.

إذًا، يَكونُ تَحَفُّظُ الإنسانِ لعِلمِه، وكِتابَتُه له، والبَحثُ فيه، والمُناقَشةُ، بمَنزِلةِ إصلاحِ السِّلاحِ بالنِّسبةِ للمُجاهِدينَ بالقِتالِ، وهذه مِن نِعمةِ الله على طالِبِ العِلمِ الشَّرعِيِّ.

الشَّرطُ الآخَرُ لقَبولِ العِبادةِ هو: المُتابَعةُ لرَسولِ الله ﷺ، وإنْ شِئتَ فقُل: مُوافَقةُ الشَّرعِ، ولا مُوافَقةَ للشَّرعِ إلا بالمُتابَعةِ لرَسولِ الله ﷺ، واعلَم أنَّ هذا الشَّرطَ قد دَلَّ عليه كِتابُ الله وسُنَّةُ رَسولِه ﷺ.

أما كِتابُ الله: فقد قالَ الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشُّورى:٢١] والاستِفهامُ هنا إنكاريٌّ لا إقراريٌّ، فـ﴿أَمۡ﴾ هُنا عندَ النَّحْويينَ بمَعنى: بَل، والهَمزةُ، يَعني: بل أَلَهم شُركاءُ؟

فالاستِفهامُ هُنا لا شَكَّ أنَّه للإنكارِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونُس:٥٩] في آيةٍ أُخرى.

إذن، دَلَّ القُرآنُ على اشتِراطِ المُتابَعةِ والمُوافَقةِ للشَّرعِ.

والسُّنَّةُ دَلَّت على هذا أيضًا: قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَملًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ**»[1]، وفي لَفظٍ: «**مَن أحدَثَ في أمرِنا هَذا ما ليسَ مِنه فَهو رَدٌّ**»[2]، وكِلا اللَّفظَينِ يُسنِدُ أحَدُهما الآخَرَ.

«**فمَن عَمِلَ عَملًا ليس عليه أمرُنا** -ولو كان في الأصلِ مَأمورًا به لكنْ جاءَ على صِفةٍ غَيرِ مَشروعةٍ- **فهو رَدٌّ**».

«**ومَن أحدَثَ في أَمرِنا هذا ما ليسَ منه فهَو رَدٌّ**» أي: جاءَ بشَيءٍ جَديدٍ لم يأتِ به الشَّرعُ؛ فهو رَدٌّ، و«رَدٌّ» هنا بمَعنى: مَردودٌ، مِن بابِ إنابةِ المَصدَرِ مَنابَ اسمِ المَفعولِ.

وقد يَأتي المَصدَرُ بمَعنى اسمِ المَفعولِ في اللغةِ العَرَبيَّةِ، ومِن ذلك: كَلِمةُ حَمْلٍ، والحَمْلُ هو الجَنينُ في بَطنِ الأُمِّ، فحَمْلٌ بمَعنى: محَمولٌ، قالَ الله تعالى: ﴿**وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ**﴾ [الطَّلاق:٦] يَعْني: أصحابَ حَمْلٍ، أَي: أصحابَ محَمولٍ.

إذن، «رَدٌّ» في قَولِه ﷺ: «**فهو رَدٌّ**» بمَعنى: مَردودٌ.

فإنْ قالَ قائِلٌ: مَن قالَ لك: إنَّ المُرادَ بالأمرِ هو الشَّرعُ؟ فقد يَجوزُ أنْ يُقالَ: مَن أحدَثَ في أمرٍ مِن أمورِ الدُّنيا لا مِن أمورِ الشَّرعِ.

---

(١) علقه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش، ومن قال: «لا يجوز ذلك البيع»، وأخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الجَوابُ: قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشُّورى:٥٢] إذًا، مَن أحدَثَ في أَمرِنا الَّذي أوحيَ إلَينا، وهو الشَّرعُ ما لَيسَ مِنه فهو رَدٌّ، أمَّا أمورُ الدُّنيا فهي للدُّنيا، فأَحْدِث ما شِئتَ إذا لم يَكنْ مُحرَّمًا في الشَّرعِ إمَّا بعَينِه أو بوَصفٍ جامِعٍ؛ فأَحْدِث ما شِئتَ.

فلو قالَ قائِلٌ الآن: التِّليفونُ حَرامٌ، لَيسَ عليه أَمرُ الله. فنَقولُ له: التِّليفونُ لَيسَ مِن أمورِ الشَّرعِ، وغَيرُ أمورِ الشَّرعِ مَنقولةٌ للناسِ حَسْبَ تَجارِبِهم، وحَسْبَ ما يَبدو مِنَ الأمورِ.

إذن، المُرادُ بالأمرِ في قَولِه ﷺ: «**مَن أحدَثَ في أمرِنا**» أي: شَرعِنا، والدَّليلُ على أنَّ الأمرَ بمَعنى الشَّرعِ قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشُّورى:٥٢] أي: مِن شَرعِنا الَّذي نَأمُرُ.

ومُوافَقةُ الشَّرعِ لا تَكونُ إلا إذا وافَقَتِ العِبادةُ الشَّرعَ في أمورٍ سِتَّةٍ، فاضبِطوها: في سَبَبِها، جِنسِها، قَدرِها، صِفَتِها، زَمانِها، مَكانِها، فلا يُمكِنُ أنْ تَكونَ العِبادةُ مُوافِقةً للشَّريعةِ إلَّا إذا وافَقَتِ الشَّريعةَ في هَذه الأمورِ السِّتَّةِ.

وما خالَفَ الشَّرعَ في شَيءٍ مِن هَذِه الأمورِ السِّتَّةِ فإنَّه لم يوافِقِ الشَّرعَ ولا يُقبَلُ، ونَضرِبُ لِهَذا أمثالًا مما خالَفَ الشَّرعَ في هَذِه الأمورِ:

الأَوَّلُ: في السَّبَبِ: لو أنَّ شَخصًا أرادَ أنْ يَجمَعَ الناسَ لمُحاضَرةٍ في الساعةِ العاشِرةِ صَباحًا، وقامَ عندَ مَجيءِ الوَقتِ وأخَذَ مُكَبِّرَ الصَّوتِ، وقالَ: الله أكبَرُ، وأتى بِالأذانِ، فقامَ يُؤَذِّنُ؛ لِأَنَّ وَقتَ المُحاضَرةِ دَخَلَ؛ فيَكونُ هذا الأذانُ بِدعةً ولا يَكونُ مَقبولًا؛ لِأنَّه قُيِّدَ بسَبَبٍ لم يَجعَلْه الشارِعُ سَببًا، فَالأذانُ سَبَبُه دُخولُ

وَقتِ الصَّلاةِ لا دُخولُ وَقتِ المُحاضَرةِ.

إذًا، لا يَصِحُّ هذا الأذانُ لعَدَمِ مُوافَقَتِه للشَّرعِ في السَّبَبِ.

ولو زالَتِ الشَّمسُ فَقامَ هذا الرَّجُلُ يُؤَذِّنُ لصَلاةِ الظُّهرِ، فيَكونُ الأذانُ صَحيحًا؛ لِأَنَّ السَّببَ شَرعِيٌّ.

ولَو أنَّ رَجُلًا إذا تَجَشَّأَ قالَ الحَمدُ لله -والجُشاءُ: الريحُ الَّتي تَخرُجُ مِنَ المَعِدةِ عَن طَريقِ الفَمِ- فنَقولُ: إنَّ العَمَلَ غَيرُ مَشروعٍ؛ لِأَنَّ الجُشاءَ لَيسَ سَبَبًا للحَمدِ إذْ أَنَّهُ لَو كانَ سَبَبًا للحَمدِ لَبيَّنَهُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأنَّ النَّاسَ في عَهدِه كانوا يَتَجَشَّؤونَ ولَم يَقُل لَهُم: احمَدوا الله ولَا حَمِدَ الله عِندَ ذَلِك.

ولَو أنَّ رَجُلًا تَثاءَبَ فَقالَ: أَعوذُ بِالله مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فهَذا لا يَصِحُّ؛ لِأنَّ هَذا السَّببَ لَيسَ ثابِتًا مِن قِبَلِ الشَّرعِ.

فإذا قالَ قائِلٌ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ التَّثاؤُبَ مِنَ الشَّيطانِ**»[1] وقالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [فُصِّلَت:٣٦] فهَذا الرَّجُلُ استَعاذَ بِالله؛ لأَنَّهُ نَزَغَهُ مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ.

فالجَوابُ: نَقولُ لَهُ: إنَّ الَّذي قالَ: «**إنَّ التَّثاؤُبَ مِنَ الشَّيطانِ**» هُوَ الَّذي قالَ: «**إذا تَثاءَبَ أَحَدُكُم فَلْيَكْظِم ما اسْتَطاعَ، فإنْ لَمْ يَستَطِع فَلَيَضَع يَدَهُ عَلى فيهِ**»[2]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٨٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب، رقم (٢٩٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التخريج السابق.

وقَدْ أرْشَدَنا إلى أنْ نَفعَلَ فِعلًا، ولَم يُرشِدنا إلى قَولِ: أعوذُ بِالله مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

الثاني: في الجِنسِ: لو خالَفَتِ العِبادةُ الشَّريعةَ في جِنسِها فإنَّها لا تُقبَلُ، ومِثالُ ذلك: رَجُلٌ اشتَرى فَرسًا بعَشرةِ آلافٍ فَضَحَّى بِه، فلا تُقبَلُ هَذِه الأُضحِيةُ؛ لمُخالَفَتِها للشَّرعِ في الجِنسِ، إذْ أنَّ الأضاحيَّ لا تكونُ إلَّا مِن بَهيمةِ الأنعامِ وهي: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ.

الثالِثُ: في القَدْرِ: فلو خالَفَ الشَّرعَ في القَدْرِ فإنَّها لا تُقبَلُ، فلو أرادَ شَخصٌ أنْ يُصَلِّيَ الظُّهرَفصَلَّاها خَمسًا، فلا تُقبَلُ مِن أجلِ الزِّيادةِ، فَقَد خالَفَتِ الشَّرعَ في القَدْرِ، ولو صَلَّاها ثَلاثًا لم تُقبَلْ أيضًا؛ لِأنَّها خالَفَتِ الشَّرعَ في القَدْرِ، فلا بُدَّ أنْ تَكونَ العِبادةُ مُوافِقةً للشَّرعِ في قَدْرِها.

ولَو كانَ ناسِيًا أيضًا لا تُقبَلُ، لَكِن إذا كانَ ناسِيًا وذَكَرَ في الحالِ فَيأتي بِركعةٍ ويَسجُدُ للسَّهوِ بَعدَ السَّلامِ وتَصِحُّ، لَكِن لا يُمكِنُ أنْ تَصِحَّ عَلى ثَلاثِ رَكَعاتٍ أبَدًا حتَّى وإنْ كانَ ناسِيًا، ولَكِنَّه لا يَأثَمُ؛ لِأنَّهُ ناسٍ، والله تعالى يَقولُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

الرابِعُ: في الصِّفةِ: لا بُدَّ أنْ تَكونَ العِبادةُ مُوافِقةً للشَّرعِ في صِفَتِها، فإنْ خالَفَتِ الشَّرعَ في صِفَتِها فهي غَيرُ مَقبولةٍ، فَلَو أرادَ الإنسانُ أنْ يَتوضَّأَ فَبدأَ بغَسْلِ الرِّجلينِ، ثم مَسْحِ الرَّأسِ، ثم غَسلِ اليَدينِ، ثم غَسْلِ الوَجهِ؛ فوُضوؤُه باطِلٌ؛ لِأنَّه غَيرُ مُوافِقٍ للشَّرعِ في الصِّفةِ، فَالصِّفةُ أنْ يَغسِلَ الوَجهَ، ثم اليَدينِ، ثم الرَّأسَ، ثم الرِّجلينِ، وهذا عَكسَ.

ولَو أنَّ رَجُلًا ضَحَّى بجَذَعٍ مِنَ المَعْزِ لا تُقبَل؛ لِأَنَّهُ خالَفَ في الصِّفةِ، مَع أنَّ الجِنسَ صَحيحٌ؛ لِأنَّ الإبِلَ والبَقَرَ والمَعْزَ لا يُجزِئُ في الأضْحِيَّةِ مِنها إلَّا ما كانَ ثَنِيًّا؛ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ -فيما رَواهُ جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**لا تَذْبَحوا إلَّا مُسِنةً، إلَّا أنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُم؛ فتَذْبَحوا جَذَعةً مِنَ الضَّأْنِ**»(١).

وقالَ العُلَماءُ: المُسِنةُ مَعناها: ثَنِيةٌ.

الخامِسُ: في الزَّمانِ: نحنُ نَعلَمُ أنَّ صِيامَ رَمَضانَ يَكونُ في رَمَضانَ، فلو أنَّ رَجُلًا صامَ في شَعبانَ بَدلًا عن رَمَضانَ لا يُقبَلُ، أو في شَوَّالَ بَدلًا عن رَمَضانَ لم يُقبَلْ، إلَّا إذا أفطَرَ رَمَضانَ لعُذْرٍ شَرعِيٍّ فيُقبَلُ، أما لغَيرِ عُذرٍ شَرعِيٍّ فلا يُقبَلُ؛ لمُخالَفةِ الشَّرعِ في الزَّمانِ.

ولو أنَّ رَجُلًا وَقَفَ بعَرَفةَ في اليَومِ الثامِنِ مِن ذي الحِجَّةِ؛ فلا يُقبَلُ الحَجُّ؛ لمُخالَفةِ الشَّرعِ في الزَّمانِ.

ولَو أنَّ رَجُلًا أرادَ الحَجَّ وكانَ عِندَهُ أُضحِيَّةٌ فَقالَ: سَأُضَحي في عيدِ الفِطرِ بَدَلًا عن عيدِ الأضحى؛ لِأنَّني سَأحُجُّ، فَلا تُقبَلُ؛ لِمُخالَفَتِها الشَّريعةَ في الزَّمَنِ.

السادِسُ: في المَكانِ: ومِثالُه: رَجُلٌ اعتكَفَ في بَيتِه العَشرَ الأواخِرَ مِن رَمَضانَ، فقالَ: بدَلًا مِن أنْ أذهَبَ للمَسجِدِ أعتكِفُ في بَيتي، فلا يَصِحُّ هذا الاعتِكافُ؛ لأنَّه خالَفَ الشَّرعَ في المَكانِ، فلا بُدَّ أنْ يَكونَ في المسجِدِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، رقم (١٩٦٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورَجُلٌ يُحِبُّ الخَيرَ، ويَفرَحُ به، فلما صَلَّى العَصرَ جلَسَ، ثم فكَّرَ فقامَ يُصَلِّي، فصَلاتُه غَيرُ مَقبولةٍ؛ لمُخالَفةِ الشَّرعِ في الزَّمانِ، إذْ أنَّ ما بَعدَ صَلاةِ العَصرِ وَقتُ نَهيٍ، إلَّا إذا كانَت هذه الصَّلاةُ لها سَبَبٌ، فإذا كانَتِ الصَّلاةُ لها سَبَبٌ فإنَّها تُفعَلُ في كُلِّ وَقتٍ.

ولَو طافَ الإنسانُ بَعدَ العَصرِ، وللطَّوافِ رَكعَتانِ صَلاهُما بَعدَ العَصرِ فيَجوزُ؛ لِأَنَّ لهما سَبَبًا، ولو دَخلَ المَسجِدَ بَعدَ صَلاةِ العَصرِ فصَلَّى رَكعَتَينِ تَحِيَّةَ المَسجِدِ فهما صَحيحَتانِ، ولا يَأثَمُ بذَلِك؛ لِأَنَّ لهما سَبَبًا، وكُلُّ صَلاةٍ نافِلةٍ لها سَبَبٌ فإنَّها تَجوزُ في وَقتِ النَّهيِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ مُعَلَّقٌ به المُسَبَّبُ في أيِّ زَمَنٍ كانَ.

إذْ أنَّ الإخلاصَ المُتابَعةُ، وهي مُوافَقةُ الشَّرعِ، ولا تَكونُ إلَّا إذا كانَتِ العِبادةُ مُوافِقةً للشَّرعِ في أُمورٍ سِتَّةٍ: السَّبَبِ، الجِنسِ، القَدْرِ، الصِّفةِ، الزَّمانِ، المَكانِ.

إذًا، العِبادةُ مَبنِيَّةٌ على أصلَينِ أساسِيَّينِ، ومَشروطٌ فيها شَرطانِ أساسِيانِ:

فالأصلانِ هما: المَحبَّةُ والتَّعظيمُ.

والشَّرطانِ هما: الإخْلاصُ والمُتابَعةُ.

فإذا قالَ قائِلٌ: إذا كانَتِ العِبادةُ مَبنِيَّةً على مَحَبَّةِ الله، فما رَأيُكُم فيمَنْ أحَبَّ مع الله غَيرَه؟ هل يَكونُ مُشرِكًا، أو يَكونَ مَحبَّتُه لغَيرِ الله مُنافِيةً للإخلاصِ؟

الجَوابُ: إنْ أحَبَّ غَيرَ الله لله فإنَّ هذا مِن تَمامِ مَحَبَّةِ الله بلا شَكٍّ، فإذا أحبَبتَ شَخصًا لله، لا لِأَنَّه غَنِيٌّ، ولا لِأَنَّه شَريفٌ، ولا لِأَنَّه أعطاكَ مالًا، ولكنْ أحبَبتَه لله، فهذه المَحَبَّةُ لا تُنافي مَحبَّةَ الله، بل هي مِن تَمامِ مَحبَّةِ الله؛ لِأَنَّ القاعِدةَ: أنَّ المُحِبَّ يُحِبُّ حَبيبَه وأحبابَ حَبيبِه.

فلا يُمكِنُ لأَحَدٍ أنْ يُحِبَّ شَيئًا إلا ويُحِبَّ مَن يُحِبُّ هذا الشَّيءَ، فإذا أحببتَ شَخصًا لله فهذا مِن تَمامِ محبَّةِ الله، وإنْ أحببتَ شَخصًا أو شَيئًا مِنَ الدُّنيا مع الله - يَعني: جَعَلتَ محبَّتَه مُساوِيةً لمَحبَّةِ الله- فهذا شِركٌ، ودَليلُ هذا قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقَولُ النَّبيِّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عبدُ الدِّرهَمِ، تَعِسَ عبدُ الخَميلةِ، تَعِسَ عبدُ الخَميصةِ**»[١] فسَمَّى النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَن أَلهاهُ دِرهَمُه وديناره وخَميلَتُه وخَميصَتُه.

وأُخاطِبُ الشَّبابَ طَلبةَ العِلمِ: نحن يَجِبُ أنْ نَجعَلَ الحَكَمَ بينَنا كِتابَ الله وسُنةَ رَسولِه ﷺ فنَقولُ: أَثبِتوا لنا أَوَّلًا مِن الناحِيةِ التاريخيَّةِ أنَّ لَيلةَ المِعراجِ كانَت لَيلةَ سَبعٍ وعِشرينَ، أَثبِتوا هذا؛ لِأَنَّ القَولَ بأنَّ لَيلةَ المِعراجِ لَيلةَ سَبعٍ وعِشرين خَبرٌ، والخَبرُ يُشتَرَطُ لَقَبولِه شُروطٌ مِنها: صِحَّةُ الإسنادِ، وعَدالةُ الراوي، وضَبطُ الراوي، واتِّصالُ السَّنَدِ، والسَّلامةُ مِنَ الشُّذوذِ والعِلَّةِ القادِحةِ، بغَيرِ هَذا لا يَكونُ الخَبرُ صَحيحًا.

فَهاتوا لَنا خَبرًا مُسنَدًا إلى عَصرِ الصَّحابةِ بأنَّ لَيلةَ المِعراجِ كانَت لَيلةَ سَبعٍ وعِشرينَ مِن رَجَب ودونَ هذا خَرطُ القَتادِ، ودونَ هذا مَفاوِزُ ومَهالِكُ.

ولا يُمكِنُ لِأَحَدٍ أنْ يُثبِتَ بأيِّ سَنَدٍ مَقبولٍ بأنَّ لَيلةَ سَبعٍ وعِشرينَ مِن رَجَب هي لَيلةُ المِعراجِ، وأنا مِن هُنا، مِن هذا المَكانِ -والمَكانُ تَعرِفونَه- أقولُ: إنَّ أيَّ شَخصٍ يَعثُرُ على ثُبوتِ كَونِ المِعراجِ لَيلةَ سَبعٍ وعِشرينَ فإنَّني أَدْعوه وأُحَمِّلُه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

المَسؤوليَّةَ أنْ يُخبِرَني بذلك، ولا أُحِلُّه أنْ يَمنَعَ عِلمي بهذا؛ لِأَنَّ السُّؤالَ عن هذا كَثيرٌ جِدًّا، فعَلَيه أنْ يُبلِّغَنا، وإذا بَلَّغَني بِذَلك على وَجهٍ يَثبُتُ به الخَبرُ فإنَّنا له مُنقادونَ وبه مُصَدِّقونَ.

أما أنْ يَقولَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٢] أو ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف:٢٣] فليسَ هذا مِن سَبيلِ المُؤمِنينَ، بل مِن سَبيلِ غَيرِ المُسلِمينَ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء:١١٥].

فمَن عِندَه خَبرٌ ثابِتٌ في هذا فليُسعِفْنا به كِتابةً، أو مُشافَهةً، أو عن طَريقِ الهاتِفِ، ونحن له شاكِرونَ، ولِما ثَبتَ مِن قَرينةٍ إنْ شاءَ اللهُ، هذه واحِدةٌ.

ثانيًا: إذا ثَبتَ هذا تاريخِيًّا يَحتاجُ إلى ثُبوتِه شَرعِيًّا، والثُّبوتُ الشَّرعِيُّ أيضًا دونَه خَرطُ القَتادِ، ولا يُمكِنُ أنْ يَثبُتَ شَرعًا، يَعني: لا يُمكِنُ أنْ يَثبُتَ الاحتِفالُ بهذه الليلةِ شَرعًا، حتَّى لو ثَبتَ مِن الناحِيةِ التاريخِيَّةِ أنَّ المِعراجَ كان لَيلةَ سَبعٍ وعِشرينَ، فإنَّ الاحتِفالَ به دينٌ يَحتاجُ إلى ثُبوتٍ شَرعِيٍّ، وليس هُناكَ ثُبوتٌ، فهذا كِتابُ اللهِ، وهذه سُنَّةُ رَسولِ اللهِ ﷺ، وهذه سُنَّةُ خُلفائِه الراشِدينَ، وهذه أقوالُ الصَّحابةِ، وهذه أقوالُ التابِعينَ، لم يَرِدْ عَن واحِدٍ مِنهم قَولٌ بأنَّه يُشرَعُ الاحتفالُ لَيلةَ سَبعٍ وعِشرينَ أبَدًا.

وإني أقولُ لكُم قاعِدةً عامَّةً: جَميعُ البِدَعِ مع وَصفِها بالضَّلالةِ كما وَصفَها النَّبيُّ ﷺ، هي قَدحٌ في الشَّرعِ، ومُخالِفةٌ لَمضمونِ قَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]؛ لِأَنَّ الَّذي يَبتَدِعُ بِدعةً يتدَيَّنُ بها، فلسانُ حالِه يَقولُ: إنَّ الشَّرعَ لم يَتِمَّ.

ونَقولُ للمُبتَدِعِ: أينَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن هذه البِدعةِ؟! أين الصَّحابةُ؟! أينَ التابِعونَ؟! هل النَّبيُّ ﷺ يجهَلُها؟! فإنْ قالَ: نَعم، فقَد وَصفَه بالجَهلِ.

وإنْ قالَ: إنَّه يَعلَمُها ولكنْ كَتمَها، فهذا أشَدُّ، فقد وَصَفتَه بالخِيانةِ، وكِتمانِ العِلمِ، بل وكِتمانِ الوَحيِ الَّذي أوحاهُ الله إلَيهِ.

وإنْ قالَ: إنَّه فَرَّطَ فيها ولم يَقُمْ بها، فَهَذا أيضًا قدحٌ في الرَّسولِ ﷺ، فالبِدَعُ الدِّينيَّةِ الَّتي يَتدَيَّنُ الإنسانُ بها ويَتعَبَّدُ بها لله إذا لم تكنْ وارِدةً في الشَّرعِ فهي في الحَقيقةِ قَدحٌ في الشَّرعِ؛ ولهذا قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ غالِبَ الَّذين يَعتنونَ بالبِدَعِ تَجِدُهم مُفرِّطينَ في كَثيرٍ مِنَ السُّنَنِ ومُهمِلينَ لها.

والواقِعُ يَشهَدُ لما قالَه رَحِمَهُ اللَّهُ، فتَجِدُ أصحابَ البِدَعِ، مُشتَغِلونَ ببِدَعِهم عن سُنَّةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتَجِدُ السُّنَّةَ عندَ غالبِهم ثَقيلةً جدًّا والبِدعةَ خَفيفةً يَنقادونَ لها، ويَنسابونَ لها انسِيابَ السَّيلِ إلى مُنحَدَرِ الأرْضِ.

فالقاعِدةُ عامَّةٌ: كُلُّ البِدَعِ ضَلالةٌ، والدَّليلُ قَولُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ بِدعةٍ ضَلالةٌ**»[1].

إذن، البِدَعُ قَدْحٌ في الدِّينِ، ومُخالِفةٌ لمَضمونِ قَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] فهي مُخالِفةٌ للقُرآنِ، والبِدَعُ تَتضَمَّنُ القَدْحَ في رَسولِ الله ﷺ؛ لِأنَّه إما أنْ يَكونَ جاهِلًا بها، أو عالِمًا بها وكَتمَها، أو عالِمًا بها وتَهاونَ فيها فلم يَقُمْ بها، وكُلُّ ذلك قَدْحٌ في رَسولِ الله ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإني لَأَظُنُّ أنَّ الَّذينَ ابتَدَعوا هذه الأمورَ لو فكَّروا في لَوازِمِها لَرجَعوا عنها، إذا كانوا مُؤمِنينَ يَتَّقونَ اللهَ، ولكنْ مع الأسَفِ أنَّ كثيرًا مِن الناسِ تَغلِبُهُمُ النُّفوسُ الأمارةُ بالسُّوءِ وتَغلِبُهُمُ الأهواءُ فلا يَستَطيعونَ التَّخَلُّصَ ولا الرُّجوعَ إلى الحَقِّ، ولكنَّ الحَقَّ ضالَّةُ المُؤمِنِ أيْنَما وَجدَه أخَذَ بِهِ.

وكَلامُنا الآن على آيةٍ مما سُقناه في أوَّلِ الجَلسةِ، وهي قَولُه: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النُّور:٥٥] وقُلنا: إنَّ العِبادةَ لها رُكنانِ أساسِيَّانِ وشَرطانِ:

فالرُّكنانِ الأساسِيَّانِ هما: المَحبَّةُ والتَّعظيمُ.

والشَّرطانِ هما: الإخْلاصُ والمُتابَعةُ لِرَسولِ الله ﷺ.

وكُلُّ هذا اتَّضَحَ لنا ولله الحَمدُ جَميعًا.

وأقولُ إتمامًا لمَسألةِ البدعةِ؛ لِأَنَّها خَطيرةٌ: لو أنَّنا فَتَحنا البابَ لِكُلِّ شَخصٍ أنْ يَبتَدِعَ لاختَلفَتِ الأُمَّةُ، وصارَ لِكُلِّ قَومٍ بِدعةٌ يَقولونَ: هي الحَقُّ، ولو أنَّنا فتَحنا بابَ البِدَعِ؛ لفَسدَ الدِّينُ، ولم يَكُنْ دينُ المُسلِمينَ واحِدًا، وحينَئذٍ يَقدَحُ فيهِ أعداءُ الإسلامِ، ويَقولونَ: أنتُم تُعَيِّرونَنا بأنَّ أناجيلَنا خَمسةٌ أو أربَعةٌ أو ما أشبَه ذلك. فنَحنُ نُعَيِّرُكم بأنَّ مِنهاجَكُم أيضًا مُختَلِفٌ غيرُ مُتَّحِدٍ.

فلو أنَّنا فَتَحنا بابَ البِدَعِ لفَسدَتِ السَّمواتُ والأرضُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [المُؤمنون:٧١].

فإذًا، البِدَعُ خَطيرةٌ لِلغايةِ؛ ولهذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يُحَذِّرُ منها في خُطَبِ الجُمعةِ، فيَقولُ: «**أمَّا بَعْدُ، فإنَّ خَيرَ الحَديثِ كِتابُ الله، وخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ، وشَرَّ الأمورِ**

مُحدثاتُها، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ» أخرَجَه مُسلِمٌ[(١)]، وفي رِوايةٍ في غَيرِ الصَّحيحِ: **«وكُلَّ ضَلالةٍ في النارِ»**[(٢)].

فحَذَّرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ البِدَعِ في مُجتَمَعِ الناسِ؛ لِأَنَّها شَرٌّ وضَلالٌ، وتُبعِدُ عن الحَقِّ، وتوجِبُ التَّهاونَ فيه، ولو أنَّكُم تدبَّرتُم الواقِعَ لوَجَدتُموهُ شاهِدًا بذَلِك، فنَسأَلُ الله تعالى أنْ يَهدِيَنا وإيَّاكُم صِراطَه المُستَقيمَ.

بَعدَ هذا نَقولُ: إنَّ الإخلاصَ لله هو: شَهادةُ أنَّ لا إلَه إلَّا الله، والمُتابَعةُ للرَّسولِ والمُوافِقُ للشَّرعِ هي: شَهادةُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله؛ ولِهَذا تَجِدونَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ: **«بُنِيَ الإسلامُ على خَمسٍ: شَهادةِ أَنْ لا إِلَه إلَّا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وصَومِ رَمَضانَ، وحَجِّ البَيتِ»**[(٣)].

فلو عَدَدتَ هَذِه لوَجَدتَها سِتًّا، والرَّسولُ ﷺ يَقولُ: **«بُنِيَ الإسلامُ عَلى خَمسٍ»**، فكَيفَ هَذا؟

الجَوابُ: لِأَنَّ شَهادةَ أَن لا إِلَه إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله واحِدٌ.

ولِماذا جَعلَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهادةَ أَنْ لا إِلَه إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله واحِدًا؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيد، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«بني الإسلام على خمس»**، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«بني الإسلام على خمس»**، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الجَوابُ: لِأَنَّ الإخْلاصَ يَحتاجُ إلى مُتابَعةٍ، ولا تَتِمُّ العِبادةُ إلَّا بهَذينِ الأمرَينِ جَميعًا، فالإخلاصُ لا بُدَّ أنْ يَكونَ معه مُتابَعةٌ، وإلَّا لم تَصِحَّ العِبادةُ، وهذا يَرِدُ عَلى أذهانِ كَثيرٍ مِنَ الطَّلَبةِ فيَقولُ: كَيفَ يَقولُ الرَّسولُ ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ عَلى خَمسٍ» ثم إذا عَدَدناها وَجَدناها سِتًّا لأوَّلِ وَهلةٍ؟!

إذًا، شَهادةُ أَن لا إِلَه إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ الله واحِدٌ؛ لِأَنَّ العِبادةَ لا يُمكِنُ أنْ تَصِحَّ إلا بذَلِك.

نَرجِعُ الآن إلى قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

أقولُ: في الآيةِ الكَريمةِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾ [الحج:٤٠] ثَلاثةُ مُؤَكِّداتٍ.

يَقولُ عُلَماءُ النَّحوِ: اللَّامُ مُوطِّئةٌ لِلقَسَمِ، يَعني: مُمَهِّدةٌ لِلقسَمِ، أي: أنَّ هُناكَ قَسمٌ مَحذوفٌ، وتَقديرُ الكَلامِ: «والله لَيَنْصُرَنَّ الله» إذًا، في الجُملةِ ثَلاثةُ مُؤَكِّداتٍ: الأَوَّلُ: القَسَمُ المُقَدَّرُ، والثاني: اللَّامُ، والثالِثُ: نَونُ التَّوكيدِ.

وفي آخِرِ الآيةِ جُملةٌ مُؤَكَّدةٌ تَوكيدًا مَعنَويًّا لا لَفظِيًّا، وهي قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، والإنسانُ إذا آمَنَ بهَذينِ الوَصفَينِ: القُوَّةِ، والعِزَّةِ، اطمَئَنَّ إلى هذا الوَعدِ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، فهو قَوِيٌّ لا يَضعُفُ، عَزيزٌ غالِبٌ عَزَّوَجَلَّ، ومَعلومٌ أَنَّ النَّصرَ مَبنِيٌّ على هَذَينِ الوَصفَينِ وهُما: القُوَّةُ والعِزَّةُ.

نَعودُ إلى ما ذَكَرناه مِن أنَّ أسبابَ النَّصرِ الحَقيقِيَّةِ أربَعةٌ: إقامةُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، والأمرُ بالمَعروفِ، والنَّهيُ عنِ المُنكَرِ، ويَسبِقُ هَذِه الأربَعةَ الأصلُ الَّذي تُبْنى

عَلَيه هَذِه الأربعةُ وهِيَ توحيدُ الله عَزَّوَجَلَّ كما قالَ الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور:٥٥].

السَّببُ الثاني مِنْ أسْبابِ النَّصرِ: إقامةُ الصَّلاةِ وهِيَ تَلي التَّوحيدَ والرِّسالةَ؛ لِأنَّها آكَدُ الأرْكانِ الإسلامِيَّةِ بَعدَ التَّوحيدِ، ولَكِنْ ما مَعنى إقامةِ الصَّلاةِ؟

الجَوابُ: مَعنى إقامةِ الصَّلاةِ: أنْ يَأتِيَ بها كامِلةً بِشُروطِها، وأرْكانِها، وواجِباتِها، وإنْ كَمَّلَها بمُستَحَباتِها فهُوَ أكمَلُ وأفضَلُ.

ويَدُلُّ عَلى أنَّها تَلي التَّوحيدَ والرِّسالةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ جعَلَها في المَرتَبةِ الثانِيةِ، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَفرِضْ رُكنًا مِنَ الأرْكانِ كما فَرَضَ الصَّلاةَ، فَقَد فُرِضَتِ الصَّلاةُ لَيلةَ المِعراجِ والنَّبيُّ ﷺ في السَّماءِ السابِعةِ، وفُرِضَت عَلَيهِ مِنَ الله إلَيهِ بِدونِ واسِطةٍ، وفُرِضَتْ أوَّلَ ما فُرِضَتْ خَمسينَ صَلاةً، كُلُّ هَذا دَليلٌ واضِحٌ على اعتِناءِ الله تعالى بِها، وأنَّها أهَمُّ الأرْكانِ الإسلامِيَّةِ بعدَ التَّوحيدِ والرِّسالةِ، هَذِه الصَّلاةُ الَّتي أضاعَها اليَومَ كَثيرٌ مِنَ الناسِ، ولِهَذِه الإضاعةِ أوجُهٌ:

أولًا: عَدَمُ الصَّلاةِ بالكُلِّيَّةِ: وهو يَشهَدُ أنْ لا إلَه إلَّا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، لكنْ لا يُصَلي، ومَن كانَت هَذِه حالُه فهُو مُرتَدٌّ عنِ الإسلامِ ولَو شَهِدَ أنْ لا إلَه إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، ولو تَصَدَّقَ، ولو صامَ، ولو حَجَّ، ولا يَحِلُّ لَهُ أنْ يَقرَبَ المَسجِدَ الحَرامَ وَهُوَ لا يُصَلي؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التَّوبة:٢٨]، فهذه إضاعةٌ يَخرُجُ بها الإنسانُ مِنَ الإسلامِ بالكُلِّيَّةِ، ويَتَرَتَّبُ عَلى هَذا: أنَّه لَو ماتَ حُشِرَ مَعَ فِرعونَ وقارونَ وهامانَ

وأُبيِّ بنِ خَلَفٍ، رُؤوسِ الكَفرةِ.

قالَ العُلَماءُ: وإنَّما ذكَرَ النَّبيُّ ﷺ هؤلاءِ؛ لأنَّ فِرعَونَ استكبَرَ برِئاسَتِه، وهامانُ استكبَرَ بوَزارَتِه، وقارونَ استكبَرَ بمالِه، وأُبَيَّ بنَ خَلفٍ استكبرَ بجاهِهِ، والإنسانُ تَحمِلُه هَذِه الأُمورُ -الرِّئاسةُ، والوَزارةُ، والمالُ، والجاهُ- عَلى الاستِكبارِ عَلى أوامِرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

يَترَتَّبُ عَلى ذَلِكَ أيضًا -أي: على مَن تَرَكَ الصَّلاةَ بالكُلِّيَّةِ- أنَّه لَو ماتَ لم يُغسَّلْ، ولم يُكَفَّنْ، ولم يُصَلَّ عَلَيهِ، ولم يُدفَنْ مَع المُسلِمينَ، فهَل نُبْقيهِ على الرَّصيفِ، أو في الشَّارِعِ، أو في السَّاحاتِ؟

الجَوابُ: لا، وإنَّما نَخرُجُ به إلى الصَّحراءِ، ونَحفُرُ لَهُ حُفرةً لا عَلى صِفةِ القَبرِ، ونَرمِسُهُ فيها رَمسًا، وهَذِه مَسئولِيَّةٌ عَلَيكُم أنتُم، فإذا ماتَ عِندَكُم مَن تَعرِفونَ أنَّه لا يُصلِّي فهَذا شَأنُهُ، ولا يَحِلُّ لَكُم أنْ تُقدِّموه إلى المُسلِمينَ ليُصَلوا عَلَيه؛ لأنَّه لو صَلَّوا عَلَيهِ لم تَنفَعْه صَلاتُهم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدَّثر:٤٨].

ويَترَتَّبُ عَلى ذَلِك أيضًا: أنَّه لو عَقدَ له النِّكاحَ وهو لا يُصلِّي فالعَقدُ باطِلٌ، ولا تَحِلُّ بِهِ المَرأةُ، وأقولُ المَرأةُ؛ لِأنَّها لَيْسَت زَوجةً، فلا تَحِلُّ المَرأةُ بِهَذا العَقدِ؛ لِأَنَّه فاسِدٌ باطِلٌ؛ لقَولِ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المُمتَحِنة:١٠].

فإذا كانَ قَد تَزَوَّجَ قَبْلَ أنْ يَرتَدَّ بِتَركِ الصَّلاةِ، فنَقولُ لَهُ: ارجِع إلى الإسْلامِ وإلَّا فَزوجَتُكَ حُرِّمَت عَليكَ، ونُفرِّقُ بينَه وبينَ زَوجَتِه.

وإذا رَجَعَ إلى الإسْلامِ، فهَل يَحتاجُ إلى تَجديدِ عَقدٍ، أو لا يَحتاجُ إلى تَجديدِ عَقدٍ؟

فنَقولُ: أمَّا إنْ كانَ قَد عُقِدَ لهُ وهُوَ لا يُصَلِّي فإنَّه يَحتاجُ إلى تَجديدِ عَقدٍ، وأمَّا إذا كانَ تَرَكَ الصَّلاةَ بَعْدَ أنْ تزوَّجَ وكانَ في الأوَّلِ يُصَلِّي؛ فإنَّه لا يَحتاجُ إلى تَجديدِ عَقدٍ، بَل يَبقى عَلى عَقدِه الأوَّلِ؛ لِأنَّه عَقدٌ صَحيحٌ.

إذًا، المَسألةُ مُهِمَّةٌ، وقَد تَستعظِمونَ قَولي هَذا، أو قَولي: إنَّه يَكونُ كافِرًا كُفرًا مُخرِجًا عنِ المِلَّةِ، وتَقولون: سُبحانَ الله، رَجُلٌ بينَنا إذا جاءَ رَمَضانُ صامَ، وإذا أقبَلَ الحَجُّ حَجَّ، وإذا ذُكِرَ له فَقيرٌ تَصدَّقَ عَلَيه، فكَيفَ تَقولونَ: إنَّه كافِرٌ؟

نَقولُ: إنَّما نَقولُ: إنَّه كافِرٌ؛ لقَولِ رَبِّنا: إنَّه كافِرٌ، وقَولِ رَسولِه: إنَّه كافِرٌ، وقَولِ الصَّحابةِ: إنَّه كافِرٌ، والَّذي يَحكُمُ بالكُفرِ والإيمانِ الشَّرعُ -الله ورَسولُه- والَّذي يَحكُمُ بالحَلالِ والحَرامِ: الله ورَسولُهُ، ونَحْنُ نَبرَأُ إلى الله أنْ نُكفِّرَ مَن لا يُكفِّرُه الله، ونُؤمِنُ بأنَّ مَن كَفَّرَ مَن لَيْسَ بكافِرٍ فهُوَ الكافِرُ؛ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَن دَعا رَجُلًا بالكُفرِ، أو قالَ: يا عَدوَّ الله وهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ حارَ عَلَيهِ**»[1] أي: رَجَعَ عَلَيهِ، وقالَ: «**مَنْ قالَ لِأخيهِ يا كافِرُ فَقَدْ باءَ بِها أحَدُهُما**»[2] يَعني: رَجَعَ بِها أحَدُهُما، إنْ كانَ المَقولُ لَهُ: كافِرًا فهُوَ الكافِرُ، وإذا لَمْ يَكُنْ فالقائِلُ هُوَ الكافِرُ.

هَكَذا قالَ النَّبيُّ ﷺ أو مَعناهُ فنَحنُ لا نُكفِّرُ مَن لم يُكفِّرْهُ الله ورَسولُه، ولا يَحِلُّ لَنا أنْ نُكفِّرَ مَنْ لا يُكفِّرُه الله ورَسولُه، ولَكِنْ مَنْ كَفَّرَه الله ورَسولُه فإنَّنا لن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم (٦١)، من حديث لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (٦١٠٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، رقم (٦٠).

نَخجَلَ، ولَن نَتهيَّبَ أنْ نُكفِّرَه؛ لِأنَّ التَّكفيرَ قَولُ الله، وقَولُ رَسولِه، والأمرُ سَهلٌ يُمكِنُ أنْ يَرفَعَ الإنسانُ عن نَفسِه وَصْفَ الكُفرِ بِالصَّلاةِ، فيُصَلِّي، وهَلِ الصَّلاةُ عَسيرةٌ؟! أبدًا الصَّلاةُ سَهْلَةٌ.

فإذا قالَ قائِلٌ: أينَ الدَّليلُ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ وقَولِ السَّلفِ أو قَولِ الصَّحابةِ؟

نَقولُ: استَمِع لقَولِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المُشرِكينَ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التَّوبة:١١]، فعَلَّقَ ثُبوتَ الأُخوَّةِ على هَذِه الأوصافِ الثَّلاثةِ: التَّوبةِ مِنَ الشِّركِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، فإذا لم يَتوبوا مِنَ الشِّركِ فَهُم مُشرِكونَ، وهَذا واضِحٌ، وإذا تابوا مِنَ الشِّركِ ولم يُقيموا الصَّلاةَ فلَيسوا إخْوانًا لَنا في الدِّينِ، وإذا تابوا مِنَ الشِّركِ وأقاموا الصَّلاةَ ولم يُؤتوا الزَّكاةَ فلَيسوا إخوانًا لَنا في الدِّينِ، ولَكِنْ إيتاءُ الزَّكاةِ دَلَّتْ السُّنَّةُ عَلى أنَّ عدَمَه لا يَقتَضي الكُفرَ، وسَأتْلو عَلَيكُم إنْ شاءَ الله الحَديثَ.

ومَتى انتَفَتِ الأُخوَّةُ في الدِّينِ انتَفى الدِّينُ؛ لِأَنَّ المَعاصي -وإنْ عَظُمَت- لا تُنافي الأُخوَّةَ في الدِّينِ، ودَليلُ ذَلِك: قَولُ الله تعالى في آيةِ القِصاصِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨] فأَخوهُ: المَقتولُ، وإذا كانَ المَقتولُ أخًا للقاتِلِ فهَل القاتِلُ خَرَجَ مِنَ الإيمانِ؟

الجَوابُ: لا؛ لقَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات:١٠]، إذًا، القَتلُ مَعَ كَونِه كَبيرةً مِنْ كَبائِرِ الذُّنوبِ العَظيمةِ لا يَخرُجُ بِهِ الإنسانُ مِنَ الإيمانِ.

ودَليلٌ آخَرُ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرات:٩] والآيةُ الَّتي بَعدَها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٠] مَع أنَّ النَّبيَّ ﷺ أطْلَقَ عَلى قِتالِ المُؤمِنِ: كُفرًا، فقالَ: «سِبابُ المُسلِمِ فُسوقٌ وقِتالُه كُفرٌ»[1]، ومَعَ هَذا سَمَّى الله الطائفَتَينِ المُقتَتِلَتَينِ إخْوةٌ للطائفةِ المَصلِحةِ فقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٠].

إذن، لا يُمكِنُ أنْ تَنتَفي الأُخوَّةُ في الدِّينِ إلَّا حَيثُ انتفى الإيمانُ، أو حَيثُ انتفى الدِّينُ بالكُلِّيَّةِ، فهَذا وَجهُ دَلالةِ القُرآنِ على أنَّ تارِكَ الصَّلاةِ كافِرٌ.

أمَّا السُّنَّةُ فواضِحةٌ جِدًّا، فَقَد رَوى مُسلِمٌ في صَحيحِه عن جابِرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم قالَ: «**بَينَ الرَّجُلِ وبَينَ الشِّرْكِ والكُفرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**»[2].

والبَينِيَّةُ تَقتَضي المُحادَّةَ، يَعني: أنَّها حَدٌّ فاصِلٌ بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ، والشِّركِ والتَّوحيدِ، فبَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشِّركِ والكُفرِ تَرْكُ الصَّلاةِ، فإذا تَرَكَها دَخَلَ في الكُفرِ أوِ الشِّركِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقَد يَقولُ طالِبُ عِلمٍ: إنَّ إطلاقَ الكُفرِ لا يَقتَضي الخُروجَ مِنَ الإيمانِ، بدَليلِ الحَديثِ السابِقِ آنِفًا: «**سِبابُ المُسلِمِ فُسوقٌ وقِتالُه كُفرٌ**» ومَع ذَلِك فالقُرآنُ يُثبِتُ الإيمانَ مَعَ القِتالِ، أفَلا يُحمَلُ قَولُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشِّركِ والكُفرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**» عَلى أنَّه الكُفرُ الَّذي لا يَخرُجُ بِهِ الإنسانُ مِنَ المِلَّةِ؟

فالجَوابُ: لا يُحمَلُ؛ لِأنَّ الخِطابَ يَختَلِفُ فقَولُه: «**الشِّرْكِ والكُفرِ**» فـ(أل) للعَهدِ الدَّالِّ عَلى الحَقيقةِ، أمَّا قَولُه: «**قِتالُهُ كُفْرٌ**» فكُفرٌ نَكِرةٌ في سِياقِ الإثباتِ، فهِيَ دالَّةٌ عَلى مُطلَقِ الكُفرِ، لا على كُفرٍ مُطلَقٍ -يَعني: على كُفرٍ دونَ كُفرٍ- وأمَّا «**بَينَ الرَّجُلِ وبَينَ الشِّركِ والكُفرِ**» فالعِبارةُ تَدُلُّ على الكُفرِ المُطلَقِ الذي عُرِّفَ بـ(أل) الدالَّةِ على الحَقيقةِ، فالتَّعبيرانِ إذًا مُختَلِفانِ، وإذا كانا مُختَلِفَينِ فإنَّه لا يُمكِنُ أنْ نَحمِلَ مَعنى أحَدِهِما عَلى الآخَرِ ضَرورةَ أنَّ المَعنى تابِعٌ للَّفْظِ، فإذا كانَ اللَّفْظانِ مُختَلِفَينِ وَجبَ اختِلافُ الدَّلالةِ، وإذا اختَلَفَتِ الدَّلالةُ لم يَجُزْ حَملُ أحَدِهِما عَلى الآخَرِ.

وأضرِبُ لَكُم مِثالًا لا عَلاقةَ لَهُ بِالمَوضوعِ، لَكِنْ له عَلاقةٌ بالمُجتَمَعِ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خُيَلاءَ لم يَنظُرِ الله إلَيْهِ**»[1]، وقال -فيما صَحَّ عنه في مُسلِمٍ مِن حَديثِ أبي ذَرٍّ-: «**ثَلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَومَ القِيامةِ، ولا يَنْظُرُ إلَيهِم، ولا يُزَكِّيهِم، ولَهُم عَذابٌ أليمٌ**» قالَها ثَلاثَ مَراتٍ، فقالَ أبو ذَرٍّ: مَنْ هُمْ يا رَسولَ الله؟ خابوا وخَسِروا! -قَومٌ لا يُكَلِّمُهم الله، ولا يَنْظُرُ إلَيْهِم، ولا يُزَكِّيهِم، فمَنْ هَؤلاءِ؟ خابوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب، رقم (٢٠٨٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وخَسِروا! فوالله لَقَد خابوا وخَسِروا- قالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «**المُسبِلُ، والمَنَّانُ، والمنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ**»[1].

فاضْبُطوها: المُسبِلُ، والثَّاني: المَنَّانُ، والثَّالِثُ: المُنَفِّقُ سِلعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ، يَعني: مَن يَبيعُ سِلْعتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ، ويَقولُ: والله لَقَد اشتَرَيْتُها بمِئةٍ. وهُوَ ما اشتَراها إلَّا بخَمْسينَ، أو يَقولُ: والله ما فيها عَيبٌ. وهِيَ كُلُّها عَيبٌ، أو يَقولُ: والله إنَّها طَيِّبةٌ هِمْلاجةٌ سَريعةٌ في المَشْيِ. وهِيَ لَيَسَت كَذَلِكَ، أو يَشتَري السَّيارةَ ويَذْهَبُ بِها إلى السَّمكَرةِ ويُسَمكِرُها ويُدَلِّسُ فيها، ثم يَقولُ: السَّيارةُ مُمتازةٌ.

عَلى كُلِّ حالٍ: نَحْنُ يُهِمُّنا مِن هذا الحَديثِ الكَلِمةُ الأولى وهِيَ: «**المُسبِلُ**» وجَزاؤُه: لا يُكَلِّمُه الله يومَ القِيامةِ، ولا يَنْظُرُ إلَيهِ، ولا يُزَكِّيه، ولَهُ عَذابٌ أليمٌ، أربَعُ عُقوباتٍ والعِياذُ بالله، ولَكِنْ هَذا إذا كانَ خُيلاءَ، ولما قالَ النَّبِيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَه خُيلاءَ لَمْ يَنظُرِ الله إلَيهِ**» قامَ أفضَلُ الأُمَّةِ -أبو بَكرٍ- فَقالَ: يا رَسولَ الله، إنَّ أحَدَ شِقَّيْ إزاري يَسْتَرخي عَلَيَّ إلَّا أنْ أتَعاهَدَهُ. فقالَ: «**إنَّكَ لَسْتَ مِمَّن يَصْنَعُ ذَلِك خُيلاءَ**»[2] وأبو بَكرٍ أفضَلُ الأُمَّةِ، زَكَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ ولَم يَكُنْ يَخيطُ الثَّوبَ حتَّى يَنزِلَ، لَكِنْ يَسْتَرخي عَلَيهِ إلَّا أنْ يَتعاهَدَهُ، فهُوَ أمرٌ خارِجٌ عما صَنَعَ عَلَيهِ هَذا الإزارَ؛ ولِهَذا كانَ يَتَعاهَدُه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رقم (١٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**»، رقم (٣٦٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب، رقم (٢٠٨٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا جرَّ الإنسانُ ثوبَهُ خُيلاءَ فَلَه هَذا الوَعيدُ المُتضَمِّنُ لأربعَةِ أمورٍ هِيَ: أنْ لا يُكَلِّمَه اللهُ، ولا يَنظُرُ إلَيهِ، ولا يُزَكيهِ، ولَهُ عَذابٌ أليمٌ.

فإنَّ جَرَّ الثَّوبِ لِغَيرِ الخُيلاءِ، لَكِنْ لِشَيءٍ في نَفسِهِ، فَهَل يَرتَفِعُ عَنهُ الإثْمُ؟ أو تَرتَفِعُ عنه هَذِه العُقوبُةُ؟

الجَوابُ: تَرتَفِعُ عَنهُ هَذِه العُقوبةُ فَقَط، ولا يَرتَفِعُ عَنهُ الإثمُ، والدَّليلُ عَلى هَذا: قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «**ما أسفَلَ مِنَ الكَعْبَينِ فَفِي النَّارِ**»[(١)] وهَذا وَعيدٌ غَيرُ الوَعيدِ الأوَّلِ، فالوَعيدُ الأوَّلُ تَضَمَّنَ أربعَةَ أُمورٍ، لَكِنْ هَذا تَضَمَّنَ أمْرًا واحِدًا، أنَّه إذا نَزَلَ ثَوبُكَ أو سِروالُك أو بِشتُك إلى أسفَلَ مِنَ الكَعبَينِ فإنَّه في النَّارِ، ولَيْسَ الإنسانُ كُلُّهُ في النارِ، لَكِنْ يُعذَّبُ في النَّارِ بقَدرِ ما نَزَلَ مِن ثَوبِه، ويَكونُ العَذابُ بالنَّارِ هُنا جُزئِيًّا، ولا غَرابةَ في أنْ يَكونَ العَذابُ جُزئِيًّا، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأى أقْدامَ أصحابِه لم يَمَسَّها الماءُ حينَ تَوضَّؤوا مُسرِعينَ؛ فنادى بأعْلى صَوتِه: «**وَيلٌ لِلأعْقابِ مِنَ النَّارِ**»[(٢)] فجَعَلَ الوَعيدَ عَلى الأعْقابِ فَقَطْ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ، يُجازِي الإنسانَ بقَدْرِ عَمَلِه.

إذن، هَل يُمكِنُ أنْ نَحمِلَ: «**ما أسْفَلَ مِنَ الكَعْبَينِ ففي النَّارِ**» على مَن يَفْعَلُ ذَلِك خُيلاءَ أو لا يُمكِنُ؟

الجَوابُ: لا يُمكِنُ؛ لِأَنَّ العُقوبةَ مُختَلِفةٌ فلا يُمكِنُ أنْ نَحمِلَ هَذِه العُقوبةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم (٥٧٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، رقم (٦٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤١)، من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

على تِلكَ؛ لِأَنَّنا لو حَمَلْنا هَذِه على تِلكَ للَزِمَ تَكذيبُ أَحَدِ الخَبَرينِ بِالآخَرِ، وتَكذيبُ خَبرِ الله ورَسولِه مُستَحيلٌ.

قُلتُ هَذا؛ لأُحَذِّرَ إخواني مِمَّا ابتَلاهُم الله لَهُ بِهِ مِن تَنْزيلِ الثِّيابِ، أو السَّراويلِ، أو المشالِحِ إلى أسفَلَ مِنَ الكَعْبَينِ، ومِنَ العَجَبِ أنَّ الإنسانَ يَخدَعُ نَفسَه، أَيُّهما أتقى لله وأبْقى لِلثَّوبِ: أنْ يَنزِلَ حتَّى يَضرِبَ عَلى الأرضِ، أو أنْ يرتَفِعَ؟ أَيُّهما أَبْقى وأتْقى وأنْقى؟

الجَوابُ: أنْ يَرتَفِعَ؛ فلا تُخادِعْ نَفسَك يا أخي.

وقَد جاءَ شابٌّ مِنَ الصَّحابةِ إلى أميرِ المُؤمِنينَ الفاروقِ عُمَرَ بنِ الخَطابِ حينَ طَعَنَهُ أبو لُؤلُؤةَ غُلامُ المُغيرةِ، وهو غُلامٌ مَجوسِيٌّ يَحمِلُ حَنَقًا عَلى الإسلامِ، وعَلى الخَليفةِ الثَّاني رَضِيَ اللهُ عَنهُ؛ لِأنَّه هو الَّذي فَتَحَ بِلادَ المَجوسِ للإسلامِ، وأثْبَتَ الإسلامَ فيها، فكانَ هَذا الغُلامُ المَجوسِيُّ يَتَوَعَّدُ أميرَ المؤمِنينَ عُمَرَ، فلَمَّا كَبَّرَ ذاتَ يَومٍ لِصَلاةِ الفَجرِ أغارَ عَلَيهِ وطَعَنَه بِخِنجَرٍ ذي حَدَّينِ، ولَكِنْ أدرَكَه المُسلِمونَ حتَّى وضَعوا عَلَيهِ قَطيفًا، فلَمَّا رَأى أنَّه قَد أُدرِكَ قَتَلَ نَفسَهُ والعِياذُ بالله، فصارَت عاقِبَتُه شَرًّا، فقَد قَتَلَ خَليفةَ المُسلِمينَ، ثم قَتَلَ نَفسَه، فبِئسَتِ العاقِبةُ وبِئسَتِ الخاتِمةُ والعِياذُ بالله.

المُهِمُّ أنَّ عُمرَ بَقيَ ثَلاثةَ أيامٍ، والنَّاسُ يَعودونَه ويَعِدونَه بالخَيرِ ويُبَشِّرونَه، ويَقولونَ له: إنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلَّم بَشَّركَ بالجَنَّةِ، فجاءَ شابٌّ -أظُنُّه مِنَ الأنصارِ- وكانَ إزارُه يَضرِبُ الأرضَ، وأثْنى على أميرِ المُؤمنينِ عُمرَ خَيرًا، فانتبَه عُمَرُ إلَى المَسألةِ الجُزئِيَّةِ، وقالَ هاتَينِ الكَلِمَتينِ العَظيمَتينِ: ارفَعْ ثَوبَك؛

فإنَّه أتْقى لرَبِّكَ، وأنْقى لِثَوبِكَ[١].

إذًا، يا إخوانَنا أنا أنصَحُ إخواني المُسلِمينَ بأنْ يَتَّقوا الله عَزَّوَجَلَّ في أنفُسِهِم، وأنْ يَعلَموا أنَّ لِباسَ التَّقوى خَيرٌ مِن لِباسِ الزِّينةِ؛ فليَتَّقوا الله، وليَرفَعوا ثِيابَهُم إلى الكَعبَينِ، أو إلى ما فَوقَ الكَعْبينِ، أو إلى نِصفِ الساقِ، كُلُّ هذا جائِزٌ، والأمرُ فيه واسِعٌ.

وسُبحانَ الله، الناسُ طَرفانِ ووَسَطٌ، فمِنَ الناسِ مَن يُنزِلُ اللِّباسَ إلى أسفَلَ مِنَ الكَعبينِ، ومِنَ الناسِ مَن يَرفَعُه إلى نِصفِ الساقِ، والثاني مُصيبٌ، والأوَّلُ مُخطِئٌ، لَكِنَّ الثاني قد يُخطِئُ بكَونِه يَعتِبُ على الذينَ يُنزِلونَ لِباسَهم إلى ما تَحتَ نِصفِ الساقِ، ويَقولُ: هَؤلاءِ مُخالِفونَ للسُّنَّةِ، ورُبَّما يَقولُ بَعضُهُم: مَن رَغِبَ عن سُنَّةِ رَسولِ الله فلَيسَ مِنَّا، ويُوَصِّلون هذه المَسألةَ إلى حَدٍّ كَبيرٍ في عِتابِ مَن نَزَّلَ الثَّوبَ عن نِصفِ الساقِ، مع أنَّ ساداتِ الخَلقِ، بَل ساداتِ هذه الأُمَّةِ بَعدَ نَبيِّها كانوا يُنزِلونَه عن نِصفِ السَّاقِ.

والدَّليلُ على ذلك: حَديثُ أبي بَكرٍ الذي ذَكرناه آنِفًا، حينَما قالَ: «**إنَّ أحَدَ شِقَّي إزارِي يَستَرخِي عَلَيَّ إنْ لم أتَعاهَدْه**»[٢] فإنَّ هذا يَدُلُّ على أنَّ إزارَه يَنزِلُ عَن نِصفِ الساقِ؛ لِأنَّه لو كانَ إلى نَصفِ السَّاقِ ونَزلَ إلى الأرضِ تَنكَشِفُ عَورتُه مِن فَوقُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قصة البيعة، والاتفاق على عثمان بن عفان وفيه مقتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رقم (٣٧٠٠)، من حديث عمرو بن ميمون.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلا**»، رقم (٣٦٦٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب، رقم (٢٠٨٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فإذن، يَنبَغي أنْ نَكونَ مُعتَدِلينَ، لا نُثَرِّبُ على مَن نَزَّلَ ثَوبَه إلى ما بينَ نِصفِ السَّاقِ والكَعبِ، ولا نُنزِلُ الثيابَ عنِ الكَعبِ، بَل نَكونُ مُعتَدِلينَ.

انتَهى الكَلامُ على هذه الجُملةِ المُعتَرِضةِ، والنَّحْويُّونَ يَقولونَ: إنَّ الجُملةَ المُعتَرِضةَ لَيْسَ لها مَحَلٌّ مِنَ الإعرابِ، ولَكِنَّنا لا نُوافِقُهم على ذَلِك، فنَقولُ: الجُملةُ المُعتَرِضةُ تَكونُ أحيانًا مِن تَمامِ الكَلامِ، ولا يَتِمُّ الكَلامُ إلَّا بها، وإنْ كانَت مُعتَرِضةً مِن حيثُ الإعرابُ، لَكِنْ لَيْسَت مُعتَرِضةً مِن حَيثُ المَعنى، فنَرجو أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ المُعتَرِضةُ على بالِكُم.

ونَرجِعُ الآن إلى سِياقِ الكَلامِ الأوَّلِ: القَولُ بكُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ، «**بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشِّركِ والكُفرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**»[1] ورَوى أصحابُ السُّنَنِ بِسَنَدٍ صَحيحٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**العَهْدُ الَّذي بَيْنَنا وبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فمَنْ تَرَكَها فَقَدْ كَفَرَ**»[2] والضَّميرُ في قَولِه: «**بَينَهُم**» يَعودُ عَلى الكُفارِ.

فعِنْدَنا إذًا دَليلٌ مِنَ القُرآنِ ومِنَ السُّنَّةِ.

وكَلامُ الصَّحابةِ: قالَ أميرُ المُؤمِنينَ عُمرُ بنُ الخَطابِ: «لا حَظَّ في الإسلامِ لمَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ»[3].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢)، من حديث جابر رَضِيَٰلِلَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩)، من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَٰلِلَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٣٩ (٥١)، وعبد الرزاق في المصنف ١/ ١٥٠ (٥٨١)، وابن أبي شيبة في المصنف ٢٠/ ٥٩٥ (٣٨٢٢٢).

وقَدْ حَكى الإمامُ إسحاقُ ابنُ راهوَيَةَ إجماعَ الصَّحابةِ عَلى كُفْرِ تارِكِ الصَّلاةِ، وأنَّ تارِكَ الصَّلاةِ كافِرٌ، فتَبيَّنَ بِهَذا أنَّ كُفْرَ تارِكِ الصَّلاةِ قَدْ دَلَّ عَلَيهِ القُرآنُ والسُّنَّةُ وأقوالُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

وهَلِ النَّظَرُ -وهو ما يُعرَفُ بالدَّليلِ العَقلِيِّ- يَدُلُّ على كُفرِه؟

الجَوابُ: نَعَم، النَّظَرُ يَدُلُّ على كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ، ووَجهُ ذلك: أنَّ الصَّلاةَ عَمَلٌ يَسيرٌ، مُوزَّعٌ في أوقاتٍ خَمسةٍ، لا يُتعِبُ الإنسانَ أبَدًا، ولها مِنَ الشَّأنِ الكَبيرِ ما لَيْسَ لِغَيرِها مِن أركانِ الإسلامِ إلَّا التَّوحيدَ والرِّسالةَ، فهَل يَقولُ قائِلٌ: إنَّ هَذا الرَّجُلَ في قَلبِه إيمانٌ وهو يَعرِفُ قَدْرَ الصَّلاةِ وسُهولَتَها ويُسْرَها، ثم يُحافِظُ على تَرْكِها، فهَل في قَلبِه إيمانٌ؟

الجَوابُ: أبَدًا، لَيْسَ في قَلبِه إيمانٌ، ولَيسَ الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ بأنَّ الله مَوجودٌ؛ لِأنَّ هَذا إيمانُ المُشرِكينَ، فالمُشرِكونَ يَقولونَ: إنَّ الله مَوجودٌ، وإنَّه هُوَ الَّذي يُحْيي ويُميتُ ويَخلُقُ ويَرْزُقُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لُقمان:٢٥].

فالإيمانُ: أنْ يَكونَ في القَلبِ إيمانٌ يَحمِلُه على قَبولِ الخَبَرِ والإذعانِ لِلأمرِ، ومَن لم يُذعِنْ لِلأمرِ بالصَّلاةِ مَعَ عِلمِه بمَرتَبَتِها في الدينِ الإسلامِيِّ؛ فلَيْسَ في قَلبِه إيمانٌ أبَدًا، يُحافِظُ عَلى تَركِ الصَّلاةِ، ولَيْسَ عَلى الصَّلاةِ، بَل على تَركِ الصَّلاةِ، ويَقولُ: أنا مُؤمِنٌ! كَيفَ تُحافِظُ على تَركِ الصَّلاةِ وأنتَ مُؤمِنٌ؟! فالمُؤمِنُ لا بُدَّ أنْ يُحافِظَ على الصَّلاةِ.

إذن، فالقُرآنُ، والسُّنَّةُ، وأقْوالُ الصَّحابةِ، والنَّظَرُ الصَّحيحُ، كُلُّ هَذِه الأدِلَّةِ

الأربَعةِ تَدُلُّ على كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ.

وهُناكَ نُصوصٌ مِنَ السُّنَّةِ ظاهِرُها المُعارَضةُ لأدِلَّةِ كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ، مِثلُ حَديثِ مُعاذِ بنِ جَبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «حَقُّ العِبادِ عَلى الله أنْ يَعْبُدوهُ ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيئًا»[1] ولَم يَذكُرِ الصَّلاةَ، فنَقولُ: هَل تارِكُ الصَّلاةِ عابِدٌ لله؟

الجَوابُ: لَيْسَ بعابِدٍ، فلا بُدَّ مِن عِبادةٍ وإخلاصٍ.

وقالوا أيضًا: إنَّه في أحاديثِ الشَّفاعةِ: «أنَّ الله يُخرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ في قَلْبِه أدْنى أدْنى حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ»[2]، ولَم يَذكُرِ الصَّلاةَ.

وقالوا: إنَّ صاحِبَ البِطاقةِ الَّذي أخرَجَ أصحابَ السُّنَنِ حَديثَهُ أنَّهم وَضَعوا البِطاقةَ في كِفَّةٍ، وأعْمالَه السَّيِّئةَ في كِفَّةٍ فتَرجِحُ البِطاقةُ بهَذه الأعمالِ الكَثيرةِ السَّيِّئةِ الَّتي هي سِجِلاتٌ ولَيْسَ فيها إلَّا: لا إلَهَ إلَّا الله[3]، ولَم يُذكَرْ عَمَلٌ سِوى هَذا؟

والجَوابُ عَلى هَذا أنْ نَقولَ: إنَّ هَذا الحَديثِ أعْلى ما فيه أنْ يَكونَ مِنَ المُتَشابِه، وواجِبُ المُسلِمِ في النُّصوصِ المُتَشابِهةِ أنْ يَحمِلَها على النُّصوصِ المُحكَمةِ؛ لِأنَّ هَذه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، رقم (٢٨٥٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، رقم (٣٠)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم (٤٣٠٠)، من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

طَريقةُ المُؤمنينَ، قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ قالَ: والراسِخونَ في العِلمِ لا يَتَّبِعونَ المُتَشابِه ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عِمران:٧].

إذن، النُّصوصُ الَّتي ظاهِرُها مُعارِضةٌ لِنُصوصِ كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ تَنقَسِمُ إلى أقسامٍ:

أوَّلًا: أنْ لا يَكونَ فيها دَلالةٌ أصلًا، وقَدْ عارَضَ بَعضُ العُلَماءِ نُصوصَ تَركِ الصَّلاةِ بقَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨] فما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: إنَّ تارِكَ الصَّلاةِ مُغفورٌ لَهُ، إذًا لا دَلالةَ فيها.

الثَّاني: قُيِّدَ بوَصفٍ لا يُمكِنُ مَعَهُ تَركُ الصَّلاةِ، مِثلُ: حَديثِ عِتبانَ بنِ مالكٍ المَشهورِ: «**إنَّ الله حَرَّمَ عَلى النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا الله يَبتَغي بذَلِك وَجهَ الله**»[1] فهَذا لَم يَقتَصِرْ فيهِ عَلى قَولِ: لا إلَهَ إلَّا الله، لكنْ قَيَّدَها بقَولِه: «**يَبتَغي بذَلِك وَجهَ الله**» وهَذا القَيدُ إذا ثَبَتَ لا يُمكِنُ أنْ يَترُكَ الصَّلاةَ أبَدًا؛ لأنَّ مَنِ ابتَغى وَجهَ الله سَعى بكُلِّ ما يَستَطيعُ إلى الحُصولِ عَلى هَذا الثَّوابِ العَظيمِ.

الثالِثُ: قُيِّدَ بحالٍ يُعذَرُ فيها مِن تَركِ الصَّلاةِ، كحَديثِ حُذيفةَ في الَّذين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم (٣٣)، من حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا يَعرِفونَ عنِ الإسلامِ شَيئًا، فَسُئِلَ عنه حُذيفةُ فقالَ: إنَّ لا إِلَهَ إِلَّا الله تُنْجيهِم مِنَ النَّارِ(١)، فنَقولُ: هؤلاءِ مَعْذورونَ، ونَحنُ نَقولُ: لَو أنَّ رَجُلًا أسلَمَ ولم يَعرِفْ مِنَ الإسلامِ إلا شَهادةَ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، ثم ماتَ عَلى ذَلِك؛ كان ناجِيًا مِنَ النَّارِ.

الرابعُ: أنْ تَكونَ الأحاديثُ عامَّةً خُصِّصَت بالنُّصوصِ الدالَّةِ عَلى كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ، ومَعلومٌ أنَّ هَذا مَوجودٌ في كَثيرٍ مِن شَرائِعِ الإسلامِ، أنْ تَكونَ أحاديثُ عامَّةٌ وتَأتي أحاديثُ أُخْرى تُخَصِّصُها.

الخامِسُ: أنْ تَكونَ أحاديثَ ضَعيفةً لا تُقاوِمُ الأحاديثَ الصَّحيحةَ.

ومَن تأمَّلَ جَميعَ ما احتَجَّ به مَن لا يَرى كُفرَ تارِكِ الصَّلاةِ، وجَدَها لا تَخرُجُ عَن هَذِه الأقسامِ الخَمْسةِ، ومَن تَدبَّرَ ظَهَرَ لَهُ ذَلِك.

ثانِيًا: مِن أوجُهِ إضاعةِ الصَّلاةِ: أنْ يُنقِصَ ولا يَأْتي بالأرْكانِ فيها: يَعني: لا يَترُكُها، ولَكِنْ يُصَلِّيها على وَجهٍ ناقِصٍ، كالَّذي حَصَلَ للصَّحابيِّ الَّذي دَخَلَ المَسجِدَ وصَلى صَلاةً لا يَطمَئِنُّ فيها، -يَعني: يُسرِعُ- ثم جاءَ فسَلَّمَ عَلى النَّبيِّ ﷺ فَقالَ: «**عَلَيكَ السَّلامُ، ارجِعْ فصَلِّ؛ فَإنَّك لَمْ تُصَلِّ**» فرَجَعَ الرَّجُلُ فصَلَّى كالأولى، بِدونِ طُمَأنينةٍ، ثم جاءَ فسَلَّمَ على النَّبيِّ ﷺ فَقالَ: «**ارجِع فصَلِّ؛ فإنَّك لم تُصَلِّ**» وهَذِه المَرَّةُ الثانِيةُ، فرَجَعَ الرَّجُلُ فصَلَّى الثالِثةَ، ثم جاءَ فسَلَّمَ عَلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: «**ارجع فصَلِّ؛ فإنَّك لَمْ تُصَلِّ**» وحينَئِذٍ ظَهَرَ لِهَذا الرَّجُلِ شِدَّةُ افتِقارِه إلى العِلمِ فقالَ: والَّذي بَعَثَك

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب في ذهاب القرآن والعلم، رقم (٤٠٤٩)، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

بالحَقِّ لا أُحسِنُ غيرَ هَذا فعَلِّمني[١].

وقَد يَقولُ واحِدٌ مِنَ النَّاسِ: لِماذا لَمْ يُعَلِّمْه الرَّسولُ ﷺ مِن أوَّلِ الأمرِ؟

والجَوابُ: لِأنَّه إذا كَرَّرَ عَلَيه ثَلاثَ مَرَّاتٍ صارَ أشَدَّ شَوقًا إلى العِلْمِ، وحينَئذٍ يَتلَقَّى العِلمَ وهو يَرى نَفسَه قَدِ احتاجَ إلَيهِ؛ فيَقبَلُه ويَفهَمُه.

إذَنْ قالَ الرَّجُلُ: والَّذي بَعثَك بالحَقِّ لا أُحسِنُ غَيرَ هَذا فعَلِّمني فقالَ: «**إذا قُمتَ إلى الصَّلاةِ فأسبِغِ الوُضوءَ، ثم استَقبِلِ القِبلَةَ فكَبِّرْ، ثمَّ اقْرَأْ ما تَيسَّرَ مَعَك مِنَ القُرآنِ، ثم ارْكَع حتَّى تَطمَئِنَّ راكِعًا، ثم ارْفَع حتَّى تَطمَئِنَّ قائِمًا، ثم اسْجُدْ حتَّى تَطمَئِنَّ ساجِدًا، ثم ارْفَعْ حتَّى تَطمَئِنَّ جالِسًا، ثم افعَلْ ذَلِك في صَلاتِك كُلِّها**»[٢].

قَولُه: «**فاسْبغِ الوُضوءَ**» أي: إتمامُ الوُضوءِ، فالإسْباغُ بمَعنى: الإتمامِ، قالَ الله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لُقمان:٢٠] أسْبَغَ يَعني: أتَمَّ، والوُضوءُ هو غَسْلُ الوَجهِ واليَدينِ ومَسحُ الرَّأسِ وغَسْلُ الرِّجْلينِ، ولِكُلِّ واحِدٍ مِنها حُدودٌ، فغَسْلُ الوَجهِ: مِن أعْلاهُ إلى أسفَلِه، ومِنَ الأُذُنِ إلى الأُذُنِ، الأوَّلُ طولًا والثَّاني

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَرضًا، وغَسْلُ اليَدينِ: مِن أطرافِ الأصابعِ إلى المِرفَقَينِ، وأطرافُ الأصابعِ داخِلةٌ في وُجوبِ غَسلِ اليَدينِ، إلى المِرفَقينِ، والمِرفَقانِ: هما العَظمانِ اللَّذانِ في مَفصِلِ الذِّراعِ مِنَ العَضُدِ، وهما داخِلانِ في الغَسْلِ؛ لِما ثَبتَ في صَحيحِ مُسلِمٍ مِن حَديثِ أبي هُرَيرةَ أنَّه تَوضَّأ فغَسلَ يَدَيهِ حتَّى أشرَعَ في العَضُدِ، وقالَ: هَكَذا فَعلَ النَّبيُّ ﷺ[1]، وهنا أنَبِّه على مَسألَتَين مُهِمَّتين:

المَسألةُ الأولى: أنَّ بَعضَ النَّاسِ إذا غَسَلَ يَدَيهِ يَقتَصِرُ عَلى غَسلِ الذِّراعَينِ فَقَط، فيَجعَلُ يَدَه تَحتَ البُزْبوزِ، ثُمَّ يَغسِلُ الذِّراعَ ويَدَعُ الكَفَّ، وهَذا لا يَصِحُّ، فلا بُدَّ أنْ تَغسِلَ الذِّراعَ والكَفَّ؛ لِأنَّ اليَدَ هنا قُيِّدَت إلى المِرفَقَينِ، والكَفُّ مِنَ اليَدِ بلا شَكٍّ.

المَسألةُ الثانيةُ: أنَّ بَعضَ النَّاسِ في أيَّامِ الشِّتاءِ يَكونُ عَلَيه عِدَّةُ ثِيابٍ، فإذا جاءَ يَحسُرُ الكُمَّ لا يَحتاطُ في حَسرِ الكُمِّ، فتَجِدُه يَحسُرُه إلى المِرفَقِ، ثم عِندَ الغَسْلِ لا يَشمَلُ الغَسلُ المِرفَقَ.

وهَذا إِخلالٌ بواجِبِ الوُضوءِ في المَسألةِ الأولى وفي المَسألةِ الثانيةِ؛ ولِهَذا يَجِبُ التَّنَبُّه لِهَذا الأمرِ.

وفي حَديثِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأ وكانَ عَلَيه جُبةٌ شامِيَّةٌ، فأرادَ أنْ يُخرِجَ يَدَه مِنَ الكُمِّ فكانَ ضَيِّقًا؛ فأخْرَجَ يَدَه مِن الداخِلِ حتَّى أخرَجَها مِن أسفَلِ الجُبَّةِ وغَسلَها، وهَذا يَدُلُّ عَلى وُجوبِ الاحتِياطِ في غَسلِ الذِّراعِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

أمَّا الرَّأسُ: فيَمسَحُ جَميعَ مَنابِتِ الشَّعرِ، وكَيفِيَّةُ المَسحِ: أنْ يَمُرَّ بيَدَيه مِن مُقدَّمِ الرَّأسِ إلى مُؤخَّرِه، ثم يَردُّهما مَرَّةً أُخرى، وكَيفَما مَسحَ أجزَأَهُ، يَعني: لو مَسَحَ بيَدٍ واحِدةٍ وأدارَ المَسحَ على جَميعِ الرَّأسِ كَفى، لَكِنِ الأفضَلُ الصِّفةُ الأولى، ويَمسَحُ أذُنَيه فيُدخِلُ سَبَّابَتَيه في صِماخَيْ أذُنَيه، ويَمسَحُ بإبْهامَيه ظاهِرَ الأُذُنَينِ، ويَمسَحُهُما مَرَّةً واحِدةً في آنٍ واحِدٍ، لا يَبْدَأُ بالأُذُنِ اليُمْنى قَبلَ الأذُنِ اليُسْرى، بَل يَمسَحُهُما جَميعًا؛ لِأنَّهما عُضوٌ واحِدٌ تِبعًا للرَّأسِ.

ثم يَغسِلُ الرِّجلَينِ إلى الكَعْبينِ، والكَعبانِ: هما العَظمانِ الناتِئانِ في أسفَلِ السَّاقِ، وهُما داخِلانِ في الغُسلِ، كما جاءَ ذَلِك في حَديثِ أبي هُريرةَ الثَّابِتِ في صَحيحِ مُسلِمٍ، أنَّه غَسَلَ رِجلَيه حتَّى أشْرَعَ في الساقِ، وقالَ: هَكَذا رَأيتُ النَّبيَّ ﷺ يَفعَلُ.

والواجِبُ غَسلُ هَذِه الأعْضاءِ مَرَّةً واحِدةً، والثِنْتانِ أفضَلُ والثَّلاثُ أفْضَلُ، وإنْ خالَفَ فغَسَلَ مَرَّةً على مَرَّةٍ مَرَّةٍ، ومَرَّةً على مَرَّتينِ مَرَّتينِ، ومَرَّةً على ثَلاثٍ ثَلاثٍ، فإنَّ هَذا أفضَلُ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ فَعَلَ ذلك، والقاعِدةُ في العِباداتِ الوارِدةِ عَلى وجوهٍ مُتنَوِّعةٍ: أنَّ السُّنَّةَ فِعْلُها عَلى هَذِه الوُجوهِ دونَ الاقتِصارِ على وَجهٍ واحِدٍ؛ لأنَّك إذا فَعَلتَها عَلى الوجوهِ الَّتي ورَدَت استَفَدتَ ثَلاثَ فَوائِدَ:

الأولى: حِفظُ السُّنَّةِ؛ لِأنَّ السُّنَّةَ إذا لم يُعمَلْ بها ضاعَت.

والثاني: تَمامُ المُوافَقةِ؛ لِأنَّك إذا عَمِلتَ بكُلِّ ما وَردَ عنِ النَّبيِّ ﷺ كانَ هَذا أتَمَّ مُوافَقةٍ مما لَوِ اقتَصَرتَ على صِفةٍ واحِدةٍ.

الفائِدةُ الثالِثةُ: حُضورُ القَلبِ، وذَلِكَ أنَّ الإنسانَ إذا التَزمَ بوَجهٍ واحِدٍ صارَ يَعْمَلُه -كما يَقولون- عادةً وأوتوماتيكِيًّا، لَكِنْ إذا كانَ يُريدُ أنْ يُنوِّعَ ويَأْتي بِالوجوهِ

الَّتي ورَدَت بِها السُّنَّةُ استَحضَرَ هَذا المَعنى فكانَ أحضَرَ لقَلبِه.

وأضرِبُ مَثَلًا في دُعاءِ الاستِفتاحِ الَّذي يَقولُه الإنسانُ إذا كَبَّرَ للصَّلاةِ، فالمَعروفُ عِندَ عامَّةِ النَّاسِ هو: «**سُبْحانَك اللَّهُمَّ وبِحَمْدِك وتَبارَك اسْمُك وتعالى جَدُّك ولا إلَه غيرُك**»[1] حتَّى إنَّ الإنسانَ يَقرأُهُ ولا يَدري أنَّه قَرَأهُ إلَّا إذا كَمَّلَه؛ لِأنَّه عَلى العادةِ، لَكِنْ هناك صِفةٌ أُخرى للاسْتِفتاحِ وهِيَ: «**اللَّهُمَّ باعِدْ بَيني وبَينَ خطايايَ كما باعَدتَ بينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّني مِن خَطايايَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغسِلْني مِن خَطايايَ بِالماءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ**»[2] وهَذا أصَحُّ مِنَ الأوَّلِ، وإنْ كانَ الأوَّلُ سُنَّةً، لكنْ هذا أصَحُّ؛ لِأنَّه ثابِتٌ في الصَّحيحَينِ، قالَ أبو هُرَيرةَ للنَّبيِّ ﷺ: يا رَسولَ الله، أرأيتَ سُكوتَك بين التَّكبيرِ والقِراءةِ ما تَقولُ؟ قالَ: «**أقولُ اللَّهُمَّ باعِدْ بَيني وبَيْنَ خطايايَ كما باعَدْتَ بَيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّني مِن خَطايايَ كما يُنَقَّى الثَّوبُ الأبيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغسِلْنِي مِن خَطايايَ بِالماءِ والثَّلجِ والبَرَدِ**».

إذن، الأفضَلُ أنْ نَقولَ هذا مَرَّةً، وهذا مَرَّةً، وأنْ لا نَقتَصِرَ على شَيءٍ واحِدٍ؛ لنَحْصُلَ عَلى الفَوائِدِ الثَّلاثِ الَّتي ذَكَرْناها.

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، رقم (٧٧٦)، والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، رقم (٢٤٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب افتتاح الصلاة، رقم (٨٠٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذن نَقولُ: إسْباغُ الوُضوءِ يَعْني: إتْمامُه عَلى حَسْبِ ما جاءَت بِهِ السُّنَّةُ.

فإنْ قالَ قائِلٌ: ما رَأْيُكم بمَنْ يَزيدُ عَلى الثَّلاثِ في الوُضوءِ؟

الجَوابُ: الزِّيادةُ عَلى الثَّلاثِ إمَّا مَكروهةٌ وإمَّا مُحَرَّمةٌ؛ لِأنَّ النَّبيَّ ﷺ توضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً، ومَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، وثَلاثًا ثَلاثًا وقالَ: «**مَنْ زادَ عَلى ذَلِكَ فَقَد أساءَ وتَعَدَّى وظَلَمَ**»[1] ثَلاثةُ أوْصافٍ: أساءَ، الثَّاني: تَعَدَّى، الثَّالِثُ: ظَلَمَ، وهَذا إنْ لَمْ يَقتَضِي التَّحْريمَ فَأدْنى أحْوالِه الكَراهةُ.

وإذا عَرَفنا ذَلِك أمْكَنَنا أنْ نَبْرَأَ مِنْ داءٍ يُصيبُ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ، ألا وهُوَ داءُ الوَسوَسةِ، فإنَّ بَعضَ النَّاسِ يُصابُ بِهَذا الأمْرِ -بالوَسوَسةِ- فتَجِدُه يَغسِلُ العُضوَ مَرَّتَينِ وثَلاثًا وأربَعًا وخَمسًا ويَقولُ: لَمْ أغسِلْهُ، وهَذا مَرَضٌ.

وقَد حَدَّثَني بَعضُ النَّاسِ أنَّ مِنْ هؤلاءِ المُوسَوَسينَ مَن إذا دَخلَ لِيَتوَضَّأَ يَبْقى ثَلاثَ ساعاتٍ، انْظُر كَيفَ يَلْعَبُ الشَّيطانُ عَلى بَني آدَمَ -نَسأَلُ الله لَنا ولَهُم السَّلامةَ- إذا بَقيَ ثَلاثَ ساعاتٍ في الوُضوءِ لَزِمَ مِن ذَلِك خُروجُ وَقْتِ الصَّلاةِ، فيُصَلِّي بَعدَ الوَقتِ، ودَواءُ هَذا أنْ تَستَحضِرَ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ تَزيدَ عَن ثَلاثِ مَراتٍ، فمَتى قُمْتَ بالثَّلاثِ مَراتٍ انتَهى، وانتَقِل إلى العُضوِ الثَّاني، ثم الثَّالِثِ، ثم الرَّابِعِ، ثم انصَرِفْ، وسَيَقولُ لك الشَّيطانُ: إنَّك لم تُتِمَّ الوُضوءَ، فقُلْ لَه: كَذَبتَ، قَد أتمَمتُهُ، وصَلِّ وأنتَ تَرى أنَّك لَمْ تُتِمَّ الوُضوءَ ولا حَرَجَ عَلَيكَ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٨٠)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا، رقم (١٣٥)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء، رقم (١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه، رقم (٤٢٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والوَسواسُ أيُّها الإخْوةُ، داءٌ فتَّاكٌ، مُفسِدٌ للفِكرِ، بَل رُبَّما يَصِلُ إلى فَسادِ العَقلِ، فإذا ابتُليت بِهِ فاسْأَلِ الله السَّلامةَ، وتَعوَّذْ مِنَ الشَّيطانِ، واقتَصِرْ عَلى ما جاءَت بِهِ السُّنَّةُ، ولا يُهِمُّك، فَلَو قالَ الشَّيطانُ: أنتَ صَلَّيتَ بِلا وُضوءٍ. قُل: نَعَم، لا يُهِمُّ، حتَّى تَسلَمَ مِن هَذا الدَّاءِ، داءِ الوَسوَسةِ.

ذُكِرَ في تَرجَمةِ أحَدِ العُلَماءِ، وهُوَ عَليُّ بنُ عَقيلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، في زمانٍ سابِقٍ، في القَرنِ الثَّالِثِ أو الرَّابعِ، أي: أنَّه مِنَ المُتَقَدِّمينَ، فَجاءَه رَجُلٌ وقالَ: إني أَنْغَمِسُ في نَهرِ دِجلةَ -والنَّهرُ مَعْروفٌ، فَهُوَ ماءٌ يَجْري، واسِعٌ عَظيمٌ تَجري فيهِ السُّفُنُ- مِنَ الجَنابةِ ثم أَخرُجُ وأقولُ في نَفسي: إنَّ الجَنابةَ لَمْ تَرتَفِعْ، فقالَ له الشَّيخُ: أرى أنْ لا تُصَلِّيَ، قالَ: كَيفَ لا أُصَلِّي؟ قالَ: نَعم؛ لِأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**رُفِعَ القَلَمُ عَن ثَلاثةٍ: عنِ النائِمِ حتَّى يَسْتَيقِظَ، وعَنِ الصَّغيرِ حتَّى يَبلُغَ، وعَنِ المَجنونِ حتَّى يُفيقَ**»[1] وأنْتَ إذا كُنتَ تَنغَمِسُ في نَهرِ دِجلةَ وتَخرُجُ وتَقولُ: لم تَرتَفِعِ الجَنابةُ مِنَ القِسمِ الثالِثِ -يَعني: مَجنونٌ- وصَدَقَ، فإنْسانٌ يَبلَغُ بِهِ الحَدُّ إلى هَذا لا شَكَّ أنَّه مُلحَقٌ بالمَجانينَ.

وبِالمُناسَبةِ، أوَدُّ أنْ أُشيرَ إلى أمرٍ آخَرَ يُبتَلى به كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، ويَقَعُ عَنهُ السُّؤالُ كَثيرًا، وهُوَ أنَّ بَعضَ النَّاسِ يُبتَلى بالوَسواسِ في طَلاقِ امرأتِهِ، فيَأتيهِ الشَّيطانُ ويَقولُ: إنَّكَ طَلَّقتَ امرأتَك، حتَّى يُريَه أنَّه إذا فَتحَ المُصحَفَ وقَرأَ أوَّلَ سَطرٍ مِنَ الصَّفحةِ يُريه أنَّه قالَ: امْرأتي طالِقٌ وهُوَ لم يَقُلْها، ويُريه أنَّه إذا أرادَ أنْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا، رقم (٤٣٩٨)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، رقم (٣٤٣٢)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، رقم (٢٠٤١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يَخْرُجَ قالَ: إنْ خَرَجتُ فامْرَأتي طالِقٌ، وعَجائِبُ وعَجائِبُ تَرِدُ عَلَينا مِن بَعضِ الَّذينَ ابتُلوا بِهَذا.

ونَحْنُ نَقولُ: إنَّ طَلاقَ المُوَسوَسِ لا يَقعُ حتَّى يَستَريحَ، بِمَعنى أنَّ الإنسانَ إذا أُصيبَ بالوَسوَسةِ في الطَّلاقِ وقالَ: امرَأتي فُلانةٌ بِنتُ فُلانٍ طالِقٌ فإنَّها لا تَطلُقُ، فإنْ قيلَ: كيفَ لا تَطْلُقُ وهُوَ تَكَلَّمَ بِالطَّلاقِ؟ نَقولُ: نَعَم، لا تَطْلُقُ ولو تَكَلَّمَ بالطَّلاقِ؛ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**لا طَلاقَ في إغْلاقٍ**»[1] وهَذا الطَّلاقُ الَّذي وَقَعَ مِن هَذا المُوسوَسِ طَلاقٌ في إغْلاقٍ بلا شَكٍّ.

حتَّى إنَّ بعَضَهُم يَقولُ: دَعْني أسْتَريحُ مِن هَذه الوَسوَسةِ وأُطَلِّقُ، امْرَأتي طالِقٌ، فهَذا كالمُكرَه عَلى الطَّلاقِ، ونَظيرُ ذَلِك مِن بَعضِ الوُجوهِ مَن يَشُكُّ: هَل أحْدَثَ أو لا؟ فيَكونُ الرَّجُلُ مُتَوَضِّأً ثم يَشُكُّ هَل أحدَثَ أو لا؟ فيَذْهَبُ يَفْسو مِن أجلِ أنْ يُحقِّقَ الحَدثَ.

ولَكِنْ هُناكَ عِلاجٌ خَيرٌ مِن هَذا، وهُوَ ما وَصَفَه لَنا رَسولُ الله ﷺ وَصْفًا نَسْتَريحُ بِهِ قالَ: «**لا يَنصَرِفُ حتَّى يَسْمَعَ صَوتًا أو يَجِدَ ريحًا**»[2] هَذِه الراحةُ، يَعني: لا يَنصَرِفُ حتَّى يَتيقَّنَ، فإذا عَمِلْنا بِهَذا الحَديثِ اسْتَرَحْنا.

ونَنتَقِلُ في مِثلِ هَذِه المَسائِلِ، فمِنَ النَّاسِ الآنَ -وأعْني بِذَلِك المُوَسْوَسين،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطلاق، باب في الطلاق على غلط، رقم (٢١٩٣)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكلاه والناسي، رقم (٢٠٤٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتَّى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب ل على أن من تيقن الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦١)، من حديث تميم بن غزية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَسأَلُ الله أنْ يُعافِيَهم ويَحمِيَنا مما ابتَلاهُم بِه- مَن إذا أصابَه الماءُ في الشَّارِعِ، قالَ: هَذا ماءٌ نَجِسٌ، أذْهَبُ فأغسِلُ النَّعلَينِ، ثم قالَ: لَعَلِّي حين ما وَطِئتُه تَطايَرَ منه رَشاشٌ فأَصابَ السِروالَ؛ فأغسِلُ السِّروالَ، ثم قالَ: لعَلَّ السِّروالَ وهو رَطبٌ أصابَ القَميصَ؛ فيَغسِلُ القَميصَ، ثم يَقولُ: ولا أدْري هَل يَطيرُ الماءُ بَعدَ ذَلِكَ إلى الغُترةِ والمِشْلَحِ أو لا؟!

لَكِنْ كُلُّ هَذا مِنَ الوَساوِسِ، فإذا أصابَكَ ماءٌ في الشارعِ فهو طاهِرٌ ولا حاجةَ أنْ تَسألَ عَنهُ، فَقَد مرَّ عُمَرُ بنُ الخَطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ هو وصاحِبٌ له على حَوضٍ فيه ماءٌ، فأَصابَ صاحِبَه مِنَ الماءِ، أو أصابَ الاثنَينِ أو أنَّه مِيزابٌ خَرَّ عَلَيهِما: فقالَ صاحِبُ عُمرَ: يا صاحِبَ الحَوضِ، أخْبِرنا هَلْ هو نَجِسٌ أو لا؟ فقالَ عُمرُ: يا صاحِبَ الحَوضِ، لا تُخبِرْنا، انْظُر لِلفِقهِ؛ لأنَّنا لو فَتَحنا عَلى أنفُسِنا هذا البابِ بَقينا في قَلقٍ وتَعَبٍ.

فإذا شَكَكتَ فيما أصابَك مِنَ الماءِ في السُّوقِ أو في أيِّ مَكانٍ فالأصلُ الطَّهارةُ، ولا تَلتَفِت، ولا تَغسِل.

حتَّى إنَّ بَعضَ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقولُ: إذا سَأَلَكَ السائِلُ عن هذا الماءِ ولو كُنتَ تَعلَمُ نَجاسَتَه فَلا تُخبِرْه؛ لأنَّ عُمرَ قالَ للرَّجُلِ: لا تُخبِرْنا وأطلَقَ، ولم يَقُلْ: لا تُخبِرنا إلَّا أنْ يَكونَ نَجِسًا، وكُلُّ هَذا مِن بابِ سَدِّ الوَساوِسِ مِنْ أجلِ أنْ يَكونَ الإنسانُ في راحةٍ ويُبعِدُ عنه القَلَقَ.

وأقولُ لَكُم: إنَّ الدِّينَ الإسلامِيَّ يُريدُ مِن أبناءِ الدِّينِ الإسلامِيِّ أنْ يَكونوا دائِمًا في سُرورٍ وانبِساطٍ؛ لِأنَّ الأَحْزانَ والوَساوِسَ إذا استَولَتْ عَلى الإنسانِ أفسَدَتْ

عَلَيهِ أُمورَ دينِهِ ودُنياهُ، وكُلُّ شَيءٍ يوجِبُ القَلَقَ والاضْطِرابَ فإنَّ الشَّرعَ يَأتي بمُحارَبَتِه وإزالَتِه.

نَرجِعُ الآنَ إلى قَولِ الرَّسولِ ﷺ للرَّجُلِ الَّذي أساءَ في صَلاتِه: «**إذا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ فأسْبغِ الوُضوءَ**»(١) لَمْ يَذكُرِ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ شَيئًا آخَرَ لا بُدَّ مِنهُ، وهُوَ الاغتِسالُ مِنَ الجَنابةِ، فإنْ قالَ قائِلٌ: فلِماذا لم يَذكُرْهُ؟

الجَوابُ: يَحتَمِلُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَذكُرْه؛ لأنَّ هَذا بِالنِّسبةِ للحَدَثِ الأصْغَرِ نادِرٌ قَليلٌ، فَلَم يَذكُرْهُ، أو يُقالُ: إنَّه إذا أُمِرَ بِإسْباغِ الوُضوءِ وهُوَ طَهارةٌ مِنَ الحَدَثِ الأصْغَرِ، فالغُسلُ مِن بابِ أولى؛ ولِهَذا قالَ الله تعالى في آيةِ الوُضوءِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة:٦] فلا بُدَّ إذًا مِنَ الطَهارةِ مِنَ الحَدَثِ الأصْغَرِ ومِنَ الحَدَثِ الأكْبَرِ.

قالَ: «**ثم استَقبِلِ القِبلَةَ**» وانتَبِهوا أيُّها الإخْوةُ وأنْتُم في المَسجِدِ الحَرامِ لِقَولِه: «**استَقبِلِ القِبلَةَ**» يَعْني: اجعَلْها قُبالَةَ وجْهِكَ، لا عَلى يَمينِك ولا عَن يَسارِكَ ولا خَلْفَ ظَهرِك، «**استَقبِلِ القِبلَةَ**» واستِقبالُ القِبلةِ إذا كانَ الإنْسانُ بَعيدًا عَنِ الكَعبةِ لا تُمكِنُه مُشاهَدَتَها فاستِقبالُ القِبلةِ يَتِمُّ باستِقبالِ الجِهةِ -جِهةِ القِبلةِ- وذَلِك لأنَّ إصابةَ العَينِ في مَكانٍ لا يُمكِنُك مُشاهَدةُ العَينِ فيهِ مُتَعَذِّرةٌ أو مُتعَسِّرةٌ، والله عَزَّوَجَلَّ يَقولُ في كِتابِه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] ويَقولُ عَزَّوَجَلَّ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

فإذا قدَّرنا أنَّ شخصًا في المَدينةِ وأرادَ أنْ يُصلِّيَ، فلا نَقولُ: يَلزَمُكَ أنْ تَستقبِلَ عَينَ الكَعبةِ؛ لِأنَّه لا يُشاهِدُ عَينَ الكَعبةِ، ولا يُمكِنُ أنْ نُلزِمَه بأنْ يُشاهِدَ عَينَ الكَعبةِ، وقد قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ما بَيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ قِبلةٌ**»(١) وهُو يُخاطِبُ أهلَ المَدينةِ؛ لِأنَّ قِبلةَ أهلِ المَدينةِ في الجَنوبِ، والجَنوبُ ما بَينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، ونَظيرُ هَذا قَولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تَسْتَقبِلوا القِبلةَ بغائِضٍ ولا ببَولٍ ولا تَستَدبِروها، ولَكِنْ شَرِّقوا أو غَرِّبوا**»(٢).

إذًا، ما بَيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ قِبلةٌ؛ لِيَتبَيَّنَ لَنا بِهِ أنَّ الواجِبَ على مَن لا يُمكِنُه مُشاهَدةَ عينِ الكَعبةِ استِقْبالُ الجِهةِ، وهَذا مِن تَوسيعِ الله عَلى عِبادِه.

أمَّا مَن يُمكِنُه مُشاهَدةُ الكَعبةِ كالَّذي في المَسجِدِ الحَرامِ، فالواجِبُ عَلَيه استِقبالُ عَينِ الكَعبةِ، وهَذِه مَسألةٌ خَطيرةٌ بالنِّسبةِ لِما نُشاهِدُه مِن كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ الَّذينَ يُصَلونَ هنا في الطابِقِ الثَّاني، أو في الأسفَلِ تَجِدُهم يَصْطَفونَ صَفًّا مُستَقيمًا غَيرَ مُقوَّسٍ، ونَحنُ نَعلَمُ أنَّهم إذا صَفُّوا صَفًّا مُستَقيمًا غَيرَ مُقوَّسٍ أنَّ هَذا الصَّفَ لَمْ يَكُنْ يَستَقبِلُ عَينَ الكَعبةِ بجَميعِ أفرادِه، قَد يَكونُ الَّذي يُصيبُ عَينَ الكَعبةِ

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن بين المشرق والمغرب قبله، رقم (٣٤٢)، والنسائي: كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة، في فضل الصائم، رقم (٢٢٤٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب القبلة، رقم (١٠١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قبلة أهل المدينة وأهل الشأم والمشرق، رقم (٣٩٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الطَّرفُ الأيمَنُ أو الطَّرفُ الأيسَرُ أو الوَسَطُ، أما الجَميعُ فلا.

إذن، لا بُدَّ مِن مُراعاةِ هذا، والقائِمونَ على المَسجِدِ الحَرامِ والحَمدُ لله وضَعوا الآنَ عَلاماتٍ تُقَرِّبُ هَذا، وأظُنُّكم شاهَدتُموها، فهي خُطوطٌ محَفورةٌ ومملوءةٌ باللَّونِ، وكَذَلِك أيضًا الفُرُشُ بَعضُها مُوَجَّهٌ إلى عَينِ الكَعبةِ، فالمُهِمُّ أنَّه لا بُدَّ لِمَن يُمكِنُه مُشاهَدةُ الكَعبةِ أنْ يُشاهِدَ عَينَ الكَعبةِ، فاستِقبالُ القِبلةِ إذًا شَرطٌ مِن شُروطِ الصَّلاةِ، وهل يَسقُطُ استِقبالُ القِبلةِ عن أحَدٍ مِنَ الناسِ؟

الجَوابُ: نَعَم، يَسقُطُ في حالاتٍ:

أوَّلًا: عِندَ العَجزِ عَنهُ، فإذا عَجزَ الإنْسانُ عَنِ استِقبالِ القِبلةِ سَقَطَ عَنهُ، مِثلُ أنْ يَكونَ الإنْسانُ مَريضًا عَلى سَريرٍ لا يَستَطيعُ الاتِّجاهَ إلى القِبلةِ، فنَقولُ له: صَلِّ حيثُ قَدرتَ.

ثانِيًا: إذا كانَ الإنْسانُ خائِفًا هارِبًا مِن عَدُوهِ ووَجهُه على خِلافِ القِبلةِ، فلا نُلزِمُهُ أنْ يَقِفُ ليَستَقبِلَ القِبلةَ فيَأخُذُه العَدوُّ، فيُصَلِّي حيثُ كانَ وَجهُه.

ثالِثًا: النافِلةُ فَقَط في السَّفرِ، فإذا سافَرَ الإنْسانُ وأرادَ أنْ يُصلِّيَ عَلى راحِلَتِه أو في سَيارَتِه أو في الطائِرةِ، فإنَّه يُصَلِّي حيثُ كانَ وَجهُهُ، وهَذا في النافِلةِ فَقَط، فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كانَ لا يُصَلِّي الفرائِضَ على راحِلَتِه، بَل يَنزِلُ ويَستَقبِلُ القِبلةَ ويُصَلِّي عَلى ما كانَ يُصَلِّي عَلَيهِ، لَكِنْ النافِلةُ يَجوزُ أنْ يُصَلِّيَها الإنسانُ على السَّيارةِ أو عَلى الطائِرةِ أو عَلى الحِمارِ أو عَلى البَعيرِ حيثُ كانَ وجهُه كما ثَبتَ ذَلِكَ عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

إذن، يَسقُطُ الاستِقبالُ في ثَلاثِ مَواضِعَ: في العَجزِ والخَوفِ والنافِلةِ في السَّفرِ، وكُلُّ هَذا جاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، ومِنهُ ما جاءَ في القُرآنِ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وكَبِّر**» أو «**فكَبِّر**» يعني: قُل: «الله أكبَرُ» وتُسَمَّى هذه التَّكبيرةُ: تَكبيرةَ الإحْرامِ؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا كَبَّرَها دَخلَ في إحْرامِ الصَّلاةِ، كَما إذا لَبَّى الإنْسانُ في الميقاتِ دَخلَ في الإحْرامِ، فيُكَبِّرُ ويَقولُ: «الله أكبَرُ» ولو قالَ: «آلله أكبَرُ» بمَدِّ الهَمزةِ لم يَصِحَّ التَّكبيرُ؛ لأنَّه إذا قالَ: «آلله» صارَت الجُملةُ استِفهامِيَّةً، ونَظيرُ أنْ تَكونَ الجُملةُ استِفهامِيَّةً بهذه الصِّيغةِ قَولُه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النَّمل:٥٩].

ولو قالَ : «الله أكْبارُ» لا يَصِحُّ؛ لأنَّه زادَها ألِفًا، وإذا زادَها ألِفًا انقَلَبَ المَعنى، ومَعنى أكبارِ: طُبولٌ، فكَلِمةُ أكْبارٍ جَمعُ: كَبَر، والكَبَر: الطَّبْلُ، ونَظيرُ ذلك في الصِّيغةِ أسبابٌ جَمعُ سَبَب، فأكبارُ جَمعُ: كَبَر، فَلَو قالَ: «الله أكبارُ» قُلنا: هَذِه التَّحريمةُ لم تَصِحَّ، والصَّلاةُ لم تَنعَقِدْ، أعِدِ الصَّلاةَ، ولا بُدَّ مِن إعادةِ الصَّلاةِ.

وهَذا مَوجودٌ في الأئِمَّةِ، فيوجَدُ في الأئِمَّةِ مَن يَقولُ: «الله أكبارُ» لا سِيَّما إذا قامَ مِنَ السُّجودِ إلى الوُقوفِ، فتَجِدُ لِطولِ الفَصلِ يَمدُّ الباءَ فيَقولُ: «الله أكبارُ».

قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثم أقرَأْ ما تيَسَّرَ مَعَك مِنَ القُرآنِ**» ولَم يُعَيِّن، فَهَل يَكْفي أنْ يَقرأَ الإنْسانُ أيَّ شَيءٍ مِنَ القُرآنِ؟ أو لا بُدَّ مِن سورةٍ مُعَيَّنةٍ؟

نَقولُ: دَلَّتِ السُّنَّةُ في نُصوصٍ أُخرى عَلى أنَّ الواجِبَ قِراءةُ الفاتِحةِ -فاتِحةِ الكِتابِ-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخِرِها؛ لقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**لا صَلاةَ**

لِمَن لَمْ يَقرَأْ بفاتِحةِ الكِتابِ»(١) وقالَ: «كُلُّ صَلاةٍ لا يُقرَأُ فيها بِفاتِحَةِ الكِتابِ -أو قالَ: بِأُمِّ القُرآنِ- فَهِيَ خِداجٌ»(٢) وعَلى هَذا فيتَعَيَّنُ أنْ يَكونَ المَقروءُ سورةَ الفاتِحَةِ؛ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «لا صَلاةَ لَمنْ لَمْ يَقرَأْ بفاتِحةِ الكِتابِ» فالفَرضُ هُوَ قِراءةُ الفاتِحَةِ، وما زادَ عَلَيها فهُوَ سُنَّةٌ في الرَّكعَتَينِ الأولَيَينِ.

قالَ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «ثم ارْكَعْ حتَّى تَطمَئِنَّ راكِعًا» يَعني: بَعدَ أنْ تَقرَأَ ما تَيسَّرَ، والرُّكوعُ هُوَ أنْ يَحْني الإنسانُ ظَهْرَه بحَيثُ يَكونُ إلى الرُّكوعِ التَّامِّ أقرَبُ مِنهُ إلى القِيامِ التَّامِّ، وبَعضُ العُلَماءِ يَقولُ: الرُّكوعُ أنْ يَحْنيَ ظَهرَه بِحَيثُ يَستَطيعُ مَسَّ رُكبتَيهِ، لَكِنْ يَرِدُ عَلى هَذا إشْكالٌ: أنَّ بَعضَ النَّاسِ يَكونُ طَويلَ اليَدَينِ فيُمكِنُه مَسُّ رُكبَتَيهِ والانحِناءُ قَليلٌ، ومِنَ النَّاسِ مَن يَكونُ قَصيرَ اليَدينِ، فلا يُمكِنُه مَسُّ رُكبَتَيه إلَّا بالانْحِناءِ الكَثيرِ، ولَكِنْ احتَرَزَ العُلَماءُ رحمهم الله مِن هَذا الإشْكالِ، وقالوا: إنَّ المُعتبَرَ الوَسَطُ، يَعني: الَّذي يَداهُ لَيسَتا بطَويلتَينِ ولا بِقَصيرَتَينِ.

قالَ النَّبيُّ ﷺ: «ثم ارفَعْ حتَّى تَعتَدِلَ قائِمًا» وفي رِوايةٍ: «حتَّى تَطمَئِنَّ قائِمًا» وهَذا القِيامُ هُوَ الَّذي بَعدَ الرُّكوعِ، وهُوَ رُكنٌ، وقالَ: «ثم اسْجُدْ حتَّى تَطمَئِنَّ ساجِدًا» والسُّجودُ هُوَ أنْ يَخِرَّ الإنْسانُ عَلى الأرْضِ، وقد بَيَّنَ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ الأعْضاءَ الَّتي يَجِبُ السُّجودُ عَلَيها سَبعةٌ: الجَبهةُ والأنفُ تابعٌ لها؛ لِأنَّ النَّبيَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ﷺ قالَ: «**الجَبهةُ**» وأشارَ بيدِه إلى أنفِهِ[١]، واليَدان -يعني: الكفَّان-، والرُّكبتَان، وأطرافُ القَدَمين، هَذِه سَبعةٌ لا بُدَّ أنْ يَكونَ السُّجودُ عَلَيها، ولَكِنْ لو فُرِضَ أنَّ الإنْسانَ لا يَستَطيعُ أنْ يَسجُدَ عَلى جَبْهَتِه؛ لِأنَّ فيها جُروحًا مَثلًا، أو لأنَّه قيلَ لَهُ: لا تَخفِضْ رَأسَكَ كَثيرًا فماذا يَصنَعُ؟

هَل يَسجُدُ ببَقيَّةِ الأعْضاءِ، أو نَقولُ: إنَّ الأصْلَ الجَبهةُ، فإذا عَجزَ عَنِ السُّجودِ عَلَيها سَقَطَ عَنهُ السُّجودُ عَلى الباقي؟

الجَوابُ عَلى هَذا أنْ نَقولَ: إنَّ لَدَينا ميزانًا في كِتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِ الله ﷺ، فالميزانُ الَّذي في كِتابِ الله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابُن:١٦]، وفي سُنَّةِ رَسولِ الله ﷺ: «**إذا أمَرْتُكُم بِأمْرٍ فأْتوا مِنهُ ما استَطَعتُمْ**»[٢].

فهَل يَسقُطُ السُّجودُ عَلى بَقِيَّةِ الأعْضاءِ أو نَقولُ: اسْجُدْ عَلى ما بَقِيَ مِنَ الأعْضاءِ؟

فالصَّحيحُ أنْ نَقولَ: اسْجُدْ عَلى ما بَقِيَ مِنَ الأعْضاءِ بِشَرطِ أنْ تَكونَ الهَيئةُ كهَيئةِ السَّاجِدِ، يَعني: بِشَرطِ أنْ يَتمَكَّنَ مِن تَقريبِ الجَبهةِ إلى الأرْضِ تَقريبًا تامًّا، أمَّا لَو فُرِضَ أنَّ الرَّجُلَ في ظَهرِهِ أَلَمٌ لا يَستَطيعُ أنْ يَحْنيَ الظَّهرَ للسُّجودِ فحينَئِذٍ نَقولُ: يَسْقُطُ عَنكَ السُّجودُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، رقم (٨١٢)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة، رقم (٤٩٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)؛ ومسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَعني: مَثلًا: الإنْسانُ على جَبْهَتِه جُروحٌ، فيُمكِنُه أنْ يَسجُدَ إلى أنْ يَقرُبَ مِنَ الأرضِ، فنَقولُ: اسجُدْ على الرُّكبَتَينِ واليَدَينِ وأطرافِ القَدَمينِ، وإنسانٌ آخَرُ في ظَهْرِه أَلَمٌ لا يَستَطيعُ أنْ يَحنيَ الظَّهرَ، فهل نَقولُ: ضَعْ كَفَّيكَ وأنتَ جالِسٌ أو لا؟

الجَوابُ: نَقولُ: لا، حينَئذٍ يَسقُطُ السُّجودُ وعَلَيكَ أنْ تومِئَ إيماءً؛ وذَلِكَ لِأنَّ السُّجودَ هُنا لا يُمكِنُ، فَلا بُدَّ أنْ يَكونَ هُناكَ هَيئَةٌ تَدُلُّ على أنَّ هَذا الرَّجُلَ ساجِدٌ.

قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**ثم افْعَلْ ذَلِكَ في صَلاتِك كُلِّها**» إذًا، نُصَلِّي الرَّكعةَ الثَّانِيةَ كالأولى وكَذَلِكَ الثَّالِثةُ والرابِعةُ، لَكِنْ هناكَ اختِلافٌ يَسيرٌ بيَّنَتْه السُّنَّةُ.

وقد يُقالُ في قَولِه: «**افْعَلْ ذَلِك في صَلاتِك كُلِّها**» الإشارةُ إلى الطُّمَأنينةِ، والطُّمأنينةُ لا تَختَلِفُ فيها الرَّكعاتُ.

ومِنْ إقامةِ الصَّلاةِ: سَتْرُ العَورةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ**﴾ [الأعراف:٣١] والزِّينةُ: هي اللِّباسُ، ولِقَولِ النَّبيِّ ﷺ لجابِرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وقَدْ سَأَلَه عنِ الثَّوبِ-: «**إنْ كانَ واسِعًا فالتَحِفْ به، وإنْ كانَ ضَيِّقًا فاتَزِرْ بِهِ**»[١] وعَلى هَذا فلا بُدَّ مِنْ سَترِ العَورةِ، وسَتْرُها يَكونُ بثَوبٍ ثَقيلٍ لا يَصِفُ البَشَرةَ، يَعني: لَيسَ خَفيفًا يَصِفُ البَشَرةَ، أي: يُبَيِّنُ لَونَ البَشَرةِ وهِيَ الجِلدُ، فَلَو أنَّ أحَدًا صَلَّى بثَوبٍ خَفيفٍ وتَحْتَه سِروالٌ قَصيرُ الأكمامِ فصَلاتُه غَيرُ صَحيحةٍ؛ لِأنَّه لا بُدَّ أنْ يَكونَ الثَّوبُ ساتِرًا لا يُرى مِن ورائِه لَونُ البَشَرةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا كان الثوب ضيقا، رقم (٣٦١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم (٣٠١٠)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهَذِه مَسألةٌ يُخطِئُ فيها بَعضُ النَّاسِ في أيَّامِ الصَّيفِ، فتكونُ عَلَيهم الثِّيابُ الخَفيفةُ، وتَحتَها سَراويلُ قَصيرةٌ يَخرُجُ منها أكثَرُ الفَخِذِ، فهَؤلاءِ نَقولُ لَهُم: إنَّ صَلاتَكم غَيرُ صَحيحةٍ؛ لِأنَّكم عَصَيتُم الله في قَولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١] واللِّباسُ الخَفيفُ لَيْسَ زينةً في الواقِعِ؛ ولِأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**وإنْ كانَ ضَيِّقًا فاتَّزِرْ بِهِ**» والإزارُ مَعْروفٌ أنَّه يَسْتُرُ مِنَ السُّرَّةِ إلى أسفَلِ السَّاقِ، فلا بُدَّ إذًا مِنْ مُلاحَظةِ هَذا.

نَنْتَقِلُ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الحج:٤١] ومَعنى: آتوا الزَّكاةَ: يَعني: أعْطوا الصَّدَقةَ الواجِبةَ في أمْوالِهِم لمُستَحِقِّيها، وسَماها الله تعالى صَدَقةً في قَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠] وسُمِّيَتْ كَذَلِك صَدقةٌ؛ لِأنَّها تَدُلُّ عَلى صِدقِ صاحِبِها، فإنَّ المُزكِّي يَبذِلُ المالَ، والمالُ مَحبوبٌ إلى النَّفسِ والمَحبوبُ لا يُعْطى إلَّا رَجاءً لِما هُوَ أحَبُّ مِنهُ، وهَذا الَّذي تَصدَّقَ لا شَكَّ أنَّه مُؤمِنٌ بوَعدِ الله وإخْلافِ الله عَلَيهِ، وحينَئِذٍ نَقولُ: سُمِّيَتِ الزَّكاةُ صَدَقةٌ؛ لِأنَّها دَليلٌ عَلى صِدْقِ صاحِبِها.

وسُمِّيَت زَكاةً؛ لِأنَّها تُزَكِّي النَّفسَ، كما قالَ تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة:١٠٣].

فإنْ قالَ قائِلٌ: فَما هِيَ الأمْوالُ الَّتي تَجِبُ فيها الزَّكاةُ؟ ومَنْ هُمُ الَّذينَ يَسْتَحِقونَ الزَّكاةَ؟

الجَوابُ: الأمْوالُ الَّتي تَجِبُ فيها الزَّكاةُ هِيَ:

الأوَّلُ: الذَّهَبُ والفِضَّةُ، أو ما نابَ مَنابَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ مِثل أوراقِ النَّقدِ.

الثَّاني: بَهيمةُ الأنْعامِ: الإبِلُ، والبَقَرُ، والغَنَمُ.

الثَّالِثُ: الخارِجُ مِنَ الأرْضِ مِنَ الحُبوبِ والثِّمارِ.

الرَّابعُ: عُروضُ التِّجارةِ، وهِيَ الأمْوالُ الَّتي يَتَّجِرُ فيها الإنسانُ ولَوْ لم تَكُنْ مِن هَذِه الأصْنافِ الثَّلاثةِ، فأيُّ شَيءٍ تَتَّجِرُ فيه مِن عَقارٍ أو مُعِداتٍ أو ثِيابٍ أو أواني أو سَيَّاراتٍ أو غَيرِها فإنَّها مِنْ عُروضِ التِّجارةِ وتَجِبُ فيها الزَّكاةُ.

ومِقدارُ الزَّكاةِ يَسيرٌ ولله الحَمدُ، فالذَّهَبُ والفِضَّةُ وعُروضُ التِّجارةِ كُلُّها زَكاتُها رُبعُ العُشرِ، يَعْني: واحِدٌ مِنْ أربَعينَ، وبَهيمةُ الأنْعامِ تَختَلِفُ؛ لِأنَّها مُقدَّرةٌ مِن قِبَلِ الشَّرعِ، فلا تَستَطيعُ أنْ تُحدِّدَ النِّسْبةَ، والخارِجُ مِنَ الأرْضِ مِنَ الحُبوبِ والثِّمارِ الواجِبُ فيه نِصفُ العُشرِ إن كانَ يُسْقى بِمَؤونةٍ، مِثلِ الَّذي يُسْقى بِالآلاتِ أو يُسْقى بِالرَّشاشاتِ، فالواجِبُ فيهِ نِصفُ العُشرِ، يَعْني: واحِدًا مِن عِشرينَ، وإنْ كانَ يُسْقى بِلا مؤونةٍ بِمَعنى أنَّه يَشرَبُ مِن المَطَرِ، فإنَّ الواجِبَ العُشرُ كامِلًا، أي: واحِدٌ مِن عَشرةٍ.

أمَّا أهلُ الزَّكاةِ فَهُم ثَمانِيةٌ مَذكورونَ في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوبة:٦٠] فالفُقَراءُ والمَساكينُ هُمُ الَّذينَ لا يَجِدونَ مُؤونَتَهم ولا كِفايَتَهم مِنَ الطَّعامِ أو الشَّرابِ أو اللِّباسِ أو المَساكِنَ أو النِّكاحِ.

فإذا رَأينا رَجُلًا لَهُ راتِبٌ يَكْفيهِ لِطَعامِه وشَرابِهِ ولِباسِهِ وسَكَنِه، لَكِنَّه يَحتاجُ إلى زَوجةٍ ولَيْسَ عِندَهُ مَهرٌ أو عِندَه بَعضُ المَهرِ، فنُعطيهِ مَهرًا لِيَتزَوَّجَ بِهِ مِنَ الزَّكاةِ مَعَ الكَرامةِ أيضًا؛ لِأنَّ حاجةَ الإنْسانِ إلى النِّكاحِ كحاجَتِه إلى الطَّعامِ والشَّرابِ،

فإذا أعْطَيناه وتَزوَّجَ واحِدةً وقالَ: إنَّها لا تَكْفيني فأنا مُحتاجٌ إلى أُخْرى، فنُعطيهِ مِنَ الزَّكاةِ كَما أنَّه لو قالَ: لا تَكْفيني الخُبزةُ الواحِدةُ في اليَومِ فنُعْطيهِ لِشِراءِ خُبزةٍ أُخْرى، ولا نَقولُ: أعْطَيناكَ خُبْزةً وكَفى، وإذا أعْطَيناه ثانِيةً وتَزوَّجَ، وقالَ: لم تَكفِني الثانِيةُ، فنُعْطيهِ، ثم لَو أعَطيناهُ الثَّالِثةَ وقالَ: لم تَكفِني الثالِثةُ أُريدُ رابِعةً فنُعطيهِ؛ لأنَّ المَقصودَ هِيَ الكِفايةُ.

لَكِنْ لَو عَلِمْنا أنَّ هَذا الرَّجُلَ قالَ هَذا الكَلامُ عَلى سَبيلِ التَشَهِّي، وأنَّه لَيْسَ بِحاجةٍ إلى ذَلِك فإنَّنا لا نُعْطيهِ، كَما لَو أنَّ شَخصًا ادَّعى أنَّه فَقيرٌ مُحتاجٌ إلى أُجرةٍ للسَّكَنِ وهُوَ يَستَطيعُ أنْ يَعيشَ في سَكَنٍ أُجْرَتُه ألْفُ رِيالٍ، ويَقولُ: أنا أُريدُ سَكَنًا أجْرَتُه ألفَي رِيالٍ، فلا نُعْطيهِ الألفَين؛ لِأنَّه يَكفيهِ ألفُ رِيالٍ.

فالمُهِمُّ أنَّ ما كانَ مُقدَّرًا بالكِفايةِ فإنَّنا نُعْطي الإنسانَ كِفايَته.

فإنْ قالَ قائِلٌ: ما تَقولونَ في طالِبِ عِلمٍ يَحتاجُ إلى كُتُبِ عِلمٍ يَنتَفِعُ بها فهَل نُعطيه مِنَ الزَّكاةِ؟

الجَوابُ: نَعَم، نُعْطيهِ، لَكِنْ بِقَدرِ الكِفايةِ، فلا يَأتي إلَينا ويَقولُ: أنا أُريدُ كُتُبَ عِلمٍ فيُؤَسِّسُ مَكتبةً كامِلةً فيها آلافُ الكُتُبِ، بَل نُعْطيهِ بِقَدرِ ما يَحتاجُ ونَقولُ لَهُ: أرِنا المَنهَجَ الَّذي تَدرُسُه ونُؤَمِّنُ لَك ما تَحتاجُه لِهَذا المَنهَجِ أو ما يُساعِدُه عَلَيه، أمَّا أنْ نَملأَ لَكَ الحُجرةَ كُتبًا بحُجَّةِ أنَّك لا تَستَطيعُ أنْ تَشْتَريَ كُتبًا فهَذا لا يُمكِنُ.

ونَذهَبُ إلى الغارِمينَ -وتَركنا بَعضَ الأصْنافِ لِأنَّها نادِرةٌ- فالغارِمُ: هو الَّذي عَلَيه دَينٌ لا يَستَطيعُ وَفاءَه، فنُعْطيهِ مِنَ الزَّكاةِ بقَدرِ غُرمِه قَلَّ أو كَثُرَ، ولَكِنْ هَل نُعْطيهِ مِنَ الزَّكاةِ بقَدرِ غُرمِه ولَو كانَ يَستَطيعُ أنْ يُوفيَ هَذا الدَّينَ؟

الجَوابُ: لا؛ لِأَنَّه في هَذه الحالِ غَيرُ مُحتاجٍ لِذَلِك، لَكِنْ إذا عَلِمنا أَنَّه مُحتاجٌ فإنَّنا نُعْطيهِ أو نَقضي دَينَه ولَو كثُرَ.

وهُنا سُؤالٌ: هَل الأفضَلُ أنْ نُعطيهِ ونَقولُ: خُذْ هَذِه واقْضِ بها دَينَك، أو نَذهَبُ إلى طالِبِه الَّذي يَطْلُبُه ونَقولُ: خُذْ دَينَ فُلانٍ سَدَّدْناه عَنهُ؟

الجَوابُ: إنْ قُلْنا بالثَّاني فخَطأٌ، وإنْ قُلنا بالأَوَّلُ فخَطأٌ.

إذًا، لا بُدَّ مِن تَفْصيلٍ، فإذا كانَ هَذا الرَّجُلُ مَعروفًا بالثِّقةِ والأمانةِ ومَحبَّةِ قَضاءِ الدَّينِ فإنَّ الأفضَلَ أنْ نُعطيهِ هُو، ونَقولَ: خُذْ هَذِه الدَّراهِمَ واقْضِ بِها دَينَك، وإذا عَلِمْنا أنَّ هَذا الرَّجُلَ مُتهاوِنٌ لا يَهتَمُّ بالدَّينِ ولا يُبالي بِهِ فإنَّ الأفضَلَ -إنْ لَمْ نَقُلْ: الأَوْجَبُ- أنْ نُعطيَ الطالِبَ، ونَقولَ: خُذْ هَذِه الدَّراهِمَ وَفاءً عن دَينِ فُلانٍ.

فإذا كانَ الَّذي عَلَيه الدَّينُ مِن أقارِبِ الرَّجُلِ المُزَكِّي، كأخيهِ وعَمِّه وخالِه وما أشبَه ذَلِك، فيَقضي دَينَه مِن زَكاتِه؛ لِأنَّ الصَّدقةَ عَلى القَريبِ صَدَقةٌ وصِلةٌ، وإذا كُنْتَ تُريدُ أنْ تَقضيَ دَينَ رَجُلٍ بَعيدٍ عَنكَ فالقَريبُ أَوْلى، فيَجوزُ أنْ أقضيَ الدَّينَ مِن زَكاتي إذا كانَ عَلى أخي أو عَمِّي أو خالي، وإذا كانَ عَلى أبي أو أمِّي فَهَل أقْضي عَنهَمُ الدَّينَ؟

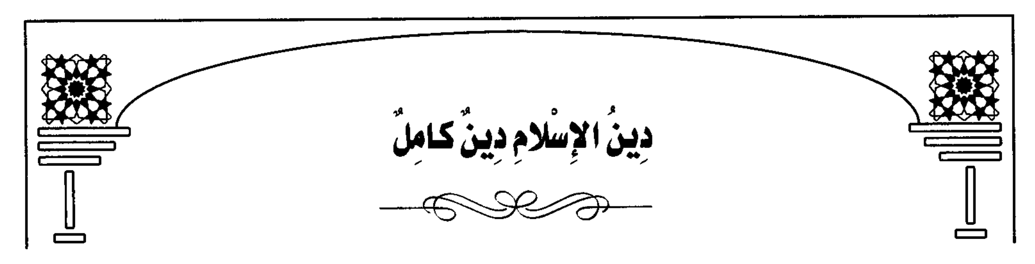
الجَوابُ: نَعَم، أقْضي عَن أُمِّي وأبي الدَّينَ مِن زَكاتي إلَّا إذا كانَ سَببُ هَذا الدَّينِ تَقصيرًا مِنِّي بالإنْفاقِ عَلَيهِما، فإنَّ بَعضَ النَّاسِ قد يُقَصِّرُ بما يَجِبُ عَلَيه مِنَ الإنْفاقِ عَلى والِدَيهِ ثم يُضطَرُّ الوالِدانِ إلى الدَّينِ للعَيشِ والنَّفقةِ، ففي هَذِه الحالِ قَد نَقولُ لَهُ: لا يَجوزُ أنْ تَقضيَ دَينَهما، لا سِيَّما إذا كانَ هو بنَفسِه قَد تَعمَّدَ هَذا

الأمرَ، أي: تَعمَّدَ أنْ لا يُنفِقَ عَلَيهما مِن أجلِ أنْ يُضْطرَّ إلى الدَّينِ للنَّفقةِ حتَّى يَقضيَ الدَّينَ مِنَ الزَّكاةِ فهَذا مُتحَيِّلٌ بِلا شَكٍّ، ولا يُمكِنُ أنْ نَقولَ: اقضِ دَينَهما مِن زَكاتِك، لَكِنْ لو حَصَلَ على الأبِ غُرمٌ في حادِثِ سَيارةٍ أو إصلاحِ مَنزِلٍ لا يَجِبُ على الابنِ إصلاحُه، فإنَّ ذَلِك جائِزٌ -أي: وفاءَ الدَّينِ عنِ الوالِدِ، إذا لم يَستَطِعْ أن يُوفِّيَه- مِنَ الزَّكاةِ.

بَقِي في الآيةِ: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [الحج:٤١] والأمرُ بالمَعروفِ مِن مَناقِبِ هَذِه الأُمَّةِ، قالَ الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمران:١١٠] وقالَ عن بَني إسرائيلَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

والمَعروفُ: هو كُلُّ ما عَرَفَهُ الشَّرعُ وأقرَّه، والمُنكَرُ: هو كُلُّ ما أنكَرَه الشَّرعُ ونَهى عَنه، فهَذِه هِيَ القاعِدةُ في مَعنى المَعروفِ ومَعنى المُنكَرِ، ولِلأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ شُروطٌ لا بُدَّ مِن مَعرِفَتِها حتَّى لا نَقعَ فيما لا يَنبَغي أنْ يَكونَ.





دِينُ الإِسْلامِ دِينٌ كامِلٌ

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ، والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ، ولا عُدْوانَ إلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وأشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، إلَهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورَسُولُهُ، وخَلِيلُهُ وأَمِينُهُ عَلَى وحْيِهِ، الَّذِي بَلَّغَ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأَمانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وتَرَكَهَا عَلَى مَحَجَّةٍ بَيْضاءَ، لَيْلُهَا كَنهارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إلَّا هالِكٌ، فصَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِ، وعَلَى آلِهِ وأصْحَابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ اللهَ تَعالَى أنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل:٨٩].

أنْزَلَ اللهُ الكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مُبَيِّنًا لكُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ، فَلا يُوجَدُ مُشْكِلَةٌ فِي أُمُورِ الدِّينِ ولَا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا إلَّا وفِي القُرْآنِ حلُّهَا، إمَّا صَراحَةً يَنُصُّ علَيْهَا بذَاتِهَا، وإمَّا بالإيماءِ والإشارَةِ، وتَأَمَّلُوا الآياتِ الكَرِيمَةَ الَّتِي يُصَدِّرُهَا اللهُ تَعالَى بقَوْلِهِ: يَسْأَلُونَكَ عَنْ كذَا كذَا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البَقَرة:٢١٩] ﴿عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البَقَرة:٢٢٠] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البَقَرة:٢٢٢] إلَى غيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ الكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أنَّ هَذَا القُرْآنَ فِيهِ حَلُّ كُلِّ مُشْكِلٍ، وأنَّ رِسالَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ عامَّةٌ شَامِلَةٌ لا تَحْتَاجُ إلَى تكْمِيلٍ لكَمالِهَا.

واقْرَؤُوا قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] فدِينُ اللهِ تعالَى مُكَمَّلٌ تامٌّ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، لا يَحْتَاجُ إلَى زِيادَةٍ، لَا فِي الاعْتِقَادِ، ولا فِي العِبادَاتِ، ولا فِي الأخْلاقِ، ولا فِي المُعامَلاتِ، ومِنْ ثَمَّ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ مِنَ البِدَعِ، حَذَّرَ مِنْهَا تَحْذِيرًا بالِغًا، فقالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**»(١) وكانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولُ فِي خُطَبِ الجُمُعَةِ: «**إِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

وعَلى هَذَا نسْتَعْرِضُ شَيْئًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دِينَ الإِسْلامِ كامِلٌ فِي العَقِيدَةِ، وكامِلٌ فِي العِبادَاتِ، وكامِلٌ فِي الأخْلاقِ، وكامِلٌ فِي المُعامَلاتِ .. إلى غَيْرِ هَذَا.

نَبْدَأُ أوَّلاً: العَقِيدَةُ:

دِينُ الإِسْلامِ كامِلٌ فِي العَقِيدَةِ، فَما مِنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ النَّاسُ فِي العَقِيدَةِ الَّتِي هِيَ الإيمانُ بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، إِلَّا بيَّنَهُ اللهُ تَعالَى، إمَّا فِي كِتابِهِ وإمَّا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ، والمُبَيَّنُ فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ مُبَيَّنٌ فِي الكِتَابِ؛ لأَنَّ اللهَ تعالَى قالَ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النِّساءِ:١١٣] وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساءِ:٨٠] وقَالَ اللهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [المائِدَة:١٩] وقالَ تَعالَى : ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [النَّحل:٤٤] فبيانُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ هُوَ مِنْ شَرِيعَةِ اللهِ.

جاءَتِ العَقِيدَةُ تامَّةً كامِلَةً فِيما يحتاجُهُ النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ رِبِّهِمْ وخَالِقِهِمْ، فمِنْ ذَلِكَ ثَبَتَ بالكِتَابِ العَزِيزِ أَنَّ اللهَ تَعالَى فَوْقَ سَماواتِهِ، وأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، وجاءَ ذِكْرُ الاسْتِوَاءِ عَلَى العَرْشِ فِي سَبْعَةِ مَواضِعَ مِنْ كِتَابِ اللهِ، ويَكْفِي فِي إِثْباتِ ذَلِكَ مَوْضِعٌ واحِدٌ، لكنَّ اللهَ كرَّرَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَثْبُتَ هَذِهِ العَقِيدَةُ فِي قُلوبِ العِبادِ أَنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، والعَرْشُ فَوْقَ السَّماواتِ كُلِّهَا ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ [هُود:٧].

فالعَرْشُ فَوْقَ المَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وإِذَا كانَ اللهُ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ -أَيْ عالِيًا عَلَيْهِ- عَلَى مَا يَلِيقُ بجَلالَتِهِ وعَظَمَتِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلَى:١] والأَعْلَى اسْمُ تَفْضِيلٍ أَيْ أَنَّهُ أَعْلَى مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، وقَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [المُلْكِ:١٦-١٨]، وقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غَافِر:١٥] وقالَ تَعالَى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطِر:١٠] وقالَ تَعالَى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المَعارِج:٤] ومعْنَى (تَعْرُجُ) أَيْ تَصْعَدُ.

والآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وقدْ جَاءَتْ عَلَى وُجُوهٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِنْ أجْلِ إثْباتِ هَذِهِ العَقِيدَةِ العَظِيمةِ، أَنْ يَعْتَقِدَ العِبادُ أَنَّ اللهَ تَعالَى فوْقَهُمْ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

ومِنَ المَعْلُومِ لنَا جَمِيعًا أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا دعَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فإنَّمَا يرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ، لَا يَمِيلُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، وكانَ أَبُو المَعالِي الجُوَيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ قِصَّةٌ أُخْبِرُكُمْ بِهَا حتَّى يَتبَيَّنَ لكُمُ الأمْرُ تمامًا، كانَ أَبُو المَعالِي الجُوَيْنِيُّ يَتكَلَّمُ عَنِ الاسْتِوَاءِ عَلَى العَرْشِ، ويُقَرِّرُ أَنَّ الاسْتِوَاءَ بِمَعْنَى الاسْتِيلاءِ وهُوَ مَعْنًى باطِلٌ.

فلَيْسَ الاسْتِوَاءُ بِمَعْنَى الاسْتِيلاءِ، فَقَالَ لهُ أبو العَلاءِ الهَمْدَانِيُّ: يَا أُسْتَاذُ! دعْنَا مِنْ ذِكْرِ العَرْشِ، يَعْنِي: لَا تَتَحَدَّثْ عَنِ العَرْشِ والاسْتِوَاءِ عَلَى العَرْشِ؛ لأنَّ دَلِيلَ الاسْتِوَاءِ عَلَى العَرْشِ دَلِيلٌ سَمْعِيٌّ، يَعْنِي: لوْلَا أَنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا عَلِمْنَا بِهَذَا، لكنْ أَخْبِرْنَا عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا، مَا قَالَ عارِفٌ قطُّ يَا اللهُ إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بطَلَبِ العُلُوِّ، أَيُّ إِنْسَانٍ يدْعُو اللهَ ولَوْ كانَ عامِّيًّا فِي السُّوقِ، أَوْ عَجُوزًا فِي بَيْتِهَا، إِذَا قَالَ يَا اللهُ يَجِدُ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً بِطَلَبِ العُلُوِّ، فضَرَبَ أبو المَعالِي عَلَى رَأْسِهِ يقولُ: حيَّرَنِي الهَمْدَانِيُّ[1]؛ لأَنَّ هَذَا دَلِيلٌ فِطْرِيٌّ لَا يُمْكِنُ إنْكارُهُ.

وهَذَا كما قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ فِطْرِيٌّ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعالَى فِي السَّماءِ، فلوْ رأيْتَ أَهْلَ المَوْقِفِ فِي عَرفَةَ رَأَيْتَهُمْ يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ إِلَى السَّماءِ، يَدْعُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ولقدْ قَرَّرَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم هَذَا فِي أَكْبَرِ مُجْتَمَعٍ للمُسْلِمِينَ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

حِينَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: «نَعَمْ».

ونقولُ نَحْنُ: نَعَمْ، بَلَّغَ واللهِ البَلاغَ المُبِينَ، قالَ: «**اللَّهُمَّ**» يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ للسَّماءِ «**اشْهَدْ**» يَنْكُتُهَا للنَّاسِ «**اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» ثلاثَ مرَّاتٍ يُشِيرُ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ(١)؛ لأَنَّهُ يُنادِيهِ اللَّهُمَّ، ومعْناهَا: يَا اللهُ! لكنْ حَصَلَ فِيهَا تَصْنِيفٌ لُغَوِيٌّ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ؛ لأَنَّنَا فِي مَقامٍ أَهَمَّ.

وأَتَى إليْهِ مُعاوِيَةُ بْنُ الحَكَمِ، ومُعاوِيَةُ بْنُ الحَكَمِ لهُ قِصَّةٌ نَذْكُرُهَا -إِنْ شَاءَ اللهُ- الآنَ، أَتَى إليْهِ بجارِيَةٍ صكَّهَا -أيْ ضَرَبَهَا عَلَى رَأْسِهَا- وأَرادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسْتَبْرِئَ مِنْ هَذَا العَمَلِ الَّذِي فعَلَهُ بالجارِيَةِ فأَتَى بِهَا إلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَغْضَبُ كما يَغْضَبُ النَّاسُ، وأَنَّهُ صكَّ هَذِهِ الجارِيَةَ فما المُخَلِّصُ؟ يُرِيدُ أنْ يُعْتِقَهَا، فدَعَا بِهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالَ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قالتْ: فِي السَّماءِ، جارِيَةٌ مملوكَةٌ لَمْ تَدْرُسْ ولَمْ تَقْرَأْ، قالتْ: فِي السَّماءِ، وتَسْأَلُ بعضَ النَّاسِ اليَوْمَ تقولُ: أيْنَ اللهُ؟ يقولُ: فِي كُلِّ مَكانٍ. تَعالَى اللهُ عما قَالَ عُلُوًّا كَبِيرًا، اللهُ فِي كُلِّ مكانٍ! أعوذُ باللهِ كَلِمَةٌ تَتَضَمَّنُ إنْكارَ مَا تَواتَرَ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ، جارِيَةٌ لَمْ تَتَعَلَّمْ قالتْ: فِي السَّماءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»(٢) بَنَى الحُكْمَ بإيمانِهَا عَلَى إقْرارِهَا بأَنَّ اللهَ فِي السَّماءِ، معَ أَنَّها جارِيَةٌ.

ومُعاوِيَةُ بْنُ الحَكَمِ لهُ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ، جاءَ يومًا والنَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي أصْحابِهِ فدَخَلَ فِي الصَّلاةِ، فعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ -والعَاطِسُ إذَا عَطَسَ يقولُ: الحَمْدُ للهِ-

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ هَذَا المُصَلِّي الَّذِي عَطَسَ: الحَمْدُ للهِ، وإِذَا قَالَ العَاطِسُ: الحَمْدُ للهِ كانَ حقًّا عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يُجازِيَهُ بالحُسْنَى، ويَقُولَ لهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَقَالَ مُعاوِيَةُ وهُوَ يُصَلِّي: يَرْحَمُكَ اللهُ، يُخاطِبُهُ، فرَماهُ النَّاسُ بأبْصارِهِمْ -أيْ: جَعَلُوا يَنْظُرونَ إِليْهِ مُسْتَنْكِرِينَ- فقالَ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، تكَلَّمَ ثانيةً، يَعْنِي زَادَ الطِّينَ بِلَّةً، تَكَلَّمَ مرَّتَيْنِ، فجَعَلَ الصَّحابَةُ يَضْرِبُونَ عَلَى أفْخاذِهِمْ، يُسَكِّتُونَهُ، فسَكَتَ، فلما انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ -وهُوَ ﷺ مُعَلِّمُ الخَيْرِ بالهُدوءِ والإقْناعِ- دعاهُ وقالَ لهُ، قَالَ مُعاوِيَةُ: فبأَبِي هُوَ وأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا أَحْسَنَ تَعْلِيمًا منهُ، واللهِ مَا كَهَرَنِي ولا نَهَرَنِي -يَعْنِي مَا عَبَسَ بوَجْهِي ولا أغْلَظَ لي فِي القَوْلِ- وإِنَّما قالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّكْبِيرُ والتَّسْبِيحُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ**»[1] أَوْ كَما قَالَ ﷺ.

فانْظُرْ حُسْنَ التَّعْلِيمِ، حَكَمَ وعلَّلَ، فالحُكْمُ قَوْلُهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ**» والتَّعْلِيلُ قَوْلُهُ: «**إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ**» فإذا كانَ هَذَا مَوْضُوعَ الصَّلاةِ فإِنَّهُ يُنافِيهَا تمامًا أَنْ يَتَكَلَّمَ الإنْسَانُ معَ أَخِيهِ. انْتَهَتِ القِصَّةُ.

وفي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ المسائِلِ الفِقْهِيَّةِ أَنَّ الرَّجُلَ لوْ تَكَلَّمَ فِي صَلاتِهِ جاهِلًا فصَلاتُهُ صَحِيحَةٌ، وجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْمُرْهُ بالإعادَةِ، ولوْ كانَتْ صَلاتُهُ باطِلَةً لأَمَرَهُ بالإعادَةِ، وكذَلِكَ إِذَا تكَلَّمَ ناسِيًا لَا يُعِيدُ؛ لأَنَّ النِّسْيانَ أَخُو الجَهْلِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لكنْ كَيْفَ يَنْسَي الإنْسَانُ؟

رَجُلٌ اسْتَأْذَنَ عليْكَ وقَرَعَ البابَ وألَحَّ، نَسِيتَ وقُلْتَ: يَا فُلانُ تَفَضَّلْ، ناسِيًا أنَّكَ تُصَلِّي، فلا تَبْطُلُ الصَّلاةُ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرة:٢٨٦].

وبهَذَا نَعْلَمُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ حرَّمَهُ اللهُ عَلَيْنَا إذَا وقَعَ منَّا جَهْلًا أوْ نِسْيَانًا فإنَّنا لَا نُؤاخَذُ به، حتَّى مَحْظُوراتُ الإحْرامِ إذَا فعَلَهَا الإنْسَانُ ناسِيًا أوْ جاهِلًا لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، لكنْ يَجِبُ عَلَيْهِ متى تَعَلَّمَ أوْ ذَكَرَ يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَتَخَلَّى عَنِ المَحْظُورِ، وألَّا يَسْتَمِرَّ فيه، انْتَهَتِ القِصَّةُ.

سُقْنَا هَذِهِ القِصَّةَ لفائِدَةٍ واحِدَةٍ عَظِيمَةٍ فِي العَقِيدَةِ، وهِيَ إثْباتُ أنَّ اللهَ فِي السَّماءِ، ولقدْ عَجِبْتُ ممَّا لَا يَنْقَضِي العَجَبُ منهُ، حينَ قامَ أحَدُ الإخْوَةِ هُنَا، فأجابَ بأنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكانٍ، أَسْأَلُ اللهَ أنْ يَهْدِيَهُ، سُبْحَانَ اللهِ! اللهُ فِي كُلِّ مكانٍ؟! يَعْنِي الآنَ نَحْنُ هُنَا فِي المَسْجِدِ الحَرامِ يكونُ اللهُ هُنَا؟! إخْوانٌ لنا فِي الأسْواقِ يكونُ اللهُ عنْدَهُمْ؟! إخْوَانٌ لنَا فِي أقْصَى المَشْرِقِ وأقْصَى المَغْرِبِ يكونُ اللهُ عنْدَهُمْ؟! ألَيْسَ اللهُ واحِدًا؟! فكَيْفَ يتَعَدَّدُ بتعَدُّدِ الأمْكِنَةِ؟! أوْ يقولُ: إنَّ اللهَ يَتَجَزَّأُ بحَسَبِ الأمْكِنَةِ، وكُلُّ هَذَا إذَا تَأَمَّلَهُ الإنْسَانُ وَجَدَ أنَّهُ فِي غايَةِ الجَهالَةِ، وفي غايَةِ الضَّلالَةِ.

إنَّ اللهَ تَعالَى فِي السَّماءِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، واحْذَرْ أنْ تَمُوتَ وأنتَ تَعْتَقِدَ أنَّ اللهَ فِي كُلِّ مكانٍ، فإنَّ هَذَا غَلَطٌ، لكنْ يَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ فِي أيِّ مكانٍ كانَ، فالعِلْمُ غَيْرُ الذَّاتِ.

نَحْنُ نُؤْمِنُ بأنَّ عِلْمَهُ شامِلٌ لكُلِّ شَيْءٍ، وأنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، واقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ (مَا) هُنَا إعْرابُهَا اسْمٌ مَوْصُولٌ، والاسْمُ المَوْصُولُ يُفِيدُ العُمُومَ، فكُلُّ مَا فِي البَرِّ والبَحْرِ اللهُ يَعْلَمُهُ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ورَقَةٍ مِنَ الأشْجارِ، و﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ فِيهَا حَرْفُ جَرٍّ زائِدٍ للتَّوْكِيدِ، والأصْلُ ومَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إلَّا يَعْلَمُهَا، لكنْ جاءَتْ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ تأكِيدًا للعُمُومِ، أيْ: مَا مِنْ وَرَقةٍ تَسْقُطُ إلَّا واللهُ يَعْلَمُهَا، وما مِنْ ورَقةٍ تَنْبُتُ إلَّا يَعْلَمُهَا؛ لأنَّهُ إذَا كانَ يَعْلَمُ الأوْرَاقَ إذَا سَقَطَتْ فعِلْمُهُ بالأوْرَاقِ إذَا نَبَتَتْ مِنْ بابٍ أوْلَى؛ لأنَّ نَباتَهَا إيجادٌ وسُقُوطَهَا عَدَمٌ، فإذا كانَ يَعْلَمُ الوَرَقَةَ الَّتِي تَسْقُطُ فِي أيِّ مكانٍ مِنَ الأرْضِ، فالوَرقَةُ الَّتِي تَنْبُتُ يَعْلَمُهَا مِنْ بَابٍ أوْلَى.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ حَبَّةٍ كَبِيرَةٍ وصَغِيرَةٍ فِي ظُلُماتِ الأرْضِ، وفي الأرْضِ ظُلُماتٌ لَا ظُلْمَةٌ واحِدَةٌ، فلْنَفْرِضْ أنَّ حَبَّةً صَغِيرَةً كحَبَّةِ الخَرْدَلِ انْغَمَسَتْ فِي الطِّينِ فِي قاعِ البحرِ، وكانتِ السَّماءُ مُغيِّمَةً، والمَطَرُ نَازِلًا، واللَّيْلَةُ مُظْلِمَةً لَا قَمَرَ فِيهَا، والجَوُّ مُغَبَّرًا.

فالظُّلْمَةُ الأُولَى الطِّينُ الَّذِي انْغَمَسَتْ فِيهِ الحَبَّةُ، والظُّلْمَةُ الثَّانِيةُ البَحْرُ، فالماءُ لَا شكَّ أنَّهُ ظُلْمَةٌ، والظُّلْمَةُ الثَّالِثةُ ظُلْمَةُ الجَوِّ، والظُّلْمَةُ الرَّابِعَةُ ظُلْمَةُ الغَمامِ، والظُّلْمَةُ الخامِسَةُ ظُلْمَةُ الغَبَرَةِ، والظُّلْمَةُ السَّادِسَةُ ظُلْمَةُ المَطَرِ؛ لأنَّ المَطَرَ إذَا كانَ يَنْزِلُ فَفِيهِ ظُلْمَةٌ، فهذِهِ سِتَّةُ ظُلُماتٍ معَ أنَّهُ ربَّما يكونُ هُناكَ ظُلُماتٌ أُخْرَى لَا نَعْرِفُهَا.

فهذِهِ الحَبَّةُ الصَّغِيرَةُ فِي قاعِ البَحْرِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي وصَفْنَاهُ يَعْلَمُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ مَا أعَمَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ! كُلُّ الأشْيَاءِ إمَّا رَطْبَةٌ أوْ يَابِسَةٌ، فلا رَطْبَ ولا يَابِسَ إلَّا يَعْمَلُهُ اللهُ وكَتَبَهُ أيْضًا؛ ولهَذَا قالَ: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] فعِلْمُ اللهِ لَا شكَّ أنَّهُ شامِلٌ لكُلِّ مكانٍ ولكُلِّ زمانٍ، للزَّمانِ الماضي والزَّمانِ المُسْتَقْبَلِ ﴿فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ نفسُهُ فإنَّهُ فَوْقَ سماواتِهِ عَلَى عرْشِهِ، اسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ عَقِيدَةٍ كُنْتَ تَعْتَقِدُهَا فِي ربِّكَ أنَّهُ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ الوُجُودِ، أوْ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مَكانٍ. اسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ ذَلِكَ، وتُبْ إلَى ربِّكَ وأنِبْ إليْهِ؛ حتَّى تَمُوتَ عَلَى العَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، الَّتِي كانَ عليْهَا رَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، الَّذِي أرْسَلَهُ اللهُ إليْكَ.

لعَلَّ هَذَا تَقَرَّرَ -إنْ شَاء اللهُ- أنَّ اللهَ تَعالَى فَوْقَ سماواتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وأمَّا عِلْمُهُ فلكُلِّ مَكانٍ، يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ولا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ لَا فِي الأرْضِ ولا فِي السَّماءِ، هَذِهِ هِيَ العَقِيدَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي دَلَّ عليْهَا كِتَابُ اللهِ وسُنَّةُ رَسُولِهِ، وأقْوَالُ الصَّحَابَةِ، وأقْوَالُ الأئِمَّةِ، والعَقْلُ والفِطْرَةُ، ولا شَيْءَ سِوَى ذَلِكَ.

أنَا أحْبَبْتُ أنْ أَقُولَ هَذَا وأُكَرِّرَ؛ لأنِّي لَا أُحِبُّ أنْ يَمُوتَ أحَدٌ مِنْ إخْوَانِي عَلَى هَذِهِ العَقِيدَةِ الباطِلَةِ، الَّتِي -واللهِ- تَتَضَمَّنُ تَكْذِيبَ كلامِ اللهِ ورَسُولِهِ، فأنَا أُحِبُّ أنْ يَنْتَشِلَ إخْوانُنَا أنْفُسَهُمْ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ العقائِدِ الباطِلَةِ.

ولْنَرْجِعِ الآنَ إلَى بيانِ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ بلَّغَ أُمَّتَهُ كُلَّ شَيْءٍ، جَاءَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ إلَى سَلْمانَ الفارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالَ لهُ: إنَّ نَبِيَّكُمْ علَّمَكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حتَّى

الخِراءَةَ -يَعْنِي قضاءَ الحاجةِ البَوْلِ والغائِطِ- قالَ: أجَلْ، يَعْنِي علَّمَنا كُلَّ شَيْءٍ حتَّى الخِراءَةَ، لقَدْ نَهانَا أنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ بغائِطٍ أوْ بوْلٍ، وأنْ نَسْتَنْجِيَ باليَمِينِ، وأنْ نَسْتَنْجِيَ بأقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أحْجارٍ، وأنْ نَسْتَنْجِيَ برَجِيعٍ أوْ عظْمٍ(١).

أوَّلًا: لقدْ نَهانَا أنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ بغائِطٍ أوْ بَوْلٍ، فإذا أرَدْتَ أنْ تبُولَ، أوْ أرَدْتَ أنْ تَتَغَوَّطَ فلا تَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ، حرامٌ عليكَ؛ فالقِبْلَةُ قِبْلَةُ المُصَلِّي، وقِبْلَةُ الدَّاعِي، أمَّا قِبْلَةُ مَنْ يتخَلَّى فلا، أكْرِمِ القِبْلَةَ ولا تَسْتَقْبِلْهَا.

والسُّنَّةُ يُكَمِّلُ بعضُهَا بعضًا: روَى أبُو أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: **«لَا تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ بِغَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ، وَلَا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا»**(٢) فما سَكَتَ عَنْهُ حديثُ سَلْمانَ بَيَّنَهُ حديثُ أبِي أيُّوبَ، نَهانَا أنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ بغائِطٍ أوْ بَوْلٍ.

ثانِيًا: وأنْ نَسْتَنْجِيَ باليَمِينِ، نَسْتَنْجِي يَعْنِي نَغْسِلُ المَحَلَّ باليَمِينِ، نَهانَا عَنْ ذَلِكَ؛ لأنَّ اليَمِينَ محَلُّ التَّكْرِيمِ؛ ولأنَّكَ إذَا اسْتَنْجَيْتَ باليَمِينِ مِنْ هَذِهِ القَاذُوراتِ فربَّما يَعْلَقُ مِنْهَا شَيْءٌ فِي هَذِهِ اليَدِ، الَّتِي تَتَوَلَّى بِهَا الأكْلَ والشُّرْبَ، هَذَا واقِعٌ، دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ، لَا تَسْتَنْجِ باليَمِينِ.

ثالِثًا: وأنْ نَسْتَنْجِيَ بأقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أحْجارٍ، حتَّى لوْ فُرِضَ أنَّ الخارِجَ مِنَ الدُّبُرِ يابِسٌ لَيْسَ بِهِ أثَرٌ، لَا بُدَّ مِنْ ثَلاثَةِ أحْجارٍ، ولوْ أنْقَى الحَجَرانِ فلا يَكْفِي.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قبلة أهل المدينة، رقم (٣٩٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤).

وهلِ المُرادُ الأحْجارُ أوِ المُرادُ المَسْحاتُ؟ بمَعْنَى لوْ أنَّهُ اسْتَنْجَي بحَجَرٍ لهُ شُعَبٌ ثلاثٌ أيَكْفِي أوْ لا؟

الجَوابُ: أمَّا مَنْ نَظَرَ إلَى ظاهِرِ الحَدِيثِ فإنَّهُ يقولُ: لَا يَكْفِي، لكنْ مَنْ نَظَرَ إلَى المَعْنَى قَالَ: إنَّهُ يَكْفِي، فلوْ وجَدْنَا حَجَرًا ذا شُعَبٍ ثلاثٍ، واسْتَنْجَى الإنْسَانُ بِهِ، ونَقَّى المَحَلَّ فإنَّهُ يَكْفِي؛ لأنَّ الشَّرِيعَةَ الإِسْلامِيَّةَ تَرْتَكِزُ عَلَى المعانِي أكْثَرَ ممَّا تَرْتَكِزُ عَلَى الألْفاظِ، لكنَّها لَا تَقْبَلُ القِياسَ الباطلَ.

أمَّا إذَا اسْتَنْجَى بثلاثَةِ أحْجارٍ لكنْ بَقِيَ أثَرٌ، فإنَّهُ يَزِيدُ عَنِ الثَّلاثَةِ؛ لأنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وأنْ نَسْتَنْجِيَ بأكثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ أحْجارٍ، إنَّما قالَ: «وَأَنْ نَسْتَنْجِيَ بأقَلَّ» وعَلَى هَذَا فإذا اسْتَنْجَى الإنْسَانُ بثَلاثَةِ أحْجارٍ ولم يُنْقِ، فإنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَزِيدَ فِي المَسْحِ.

ولَوْ زادَ إلَى أرْبَعِ مرَّاتٍ وأنْقَى، يَزِيدُ خامِسَةً اسْتِحْبَابًا لَا وُجوبًا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ**»[1] وعلى هَذَا إذَا أنْقَى بأرْبَعَةِ أحْجارٍ زادَ خامِسًا، وإذَا أنْقَى بسِتَّةٍ زادَ سابِعًا.

«وَأَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أوْ عَظْمٍ» العَظْمُ مَعْرُوفٌ، والرَّجِيعُ البَعْرُ وما أشْبَهَهُ؛ لأنَّ العَظْمَ إنْ كانَ مِنْ مُذَكَّاةٍ -يَعْنِي مِنْ مَذْبُوحَةٍ مَأْكُولَةٍ- فإنَّهُ يكونُ طَعامَ إخْوانِنَا مِنَ الجِنِّ، فمثلا إذَا ذَبَحَ الإنْسَانُ شاةً، وأكَلَ اللَّحْمَ، ثُمَّ رَمَى بالعَظْمِ، هَذَا العَظْمُ زَادُ إخْوانِنَا مِنَ الجِنِّ، ومِنَ الجِنِّ إخْوانٌ لنا مُسْلِمُونَ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعالَى فِي سُورَةِ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الجنّ:١٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب الاستنثار في الوضوء، رقم (١٦١)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الإيتار في الاستنثار والاستجمار، رقم (٢٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: كَيْفَ كانَ زادَ إخْوانِنا مِنَ الجِنِّ؟

قُلْنا: لأنَّ الجِنَّ الَّذِينَ وفَدُوا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وآمَنُوا بِهِ، أعْطَاهُمُ الرَّسُولُ ضِيافَةً دائِمَةً لَيْسَتْ مَقْطُوعَةً ، قالَ: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحمًا**»[1] سُبْحَانَ اللهِ! فأَكَلَ الإنْسِيُّ كُلَّ اللَّحْمِ الَّذِي فِي العظمِ وبَقِيَ العَظْمُ لَوْحًا، لكنَّ الجِنِّيَّ يَجِدُهُ أوْفَرَ ما يَكُونُ لَحْمًا.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: كَيْفَ يَكُونُ أوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا ونَحْنُ نُشاهِدُه تَحْتَ الجِدارِ أبْيَضَ؟

قُلْنَا: لأنَّ الجِنَّ عالَمٌ غَيْبِيٌّ لَا نُدْرِكُهُ نَحْنُ، وطَعامُهُمْ غَيْبِيٌّ، لهم دَوابُّ يَرْكَبُونَهَا، لكنْ لَا نراهَا؛ لأنَّهُمْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ.

أَعْطاهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضِيافَةً، كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرُ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَجِدُونَهُ أوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لدوابِّكُمْ، بَهائِمُ الجِنِّ تَأْكُلُ بَعْرَ بَهائِمِنَا، ورِجالُهُمْ يأْكُلُونَ عِظامَ لَحْمِنَا.

إذَنِ: الأفْضَلُ الإنْسُ؛ ولهَذَا لَا يَأْكُلُونَ إلَّا فَضَلاتِنَا، حتَّى بَهائِمُهُمْ لَا تَأْكُلُ إلَّا فَضلاتِ بَهائِمِنَا، والحَمْدُ للهِ الَّذِي فضَّلَنَا عليهِمْ، ومِنَّا -وللهِ الحَمْدُ- الأنْبِياءُ، ومِنَّا الرُّسُلُ، وأمَّا الجِنُّ فلا أنْبياءَ مِنْهُمْ ولا رُسُلَ.

فإذَا لَمْ يَجِدِ الإنْسَانُ إلَّا عَظْمًا لَا يَسْتَنْجِي به، ولوِ اسْتَنْجَي بِهِ لَمْ يُطَهِّرْهُ، فإذَا كانَ العَظْمُ نَجِسًا كعَظْمِ المَيْتَةِ فلا يُسْتَنْجَى بِهِ؛ لأنَّهُ نَجِسٌ، والنَّجِسُ نَجِسٌ لَا يُطَهِّرُ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذَا كانَ الرَّوْثُ نَجسًا كرَوْثِ الحِمارِ أيْضًا لَا يُسْتَنْجَى به؛ لأَنَّهُ نَجسٌ، والمطلوبُ بالاسْتِنْجاءِ التَّطْهِيرُ.

علَّمَنَا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم كَيْفَ نَأْكُلُ، وللأكْلِ آدابٌ قَوْلِيَّةٌ، وآدابٌ فِعْلِيَّةٌ.

أمَّا القَوْلِيَّةُ: فلهُ آدابٌ قَبْلَهُ وآدابٌ بَعْدَهُ، أمَّا الَّتِي قَبْلَهُ فتَقُولُ: بسمِ اللهِ، عُمَرُ بْنُ أبِي سَلَمَةَ عَاشَ فِي حِجْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ أُمَّ سَلَمَةَ، ولِتَزَوُّجِهِ بأُمِّ سَلَمَةَ قِصَّةٌ، نَذْكُرُهَا -إنْ شَاءَ اللهُ- وهُوَ غُلامٌ صَغِيرٌ، فقُدِّمَ الطَّعامُ - وتَعْرِفُونَ أنَّ الغُلامَ لَا يَعْرِفُ ولا يُمَيِّزُ- فبَدَأَ الصَّبِيُّ يَأْكُلُ مِنَ القَصْعَةِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ؛ لأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ، فقَالَ لهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا غُلَامُ سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[1] ثلاثُ سُنَنٍ كانَ سَبَبَهَا تَصَرُّفُ هَذَا الصَّبِيِّ.

إذَنِ: السُّنَّةُ القَوْلِيَّةُ عندَ الأكْلِ: التَّسْمِيَةُ فِي أوَّلِهِ.

واعْلَمْ أنَّكَ إذَا لَمْ تُسَمِّ فإنَّ الشَّيْطانَ يُشارِكُكَ فِي أكْلِكَ وشَرابِكَ، وإذَا سَمَّيْتَ وضَعْتَ حاجِزًا بيْنَكَ وبيْنَ الشَّيْطانِ.

وأمَّا الآدابُ القَوْلِيَّةُ عندَ الانْتهاءِ مِنَ الأكْلِ: فالحَمْدُ عندَ انْتهاءِ الأكْلِ، والحَمْدُ عندَ انْتِهاءِ الأكْلِ مِنْ أسبابِ رِضَا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّنَا بحَوْلِ اللهِ نَطْلُبُ رِضَا اللهِ، ونَسْأَلُهُ تَعالَى أنْ يَكْتُبَ لنا ذَلِكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٣٧٦)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم (٢٠٢٢)، من حديث عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ علَيْهَا»[١].

إذَنْ: إذَا أَكَلْتَ فقُلِ: الحَمْدُ للهِ، وإذَا شَرِبْتَ فقُلِ: الحَمْدُ للهِ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: مِنْ أيْنَ نأخُذُ الأكْلَ باليَمِينِ؟

قُلْنَا: مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ للغُلامِ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**» فالأكْلُ باليَمِينِ والشُّرْبُ باليَمِينِ هُوَ السُّنَّةُ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: هلِ الأكْلُ بالشِّمالِ والشُّرْبُ بالشِّمالِ حَرامٌ؟ أوْ خِلافُ الأَوْلَى؟ أوْ مَكْرُوهٌ؟

قُلْنَا: إنَّهُ حَرامٌ، ومَعْصِيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبْ بِشِمَالِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**»[٢] وأمَرَ رَجُلًا أنْ يَأْكُلَ بيَمِينِهِ فَقالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، يَحْتَمِلُ أنَّ هَذَا الرَّجُلَ أرادَ بقَوْلِهِ: «لَا أَسْتَطِيعُ» أيْ: لَا أُرِيدُ؛ لأنَّ نَفْيَ الاستطاعَةِ قَدْ يُرادُ بِهِ نَفْيُ الإرادةِ، كما فِي قَوْلِ الحَوارِيِّينَ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢] أيْ: هلْ يُرِيدُ ذَلِكَ؟ عَلَى خِلَافٍ فِي هَذِهِ الآيَةِ، لكنَّ الرَّجُلَ قَالَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: لَا أَسْتَطِيعُ وهُوَ يَسْتَطِيعُ، لكنَّهُ لَا يُرِيدُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا اسْتَطَعْتَ**» فما رَفَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ إِلَى فَمِهِ بعدَ ذَلِكَ[٣]؛ لأنَّ الرَّسُولَ دعَا عليْهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم (٢٠٢٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم (٢٠٢١)، من حديث سلمة ابن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثُمَّ نَقُولُ: إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهانَا عَنِ الأكْلِ بالشِّمالِ والشُّرْبِ بالشِّمالِ، وقالَ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ**» فيَا أيُّهَا الأخُ المُسْلِمُ، أتُرِيدُ أنْ تَكُونَ مُتَّبِعًا للرَّسُولِ أوْ مُتبِعًا للشَّيْطَانِ؟

الجَوابُ: للرَّسُولِ.

إذَنْ: كُلْ باليَمِينِ، وإنْ أكَلْتَ بالشِّمالِ فأنْتَ مُشابِهٌ للشَّيْطَانِ.

ولذَلِكَ نَجِدُ أوْلِياءَ الشَّياطِينِ الكُفَّارَ يَأْكُلُونَ بالشِّمالِ، ويَشْرَبُونَ بالشِّمالِ؛ لأنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ.

إذَنِ: الأكْلُ بالشِّمالِ حَرامٌ، والشُّرْبُ بالشِّمالِ حَرامٌ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ أفَنْدِي وجالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ كذا، والفنجانُ بِيَدِهِ اليُسْرَى ويَشْرَبُ، وهَذَا شُرْبُ الأفَنْدِيَّةِ!.

قُلْنَا: سُبْحَانَ اللهِ! أفِي هَذَا تَقَدُّمٌ! هلْ إذَا فَعَلْتَهُ تَصْنَعُ الطائراتِ وتُصَنِّعُ الأسْلِحَةَ! أبدًا، لكنْ معَ الأسَفِ أنَّ كَثِيرًا مِنَ المُسْلِمِينَ صارُوا يُقَلِّدُونَ أعْداءَ المُسْلِمِينَ بما نَهَى عَنْهُ الإسْلامُ، لكنْ لَا يُقَلِّدُونَهُمْ فيما أمَرَ بِهِ الإسْلامُ مِنِ اتِّخاذِ القُوَّةِ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنْفال:٦٠].

إذَنِ: النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم علَّمَنا كَيْفَ نَأْكُلُ، وكيْفَ نَشْرَبُ، نَأْكُلُ باليَمِينِ، ونَشْرَبُ باليَمِينِ، ونَقُولُ عندَ الأكْلِ: بسمِ اللهِ، ونقولُ عندَ الانتهاءِ: الحَمْدُ للهِ.

كيفَ يَكُونُ الإنْسَانُ عنْدَ الأكْلِ؟ أيَكُونُ قائِمًا أوْ جالِسًا أوْ مُضْطَجِعًا؟

الجَوابُ: يَكُون جالِسًا، نَهَى النَّبيُّ ﷺ أنْ يَشْرَبَ الرَّجُلُ قائِمًا[1]، لكنْ عندَ الحاجَةِ لَا بَأْسَ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قامَ ذاتَ ليلةٍ وشَرِبَ مِنْ شَنٍّ مُعَلَّقٍ[2]، والشَّنُّ هُوَ القِرْبَةُ القديمةُ؛ لأنَّ القِرْبَةَ القَدِيمَةَ يَكُونُ الماءُ فِيهَا أبْرَدَ مِنَ القِرْبَةِ الجَدِيدَةِ، قامَ يَشْرَبُ مِنْ شَنٍّ مُعَلَّقٍ، فشَرِبَ قائِمًا؛ لأنَّهَا مُعَلَّقَةٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَشْرَبَ وهُوَ جالِسٌ، وأتَى إلَى زَمْزَمَ ووجَدَ النَّاسَ زِحامًا، فدَعَا بدَلْوٍ مِنْ زَمْزَمَ فشَرِبَ منهُ قائمًا[3]؛ للزِّحامِ، فإذا كانَ هُناكَ حاجةٌ فاشْرَبْ قائِمًا، وإلا فاشْرَبْ قاعِدًا.

كذَلِكَ أيْضًا قالَ: «**لَا آكُلُ مُتَّكِئًا**»[4] لأنَّ الأكْلَ مُتَّكِئًا معناهُ الأكْلُ عَلَى راحَةٍ، وعَلَى نَوْعٍ مِنَ الكِبْرياءِ، وإذَا أكَلَ عَلَى راحَةٍ يَكُونُ الأكْلُ منهُ كثيرًا، والإنْسَانُ لَا يَنْبَغِي لهُ أنْ يَأْكُلَ كَثِيرًا، استَمِعْ إلَى الطِّبِّ النَّبَوِيِّ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «**حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**» أيْ: يَكْفِي ابنَ آدَمَ لُقَيْماتٌ قَلِيلاتٌ صَغِيراتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ «**فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ**» يَعْنِي لَا بُدَّ أنْ يَأْكُلَ «**فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[5].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب كراهية الشرب قائما، رقم (٢٠٢٤)، من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٣٤)، والترمذي: كتاب الأشربة، باب ما جاء في الرخصة في ذلك [اختناث الأسقية]، رقم (١٨٩٢)، وابن ماجه: كتاب الأشربة، باب الشرب قائمًا، رقم (٣٤٢٣)، من حديث كبشة الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ما جاء في زمزم، رقم (١٦٣٧)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب في الشرب من زمزم قائما، رقم (٢٠٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب الأكل متكئا، رقم (٥٣٩٨)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (٢٣٨٠)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (٣٣٤٩)، من حديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ووالله لوْ أَنَّنا عَمِلْنَا بهَذَا الإرْشادِ النَّبوِيِّ، لكانتِ الأمراضُ فِينا قَلِيلَةً، لكنْ كُلُّنَا الآنَ نَمْلَأُ البَطْنَ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ، يقولُ بعضُ العَوامِّ: الشَّرابُ ماءٌ، والماءُ دَقِيقٌ يَدْخُلُ، والنَّفَسُ مِنَ الرِّياحِ يَمْشِي بنفسِهِ، امْلأِ البَطْنَ مِنَ الطَّعامِ -على كَلامِ العامَّةِ- حتَّى يَكُونَ بك السُّكَّرِيُّ والضَّغْطُ، والبلاءُ الَّذِي لَا يَنْتَهِي.

فلو أَنَّنا أخذْنَا بإرشادِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لكانَتِ الأمْراضُ قليلةً، ولخَفَّتِ الأبْدانُ، ولسَلِمْنَا مِنَ السِّمْنَةِ، لكنْ نَشْكُو إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إِلَّا أَنَّهُ لَا بَأْسَ أنْ يَمْلَأَ الإنْسَانُ بطنَهُ أحيانًا، كما جَرَى لأبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ كانَ جائِعًا جدًّا حتَّى كانَ يَخِرُّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ، وخَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ، كُلَّما خَرَجَ واحِدٌ سألَهُ عَنْ آيَةٍ مِنَ القُرْآنِ، يقولُ: أَقْرِئْنِي الآيَةَ الفُلانِيَّةَ، وهُوَ لَا يُرِيدُ هَذَا، لكنْ يقولُ: لعلَّهُ يقولُ: اتَّبِعْنِي أُطْعِمْكَ، إِلَى هَذِهِ الحالَةِ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ، يقولُ: كُلٌّ مِنْهُمْ إذَا قُلْتُ: أَقْرِئْنِي الآيَةَ قَرأَهَا ومَشَى، يقولُ: حتَّى مرَّ بي أَبُو القاسِمِ ﷺ، فعَرَفَ مَا فِي وجْهِهِ، وأَمَرَهُ أنْ يَتَّبِعَهُ، فلمَّا وصَلَ إِلَى البَيْتِ إِذَا بقَلِيلٍ مِنَ اللَّبَنِ، أُهْدِيَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأَمَرَهُ أنْ يَدْعُوَ النَّاسَ -نَسِيتُ ماذَا قَالَ- ثُمَّ جَاءَ النَّاسُ وشَرِبُوا، وكانَ أَبُو هُرَيْرَةَ هُوَ الَّذِي يَسْقِيهِمْ، والرَّسُولُ يقولُ: اسْقِهِمْ وهُوَ لَيْسَ بوُدِّهِ أنْ يَسْقِيَهُمْ؛ يخافُ أَلَّا يَبْقَى شَيْءٌ، لكنْ لَا بُدَّ لهُ مِنْ تَلْبِيَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فشَرِبَ القَوْمُ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ القَلِيلِ، أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ البَرَكَةَ، وبَقِيَ بَقِيَّةٌ فقَالَ: «**اشْرَبْ**» فشَرِبَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنَ اللَّبَنِ، قَالَ لهُ: «**اشْرَبْ**» فشَرِبَ، قالَ: «**اشْرَبْ**» قَالَ: واللهِ لَا أَجِدُ لهُ مَساغًا[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، رقم (٦٤٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذن: امْتَلأَ بَطْنُهُ، لكنْ هَذَا إنَّمَا يَكُونُ أحْيانًا، أمَّا أَكْلُكُ الدَّائِمُ المُسْتَمِرُّ فاجْعَلْهُ كَمَا أمَرَكَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي وإيَّاكُمْ عَلَى تَنْفِيذِ هَذَا الإرْشادِ، بحيثُ يَكُونُ طَعَامُنَا ثُلُثًا، وشَرابُنَا ثُلُثًا، ونَفَسُنَا ثُلُثًا.

هذِهِ مِنْ آدابِ الأكْلِ الَّتِي علَّمَهَا النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ.

وعلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ آدابَ النَّوْمِ القَوْلِيَّةَ والفِعْلِيَّةَ.

فمِنَ الآدابِ القَوْلِيَّةِ: إذَا اضْطَجَعْتَ عَلَى فِراشِكَ فقُلِ: اللَّهُمَّ بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وبِكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ رُوحِي فَاغْفِرْ لَهَا وَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ[1]؛ لأنَّ اللهَ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِهَا، فربَّمَا تكونُ نَوْمَتُكَ هَذِهِ آخِرَ نَوْمَةٍ لكَ فِي الدُّنْيَا، ويَقْبِضُ اللهُ رُوحَكَ ويُمْسِكُهَا؛ ولهَذَا تقولُ: إنْ قَبَضْتَ رُوحِي فَاغْفِرْ لَهَا وارْحَمْهَا، وإنْ أرْسَلْتَهَا فاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ.

ومِنَ الآدابِ القَوْلِيَّةِ أيْضًا أنَّكَ إذَا آوَيْتَ إلَى فِراشِكَ فاقْرَأْ آيةَ الكُرْسِيِّ[2]، وهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام، رقم (٦٣٢٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، معلقا، ووصله النسائي في الكبرى رقم (١٠٧٢٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البَقَرة:٢٥٥] ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أيْ: لَا يُعْجِزُهُ ولا يُثْقِلُ عَلَيْهِ حِفْظُ السَّماواتِ والأرْضِ؛ لِكَمالِ عِلْمِهِ عَزَّوَجَلَّ، وكَمالِ قُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ وسُلْطانِهِ، لَا يُثْقِلُهُ حِفْظُ السَّماواتِ والأرْضِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

فاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، واقْرَأْ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخْلاصِ:١] وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفَلَقِ:١] وَ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاسِ:١] وانْفُثْ بيَدَيْكِ، وامْسَحْ وجْهَكَ وما تَسْتَطِيعُ مِنْ بَدَنِكَ[1]، اقْرَأْ كُلَّ مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الأقْوالِ عندَ النَّوْمِ.

ومِنَ الآدابِ الفِعْلِيَّةِ عندَ النَّوْمِ أنْ تَنامَ عَلَى الجَنْبِ الأيْمَنِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ البَراءَ بْنَ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يَنامَ عَلَى جَنْبِهِ الأيْمَنِ[2]، والعَجَبُ أنَّ الأطِبَّاءَ الآنَ قرَّرُوا أنَّ هَذِهِ هِيَ النَّوْمَةُ المُوافِقَةُ للجِسْمِ، والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَتعَلَّمِ الطِّبَّ، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ علَّمَهُ مَا يَنْفَعُ العِبادَ.

ومنْهَا: أنْ تَضَعَ يَدَكَ تَحْتَ خدِّكَ[3] إنْ تَيَسَّرَ لكَ، فبَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَشُقُّ عَلَيْهِ أنْ يَضَعَ يَدَيْهِ تحتَ خدِّهِ.

وإذَا قُمْتَ المَنامَ هلْ تقومُ وأنتَ تمَغَّضُ، تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ مَرَّةً وتُغْمِضُهُا أُخْرَى،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم (٥٠١٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم (٢٤٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٠)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) لما أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن، رقم (٦٣١٤)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل، وضع يده تحت خده».

تَمُدُّ رِجلَيْكَ مَرَّةً وتَقْبِضُهُما أُخْرَى، أَوْ تَقُومُ وثْبًا يَعْنِي نَشِيطًا بقُوَّةٍ؟

الجَوابُ: هَذَا الَّذِي كانَ الرَّسُولُ يَفْعَلُ، يَقُومُ بقُوَّةٍ ونَشاطٍ؛ لأَنَّكَ إذَا كُنْتَ تَمَغَّضُ فِي الفِراشِ ربَّمَا يعودُ عليكَ النَّوْمُ مَرَّةً ثانِيَةً، لكنْ قُمْ بنَشاطٍ وقُوَّةٍ كما جاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ قَامَ مِنَ النَّوْمِ قالَتْ: فَوَثَبَ»[1].

ولَمْ تَقُلْ: «قَامَ» بلْ قالتْ: «وَثَبَ» أيْ: قامَ بنشاطٍ وقُوَّةٍ، وجَرِّبْ تَجِدْ، فقُمْ مَرَّةً بنشاطٍ وقُوَّةٍ وانْظُرْ سيَذْهَبُ النَّوْمُ، لكنْ أنْ تَقُومَ بكَسَلٍ وتُمَدِّدُ وتَمَغَّضُ، فهَذَا يُبْقِي النَّوْمَ لَا يَقُومُ، لكنْ لَيْسَ مَعْنَى الوَثْبِ أنْ تَقْفِزَ، بلِ الوَثْبُ معْناهُ أنْ تَقُومَ بنَشاطٍ فقطْ.

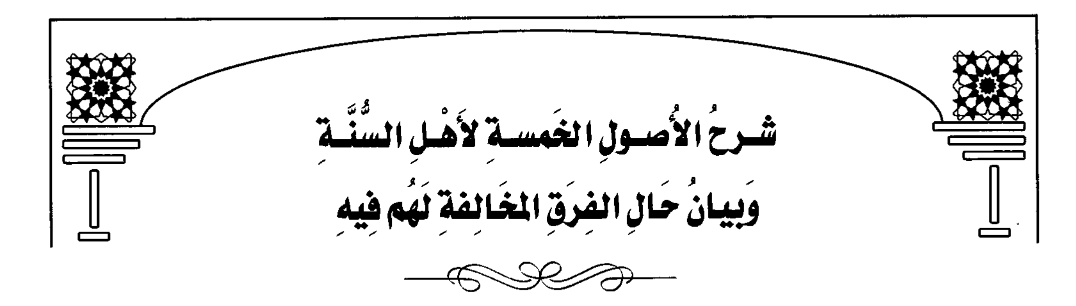
وتقولُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أحيانَا بعْدَمَا أَمَاتَنَا، وإليهِ النُّشُورُ»[2]، وتَذْكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَتَقْرَأُ عَشْرَ آياتٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرانَ[3].



(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل، رقم (٧٣٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم (٦٣١٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره، رقم (١٨٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، رقم (٢٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الأَصلُ الثَّاني[1]: **أَفعالُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:**

أهلُ السُّنَّةِ وَالجماعةِ وَسطٌ فِي بابِ أَفعالِ اللهِ بينَ القَدَرِيَّةِ وَالجبرِيَّةِ، فَالقَدَرِيَّةُ يَقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقلٌّ بِعملِهِ، وإِرَادتِهِ، ولَيْس للهِ تعلُّق بِعملِهِ وَإِرَادتِهِ، وَالإنسانُ يَفعلُ كَما شَاءَ، ويَتْرُكُ كَما شاءَ، ولَيْسَ للهِ أيُّ تَدخُّلٍ، إِذَنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مُخْتَصٌّ بِأفعالِهِ، أَمَّا أفعالُ العبْدِ فَلَيْسَ لَه بِها تدخُّلٌ إِطلاقًا، فالإِنْسانُ مُستقلٌّ استِقلالًا تامًّا، وهَذا مَذهبُ القَدَرِيَّة، فَالقدريَّةُ نُفاةُ القَدَرِ ولَيْسوا مُثْبتي القَدرِ[2].

والجبرِيَّةُ هُمُ الَّذِين قَالوا: لَيْس لِلْإِنسان تَصرُّف فِي كلِّ أعمالِهِ، فالَّذي يَنزلُ مِنَ السَّطحِ دَرجةً دَرجةً، كالَّذي يُرمَى بِهِ منَ السَّطح.

وأهلُ السُّنَّةِ وَالجماعةِ وسطٌ بينَ هَؤلاءِ وَهَؤلاءِ، وَمَذْهبهم أنَّ الإنسانَ لَه عملٌ فِي إِرادتِهِ وَاختيارِهِ، وهذهِ الإِرادةُ وَالاختيارُ مَرْبوطةٌ بِقَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَدَليلهُ مِنَ القُرآنِ قَولهُ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَأَثبتَ لِلإنسانِ مَشيئةً، وأَنَّها مَربوطةٌ بِمَشيئةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإنْ قالَ قائلٌ: كيفَ نَعرفُ أَنَّها مَربوطَةٌ بِمَشيئةِ اللهِ؟

---

(١) الأصل الأول لا يتوفر له تسجيل صوتي.
(٢) العقيدة الواسطية، لابن تيمية (١٥).

قُلنا: إذَا شَاءَ العبدُ شيئًا عَلِمنا أنَّ اللهَ شاءَ أنْ تشاءَ، ولَا نَعلمُ مِن مَشيئةِ اللهِ وقَدَرِ اللهِ إلَّا مَا وقعَ، ومَا لَمْ يَقعْ فَهُوَ مِن عِلمِ الغيبِ؛ وَلِهذَا لَو نَزل مَطرٌ غدًا فَنَحن لَا نَعلمُ عَنْـهُ شيئًا، لكنْ إذَا نزلَ عَلِمنا أنَّ اللهَ شاءَ أَنْ يَنزلَ، كذَلِك لَو أنَّ رجُـلًا كَتبَ اللهُ أَن يُسافرَ غدًا، فَنحن لَا نَعلمُ أنَّ اللهَ كَتب لهُ أنْ يُسافرَ إلَّا إذَا سافرَ.

ولهَذَا قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ القَدرَ سِرٌّ مَكتومٌ لا يَتبَيَّنُ إلَّا بِالظُّهور.

الأَصلُ الثَّالثُ: فِي أسماءِ الإيمانِ وَالدِّينِ:

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ وَسطٌ بَين فِرقتينِ ضَالَّتين، الفِرقةُ الأُولى: المُرْجئةُ، والفِرقةُ الثَّانية: تَشمل صِنفين وهُمَا: الخَوارجُ، والمُعْتَزلة.

مَذهبُ المرْجِئـةِ: أنَّ الفاسقَ مُؤمنٌ كَاملُ الإِيمانِ، فَلو زَنَى وَسَرقَ وَشَرِبَ الخَمْرَ، وقتَـلَ النَّفسَ بِغَيْرِ حقٍّ، وأَلحدَ فِي الحَرمِ، فَهـوَ مُؤمنٌ كَاملُ الإيمانِ، وإِيمانُهُ كَإِيمانِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّ الإيمانَ هُوَ المعْرفةُ الحَاصلةُ بِالقلبِ، والعَملُ لَا يَدخُل فِي الإِيمانِ إطلاقًا، فَلَا يَزيدُ الإِيمانُ بِالعملِ، ولَا يَنقصُ بِتركِ العملِ!

مذهبُ الخَوارجِ: والخَوارجُ يَقولونَ: الفَاسقُ كافرٌ، فَفاعلُ الكبيرةِ كافرٌ.

مَذهبُ المعتَزلةِ: قَالوا: إنَّه فِي مَنزلةٍ بَيْنَ مَنْزلتيْنِ، لَا مُؤمن ولَا كَافِر[1].

مَذهبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ: يَقـولونَ عَنِ الفاسقِ: إنَّه مُؤمنٌ نَاقصُ الإيمانِ، أَو مُؤمنُ بِإيمانهِ، فَاسقٌ بِكَبيرتهِ، فَيصحُّ أنْ نَقولَ: إنَّه مُؤمنٌ مِن وجهٍ، وفَاسقٌ مِن وجهٍ، أَو نقيِّدُ الإيمانَ فَنقولُ: مُؤمنٌ نَاقصُ الإِيمانِ، فلَا نُعطيهِ الاسمَ المطلَقَ لِلْإيمانِ، وَلا نَسلِبُ عَنْهُ مُطلقَ الاسمِ.

---

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٦/ ١٠١).

الأَصلُ الرَّابعُ: الأَحكامُ:

أهلُ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ وَسطٌ فِيه بينَ طَائفتينِ ضَالَّتينِ؛ الطَّائفةُ الأُولى: المرجئَةُ، والطَّائفةُ الثَّانية: تَشملُ صِنفين: الخوارجَ، والمعتزلَةَ، ويُطلق عَليهما مِن بَعضِ أَهلِ العلمِ (الوَعِيديَّة).

مَذهبُ المرْجئَةِ: مَذهبُ المرجئَةِ فِي الفاسقِ: أَنَّه مُؤمنٌ كَاملُ الإيمانِ، فَيقولونَ فِي الفاسقِ: إنَّه لَا يُعذَّبُ فَمَهما عَمِل منَ المعاصِي، فإنَّه لَا يُعاقَبُ عَلَيْها فِي الآخِرةِ، فإنْ زَنَى أَو سَرق أَوْ شَرِبَ الخمرَ فَلا عُقوبةَ عليهِ، فكلُّ المعاصِي الَّتي دُونَ الكُفرِ لَيست فِيهَا عُقوبةٌ.

مَذهبُ المعتَزلةِ وَالخوارِجِ: يَقولونَ: إنَّ الفاسقَ مخلَّدٌ فِي نارِ جهنَّم.

مَذهبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ: أَمَّا مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ فَهو وَسط، فيقولونَ: الفاسقُ مُستحقٌّ لِلعُقوبةِ، ولكنْ مِنَ الممكنِ أَنَّ اللهَ يَغفرُ لَه؛ لِقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، إِذَنْ، فَهم وَسطٌ بَيْنَ الوَعيديَّةِ، وَتَشمل المعتَزِلةَ وَالخَوارجَ، وَالمرْجِئةَ الَّذين يَقولونَ: إنَّ العَاصيَ لَا يَستحقُّ العقوبةَ.

الأَصلُ الخامسُ: أَصْحابُ الرَّسولِ ﷺ:

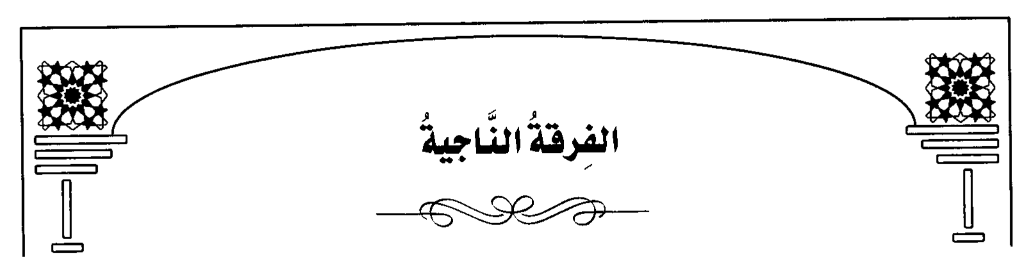
وأهلُ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ وَسطٌ بَين فِرْقتينِ ضَالَّتينِ:

الفِرقةُ الأُولَى: النَّواصبُ الَّذين نَصَبوا العَداوةَ لِآلِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وصَاروا يَسبُّون عَليَّ بنَ أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن كَان مِن آلِ البيتِ، ورُبَّما يَلْعَنونهم عَلى المنابرِ، وَلَا يَعْرفونَ لَهم حقَّهمْ.

الفِرقةُ الثَّانيةُ: الرَّوافضُ الَّذين يُغلون فِي آلِ البيتِ غُلوًّا عَظيمًا، حتَّى إنَّ بَعْضهم يؤلِّه آلَ البيتِ، ويَدَّعِي أنَّ مَفاتيحَ الغيبِ، ومَفَاتيحَ الخَلْقِ، ومَفَاتيحَ تَصريفِ الرِّياحِ، وإِنْزالَ الأمطَارِ كُلَّها بِيـدِ آلِ البَيْتِ، أَو مَن يَرونهم أَئِمَّةً مِن آلِ البيتِ، فالنَّواصبُ أَبْغضوا آلَ البيتِ، وسبُّوا آلَ البيتِ، ونَصَبوا لَهـُمُ العداوَةَ، والرَّوافضُ غَلَوْا فِيهم، وأَنْزلوهم فَوْقَ مَنْزِلتهم، وجعَلوا لَهم حظًّا مِنَ الرُّبُوبيَّةِ، بَل ربَّما يَجْعلون لَهم حَظًّا مِنَ الأُلُوهيَّةِ.

مَذهبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ: وأهلُ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ وَسطٌ بَين الفَريقينِ، قالُوا: إنَّه يَجب علَيْنا أَن نُحبَّ آلَ البيتِ، ونَعرف لَهم حقَّهم، ونَكُفَّ أَلْسِنتنا عَنْهم، وأَنْ نَترَضَّى عَنْهم، وأَن نَعرفَ أنَّ المؤمنَ مِنْهم لَه حَقَّانِ؛ حقُّ الإيمانِ، وحقُّ القَرابةِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ لكنَّنا لَا نَقول: إنَّهم مَعْصُومون، بَل يَجوز عَلَيْهم الخطأُ كَما يَجوز عَلَى غَيْرهم، ولَا نَقول: إنَّ لَهم حَظًّا مِن تَدبيرِ الكَونِ، أوْ إِنزالِ المطرِ، أَو تَصريفِ الرِّياحِ، أَو غَيرِ ذَلكَ، فَهم وَسطٌ بَيْنَ الغَالينَ وَالجافينَ.





الفِرقةُ النَّاجيةُ

الفِرقةُ النَّاجيةُ هُم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، الَّذين كَانوا عَلى مِثل مَا عَليهِ النبيُّ ﷺ وأَصْحابُه فِي العقيدَةِ، والقولِ، والعملِ.

وسُمُّوا بِالفرقةِ النَّاجيـةِ؛ لأنَّهُم نَجَوْا فِي الدُّنيا، وفِي الآخرَةِ نَجـوْا منَ النَّارِ والدَّركاتِ.

مَوْقفهمْ مِن أَسماءِ اللهِ وَصِفاتهِ:

أوَّلًا: مِن جِهةِ النُّصوصِ، والتَّصرُّفِ فِيها.

ثَانيًا: مِن جهةِ اتِّصافِ اللهِ تَعَالَى بِهَا، بِما وَصف بِه نَفْسه.

أوَّلًا: مِن جِهةِ النُّصوصِ:

يُجري أهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ نُصوصَ الصِّفاتِ مِنَ القُرآنِ والسُّنَّةِ عَلى ظَاهرِهَا، فكلُّ النُّصوصِ الفِعليَّةِ، والخبَرِيَّةِ، والذَّاتيَّةِ، يُجرونَها عَلى ظَاهرِهَا، فَقولهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، يُجْرُونه عَلى ظَاهرِهِ، يَقـولونَ: إنَّ اللهَ استَوى عَلى العَرشِ استِواءً حَقِيقيًّا، بِمَعنى: عَلا عَلَيْه عُلُوًّا حَقيقيًّا، ولكنْ بِدونِ تَمثيلٍ.

ولَا يَرَوْنَ أنَّ أَيَّ نَصٍّ مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ فِي صِفاتِ اللهِ يدلُّ عَلى التَّمثيلِ أبدًا، بَل كُلُّ النُّصوصِ تدلُّ عَلى أَنَّ مَا وَصفَ اللهُ بِه نَفسه فَهو وَصفٌ يَليقُ بِهِ، ولَا يُماثِلُ صِفاتِ المخلُوقينَ.

وعكْسُهم مَن حَرَّف وأوَّل، وقالَ: استَوى علَى العرشِ، أَي: استَوْلى ومَلَك وَقَهر، حتَّى العامِيَّ إذَا سَمِع قَولهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وعَلِمَ أنَّ أهلَ التَّحريفِ يَقولونَ: استَوى بِمَعنى استَوْلى، فَيقولُ: أَعْمَى اللهُ أَبْصارهم كَما أَعْمَى بَصَائِرهم.

وعَلى هذَا التَّحريف الَّذي فُسِّرت بِه هذهِ الكلمَةُ، يَكونُ العرشُ قَبلَ ذَلك مُلكًا لِغَيْرِ اللهِ، ويَكونُ الاستيلاءُ فِيه مُقاتَلةٌ وَمُغالَبةٌ، فَيَغلبُ وَيَسْتولي، وهَلْ أَحدٌ غَالبٌ اللهَ تَعَالَى فِي العرشِ حتَّى يُقالَ: إنَّ اللهَ استَوْلَى عَليهِ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، فاللهُ تَعَالَى اسْتَوَى عَلى عَرشهِ، أَي: عَلا عَليهِ، كَما أَنَّ لَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العُلُوَّ المطلقَ عَلَى جَميعِ المخلُوقاتِ، والفِطرةُ السَّليمةُ لَا يُمكنُ أنْ تُنكرَ مَا ثَبت فِي القرآنِ وَالسُّنَّةِ.

وكانَ أَبُو المعالِي الجُوينيُّ، يُقرِّر وَيَتكلم عَلى كُرْسيِّه فِي العادةِ يَوْمَ الجُمعةِ، وَيَقول: (إنَّ اللهَ كانَ ولَا شيءَ، وهوَ الآنَ عَلى مَا كَان عَلَيْه)، بِمَعنى: لا يوجد شيءٌ مَعَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ اللهُ تَعَالَى قبلَ كُلِّ شيءٍ هوَ الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبله شَيْءٌ.

ويُريدُ بِهَذَا القولِ نَفيَ استواءِ اللهِ عَلى العَرْشِ، فقَالَ لهُ أَبو العلاءِ الهمذَانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَا شَيخُ، دَعنا مِن ذِكر العرشِ، مَا تَقول فِي هذهِ الفِطرةِ: مَا قالَ عارفٌ قطُّ (يَا اللهُ) إلَّا وَجدَ مِن قَلبه ضَرورةً فِي طَلَب العُلوِّ[1].

فأيُّ واحدٍ يقولُ: (يَا اللهُ) لَا يَتَّجهُ القلبُ يَميناً ولَا يَسارًا، ولَا أمامًا ولَا خَلْفًا، وإنَّما يتَّجهُ إِلى أَعْلى، فجَعلَ أَبُو المعالِي يَلطُمُ عَلى رَأسهِ، ويَقولُ: حيَّرني الهمَذَانيُّ؛

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (ص:٢٤١).

لأنَّ الأمرَ الفِطريَّ لَا يُمكن إنكارُه، فَلو أَنكرَ الإنسانُ أمرًا فِطريًّا لَقَامت عَليهِ الدُّنيا، فأهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ فِي بابِ النُّصوص يُجْرُونها عَلى ظَاهِرها.

فإنْ قالَ قائلٌ: كَيف نفهمُ هـذَا الظَّاهرَ الَّذي يَليقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقَد ثَبت عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّ اللهَ تَعَالَى قالَ فِي الحديثِ القُدسيِّ: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»(١)، فإذَا أَجْريتَ هذَا الحديثَ عَلى ظاهرِهِ: «كُنْتُ سَمْعَهُ.. وَبَصَرَهُ.. وَيَدَهُ.. وَرِجْلَهُ..»، فهلْ نَقولُ: إنَّ اللهَ سَمْعُ الإنسانِ، وبَصرُ الإنسانِ، ويَدُ الإنسانِ، ورِجلُ الإنسانِ؛ لأنَّ هذَا ظاهرُ الحديثِ.

قلنَا: لَو تدبرتَ الحديثَ لَوَجدت أنَّ ظَاهرهُ خِلافُ مَا تظنُّه: «**كُنْتُ سَمْعَهُ**» أَيْ: سَمعُ المتقرِّب إِلى اللهِ، والمتقرِّبُ إِلى اللهِ حادثٌ مَخلوقٌ، ولَا يُمكن أنْ يَكونَ اللهُ مخلوقًا، أَو أنْ تَكونَ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ مَخلوقةً، ويَدُ المتقرِّبِ جزءٌ منَ المتقربِ، فهَـل يُمكن أَنْ يَكونَ اللهُ جُزءًا مِنَ الإنسانِ، ورِجلَه الَّتي يَمْشي بِها، فَلا يُمكن أنْ يَكونَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ جُزْءًا منَ الإِنسانِ.

فَلَيْسَ هذَا ظَاهرَ الحديثِ؛ وَلِهَذَا قالَ تَعَالَى: «**وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ**»، والسَّائل غَيرُ المسؤُولِ، ولَو قُلنـا: إنَّ ظَاهرَ الحديثِ أنَّ اللهَ يَكون يدَ المتقرِّبِ، لكانَ السَّائلُ عَيْنَ المسؤُولِ. «**وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»، والمستعيذُ غَيْرُ المُستعَاذِ بهِ.

فَتبيَّنَ بِذَلك أَنَّ ظَاهرَ الحـديثِ لَيس كَما يَتَوَّهمهُ الخاطئُ، بَل ظَاهرُ الحديثِ هُوَ المعنَى اللَّائقُ باللهِ، فَيكون مَعْنى: (كنتُ سَمْعه وبَصرَه ويَدَه ورِجلَهُ) أَنَّ اللهَ تَعَالَى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

يُسدِّد هَذا الرَّجُل فِي مَقاله وفِعالِهِ، وفِي سَمعِهِ، وفِي بَصرِهِ، وفِي بَطشِهِ، وفِي مَشْيِهِ، يُسدِّدُ فِي هذَا كلِّه؛ لأَنَّه كَان معَ اللهِ فكانَ اللهُ مَعَهُ.

فِي بابِ الأسماءِ والصِّفاتِ أهلُ السُّنَّةِ يُجرونَ النُّصوصَ عَلى ظَاهرِهَا بِلا تَحريفٍ، ويُثْبتون مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنفسه بِلَا تعطيلٍ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، فَأَثْبت لِنَفسه يَديْنِ، فَيُثْبت أَهلُ السُّنَّةِ وَالجماعةِ للهِ يَدَيْنِ، وقالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، وَقَالَ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، فأَثْبَت للهِ عَيْنًا، وأثبتَ للهِ أَعْيُنًا، فمذهَبُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجماعةِ إِثباتُ للهِ عَينينِ اثنتينِ فَقَطْ، لَا أعيُنًا كثيرةً، وَيَقُولونَ: المرادُ بِالجمعِ فِي قولِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ التَّعظيمُ، ولَيْس المرادُ بهِ حَقيقةَ العددِ.

عَلى أنَّ مِن عُلماءِ النَّحـو مَن يَقول: إنَّ أَقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وعَلى هـذَا فَيكونُ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يتَضمَّنُ الدِّلالةَ عَلى العَيْنينِ الثِّنْتين، ولكنْ هُنـاك شَيءٌ صَريحٌ يَدلُّ عَلى أنَّ اللهَ لَيسَ لَه إِلَّا عَينانِ اثنتَانِ، وهُوَ إِخبارُ النَّبِيِّ ﷺ عنِ الدَّجَّالِ الَّذي يُبعثُ فِي آخرِ الزَّمانِ، ويَدَّعي أَنَّهُ الرَّبُّ، ويَفْتِنُ اللهُ به كثيرًا منَ النَّـاس، أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ عنْ هذَا الرَّجُل أَنَّه أَعْوَرُ العَينِ اليُمنَى، وشبَّهَها بأَنَّها كَالعِنبةِ الطَّافيةِ، قالَ: «وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[1].

وهذَا يدلُّ عَلى أنَّ للهِ عَيْنين اثْنَتين؛ لأَنَّه لَو كَان لَه أَعيُنٌ أكثرُ، لَقالَ: «وإنَّ رَبَّكم لَه أعينٌ، والدَّجَّال لَيس لَه إِلَّا عَينانِ»؛ لأَنَّه لَو كَان للهِ أكثَر مِن ثِنتين لَكَانت هِذهِ الأَعيُنُ صِفـاتِ كمالٍ، وإذَا كانتْ صِفـاتِ كمالٍ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لَا يُمكنُ أنْ يَدعَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٦٧١٢)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٣).

صِفـاتِ الكمالِ إِلَى صِفاتٍ فِيها احتمالٌ، وحِينئذٍ تَكونُ الدِّلالةُ فِي هذَا الحـديثِ وَاضحةً تمامًا، كَما قَرَّر ذَلك أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فِي كُتُبهم، فَلِلَّهِ تَعالَى عَيْنانِ اثنَتَان، ولَهُ يدَانِ.

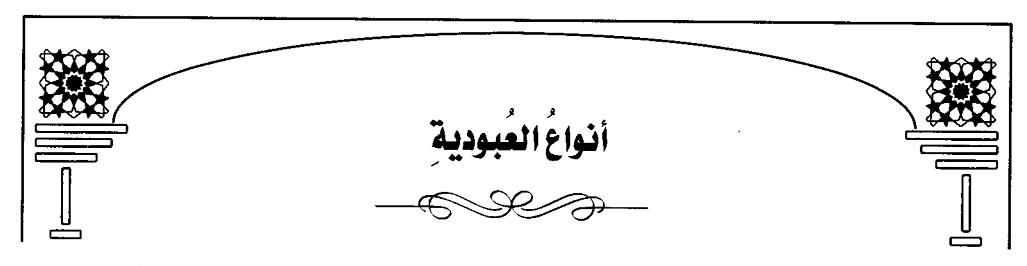
فإنْ قِيل: هَل نَفهم مِنَ العينينِ واليَدَين أنَّهما كأَيْدِي الإِنسانِ وعينِ الإنسانِ؟

الجوابُ: لَا نَفْهم ذَلِكَ، ودَلِيلنَا قَولهُ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فهذِهِ الآيةُ قَاضِيةٌ عَلى جَمِيعِ مَا أَثْبتهُ اللهُ لِنَفسه مِنَ الصِّفاتِ بأنَّها صِفاتٌ لَا تُماثلُ صِفاتِ المخلُوقينَ، وكَيْف تُماثلُ صفاتِ المخلوقِينَ واللهُ عَزَّوَجَلَّ ذَاتُه لَا تُشبه ذَواتِ المخلوقِينِ.

فأهلُ التَّعطيلِ غَلَوا فِي التَّنْزيه، فَنَفَوْا عنِ اللهِ مَا وَصَفَ بِه نَفسَه إمَّا نفيًا كَاملًا، وإمَّا نفيًا جُزئيًّا، وغُلوًّا فِي الإِثْباتِ، فأَثْبتوا مَا وَصفَ اللهُ بِه نَفسه عَلى سَبِيلِ التَّمثيلِ، وقالُوا: إنَّ مَا وصفَ اللهُ بِه نَفسهُ يُماثلُ أَوْصافَ المخلوقِينَ.

وأهـلُ التَّعطيلِ يَنْقسمون إِلَى قِسمينِ: مَن عطَّلَ تَعـطيلًا كَاملًا كَالمعتزلَةِ، وَالجَهميَّةِ، الَّذين نَفَـوْا صِفاتِ اللهِ كُلَّها، ومَن عطَّل تَعـطيلًا جُزئيًّا كَالأَشاعرةِ، الَّذين يدَّعُون أنَّهم مُتَّبعون لِأَبِي الحسنِ الأَشْعريِّ، فَهؤلاء أَثْبتوا سبعَ صِفاتٍ ونَفَوْا الباقِيَ، وحَرَّفُوا الكتابَ والسُّنَّةَ عمَّا أرادَ اللهُ بِهِما ورَسُولهُ ﷺ إلى مَعانٍ ابتكَرُوها بِعُقـولهم، عَلَى أنَّ الصفاتِ الَّتي أَثبتوها لَم يُثْبتوها عَلَى كَيْفيَّة إثبـاتِ أهلِ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ لَهَا.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



أنواعُ العُبوديةِ

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، إمامُ المتقينَ، وخاتَمُ النبيينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فإن العُبودية تنقسمُ إلى نوعينِ:

١- عُبوديةٌ كونيةٌ.

٢- وعُبوديةٌ شرعيةٌ.

النوعُ الأولُ: عُبوديةٌ كونيةٌ:

ومثالُها ما حكاهُ اللهُ تَعالَى عن فرعونَ أنهُ قالَ: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فأماتَهُ اللهُ بجنسِ ما يفتخرُ بهِ؛ أماتهُ بالغرقِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فقيلَ لهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] وهُو أطغَى الطُّغاةِ؛ إذن، فهوَ عبدٌ للهِ بمقتضَى الحُكمِ الكونيِّ.

وقالَ تَعالَى عنْ عادٍ قومِ هودٍ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، فقالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، وتأملْ قولَه تَعَالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ ﴾، ولم يقلْ: (أن الله الذي خلق السموات والأرض)، بل قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ ﴾؛ ليُبيِّنَ لهمُ الضَّعفَ أمامَ خالقِهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالَّذي خلَقَهُمْ ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت:١٥].

ودليلُ هذهِ العبوديةِ العامةِ قولُه تَعَالَى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]؛ فالكافرُ العاتِي يَمْرضُ ويُصابُ في عَقْلِه، ويُصابُ في أهلِه، ويُصابُ في مالِه، ولا يستطيعُ أَنْ يمنعَ قضاءَ اللهِ الذي قضاهُ عليهِ كَوْنًا.

النوعُ الثاني: عُبوديةٌ شرعيةٌ:

وهيَ الخضوعُ لحُكمِ اللهِ الشرعيِّ، وهذهِ خاصَّةٌ بالرسلِ وأتباعِهم، والرسلُ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- هـمْ رؤوسُ هذا النوعِ مِنَ العُبـوديةِ، وفي سُورةِ ص يقولُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [ص:٤٥]، ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ [ص:٤٨]، ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ [ص:٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص:١٧] إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الكثيرةِ التي يُبيِّنُ اللهُ فيها أنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عِبادٌ مِن عِبادِ اللهِ، وبهذا نعرفُ ضلالَ أولئكَ القومِ الذينَ يتعلقونَ بالرُّسُلِ خوفًا وخشيةً واستغاثةً ورَجاءً، مع أن الرُّسُلَ في جانبِ الرُّبوبيةِ كغيرِهم؛ لا يملكونَ شيئًا، فالمتعلِّقُ بهم ضالٌّ في دِينِـه، سَفِيهٌ في عَقْلِه؛ أمَّا ضلالُهُ في دِينِـه فلأن الرُّسلَ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- وعلى رأسِهم خاتمُهم محمدٌ ﷺ أَمرَه اللهُ أَنْ يُعْلِنَ للملأِ فيقولُ: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام:٥٠]،

وأمره أَنْ يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢]، وإذا كانتْ هذهِ حالَ محمدٍ ﷺ وهوَ أعظمُ الناسِ جاهًا عندَ اللهِ وأشرفُ الرُّسلِ؛ فما بالُك بمَن دونَه مِنَ الخَلْقِ؟! أليسُوا أَوْلَى أَلَّا يَمْلِكُوا هذا؟! بلى، أَوْلى أَلَّا يَمْلِكُوا هذا، فإذا كانُوا لا يَمْلِكُونَ ذلكَ؛ فاستَمِعْ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

ولقدْ جمعَ النبيُّ ﷺ عَشِيرَتَهُ، وجعلَ يُنادِيهم بأسمائِهم، ويُعلنُ أنهُ لا يَمْلِكُ لهمْ مِنَ اللهِ شيئًا؛ حتى قالَ لفاطمةَ بنتِ محمدٍ -رضيَ اللهُ عنها، وصلى اللهُ وسلمَ على أبيهَا-: «**يَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيئًا**»[1]، اللهُ أكبرُ! اطلُبي المالَ كما تَشائينَ أُعطِكِ، لكن فيما يتعلقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ قالَ: «**لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

وإذا كانتِ الرسلُ -عليهمُ الصلاةُ والسلامُ- عِبادًا للهِ لا يملكونَ لغيرِهم نفعًا ولا ضَرًّا؛ فمَن دُونَهم مِن بابِ أَوْلَى.

وعليهِ، فما ظنُّكَ بالذي يتعلقُ بالبَدَوِيِّ، أو بَعَبْدِ القـادرِ الجِيلانيِّ، أو بفلانٍ وفلانٍ ممن لا نَعْلَـمُ وممن نَعْلَمُ، ولا نحبُّ أَنْ نَذْكُرَهم؟! ما ظنُّكَ بهـؤلاءِ الذينَ يتعلقونَ بأولئكِ؟! أليسُوا أشدَّ ضَلالًا ممن يتعلَّقُونَ بالأنبياءِ؟! بلى.

ولكنِ الواجبُ على أهلِ العِلمِ في جميعِ بلادِ الإسلامِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب: هل يدخل الولد والنساء في الأقارب، رقم (٢٧٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

وَأَنْ يُبَيِّنُوا للعامَّةِ الذين خُدعُوا في هذهِ الأمورِ أن هذا شِركٌ أكبرُ، وقد قالَ اللهُ فيمن أشركَ بهِ شركًا أكبرَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

إن الذينَ يَدْعُونَ أحدًا غَيْرَ اللهِ لِكشْفِ الضُّرِّ وحُصُولِ النَّفْعِ لن تنفعَهُمُ الصلاةُ، ولا الصَّدَقةُ، ولا الصيامُ، ولا الحجُّ؛ لأن المشركَ لا ينفعُه العَمَلُ الصالحُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، يَحْبَطُ العملُ السابقُ إذا أشركَ الإنسانُ وماتَ على الشِّركِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]؛ وهذَا لِسَببينِ:

السببُ الأولُ: أننا سمعنَا ما في كتابِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مِن وَصْفِ الرُّسُلِ بأنهمْ عِبادُ اللهِ.

السببُ الثاني: أنني سمعتُ مَن يَتَمَسَّحُ بالكعبةِ ويقولُ: يا اللهُ، يا رسولَ اللهِ، الكلمةُ الأولى حَقٌّ، والكلمةُ الثانيةُ باطلةٌ تُبطلُ الكلمةَ الأُولى، بلْ تَمحُوهَا مَحْوًا: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

لكنْ لَمَّا نُصحَ بعضُ الناسِ وقيلَ لهم: هذا شِركٌ. رُئِيَ على وجوهِهمُ الانشراحُ والقَبُولُ، وهذا يدلُّ على أَنَّ هؤلاءِ العامَّةَ لو أنهم نُبِّهوا وأُخبرُوا لاستقامُوا؛ لأنهمْ يريدونَ الخيرَ، ولكنهُم يجهلونَ.

فيَجِبُ على جميعِ علماءِ المسلمينَ -وهم مسؤولونَ أمامَ اللهِ؛ لأنهم وَرَثَةُ الأنبياءِ- أَنْ يُبَلِّغُوا شُعُوبَهمُ الجُهَّالَ بأَنَّ مِثلَ هذهِ الأعمالِ شِرْكٌ مُحْبِطٌ للعَمَلِ؛ حتى يستقيمَ

الناسُ على طاعةِ اللهِ؛ ألم تَعْلَمُوا أَنَّ هؤلاءِ العامَّةَ لو جاءَ طالبُ عِلمٍ أصغرُ منهم سِنًّا وقالَ لهم: هذا شِركٌ، وهذا حرامٌ، ماذا يكونُ موقفُـهُم مِن هذا الطالبِ الذي هوَ أصغرُ منهم سِنًّا؟ ربما يَرْجُمُونَهُ بالحِجارةِ، ويقولونَ: أنتَ أعلمُ مِن فُلانٍ وأعلمُ مِن فُلانٍ؟!

فعَلى كِبارِ العلماءِ في جميعِ البلادِ الإسلاميةِ مسؤوليةٌ عظيمةٌ، واللهِ لَيُسْأَلُنَّ عن هذا؛ لأنهم وَرَثَةُ النبيِّ، أعطاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا الميراثَ ليقومُوا بِشُكْرِهِ وتَبْلِيغِهِ لعبادِهِ، ولا يَقُـولَنَّ أحدٌ: إنَّ العِلمَ الذي أعطانِيهِ اللهُ ليسَ علـيهِ زكاةٌ؛ بل إذا كانَ المالُ يجبُ أَنْ يزكَّى ويُدفعَ منهُ؛ فالعِلمُ يجبُ أَنْ يُزكَّى، يجبُ أَنْ يُبَلَّغَ إلى الجُهَّالِ؛ حتى يعبدُوا اللهَ على بَصيرةٍ، ومعَ ذلكَ إذا هدَى اللهُ بكَ رجـلًا واحدًا كانَ ذلكَ خيرًا لكَ مِن حُمُرِ النَّعَم، أي: مِن أفضلِ أنواعِ المالِ، وسَلِمْتَ، وبَرِئَتْ ذمَّتُكَ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل يُنكَرُ أنَّ النبيَّ ﷺ لهُ وجاهةٌ عندَ اللهِ؟

فالجوابُ: لا يُنكَرُ ذلكَ بلا شكٍّ، قالَ اللهُ في موسَى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، وقالَ في عيسَى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥]، والنبيُّ ﷺ أفضلُ الرُّسُلِ؛ فهوَ وجيهٌ عندَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكنَّ وَجَاهَتَهُ لا تستلزمُ، ولا تقتضِي أَنْ يكونَ شَريكًا معَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فاللهُ وحدَهُ هوَ الذي بِيَدِهِ ملكُوتُ السمواتِ والأرضِ، وهوَ الذي أعطَى هؤلاءِ الفضلَ والجاهَ، فلم يملكُوها بأيديهم وقُوَّتِهم وحَوْلِهم وغَايَتِهم؛ ولكن بِفَضْلِ اللهِ؛ ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى عن سُلَيمانَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل:١٥] ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أي: اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هوَ الذي آتاهُم: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥] فأَقَرَّا للهِ تَعالَى بالفضلِ.

فالوجاهةُ عندَ الرُّسلِ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم- هيَ مِنَ اللهِ، ولا تستلزمُ، ولا تقتضِي أَنْ يكونَ لهم شِرْكٌ فيما يختصُّ بهِ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلا فمَنِ الذي يكشفُ السُّوءَ؟ اللهُ وَحْدَهُ، حتى الرُّسلُ لا يستطيعونَ ذلكَ، ألم تعلمُوا أن محمدًا رسولَ اللهِ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ- قد شُجَّ في وَجْهِه، وكُسِرَتْ رَباعِيَّتُه! أليسَ هذا قد حصلَ؟

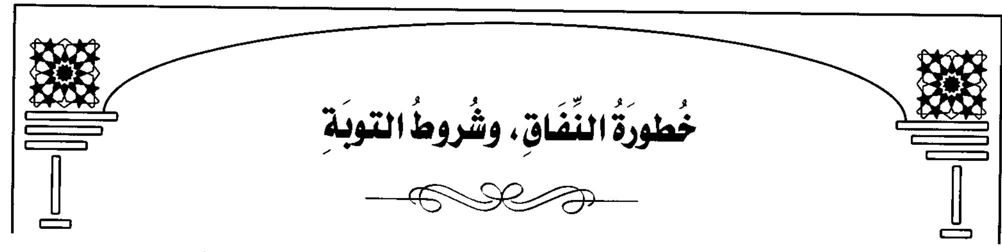
إذن، فالرسلُ كغيرِهم في هذهِ الأمورِ مِنَ البَشَرِ، لا يملكونَ لأنفسِهم ولا لغيرِهم نفعًا ولا ضَرًّا، ومَن دُونَ الرُّسُلِ كذلكَ، بل هُمْ أَبْعَدُ مِن أَنْ يَملِكُوا لأحدٍ نفعًا أو ضَرًّا.

ولذلكَ فإني أسألُ اللهَ أَنْ يُيَسِّرَ للمسلمينَ عُلماءَ مِلَّةٍ، لا عُلماءَ دَوْلَةٍ وأُمَّةٍ، يمشونَ بالناسِ على ما يُرضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، لا على مَا يُرضي الناسَ، ولا يُداهِنُونَ الناسَ في دِينِ اللهِ، بلِ الواجبُ أَنْ يُبَيِّنُوا للناسِ الحقَّ، سواءً أكرِهُوا أَمْ رَضُوا.

إن بعضَ الناسِ يشتري نصيبَه عندَ الناسِ بشيءٍ مِنَ المداهنةِ يقولُ: أخشى أن أُخالِفَ ما كانَ الناسُ عليهِ فيَبْغَضُوني، ولكن هذا مِن ضَعفِ يَقِينِه، ومِن ضَعْفِ دِينِه، نقول لِمثلِ هؤلاءِ: بَيِّنِ الحقَّ، وستكونُ العاقبةُ لكَ، لو أَبْغَضَكَ الناسُ حين تقولُ الحقَّ، وحينَ الصَّدْعِ بالحقِّ؛ فستكونُ النهايةُ مَحبَّةَ الناسِ لكَ، وتعظيمَ الناسِ لكَ، مع بَرَاءَةِ ذِمَّتِكَ، وسَلامةِ عَقِيدَتِكَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





خُطورَةُ النِّفَاقِ، وشُروطُ التوبَةِ

إنَّ الحَمْدَ للهِ نحمَدُهُ ونستَعِينُهُ ونستَغْفِرُهُ ونتُوبُ إليه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنْفُسِنَا ومن سَيِّئاتِ أعْمالِنَا، من يهدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لَهُ، وأشهدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أن محمَّدًا عبدُهُ ورَسولُه بعثَهُ اللهُ تَعالَى بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ، فانقَسَمَ الناسُ في رسالتِهِ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ:

- قِسْمٍ آمَنَ بها ظاهِرًا وباطِنًا.
- وقِسْمٍ كفَرَ بها ظاهِرًا وباطِنًا.
- وقِسْمٍ آمَنَ بها ظاهِرًا وكفَرَ بها باطِنًا.

وقد ذكَرَ اللهُ هذِه الأقسامَ في أوَّلِ سُورَةِ البقرَةِ فبدَأَ بالذين آمنُوا بِهَا ظاهِرًا وباطِنًا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٢-٥]، فهؤلاء القِسْمُ آمَنُوا برسالَةِ النَّبِيِّ ﷺ ظاهِرًا وباطِنًا.

ثم قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧] وهذا هو القِسْمُ الثَّانِي.

أما القِسْمُ الثالِثُ فهُمُ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:٨-٩]؛ فهؤلاء هُم الذِينَ آمنُوا ظاهِرًا وكفرُوا باطِنًا، وهؤلاء هُمُ المنافِقُونَ، والمنافِقونَ أَضَرُّ على المؤمنينَ مِنَ الكافِرينَ، ولهذا قالَ اللهُ فيهِمْ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، إن المنافِقِينَ هُم العَدُوُّ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورَةِ المنافقينَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، وجُمْلَةُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ جملَةٌ مُكوَّنَةٌ مِن مُبتَدَأ وخَبرٍ وهُما مَعْرِفَتَانِ، وقد ذكَرَ علماءُ البلاغَةِ أن تعريفَ المبتدأ والخَبَرِ يدُلُّ على الحَصْرِ، والحصْرُ هو إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ ونَفْيُهُ عَمَّا سِواهُ، ولقد صدَقَ اللهُ، فإنَّ عَداوةَ المنافِقِينَ للمُؤمِنِينَ ظاهِرَةٌ؛ لأنهم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيهم: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤]، وما أكثَرَ هؤلاءِ عِنْدَما يَقْوَى سُلطانُ الإيمانِ في الأُمَّةِ فيَبْزُغُ نَجمُ النِّفاقِ.

ولذلك لم يُوجَدِ النِّفاقُ إلا بَعدَ غَزوَةِ بدْرٍ، وفي غزوة بَدْرٍ كما تعلَمُونَ انتصَرَ النبيُّ ﷺ في ذلكَ اليومِ الَّذي سَمَّاهُ الله تَعالَى يومَ الفُرقانِ، فبَزَغَ نَجْمُ النِّفاقِ، وأسأَلُ اللهَ تَعالَى أَنْ يقطَعَهُ مِنْ شَعْبِنَا، فالمنافِقونَ الذين يُظْهِرُونَ أنهم مُسْلِمُونَ ويَشهدونَ على ما في قُلوبِهِمْ وهُمْ أَلَدُّ خَصْمٍ، فالمنافِقُونَ الذينَ يَجِيئونَ إلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويقولونَ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١] كَذِبًا رَغْمَ ما مَلَؤُوا بِهِ هذِه العبارَةَ مِنَ مؤكِّداتٍ، فهي مُؤَكَّدَةٌ بصيغة المضارِعِ فِي ﴿نَشْهَدُ﴾، و(إِنَّ، واللَّام) فهذه الجُمْلَةُ فيهَا مُؤكِّداتٌ ثلاثٌ، لكن رَغْمَ هذا يأتِيهِمْ ردُّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قائلًا: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١]، فرَدَّ عليهم جُمْلَةً بجُمْلَةٍ، وشهادَةً مُقابِلَ شهادَةٍ، ليؤكِّدَ أن المنافِقِينَ لَكاذِبونَ، وحينئذ يتبَيَّنُ عدْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بمُجازَاةِ المنافِقِينَ.

أما عَدْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مُجازاتِهِمْ فهو أنه إذا ذَكَرَ المنافِقِينَ والكافِرِينَ في سياقِ العذابِ فإنه يُقَدِّمُ المنافِقِينَ، كما في قولِهِ تعـالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقـولِهِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣]، فبدأ بعَذابِ المنافِقِينَ؛ لأنهم أهْلٌ لأن يكونَ عذابُهُم أشدَّ وأعْظَمَ، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

تَوْبَةُ المنافِقِ:

فإن قيلَ: وهل تُقْبَلُ توبَةُ المنافِقِ إذا تَابَ؟

قلنا: يقولُ بعضُ العلماءِ ومنهم أصحابُ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن توبَةَ المنافِقِ لا تُقْبَلُ؛ لأن المنافِقَ لم يُبْدِ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلا أنه مؤمِنٌ، فيُخْشَى أَنْ يقولَ: إنَّه تابَ وهو ما زالَ على نِفاقِهِ؛ لأنه ما زالَ يقولُ: إنَّه مؤمِنٌ.

ولكن الصَّحِيحَ أن المنافِقَ إذا تابَ إلى اللهِ توبةً نَصُوحًا فإن توبتَهُ تُقْبَلُ، وهذا ما دَلَّ عليهِ القُرآنُ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

وهل التوبةُ مجرَّدُ أَنْ يقولَ المذنبُ: أنا تائبٌ إلى اللهِ؟

الجواب: لا؛ بَلْ لا بُدَّ للتوبَةِ مِنْ شروطٍ خَمْسَةٍ:

الشرطُ الأوَّلِ: أَنْ يكونَ التَّائبُ مخلِصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تَوبَتِهِ بحيثُ لا يحملُهُ

على التوبَةِ رياءٌ ولا سُمْعَةٌ ولا خوفٌ مِنْ مخلُوقٍ ولا تَزَلُّفٍ إلى ذِي سُلطانٍ، وإنما يحمِلُهُ على التوبَةِ خوفُ عقابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وابتغاءُ رِضَا اللهِ، فإن لم يكُنْ كذلكَ فإنها لا تُقْبَلُ توبَتُهُ، ولهذا قيَّدَ اللهُ التـوبَةَ في المنافِقِينَ قال: ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦]، وكذلِكَ قالَ تعَـالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، فلا بدَّ مِنَ الإخْلاصِ في التَّوبَةِ.

الشرطُ الثَّانِي: أَنْ ينْدَمَ الإنسانُ على ما عَمِلَ، والندَمُ هو التَّحَسُّرُ والتأَسُّفُ على ما مَضَى؛ حتى يَعْلَمَ أنه قد كَرِهَ هذِه الجريمَةَ فينْدَمَ بقَلْبِهِ ندَمًا ظاهِرًا على ما جرَى منه مِن هذه الجريمَةِ، ويكونُ كُلَّما ذَكَرَهَا أصابَهُ الحُزْنُ والألمُ والنَّدَمُ، فإن لم يندَمْ وصارَتِ الجريمَةُ وعدَمُها سواء عندَه فلا يَصِحُّ أن نقول: إنَّه تائِبٌ.

الشرطُ الثالِثُ: أَنْ يُقْلِعَ عن الذَّنبِ، فإن لم يُقْلِعْ عن الذنْبِ فإنَّ توبَتَهُ لا تُقْبَلُ، بل إن توبَتَهُ في الحقِيقَةِ بمنزلَةِ الاستِهزاءِ باللهِ، فلو أن رَجُلًا أراد أَنْ يتُوبَ مِنَ الرِّبَا لكنه يتعامَلُ بالرِّبَا، فإن توبَتَهُ لا تكونُ صحِيحَةً، بل هي في الحَقِيقَةِ استِهزاءٌ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما لو أنَّ واحِدًا منكم نَهى ابنَهُ عنْ شيءٍ مِنَ الأشياءِ فصارَ ابنُهُ يفعَلُ ذلك الشيءَ وجاءَ إلى أبيهِ وهو متَلَبِّسٌ به، مثالُ ذلك: نهاهُ أبُوه عن استِماعِ الأغانِي والمعازِفِ، فجاء الولَدُ وفي جَيبِهِ مُسَجِّلٌ يسمَعُ عليه أغانِيَ، وقال: يا أَبَتِ أنا راجِعٌ عما نَهَيْتَنِي عنْه، وأبوه يستَمِعُ إلى المسجِّلِ وهو يُغَنِّي، ألا يكون هذا استهزاءً بأبيهِ؟!

وكذلك لو أنَّكَ قُلْتَ: يا رَبِّ إني تُبْتُ إليكَ مِنْ هذا الذنْبِ، بينما أنتَ مُصِرٌّ عليهِ، فإنَّ تَوْبَتَكَ لَيْسَتْ صَحِيحَـةً، وما هي إلا نوعُ استِهْزاءٍ برَبِّ العالِمينَ، الذي يعلَمُ خائنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدورُ.

فلا بد أَنْ يُقْلِعَ الإنسانُ عن الذنْبِ وإلا لم تَصِحَّ توبَتُهُ.

فإن قيلَ: بماذا يكون الإقلاعُ عَنِ الذنْبِ؟

قلنا: إن كان الذنْبُ ترْكَ واجِبٍ فالإقْلاعُ عنه بفِعْلِ ذلِكَ الواجبِ، وإن كان الذنْبُ فِعْلَ مُحَرَّمٍ فالإقلاعُ عنه بِتَرْكِ ذلِكَ المحرَّمِ، فرَجُلٌ كان لا يُصلي مَعَ الجماعَةِ، وتَرْكُ الجماعَةِ ذنْبٌ، لأنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ هَمَّ بتَحْرِيقِ المتَخَلِّفِينَ عن الصلاةِ أَنْ يُحَرِّقَ عليهِمْ بُيوتَهُم بالنَّارِ[1]، فهذا الرجُلُ كان يتْرُكُ الجماعَةَ وتابَ إلى الله مِنْ ترْكِ الجماعَةِ، لكنَّه لا يُصَلِّي مع الجماعَةِ، فلا نقولُ إنَّه أقْلَعَ.

ورجُلٌ آخَرُ مُصِرٌّ على الغِيبَةِ، والغيبَةُ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»[2]، سواء مِنْ عَيْبٍ فيه خِلْقِيٍّ أو خُلُقِيٍّ، فإذا ذَكَرْتَ أخاكَ بما يكرَهُ في غِيبَتِهِ فهذه هِيَ الغِيبَةُ، فلو أَنَّ رَجُلًا قال: إنه تائبٌ مِن الغِيبَةِ، ولكنه مُصِرٌّ عليها، فإنَّ هذه التوبَةَ لا تُقْبَلُ؛ لأنه لا بُدَّ مِنَ الإقلاعِ عَنِ الذَّنْبِ، فإن لم يُقْلِعْ لم تَصِحَّ توبَتُهُ.

أَمَّا الإقْلاعُ عَنِ المعصِيَةِ التي تَتَعَلَّقُ بحقِّ آدَمِيٍّ، فيكونُ بالتَّحَلُّلِ منْها، فإذا كانَتْ مَالًا فالإقلاعُ عنِ الظُّلْمِ فيه أَنْ يَرُدَّ المالَ إلى صاحِبِهِ.

فإذا قالَ هذَا الرجُلُ: أنا لا أعْرِفُ صاحِبَ المالِ، وأنا أُحِبُّ أن أَرُدَّهُ عليهِ لكِنْ لا أعْرِفُهُ، فنقول له: إذا كُنْتَ لا تَعْرِفُهُ فتَصَدَّقْ به عنْه، لا تَتَصَدَّقْ لنَفْسِك بل تَصَدَّقْ به عنْه، ثم إن جاءَ صاحبُهُ يومًا مِن الدَّهْرِ فخيِّرْهُ بينَ الرضَا بهذه الصَّدَقَةِ فيكون له

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٥١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

أجْرُهَا، أو أَنْ تَرُدَّ عليه مالَهُ، ويكونَ أجرُ الصدَقَةِ لك أنْتَ، وهو يختار ما يراهُ مُنَاسِبًا.

مسألَةٌ: رجُلٌ كان وهو صَغيرٌ يمُرُّ بالدَّكاكِينِ ويأكُلُ مِن هذا الدُّكَّانِ، ويأخذ مِن هـذا قلَمًا، ويأخُذُ مِنْ هذا جَرَّةَ حِبْرٍ وما أشبـهَ ذلك، ثم تابَ إلى اللهِ مِنْ ذلِكَ، لكنه يخشَى أَنْ يذهَبَ إلى أصحابِ هذِهِ الدَّكَاكِينِ ليُعْطِيَهُم ما لَهُمْ، وقال: أَستَحِي مِن ذلِكَ فلا أستَطِيعُ أن أقـولَ إنَّنِي قد أخَذْتُ ذلِكَ منكَ، وأخشَى إذا قُلْتُ هذَا أن يُطالِبُوا بالحَدِّ؟

فنقـول: لا بُدَّ مِن إيصالِ حُقوقِهِمْ إليهِمْ، وأن تستَعمِلَ أي طريقٍ تَرَى فيـه النجاةَ لكَ مع وُصُولِ الحَـقِّ إليهِمْ؛ لأن صاحِبَ الحَقِّ إذا كان مَعْلُومًا فلا بُدَّ مِن إيصال الحقِّ إليهِ.

الشرطُ الرابعُ: أَنْ يَعْزِمَ على أَلَّا يَعُـودَ إلى الذَّنْبِ في المستَقْبَلِ، فإن أخْلَـصَ النيَّةَ للهِ ونَدِمَ وأقْلَعَ، لكن في نِيَّتِهِ أَنْ يعودَ إلى الذَّنْبِ إذا سَمَحَتْ له الفُرْصَةُ، فتوبَتُهُ غيرُ مُقبولَةٍ؛ إذ لا بُدَّ أن تَعْزِمَ على أَلَّا تعودَ.

فإن قيلَ: هَلِ الشَّرْطُ أَنْ يَعْزِمَ على أَلَّا يعُودَ، أَمِ الشَّرْطُ أَلَّا يعودَ؟ فهناكَ فَرْقٌ بين أن قَولَنَا: أَنْ يعْزِمَ على أَلَّا يعودَ، وقولَنَا: أَلَّا يعودَ؟

قُلْنَا: الشرْطُ أَنْ يعْزِمَ على أَلَّا يعودَ، فإن عَزَمَ على أَلَّا يعُودَ وفي يومٍ مِنَ الأيامِ سَوَّلَتْ له نفْسُهُ ففَعَلَ، فإنَّ تَوْبَتَهُ الأُولى لا تُنْتَقَضُ، بل هي صَحِيحَةٌ، لكنه يحتاجُ إلى توبَةٍ جديدَةٍ.

الشرطُ الخَـامِسُ: أن تكونَ التَّـوبَةُ في وقْتِ القَبُولِ، فإن كانَتْ في غيرِ وَقْتِ القَبولِ فإنَّهَا لا تُقْبَلُ.

والوقتُ الذي لا تُقْبَلُ فيه التوبَةُ على نَوعِين: نوعٍ عامٍّ ونوعٍ خاصٍّ:

فالنوع العامُّ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، فإن الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِها فإنها لا تُقْبَلُ التَّوبَةُ مِن تائبٍ، قالَ تَعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، والمرادُ ببَعْضِ آياتِ اللهِ هو طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، كما فسَّرَ ذلكَ النَّبِيُّ ﷺ[1].

النوع الخاص: حُضورُ الأجَلِ، فإنَّ الإنسان إذا حَضَرَ أجَلُهُ وغَرْغَرَ بِرُوحِهِ لم تُقْبَلْ توبَتُهُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، فهؤلاء ليس لهُمْ توبَةٌ إذا أحاطَ بِهِمُ الموتُ وعرَفُوا أنهم مفارِقُونَ هذِهِ الدُّنيا، فلا تَنْفَعُهُم تَوبَتُهُمْ.

وانظر إلى فِرعونَ لما أَدْرَكَهُ الغَرَقُ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فقيلَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]، فهذا لا ينْفَعُ.

وهل الإنسانُ يعلَمُ متَى يحِلُّ هذا الوقتُ الذي لا تنْفَعُ فيه التوبَةُ؟

بالطبع لا يعْلَمُ، فإذا كان الإنسانُ لا يعلَمُ أين يموتُ، فإنَّه لا يَعْلَمُ متى يموتُ، وقد قالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، وإن كانَتِ الآيَةُ لم تَقُلْ: إنَّ النَّفْسَ لا تَدْرِي بأيِّ يومٍ تمُوتُ، لكن إذا انتفَى العِلْمُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، رقم (٤٦٣٦).

بالمكانِ الذي قدْ يكونُ اختِيَارِيًّا للإنسانِ، إذ إنَّ الإنسانَ يتَنَقَّلُ إلى البُلْدَانِ باختيارِهِ، فإنَّ انتِفَاءَ عِلْمِهِ بالزمانِ الذي يموتُ فيه مِنْ بابِ أَوْلَى.

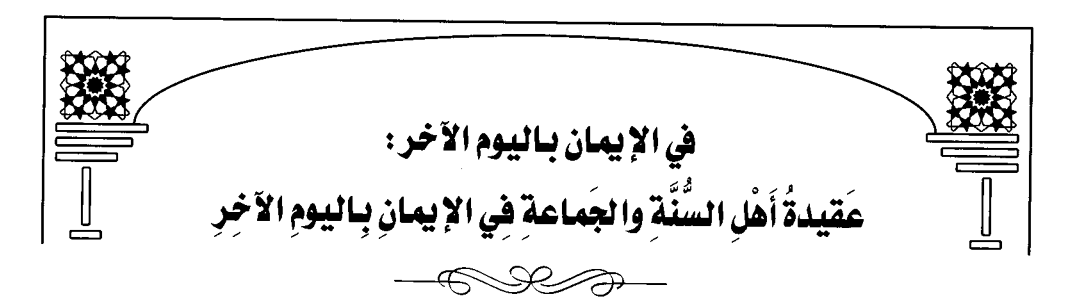
فإن قيل: هَلْ يُشْتَرَطُ للتوبَةِ أَنْ يُقْلِعَ عن كلِّ ذَنْبٍ، أو أنَّ التوبَةَ تتَجَزَّأُ فتَصِحَّ التوبَةُ مِن ذنبٍ مَعَ الإصرارِ على غيرِهِ؟

فالجواب: الصحيحُ أنها تَتَجَزَّأُ، وأنه يمكِنُ أَنْ يتُوبَ الإنسانُ مِن ذَنْبٍ وهُو مُصِرٌّ على غيرِهِ وتُقْبَلَ توبَتُهُ، كأن يتوبَ الإنسانُ مِنَ الزِّنَا وهو مُصِرٌّ على الرِّبَا فتَصِحَّ تَوْبَتُهُ مِن الزِّنَا، ولكنَّ وَصْفَهُ بالتائِبِ في هذه الحالِ لا يكونُ مُطْلَقًا، يعني أن هذا لا يستَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بالتوبَةِ المطلَقَةِ، فلا يدخُلُ في مَدْحِ التَّائِبينَ على الإطلاقِ؛ لأنه لم يَتُبْ توبَةً مطلَقَةً، وإنما تابَ توبَةً مُقَيَّدَةً بهذه المعصِيَةِ المعيَّنَةِ.

وهذا القولُ هو الذي تَدُلُّ عليهِ الأدِلَّةُ، فيُقال: إنَّ مَن تابَ مِنْ ذنْبٍ مع الإصرارِ على غَيْرِهِ لا يستَحِقُّ الوصفَ المُطلَقَ للتَّائِبينَ، ولكنه يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بالتوبة المقَيَّدَةِ فيقالُ: إنَّه تائبٌ مِنْ هذا الذنبِ. ولكن إذا كان مُصِرًّا على ذنْبٍ مِن جِنْسِ الذنْبِ الذي تابَ منه، فهَلْ تُقْبَلُ توبَتُهُ؟

فيه خلافٌ بينَ العُلماءِ، مِثلَ أَنْ يتوبَ مِنْ زِنَا الفَرْجِ مع إصْرارِهِ على زِنَا العَينِ، فالعين تَزْنِي وزِنَاهَا النظَرُ، فهذا الرَّجُلُ تابَ مِن زِنَا الفَرْجِ، ولكنه لا يزَالُ مُطلِقًا عَيْنَه في النظَرِ إلى عوراتِ النِّساءِ، فالصَّحِيحُ أن توبَتَهُ من زِنَا الفرْجِ تُقْبَلُ؛ لأن اللهَ حَكَمٌ عَدْلٌ، لكن لا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ هذا الرَّجُلُ بالعِفَّةِ المطلَقَةِ؛ لأنه لم يَزَلْ فيه بَلاءٌ ومَرَضٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



في الإيمان باليوم الآخر: عَقيدةُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ في الإيمانِ باليومِ الآخِرِ

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شُرورِ أنفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، إمامُ المتقينَ، وخاتَمُ النبيينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ هناك أُمورًا يَتَميَّزُ بها أهلُ السُّنة عن غيرِهِم مِن الفِرَق، سوف نتكلم عن بعضها:

أوَّلاً: الإيمانُ بِعذابِ القبرِ ونَعيمِهِ:

يَدخلُ فِي الإيمانِ باليومِ الآخرِ كلُّ مَا أَخبرَ بِهِ اللهُ وَرسولهُ ﷺ مِمَّا يَكون بَعْدَ الموتِ، فَيدخُل فِي ذَلك فِتنةُ القَبرِ، وعذابُ القبرِ، وَنَعيمُ القبرِ.

الدَّليل عَلى ثُبوت عَذابِ القبرِ:

الدَّليلُ الأَوَّلُ: قالَ اللهُ تَعالَى عَن قومِ فِرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] يَعني: فِي الصَّباحِ والمَساءِ، فبَيَّنَ اللهُ أنَّ هؤلاءِ يُعرَضونَ عَلى النَّارِ غُدُوًّا وعَشِيًّا، وهذَا عذابٌ، ويَوْمَ تَقومُ السَّاعةُ يَأْتِي الأشدُّ، قَال تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

الدَّليلُ الثَّاني: قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، يَعني: فِي سَكراتِ الموتِ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ لِقبضِ أَرْواحِهم، يَقُولُونَ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

وهذَا يَدُلُّ عَلى أنَّ الظَّالمينَ تَتمنَّع نُفُوسهم مِنَ الخُروجِ؛ لأنَّهَا تُبشَّر بِالغضَبِ وَالعذَابِ، فَتريدُ أنْ تَبْقَى فِي هذَا الجسدِ، يَقولُ تَعَالَى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أَعْطونا إِيَّاهَا، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٩٣]، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أَيْ: يَومَ خُروج أَنْفُسكم، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

والدَّليلُ مِنَ السُّنَّةِ، إِرْشادُ النَّبِيِّ ﷺ للمُصلِّي بَعْدَ أنْ يَفْرُغَ مِنَ التَّشهُّدِ لأن يَسْتعيذَ باللهِ مِنْ أربعٍ، حيثُ قالَ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»(١).

ثانيًا: الإِيمانُ بِالحسابِ:

ومِمَّا يَدخلُ فِي الإيمانِ بِاليوم الآخِرِ: أنْ نُؤمنَ بأنَّ الخَلائقَ يُحاسَبونَ عَلى أَعْمالهِمْ، وقَد سَمَّى اللهُ يَوْمَ القِيامة يومَ الحسابِ؛ لأنَّه اليومُ الَّذي يُحاسَبُ الإنسانُ فِيه عَلى عَمله.

وهُو حِسابُ فضلٍ وإِحسانٍ وكرمٍ بِالنسبةِ لِلمؤمنِ، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحَاسِبُ المؤمنَ، فَيَخْلُو بِه، ويَضعُ كَنفَه عَلَيه -أَي: سِتْرَهُ- ويُقرِّره بِذُنُوبه، فَيَقول لَهُ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٨).

عَمِلتَ كذَا فِي يَوم كَذَا حتَّى يُقِرَّ ويَعترف، فإِذَا أَقَرَّ واعترفَ، قالَ اللهُ لَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»(١)؛ وَلهَذَا قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨].

أمَّا الكافرُ، فتُحصَى أَعمالُه عَلَيه، ويُقالُ لهُ: عَمِلْتَ كذَا وكذَا فِي يوم كَذَا وكَذَا، فِي مكانِ كذَا وكذَا، ثُمَّ يُجزَى بِها يومَ القيامَةِ، وتُنْشَرُ، وتُعْلَنُ، فيَنَالُهُ الذُّلُّ -والعياذُ بِاللهِ- والصَّغَارُ.

ثالثًا: الحَوْضُ:

ومِمَّا يَدْخُلُ فِي الإيمانِ بِاليومِ الآخِرِ الإيمان بالحَوْضِ، وطُولُهُ مَسيرةُ شَهْرٍ، وعَرْضُهُ مَسيرةُ شَهْرٍ، وآنِيتُهُ كَنُجومِ السَّماءِ فِي كَثْرتِهَا وحُسنِهَا، ومَاؤهُ أَشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وأَطْيبُ مِنْ رَائحةِ المِسْكِ، ومَن يَشْرَبُ مِنهُ شَرْبَةً لَا يَظْمأُ بَعْدَهَا أَبدًا.

هذَا الحوضُ يَستمدُّ ماءَه مِن نَهْرِ الكوثرِ، وهُو نَهْرٌ أُعْطِيَهُ النبيُّ ﷺ في الجنَّة، يُصَبُّ مِنه مِيزَابان عَلى الحَوْضِ، فيَبْقى الحوضُ دَائمًا مملوءًا، ويَرِدُ المؤمنونَ مِن أُمَّةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويَشربونَ مِنْهُ، قالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣](٢).

فإِن قِيل: مَا الفَرْقُ بَين قَولِنَا: كَنجومِ السَّماء، أَو عَدد نُجُومِ السَّماء؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، رقم (٤٠٠).

قُلنا: كَنُجومِ السَّماءِ يَشملُ نُجومَ السَّماءِ عَدَدًا، وَنُجومها صِفةً.

الرَّابعُ: البَعثُ منَ القبورِ:

ومنَ الإيمانِ بِاليَومِ الآخِرِ الإيمانُ بِالبَعثِ، فَاللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يَبعثُ الأَجسادَ يَوْمَ القيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا.

حُفَاةً: لَيس عَلَيْهم نِعالٌ وَلَا خِفافٌ.

وعُرَاةً: لَيس عَلَيْهم لِباسٌ.

وغُرْلًا: أَي: غَيرُ مَختُونينِ.

قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقَد أَوْرَدَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**يُحشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**». فقالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟! فَقالَ: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ**»(١). فِي ذَلك اليَومِ لَا أحدَ يَنْظُرُ إِلى أحدٍ، فالرِّجالُ لَا يَنظرونَ إِلَى النِّساءِ، والنِّساءُ لَا يَنظرنَ إِلَى الرِّجالِ؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

الخامِسُ: الميزَانُ:

ومِمَّا يَدخلُ فِي الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الميزَانِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] وقال تَعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧]،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

فَتُوزَنُ الأَعمالُ يَوْمَ القِيامَةِ بِميزانٍ حِسيٍّ لَه كِفَّتَانِ، تُوضعُ فِي إِحْدَاهما الحسناتُ، وفِي الأُخرَى السَّيئاتُ، والَّذي يُوزنُ فِي ظاهِرِ النُّصوص هُوَ العملُ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»(١). فيُوضعُ هذَا الميزَانُ لِلْخَلائق وتُوزنُ فيهِ الأَعمالُ.

السَّادسُ: الشَّفاعةُ:

وممَّا يَدخلُ فِي الإيمانِ بِاليومِ الآخِرِ الشَّفاعةُ، وَهِي: التَّوسُّل إِلى الغَيْرِ فِي جَلْبِ منفعةٍ، أَو دَفعِ مَضَرَّةٍ.

أَنواعُ الشَّفاعةِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: الشَّفاعةُ الخاصَّةُ بِالنَّبيِّ ﷺ.

النَّوعُ الثَّاني: الشَّفاعةُ العامَّةُ لَه ﷺ ولسائِرِ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ.

ويَطْلُبُ النَّاسُ الشَّفاعةَ مِن شِدَّةِ الهَمِّ والغَمِّ والكَرْبِ، فَيَطْلُبُونَ مَن يَشفع لَهُمْ عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِيُنجيَهم مِن ذَلِكَ، فَيُلْهِمهمُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أَنْ يَذْهبوا إِلى آدمَ عَلَيْهِالسَّلَامُ الَّذي هُو أَبُو البَشر فَيأْتون إِلَيْه وَيَسْأَلونهُ الشَّفاعةَ، ولكنَّه يَعْتذر بأَنَّه عصَى ربَّه بأَكْلِه مِنَ الشَّجرةِ، فإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لَمَّا أَسْكن آدمَ الجنَّـةَ، قالَ لَه ولِزَوْجِهِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، رقم (٧٥٦٣).

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٣٥].

فيأتي النَّاس ويذهبون إلَى نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويطلُبُون منهُ الشَّفاعةُ، ولكنَّه يَعْتذر بأنَّه سَأل مَا لَيْس لَه بِهِ عِلمٌ، فقدْ سَأَلَ اللهَ تعَالَى أَنْ يُنجِّيَ ابنهُ مِنَ الغَرَقِ، قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٦] فيَعتذر نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فَيأتون إلَى إِبْرَاهيمَ خليلِ الرَّحمنِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيَعْتذر بأنَّه كَذَبَ ثَلاثَ كَذِباتٍ، وهُو لَيْس فِي الوَاقعِ كَذِبًا، ولكنَّه تَوْرِيَةٌ ظَاهِرُهَا الحَقِيقةُ، والمرادُ خِلافُ الظَّاهِرِ، فمِن أَجْلِ هَذا تُشبهُ الكذبَ مِن بَعضِ الوُجُوهِ، ولِكمالِ أَدبِ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معَ اللهِ هابَ أَنْ يَشْفعَ، وقَد كَذَبَ هذهِ الكَذِباتِ فِي ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فيأْتون بعدَ ذَلك إلَى مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيَعْتذر بأنَّه قتَلَ نَفْسًا لَم يُؤمَرْ بِقَتْلها، والنفسُ الَّتي أَشار إلَى أنَّه قتَلها بغَيْرِ حقٍّ، أنَّه خَرجَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، أَحَدُهما مِن بَنِي إِسْرائيلَ، والثَّاني مِنَ الأَقباطِ، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾، وهوَ الإِسْرائيليُّ ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهُوَ القِبطيُّ، وكانَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رَجُلًا شَديدًا، فَوَكَزَ القِبْطِيَّ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، ضربَهُ مرَّةً واحدةً، فَماتَ، فَهذِهِ النَّفسُ الَّتي قتَلَها قبلَ أَنْ يُؤمَرَ بِقَتْلها، وهذَا جَعلهُ يَعتذرُ عنِ الشَّفاعةِ للنَّاسِ.

ثمَّ يَأتونَ إلَى عِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهوَ الَّذي لَيس بَيْنه وبَيْنَ النَّبيِّ ﷺ رسولٌ، فلَا يَعتذرُ، لكنَّه يَعترفُ بِفضلِ النَّبيِّ ﷺ ويَقولُ لَهم: «**اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ**

عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»(١).

أَمَّا الذِي تكون فِيهِ الشَّفاعةُ عامَّةً له ﷺ ولسائرِ النَّبِيِّينَ، والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ فَهُمَا قِسمانِ:

الأُولَى: الشَّفاعةُ لِأهلِ النَّارِ أَنْ يُخرَجُوا مِنَ النَّار، والمرادُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ المؤْمنونَ.

الثَّانيةُ: الشَّفاعةُ فِيمَنِ استَحَقَّ النارَ مِنَ المؤمنينَ أَلَّا يدخُلَ النَّار.

السابِعُ: مَوقفُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ ممَّا جرى بيْنَ الصَّحابةِ:

مَوقفُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ مِما جَرَى بَيْنَ الصَّحابةِ هُو مَوقفُ الدَّاعي للصَّحابةِ، الَّذي يَسألُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَغفرَ لَهم، وأَنْ يَتَجَاوز عَنْ سَيِّئَاتهم، ومُجْمَلُ اعتِقَادهم فِي هذَا أَنْ يَقُولُوا كَما قالَ بعضُ السَّلفِ -وأظنُّه عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ-: إنَّ الدِّماءَ الَّتي وَقعت بينَ الصَّحابةِ دِماءٌ سَلَّمَ اللهُ فِيها سُيُوفنا، فلنُسلِّم منْهَا أَلْسِنَتَنَا.

ويَعني هَذا أَنَّنا لَا نَتكلم فِيما جَرى بينَ الصَّحابةِ، كَما قالَ بعضُ أهلِ السُّنَّةِ: إِنَّنا نَسْكُت عمَّا جَرى بيْنَ الصَّحابةِ، ونَرَى أَنَّه صَادِرٌ عَن تَأويلٍ واجتهادٍ، إنْ أَصَابُوا فيهِ فَلَهُم أَجْرانِ، وإنْ أَخْطؤُوا فَلَهم أَجرٌ واحدٌ.

فَما جَرى بيْنَ الصَّحـابةِ مِنَ القِتالِ أَمْرٌ لَا شَكَّ أَنَّه مُحْزِنٌ، ولكنَّه صـادرٌ عنِ اجتِهادٍ، ومَوْقِفُنا فِي هذَا أنْ نَقُولَ: هذهِ دِماءٌ بَرَّأَ اللهُ مِنها أَسْيَافَنا، فَنحنُ نُبرئُ منْهَا أَلْسِنتَنا، ونَقـول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:١٣٤]، وهذَا هُوَ العقلُ والعدلُ؛ لأنَّ هَؤُلاء مَاتوا وَانتَهَوْا، مَن أَصاب مِنْهم فَلهُ أَجْران، ومَن أخْفقَ فَلَهُ أَجْرٌ واحدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٦).

الثَّامِنُ: مَوقفُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجماعَةِ مِن وُلاةِ الأُمورِ:

مَوقـفُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعـةِ مِن وُلاةِ الأمورِ هُو مَا أَمرَ اللهُ بِه وَرَسولهُ ﷺ فَقد قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»[1].

فَموقفُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ مِن وُلاةِ الأُمورِ: الدُّعاءُ لَهم إذَا خَالفُوا؛ لأنَّ الدُّعـاءَ أكبرُ سِلاحٍ يَنْتفع بِه هَؤلاءِ، وقَد قـالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فإذَا دَعَوْنَا لَهمْ بِالرَّحمةِ والمغفرَةِ فَقَـد أَدَّينَا إليهم حَقَّهم، وهذَا هوَ الواجبُ علَيْنا.

إنَّ مَا جَرى مِنْ وُلاةِ الأمورِ مِنْ أَخطاءٍ نَاتجةٍ عنِ اجتهَادٍ، يقالُ فِيها مَا يُقالُ فِي الصَّحابةِ: إنْ أَصَابوا فِيها فلهُمْ أَجْرَانِ، وإنْ أَخطؤُوا فَلَهُم أَجْرٌ وَاحِدٌ إذَا بَذَلوا الجُهْدَ، فَهُم نَحْوَ وُلاةِ الأمورِ يَسْلُكونَ الآتِي:

أَوَّلًا: السَّمعُ والطَّاعةُ لِمَا أَمَرُوا بِه، بِشرطِ أَلَّا يَأْمُروا بِمعصيـةٍ، أوْ يَنْهَوْا عَن واجبٍ، فإنْ أَمَرُوا بِمَعصيةٍ أَو نَهَوْا عَن واجبٍ، فلَا طاعةَ لَهم فِي هذَا الشيءِ الَّذي وَقَعَ الأمرُ والنَّهيُ عنْهُ، لَا فِي كلِّ شيءٍ، فلَو كَانَ وَلِيُّ الأمرِ أَمرَ بِمعصيةٍ قُلنا: لَا سَمْعَ ولا طَاعَةَ؛ لأنَّ طَاعةَ اللهِ ورسولِهِ ﷺ أَحَقُّ مِن طَاعةِ وَلِيِّ الأَمْرِ، وإنْ أمرَ بَعد ذَلكَ بشيءٍ غَيرِ مَعصيةٍ، نَسمعُ ونُطيعُ، لكنْ فِي الشَّيءِ المُعيَّنِ الَّذي أَمَرُوا بِهِ وهُو مَعصيةٌ، لَا نُطِيعهم فِيهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، رقم (١٨٤٧).

كَذَلك لَو نَهَوْا عَن واجبٍ، فإنَّنَا لَا نُطِيعهم فِي ذَلك، ونَقومُ بِالواجبِ، ولَا نَمْتَنِعُ عَنْهُ، فإنْ نَهَوْا عَن شَيْءٍ غَيرِ وَاجبِ الفعلِ، فَتَجب عَلَيْنا طَاعتُهُم.

ثَانِيًا: أنْ نَقومَ بِواجبِ وُلاةِ الأمورِ وإنْ كَانوا أَفْسَقَ النَّاسِ، لَو كَان وليُّ الأمرِ يَسْرِقُ، ويَزْنِي، ويَشربُ الخَمرَ، ويَقْتُلُ النَّاسُ بِغيرِ حَقٍّ، فإنَّه لَا يجوزُ لنا أَنْ نَخْرُجَ عليهِ، بَل يَجبُ علينَا السَّمعُ والطَّاعةُ لَهُ؛ لأنَّ الخُروجَ مَشروطٌ بِشروطٍ بيَّنَها الرَّسولُ ﷺ فِي قَولِهِ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[1]. هذهِ أَربعةُ شروطٍ.

«**إِلَّا أَنْ تَرَوْا**»: رُؤيةٌ عِلميَّةٌ أَو بَصريَّةٌ. «**كُفْرًا**» يَخرج بِهِ مَا دُونَ الكفرِ، «**بَوَاحًا**» يَعْنِي: صَرِيحًا، يَخرج بِه مَا لَيْسَ بِصريحٍ، والكفرُ الَّذي لَيس بِصريحٍ هوَ الكفرُ الَّذي اختَلَفَ العلماءُ فِيه، فَهَذَا غَيرُ صريحٍ قَطعًا؛ لأنَّه لَو كَان صَرِيحًا مَا اختلفَ النَّاسُ فِيه، «**عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**».

ولَيْسَ مَعنى جوازِ الخُروجِ أَنَّهُ جَائزٌ بِكلِّ حالٍ، بل لَا بُدَّ مِن قُدْرةٍ عَلى مُنَابَذَةِ هذَا الوليِّ الَّذي رَأَيْنا فِيهِ الكُفرَ البَواحَ، فإنْ لَم تكن لَدَيْنا قُدْرةٌ فإنَّ المُجابَهَةَ حَرَامٌ؛ لأنَّه إذَا لَم تَكُن لَدَيْنا قُدْرَةٌ عَلى مُجابَهَتِهِ، فَالنَّتِيجةُ ستكون سَحْقَ هؤلاءِ الخارجِينَ، وسَحْقَ أَمْثالِهِمْ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا**»، رقم (٧٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، رقم (١٧٠٩).



يومُ التّغابُنِ

الحمدُ للهِ نحمدُهُ ونستَعينُهُ ونستغْفِرُهُ ونتوبُ إليهِ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنفسِنَا ومِنْ سيئاتِ أعمالِنَا، أمَّا بَعْدُ:

فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التغابن:٧-٩].

فقولُهُ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾، معناه أنَّ هؤلاءِ الذينَ كفَرُوا زَعمُوا أنَّ اللهَ لا يبْعثُهُم؛ شاكِّينَ في قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقدْ قالَ قائلُهُمْ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٨٧]، فردَّ اللهُ عليه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [يس:٨٨]، والذي أنْشَأَهَا أولَ مَرَّةٍ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا كان اللهُ هو الَّذِي أنشَأَهَا أوَّلَ مرَّةٍ، فإن القادِرَ على الإنشاءِ قادِرٌ على الإعادَةِ، كما قالَ الله تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم:٢٧] ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]؛ ولهذا أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ أَنْ يَحْلِفَ على ذلك فَقَال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾، ولا يأمرُ اللهُ نَبيَّهُ أَنْ يَحْلِفَ إلا على أَمْرٍ عَظِيمٍ.

وقد أمرَ اللهُ نَبيَّه أَنْ يحلِفَ في ثلاثَةِ مَواضِعَ مِنَ القرآنِ:

الموضعُ الأولُ: قولُهُ تعَالَى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣].

الموضعُ الثَّانِي: قولُه تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ:٣].

الموضعُ الثالِثُ: قولُهُ تعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي هذه الآياتِ دليلٌ على عِظَمِ ذلكَ اليومِ الذي سمَّاه اللهُ تَعالَى يوم الجَمْعِ؛ لأنه يُجْمَعُ فيهِ الأوَّلُونَ والآخِرُونَ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠]، يُجمَعُ فيهِ الإنسُ والجِنُّ، تُجْمَعُ فيـه الملائكةُ، تجمَعُ فيهِ الوُحوشُ، تُجمَعُ فيه كلُّ دابَّةٍ في الأرضِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] فالوُحوشُ تُحْشَرُ في ذلكَ اليومِ العظِيمِ.

وهو اليومُ المشْهودُ الَّذِي قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] ثم قالَ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، أي: ذلِكَ اليـومُ الذي هو يومُ الجَمْعِ هو يومُ التَّغابُنِ، أي: اليومُ الذي يتغَابَنُ فيه الناسُ، والتَّغابُنُ أَنْ يَظْهَرَ فيه الغَبْنُ مِن بعْضِ الناسِ لبَعْضٍ.

أما التَّغابنُ في الدنْيا فإنَّ أَمْرَهُ هَيِّنٌ، ونحن جَمِيعًا نُشاهِدُ في هذِه الدُّنْيا تَغابُنَ الناسِ بعضِهم بعْضًا، ولكنَّ هذَا التَّغَابُنَ ليسَ بشيءٍ بالنسْبَةِ إلى تغابُنِ يومِ القيامَةِ،

ولذلكَ قالَ اللهُ تعـالَى هنَا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، وإننا في هذه الدُّنْيَا نرى مِنَ الناسِ مَنْ يموتُ جُوعًا وعَطَشًا، ونرى مِنَ الناسِ مَنْ لا فِراشَ لَهُ ولا مَأْوَى، ونَرَى مِن الناسِ مَنْ لا زوجَةَ له ولا وَلَدَ، ونَرَى مِن الناسِ مَنْ لا دِرْهَمَ عندَهُ ولا مَتاعَ، ونرى في عكسِ ذلِكَ أُناسًا عندَهُم القُـصورُ وعِنْدَهُم الغِنَى والدُّثُـورُ وعندهُم الأموالُ والبَنُونُ وعندَهُم المراكِبُ الفَخْمَةُ وتَخْدِمِهُم الناسُ في جميعِ أمورِهِمْ، فلا شكَّ أَنَّ هذا فيه غَبْنٌ، لكنَّ يومَ القيامَةِ أعظَمُ غَبْنًا وأطولُ هَمًّا.

ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٢١] وهذا التفْضِيلُ في الدُّنْيا، ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فالآخِرةُ أكبرُ دَرَجاتٍ مِنَ الدُّنيا، وأكبرُ تَفْضِيلًا.

ولقد أخبرَ النبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ» -وكل منهم في الجنـة- «كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَـوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُـقِ»[1]، ونَحنُ نَرَى الكوكَبَ الدُّرِّي بَعِيدًا، فأَهْلُ الجنَّةِ يتفاضَلُونَ في منازِلِهِمْ، قالوا: يا رسولَ الله تِلْكَ مَنازِلُ الأنبيـاءِ لا يَبْلُغُهَا غيرُهُم؟ قـالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَـدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»، آمنَّا باللهِ وصَدَّقْنَا برُسُلِهِ، ونسألُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ هؤلاءِ.

إِنَّ يَوْمَ التَّغَـابُنِ حَقًّا هو يومُ القِيامَةِ، واستَمِعْ إلى وجْـهِ الغَبْنِ في هذا اليوم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التغابن:٩]، جناتٌ تَجْرِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٨٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١).

من تَحتِها الأنهارُ، وأنهارُ الجنَّةِ مِنْ أصنافٍ أرْبعَةٍ: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

فهذه الجنـة «فِيهَا مَا لَا عَـيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَـطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١]، فيها مِن كُلِّ فاكِهَةٍ زَوجانِ، فيها حُورٌ مَقْصُوراتٌ في الخِيامِ، قاصِرَاتُ الطَّرْفِ لم يطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبْلَهُم ولا جَانٌّ، هذا هو الفَخْر، وهذه هِي الحياةُ.

وفي مُقَـابِلِ ذلكَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن:١٠]، وأصحابُ النارِ هُمْ أَهْلُهَا الملازِمُونَ لها، لا يَخْرُجـونَ منْها، والعِياذُ باللهِ ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] خالِدِينَ فِيهَا أبدًا، وقد ذَكَرَ اللهُ تأبيدَ أهلِ النَّارِ في ثلاثةِ مواضِعَ مِنَ القُرآنِ.

الموضِعُ الأوَّلُ: في سُورَةِ النِّساءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

والموضِعُ الثَّـانِي: في سُورَةِ الأحْزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والموضِعُ الثـالثُ: في سُورَةِ الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

فهذه الآياتُ الثلاثُ تَدُلُّ على أنَّ عَذابَ النَّارِ أَبَدِيٌّ لا يُفتَّرُ عن أَهْلِهَا، وهُم

---

(١) لما أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

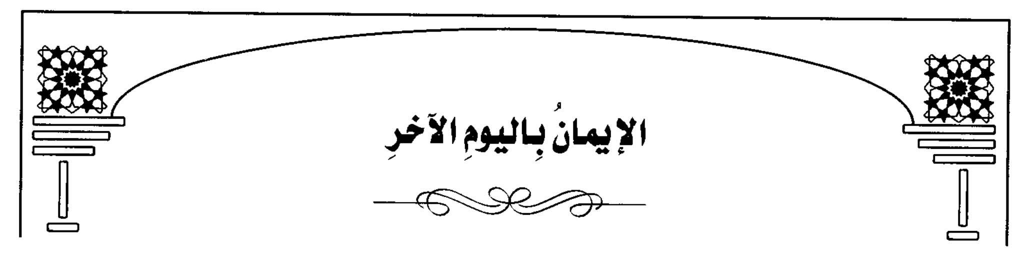
فيها مُبْلِسُونَ، نسألُ اللهَ العافِيَةَ، أليس هذا هُو التَّغَابُنَ؟ بلى واللهِ هُو التَّغَابِنُ.

ولكِنْ ما الطَّرِيقُ إلى اجْتِنَابِ ما يكونُ فيهِ الغَبْنُ؟

الطريقُ إلى ذلِكَ هوَ الإيمانُ باللهِ والعَمَلُ الصالِحُ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التغابن:٩].

أسألُ اللهَ تَعَالَى لنَا جَمِيعًا أَنْ يجْعَلَنَا مِنَ المؤْمِنِينَ بِه العامِلِينَ بمَرْضَاتِهِ إنه جَوَادٌ كريمٌ.





الإيمانُ باليومِ الآخرِ

الحمدُ للهِ وَحدهُ، وَالصلاةُ وَالسلامُ عَلى مَنْ لَا نبيَّ بعدهُ، وبعدُ:

فسوفَ نَتكلمُ عَن موضوعٍ مُهِمٍّ جِدًّا، وهوَ عنِ الإيمانِ بِاليومِ الآخِرِ، وَالإيمانُ بِاليومِ الآخِرِ هوَ أنْ يؤمنَ الإنسانُ بأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يبعثُ الناسَ مِن قُبورهمْ فِي اليومِ الآخِرِ الَّذي لَا يومَ بَعْدَهُ، وهو آخِرُ مَرَاحِلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الإنسانَ لهُ أربعُ مَرَاحِلَ:

المرحلةُ الأُولى: فِي بَطْنِ أُمِّه.

المرحلةُ الثَّانية: فِي الدنيَا.

المرحلةُ الثَّالثةُ: فِي البَرْزَخِ.

المرحلةُ الرَّابعةُ: اليومُ الآخِرُ.

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، هذهِ أربعُ مَراحلَ، فَالمرحلةُ الأَخيرةُ النِّهائيةُ الَّتي لَا مَرْحَلَةَ بَعْدها هيَ اليومُ الآخِرُ، وهوَ اليومُ الَّذي يُبْعَثُ الناسُ فِيه مِن قُبُورهِمْ، وقدْ أَخطأَ مَن يقولُ إذَا ماتَ الميتُ: إنهُ انتقلَ إِلَى مَثْوَاهُ الأخيرِ، هذهِ الكلمةُ خطأٌ وخطيرةٌ جِدًّا جِدًّا، ولَوْلا أنَّ الذِي يقولها مُسلمٌ لقُلنَا: إنَّ هذَا الرَّجُلَ يُنْكِرُ البَعْثَ؛ لأنَّ المثوَى الأخيرَ ليسَ القَبْرَ، فالمثوَى الأخيرُ هوَ إمَّا الجنةُ وإمَّا النارُ، والعِياذُ باللهِ.

ولوْ أَخذنا بِمَدلولِ ظاهرِ اللفظِ لَقُلْنَا: إنَّ الَّذي يتكلمُ بِهذا يُنْكِرُ البَعْثَ، ومُنْكِرُ البَعْثِ كافرٌ؛ وَلِهَذَا يجبُ التَّحَرُّزُ مِن إطلاقِ هذهِ الكلمةِ، فَلا يجوزُ أنْ تقولَ: الرَّجُلُ انتقلَ إلَى مَثْوَاهُ الأخيرِ، فهناكَ مَثْوًى آخَرُ هوَ الأخيرُ، وهوَ إمَّا الجَنَّةُ، وإمَّا النارُ كَما قالَ النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: «**ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»[1].

ولو قال قائلٌ: الإيمانُ باليومِ الآخِرِ هلْ يُكتفى فيهِ أَنْ يُؤْمِنَ الإنسانُ بأنَّ الناسَ يُبعثونَ مِن قُبُورهِمْ ثمَّ يَأْوُونَ إلى الجَنَّةِ أَو إلى النارِ، أَو هُناكَ أَشياءُ أُخْرَى لا بدَّ مِنَ الإيمانِ بِها؟

الجوابُ: هناكَ أشياءُ أُخْرى لا بدَّ مِنَ الإيمانِ بِها، قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كتابِهِ المسمَّى (العَقِيدة الواسطيَّة)، وهوَ كتابٌ مختَصَرٌ فِي العقيدةِ لَمْ أَعْلَمْ لهُ نظيرًا؛ وَلِهَذَا يَنبغي لِطالبِ العِلمِ أنْ يحفظهُ عَن ظَهْرِ قلبٍ، وأنْ يَتَمَعَّنَ مَعناهُ، قالَ فِي هذَا الكتابِ: (وَمِنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بكلِّ مَا أخبرَ بهِ النبيُّ ﷺ مما يكونُ بَعْدَ الموتِ)[2]. فانْتَبِهْ لِهذه القاعدةِ.

والذِي يكونُ بعدَ الموتِ أشياءُ كثيرةٌ، فَمِنها أنَّ الإنسانَ يُفْتَنُ فِي قَبْرِهِ، يُختبرُ اختبارًا بَالِغًا، وليسَ عندهُ مِنْ مَرَاجِعَ يَرْجِعُ إِلَيْهَا، لَا أَشْرِطَةَ، ولَا رَسائلَ، ولا كُتُبَ، يُمْتَحَنُ فِيقَالُ لهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ ومَا دِينُكَ؟ ومَنْ نَبِيُّكَ؟ ثلاثُ كَلِماتٍ، وعلَى هذهِ الثلاثِ كَلِماتٍ بنَى شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رِسالَتَهُ الصَّغيرةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧).
(٢) انظر: العقيدة الواسطية، لابن تيمية (ص:١٩).

الكَبيرةَ (الأُصولَ الثلاثةَ)، يقولُ: يُسْأَلُ الإنسانُ فِي القبرِ، يَأتيهِ مَلَكَانِ، فيَسْألانِهِ: مَن رَبُّك؟ مَن نَبِيُّك؟ مَا دِينُك؟

أمَّا المؤمنُ فَيُثَبِّتُهُ اللهُ بِالقولِ الثابتِ فِي الحياةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرةِ، فَيقولُ: ربِّيَ اللهُ، ودِينِي الإسلامُ، ونَبِيِّي مُحمدٌ ﷺ، أسألُ اللهَ تَعالَى أنْ يُثَبِّتَنِي وإيَّاكم عَلى ذَلك.

وأمَّا المرتابُ أَوِ المنافِقُ فإنَّه لَا يستطيعُ أَنْ يُجِيبَ، ولَو كانَ فِي الدنيَا لَا يَستطيعُ أنْ يُجيبَ، ولكنهُ فِي الآخِرةِ يَقولُ: هَا هَا، لَا أَدْري، سَمعتُ الناسَ يَقولونَ شيئًا فَقُلتُه. وتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: هَا هَا، كأنهُ يُريدُ أنْ يَتذَكَّرَ شَيئًا، لكنْ يُحالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وهَذَا أَشَدُّ فِي الحَسْرَةِ مِمَّا لَو كَان جَاهلًا جَهْلًا مَحضًا؛ لأنَّ الذِي يَشْعُرُ بأَنَّهُ أَدْرَكَ الشيءَ ثمَّ يَعْجِزُ عنهُ أَشَدُّ مِنَ الَّذي لمْ يُدْرِكِ الشيءَ؛ ولهذَا يَقولُ: هَا هَا، كأنهُ يَتذكَّرُ، وفِي النهايةِ يقولُ: لَا أَدْري، سمعتُ الناسَ يَقولونَ شَيئًا فَقُلتهُ. وهذِهِ الفتنةُ فِتنةٌ عظيمَةٌ، لَا يَنْجو مِنها إلَّا مَن كانَ قَلْبُهُ خَالصًا طَاهرًا نَظيفًا مُوَحِّدًا للهِ عَزَّوَجَلَّ شاهدًا بأنَّ دِينَهُ الحقُّ، وأَنَّ رسولَهُ محمدًا -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- حقٌّ.

فإنْ قيلَ: هَل هذهِ الفِتْنـةُ شَاملةٌ لِلصغيرِ وَالكبيرِ، وَالذَّكرِ وَالأُنثى، والحُرِّ والعَبْدِ؟

فنقـولُ: هذهِ الفتنةُ خَاصةٌ بِالكبيرِ عَامةٌ فِي الحرِّ والعبـدِ، والذَّكرِ والأُنثَى، فَالصِّغارُ لَا يُمْتَحَنُونَ؛ لأنَّهم لَمْ يَجْرِ عليْهم قَلَمُ التكليفِ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: بَل يُمْتَحَنُونَ؛ لِأَنهم تَبعٌ لِآبائهمْ. والعِلمُ عندَ اللهِ، لكنَّ الذِي يَظْهَر أنَّهم لَا يُمتحنونَ، فَيَنْجُو مِن ذَلك الصغارُ، ويَنْجُو مِن ذلكَ النَبيُّون، النبيُّ لَا يُسْأَلُ؛ لأَنَّه نَبِيٌّ مؤمنٌ، وهوَ مسؤولٌ فكيفَ يُسْأَلُ.

ومِمَّنْ لَا يُسألونَ أيضًا الشُّهدَاءُ، لأنَّ المقصودَ بِهَذَا السؤالِ امتحانُ الإنسَانِ هَل هُو مؤمنٌ أَو لَا، وَالشهيدُ مُؤمِنٌ؛ لأنَّه بَذَلَ رَقبَتَهُ لِأَعداءِ اللهِ، لِإعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ، ولهذَا جاءَ فِي الحديثِ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»[1].

وبَارِقَةُ السُّيُوفِ: لَمَعَانُها، فَإِذَا صَبَرَ عَلَى ضَرْبَةِ السَّيْفِ كَانَ ذَلك أَبلغَ دليلٍ عَلَى صِدقِ إِيمانِهِ.

وأيضًا مِمن لا يُسألونَ المرابطُ فِي سَبيلِ اللهِ، فالمَرابطُ عَلى ثَغرٍ مِنْ ثُغُورِ الإسلَامِ هَذا أيضًا لَا يُسأَلُ فِي قَبْرِهِ؛ لِظُهورِ صِدْقِهِ بِالمرابطةِ عَلَى حُدودِ البلادِ الإِسلاميةِ وَحِمايةِ المسلمينَ مِنْ أَعْدَائهم.

ثُمَّ بعدَ هذهِ الفتنَةِ إمَّا نَعِيمٌ، وإمَّا عذابٌ، فإنْ كانَ قَد أَجابَ بِالصوابِ فَهو فِي نعيمٍ، وإنْ أجابَ بِغَيْرِ الصوابِ فَهُو فِي عذابٍ.

وعذابُ القبرِ ثَابتٌ فِي القرآنِ وَالسُّنةِ وَالإجماعِ العَمَلِيِّ منَ المسْلمينَ، أَمَّا الكتابُ فَاستمعْ إِلَى قولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، وجهُ الدَّلالَةِ مِنَ الآيةِ: أنَّ الملائكَةَ تقولُ: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكم اليَوْمَ، و(ال) هُنا لِلعَهدِ، وهناكَ عَهْدٌ ذِهْنيٌّ، وذِكريٌّ، وحُضُوري، وهيَ هُنا مِنَ العَهْدِ الحُضُوريِّ، يَعْني يَوْمَ وَفَاتِكُمْ.

دليلٌ ثانٍ: وهُوَ قولهُ تعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم (٢٠٥٣).

دليلٌ ثالثٌ: وهوَ قولهُ تَعالَى فِي آلِ فِرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

هذَا فِي القرآنِ، أمَّا فِي السُّنَّةِ فَقَدْ ثبتَ فِي الصحيحَينِ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قالَ: مَرَّ النبيُّ ﷺ بِقبرينِ فَقالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[1]. أمَّا عَدَمُ الاستنزَاهِ مِنَ البَوْلِ فَمعناهُ أنَّه يُفرِّط، لَا يَسْتَنْجِي استنجاءً كامِلًا، أَو يَتَقَاطرُ البولُ عَلى ثَوْبِهِ، أَو عَلى فَخِذِهِ، ولَا يَسْتَنْزِهُ مِنه، وأمَّا الذِي يَمشي بِالنَّمِيمَةِ فَهوَ الذِي يَنْقُلُ كَلامَ الغَيرِ فِي الغَيرِ لِلْإفسادِ بَيْنهما، وسمَّاهُ النبيُّ ﷺ الحالِقَةَ، وقالَ: «**لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»[2]. فتَجدهُ -مثلًا- يَفْرَحُ إِذَا سَمِعَ أنَّ فُلانًا يَتكلم فِي فلانٍ، ثمَّ يذهبُ إِليهِ، ويقولُ: فلانٌ قالَ فيكَ كَذَا وَكَذَا. وهذِهِ نَميمةٌ.

ولْيَحْذَرْ كُلُّ مُسْلِمٍ مِنَ السَّخيفِ النَّمَّامِ؛ لأنَّه إذَا نَمَّ إليكَ نَمَّ مِنكَ إِلَى غَيرِكَ، فَاحْذَرْهُ، ورُبَّما يكونُ جَاسُوسًا، ينظرُ مَاذا تقولُ فِي هذَا الرَّجُلِ الَّذي ادَّعى أنَّه سَبَّكَ أَو قَدَحَ فِيكَ؛ وَلِهَذَا كانَ الَّذي يَمشي بِالنَّمِيمةِ مُعَذَّبًا فِي القبرِ، وَالعياذُ بِاللهِ، ويُخبرُ النبيُّ ﷺ أنهُ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[3]، أَيْ: نَمَّامٌ.

هذَا دليل ثُبُوتُ عَذَابِ القبرِ مِنَ السُّنةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألَّا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد: (١/ ١٦٧، رقم ١٤٣٠)، والترمذي: أبواب صفة القيامة...، بابٌ، رقم (٢٥٠٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٥٧٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (١٠٥).

وأمَّا ثبوتُ عذابِ القبرِ إجماعًا عَمليًّا مِنَ المسلمينَ؛ فإنَّ كُلَّ المسلمينَ يَقولونَ فِي صَلاتِهمْ: أعوذُ باللهِ مِنْ عَذَابِ جَهنمَ، ومِنْ عذابِ القبرِ، والإيمانُ بِهَذَا مِما يَدْخُلُ تحتَ قَولِنَا: الإيمانُ بِاليومِ الآخِرِ، وأَمَّا نَعيمُ القَبرِ فثَابِتٌ أيضًا بِالقرآنِ وبِالسُّنَّةِ، أمَّا القرآنُ فقولُ اللهِ تعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل:٣٢]، تتَوَفاهم طَيبينَ يَقُولُونَ: سلامٌ عَلَيكم، وإنَّما يكونُ ذَلك عِندَ الوفاةِ؛ وَلِهذا يُفتحُ لِلمُؤمنِ بابٌ إلى الجنةِ، يَأتيهِ مِنْ رُوحهَا وَنَعِيمها.

ومِنْ أَدِلَّةِ القرآنِ أيضًا عَلى نعيمِ القَبرِ قولهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣]، يعنِي أن الروحَ وَصَلَت إِلَى الحُلقـومِ مِن أسفلِ الجسَدِ؛ لأنَّها تخرجُ مِن أَسفَلِ الجسدِ حتَّى تخرُجَ مِن عندِ الرأسِ، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٤-٨٥]، والمرادُ بِقـولِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يَعني بِمَلَائكتنا، فَالملائكةُ أَقربُ إلى الإنسَانِ عندَ الاحتضارِ مِن حُلْقُومه إِلَى نَفسِهِ، ولكنْ لَا تُبْصِرونَ، وَيحتملُ أنَّ المعنَى: نحنُ أَقربُ إِلَى الميتِ مِنكمْ، يَعْني أهلهُ، ولكنْ لَا تُبصرونَ، ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧]، وهلْ يُمكن لأيِّ أَحدٍ مِنَ الناسِ مَهْمَا بَلَغَ فِي الشدَّةِ وفِي الطِّبِّ هَل يُمكن أنْ يُعِيدَ الرُّوحَ مِن الحُلْقُومِ إلَى الجَسَدِ؟ لَا؛ وَلِهَذَا جاءتْ بِصيغةِ التَّحَدِّي ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٧-٨٩]، ويَكونُ هذَا عندَ الاحتضَارِ، وَبِهذَا تُبَشَّرُ الرُّوحُ بِالجنةِ.

وقَدْ سُمِعَ بعـضُ المحتَضَرِينَ وهوَ يحتضرُ عنـدَ الموتِ يقولُ: روحٌ وَرَيحانٌ، وجنةُ نعيمٍ، مِمَّا يدلُّ عَلى أنَّه بُشِّر بِذلكَ، أَسألُ اللهَ أنْ يَجعلنِي وَإِياكم مِنهُم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٠-٩٤]، هذا مِمَّا يَدْخُلُ فِي الإيمانِ باليوم الآخِرِ.

وأمَّا الدليلُ مِنَ السُّنَّةِ عَلى نعيمِ القَبرِ، فَقد رُوي أَنَّ النبيَّ ﷺ أَخْبَرَ أنَّ الإنسانَ إِذَا سُئِلَ عَن رَبِّهِ ودِينهِ ونَبيِّهِ فَأَجاب بِالصَّوابِ، فإنَّه يُفتحُ لَهُ بابٌ إِلى الجَنَّةِ، ويأتِيهِ مِن رُوحهَا وَنَعِيمها مَا يَأْتِيه[1].

وأمَّا أَهلُ العِلْمِ فإنَّهم يَقولونَ بِذَلك، أيْ: بأنَّ الإنسانَ يُنَعَّمُ فِي القبرِ.

ومِنَ الإيمانِ باليـومِ الآخِرِ أنْ تُؤمنَ بِما وصفَ فِي الكتـابِ وَالسُّنةِ مِمَّا يكونُ فِي ذلكَ اليومِ، فَمِنها أَنَّ الشَّمس تَدْنُو مِنَ الخلائقِ بِمقدارِ مِيلٍ، وقدْ قالَ الرَّاوي: لَا أَدْري أَراد بِالميلِ ميلَ المُكْحُلَةِ، أَو أَرادَ بِالمِيلِ المسافةَ[2]. وسواءٌ هـذَا أَو هَذا فإنَّ الشمسَ تَدْنُو جِدًّا مِنَ الرؤُوسِ، وإذَا كنَّا نُحِسُّ بِحَرارتها العَظيمةِ مَع بُعدها الشَّاسع، فَما بَالُك بِهَا يومَ القيامةِ إِذَا كَانت بمقدارِ مِيلٍ؟!

وهذهِ الشمسُ هَل يمكنُ لأحدٍ أنْ يَسْلَمَ مِنها، إِلَّا مَا وَرد فِي حديثِ السَّبعةِ الذينَ قالَ النبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيهمْ: «**سَبعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَـةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْـهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْـهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَـالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ،**

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، بابٌ، رقم (٢٤٦٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، رقم (٢٨٦٤).

وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[(١)]، يُظلهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي ظِلِّهِ، وهَذا الظِّلُّ الَّذي يُظِلُّ اللهُ بِه مَنْ شاءَ مِن عِبادِهِ هُو ظِلٌّ مخلوقٌ، يَخلُقهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ، يُظِلُّ بِهِ هَؤلاءِ، كَما جاءَ فِي الحديثِ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٢)].

ومِنَ الإيمانِ بِاليومِ الآخِرِ أَنْ تؤمنَ بِالحسابِ، وهوَ المحاسبةُ، لكنَّ الحسابَ يكونُ عَلَى ثَلاثةِ أوجُهٍ:

الوَجهُ الأوَلُ: أنَّ اللهَ تَعَالَى يَخلو بِالعبدِ، ويضعُ عليهِ كَنَفَهُ -يَعني سِتْرَهُ- ويُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ويقولُ لهُ -أَي: اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إِذَا أقرَّ بِالذُّنوبِ-: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِني أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[(٣)].

الوجهُ الثَّاني: مَن يُقَرَّر أمامَ النَّاسِ -وَالعياذُ باللهِ- وَيَخزى، ويُقَالُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

الوجهُ الثالثُ: مَن يُحاسبُ محاسبةَ مَن لَا حَسناتِ لهُ، وهوَ الكافرُ، فإنَّ الكافِرَ -نسأَلُ اللهَ العافيةَ- لَا يحاسبُ كَحسابِ المؤمنِ، أَو حسابِ الفاسقِ، أَوِ المنافِقِ، وإِنْ كَانَ المنافقُ أَشَدَّ عذابًا مِنَ الكفارِ.

ومِنَ الإيمانِ بِاليومِ الآخِرِ الإيمانُ بِالموازينِ، وأَنَّ الأعمالَ تُوزَنُ، ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

(٢) أخرجه أحمد: (٤/ ١٤٧، رقم ١٧٣٧١)، وابن حبان (٨/ ١٠٤، رقم ٣٣١٠)، والطبراني (١٧/ ٢٨٠، رقم ٧٧١)، والحاكم: (١/ ٥٧٦، رقم ١٥١٧) وقال: صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٣٠٩)، ومسلم: كتاب التوبة قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم، رقم (٢٧٦٨).

مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٤].

ومنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ الإيمانُ بالحوضِ المورُودِ لمحمدٍ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-، وهوَ حوضٌ طولُهُ شهرٌ، وعَرْضُهُ شَهْرٌ، وآنيتُهُ كنُجومِ السماءِ في العددِ والحُسنِ، ويصبُّ عليهِ ميزابانِ مِنَ الكوثرِ الذِي فِي الجنةِ الَّذي أَعطاهُ اللهُ تَعالَى نَبيَّهُ محمدًا -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-، ويَرِدُهُ المؤمنونَ مِنْ أُمةِ محمدٍ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-، ومَنْ شَرِبَ منهُ شَرْبةً واحدةً لمْ يظمأْ بَعْدهَا أَبدًا.

ومِنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بالشفاعةِ، والشفاعةُ تَنقسمُ إِلَى قسمينِ: عامَّةٍ، وخاصَّةٍ، فأمَّا العامَّةُ فهيَ الَّتي تكونُ لِلأنبياءِ والصِّديقينَ والشهداءِ والصالحينَ، وأمَّا الخاصةُ فهيَ الخاصَّةُ بِمحمدٍ ﷺ، فمِنهَا -أيِ الخاصةِ- الشفاعةُ العُظْمى، والشفاعةُ العُظمى هيَ أنَّ الناسَ يومَ القيامةِ يَبْقَوْنَ على ظَهرِ الأرضِ خمسينَ ألفَ سَنةٍ، والشمسُ تَدْنُوا مِنهمْ، والعَرَقُ يُلجمُ بعضَهُم، فهُمْ فِي هَمٍّ وغَمٍّ وكربٍ، فيقولُ بعضهمْ لِبعضٍ: اطْلُبوا مَنْ يشفعُ لَنا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يُريحنا مِن هذَا الموقفِ؛ لأَنَّهُم يقفون هَذَا الموقفَ حُفاةً عُراةً، غُرلًا مَهْمُومينَ مَغْمُومينَ، الشمسُ مِن فوقهِمْ، والعَرَقُ قَد كَسا كثيرًا منهمْ، ولَا شكَّ أَنَّهم سوفَ يَلحقُهمْ مَا لَا يعلمهُ إِلَّا اللهُ، فَيُلْهَمُونَ أَنْ يأْتوا إِلَى آدمَ فَيعتذرُ بأَنَّه أكلَ مِنَ الشَّجرةِ، وقدْ نهاهُ اللهُ عَن أكلِهَا، ثمَّ إِلَى نوحٍ، فيعتذرُ لأَنَّه سألَ مَا ليسَ لهُ بِهِ علمٌ، حيثُ قالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، ثمَّ يَأتونَ إِلَى إِبراهيمَ، فَيعتذرُ؛ لأَنَّه كذبَ فِي ذاتِ اللهِ ثلاثَ كَذباتٍ، وهِي لَيست كَذِبًا؛ بَل هيَ تَوريةٌ، والتَّوريةُ صِدقٌ مِنْ جانبٍ،

وكذبٌ مِنْ جانبٍ آخَرَ؛ لكنَّها لَا تُخالِفُ الحقيقَةَ، ثمَّ يأتونَ إلى موسَى فيعتذرُ؛ لأَنَّه قَتَلَ نفسًا لَمْ يُؤمرْ بِقَتلها، فِي قصةِ القِبطيِّ والإِسرائيليِّ، وهيَ مَذكورةٌ فِي سُورةِ القصصِ، ويَأتونَ إلى عيسَى فَلا يعتذرُ؛ ولكنهُ يعترفُ بفَضلِ محمدٍ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- فيقولُ: اذهبُوا إِلى محمدٍ عَبْدٍ غفرَ اللهُ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذَنْبِهِ ومَا تأخَّرَ، فَيأتونَ إِلى رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فيستأذِنُ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أنْ يشفعَ للخَلقِ، فيأذنُ اللهُ لهُ، ويسجدُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويفتحُ اللهُ عليهِ مِنَ المحامِدِ وَالتعظيمِ للهِ مَا لمْ يكنْ مِن قَبْلُ؛ حتَّى يأتيَ اللهُ لِلقضاءِ بينَ عِبادهِ عَزَّوَجَلَّ أسألُ اللهَ أنْ يرزقنِي الشوقَ إِلَى لقائهِ، فِي غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولَا فتنةٍ مُضِلَّةٍ.

وهذهِ الشَّفاعةُ تُسَمَّى الشفاعةَ العُظمَى، وهيَ مِنَ المقامِ المحمودِ الَّذي قالَ اللهُ فيهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩].

ومِنَ الشفاعَةِ الخاصةِ بِالرسولِ شَفاعتهُ لِعَمِّهِ أَبِي طالبٍ، وهوَ أَخُو أبيهِ، دافعَ عنِ النبيِّ ﷺ أَشَدَّ المدافعَةِ، وذَكرَ لهُ مِنَ الفضائِلِ والمناقبِ الكثيرَ، وامتدحهُ بقصيدَةٍ لامِيَّةٍ قالَ عنهَا ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي البدايَةِ وَالنِّهايةِ: جديرَةٌ بأنْ تكونَ مِنَ المُعَلَّقَاتِ[1]، والمُعَلَّقاتُ هيَ قصائدُ مَشهورةٌ عندَ العربِ عَظيمةٌ، عَلَّقوهَا فِي الكعبَةِ؛ تَعظيمًا لهَا يقولُ: هيَ أَبْلَغُ مِنَ المُعَلَّقَاتِ، فِي هذهِ القَصيدةِ يقولُ أَبُو طالبٍ:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

الأباطلُ: أَيِ السَّحَرَةُ، يقولُ لقدْ عَلِمُوا أنَّه لَا مكذبٌ عندَنَا، وليسَ بساحرٍ، وهذَا تصديقٌ؛ لكنهُ لَيْسَ بإيمانٍ، والفَرْقُ بينَ التصديقِ وَالإيمانِ أَنَّ الإيمانَ تَصديقٌ

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ١٤٣).

وَإِذعانٌ وقبولُ، والإِذعَانُ والقبولُ لَمْ يَحصُلَا مِنْ أَبِي طالبٍ؛ لكنهُ لَا شكَّ أنهُ دافعَ عنِ النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ-؛ وَلِهذا أَذِنَ اللهُ لنبيهِ أنْ يشفعَ لهُ، ولمْ يأذنْ لهُ ﷺ أنْ يشفعَ لأُمِّهِ -أَي: لأُمِّ النبيِّ- بِالاستغفَارِ، فقـدْ طلبَ النبيُّ ﷺ مِنَ اللهِ أَنْ يَستغفرَ لأُمِّهِ فلمْ يَأذنْ لهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[1]، لكنْ أَذِنَ اللهُ لِرسولِهِ أنْ يَشفعَ لِعَمِّهِ أَبِي طَالبٍ؛ لأنَّ عَمَّهُ أَولى بِالشفـاعةِ مِنْ أُمِّهِ؛ لِمدافعةِ عَمِّهِ عنهُ وعنْ دِينـهِ، وبهذهِ الشفاعَةِ أُخرجَ مِنَ الدَّرْكِ الأسفلِ منَ النارِ، حتَّى كانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نارٍ، وعليهِ نَعْلَانِ، يَغْلي منهُمَا دِماغهُ، نَسألُ اللهَ العافيَةَ.

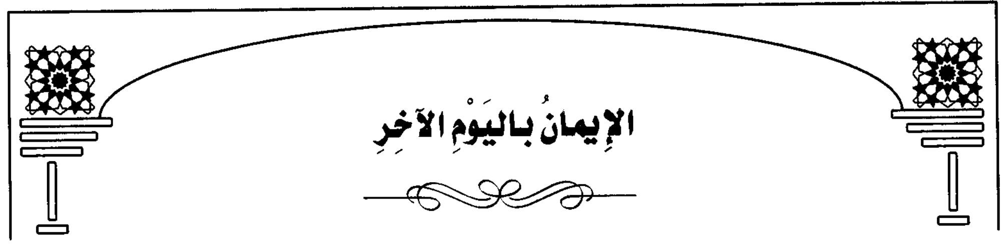
وهذِهِ الشفاعةُ خَاصَّةٌ بِالرسولِ ﷺ لأنهُ لَا يمكنُ لِأحدٍ أنْ يشفعَ فِي الكافِرِ مَهْما كانَ، إلَّا النبيَّ ﷺ أَذِنَ اللهُ لَه أنْ يشفعَ فِي عَمِّهِ أَبِي طالبٍ.

ومِنَ الشفاعَةِ الخاصَّةِ أَيضًا شَفاعةُ النبيِّ ﷺ لِأهلِ الجنةِ أنْ يَدْخلوها؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ إِذَا عَبروا الصِّراطَ، وَقَفوا عَلى قَنطرةٍ بينَ الجنةِ والنـارِ؛ لِيقتصَّ لِبَعضهمْ مِنْ بَعْضٍ، ثمَّ أَذِنَ لهمْ فِي دُخولِ الجَنَّةِ، فَإِذَا جَاؤُوا وَجَدوا الأبوابَ مُغلقةً، فيفتحُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الأبوابَ، لكنْ يأذنَ اللهُ تَعَالَى لِلرسولِ أنْ يَشفعَ إِظهارًا لِفَضلهِ وَشَرَفِهِ، فكَانتْ شفاعةُ النبيِّ ﷺ فِي العَالمينَ شَفاعةً فِي دَفْعِ ضَرَرٍ، وشَفاعةً فِي جَلْبِ نفعٍ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦).



الإيمانُ باليَوْمِ الآخِرِ

الحـمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على نَبِيِّنا مُحَـمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وإِمَامِ المُتَّقِينَ. **أَمَّا بَعْدُ:**

فأَوَدُّ أن أتكَلَّمَ على مَوْضوعينِ هَامَّيْنِ: أَحَدُهما عامٌّ، والثاني خَاصٌّ، أمَّا العامُّ فهو إحياءُ المَوْتَى، وهل الناسُ بعدَ هذه الحياةِ سيَحْيَوْنَ ويُجَازَوْنَ أَمْ أَنَّ النِّهايةَ مِن هذه الحياةِ هي النهايةُ؟

هذا مَوْضوعٌ مُهِمٌّ يَترتَّبُ عليـه أن الإنسان إِمَّا أنْ يَعْمَلَ، وإما أَلَّا يَعْمَلَ، إما أنْ يَكونَ مَغْبونًا، وإما ألا يَكُونَ مَغْبونًا، إذا كان الإنسان لا يُؤْمِنُ بالآخرةِ فلا يُمكِنُ أَنْ يَعْمَلَ لشيءٍ لا يُؤْمِنُ به، وإنْ عَمِلَ ما يُحْمَدُ عليه كالكَرَمِ والشجاعةِ، فإنما يَعْمَلُه للدنيا، لأنه لا يُؤْمِنُ بالآخرةِ.

إذا لم يَكُنْ هنـاك آخِرةٌ فإن الغَبْنَ سيملأ القُلوبَ؛ لأن هذه الدُّنيا نَجِدُ فيها الناسَ يَتفـاوتون فيها تَفاوُتًا عَظِيمًا، فيَبْقَى الإنسانُ مَغْبونًا إذا رأى ذَوِي القُـصورِ العاليةِ والمَراكِبِ الفاخرةِ والحَشَمِ والخَدَمِ وهو فَقِيرٌ، سوف يَمْتلِئُ غَمًّا، لكنَّ الإيمانَ بالآخرةِ يُوجِبُ للإنسانِ أَنْ يَعْمَلَ، ويُوجِبُ للإنسانِ أَلَّا يَهْتَمَّ بالدُّنيا، وأن ما فاته مِن نَعيمِ الدُّنيا فإنه له في الآخرةِ إن كان مُؤْمنًا.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

وذُكِرَ أن الحافِظَ ابنَ حَجَرٍ لما كان قاضِيَ القُضاةِ مَرَّ يومًا بالسُّوقِ في مَوْكِبٍ عَظِيمٍ وهيئةٍ جَميلةٍ، فهَجَمَ عليه يَهودِيٌّ يَبِيعُ الزيتَ الحارَّ وأثوابُه مُلَطَّخةٌ بالزيتِ، وهـو في غايَةِ الرَّثاثةِ والشَّناعة، فقَبَـضَ على لِجامِ بَغْلَتِه وقال: يا شيخَ الإسـلامِ، تَزْعُم أن نَبِيَّكم قـال: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّـةُ الكَافِرِ»، فأيُّ سِجْنٍ أنتَ فيـهِ، وأيُّ جَنَّةٍ أنا فيها؟ فقال الحافِظُ: أنا بالنسبةِ لما أَعَدَّ اللهُ لي في الآخرةِ مِن النَّعِيمِ كأني الآن في السِّجْنِ، وأنتَ بالنسبةِ لِمَا أعَدَّ لكَ في الآخرةِ مِن العذابِ الأليمِ كأنك في الجَنَّةِ، فأَسْلَمَ اليَهُودِيُّ[1].

إذن مَن لا يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ لا يَعْمَلُ، ومَن لا يُؤْمِنُ بالآخِرةِ سيَجِدُ الغَبْنَ العَظِيمَ بَيْنَ الخَلْـقِ، ومَن يُؤْمِنُ بالآخِرةِ سَيَعْمَلُ، ولا يَجِـدُ غَبْنًا في الدُّنيا أبدًا، لأن ما فـاته مِن نَعيمِ الدُّنيا إن كان مُؤْمِنًا فسيَجِدُه في الآخِرَةِ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

الموضوع الثاني خاصٌّ، وهو الكلامُ على نبيٍّ مِن أنبياءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقِصَّتُه مع الخَصْمِ، وسنَتَكَلَّمُ عليها.

أما الآخرةُ وهو البَعْثُ، فهذا مما أَجْمَعَتْ عليه الكُتُبُ السَّماوِيَّةُ أنَّ الناسَ لا بُدَّ أَنْ يُبْعَثُوا ولا بُدَّ أَنْ يُجازَوْا؛ لأنَّ وُجودَ خَلِيقةٍ تَكْدَحُ وتَعْمَلُ وتُقاتِلُ في سبيلِ ما دُعِيَت إليه فتَقْتُـل وتُقْتَل دونَ أَنْ يَكُونَ هنـاك مآلٌ يَظْهَرُ فيه الثوابُ للمُوافِقِ والعِـقابُ للمُخالِفِ هذا عَبَثٌ يُنَزَّهُ اللهُ عنه، ولهذا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير، للصنعاني (٦/ ١٣٨).

واللهِ لولا رُجوعُ الناسِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وحِسَابُهم على أعمالِهم لكانَ وُجودُهم عَبثًا يُنزِّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنه.

هذه الحقيقةُ -وهي البَعْثُ- أقامَ اللهُ عليها البراهينَ العَقْلية والبراهينَ الحِسِّيةَ، لأن إيمانَ الإنسان بها مِن مَصْلحةِ الإنسانِ، واللهُ تَعَالَى غَفُورٌ كَرِيمٌ جَوادٌ يُحِبُّ ما يَكونُ مَصْلَحَةً لعِبادِه.

وقد أقامَ اللهُ تَعَالَى البراهينَ على البَعْثِ بأدلةٍ عَقْليةٍ وأدلةٍ حِسِّيةٍ زيادةً على الأدلةِ الشرعيةِ، فالأدلةُ الشَّرْعية كَثِيرةٌ جِدًّا في أنَّ الإنسانَ سيموتُ ويُجازَى على عَمَلِه، لكنَّ هناك أَدِلَّةً عَقْلِيَّةً، وأَدِلَّةً حِسِّيَّةً، فمِن الأَدِلَّةِ الحِسِّيَّةِ قولُه تعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، ومَعْلومٌ أنَّ الإعادةَ أهونُ مِن الابتداءِ، فاستدَلَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على ذلك بإِحْياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها، يعني أن الأرض تكونُ يابِسةً هامدةً ليس فيها خَضْراءُ، فيُنْزِلُ اللهُ عليها الماءَ، فتُصْبِحُ مُخْضَرَّةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يعني ليسَ فيـها نباتٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥] مَن الـذي أَحْياهَا؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت:٣٩]، هذا قياسٌ وَاضِحٌ، لا يُمْكِنُ إنكارُه.

في الأرضِ أعوادٌ مُحطمة يَابِسةٌ فإذا نَزَلَ المَطَرُ صارتْ أَشْجارًا خَضْراءَ، والذي أحياها هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ومنها أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَحْيَا أُناسًا في الدُّنيا، وإن شِئْتَ فقُل: أَحْيَا أمواتًا في الدُّنيا مِن أَنَاسِيَّ وغيرهم، ففي سُورةِ البقرةِ خَمْسُ قضايا فيها إِحْياءُ المَوْتَى:

الأُولى: قِصَّةُ البَقَرةِ: تَشاجَرَت قَبيلتانِ مِن قَوْمِ مُوسَى، فقَتَلَتْ إِحْدَى القَبيلتينِ قَتِيلًا، وحصَلَ بينَهم خِلافٌ، وكادتِ الفِتْنَةُ أن تدور بينهما، فقال لهم مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]، قال بنو إسرائيل -وهم جماعةٌ عُتاةٌ مِن عَهْدِ نَبيِّهم إلى اليومِ- ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] يعني أَتلْعَبُ بنا؟ كيف نَذْبحُ بَقَرةً؟ ماذا نَستَفِيدُ؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، ولا أَحدَ يَتَّخِذُ غَيْرَه هُزُوًا إلا إذا كان جَاهِلًا، وبعدَ أَنْ قالوا هذا الكلامَ تَعنَّتوا مِن وَجْهٍ آخَرَ، فقالوا ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة:٦٨]، قال المُفَسِّرون: ﴿فَارِضٌ﴾ قُوبِلَتْ بقولِه: ﴿بِكْرٌ﴾، إذن معناها الكبيرةُ، وهذه من قَواعِدِ التفسيرِ: أَنْ تَعْرِفَ الكَلِمةَ بمَعْرِفةِ ما يُضادُّها، فهنا لو قال قَائِلٌ: ما مَعْنَى فَارِضٌ؟ نقول: كَبيرةٌ، لأنها قُوبِلَتْ ببِكْر.

مثالٌ آخَرُ: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، لو قالَ لك واحدٌ: ما معنى ثُباتٍ؟ نقول: أَيْ مُتفَرِّقِينَ، عرَفْنَا ذلك مِن قولِه: ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾، وهذه مِن قواعِدِ التفسيرِ التي يَنْبَغِي للإنسانِ أَنْ يَعْرِفَها، أنَّ القرآنَ يُفَسَّر بذِكْرِ المُقابِلِ.

﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ يعني ليستْ كَبيرةً ولا صغيرةً ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨]، فما فعلوا، لأنَّ القَوْمَ عُتاةٌ جُناةٌ طُغاةٌ، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩]، وكانَ يَنْبَغِي أَنْ يَذْبحوا بقرةً بأيِّ لونٍ تكونُ، سَوْداءَ أو حَمْراءَ أو صَفْراءَ، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩]، الجوابُ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة:٦٩]، لونُها فَاقِعٌ، يعني صَافِيًا جِدًّا، زِدْ على هذا أنها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة:٦٩]، مَن نَظَرَ إليها سَرَّتْه، شَدَّدُوا على أَنْفُسِهم فشَدَّدَ اللهُ عليهم، كلُّ هـذا لم يَكْفِ، فسألُوا عن السِّنِّ،

ثم سألوا عن اللَّوْنِ، ثم سألوا عن الوَظِيفةِ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ﴾ سَلِيمةٌ مِن العَيْبِ ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا عَيْبَ فيـها، النهاية: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٧٠-٧١]، كأنهم كانوا يَعْلَمون الحقَّ مِن زَمَنٍ، ثم صَدَّقوا موسى، ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني الآنَ أَصبْتَ، وشَدَّدَ اللهُ عليهم.

المهم أنه أمَرَهم أَنْ يَضْرِبوا القتيلَ بجُزْءٍ مِن هذه البَقَرةِ، بعد ما ذَبَحُوها، فأخذوا جُزْءًا منها، سواءٌ الرِّجْلُ أو اليَدُ أو أيُّ جُزْءٍ وضَرَبوا القَتِيلَ، فأحيـاه اللهُ، فقـال: الذي قتَلَني فُلانٌ. والظاهِرُ أنه بعـدَ ذلك أماتَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا إحياءٌ بعدَ الموتِ.

الثانية: قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [البقرة:٢٤٣] أُلوفٌ جَمْعُ كَثْرَةٍ، أمَّا جُموعُ القِلَّةِ فهي أربعةُ أَوْزانٍ، قال ابنُ مَالِكٍ في أَلْفِيَّتِه(١):

أَفْعِلَــةٌ أفْعُــلُ ثُــمَّ فِعْلَــهْ ثُمَّــتَ أَفْعَــالٌ جُمــوعُ قِلَّــهْ

فَاحْفَظْ أَلْفِيَّةَ ابنِ مَالِكٍ إذا كُنْتَ تُرِيدُ مَعْرِفَةَ النَّحْوِ، فإنها خُلاصَةُ النَّحْوِ، كما قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

أَحْصَـى مِـنَ الكَافِيـةِ الخُلَاصَـهْ كَمَا اقْتَضَى غِنًـى بِـلَا خَصَاصَـهْ

(١) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، للمرادي (٣/ ١٣٧٨).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٥٢).

يعني الجُموع إذا كانتْ على وَزْنِ (أَفْعِلَة) كأَعْمِدَة، أو (أَفْعُل) كأَعْيُن، أو (فِعْلَة) كإِخْوَة، أو (أَفْعَال) كأَبْواب فهي جمعُ قِلَّة، وما عَدَا ذلك فهو جَمْعُ كَثْرَةٍ.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ لأنه الظَّاهِرُ -والله أعلم- أنه نَزَلَ في دِيارِهم وَباءٌ، فخَرَجوا فِرارًا منه، خَرَجُوا فِرَارًا مِن الوَباءِ، فأَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُبيِّنَ لهم أنه لا مَفرَّ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومَن يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعاجِزَ اللهَ فيَفِرَّ مِن قَدَرِه؟ لا أَحَدَ يَستطِيعُ.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ قَوْلًا كَوْنِيًّا؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، ولكنَّ الإنسانَ مَأمورٌ بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وإنْ كان ذلك قد يُؤدِّي إلى قَتْلِه.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣]، الحِكْمةُ مِن هذا أنْ يُبيِّنَ عَزَّوَجَلَّ لهم ولغَيْرِهم أنه لا مَفرَّ من قضاءِ اللهِ وقَدَرِه، فما قَدَّرَه اللهُ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مَهْما كُنْتَ ومَهْما ذَهَبْتَ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، ماتوا جَميعًا مِيتةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وأَحْياهم اللهُ جَميعًا، فعَرَفوا الآنَ أنه لا مَفرَّ مِن قَدَرِ اللهِ.

الثالثة: قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، خاويةٌ على عُروشِها يعني يابسةً ليسَ فيها اخْضِرارٌ، فقال الرَّجُل: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، كيفَ يُحْيِي هذه الأرضَ بعدَ مَوْتِها، يعني استبعد كيفَ يُحْيِي اللهُ هذه الأرضَ بعدَ موتِها؟ فأماتَه اللهُ تَعالَى مِئةَ عامٍ، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وكأنه -واللهُ أَعْلَمُ- أُمِيتَ في أَوَّلِ النهارِ وأُحْيِيَ في آخِرِه، فقال: إمَّا أن هذا هو اليومُ الثاني

فأكونُ لَبِثْتُ يَوْمًا، أو هو اليومُ الأَوَّلُ فأكونُ لَبِثْتُ بَعْضَ يَوْمٍ، وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا ماتَ لا يُحِسُّ بالزَّمَنِ فهو يَمُرُّ عليه سَرِيعًا، كما أنه إذا نام الآنَ خمسَ ساعاتٍ يَظُنُّ أنها لَحْظَةٌ، تَمْضِي الساعاتُ على النائِمِ لا يُحِسُّ بها، كذلك المَيِّتُ مِن بابِ أَوْلَى، ولهذا لا تَتَعَجَّبْ أَنْ يَبْقَى الأمواتُ منذ مَلايِينِ السِّنينَ وإذا بُعِثُوا ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، لأن الرُّوحَ إذا خَرَجت مِن الجَسَدِ كانتْ في عَالَمٍ آخَرَ، لا تُحِسُّ بمُرورِ الزَّمَنِ، فلا تَتَعَجَّبْ يا أَخِي تقول: هؤلاء أُناسٌ لهم مَلايِين السِّنين ماتوا كيف هذا؟ نقول: نعم، لأن الإنسانَ في حالِ اتِّصالِ الرُّوحِ بالبَدَنِ غيرُه في حالِ مُفارَقَةِ الرُّوحِ البَدَنَ.

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فقال اللهُ له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]، الله أكبر! يَمُرُّ عليه الصَّيْفُ والرَّبِيعُ والشتاءُ والقَيْظُ والرِّياحُ والأَمْطارُ، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة:٢٥٩]، كان الرَّجُلُ معه طَعامٌ وشَرابٌ، ومعه حِمارٌ، الطعامُ والشَّرابُ بَقِيَ مِئةَ سَنَةٍ لم يَتَغَيَّرْ لا بِيُبوسَةٍ، ولا بِرِيحَةٍ مُنْتِنَةٍ، ولا بنَقْصٍ، ولا بشَيْءٍ، فهل هذا مما جَرَتِ به العادةُ؟ لا، لكنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فنَظَرَ إلى الحِمارِ فإذا عِظَامُه تَلُوحُ، اللهُ أكبر! الحمارُ مَيِّتٌ وقَدْ ذَهَبَ لَحْمُهُ وعَصَبُه وعَظْمُه وكلُّ شَيْءٍ، لأنه بَقِيَ مِئةَ سَنَةٍ، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وإذا عِظَامُه تَلُوحُ، ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩] اللهُ أَكْبَرُ! نَظَرَ للعِظَامِ وإذا العِظَامُ تَترابَطُ، يُنْشِزُ اللهُ بَعْضَها ببعضٍ بوَاسِطَةِ العَصَبِ، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، اللَّحْمُ هذا كِسوةٌ للعِظَامِ، فلولا اللَّحْمُ لكان أَدْنَى شَيْءٍ يُصيبُكَ يُؤْلِمُكَ لكنَّ اللَّحْمَ يَكْسُو العَظْمَ فيَقِيهِ الأَذَى، ولهذا سَمَّاه اللهُ الكِسْوة.

هنا ثلاثُ آياتٍ: رَجُلٌ مَاتَ مِئَةَ سَنَةٍ ثم بُعِثَ، طَعامٌ وشَرَابٌ بَقِيَ مئةَ سَنَةٍ لم يَتَغَيَّرْ، عِظامٌ تَلوحُ يَتراكَبُ بَعْضُها على بعضٍ بالمُشاهَدَةِ وتُكْسَى لحمًا، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، حِينَئِذٍ نَرْجِعُ إلى القَرْيةِ التي مَرَّ بها وهي خَاوِيَةٌ على عُروشِها، هل يَقْدِرُ اللهُ أَنْ يُحْيِيَها أو لا؟ الجواب: يَقْدِرُ بلا شَكٍّ.

الرابعة: أنَّ قومَ مُوسَى قالوا لموسى وهُم يَسْمعونَ اللهَ يُخَاطِبُه، قالوا: لن نُؤْمِنَ لك حتى نَرَى اللهَ بأَعْيُنِنا جَهْرةً، فأماتَهمُ اللهُ، مَاتُوا مَوْتًا حَقِيقِيًّا، خَرَجَتْ أَرْواحُهم مِن أَجْسادِهم، ولكنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خافَ، فاختارَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِن قَوْمِه لِمِيقَاتِ اللهِ، وهذا جوابُهم ثم يَمُوتون، يَرْجِعُ إلى قَومِهم ماذا يقولُ وقد مات خِيارُهم، فلَطَفَ اللهُ به وأحياهم بعد أن أَماتَهم.

إذن هذا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ مُشاهَدٌ على قُدْرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَوْمٌ مَاتوا ثم بُعِثوا.

الخامسة: قولُ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمام الحنفاء وأحد أُولي العَزْمِ مِن الرُّسل، بل هو أفضلُهم ما عدا محمدًا ﷺ، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]، يعني يَسْتَقِرُّ استقرارًا تامًّا، والطُّمَأنينةُ أمرٌ زائدٌ على مُجَرَّدِ الإيمانِ، ولكن ليسَ الخَبَرُ كالمُعايَنةِ، ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، فأمَرَه اللهُ فقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي ضُمَّهُنَّ، ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠] يعني اخْلِط بَعْضَها ببعضٍ، الطيور الأربعة، واجعل على الجبالِ التي حَوْلَكَ على كُلِّ جَبَلٍ جُزْءًا، فتكون أربعةً، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ [البقرة:٢٦٠]، قل: أَيَّتُها الطيورُ أَقْبِلْنَ ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة:٢٦٠]،

وهي قد ذُبِحت وخُلِط بعضُها ببعضٍ، تَجْتَمِعُ بإذنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم تأتي لإبراهيمَ لما دَعاهَا.

وهنا نَسْأَلُ سُؤَالًا: لو أنَّ رَجُلًا صَدُوقًا ثِقَةً أَخْبَرَ بخَبَرٍ، وقال: عندَ بابِ المسجدِ الحرامِ سَيَّارةٌ يُوزَّعُ منها صَدَقاتٌ، وهو رجلٌ صدوقٌ فهل نؤمن بذلك؟ **الجواب:** نعم نُؤمِنُ، لكن إذا شَاهَدْنا السيارة، ازدادَ الإيمانُ وَاطْمَأْنَنَّا.

ولهذا لو قال لكَ إنسانٌ: أنا عندي -مثلا- ساعةٌ تُسَمَّى ساعة العَصْرِ، تُعْلِمُك بالقِبْلَةِ، وتُعْلِمُك بالوقتِ، وتُعلِمُك بالزمنِ الذي أنتَ فيه، فإنَّ تصديقَك له لن يَكُونَ مِثْلَما لو أعطاك الساعةَ ونَظَرْتَ إليها؟ فالثاني أَقْوَى، إذن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما أرادَ بذلك أَنْ يَزْدادَ إيمانُه، وإلا فهو مُؤْمِنٌ.

وإحياءُ الموتى يومَ القيامةِ عليه أَدِلَّةٌ ثمانيةٌ فيما سمعناه مِن آخِرِ سُورةِ يس:

الدليلُ الأولُ: قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس:٧٧]، النُّطفةُ المَنِيُّ، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧] هذه النُّطْفَةُ جَمادٌ، بعدَ ذلك يَتطَوَّرُ حتى يكون خَصِيمًا بَيِّنَ الخُصومةِ فَصِيحًا، ثم يضرب هذا المَثَل ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾، وقال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، قال هذا مُنْكِرًا، والجوابُ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، قل: يعني يا محمدُ، وكذلك مَن وَرِثَ مُحَمَّدًا مِن العُلماءِ، إذا قابلَهُ مَن يُنْكِرُ البَعْثَ يَستدِلُّ عليه بهذا ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، هذا استدلالٌ بالمَبْدَأ على المَعادِ، الذي أنشأ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ على أَنْ يُحْيِيَها المَرَّةَ الثانيةَ، هذا دَلِيلٌ.

الدليلُ الثـاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]، إذا كان بكلِّ خَلْـقٍ عَلِيمًا

يَعْلَمُ كيف يَخْلُقُ ومتى يَخْلُقُ وأين يَخْلُقُ فما الذي يُعْجِزُه؟ إنما يَعْجِزُ العَاجِزُ إذا فاتَهُ العِلْـمُ، ولهذا لو قِيلَ للأخ: قُم فاصْنَعْ لي مُسَجِّلًا، ولك مُدَّةُ سَبْعـةِ أيامٍ، فإنك لا تُوافِـقُ، لأنك لا تَعْلَمُ كيف يُصْنَـعُ ذلك، فأنتَ عَاجِزٌ عن فِعْلِ هـذا، لكنَّ اللهَ ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، هذان دليلان.

الدَّلِيلُ الثـالـثُ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠]، نَارًا مُؤَكَّدَةً مُحَقَّقةً ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، الشَّجَرُ الأَخْضَرُ فيـه مَادَّتانِ ضِدُّ النارِ تمامًا: هما الرُّطوبةُ، والنارُ تَقْتضي اليُبوسةَ، إذا غَسَلْتَ ثَوْبَكَ في الشِّتاءِ وليسَ هناكَ شَمْسٌ، فإنك تُوقِدُ نَارًا لتُدْفِئَه عليه، إذن النَّار طَبِيعَتُها اليُبوسةُ هذه واحدةٌ.

وطبيعةُ النارِ حَارَّةٌ، والرَّطْبُ بَارِدٌ، فهذا الرَّطْبُ الباردُ تَخْرُج منه النارُ اليابسةُ الحـارَّةُ، سبحان الله العظيم! مَن الذي أخرج هذا من هذا؟ إنـه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠]، لكن هذا لا نَعْقِلُه ولا نَعْرِفُه، فالمُشْكِلُ علينا الآن كَيْفَ يُخْرِجُ مِن الشَّجَرِ الأخضرِ النارَ، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠] لا أَحَدَ يُنْكِرُه.

كانوا قَدِيمًا عنـدَهم شيءٌ يُسَمَّى الزَّنْدَ، يُضْرَبُ به غُصْنٌ مِن أشجارٍ مَعْروفةٍ فإذا ضَرَبوه بهذا الزَّنْدِ قَـدَحَ، يعني ظَهَرَتْ منه نارٌ، ويكون عنـدَهم أشياءُ قابلةٌ للاشتعالِ بسُرعةٍ يُوقِدُونَ منها، فيقولُ عَزَّوَجَلَّ إذا كانَ اللهُ تَعَالَى قَادِرًا على أنْ يُخْرِجَ النارَ مِن هذا الشجرِ الأَخْضَرِ، يعني أشياءَ مُتضادَّةً يكون بَعْضُها مِن بعضٍ، فإحياءُ المَوْتَى سَهْلٌ عليه.

الدليلُ الرابعُ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾

الجوابُ في الآيةِ ﴿ بَلَىٰ ﴾ [يس:٨١]، الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ أنشأها مِن العَدَمِ، وهي أكبرُ مِن خَلْقِ الناسِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧]، بل الناس مَخْلوقونَ مِن الأرضِ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥]، فالقـادر على خَلْقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ قـادرٌ على أَنْ يُعِيدَ الإنسانَ بعدَ موتِه، هذا الدليلُ الرابعُ.

الدليلُ الخـامسُ: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١] هذه صِفةٌ لازِمةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، أنه خَلَّاقٌ عَلِيمٌ جَلَّوَعَلَا يَخْلُقُ ما يشاءُ عن عِلْمٍ وقُدْرةٍ، فلا يَعْجِزُ عن إعادةِ المَوْتَى.

الدليلُ السادسُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، والذي يقـول للشيءِ: كُنْ فيكون. هل يَعْجِزُ عن إعادةِ الأمواتِ؟ لا واللهِ، فانْظُرْ في حياتِك الواقعيةِ الآن، يُزَلزِلُ اللهُ الأرضَ في لَحَظاتٍ، فيُدَمِّرُ هذا الزلزالُ مُدُنًا وقُرًى عظيمةً، ويُشَقِّقُ الأرضَ في لحظةٍ واحدةٍ؛ لأن ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، انظر إلى شيءٍ أعظمَ مِن هذا إحياءِ الناسِ كلِّهم، إحياءُ الناسِ كلِّهم كم يأخُذُ مِن ساعةٍ؟ لحظةً، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس:٥٣] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، لا إِلَهَ إلا اللهُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ، لا إِلَهَ إلا اللهُ! زَجْرَةٌ واحدةٌ، كلُّ العالَمِ يَحْضُرُ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] فإذا كان أَمْرُهُ عَزَّوَجَلَّ إذا أراد شَيْئًا أَنْ يَقُولَ له كُنْ فيكونُ فما الذي يُعْجِزُه عن إحياءِ الموتى؟

الدليلُ السَّابعُ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس:٨٣]، أي تَنْزِيهًا للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي بيَدِهِ مَلَكوتُ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَعْجِزَ عن إعادةِ الخَلْقِ، والأدلةُ الأُولى

كُلُّها إِيجابيَّة، يعني لما تَنَزَّه جَلَّ وَعَلَا عن كُلِّ عَيْبٍ ونَقْصٍ وكان بيَدِهِ ملكوتُ السمواتِ والأرضِ كان قَادِرًا على أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس:٨٣].

الدليلُ الثامنُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣]؛ لأن كَوْنَنا نَرجِعُ إلى اللهِ لا بُدَّ أن نَحْيَا وإلا لما رَجَعْنَا.

هذه أَدِلَّةٌ ثَمانيةٌ في سِياقٍ واحِدٍ، وهذا يَدُلُّ دَلالةً واضحةً على كمالِ رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أنْ أَكَّدَ البَعْثَ بعدَ الموتِ بمُؤَكِّداتٍ مُتعددةٍ متنوعةٍ حتى يَعْمَلَ العبادُ لهذا اليوم، الذي يَفِرُّ فيه الإنسانُ مِن أَخِيهِ وأُمِّه وأبيه ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان:٣٣]، هذا اليوم الذي يَجِدُ الإنسانُ ما عَمِلَ مِن خَيْرٍ مُحْضَرًا، وما عَمِلَ مِن سُوءٍ يَوَدُّ لو أَنَّ بَيْنَه وبَيْنَهُ أمدًا بعيدًا، فنحن خُلقنا لهذا اليوم.

فنسأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَه يَسِيرًا علينا، وَأَنْ يَجْعَلَنا فيه مِن السُّعداءِ، وأنْ يَجْعَلَ مآلنا جَمِيعًا إلى جَنَّاتِ النَّعِيمِ في جِوارِ الربِّ الرحيمِ، مع الذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





عذابُ القبرِ

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إله الأولينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه، وأمينُه على وحيِه، بلَّغَ الرسالةَ، وأَدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وتركَ أُمَّتَه على مَحَجَّةٍ بيضاءَ، لَيْلُها كنهارِها، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ. أمَّا بَعْدُ:

فهل عذابُ القبرِ ثابتٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ، أَمْ هوَ ثابتٌ بالسُّنةِ فقطْ؟

وهلْ هوَ على البَدَنِ أو على الرُّوحِ؟

وهَلْ هوَ شاملٌ لكلِّ مَن دُفنَ وأكلتْهُ السِّباعُ والحيتانُ في البحارِ أو لا؟

عذابُ القبرِ ثابتٌ بالقرآنِ:

أما الأولُ فنقولُ: عذابُ القبرِ ثابتٌ بالقرآنِ والسُّنَّةِ؛ فمِن أَدِلَّةِ القرآنِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ﴾ يعني آل فرعونَ ﴿عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

فقولُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر:٤٦] يعني هذا قبلَ يومِ القيامةِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.

ومما يدلُّ على إثباتِ عذابِ القبرِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

ووجهُ الدَّلالةِ أن الملائكةَ تقولُ لهؤلاءِ الظالمينَ الذينْ نزلتِ الملائكةُ لِقَبْضِ أرواحِهِم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، وكلمةُ ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ تدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الظالمينَ يَشِحُّونَ بأنفسِهم شُحًّا عظيمًا فيقالُ لهمْ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وذلكَ أن أرواحَهُم -والعياذُ باللهِ- إذا بُشِّرتْ بالعذابِ رجعتْ في الجسدِ، ولا تريدُ الخروجَ إلى العذابِ الذي بُشِّرتْ بهِ، ولكنهُم يقالُ لهمْ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

وفي قولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ (ال) هذه عند النحويينَ تُسمى (ال) العَهْدِيَّة، وهيَ هنا للعهدِ الحُضوريِّ؛ لأن العُهودَ ثلاثةٌ: ذِكريٌّ، وحُضوريٌّ، وذِهنيٌّ، وفي هذهِ الآيةِ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ (ال) للعهدِ الحُضوريِّ، أي هذا اليومُ الذي تُخرجونَ فيهِ أنفسَكم تجزونَ عذابَ الهُونِ. وهذهِ واضحةٌ.

ومِنْ ذلكَ أيضًا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢] فيقولونَ: ادخلُوا الجنةَ حينما تتوفاهُم؛ لأن القبرَ أولُ منزلةٍ مِن منازلِ الآخرةِ.

عذابُ القبرِ ثابتٌ بالسنةِ:

أما في السُّنةِ فإن السُّنةَ قدْ تواترتْ، وأجمعَ المسلمونَ على مدلُولِها، ولهذا فإن كلَّ المسلمينَ يقولونَ في صلاتِهم: «اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهنَّمَ،

وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»[١].

إذنْ عذابُ القبرِ مما يُعلمُ بالضرورةِ ثبوتُه؛ لأن جميعَ المسلمينَ صِغارَهُم وكبارَهُم يقولونَ في صلواتِهم: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». فعذابُ القبرِ ثابتٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ والإجماعِ الفِعليِّ منَ المسلمينَ، وذلكَ بكونِهم يَتَعَوَّذونَ باللهِ مِن عذابِ القبرِ.

عذابُ القبرِ على البَدنِ أو على الروحِ:

أما هَلْ يكونُ عذابُ القبرِ على البَدَنِ أو على الرُّوحِ؛ فاعلَمْ أنَّ الأصلَ في عذابِ القبرِ أنهُ على الرُّوحِ، ولهذا يُعذَّبُ الإنسانُ ولو كانَ في قبرِهِ سليمًا ليسَ فيهِ شيءٌ، فإن العذابَ يقعُ عليهِ متى سُلِّمَ مِنْ أيدِي الأحياءِ إلى قَبْرِه، فيحصلُ العذابُ.

ويكونُ العذابُ على الرُّوحِ، ولكنْ ربما يتصلُ بالبَدَنِ، ويكونُ العذابُ على البَدنِ وعلى الرُّوحِ؛ كما شُوهدَ ذلكَ في بعضِ الأمواتِ، ولكنِ الأصلُ أَنْ يكونَ على الروحِ.

هلْ عذابُ القبرِ شاملٌ لكلِّ مَن دُفنَ:

وأما هلْ يشملُ العذابُ كلَّ أحدٍ؟ فَنَعَمْ يشملُ كُلَّ مَنِ استحقَّ العذابَ، فيمكنُ أَنْ يُعذبَ في قبرِهِ ويُمكنُ أَنْ يُؤخَّرَ عذابُهُ إلى يومِ القيامةِ.

مرَّ النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٨).

يَمْـشِي بِالنَّمِيمَةِ»[١].

قال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**» لأن النبيَّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- كُشفَ لهُ أنهما يُعذبانِ، قالَ: «**وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» ومعنى قولِه: «**فِي كَبِيرٍ**» أي في أمرٍ يشُقُّ عليهِما تركُه؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] يعني: لَشَاقَّةٌ، يعني أَنَّ الصلاةَ شاقَّةٌ إلا على الخاشعينَ. فمعنى «**فِي كَبِيرٍ**» هنا أي في أمرٍ شاقٍّ؛ لأن تَرْكَهُ سهلٌ، والتَّخَلِّيَ عنهُ سهلٌ، أَمَّا هوَ فمِنْ كبائرِ الذُّنوبِ، ولهذا جاءَ في روايةٍ للبخاريِّ: «**وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ**»[٢].

فالنفيُ هنا يعـودُ إلى معنًى، والإثباتُ يعـودُ إلى معنًى آخرَ، فالنفيُ: «**وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» أَيْ في شاقٍّ عليهِما؛ لأنهُ سهلٌ، والثاني «**وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ**» أي مِن كبائرِ الذنوبِ.

ثم إِنَّ النبيَّ ﷺ برحمتِه بالمؤمنينَ أخذَ جَريدَةً رطبةً فَشَقَّهَا نِصفينِ -شَقَّ وما قَطعَهَا قَطعًا معَ العَرضِ، شقًّا بالطُّولِ- وغَرَزَ في كلِّ قبرٍ واحدةً، أَيْ رَكَزَ في كلِّ قبرٍ واحدةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «**لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**». أي يخففُ العذابُ، وعَلَّقَهُ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بِيُبْسِهِما قالَ بعـضُهم: لأن هذهِ الأعوادَ أو هـذهِ الجريدةَ تُسَبِّحُ اللهَ ما دامتْ خضراءَ، فإذا يَبُسَتِ انقطعَ التسبيحُ، وبَنَوا على هذا المفهومِ أنهُ ينبغِي أَنْ يَجلسَ الإنسانُ عندَ القبرِ يُسَبِّحُ اللهَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب: من الكبائر أَلَّا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢). واللفظ للنسائي: كتاب الجنائز، باب وضع الجريدة على القبر، رقم (٢٠٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب النميمة من الكبائر، رقم (٦٠٥٥).

لأنهُ إذا كانَ تسبيحُ العُودِ الرَّطبِ يُخفِّفُ بهِ مِن عذابِ الميتِ، فتسبيحُ البَشَرِ مِن بابِ أَوْلى، وأَوجَدُوا المقاماتِ عندَ القبورِ فيُسَبِّحُونَ ويقرءونَ وما أشبهَ ذلكَ.

وهذَا البناءُ بناءٌ فاسدٌ للآتي:

أولًا: أننا لا نجزمُ بأنهُ خُفِّفَ عنهُما بوضعِ هذهِ الجريدةِ مِن يَدِ النبيِّ ﷺ؛ لأنهُ قالَ: «**لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ**»، و(لَعَلَّ) تحتملُ أن تكونَ للترجِّي، ويحتملُ أن تكونَ للتعليلِ، فهيَ لو كانتْ للتعليلِ لَعَلِمْنَا أنهُ سيُخَفَّفُ عنهُما، لكنْ يحتملُ أن تكونَ للتَّرَجِّي.

وفي القواعدِ الفقهيةِ الأُصوليةِ يقولونَ: إذا وُجدَ الاحتمالُ بَطَلَ الاستدلالُ. فما دامتْ (لعلَّ) هنا يَحتملُ أن تكونَ للترجِّي، ويحتملُ أن تكونَ للتعليلِ، فإنها لا تتعيَّنُ لأحدِهِما إلا بدليلٍ، ولَسْنَا نعلمُ دليلًا في تعيينِ أحدِهِما.

إذنْ فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَجْزِمْ بذلكَ.

ثانيًا: هلِ العلةُ أنهُ يُخففُ عنهما ما دامتْ خضراءَ لأنها تُسَبِّحُ، أو أن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرادَ أن تكونَ الشفاعةُ محدودةً بوقتٍ مُعَيَّنٍ، فيحتملُ هذا وهذَا، لكنِ الثاني أقربُ؛ أن الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرادَ أن تكونَ هذهِ الشفاعةُ مؤقتةً بيُبْسِ هذهِ الجريدةِ، بدليلِ أن الجماداتِ تُسَبِّحُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهيَ جمادٌ، فقدْ سُمعَ تسبيحُ الطعامِ[1] وتسبيحُ الحصَى بينَ يديِ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[2]، وهو جمادٌ ليسَ فيهِ ما يكونُ بهِ النماءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٥٩، رقم ١٢٤٤).

ثم إن الجريدةَ الخضراءَ وإنْ بَقيتْ خضراءَ فلا يمكنُ أن تَنْمُوَ، إذنْ لا فرقَ بينها وبينَ اليابسةِ، فبَطَلَ هذا التعليلُ، والأقربُ أن النبيَّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- أرادَ أن تكونَ هذهِ الشفاعةُ مُؤقتةً إلى أن تيبسَ الجريدتانِ.

واستحبَّ بعضُ الناسِ أنهُ إذا دُفِنَ الميتُ أن يُوضعَ على قبرِهِ جريدةٌ رَطْبَةٌ أو غُصنٌ رَطْبٌ تَأَسِّيًا بالرسولِ ﷺ وهلْ تَأَسَّوْا بهِ؟ أبدًا مَا تَأَسَّوْا بهِ، بلْ هُمُ ابْتعَدُوا عنِ التأسِّي بالرسولِ؛ لأن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كانَ يفعلُ هذا في كلِّ مَيِّتٍ حتى نقولَ: إنهُ سُنَّةٌ لكلِّ مَن ماتَ أَنْ يُوضعَ على قبرِهِ جريدةٌ خَضْرَاءُ، أو غُصنٌ أخضرُ، إذنْ لم يتأسَّوا بهِ.

ثانيًا: إنَّ النبيَّ ﷺ إنما فعلَ ذلكَ في قبرينِ يُعذَّبانِ، فهذا الذي وضعَ الجريدةَ على أبيهِ أو أُمِّهِ أو قَريبهِ، هلْ يشهدُ بأنهُ يُعذَّبُ؟!

الجوابُ: لا يشهدُ، لكنْ وضْعُهَا على قَبرِه يستلزمُ أَنْ يكونَ شاهدًا لهُ بأنهُ يُعذَّبُ في قبرِه، فالآنَ انقلبتْ هذهِ الرحمةُ نِقمةً، فبَدَلَ ما كانَ يَرجُو أن تكونَ شفاعةً لهُ صارتْ قَدحًا فيهِ؛ إذ إنَّ هذا الواضعَ لازِمُ وَضْعِهِ هذهِ الجريدة ليُخَفَّفَ عنِ الميتِ أَنْ يكونَ هذا الميتُ معذَّبًا، وهذا مِن أكبرِ القَدْحِ في الميتِ.

فإذا قالَ قائلٌ: أنا سأضعُ زُهورًا على قبرِه؛ زهورًا طيبةَ الريحِ، جميلةَ المنظرِ، **نقولُ**: وإذا وُضِعَتْ هلِ الميتُ سوفَ يُسرُّ برؤيتِها إذا كانتْ جميلةَ المنظرِ؟! وهلْ يُسرُّ بِشَمِّها إذا كانتْ طيبةَ الرِّيحِ؟! الجواب: لا.

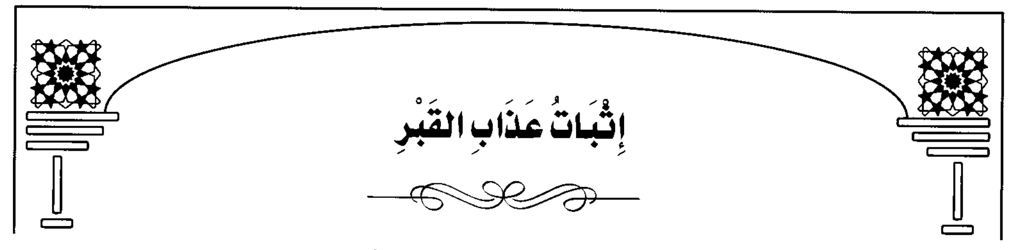
إذنْ لا فائدةَ إلا تقليد مَن لا يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ منَ الكفارِ والمُلْحِدِينَ وغيرِهم.

لذلكَ؛ يجبُ أن نتأسَّى بالرسولِ ﷺ في أعمالِنا، وفي حياتِنا، وفي أعمالنا بَعْدَ مَوْتِنا، وها هوَ البقيعُ يُدْفَنُ فيهِ كُلَّ يومٍ ما شاءَ اللهُ مِنَ الأمواتِ في عهدِ الرسولِ ﷺ وما عَلِمنَا أنهُ وَضعَ جريدةً رَطْبَةً، أو غُصْنًا رَطْبًا على قبرٍ منَ القبورِ، إلا هذينِ القبرينِ.

إذنِ المهمُّ أننا نثبتُ عذابَ القبرِ، ودلالتَه بالكتابِ والسُّنَّةِ وعملِ الأمةِ؛ لأن كلَّ المسلمينَ يقولونَ: أعوذُ باللهِ مِن عذابِ جهنمَ ومِن عذابِ القبرِ، يقولونَ ذلكَ مؤمنينَ بهِ ومُقِرِّينَ بهِ.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ.





إِثْبَاتُ عذَابِ القَبْرِ

عَذَابُ القَبْرِ ثَابتٌ بالكتاب، والسُّنَّةِ، وإجماع المُسْلِمِينَ.

دليلُ عذَابِ القَبْرِ مِن القُرْآنِ الكَرِيمِ:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: قَالَ اللهُ عن قوم فِرْعَوْن: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] يَعْنِي: فِي الصباح والمساء، فبَيَّن اللهُ أَنَّ هَؤُلاءِ يُعرَضون عَلَى النَّار غُدُوًّا وعَشِيًّا، وهَذَا عَذَاب، وَيَوْمَ تقومُ السَّاعةُ يأتي الأَشَدُّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

الدَّلِيلُ الثَّاني: قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣] يَعْنِي: فِي سَكَرَات الموت، ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣] لِقَبْضِ أرواحهم، يَقُولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣].

وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الظالمين تتمنَّع نفوسُهم مِن الخُروج؛ لأَنَّها تُبشَّر بالغضب والعَذَاب، فتُريد أن تبقى فِي هَذَا الجسد، يَقُول تَعَالَى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾ قَالَ بَعْضُ السلف: والله إنَّهم لأَعظَمُ بها شُحًّا مِن البخيل بماله، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أعطُونا إياها، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٩٣]، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم خُرُوج أنفسِكم، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

ذَكَرْنا دَلِيلين، وهُنُاكَ أكثرُ مِن ذَلِكَ.

أَمَّا السُّنَّة فَالأَحَادِيثُ ظاهرةٌ مشهورة فِي إثبات عَذَاب القَبْرِ[١].

أَمَّا الإجماعُ، فَإِنَّ كُلَّ المُسْلِمِينَ يَقُولون: أَعوذ بالله مِن عَذَابِ جَهنم، ومِن عَذَابِ القَبْر، ومِن فِتنة المَحْيَا والمَماتِ، ومِن فِتنة المَسِيحِ الدَّجَالِ، ولا اسْتِعاذةَ مِن شَيْءٍ إلَّا وله وجود حقيقيٌّ. إذن عَذَابُ القَبْرِ ثابتٌ.

مَسْأَلةٌ: هل يُمْكِن أَنْ يظهر عَذاب القَبْرِ للنَّاس؟

ولو سأل سائلٌ: هل يُمْكِن أَنْ يظهرَ عَذَاب القَبْرِ للنَّاس؟

فالجَوَابُ: لا، إلَّا أَنَّ اللهَ قد يُظْهِرُه، وإلا فالأصل أَنَّه لا يَظْهَر، وعدم إظهاره مِن رحمة الله بالميت، ورحمة الله بِذَوِي المَيِّتِ مِن أقاربه وأصحابه، أَمَّا الميتُ فَقَدْ دُفِنَ وسُتِر، ولا ندري شيئًا عن ذنوبه، لكن لو سمعناهُ يُعذَّبُ فلا شَكَّ أَنَّنا سنُسِيءُ به الظن، وأَمَّا أَهْلُ الميت فظاهر، فَلَو كانوا يسمعون صوت أَبيهم أو أُمِّهم تُعذبُ فِي القَبْر، لَضَاقَتْ بهم الدُّنْيَا.

لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخفاهُ، إلَّا أَنَّه قد يَظْهَر لمصلحةٍ دِينية، وَذَلِكَ فيما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحين عن عبدِ الله بنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**»، وفي الجملة مُؤَكِّدَانِ، وهما: (لامُ التَّوكِيد)، و(إِنَّ)، وإنَّما أَكَّدَ النَّبِيُّ ﷺ الخبرَ، مَعَ أَنَّه الصادق المصدُوق؛ لِأَهَمِّيَّة المَوْضُوع، فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» أَيْ: فِي كبيرٍ مِن الكبائر، يَشُقُّ عَلَيْهِما تركُه، بل تَرْكُهُ سهلٌ.

«**أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ**» أَيْ: لا يَهْتَمُّ بالتَّطهر مِن البَول

---

(١) أَلَّف البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا أسماه: (إثبات عذاب القبر)، جمع فيه الأحاديث الدالة على ثبوت عذاب القبر.

فيَبُول ثُمَّ يقوم ويُغطي عورته، ويسير، ويُصيبه البولُ ولا يُبَالي.

«**وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّـمِيمَةِ**»، وهي الإفساد بَيْنَ النَّاس بِنَقْـلِ كلام بَعْضِهم فِي بَعْض، مأخوذة مِن نَمَّ الحَدِيثَ: إِذَا عزاه إِلَى غيره، يأتي شخصٌ لآخَرَ، فيَقُول: يا فلان، ماذا تقول فِي الرَّجُل الفُلاني هَذَا؟ إِنَّه يَغتابُك، ويَقْدَحُ فيك. ومِن المعلوم أن الثانيَ الَّذِي نُقِلَ إليه هَذَا الكلام سوف يَفْسُدُ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا مِن المودَّةِ، وهَذِهِ النَّميمة مِن كَبائرِ الذنوب.

ثُمَّ أخذ ﷺ جَريدة رَطْبة، فَشَقَّها نِصفين، قَالُوا: لِمَ صنعتَ هَذَا؟ لأَنَّهُ حقيقةً مُشكِلٌ، والرَّسُول -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- لَيْسَ مِن عـادته أنْ يضَعَ عَلَى القبور شيئًا مِن الجريدِ، فقال: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[1]، أَيْ: لعلَّه يُخَفَّفُ عنهما هَذِهِ المُدَّةَ، فكُشِفَ للنبي ﷺ عن عَذَاب القَبْرِ فِي هذين القَبْرين لهَذِهِ المصلحة العظيمة؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ مِن ذَلِكَ.

وقد يَقُول قائل: لِمَ غَرَزَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ جريدة واحدة؟

قُلْنَا: قَالَ ﷺ: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**».

تَنْبِيهٌ:

بَعْض الجُهَّال إِذَا دُفن له مَيِّتٌ أخذَ غُصن شجرة، أو جَريدة، ووضعها عَلَى القَبْر، وهَـذَا الفِعل بِدْعَة؛ لأَنَّ النَّبِيّ ﷺ لا يفعلُه فِي كُلِّ مَن يُقبَر، ولم يفعل هَـذَا إِلَّا حِينَ أُعلِمَ أنهما يُعذبان.

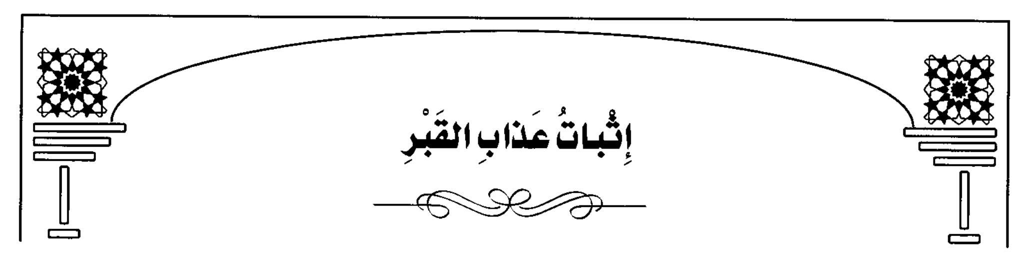
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أَلَّا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

وهَذَا الفِعل فيه إساءةُ ظَنٍّ بالميِّت؛ لأنَّ الجَريدَ لا يُوضعُ إلَّا عَلَى مَن يُعَذَّبُ، كأنك تقولُ -بلسان الحال-: إنَّ هَذَا الرَّجُل يُعذبُ، ولا شَكَّ أَنَّ هَذَا قَدحٌ فِي الميت.

وقد يضع هَذَا الغُصْنَ أقربُ النَّاس إليه، وَلَوْ قُلتَ له: يا فلان، هل فعلتَ هَذَا لأنَّ أباكَ يُعذَّب؟ فسيَحْمَرُّ وجهُه ويغضبُ، فنقول له: أنتَ بِفِعْلِكَ هَذَا أقررتَ عَلَى نفسك -بلسان الحال- أنَّ أباكَ يُعَـذَّبُ فِي قبره، ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ لم يَفْعَـلْ هذا إلا حينَ أُعلِمَ أنهما يُعَذَّبَانِ.





إِثْباتُ عَذابِ القَبْرِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين، **أمَّا بَعْدُ:**

فإن عذابَ القَبْرِ ثَابِتٌ بالقرآنِ والسُّنةِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حَقِّ فِرْعونَ وآلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، والمَقْصودُ باليومِ هنا هو يَوْمُ مَوتِهم.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي سَكَراتِهِ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي هكذا كبَسْطِ اليَدِ، ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ والظالمون شَحِيحونَ بأنفسِهم في تلك الحالِ؛ لأنَّ النفسَ قد بُشِّرت بالعذابِ والغَضَبِ، فلا تُرِيدُ أنْ تُفارِقَ هذا الجَسَدَ، فتَتَفَرَّقُ في الجَسَدِ، فيقولُ هؤلاء الملائكة: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، واليوم هنا هو يومُ المَوْتِ الذي يُجْزَوْنَ فيه عَذابَ الهُونِ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

وثَبَتَ عن النبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- ثُبوتًا مُتواتِرًا أنَّ الإنسانَ يُعَذَّبُ في قَبْرِه، فَقَدْ مَرَّ ذاتَ يومٍ بِقَبْرَيْنِ في المدينةِ، فقال -وهذا الكلامُ مِن النبيِّ

-صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- وهو أصْدَقُ الخَلْقِ- قال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**». وأَكَّد هذا الخَبَرَ بمُؤَكِّدَيْنِ: (إنَّ) و(اللام)، يُعَذَّبَانِ: أي في أَمْرٍ لم يَكُنْ شَاقًّا عليهما، بل هو سَهْلٌ، «**أَمَّا أَحَدُهُمَا فكانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ البَوْلِ**»، فكان يَبولُ، ويَقَعُ البولُ على جَسَدِهِ، وعلى رِجْلِه، ولا يُبَالِي، أو يَبولُ ولا يَسْتَنْجِي.

«**وأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، أي: بالإِفْسادِ بَيْنَ الناسِ، فيأْتي إلى الرَّجُلِ فيقول: يا فلان، هذا الرَّجُلُ يَسُبُّكَ، ويقولُ فِيكَ كذا وكذا. فتَقَعُ العَداوةُ بينَ هذا وهذا، وقد أَخْبَرَ النبيُّ ﷺ أنه «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[1]، أي نَمَّامٌ.

ثم أَخَذَ جَرِيدةً رَطْبَةً وشَقَّها نِصْفينِ، وجعَلَ على كلِّ قبرٍ واحدةً، فتعَجَّبَ الصحابةُ، إذ ليسَ هذا مِن عَادةِ الرسولِ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- أنه إذا دَفَنَ المَيِّتَ وضَعَ عليه جَرِيدةً، فقالوا: لِمَ صَنَعْتَ هذا يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُما مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[2].

فَاطْمَأَنَّ الصحابةُ إلى هذا، وآمَنوا به، وصَدَّقوا به، ولا إِشْكالَ في هذا.

وهذا عذابٌ ثَابِتٌ بقولِ النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- في شخصٍ مُعَيَّنٍ، فكيف يأتي مَن يُنْكِرُ عَذَابَ القَبْرِ؟! ولولا أَنَّ الإنسانَ المُعَيَّنَ لا يُحْكَمُ عليه بالكُفْرِ إلا بشُروطٍ ثَقيلةٍ، لقُلْنا: هذا كَافِرٌ. لكنَّ تَكْفِيرَ المُعَيَّنِ ليسَ بالسَّهْلِ، بل يَحْتَاجُ إلى شُروطٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٥٧٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لَا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

وقد قالَ بعضُ العلماءِ -رحمهم الله وعَفَا عنهم-: ضَعْ على القَبْرِ غُصْنًا رَطْبًا، أو جَرِيدةً رَطْبَةً، كما فعلَ النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-. ولكنَّ هذا الرأيَ خَطَأٌ، ومِن أَشَدِّ الخَطَأ لِمَا يَلي:

أولًا: النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- ما كانَ يَصْنَعُ هذا في كلِّ قَبْرٍ، وإنما صَنَعَ ذلك في قَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ.

ثانيًا: أَنَّكَ إذا وَضَعْتَ الجَرِيدَةَ على القَبْرِ فهـذا قَدْحٌ في هذا الرَّجُلِ المَقْبورِ؛ لأنك إنما وَضَعْتَها لِيُخَفَّفَ عنه العذابُ، وهـذا يعني أنك تَشْهَدُ أنَّ هذا الرَّجُـل يُعَذَّبُ! فاتَّقـوا اللهَ في عِبادِ اللهِ، وهذا القـولُ نَعْتَبِرُه مِن الأقـوالِ الشَّاذَّةِ المُنْكَرَةِ، والاستدلالُ بهذا الحديثِ عليه أيضًا استدلالٌ بَاطِلٌ، فلا تَضَعُوا شيئًا على القَبْرِ، وأَمْرُه إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقد يَقولُ مَن يُنْكِرُ عذابَ القَبْرِ: لو أننا كَشَفْنَا عن هذا الرَّجُلِ المَيِّتِ فلن نَجِدَ شيئًا يَدُلُّ على أنه كان يُعذَّبُ، بل سنَجِدُه على حالِه التي تَرَكْنَاهُ عليها بالأمسِ؟ فنقولُ:

أولًا: يَجِبُ أن تُؤْمِنَ بالغَيْبِ، فإن لم تُؤْمِنْ إلا بمُشاهَدٍ فلستَ بمُؤْمِنٍ؛ لأنَّ اللهَ امتدَحَ الذين يُؤْمِنونَ بالغيبِ، وهذا أَمْرٌ مُغَيَّب، وليسَ أمرًا مُشاهَدًا، ولو كانَ أمرًا مُشاهَدًا لم يَكُنْ للإيمانِ به فَائدةٌ إِطْلاقًا، أرأيتم لو قلتُ لمجموعةٍ مِن الناسِ: هذا قَمَرٌ في السماءِ، أَتُؤْمِنونَ بهذا؟ لقالوا: نعم، نحن نراه بأَعْيُنِنا، ولذا فنحن نُؤْمِنُ به. فهذا إيمانٌ منهم بأمرٍ مُشاهَدٍ، لكن لا يُمْدَحون على هذا الإيمانِ، بل المَدْحُ على الإيمانِ بالغَيْبِ.

إذن عَذَابُ القَبْرِ أمْرٌ غَيْبِيٌّ، لا نعلمُه، ولو كان أمرًا حِسِّيًّا معلومًا لم يكن للإيمانِ به فائدةٌ.

وقد قـالَ النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- للجنِّ الذين وَفَدُوا عليـه، وآمنوا به: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا**»[1].

فأنتم أيها الإنسُ تَأْكُلونَ اللَّحْمَ وتَتْرُكونَ العَظْمَ ما عليه قِطْعَةُ لَحْمٍ، ولو رأيتم فيها شَيْئًا ما تَرَكْتُمـوه، ولكنَّ الجِنَّ المؤمنين يَرَوْنَ هذا العَـظـم أَوْفَرَ ما يكونُ لحمًا! أنتم لا تُشاهِدونَ اللحـمَ، بل تَرَوْنَ العَـظْمَ عَارِيًا مِن اللَّحْـمِ، والجِنُّ يُشاهِدونَ العَظْمَ وقد غَطَّاه اللَّحْمُ، وهكذا قد يَكونُ الإنسانُ في قَبْرِه، يُعَذَّبُ ولكِنَّكَ لا تَرَى أَثَرَ ذلك في جَسَدِهِ.

وهذا النائم، يَرَى في مَنامِه أشياءَ كثيرةً، وعلى حَسَبِ اعتلالِ الصِّحَّةِ تَكْثُرُ الأحلامُ، أحيانًا يَرَى أنه في وادٍ وأشجارٍ ونَخيلٍ، وأحيانًا يَرَى أَنَّ عَدُوًّا يُلاحِقُه وهو نائم، وهو فارٌّ هارِبٌ، فإذا استيقظ قال: الحمدُ اللهِ أَنْ كانَ حُلمًا وليسَ واقعًا. فهو في الحالِ الأُولى في نَعِيمٍ يَشْعُرُ به في مَنامِهِ، وفي الحالِ الثانيةِ في خَوْفٍ وحُزْنٍ مما رآه، ولكنه في الحالين على فِراشِه، لم يَتحَرَّكْ مِن تحتِ غِطائِه، ومع ذلك يَرى ما يَرى.

فأُمورُ الرُّوحِ أُمورٌ غَرِيبةٌ، لا يُمْكِنُ لهذا الجَسَدِ السَّميكِ الكثيف أَنْ يَتَصَوَّرَ ما يَحْصُلُ بهذه الرُّوحِ الخفيفةِ أَبَدًا.

إذن الوَاجِبُ علينا دِينًا وعَقِيدةً أنْ نُؤْمِنَ بأنَّ الإنسانَ يُعَذَّبُ في قَبْرِه، أو يُنَعَّمُ،

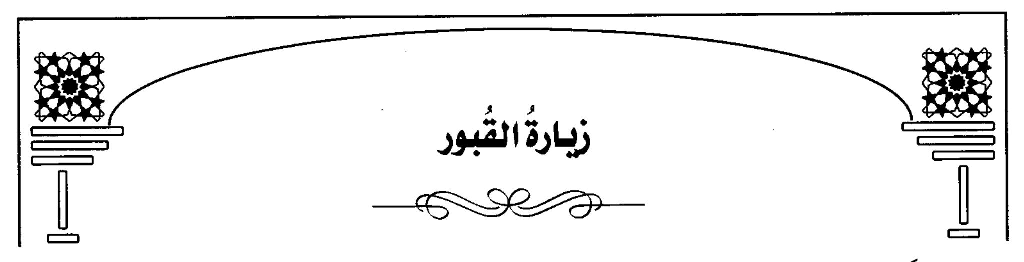
---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

وهذا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ، أَخْبَرَنا عنه الصَّادِقُ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- فيَجِبُ علينا قَبولُه.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





زيارة القُبور

إنَّ الحمدَ للهِ نحمده ونَستعينه ونَستغفره، ونعوذُ باللهِ مِن شُرُور أنفُسنا، ومِن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أرسله اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِين الحقِّ رحمةً للعالمينَ، وقُدوةً للعامِلينَ، وحُجَّةً عَلَى الَّذِينَ أُرْسِلَ إليهم أجمعينَ، فبَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ فِي اللهِ حقَّ جهادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ زيارةَ المقابرِ لا شَكَّ أنها سُنة، حتَّى إنَّ النبيَّ ﷺ استأذن اللهَ أَنْ يَزُورَ قَبْرَ أُمِّه فأَذِن له، واستأذن منه أَنْ يستغفرَ لها فلم يَأْذَنْ له[١].

فزيارة القُبُور مِن سُنَنِ النَّبي ﷺ القَوْلِيَّة والفِعْلِيَّة؛ فقد قالَ ﷺ: «قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا»[٢]. وكان أَوَّلَ أَمْرِه نهاهُم عن الزيارة؛ لأنَّهم كانوا حَدِيثِي عَهْدٍ بشِركٍ، فالإسلام طَرِيٌّ جَديد؛ فنهاهم عن زيارة المقابرِ سَدًّا للذَّريعة، ولَمَّا قَوِيَ الإيمان فِي قلوبهم أَمَرَهُم بذلك؛ قالَ «فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ»[٣].

فلو قالَ قائلٌ مِن أهل أُصول الفِقه: إنَّ قولَه: «فَزُورُوهَا» أمرٌ بَعْدَ نَهْيٍ، والأمرُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (١٩٧٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (١٩٧٧).

(٣) التخريج السابق، وزيادة «تُذَكِّرُ الآخِرَةَ» من الترمذي: أبواب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم (١٠٥٤).

بَعْدَ النَّهْيِ يُفِيد الإباحةَ، فكيف تقولون: إنها سُنَّة؟

قلنا: يُعَيِّن أنها سُنة التعليلُ الَّذِي ذَكَره، وهو «فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ». ولا شَكَّ أنَّ ما يُذَكِّر الإِنْسَانَ بالآخرةِ أمرٌ مطلـوبٌ حتَّى تزولَ الغَفْلَةُ عن قَلْبِه، وحتى يَلِينَ قَلبُه.

ولذلك نَحْنُ إذا مَرَرْنَا بالمقابرِ عَلَى الوجهِ المشروعِ فِي الزيارةِ، وتأمَّلنا حالَ هَؤُلاءِ أنَّهم كانوا بالأمسِ عَلَى ظَهرِ الأرضِ يأكلون كما نأكُل، ويَشْرَبُونَ كما نَشْرَبُ، ويتمتَّعـون بالدُّنيا كما نتمتَّع، وهم الآن فِي جَـوْفِ الأرضِ مُرْتَهَنِينَ بأعمالِهم؛ فإن الإِنْسَان يَتَذَكَّرُ هَذِهِ الحالَ فيَلِين قلبُه.

أما الزيارةُ الَّتِي تكـون عَلَى سبيلِ تجـديدِ الأحزانِ وتذكُّر الميتِ، وَأَنْ يقـولَ الإِنْسَان: أمسى هَذَا معنا لَيْتَهُ لم يَمُتْ. ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهَذِهِ لا تُفيد تَذَكُّرَ الآخِرة، وإنما تُجَدِّد الأحزانَ فقطْ، فالَّذِي يُذَكِّرُ الآخِرَةَ أَنْ يتصوَّر الإِنْسَانُ ويَتَفَكَّر ويقول: هَؤُلاءِ بالأمسِ كانوا عَلَى ظهرِ الأرضِ يتمتَّعون ويأكلون كما نأكُل، والآن أصبحوا مُرْتَهَنِينَ بأعمالهم. فحينئذٍ يَتذكَّر، ولهذا قالَ: «فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ».

ثمَّ إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ أصحابَه أَنْ يقولوا إذا زاروا القُبُور: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَـوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُـونَ، يَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ**»[1].

---

(١) أخرج بعض ألفاظه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٣٤) بعد ذكر نحوه: «وهذا الدعاء يُروَى بعضه في بعض الأحاديث وهو مروي بعدة ألفاظ، كما رُوِيت ألفاظ التشهد وغيره».

هكذا جاءت السنَّة قَوْلِيَّةً وفِعليَّةً فِي هَذَا الدُّعاء؛ فهَذَا دُعاءٌ لهم، وليس نَدْعُوهم.

إذن زيارة القُبُور الغَرَضُ منها أمرانِ:

الأمر الأوَّل: تَذَكُّر الآخِرةِ، لا تجديدُ الأحزانِ.

والأمر الثَّاني: الدُّعاءُ للأمواتِ؛ لأنَّهم بحاجةٍ للدعاء، ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١). قال: «**يَدْعُو لَهُ**» وهنا عَدَلَ النبي ﷺ عن العَمَلِ للمَيِّتِ إِلَى الدُّعاء.

ولهذا لو سألَنا سائل: أيها أفضل، أَنْ أقرأ لميِّتي جُزءًا مِن القُرْآنِ، أو أن أَدْعُوَ اللهَ له؟ **قلنا:** الدُّعاء له أفضلُ.

ولو قال: أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ لوالدي أو أدعو الله له؟ قلنا: الدُّعاءُ أفضلُ.

ولو قال: أطوفُ بالبيتِ سَبعًا لوالدي أو أدعو الله له؟ قلنا: الدعاءُ له؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أَرْشَدَنا فِي سياق العَمَل إِلَى الدُّعاء، ولم يُرْشِدْنا إِلَى العملِ.

إذن الغرضُ من زيارةِ القُبُور أمران:

الأول: تذكير بالآخرة.

والثَّاني: الدُّعاء لهم.

أما دعاؤهم بمعنى أَنْ نَسْتَغِيثَ بهم، أو نلجأ إليهم، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهذا شِركٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عن المِلَّة، وقد قالَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

ونحن -يا إخواني- نخاطِب بلسانِ العقلِ: أيها أحسَنُ لك: أن تَدْعُوَ مَن يقول للشيء: كُنْ فيكون، أو أَنْ تَدْعُوَ مَيِّتًا أنتَ رَمَسْتَهُ[1] بالترابِ؟ ونحن نُخاطبكم بالعقلِ فضلًا عن الشَّرعِ.

لا شَكَّ أنَّ كونَك تدعو مَن إذا أراد شيئًا أنْ يَقولَ له: كُنْ فيكون خيرٌ مِن كونِك تَدْعُو مَن لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نفعًا ولا ضُرًّا؛ أعني ذلك الذي سوَّيتَ عليه الترابَ بنفسك.

وأقول: «خيرٌ» من باب قولِ الله تَعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل:٥٩]، وإلا فلا خيرَ في دُعاء الأمواتِ، سواء للمَيِّتِ أو للحيِّ الداعي.

فهَذَا هُوَ المقصود مِن زيارة القُبُور، ولا فَرْقَ فِي هَذَا بين قَبْرِ النَّبِي ﷺ وقبر صاحبيه أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وقبر عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي البَقِيع، وقبر عليِّ بنِ أبي طالبٍ فِي العراقِ، أو غير ذلك، فكل هَـذِهِ القُبُور لا تُزار إِلَّا مِن أَجْلِ الدُّعاء لأصحابها، حتَّى النَّبِي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما نَزُورُ قبرَه فإننا نقول: (السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).

وأقول هَذَا أيضًا مِن عندي يا إخواني، ولَيْسَ عن سُنَّة، بمعنى أن الرَّسُول ﷺ لم يقُل لأصحابِه: إذا زُرتم قَبري فقولوا كذا وكذا. لكن الرَّسُول علَّم أُمَّته

(١) الرَّمْس: الستر والتغطية والدفن.

السَّلامَ عليه، والصَّلاةَ عليه، والمأثورُ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كانَ يقول: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ»[1]، وينصرف.

وليس فِي هَذَا المقام هَذِهِ الأدعيةُ الطويلةُ الَّتِي تُتعِب النَّاس وتحجُز عن الخروجِ مِن المَسْجِد، إنَّما هو السَّلام وأنت ماشٍ، أو تَقِف اليسيرَ أمامَ قبر النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثمَّ تَخْطُو خُطوةً عن اليمين لتكونَ مُقَابِلًا لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثمَّ تخطُو خُطوة عن اليمين لتكونَ مُقَابلًا لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

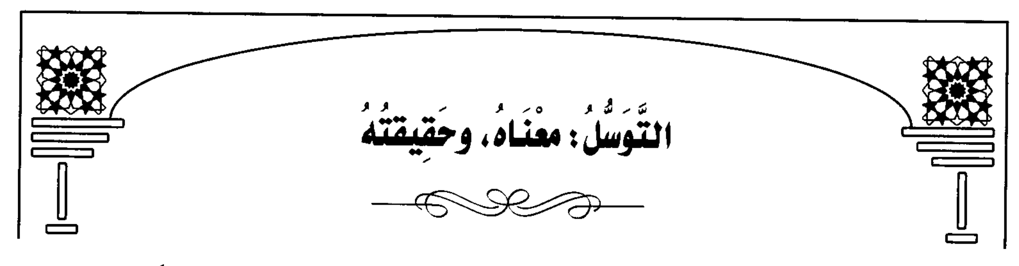
هذا هُوَ المأثور، أما هَذِهِ الأدعية الطويلة المَسْجُوعة فإنها إنَّما تُجدِّدُ الأحزانَ، ولهذا تجد بعض النَّاس الَّذِينَ يَزُورُون المقبرة فِي البَقِيع فِي بُكاء وفي صُراخ، وهَذَا ممَّا يدل عَلَى أن الزيارةَ زيارةُ أحزانٍ، وليستْ زيارةَ دعاءٍ لهم، وهُم في أشدِّ الحاجةِ للدعاء لهم؛ كما جاءت به السُّنَّة؛ قالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**»[2].

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٧٦، رقم ٦٧٢٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٨، رقم ١١٧٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤).



التَّوَسُّلُ: معْنَاه، وحَقِيقتُه

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا مُحمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، **أمَّا بَعْدُ:**

فإنَّ التوسُّلَ موضوعٌ مُهِمٌّ وخطِيرٌ، حتى إنَّهُ أدخَلَ بعضَ الناسِ في الشِّرْكِ الأكبرِ وهُمْ لا يعلَمُونَ، والتَّوَسُّلُ لُغَةً مأخوذٌ مِن: الوسِيلَةِ، والوسِيلَةُ مِثْلُ الوصِيلَةِ، والتوَسُّلُ والتوصُّلُ معنَاهُما متقَارِبٌ؛ لأن السِّينَ والصادَ دائمًا يَتعَاوَرَانِ. أي: إن أحَدَهُما يستَعِيرُ المكانَ مِنَ الآخرِ، ولهذا يُقْرأُ قولُه تعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] بالصاد، ويُقرأ: (اهْـدِنَا السِّـرَاطَ) بالسِّينِ، وكِلاهما قراءَةٌ سَبْعِيَّةٌ، فيجـوزُ أن تَقْرَأَ: ﴿اِهدْنَا السِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ۝٦ سِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، أو تقولَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

فالتَّوَصُّلُ والتَّوَسُّلُ معـناهُمَا متَقَارِبٌ جدًّا، والوسيلَةُ: هِي السببُ المُوصِلُ إلى المَقْصودِ، وتكونُ عِبادَةً يُرادُ بها التَّوَصُّلُ إلى رِضوانِ اللهِ والجنَّةِ.

ولهذا نقولُ: جميعُ العِباداتِ وسيلَةٌ إلى النَّجَاةِ مِنَ النارِ ودُخولِ الجنَّةِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]؛ فإذا صُمتَ رمضانَ؛ فإنه يُقال: هذه وَسِيلَةٌ لمغفِرَةِ الذُّنوبِ، وإذا قُمْتَ رمضانَ فهذِهِ وسيلَةٌ أيضًا لمغْفِرَةِ الذُّنوبِ، وإذا قُمْتَ ليلةَ القَدْرِ فهذِهِ وَسِيلَةٌ لمغفِرَةِ الذُّنوبِ، وكلُّ هذا لا بُدَّ أَنْ يكونَ إيمانًا واحتِسَابًا.

إذن الأعمالُ الصالحَةُ كُلُّها وسيلَةٌ.

ويجبُ أَنْ يكونَ غَرَضُ الإنسانِ مِنْ أعمالِهِ الصالحَةِ قولَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ولهذا كانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يستَعِيذ مِنَ النَّارِ، فيقول: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ النَّارِ، وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ»[(١)].

هذا هو النَّوعُ الأوَّلُ مِنَ الوَسِيلَةِ، وهو التَّوَسُّلُ المقصودُ لذاتِهِ، وهِي العبادَاتُ، لأنها وسِيلَةٌ إلى رِضوانِ اللهِ ومَغْفِرَتِهِ.

أما النوع الثاني فهو المقْصُودُ لغيرِه، فالمقصودُ لذاتِهِ هي العِبادَاتُ؛ لأنها وسيلَةٌ إلى رِضْوانِ اللهِ، ومَغْفِرَتِهِ، والتَّوَسُّلُ لغيرِهِ هو ما يُقَدِّمُه الإنسانُ بينَ يَدَي دُعائِهِ، فَهِي ما يُتَّخَذُ وسِيلةً لإجابَةِ الدُّعاءِ، وهو أقسامٌ:

القِسمُ الأوَّلُ: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَعَالَى بأسْمائِهِ، سواءٌ كانَ بالأسماءِ عامَّةً، أو كان باسْمٍ مُعَيَّنٍ منْها.

مثالُ الأوَّلِ: التوسُّلُ بالأسماءِ على سَبيلِ العُمومِ، كما ثَبَتَ في الحَديثِ الصحيحِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في دُعاءِ الهَمِّ والغَمِّ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»[(٢)]، والشاهِدُ مِنَ الحدِيثِ قولُهُ: «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ**»،

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٧، رقم ١٩٢٦٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، رقم (٨٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨).

ونقـول نحنُ: اللَّهُمَّ إني أسْألُكَ بأسْمائكَ الحُسْنَى. ودليلُ هذا القِسْمِ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

مثالُ الثَّـانِي: وهو التَّوَسُّلُ باسمٍ خاصٍّ، مِثل أن تقـولَ: يا غَفُـورُ اغْفِرْ لِي، يَا رحِيمُ ارْحَمْنِي. وكما جاءَ في الحَدِيثِ «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**»[1]، وهذا تَوَسُّلٌ باسمٍ خاصٍّ، وفي هذا النـوعِ يجِبُ أَنْ يكونَ الاسمُ مناسِبًا للدُّعاءِ، فإذا أَرَدْتَ أن تَسْأَلَ اللهَ الرِّزْقَ تقـولُ: يا رَزَّاقُ. أو المغْفِرَةَ: يا غَفُـور. أو العَفْـو: يا عَفُـوٌّ، وهكذا.. لكن لو قُلْتَ: اللهُمَّ يا شَدِيدَ العِـقابِ اعفُ عَنِّي. لم يكُنْ ذلكَ مناسِبًا، فكيف تَتَوَسَّلُ باسمٍ يدُلُّ على العُقوبَةِ إلى عَفْوِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟! إنما تَدْعُو اللهَ تَعَالَى بالأسماءِ المناسِبَةِ بما تَدْعُو بِهِ.

القسمُ الثَّـانِي: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَعَالَى بِصِفـاتِهِ، ومِنَ الصِّفاتِ الأفْعَـالُ؛ فإن الأفْعالَ صفاتٌ، مِثال ذلكَ: أن تَقولَ: اللهُمَّ إني أَسْأَلُكَ بأسمائكَ الحُسْنَى، وصِفَاتِكَ العُلْيا. فهذا تَوَسُّلٌ صحيحٌ بصفاتِهِ، والتوسُّلُ بالصِّفاتِ يكون كذلِكَ عامًّا، ويكون خاصًّا.

مثال العام: ما ذَكَرْتُهُ آنفًا.

ومثـال الخاصِّ: قولُهُ في الحَدِيثِ: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُـدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِـدُ وأُحَاذِرُ**»[2]، فهذا توسُّلٌ بصفَةٍ مِنْ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ صِفَةٍ واحِدَةٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي، رقم (٣٥١٣)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، رقم (٣٨٥٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعـاء، رقم (٢٢٠٢).

ومثلُهُ أيضًا: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الحَقِّ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالقَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ»[(١)].

الشاهدُ مِن هذا الشاهِدِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي» فإن هذا مِنْ بابِ التوسُّلِ بالصفَةِ، والصفَةُ هنا هِي العِلْمُ، والصِّفَةُ المتوسَّلَ بها هنَا «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ» هُمَا العِلْمُ والقُدْرَةُ.

ومِن التوسُّلِ بالأفعالِ قولُهُ في الحديثِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»[(٢)]، والتَّوَسُّلُ هنا سؤالُكَ اللهَ الذي مَنَّ بصلاتِهِ على إبراهِيمَ وعلَى آلِ إبراهِيمَ، أَنْ يَمُنَّ بصلاتِهِ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ، فالكافُ في قولِكَ: «كَمَا صَلَّيْتَ» ليست للتَّشبيهِ ولكنَّها للتَّعْلِيلِ، والكافُ تأتي للتَّعْلِيلِ، كما قالَ ابن مالِكٍ في الألْفِيَّةِ[(٣)]:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

الشاهدُ مِنَ البيتِ قولُهُ: «وبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ يُعنَى». أي: قد يرادُ بها التَّعْلِيلُ؛ لأنك صَلَّيْتَ على إبراهِيمَ، فَمِنَّتُكَ على عبْدِكِ وخَلِيلِكَ إبراهِيمَ وعلى آلِهِ، نتوسَّلُ

(١) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٥).
(٣) الألفية، لابن مالك (ص:٣٥).

بِهَا إليكَ أن تُصَلِّيَ على خَلِيلِكَ محمَّدٍ وعلى آلِهِ.

وهنـاك مثالٌ في القرآنِ على أن الكافَ للتَّعْلِيلِ، قولُهُ تَعـالَى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٨]، فالكافُ هنا للتَّعْلِيلِ، أي: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ﴾ [البقرة:١٩٨]؛ لأَنَّه: ﴿لَهَدَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام:١٤٩].

فالمسألةُ معْرُوفَةٌ، وهي أن الكافَ للتَّعْلِيلِ، وإذا قُلْنا: إن الكافَ للتَّعْلِيلِ في قولِهِ: «كَمَا صَلَّيْتَ» سَلِمْنَا مِن شُبْهَةٍ مشهورَةٍ عنـدَ العُلماءِ، فبعضُهُم يقولُ: إذا قلنا: الكافُ للتَّشْبِيهِ حصَلَ إشكالٌ؛ لأن مَعْنى ذلِكَ: أننا نَطْلُبُ أَنَّ اللهَ يُصَلِّي عَلَى محمَّدٍ ﷺ وآلِهِ صلاةً دونَ صلاتِهِ على إبراهِيمَ وآلِهِ، بناءً على أن المُشَبَّهَ أَقَلُّ مِن المشبَّهِ بهِ، فأنا إذا قُلْتُ: فلانٌ كالبَحْرِ في كَرَمِهِ. فالبَحْرُ أقْوَى، فإذا جعَلْنَا الكافَ للتَّشْبِيهِ في قولِهِ: «صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، معْنَاه: أَنَّنَا نطْلُب مِنَ الله أَنْ تكونَ الصلاةُ فِي الواقِعِ دونَ الصلاةِ على إبراهِيمَ وآله، فإذا قُلْنا: الكافُ للتَّعْلِيلِ، وإننا نريدُ بذلِكَ التوسُّلَ بفعلِهِ السابِقِ إلى أَنْ يُحَقِّقَ الفِعْلَ اللاحِقَ، يزولُ الإشكالُ نَهَائيًّا، ولا حاجَةَ إلى ما ذكَرَهُ بعضُ الناسِ وتكَلَّفَ فيه مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

وصلاةُ اللهِ على نَبِيِّهِ محمَّدٍ ﷺ معناها: اللهُمَّ أَثْنِ عليهِ في المَلأ الأعْلَى، واذْكُرْهُ بالجَـمِيلِ، وليستْ صلاةُ اللهِ عَلَى عبدِهِ بمَعْنَى رَحْمَتِـهِ، وإن كان بعضُ العلماءِ قالَ: الصلاةُ مِنَ اللهِ الرَّحمَةُ. لكن هذا قولٌ مرجُوحٌ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧]، والعَطْفُ يقتَضِي التغايُرَ.

القِسمُ الثالِثُ: أَنْ يتوسَّلَ الإنسانُ إلى اللهِ تَعَالَى بالإيمانِ بِهِ وبرسُولِهِ، فيقول:

اللَّهُمَّ بإيماني بكَ وبِرَسولِكَ، أسألُكَ كذَا وكذَا، فهذا صحِيحٌ وجائزٌ، ودليلُهُ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة:١٦٤]، إلى أن قالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، أي: فبِسَبَبِ إيمانِنَا اغْفِرْ لنَا، فجعَلُوا الإيمانَ بِه وسِيلَةً للمَغْفِرَةِ، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، فالتَّوَسُّلُ بالإيمانِ باللهِ والإيمانِ برسولِهِ ﷺ والإيمانِ بمحَبَّةِ اللهِ والتَّوَسُّلِ بمحبَّةِ اللهِ ومحبَّةِ رسولِهِ جائزٌ؛ لأن الإيمانَ باللهِ سبَبٌ مُوصِلٌ للمَغْفِرَةِ، فمَحَبَّةُ اللهِ ورسولِهِ سببٌ موصِلٌ للمَغْفِرَةِ، فصحَّ أَنْ يتوسَّلَ إلى اللهِ تَعَالَى بِهِ.

القسمُ الرابعُ: التوسُّلُ إلى اللهِ تَعَالَى بحالِ الدَّاعِي: أَنْ يتَوَسَّلَ الدَّاعِي إلى اللهِ بحالِهِ، ولا يَذْكُرُ شَيئًا، مِثْلُ أَنْ يقولَ: اللهُمَّ إني أنَا الفَقِيرُ إليكَ، اللهُمَّ إني أنا الأسيرُ بينَ يدَيْكَ، اللهم إنِّي أنَا الكَسِيرُ، وما أَشْبَهَ ذلك، ودليلُه قولُ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَ سَقَا للمَرْأَتَيْنِ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، ولم يَذْكُرْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْئًا، فهذا هو التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَعَالَى بحالِ الدَّاعِي، ودليلُهُ هذِهِ الآيَةُ، ووجْهُهُ أَنَّ حالَ الدَّاعِي إذا وَصَفَها الإنسانُ فإنَّها تَقْتَضِي الرحْمَةَ واللُّطْفَ والإحسانَ، لا سِيَّما إذا كانَتْ بين يَدَي أرْحَمِ الراحِمينَ جَلَّ وَعَلَا.

أرأيتَ لو أنَّ رجُلًا مشَى معَكَ، وقال: أنا فَقِيرٌ، ورَبُّ عائلَةٍ، ولا أستطيعُ التكَسُّبَ، وغريبُ الدَّارِ. فمعنى هذا: أنه يسألُ ويتَوَسَّلُ إليكَ بحالِهِ، فإذا قالَ لكَ ذلك عَرَفْتَ فأعْطَيتَهُ ما يُريدُ.

القِسمُ الخامِسُ: هناك تَوَسُّلاتٌ أخْرى غيرُ صَحِيحَةٍ ممنوعَةٌ، وهي: أَنْ يتَوَسَّلَ

الإنسانُ بالنَّبيِّ ﷺ بِذَاتِهِ، فيقولُ: اللهُمَّ إني أسأَلُكَ بنَبِيِّكَ أَنْ تُغيثَنَا، أسأَلُكَ بنَبِيِّكَ أن تُؤَمِّنَنَا في أوطَانِنَا. وهذا لا يجوز؛ لأن ذلِكَ لا ينْفَعكَ أنتَ، فجاهُ الرَّسولُ ﷺ ومنْزِلَتُه عندَ اللهِ ينتَفِعُ بِهَا الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نفْسُهُ، أما أنتَ فما لكَ فِيهَا منْفَعَةٌ، وكذلك ذَاتُهُ مِن بابِ أَوْلى.

والدليلُ على أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَملِكُ لنا نَفْعًا ولا ضرًّا، قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن:٢١-٢٢]، وهو لا يَملِكُ لنفْسِه هو نَفْعًا أو ضَرًّا؛ لقولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

لكن لو قُلْتَ: أسأَلُكَ بنَبِيِّكَ. وأنتَ تُريدُ: أسأَلُكَ بإيمانِي بِنَبِيِّكَ، كان هذا جائزًا، لكنَّ ظاهِرَ اللفْظِ أنه مِنَ القِسْمِ غيرِ الجائزِ، ولهذا نقول: صَحِّحِ العِبارَةَ، وقل: اللَّهُمَّ إني أسأَلُكَ بإيمانِي بِنَبِيِّكَ، أو بمَحَبَّتِي لنَبِيِّكَ، أو باتِّبَاعِي نَبِيَّكَ، وما أشبهَ ذلك، ويدلُّ على أَنَّ التَّوسُّلَ بالنَّبِيِّ ﷺ الآن ليس بصحِيحٍ، أن الصحابَةَ قُحِطُوا في عَهْدِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فخَرجَ بهم يستَسْقِي بهِمْ، فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، فتَسْقِينَا»، والصحابَةُ يتوَسَّلُونَ بَنَبِيِّهِمْ بدُعائِهِ، فيأْتُونَ إليهِ، يقولون: يا رَسُولَ اللهِ، ادعُ اللهَ لنا يُغِيثنا؛ «وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، فَاسْقِنَا»، فَيَقُومُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَيَدْعُو اللهَ تَعَالَى بِالسُّقْيَا، فَيُسْقَوْنَ[1].

وهذا دليلٌ على أَنَّ مَعْنَى التَّوسُّلِ بالنَّبِيِّ ﷺ الواردِ عن الصحابَةِ إنما معناه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

أنهم يتوَسَّلُونَ بدُعائِهِ لا بذاتِهِ.

القِسمُ السادِسُ: التوسُّلُ بدعـاءِ مَن تُرجَى إجـابَةُ دُعائِهِ، ودليـلُ ذلِكَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يخْطُب الناسَ يومَ الجُمعَةِ، فدَخَـل رَجُلٌ، فاستَقْبَلَ النَّبيَّ ﷺ وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعْتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُـمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُـمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُـمَّ أَغِثْنَا**». قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ، مَا نَرَى فِي السَّماءِ مِنْ سَحَـابٍ، وَلَا قَزَعَةً -والقَزَعَـةُ: هي القِطْعَةُ الصغـيرَةُ مِن الغَيْمِ- وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ -وسَلْعٌ: جَبَلٌ بالمدينَةِ، تأتِي مِن نَحوِهِ السحابُ- قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّماءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، فَما نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ مِنْبَرِهِ إِلَّا وَالمَطَرُ يَتَحَادَرُ مِنْ لِحْيَتِهِ[1].

وفي هذا آيتَانِ: آيَةٌ مِن آياتِ اللهِ، وآيَةٌ مِنْ آياتِ رسولِ اللهِ ﷺ.

أما التِي مِنْ آياتِ اللهِ فالقُدْرَةُ العظِيمَةُ، بهذِه السُّرعَةِ نشأَ السَّحابُ، ورَعْدٌ وبَرْقٌ وأَمْطَرَ، فما نَزَل الرسولُ ﷺ مِنْ مِنْبَرِهِ إلا والمطَرُ يتحادَرُ مِنْ لِحْيَتِهِ.

والمعروفُ أنَّ النَّبيَّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان لا يُطِيلُ الخطْبَةَ، وهذا أَتَى في أثناءِ الخُطْبَةِ قد سبَقَ أوَّلُها.

أما التي مِنْ آياتِ النَّبيِّ ﷺ فلأنَّ اللهَ أجابَ دُعاءَهُ بهذه السُّرْعَةِ، وآياتُ النَّبيِّ ﷺ في جَلبِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، أو مِن الأرضِ معْلومَةٌ، فقـد كانُوا في غَزْوَةِ الحدَيْبِيَةِ ونَفِدَ الماءُ الذي مَعَهُم، فجـاءَ الناسُ إلى النَّبيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالوا: يا رَسولَ اللهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (٩٦٧)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

نَفِدَ الماءُ، فكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ -إناءٌ مِنْ جِلْدٍ- فَوَضَعَ يَدَيْهِ فِي المَاءِ، فَجَعَلَ المَاءَ يَفُورُ أَمْثَالَ العُيونِ، حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ وَرَوَوْا[١].

واللهُ علَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وهذِه الآيةُ تأييدٌ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقد تكونُ الآيَةُ التي يُرْسِلُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكذِيبًا لمن أُرْسِلَتْ إليهِ، يقالُ: إنَّ مُسَيْلِمَةَ الكذَّابَ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ جاءَ إليه قوْمٌ، فدَعَوْهُ بالوصْفِ الكاذِبِ، وهو: يا رسولَ اللهِ! وهو مِنْ أكذَبِ عِبادِ اللهِ، قالُوا: إن بِئرًا لنا نَزَحَتْ وليس فيها إلا ماءٌ قليلٌ، فائتِ إليها لعَلَّ اللهَ يجعَلُ فيها البَرَكَةَ، فجاءَ إلى البِئرِ، وأخذَ ماءً بِفَمِهِ، ومجَّهُ فيهَا، ينتَظِرُ أَنْ يَخْرُجَ الماءُ إلى أَعْلَى، ولكِنَّ الماءَ القليلَ الذي فِيهَا غارَ بالكُلِّيَّةِ! ذهَبَ كلُّهُ، وهذه آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكنها آيةٌ لتكْذِيبِ هذا الرجُلِ، وليستْ لتأييدِهِ وتَصْديقِهِ[٢].

نَعُود إلى حَدِيثِنَا الأوَّلِ: فبَقِي المطَرُ ينزِلُ أُسْبُوعًا كامِلًا، حتى سالَ الوادِي المعروفُ في المدينَةِ باسمِ قَنَاة، سالَ شهرًا كامِلًا، فجاءَ الرَّجُلُ -أو رجُلٌ آخَرُ- مِن الجمُعَةِ الثانِيَةِ والنَّبِيُّ ﷺ يخطُبُ، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ، وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكُهَا. فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ وقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**»، وجعَلَ يُشِيرُ بيدِهِ، فما يُشيرُ إلى ناحِيَةٍ إلا انْفَرَجَتْ، ليس بقُدْرَةِ الرسولِ ﷺ، ولكِنْ بقُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فجَعَلَ السحابُ يتَفَرَّغُ ويُمْطِرُ حولَ المدينَةِ، ولا يُمْطِرُ على المدينَةِ، فخَرَجُوا مِنَ الصلاةِ وهُمْ يَمْشُونَ في الشَّمْسِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٦).
(٢) أعلام النبوة للماوردي (ص:١٠٦).

وهنـا ترون أن الأعرابِيَّ -أو الرَّجُـل- قالَ: ادْعُ اللهَ يُمْسِكُـهَا. لكِنَّ النَّبِيَّ لم يفْعَـلْ، فليسَ إمْسَاكُهَا مِنَ المصْلَحَةِ، لكن دعَا بدعاءٍ تَحْـصُلُ به المَنْفَعَةُ وتَزُولُ المفسَدَةُ، قال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**».

وفي هاتَيْنِ القِصَّتَيْنِ كانَ الرَّسولُ ﷺ يَرْفَعُ يدَيْهِ وهُو يخـطُبُ، وفي الأوَّلِ عنْدَما سألَ اللهَ الغَيْثَ رفَعَ الصحابَةُ أيْدِيَهُمَ مَعَهُ وهُمْ يستَمِعُونَ إلى الخُطْبَةِ، فيُستَفَادُ مِنْ هذا أن الخَـطِيبَ إذا دَعَا بالغَيْثِ أو دَعَا بالصَّحْـو؛ فإنه يَرْفَعُ يَدَيْهِ، وأن الناسَ يرْفَعُونَ أيدِيَهُم معَه إذا دعَا بالغَيْثِ، وفِيمَا عدَا ذلِكَ إذا دَعَا الخَطِيبُ في خطْبَةِ الجمْعَةِ، لا يَرفَعُ يدَيْهِ ولا يَرْفَـعُ الناسُ أيدِيَهم؛ لأن الصحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنْكَرُوا على بِشْرِ بن مَروانَ حين خَطَبَ، ودعَا في الخُطْبَةِ ورَفَعَ يدَيْهِ[1].

فَرَفْعُ اليَدَيْنِ في الدُّعاءِ حالَ الخطْبَةِ ليس مِنْ هَدْيِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا إذَا دَعَا باسِتَسْقاءٍ أو استِصْحَاءٍ.

ومنه قولُ **عكَّاشَةَ بنِ مُحْصِنٍ**: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. أَيْ: مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ[2].

ولكن ينبَغِي أن تُلاحِظَ -أيها المسلم- أَنَّك إذا طَلَبْتَ مِنْ شخْصٍ يدْعُو لك، وهو مِمَّنْ تُرجَى إجـابَتُهُ، أَنْ يكونَ غَرَضُكَ بذلك مَصْلحَتَهُ هُو لا مصْلَحَتَكَ أنتَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٠٥)، مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٨).

فينْبَغِي إذا سألتَ إنْسَانًا يُرْجى منه إجابَةُ الدُّعاءِ أَنْ تَقْصِدَ بطَلَبِكَ منه أَنْ يَدْعُوَ لكَ بمَصْلحَتِهِ هو لا مَصْلَحَتِكَ أنتَ؛ وذلك لأن الإنسانَ إذا دَعَا لأخيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، قال له المَلَكُ: «آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»[1]. أما إذا سَأَلْتَهُ أَنْ يدْعُوَ لَكَ، وأنتَ لا تُرِيدُ إلا مَصْلَحَتَكَ أنتَ فقط؛ فإن هذا يُخْشَى أَنْ يكونَ مِن المسألَةِ المَذْمُومَةِ؛ لأنَّ مِنْ جُملَةِ ما بايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أصحابَهُ عليه أَلَّا يَسْأَلُوا الناسَ شَيْئًا[2]، وهذه مسألَةٌ يقَعُ فيهَا الناسُ كَثِيرًا، يقولُ بعضُهُم: ادْعُ اللهَ لِي. ولكِنْ ينْبَغِي أن تُرَاعِيَ مَصْلَحَتَهُ كذلك، فليُنْتَبَهْ إلى هذه المسألَةِ.

القِسمُ السَّابِعُ: التَّوَسُّلُ بالأعمالِ الصالحَةِ، وهو غيرُ التَّوَسُّلِ بالإيمانِ، والتوسُّلُ بالأعمالِ الصالحَةِ: أَنْ يذْكُرَ الإنسانُ بينَ يَدَي دُعائِهِ عَمَلًا صَالحًا يكونُ سَبَبًا في حصولِ المَقْصُودِ، ومثاله: قِصَّةُ الثلاثَةِ الذين حَدَّث عنْهُم الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالَ: إنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائيلَ آواهُمُ المَبِيتُ إِلَى غَارٍ -والغَارُ: الشَّقُّ في الجَبَلِ- فَدَخَلُوا الغَارَ، فأرادَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحِكمتِهِ أن تَنْطَبِقَ عليهِمْ صخْرَةٌ ابتِلَاءً وامْتِحَانًا وعِبْرَةً لعِبَادِهِ، فانْطَبَقَتْ عليهِمْ صَخْرَةٌ، فأَرَادُوا أَنْ يَدْفَعُوهَا، فعَجَزُوا، فَقَالَ بَعْضُهُم لبَعْضٍ: إِنَّهُ لا يُخْرِجُكُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أنْ تَتَوَسَّلُوا إِلَى اللهِ تعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَتَوَسَّلُوا إِلَى اللهِ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى، ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالحِلَابِ، فَآتِي بِهِ أَبَوَيَّ فَيَشْرَبَانِ، ثُمَّ أَسْقِي الصِّبْيَةَ وَأَهْلِي وَامْرَأَتِي، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً، فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ، قَالَ: فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمَا،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣).

حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، اللَّهُـمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْـهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَـةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُـمُ الصَّخْرَةُ قَلِيلًا، لكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُـونَ الخُرُوجَ.

هذا الرجُلُ له أبوانِ شَيخانِ كَبيرانِ، ويَقْصِدُ بذلك الأب والأم، لكنَّه يُطْلِقُ عليهما أبوانِ مِنْ بابِ التَّغْليبِ، كما يقُالُ: القَمرانِ للشَّمْسِ والقَمْرِ، ويقال: العُمَرَانِ لأبي بَكْرٍ وعُمَرَ، وعمَلُهُ هذا نُسَمِّيهِ غايَةَ البِرِّ.

أما الثَّانِي فذَكَر أن لَهُ ابنَةَ عَمٍّ، وكانَ يُحِـبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، فأرادَهَا عَلَى نَفْسِهَا، فأَبَتْ، ثمَّ إنَّه في سَنَةٍ مِنَ السَّنَواتِ أَلَمَّتْ بها الحَـاجَةُ، فَجَاءتْ إِلَيْهِ تَطْلُبُ مِنْهُ دفْعَ حَاجَتِـهَا، فأبى إِلَّا أَنْ تمَكِّنَهُ مِنْ نفْسِهَا، فَلَمَّا جَلَسَ منْهَا مجـلِسَ الرَّجُلِ مِنِ امْرأتِهِ، قالتْ لَهُ: يا هَذَا، اتَّقِ اللهِ، ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلَّا بِحَقِّهِ. قالَ: فقُمْتُ عَنْهَا وهِي أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ. قال: اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُروجَ.

يريدُ: ما تَرَكْتُهَا رَغْبَةً لأني لا أُريدُهَا، لكنَّه تَرَكَها خَوفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حينَ ذُكِّرَ بِهِ، وأَعْطَاهَا حاجَتَها، فجَمَعَ هذا الرَّجُلُ بينَ كمالِ العِفَّةِ والصِّلَةِ.

أما الثَّالِثُ، فذَكَرَ أنَّ لَهُ أُجَرَاءُ -أي: أُنَاسًا اسْتَأجَرَهُم- وأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ أَجْرَهُ إِلَّا واحِدًا لَمْ يُعْطِهِ أجْرَهُ، فنَمَّاه لَهُ، وصارَ فيهِ إِبِلٌ، وغَنَمٌ، وبَقَرٌ، ورَقِيقٌ، حتى جاءَ العامِلُ يطْلُبُ أَجْرَهُ، فقالَ: كُلُّ ما تَرَى مِنَ الإِبِلِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، كُلِّهِ لكَ. فقَـالَ لَهُ: اتَّقِ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي. قَـالَ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، هذه أُجْرَتُكَ، فأَخَـذَهَا الأَجِيرُ وذَهَبَ بها كُلِّهَا. قالَ: اللَّهُمَّ إن كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافرُجْ عَنَّا

ما نَحْنُ فِيهِ، فَانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، وَخَرَجُوا يَمْشُونَ[١].

في هذه المعامَلَةِ الوفاءُ التَّامُّ لهذَا الرَّجُلِ؛ لأنه مِنَ المُمْكِنِ أنه إذا جاءَ يَطْلُبُهُ أَجْرَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ أجْرَهُ، وينتَهِي الأمرُ، لكِنْ لأمانَتِهِ ووفائِهِ أعطَاهُ كُلَّ نَمَاءِ الأُجْرَةِ.

فلو قال قائل: اللهُمَّ إِنِّي أسأَلُكَ بِبِرِّ والِدَيَّ أَنْ تُوَفِّقَنِي لبِرِّ أَوْلادِي بِي، فهذا صحيحٌ، وهذا مِن بابِ التَّوَسُّلِ بالعَمَلِ الصالِحِ.

أما توسُّلُ المشرِكِينَ بأصنامِهِمْ وأَوْثَانِهِمْ، وتَوَسُّلُ الجاهِلِينَ بأولِيائِهِمْ، فهو تَوَسُّلٌ شِرْكِيٌّ، لا نقـولُ: تَوَسُّلًا بِدْعِيًّا، بل هو توَسُّلٌ شِرْكِيٌّ، ولا يصِحُّ أَنْ نُسَمِّيَهُ تَوَسُّلًا، بل هو شِرْكٌ محْضٌ؛ لأن هؤلاء المتَوَسِّلِينَ يَدْعُونَ مَن يزْعُمونَ أنَّهم وَسِيلَةٌ، فيأتِي الرجُلُ إلى مَن يزْعُمُهُ وَلِيًّا، ويقـولُ: يا وَلِيَّ اللهِ أَنْقِذْنِي! بهذا اللَّفْـظ، أو: يا آلَ البَيْتِ أَنْقِذُونِي! أو: يا نَبِيَّ اللهِ أَنقِـذْنِي! فهذا لا يصِحُّ أَنْ نُسَمِّيَهُ وسِيلةً، بل نُسَمِّيهِ شِرْكًا؛ لأن دُعاءَ غيرِ اللهِ شِرْكٌ في الدِّينِ، وسَفَهٌ في العَقْلِ.

شِركٌ في الدِّينِ: لأنَّه اتَّخَـذَهُ شَرِيكًا معَ اللهِ، وسَفَهٌ في العَقْـلِ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، ولا ينْفَعُونَهم يومَ القِيامَةِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]، فوَصَفَ اللهُ هذِهِ المدْعُـوَّاتِ بأنها عاجِزَةٌ، لا تَسْتَجِيبُ أبدًا ولو دَعَوْهُم إلى يوم القِيـامَةِ، وبأنها غافِلَـةٌ لا تدْرِي مَن يدْعُوها، ولا تُحِسُّ بشيْءٍ مِنْ ذلِكَ، وبأنه إذا كان يومُ القِيـامَةِ وهو وقتُ الحـاجَةِ الحقِيقِيَّةِ كانوا كَما

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي، رقم (٢٢١٥)، مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣).

في قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦].

فدُعاءُ هؤلاءِ الأولياءِ والأصْنامِ وما أشْبَهَهَا، لا يَصِحُّ أن نقولَ: إنه وسيلَةٌ، بل هو شِرْكٌ أَكْبَرُ مخْرِجٌ عن الدِّينِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، فسَمَّى اللهُ هذا الدَّاعِيَ كافِرًا.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ هؤلاءِ رُبَّما يدْعُونَ هذِه الأصنامَ، أو هؤلاءِ الأولياءَ، ويَحْصُلُ مَطْلُوبُهُم، ثم يأْتُونَ فيقُولونَ: دَعَوْنَا الوَلِيَّ الفُلانِي فأجابَ، دَعَوْنَا هذا الصنَمَ فأجابَ، فما تقولونَ؟

قلنا: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ يُحْدِثُ هذَا الشيءَ عنْدَ الدعاءِ لا بالدُّعاءِ؛ امتِحَانًا للدَّاعِي. وانتَبِهْ للفَرْقِ بينَ (عِنْدَ) وبينَ (الباء) في قولِنَا: عندَ الدُّعاءِ لا بالدُّعاءِ. أي: قد يمتَحِنُ اللهُ هذا الدَّاعِيَ ويُقَدِّرُ حُصولَ ما دَعَا به عندَ دُعَائِهِ، وإن كان ذلِكَ ليس بدُعَائِهِ، وهذا ممكِنٌ، أَنْ يأْتِيَ الإنسانُ ويَدْعُوَ هذَا الوَلِيَّ صاحِبَ القَبْرِ بِدُعَاءٍ، ثم يَحْدُثُ له مَا دَعا بِهِ امتِحَانًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لا لأن هذا الوَلِيَّ هو الذي أَعْطاهُ إيَّاه؛ لأننا نعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّ هذَا الوَلِيَّ لن ينْفَعَهُ، ولن يستَجِيبَ لَهُ، لكن قد يُبْتَلَى.

لو قالَ قائلٌ: كيفَ تجْزِمُ بأن هذَا الذي حَدَثَ حدَثَ عنْدَهُ لا بِهِ، أي: عَلَى أيِّ شيءٍ جائزٍ أَنْ يكونَ حَصَل بِهِ؟

والجوابُ: قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤]،

كيفَ تُعْطِي الذي يبسُطُ كَفَّيْهِ إلى الماءِ ليَبْلُغَ فاهُ؟ قالَ تَعالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥،٦].

إذن أَنَا أَجْزِمُ الآن بأنَّ ما حَصَلَ عندَ دُعاءِ هذه الأصنامِ لم يحصُلْ بدُعائِهَا وإنما حصَلَ عنْدَهُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





التَّوَسُّــل

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شُرور أنفسنا ومِن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، إلهُ الأوَّلين والآخِرينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، إمام المتَّقينَ، وخاتَم النَّبِيِّين، صلَّى اللهُ عليه وأصحـابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فإن التَّوَسُّل في الدُّعَاء أَنْ يقول الإِنْسَان قولًا يكون سببًا للوصول إلى المقصود، وله أنواعٌ:

الأوَّل: أنْ يَتوسَّل إلى اللهِ بأسمائِه؛ إما على وجه التَّعيينِ أو على وجه العمومِ. ودليلُ ذلك قوله تعَـالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقـول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحـديث الصحيح: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِـهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»[(١)].

أمَّا التَّوَسُّل باسمٍ خـاصٍّ؛ فمِثل أَنْ يقولَ الداعي: اللَّهمَّ يا غفـورُ يا رَحِيمُ اغفِرْ لي وارحَمْني. فهَذَا توسُّلٌ باسمٍ خاصٍّ، ووجهُ كونِه وسيلةً لحـصولِ المقصودِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠، رقم ٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠/ ١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، وصححه الحاكم (١/ ٦٩٠، رقم ١٨٧٧).

أن قوله: يا غفورُ يَقتضِي المَغْفِرَةَ، وقوله: يا رحيمُ يَقتضي الرحمةَ.

ومِن ذلك ما علَّمه النَّبيُّ ﷺ أحبَّ الخَلق إليه أبا بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال له أبو بكر: يا رسولَ اللهِ، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. وانتبِهْ مَنِ السائلُ، إنه أبو بكرٍ، ومَنزِلتُه عند الرَّسُول أنه أحبُّ النَّاسِ إليه، إذن سوفَ يختار له أفضلَ الدُّعاء، قال ﷺ: «**قُلِ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(١). والاسمُ المعيَّن المُتوسَّل به هنا: «**إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

الثَّاني: التَّوَسُّل إلى الله بصفاتِه؛ مِثل: «**بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»(٢)، والمعنى: أستغيثُ بك لرحمتِك؛ لأنك راحِم، ومِثل قولِه في الدُّعَاء المشهور: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**»(٣).

ومِثل قول الداعي في الاستخارةِ: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي...**» إلى آخِر الحديث(٤). فهَذَا توسُّل بصفاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الثَّالث: التَّوَسُّل إلى اللهِ بأفعالِه، ومنه قولُه تَعَالَى عن مُوسَى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧] وإنعامُ اللهِ على العبدِ مِن أفعالِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، رقم (٣٥٢٤).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب السهو، نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢).

ومِن ذلك أيضًا قول المصلِّي: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**»[1]، فإن قولَه: «**كَمَا صَلَّيْتَ**» الكاف هنا للتَّعليلِ؛ يعني: لأنك صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ فبِفِعْلِك هَذَا أسأَلُك أن تُصَلِّيَ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ.

وبهَذَا التقرير الَّذي قرَّرنا في معنى قولِه: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**» زال الإشكالُ الَّذي يدورُ على أَلْسِنَة كثيرٍ مِن العلماءِ؛ وهَذَا الإشكال يَتَلَخَّص في الآتي: يقولونَ: لا شَكَّ أنَّ مُحَمَّدًا أفضلُ الرُّسلِ؛ فكيف تأتي الكافُ: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**»، والقاعدة أنَّ المُشَبَّه أقلُّ رُتبةً مِن المشبَّه به، وصلواتُ اللهِ على مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وآلِه أبلغُ مِن صلواتِه على إبراهيمَ وآلِه، فكيف يَصِحُّ ذلك؟

نقول: هَذَا الإشكالُ غير واردٍ أصلًا، والكافُ هنا ليستْ للتشبيهِ، ولكنَّها للتعليلِ، وإذا جعلناها للتعليلِ انتهى الإشكالُ، ولم يَرِدْ إطلاقًا، ويكون هَذَا مِن باب التَّوَسُّلِ إلى اللهِ بأفعالِه؛ يعني: كما تفضَّلتَ بالصَّلاةِ على إبراهيمَ وآلِهِ سابقًا فتَفَضَّلْ بالصَّلاةِ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ لاحقًا.

الرَّابع: التَّوَسُّل إلى اللهِ بالإيمانِ به، ودليلُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران:١٦]، وإنما كان التَّوَسُّل بالإيمان بالله مُوصِلًا للمقصودِ؛ لأن الإيمانَ باللهِ سببٌ لسعادةِ الدُّنْيَا والآخرةِ، والمؤمنُ باللهِ جَديرٌ بأن اللهَ تَعَالَى يجيب دُعاءَه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦).

الخامس: التَّوَسُّل إلى اللهِ بطاعةِ اللهِ؛ أي بأعمالِ الجَوارِحِ؛ يعني بالعملِ الصالحِ، قال تعالَى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]. فهَذَا توسُّلٌ إلى الله بالإيمانِ والعملِ الصالحِ.

ومِن ذلك أيضًا قصةُ ثلاثةٍ مِن بني إسرائيلَ، جَرَى لهم قصةٌ غَريبةٌ، حيث آواهُمُ المَبيت إلى غارٍ؛ يعني جاء اللَّيْلُ وأرادوا المَبيتَ فدخلوا في غارٍ، والغارُ هو عبارةٌ عن ثَقْبٍ في الجَبَل، فدخلوا في الغار، فانطبقتْ عليهم صخرةٌ عظيمةٌ مِن الجَبلِ، وما استطاعوا أَنْ يُزَحْزِحُوها، ففَكَّرُوا ما الَّذي يُنقِذهم فقالوا: الأعمالُ الصالحةُ، نَتَوَسَّل إلى الله تَعَالَى بأعمالنا الصالحة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ للشيءِ: كُنْ فيكون، مَهْمَا عَظُمَتْ عليك الكُرُبات، فإن الله قادِر على أَنْ يَرفعها عنك في لحظةٍ، فتوسَّلَ أحدُهم بِبِرِّ الوالدينِ، وتوسَّل الثَّاني بالعَفاف، وتوسَّل الثَّالث بالأمانةِ، وهذهِ الأشياءُ الثلاثةُ كلُّها أعمالٌ صالحةٌ.

فأما الَّذي توسَّل ببِرِّه بوالديْه؛ فذَكَر أن له أَبَوَيْنِ شيخينِ كبيرينِ، وأنه قد بَرَّهما، وأنه يَرُوح عليهما بِسَارِحَتِه، فإذا حَلَبَ اللبنَ سقاهما قَبل أولادِه وأهلِه، فَنَأَى به يومًا مِن الأيامِ طَلَبُ الشَّجَرِ؛ يعني أبعدَ يَطلُب المَرعَى، ثمَّ تأخَّر في اللَّيل، فجاء فوجدَ أَبَوَيْه نائمينِ، حيث حَلَبَ اللبنَ وجاء ليُقدِّمه إلى أبويه فإذا هُمَا قد نامَا، وحَوْلَهُ الصِّبية أولاده يَتَضَاغَوْنَ؛ أي: يَصِيحونَ مِنَ الجُوع، وهل هَذَا الرجلُ قَالَ: أَسقي أولادي وإذا استيقظَ أبوايَ سَقيتُهما؟ لا، بقيَ الإناءُ في يدِه حتَّى بَرِقَ الفجرُ واستيقظَ الوالدانِ فسقاهما، ثمَّ سقَى الصِّبْيَة، قَالَ: اللَّهُمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك مِن أَجْلِكَ فافْرُجْ عنَّا ما نحنُ فيه. وانظرْ إلى فِعلِ الحكيمِ عَزَّوَجَلَّ ما فرَّج اللهُ عنهم ما هم فيه في الحالِ، بلِ انفرجتِ الصخرةُ قليلًا، على وجهٍ لا يَستطيعون الخروج معه.

وتوسَّل الثَّاني بعملٍ صالحٍ؛ وهو العِفَّة التامَّة؛ حيث كانَ له ابنةُ عمٍّ، وكان يحبُّها حبًّا شديدًا، وكان يُريدها على نفسِها، وهي تأبَى عليه عِفَّةً، وفي يومٍ مِن الأيامِ احتاجت المرأةُ فطلبتْ منه مالًا فأبَى أَنْ يُعْطِيَها المالَ إِلَّا أَنْ تُمَكِّنَه مِن نفسِها، لكن لِشِدَّة حاجتها وافقتْ، فلمَّا جلسَ منها ما يجلسُ الرَّجُلُ مِن امرأتِه -وفي هذهِ الحالِ العُزوف عن العملِ صعبٌ جدًّا لا سيَّما وأن هذهِ المرأةَ أحبُّ النَّاس إليه، ويحبُّها حُبًّا شديدًا- لما جلس منها ما يجلسُ الرَّجُل مِن امرأته قالت له: اتَّقِ اللهَ، ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إِلَّا بحقِّه. وهي كَلِمة تُزلزِلُ الجَبلَ، فقام ولم يُحدِثْ شيئًا، وهَذَا يدلُّ على كمال عِفَّته. قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ مِن أَجْلِكَ فَافرُجْ عنَّا ما نحن فيه. فانفرجتِ الصخرةُ ولكن دون أَنْ يخرجُوا، فاللهُ حَكِيم عَزَّوَجَلَّ.

بقيَ الثَّالثُ، ودَوْرُ الثَّالثِ دَوْرُ الأمينِ؛ كان له أُجَراءُ استأجرهم لِعملٍ مِن الأعمال، فقاموا بالعملِ، فأعطاهم أُجرتَهم إِلَّا واحدًا منهم لم يُعْطِهِ أَجْرَه، فنمَّى أَجرَه، فصار يعمل فيه حتَّى كان واديًا مِن الإبلِ والبَقرِ والغَنمِ والرَّقيق، فلمَّا جاء يريد أَجْرَه، قَالَ: كل ما تشاهدُ مِن الإبلِ والبقرِ والغَنمِ فهو لك. قال له: سبحان الله! أَتستهزِئُ بي؟ لأَنَّه اشتغل عنده بأجرةٍ أقلَّ مِن هذهِ بكثيرٍ. قَالَ: لا أستهزِئُ بك، هَذَا أجرُكَ. فاستاقَ كُلَّ ما شاهَده، قَالَ: اللهمَّ إِنْ كنتُ فعلتُ ذلك مِن أجلِكَ فافرُج عنَّا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرةُ فخرجوا يَمشون(١).

تَعَالَى اللهُ!

فهؤلاء تَوَسَّلوا بأعمالِهم الصالحةِ، والعملُ الصالحُ يُنَجِّي الإِنْسَانَ بالمَفازةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

السادس: أَنْ يتوسَّل الإِنْسَان إلى اللهِ بِذِكر حالِه، كما يتوسَّل الإِنْسَان الفقيرُ إلى الغَنِيِّ؛ حيث يأتي الفقير إليك ويقول: واللهِ أنا فقيرٌ وذو عِيالٍ وما أَشْبَهَ ذلك، فالإِنْسَان يتوسَّل إلى ربه بِذِكر حالِه، ومِن ذلك قول مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، ومُوسَى ما سأل شيئًا الآن، لكن توسَّل إلى الله بِذِكر حالِه أَنَّه فقيرٌ، وأنت تقول: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي فاغفِر لي. فهَذَا توسُّل بِذِكر الحالِ؛ تقول: إني ظلمتُ نفسي وأنا عند ظُلم نفسي محتاجٌ إلى المغفرةِ فاغفِر لي.

إذن هذا التَّوَسُّل إلى اللهِ بذكر حالِ الداعي، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرحمُ بعباده مِن الوالدةِ بولدِها، فإذا توسَّل الإِنْسَان إلى ربِّه بِذِكر حالِه، وإظهارِ افتقارِه أعطاهُ الله تَعَالَى سُؤْلَهُ.

السابع: أَنْ يتوسَّل إلى اللهِ بدعاءِ الرَّجُلِ الصالحِ الَّذي تُرجَى إجابةُ دُعائِه، ومِن ذلك توسُّل الصحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بالنَّبِيِّ ﷺ بدعائِه لهم؛ ففي يومٍ من الأيامِ كان النَّبِيُّ ﷺ يخطُب النَّاس على المِنبر يومَ الجُمُعة، فدخل رَجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأموالُ وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فادعُ اللهَ يُغِيثُنا. فرفعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ ورفعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُم؛ لأن المستمِع يَفعل كما يفعل الداعي، ويُؤَمِّن على دُعائِه، فرفع النَّاسُ أَيْدِيَهم أُسوةً بالنَّبِيِّ ﷺ، واتباعًا له، فقال: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**» ثلاثَ مرَّاتٍ، قال أنس: «**وَلَا وَاللهِ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً**». والسَّحَابُ: الغَيْمُ المنتشِر الواسِع، والقَزَعة: هي قِطعةُ الغَيْم، إذن السَّماء صَحْوٌ.

قَالَ: «**وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ**». وسَلْعٌ جَبَلٌ مَعروف صغير في المدينةِ، يأتي مِن جِهَته السحابُ.

قَالَ: «**فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ**»، والتُّرس مِثل الصَّحْن الكبير، يَتَوَقَّى به المُقاتلُ سِهام الأعداء وحِرابَهُم.

يقـول: «**فَلَمَّا تَوَسَّطَـتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ**»، فارتفـعت في السَّماء، وانتشرتْ، ورَعَدَت، وبَرَقَتْ، وأمطرتْ، «ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ».

اللهُ أكبر!

آيَةٌ مِن آياتِ اللهِ، وآيَةٌ لرسولِ اللهِ: آيَةٌ مِن آيات الله دليلٌ على قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى إجابة دعوة عبادِه، وآيَة لرسولِ الله دلِيل على صِدقه.

قَالَ: فبقيَ المطرُ يَنزل أُسبـوعًا كاملًا، ما رَأَوُا الشمسَ، ثمَّ دخل رَجُلٌ مِن الجُمعةِ الثَّانيةِ، أو الرَّجلُ الأولُ، فقال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا**». وذلك لكثرةِ الأمطارِ، والإِنْسَان لا يَتَحَمَّل لا قِلَّة المطرِ ولا كَثْرَة المطَر، فرفعَ يديه وقال: «**اللهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا**»، ويشير عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الجهاتِ، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ**». يعني كأن السحاب يَمتثِل أمرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنَّه يَمْتَثِلُ أمرَ الرَّسُول بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ شيءٍ مُسَخَّر لله عَزَّوَجَلَّ أرأيتم الرِّيح مُسخَّرةً لِسليمانَ عاصِفَةً ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦] يعني حيث أرادَ، فالرِّيح يـأمُرها؛ يقول: سنُسافر إلى الجِهةِ الشمالية، فتهُبُّ الرِّيح الجنوبيَّة عاصفةً قويَّة، لكن بدون إزعاجٍ

رخاءً، وتحمله إلى الجهة الشمالية، والعَكس بالعكس، فسَخَّرها اللهُ تَعَالَى لسُلَيمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وهكذا النَّبِيُّ ﷺ سَخَّر اللهُ له ذلك السحابَ في تلك الجُمُعة، حتَّى صار يقول: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**». والسحابُ يَتفَرَّق، فصارتِ المدينةُ مِثل الجَوْبَة؛ يعني السَّماء كلها مُغِيمَة حَوْلَها، والَّذي فوق المدينة صَحْوٌ؛ بإذن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فخرج النَّاس يَمشون في الشمسِ(١).

فهَذَا توسُّل إلى الله بدُعاءِ الرَّجُلِ الصالحِ. ولكن هل مِنَ المشروعِ أن تسألَ الرَّجُلَ الصالحَ أَنْ يدعوَ لك أو لا، أو فيه تفصيلٌ؟

الجواب: فيه تفصيلٌ؛ فإذا كنتَ تسألُ لغيرِكَ؛ مِثل أن تأتيَ إلى رجُلٍ صالحٍ وتقول: فلانٌ مريضٌ ادعُ اللهَ له. فهَذَا لا بأسَ به، كما تأتي إلى التاجرِ وتقول: فلان فقير تَصَدَّقْ عليه. لأن هَذَا ليسَ فيه مِنَّةٌ عليك، بل هو شَفاعةٌ منك لأخيك، كذلك إذا كُنْتَ تسألُ هَذَا الرَّجُل الصالحَ أَنْ يَدْعُوَ لأمرٍ عامٍّ؛ مِثل أن تقولَ له: النَّاس مُحتاجون للمَطرِ فادعُ اللهَ أَنْ يُغِيثَهم. فهَذَا لا بأسَ به؛ لأن الصحابةَ طَلَبوا مِن النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يسألَ اللهَ الغَيثَ وأقرَّهم على هَذَا.

ولما كان عامُ الرَّمَادة عام الجَدْبِ في عهدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ، استسقَى بالنَّاسِ، فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»(٢). ثمَّ أَمرَ العبَّاسَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ أَنْ يقومَ ويدعو الله، فقام العبَّاس

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

يدعـو الله، وهَذَا توسُّل بدعاء الرَّجُـل الصالحِ، وهنا عمرُ طلبَ مِنَ العـبَّاسِ أَنْ يدعوَ اللهَ لعامَّة المُسْلِمين، وليس لخاصَّة نفسِه.

أما إذا سألتَ رَجُلًا صالحًا أَنْ يدعوَ لك فهَذَا لا يَنبغي؛ لأن هَذَا فيه نوعُ ذُلٍّ، كأنك تسأله مالًا؛ ولهَـذَا يرى أَنَّ له مِنَّةً عليك إذا دعا لك، لكن إذا سألتَ هَـذَا الرَّجُلَ الصالحَ أَنْ يدعوَ لك تريد أن تَنفَعَه بثوابِ اللهِ إياهُ إذا أحسنَ إليك بالدُّعَاء، مع كسبِ الدُّعَـاء لك، فهَذَا جائز، وكذلك إذا أردتَ أن تنفعه؛ بكونِه إذا دعا لك بِظَهر الغَيب قال الملَكُ: آمِين ولَكَ مِثله(١).

مِن أنواع التوسُّل الممنوع:

أولاً: التَّوسُّل بِجَاهِ النبيِّ والأولياء:

إن التوسُّل بجاهِ النَّبيِّ ﷺ توسلٌ ممنوعٌ.

فإنْ قِيلَ: إنَّ العلماء مختلفون في هَذَا.

قلنا: نعم، هُم مُختلِفون، لكن مِيزان الخِلافِ الرجوعُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإلى كتابِه وسُنة رسولِه؛ قال تَعَالَى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

وبدلًا مِن أن تقـول: أسأَلُكَ يا ربي بجاهِ نبيِّك. قـل: أسأَلُكَ يا ربي بالإيمانِ بنبيِّك. وحينئذٍ يكون التوسُّل صحيحًا، وإيمانُك بنبيِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ينفعُك.

---

(١) أخرج مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضلِ الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢)، أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، إِلَّا قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ**».

ثانيا: التوسُّل بالأولياء:

وذلك بأن يتوسَّلَ بمَن يدَّعي أنَّه وليٌّ ميِّت، فيقول: أسأَلُك بِسَيِّدِي ومَوْلايَ ومَنْجَاتي ومُسْتَغَاثي الوليِّ فلانِ بنِ فلانٍ. وهَـذَا حرامٌ ما فيه إشكالٌ، ولا يجوزُ، وأمَّا إذا سأل نفسَ الوليِّ، فهَـذَا شِرك، لكن كلامنا إذا جعل هَذَا الوليَّ وسيلةً إلى حُصولِ مقصودِه عند الله عَزَّوَجَلَّ، فهَذَا حرامٌ، ولا يجوزُ، وهو ممنوعٌ.

فانْتَبِهُوا يا إخواني، واعْلَمُوا أنكم ما مُنِعتم مِن شيءٍ إلَّا وفتحَ اللهُ لكم ما هو خيرٌ منه، فلا تُصِرُّوا على شيءٍ مُحَرَّم، ولا تُصِرُّوا على شيءٍ مُشْتَبِه، فدَعُوا المشتبِهَ «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»[1]. وإذا سُدَّ البابُ الممنوعُ في التوسُّل فلدينا أكثرُ منه بكثيرٍ مِن التوسُّلِ المباحِ.

ولو احْتَجَّ شَخْصٌ بحديث: «**تَوَسَّلُوا بِجَاهِي؛ فَإِنَّ جَاهِي عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ**»[2]؟

قلنا: هَذَا حديثٌ باطِلٌ، مَوضوعٌ، كذِبٌ على الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولو قال قائلٌ: ما رأيكم في عبارةِ: يا فلانُ، لا تَنْسَنا مِن صالحِ دُعائك؟

قلنا: نفسُ الشَّيْء، يدخُل في هَـذَا المعنى، وأمَّا حديث أنَّ الرَّسُول قال لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**»[3]. فهَذَا لا يَصِحُّ عن النَّبيِّ ﷺ.

أما قضيةُ أُوَيسٍ القَرنِيِّ فهَذَا مِن خَصائصه أنَّ الرَّسُول قَالَ: «**مَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ**

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٥١٨)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، رقم (٥٧١١).

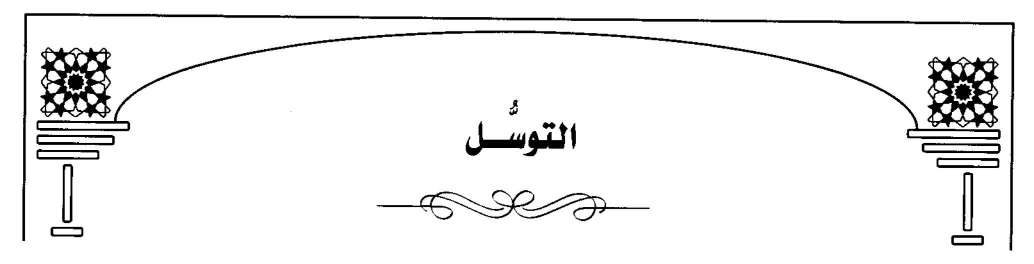
(٢) ينظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام (ص:٢٧٥)، رقم (٧١٥).

(٣) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٩٨)، والترمذي: أبواب الدعوات، رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحج، رقم (٢٨٩٤).

فَلْيَسْتَغْـفِرْ لَكُمْ»[١]. ونحن نعلَـمُ أَنَّ أبا بكرٍ وعُمرَ وعُثمانَ وعَلِـيًّا وابنَ مسعـودٍ وابنَ عبَّاسٍ أفضلُ مِن أُوَيْسٍ القَرنِيِّ بأضعافٍ مُضاعَفَةٍ، ومع ذلك لم يُحِلْنا النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى هؤلاءِ الشُّرفاءِ أَنْ يَدْعُوا لنا، لكن هَذَا خاصٌّ به.



(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٥٤٢).



التوسُّــل

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وصلَّى الله وسلَّم عَلَى نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحـابه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإن التَّوَسُّل إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند الدُّعاء ينقسم إِلَى قسمين:

جائزٌ مندوبٌ، وممنوعٌ محرَّم.

التوسُّل الجائز:

والتوسُّل الجائزُ سبعةُ أنواعٍ:

الأول: التَّوَسُّل إِلَى اللهِ بأسمائِه عامَّةً أو خاصَّة هَذَا مشروعٌ؛ ففي حديث ابن مسعـود المشهور: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ**»[1]. فهذا التوسُّل إلى الله بأسمائِه.

ومِنَ التوسُّل باسمٍ خاصٍّ ما فِي الحَدِيث الَّذِي عَلَّمه الرَّسُولُ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم أحبَّ النَّاسِ إليه أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ له أبو بكرٍ: عَلِّمْنِي دعاءً أدعو به فِي صلاتِي، قال: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠، رقم ٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠/ ١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، وصححه الحاكم (١/ ٦٩٠، رقم ١٨٧٧).

إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»، ثمَّ قالَ فِي الآخِر: «إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

فهَذَا توسُّلٌ إِلَى اللهِ باسم خاصٍّ؛ لأنَّه قالَ: اغفِر لي وارحمني؛ فتوسَّل بالاسمينِ المُقْتَضِيَيْنِ لهذينِ الوَصفينِ: «إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ».

قال تعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ثم قال بعدها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، فهذا توسُّلٌ باسمٍ خاصٍّ مناسبٍ لما تطلبُه مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: التَّوَسُّل إِلَى الله بصفاتِه عمومًا أو خصوصًا؛ فهَذَا أيضًا جائزٌ ومندوبٌ، فتقول: اللَّهُمَّ إني أسألُك بأسمائك الحُسنى وصفاتك العُليا.

وفِي حَدِيث دعاء الاستخارةِ: «أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ»(٢).

وكذلك الحَدِيث: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي»(٣).

فهَذَا توسل إِلَى الله بصفةٍ مُعَيَّنةٍ مِن صفاتِه.

الثَّالث: التَّوَسُّل إِلَى الله بالإيمان به؛ لأنَّ الإيمان به سبب يقتضي الرحمةَ ويقتضي إعطاءَ المطلوبِ، ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢).
(٣) أخرجه النسائي: كتاب السهو، نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

ﵟذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِﵞ [آل عمران:١٦]، فهذا توسُّل بالإيمانِ باللهِ أننا آمنَّا فاغفِر لنا، وهذه الفاءُ للسَّببيَّة.

الرَّابع: التَّوسُّل بالعَمَلِ الصَّالِحِ، ومنه قِصَّة أصحاب الغارِ الثَّلاثةِ الَّذِينَ انطبقَ عليهم الغارُ، وعَجَزُوا عن أَنْ يَدْفَعُوا الصخرةَ الَّتِي انطبقتْ، فتوسَّلَ كُلٌّ منهم بعملِه الصَّالِحِ، وقال: «**اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ**»[1].

الخامس: التَّوسُّل إِلَى عَزَّوَجَلَّ بفعلِه، يعني تتوسَّل إِلَى الله تَعَالَى بفعلٍ سبقَ منه وتسألُه مِثلَ هَذَا الفِعلِ الَّذِي سبقَ، ومنه قولُنا ونحن نصلي: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**». فهَذَا توسُّل للهِ بفِعْلِه، يعني أَنَّه قد سبق منك يا ربَّنا أنْ صليتَ عَلَى إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، فالكافُ فِي هَذَا للتعليلِ وليستْ للتشبيهِ.

ويجب الانتباهُ لهَذِهِ المسألةِ لأَنَّه صار فيها خَوْضٌ مِن بعضِ العُلَمَاء؛ فبعض العُلَمَاء يقول: الكاف للتشبيهِ، ومعلوم أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أفضلُ مِن إبراهيمَ، فكيف يكون المُشَبَّه أَدْنَى مِنَ المُشَبَّهِ به، وأجابوا بأجوبةٍ، ولكن الصحيح أَنَّه لا حاجةَ إِلَى هَذَا الإشكالِ، نقول: الكاف للتَّعْليلِ، وتأتي الكاف فِي اللغة للتعليلِ كما قالَ ابنُ مالكٍ فِي الألفيَّةِ[2]:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

(٢) ألفية ابن مالك: حروف الجر، (ص:٣٥).

ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] أي: لهدايتكم، وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة:١٥١] إِلَى آخره.

المهمُّ أَنَّ هَذَا مِن بابِ التَّوسُّل إِلَى اللهِ بفعلٍ مِن أفعالِه.

السَّادس: التَّوسُّل إِلَى اللهِ تَعَالَى بِذِكْرِ حالِ الداعي، يعني يَصِفُ نفسَه بأنه فقيرٌ مريضٌ شيخٌ كبيرٌ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَـذَا جائز، ومنه قول زَكَرِيَّا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤]، وقول مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

فهذه أنواعُ التَّوسُّلِ الجائزة المندوبَة.

أما التَّوسُّل بذات أحدٍ مِن المخلوقينَ فهذا لا يصحُّ؛ لأنَّ التَّوسُّل معناه طلبُ الوصول إِلَى المقصودِ، وذاتُ النَّبي ﷺ لَيْسَ لها علاقة بمقصودك، فلهذا كانَ القولُ الراجِح أنَّه لا يَصِحُّ التَّوسُّلُ بذاتِ الرَّسُولِ ﷺ ولا بجاهِهِ، وبدل التوسُّل بذاتِ الرَّسُولِ أو جاهِه تَوَسَّلْ بأسماء اللهِ وصفاتِه حتَّى تكون مُتابعًا لرسولِ ﷺ حقَّ المتابعةِ.

السابع: أن تتوسَّل إِلَى اللهِ بدعاءِ رجُلٍ صالحٍ حَيٍّ يدعو لك، ومنه ما ثبت فِي الصحيحينِ عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا دخل يوم الجُمُعَـة والنبي ﷺ يخطب فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا. قالَ أنس: وَلَا وَاللهِ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً[1]، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ[2] مِنْ بَيْتٍ وَلا دَارٍ. يعني أن السَّماء صاحِيَة، وليس هناك سحـاب يكون منه المطر.

(١) القَزَع: قِطَع السحاب. اللسان: قزع.

(٢) سلع: جبل بالمدينة. كما في معجم البلدان، لياقوت الحموي (٣/ ٢٣٦).

فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ[١]، وارتفعت وانتشرت فِي السَّماء، ورَعَدَتْ وبَرَقَتْ، فما نَزَلَ الرَّسُول ﷺ مِن مِنْبَرِه إِلَّا والمطر يَتَحَادَرُ مِن لِحْيَتِه. تبارك الله! الله أكبر! هَـذِهِ القُدرة الإلهية ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، سماءٌ صاحية لا سَحابَ ولا قِطَع سَحاب، فما أَنْ رَفَعَ الرَّسُول يديه: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا» ثلاثَ مراتٍ إلا ونَزَلَ المطرُ قبل أَنْ يَنزلَ مِن المنبرِ.

وبقي المطرُ أسبوعًا كاملًا عَلَى المَدِينَة وما حولها، ودخل رجُلٌ، أو الرَّجُلُ الأولُ مِن الجُمُعَة الثَّانية وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكُهَا عنَّا. فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا». وجعل يُشيرُ بيده -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- فما يشير إِلَى ناحيةٍ إِلَّا انفرجتْ، فخرجوا يمشون فِي الشَّمْسِ وما حولَ المَدِينَة كُلُّه مُمْطِرٌ[٢].

فهَذَا توسُّل إِلَى الله بدعاء الرَّجُلِ الصَّالِحِ؛ لأنَّ الرَّجُل الصَّالِح المرجوَّ الإجابة أقربُ إِلَى الإجابةِ، ولكن لاحِظُوا يا إخواني أَنَّ مِيزان الصلاحِ لَيْسَ هُوَ الدعوى بالصلاحِ، فربما يجيء إِنْسَان كبيرُ العِمامةِ، طويلُ اللحيةِ، طويلُ المِسواك، واسِعُ الكُمِّ، ويَدَّعِي أَنَّه مِن أولياءِ اللهِ، ولكنه لَيْسَ مِن أوليائه، فيظن الإِنْسَان أَنَّه رجل صالحٌ، فيسأله أَنْ يدعُوَ له، ولكن مِيزان الصلاحِ ما ذَكَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

---

(١) التُّرس مِن السلاح: ما يُتوقَّى به. لسان العرب: ترس.

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

أما ادِّعاء الصلاحِ، فكما قال الشاعِرُ[1]:

وَكُــلٌّ يَــدَّعِي وَصْــلًا بِلَيْلَــى ... وَلَيْلَــى لَا تُقِــرُّ لَــهُمْ بِــذَاكَ

كُلٌّ يدعي أنَّه صالحٌ، لكن ما يُقبَل، يقول الرَّسُول ﷺ: «**البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي**»[2]. فلا يصحُّ أن تَدَّعِيَ أنك وليٌّ مِن أولياءِ اللهِ وأنت أَكَّال للمالِ، دجَّال، لاعِبٌ بأفكارِ النَّاسِ.

ولكن بقيَ أَنْ يُقَال: هل التَّوَسُّل بدعاءِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ هُوَ مِن الأمورِ المطلوبةِ، أو مِن الأمورِ الجائزةِ؟

نقول: هُوَ مِن الأمورِ الجائزةِ، إذن فدعاؤك أنت بنفسِك وتَوَسُّلك إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بما تَتَوَسَّل به أَولى وأحسنُ وأخشعُ لِقَلْبِك وأَنْفَعُ له.

ثمَّ إن فِي طلبِ الدُّعاءِ مِن الرَّجُلِ محظُورًا يتعلَّق بالرَّجُلِ نفسِه، وهُوَ أنه يَفْتَتِنُ ويرى نفسَه رجُلًا صالحًا يُقصَد ليُطلَبَ منه الدُّعاءُ، فيحصُل بذلك مَفْسَدة.

ثمَّ فيه شيء ثالث أيضًا، وهُوَ طَلَبُ الدُّعاء مِن الرَّجُلِ الصَّالِحِ للمصلحةِ المَحْضَةِ لنفسِ الطالبِ فيه شيءٌ مِن سؤال النَّاسِ، وإذلالُ النفسِ، والصَّحابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانَ مِن جُملة ما بايعوا عليه النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ألا يسألوا النَّاس شيئًا[3]، ولهذا أشار شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4] إِلَى أنَّه ينبغي للإِنْسَان إذا طلب الدُّعاء

---

(١) البيت ذكره محمد بن حسن بن علي بن عثمان النَّوَاجي في الشفاء في بديع الاكتفاء (ص:٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، رقم (١٣٤١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣).

(٤) انظر مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧/ ٦٩).

مِن شخص أَنْ يَكُـونَ مُريدًا لنفعِ ذلك الشخص؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا دعا لأخيهِ كانَ مُحْسِنًا إليـه، وإذا دعا له بِظَـهْرِ الغَيْبِ كانَ أرجَى للإجـابةِ؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا دعا لأخيهِ بظَهْرِ الغَيْبِ قالَ المَلَكُ: «**آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(١).

وقـولنا: التَّوَسُّل بدعاء الرَّجُـلِ الصَّالِح؛ نَحْنُ نعلـم كُلُّنا أن المراد الرَّجل الصَّالِح الحيُّ الَّذِي تَطلب منـه أَنْ يدعوَ لك، وليس المراد التَّوَسُّل بدعـاء الميتِ، وذلك أن الميتَ لا يدعو؛ إذ إن عَمَلَهُ قدِ انقطعَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَـطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَـارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَـعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٢).

ولهذا لا يجوز أن تقفَ عَلَى قبرِ النَّبِيِّ ﷺ وتقول: يَا رَسُولَ اللهِ اشفعْ لِي. لأَنَّه لا يَمْلِكُ هَذَا، ولا يَمْلِكُ أَنْ يَدْعُوَ لك بالشَّفاعةِ، فهو لا يَمْلِكُ أَنْ يشفعَ ولا يَمْلِكُ أَنْ يَدْعُوَ بالشَّفاعة، وهو ميت، ودليلُ هـذا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] يعني: لا أحدَ يشفع عنـد الله إِلَّا بإذن اللهِ، أما كونُـه لا يَمْلِك أَنْ يشفع فِي حالِ موته فلِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ**»، ومِن العملِ الدُّعاء، فالدُّعاء عبادةٌ، ولا يمكن لرسول الله ﷺ أَنْ يدعوَ لأحدٍ بالشَّفاعةِ بعد موتهِ.

وأقربُ طريقٍ تحصُل بها عَلَى شفاعة الرَّسُـول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ تُخلِص التَّوْحِـيد لله؛ ولهذا قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَـدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَـامَةِ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»[١]. فهَذَا أسعدُ النَّاسِ بشفاعة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فإذا كنت تريد شفاعةَ الرَّسُول -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- فقل: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. خالصًا مِن قَلْبِك، وأنت متى قُلت: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خالصًا مِن قَلبك فسوف تقوم بما تَقتضيه هَذِهِ الشهادة العَظِيمة، أَلَا وهي عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

الثامن: التَّوَسُّل بحالِ السَّائلِ، بمعنى أَنْ يذكُرَ الإِنْسَانُ حالَه ويتوسَّل بها ويَستعطِف بها ربَّه عَزَّوَجَلَّ كقولِ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص:٢٤].

وقد جُمع هَذَا مَعَ أنواعٍ أخرى فيما عَلَّمه الرَّسُول ﷺ أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين قالَ: عَلِّمْنِي دعاءً أَدْعُو به فِي صلاتِي، قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[٢]؛ فهَذَا فيه التَّوَسُّل بحالِ السَّائلِ، والتَّوَسُّل بصفةٍ مِن صفاتِ اللهِ، والتَّوَسُّل بأسماءِ اللهِ:

حال السَّائل: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا».

الصِّفَة مِن صِفات الله: «وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»؛ لأنَّ المغفرةَ صِفة.

أسماء الله: «إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم (٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

التوسل الممنوع:

أما التَّوَسُّل الممنوعُ فهـو أَنْ يتوسلَ الإِنْسَانُ بما لم يَجْعَلْهُ اللهُ وسيلةً، مِثل أَنْ تتوسَّل بِجَـاهِ الرَّسُولِ، وجاهُ الرَّسُـولِ يعني المنزِلة الَّتِي له عند الله، ونحنُ نَشهد ونُؤمن أَنَّ أعظَـمَ النَّاس جاهًا هُوَ الرَّسُـول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذا كانَ مُوسَى ﷺ وجيهًا عند الله، وإذا كانَ عيسي وَجِيهًا فِي الدُّنيا والآخِرةِ، فإنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَولَى بذلك بلا شَكٍّ، ولكن لا تنفعُني وَجَاهَتُه عنـد الله؛ لأنَّ وَجَاهَتَهُ عنـد الله إنَّما هِيَ منزلةٌ جعلَها اللهُ تَعَالَى للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهي لا تَنفعني.

ولهذا نقـول: مَن توسَّل إِلَى الله بجاهِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَـدْ شَبَّه اللهَ بِخَلْقِهِ؛ لأَنَّه لا يُتوسَّل بالجاهِ إِلَّا فِي المخلوقينَ.

فمثلًا أنا أجد هَذَا الرَّجُلَ له مَنزِله عند شخـصٍ مِن النَّاسِ، وأقول: أتوسَّل إليك بجاهِ فُلَان، أو أسألُك بِجَاهِ فُلَان، أمَّا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا تنفع الوَجَاهَةُ إِلَّا لَمِن جَعَلَها اللهُ له، أما بالنِّسْبَة لغيره فلا تنفعهم؛ ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ وهو ينادي الأقربين مِن أقاربه: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[1]. وفاطمة بَضْعَةٌ منه[2]، ومع ذلك لا يُغني عنها مِن اللهِ شيئًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، رقم (٤٧٧١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله تعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف، رقم (٥٢٣٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، رقم (٢٤٤٩)، أنه ﷺ قال: «**إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**».

والبَضعة: القطعة من اللحم، وقد تكسر، أي إنها جزء مني كما أن القطعة مِن اللحم جزء مِن اللحم. النهاية: بضع.

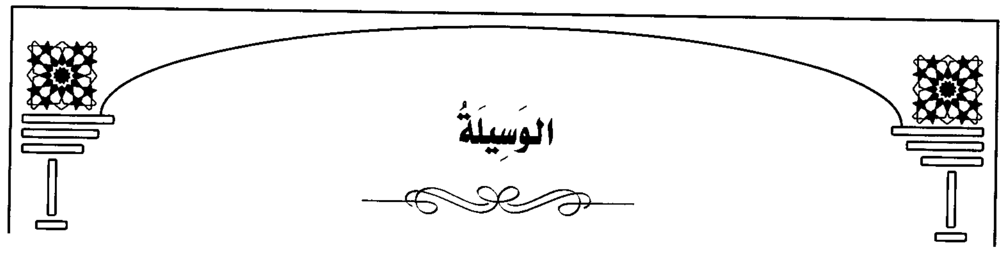
ومِن الشَّفاعة الممنوعةِ ما ادعاهُ المشركونَ مِن قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] فهُم يَدَّعُون أنَّهم يعبُدون الأصنامَ مِن أجلِ أن تُقرِّبَهُمْ إِلَى اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ! هل هَذَا يُقَرِّبُ إِلَى الله أو يُبعِد؟

الجواب: يُبعِد مِنَ الله، ولا يمكن أن تَتَقَرَّب إِلَى الله بِمَعْصِيةٍ إطلاقًا. ولهذا لو أن إِنْسَانًا أراد أَنْ يقوم ويُصَلِّيَ بعد صَلَاة العَصْرِ نَفْلًا مُطْلَقًا، لا سبب له، فإن هَـذَا لا يُقَرِّبه إِلَى الله؛ لأَنَّه مُحَرَّم، مَعَ أَنَّه صَلَاة وعِبـادة يقوم الإِنْسَان فيها لله عَزَّوَجَلَّ ويُكَبِّرُ اللهَ ويَتْلُو كِتـابَه، ويركَع، ويسجُـد، ومع ذلك نقول: هَذَا الرَّجُـل لا تُقَرِّبُه هَذِهِ الصَّلاةُ إِلَى اللهِ؛ لأنها معصيةٌ، فلا يمكِن أَنْ يتقرَّب الإِنْسَانُ إِلَى الله بمعصيةٍ إطلاقًا.

فهـؤلاء المشركون الَّذِينَ يقولون: إِنَّما نعبُدُهم لِيُقَرِّبُونا زُلْفَى نقول: هَؤُلاءِ ضالُّون؛ لأنَّ عِبادةَ الأصنامِ لا تُقَرِّب إِلَى اللهِ، بل تُبعِد مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِه.





الوَسِيلَةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ الوَسِيلةَ مَأْخوذةٌ مِن الوُصولِ إلى الشيءِ، فهي وَسِيلَةٌ، ووَصِيلةٌ بالصادِ، والسِّينُ والصادُ يَتناوبانِ، بمعنَى أنه يَصِحُّ أن تَحِلَّ إحداهما مَحَلَّ الأُخْرَى، كما في الصِّراطِ، فتقول: هذا صِرَاطٌ، بالصَّادِ، وتقول: هذا سِرَاطٌ، بالسين. وكلاهما لُغةٌ عَربيَّةٌ فَصِيحةٌ.

إذن الوَسيلةُ بمعنى المُوصِلة للمَقْصودِ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ للوسيلةِ أثرٌ في الوصولِ إلى المقصودِ، وإلا لكانت عَبَثًا أو نَوْعًا مِن الشِّرْكِ، فهي فَعِيلةٌ بمعنى فاعلةٍ، أي مُوصِلَة إلى الشيء المقصودِ، والتوسُّل بما ليسَ بمُوصِلٍ للمقصودِ إما عَبثٌ، وإما نَوْعٌ مِن الشِّرْكِ، وهذه قاعدةٌ مُهِمَّةٌ.

والوسيلةُ الجَائزةُ أنواعٌ:

النوع الأول: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأسمائِه الحُسْنَى، بأنْ تَقولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بأسمائِكَ الحُسْنَى أَنْ تُيَسِّرَ أَمْرِي. والدليلُ على هذا مِن القرآنِ والسُّنة.

أما مِن القرآن فقولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، أي: تَوَسَّلوا بها في دُعائِكم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأما في الحديث فحديثُ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهور في ذَهَابِ الهَمِّ والغَمِّ:

«**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ...**»[١] إلخ. وهذا تَوَسُّلٌ بالأسماءِ عُمومًا.

ويَجوزُ التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَعَالَى باسمٍ خَاصٍّ، وهذا مَشْروعٌ، ويكونُ هذا الاسمُ الذي تَتَوَسَّلُ به مُنَاسِبًا للمَطْلوبِ، فإذا كنتَ تُرِيدُ أنْ تَسْأَلَ اللهَ المغفرةَ، فقل: اللهُمَّ يَا غَفُورُ اغْفِرْ لي. وقد عَلَّمَ النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- أَحبَّ الرجالِ إليه أبا بَكْرٍ الصديق دُعاءً يَدْعُو به في صَلاتِهِ، فقال: «**قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[٢]. فقال: اغْفِرْ لي وارْحَمْنِي. ثم تَوَسَّل بالاسم، فقال: إنَّك أنتَ الغفورُ الرَّحيمُ، وهذا داخلٌ في عُمومِ قولِه تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

الثالث: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصِفَاتِهِ على وَجْهِ العُمومِ، بأن تَقولَ: اللهُمَّ إني أسأَلُكَ بصِفاتِكَ العُلْيَا أنْ تُيَسِّرَ أمري. فهذا جَائِزٌ؛ لأنَّ صِفاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعانٍ قَائِمَةٌ به، مُقْتَضِيةٌ لمُوجِباتِها.

الرابع: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَعَالَى بصِفَةٍ مُعَيَّنةٍ، مِثل قَوْلِكَ: اللَّهُمَّ برَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ -أي: لأنك رَاحِمٌ- فَأَغِثْنِي. وليسَ المعنى أَنَّ الصِّفةَ شيءٌ قائمٌ مُسْتَقِلٌّ تَستغيثُ به،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠، رقم ٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠/ ١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، وصححه الحاكم (١/ ٦٩٠، رقم ١٨٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

فالصِّفَـةُ معنًى قائمٌ بالموصوفِ، فإذا قلتَ: اللهم برحمتك أَسْتَغِيثُ. فليسَ المعنى أنك سألتَ الرَّحْمةَ بوَصْفِها شيئًا مُستقِلًّا يُستغاثُ به.

ولهذا قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ دُعاءَ الصِّفَةِ كُفْرٌ بالاتِّفاقِ[1]. كأنْ تَقُولَ مثلًا: يا قُدْرَةَ اللهِ اغْفِري لي، يا قُدْرَةَ اللهِ ارزُقِيني ولـدًا. فهـذا شِرْكٌ، فَقَدْ جَعَلْتَ القُدْرةَ رَبًّا يُدْعَى. أمَّا قولُك: برَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ. أي لكَوْنِكَ رَاحِمًا أسألُك أَنْ تُغيثَنِي.

ومِن ذلك قـولُ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- في دُعاءِ الاستخارةِ الذي عَلَّمَه أُمَّتَهُ قال: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِـيرُكَ بعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ**»[2]. أي: أَسْأَلُكَ أنْ تُيَسِّرَ لي خَيْرَ الأَمْرَيْنِ بما تَعْلَمُ أَنَّهُ خَيْرٌ لي.

ومِن ذلك الدُّعاءُ المشهورُ: «**اللَّهُمَّ بعِلْمِكَ الغَيْبَ وقُدْرَتِكَ على الخَلْقِ أَحْيِنِي إذا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لي، وتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لي**»[3]. وهذا تَوَسُّلٌ بصفتين خاصتين: العِلْمِ والقُدْرة، بعِلْمِك الغَيْبَ، وقُدْرَتِك على الخَلْقِ.

إذن تَكَلَّمْنا عن أربعةٍ: الأسماءِ عُمومًا وخُصوصًا، والصفاتِ عُمومًا وخُصوصًا.

الخامس: التوسلُ إلى اللهِ تَعَـالَى بفعلٍ مِن أفعالِه، ومِن ذلك قـولُ المصلي: اللهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ على إِبْرَاهِيمَ وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ[4].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١٨٢)، وانظر المنتخب من كتب شيخ الإسلام (ص:٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٠١٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤، رقم ١٨٣٥١)، والنسائي: كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم (١٣٠٥).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٥).

أي إنك تقـول: يا ربِّ، كما مَنَنْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إِبْراهِيمَ بالصلاةِ، فامْنُنْ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ بالصلاةِ. فهو تَوَسُّلٌ إلى اللهِ بأفعـالِه. وهنا سأَلَ أو تَوَسَّلَ بفعـلٍ يُناسِبُ المَطْلوبَ.

كذلك أيضًا تقـول: اللهُـمَّ ارْزُقْنِي عِلمًا واسعًا، كما رَزَقْتَ شيخَ الإسـلامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ. فتَتَوسَّلُ إلى اللهِ بِفِعْلِه وعَطائِهِ؛ لأن الرِّزْقَ هو العَطاءُ.

وإذا قلنا: إنَّ قولَه: كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ وعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ. مِن بابِ التَّوَسُّلِ، زالَ عنا إِشْكالٌ يُورِدُه بعضُ شُرَّاحِ الحديثِ وبَعْضُ الفُقهاءِ إذا شَرَحوا التَّشَهُّدَ. وهو: كيفَ تُشَبَّهُ الصلاةَ على النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- بالصلاةِ على إِبْراهيمَ وآلِهِ؟ والقاعدةُ أنَّ المُشَبَّه أَدْنَى رُتْبَةً مِن المُشَبَّهِ به. فإنك إذا قلتَ: فُلانٌ كالبَحْرِ كَرَمًا، فالبَحْرُ أكثرُ كَرَمًا بلا شَكٍّ.

وهذا مِن عَادةِ بعـضِ العُلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنهم يُورِدُون إشكالًا ثم يُجِيبونَ عليـه بأجوبةٍ بَعْضُها مُنكَرَةٌ، وبعضُها مَقْبولٌ، والصوابُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِن هذا كُلِّه، ونقول: الكاف هنا ليستْ للتشبيهِ، ولكنها للتعليلِ، أي: كما صَلَّيْتَ على إبراهيم وآلِهِ فَصَلِّ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ.

السادس: التَّوَسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإيمانِ، والإيمانُ يكونُ بالقَلْبِ، فتَتَوَسَّلُ إلى اللهِ بإيمانِك؛ لأن إيمانَك سببٌ لَقَبُـولِ دُعائِكَ، ومنه قولُه تَعـالَى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، فقولُه: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الفاء هنا للسببيةِ والتفريعِ، أي تَفْرِيعًا على إيمانِنا بالمُنادِي اغْفِرْ لنا. هذا تَوَسُّلٌ إلى اللهِ بالإيمانِ باللهِ.

ولا شكَّ أن الإيمانَ باللهِ سَبَبٌ للمغفرةِ، واسْمَعْ إلى قولِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1].

السابع: التَّوسُّلُ إلى اللهِ بالعَمَلِ الصَّالِحِ، والعَمَلُ الصالحُ هو وَسِيلةٌ لحُصولِ المطلوبِ وزوالِ المكروهِ لا شَكَّ، ومِن ذلك قِصَّةُ الثلاثةِ أَصْحَابِ الغارِ[2]، والحديثُ مَشْهورٌ.

كَانَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ حَـدَّثَنَا عنهم رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- قد آوَوْا إلى غَارٍ يَبِيتُونَ فيه -والغارُ فَتْحَـةٌ في الجَبَلِ- فآوَوْا لِيَبِيتُوا فيـه، ويَخْرُجوا في الصَّباحِ، فأرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُرْسِلَ على بابِ هذا الغارِ صَخْرةً عَظِيمةً، أي: حَجَرًا كبيرًا، لا يَسْتَطِيعونَ أنْ يُزَحْزِحُوهَ، فقال بعضُهم لبعضٍ: نَتَوَسَّلُ إلى اللهِ تَعَالَى بأعمالِنا؛ لأنَّ الأعمالَ الصالحـةَ تُنْقِذُ الإنسانَ عندَ الشِّـدَّةِ. كما قال النبيُّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ- لعبدِ اللهِ بنِ عَبّاسٍ فيما أوصاهُ به: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[3].

فذكَرَ أَحَدُهم بِرًّا عَظِيمًا بوَالِدَيْهِ، فذكَرَ أنَّ له أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كبيرين، والأبوانِ أي الأبُ والأُمُّ، لكن غلَبَ ذِكْرُ الأَبِ على الأُمِّ، والذُّكـورةُ تَغْلِبُ الأُنوثةَ. وكان إذا سَرَحَ بالغَنَمِ ورَجَعَ وحَلَبَ فأَوَّلُ مَن يُعْطِي أَبَواهُ قبلَ أهلِه وأولادِه، قال: فنَأَى بِي يومًا طَلَبُ الشَّجَرِ، أي: أَبْعَدَنِي طَلَبُ المَرْعَى، فتَأَخَّرَ، فلما قَدِمَ إلى مكانِه حَلَبَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان، رقم (٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي، رقم (٢٢١٥)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤).

الحَلِيبَ، فوَجَدَ أَبَوَيْهِ نَائِمَيْنِ؛ لأنه تَأَخَّرَ فناما، فجعَلَ الإناءَ على يَدِهِ ولم يُوقِظْهما؛ لِئَلَّا يُنكِّدَ عليهما، فجَعَلَ الإناءَ على يَدِهِ حتى طَلَعَ الفَجْرُ، والصِّبْيَةُ حولَه يَتَضاغَوْنَ مِن الجُوعِ، ولكن لا يُقَدِّمُ أحدًا على أَبَوَيْهِ، وهذا بِرٌّ عَظِيمٌ، حتى قاما وشَرِبَا، ثم سَقَى الصِّبْيَةَ، وهذا عَمَلٌ صَالِحٌ، فقال: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عنا ما نحن فيه. ولاحِظُوا الإخلاصَ -وهو مُهِمٌّ- في قولِه: إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك ابْتِغاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عنا ما نحن فيه. فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ قليلًا، لكنهم لا يَستطيعون الخُروجَ.

أما الثاني: فذكَرَ مثلًا غَايَةً في العَفَافِ، كان له ابْنَةُ عَمٍّ، وكانَ يُحِبُّها حُبًّا شديدًا، وكان يُراوِدُها عن نفسِها وتأْبى، فأَلْجَأَتْها الحاجةُ ذاتَ يومٍ، وجاءت إليه تَطْلُبُه حاجةً، فأبى عليها إلا أن تُمَكِّنَه مِن نفسِها فأَبَت، فاشْتَدَّت بها الحاجةُ، فجاءت إليه ووافقَتْ على أَنْ تُمَكِّنَه مِن نفسِها. يقول: فلما جَلَسْتُ منها مَجْلِسَ الرَّجُلِ من امرأتِه، قالت: اتَّقِ اللهَ، ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلا بحَقِّه. وهذه كلمةٌ يَقْشَعِرُّ منها الجِلْدُ: اتَّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلا بحَقِّه. يقول: فقُمْتُ منها وإنَّها لَأَحَبُّ الناسِ إِلَيَّ. لكن مَنَعَته تَقْوَى الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَفُضَّ خَاتَمَ هذه المرأةِ، وأعطاها ما طَلَبت، وهذا هو شِدَّةُ العَفافِ، فقال: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عنا ما نحن فيه. فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، لكن لا يَسْتطيعونَ الخُروجَ.

أما الثَّالِثُ: فقد ضَرَبَ مَثَلًا بَالِغًا في الأمانةِ، فإنه قَدِ استأجَرَ أُناسًا، فأعطاهم أُجُورَهم، إلا واحدًا لم يَأْخُذْ أَجْرَه، كان استأجرهم يَعْمَلون عملًا له، وأعطاهم أُجورَهم إلا واحدًا لم يُعْطِه، فأَخَذَ صَاحِبُ العَمَلِ أُجْرةَ هذا العامِلِ واتَّجر بها،

حتى كانَ عِندَه وادٍ مِن البَقَرِ والغَنَم والرَّقِيقِ، وهو يَتَّجِرُ بها للعاملِ؛ ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ؛ ولهذا بارك له في سَعْيِهِ، فجاءَ الرَّجُلُ العامل بعدَ زَمَنٍ يَطْلُبُ حَقَّه، فقال له الرَّجُل: كلُّ ما تَرَى مِن البَقَرِ والغَنَمِ والإبلِ والرَّقيقِ لك. قال: اتَّقِ اللهَ ولا تَسْتَهْزِئ بي. لأن أُجْرتَه كانت قَلِيلةً جدًّا، دَرَاهِم قليلة، فقال: لا أَسْتَهْزِئُ بك، فهذا أَجْرُكَ قد نَمَا حتى صارَ إلى هذا. فأخذَها وذهَبَ. فقال: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فعلتُ ذلك مِن أَجْلِكَ، فافْرُجْ عنا ما نحن فيه. فانْفَرَجَتِ الصخرةُ، حتى خَرَجُوا يمشُون.

وهكـذا تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْك في الشِّدة، اللهم اعْرِفْنـا في الشِّدة، وأَحْسِن خاتمتنا يا رَبَّ العالمين، وأَشَدُّ ما يكـون على الإنسانِ عندَ فِراق الدُّنيا عندَ الموت أَنْ يَتعَرَّضَ له الشيطانُ، ويأتي لبعضِ الأمواتِ، وليسَ لكلِّ الأموات، بصُورةِ أبيهِ أو أُمِّه، فيقول: يا ولدي، عليك باليهـودية، كُنْ يهوديًّا، لا تمُتْ إلا على دِينِ اليَهودِ. وهو في حالةٍ حَرِجَةٍ، وربما يَتَأَثَّر.

يقولُ شيخُ الإسلامِ: عَرْضُ الأديانِ على المَيِّتِ ثَابِتٌ، لكنْ ليسَ لكلِّ مَيِّتٍ[1]. ولما حَضَرَتِ الوفاةُ الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ إمامَ أهلِ السُّنـة المعروف المشهور، سَمِعوه يقـول: بَعْدُ، بَعْدُ. فقـالوا: يا أبا عَبْدِ اللهِ، ما معنى قَـولِكَ: بَعْدُ، بَعْدُ؟ قال: رأيتُ الشيطانَ يَعَضُّ أنامِلَه حَسْرَةً ونَدَمًا، ويقول: فُتَّنِي يا أحمدُ، فُتَّنِي يا أحمدُ. أي: عَجَزَ أنْ يُغْوِيَهُ، فأقولُ له: بَعْدُ، بَعْدُ. أي: ما دامت الرُّوحُ في البـدَنِ، فكلُّ شيءٍ مُمكِنٌ، قد يَزِيغُ الإنسانُ عندَ آخِرِ لحظةٍ.

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنَا بعدَ إذ هَدَيْتَنا، اللهـم ثَبِّتْنا على الحقِّ إلى المماتِ يا ربَّ العالمين،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٥٥).

وكما أنه قد يَزِيغُ في آخِرِ لحظةٍ، فكذلك قد يَهْتَدِي في آخِرِ لحظةٍ، وسأذكر لكم قِصَّةً.

رَجُلٌ مِن بني عَبْدِ الأَشْهَلِ مِن الأنصار كان في غَزْوةِ أُحُدٍ، وكان كافرًا مُعْلِنًا لكُفْرِه، يَكْرَهُ الإسلامَ وأهلَ الإسلامِ، ولما سَمِعَ صِياحَ الناسِ وخُروجَهم إلى أُحُدٍ، أَلْقَى اللهُ في قَلْبِه الإِيمانَ، فآمَنَ، وخَرَجَ يُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، يُدافِعُ عن الإسلامِ، وقد كان في الأول حَرْبًا على الإسلامِ، فخَرَجَ يُقاتِلُ، ومِن المعروفِ أنَّ أُحُدًا استُشْهِدَ فيها مِن الصحابةِ سَبْعُون رَجُلًا، منهم هذا الرَّجُل، فلما انتهى القِتال ذهَبَ الناسُ يطوفون في الأمواتِ ليَعْرِفُوا أمواتَهم، فوجدوا هذا الرَّجُل الأُصَيْرِمَ، فقالوا: ما الذي جاءَ بك وأنت تَكْرَهُ الإسلامَ وتُحارِبُ الإسلامَ، أَجِئْتَ حَدَبًا على قَوْمٍ أَمْ رَغْبَةً في الإسلامِ؟ قال: جِئْتُ رَغْبةً في الإسلامِ، وأَقْرِئوا رسولَ اللهِ ﷺ مِنِّي السلامَ، وأَخْبِرُوه[1]. ففعَلُوا.

فسُبْحانَ اللهِ، هذا الرَّجُلُ أَسْلَمَ عِندَ آخِرِ لَحْظةٍ، واللهُ تَعالَى مُقَلِّبُ القُلوبِ، كما أَخْبَرَ الصَّادِقُ المَصْدوقُ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وقالَ: «**قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»[2]. فقَلْبُ الرَّجُلِ بين إِصْبَعَيْنِ مِن أَصابِعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُقَلِّبُه كيفَ يَشاءُ، إنْ شاءَ أَزاغَه، وإنْ شاءَ أقامَهُ. اللهُمَّ ثَبِّتْ قُلوبَنا، وكان النبيُّ ﷺ يقول أيضا: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[3]. ويقول: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩/ ٤٢، رقم ٢٣٦٣٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تَعالَى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تَعالَى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

فلا تعْجَبْ -أخي المسلم- بإيمانِكَ، نَعـوذُ باللهِ مِن العُجْبِ، ولا تَسْتَوْثِق، واسْأَلِ اللهَ الثباتَ دائمًا، ولكن أَبْشِرْ، فإنَّ اللهَ لا يُزِيغُ قَلْبَ أَحَدٍ إلا إذا كان قد زَاغَ قَلْبُه مِن قَبْلُ، والدليلُ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وأمَّا مَن أَقْبَلَ على اللهِ بإخلاصٍ -وأسألُ اللهَ أنْ يَجْعَلَني وإياكم منهم- فلن يَرُدَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَلَيَقْبَلَـنَّه، ومَن تَقَرَّبَ إلى اللهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ إليه ذِرَاعًا، ومَن تَقَرَّبَ إليه ذراعًا تَقَرَّبَ إليه بَاعًا، ومَن أتاهُ يَمْشِي أتاهُ هَرْوَلَةً[1]، فاللهُ أَكْرَمُ وأَكْرَمُ، واللهُ أَكْرَمُ مِن أعمالِنا، ولكن قد يَكونُ في القلبِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن نِفاقٍ تَقْضِي عليه، فنسألُ اللهَ السلامةَ.

الثامن: التَّوَسُّل إلى اللهِ بحَـالِ الإنسانِ، بمعنى أنَّ الإنسانَ يَذْكُرُ حـالَه لرَبِّه عَزَّوَجَلَّ، وذِكْرُ الحالِ عندَ الكريمِ طَلَبٌ، كأَنْ يَأْتِيَ رجُلٌ إلى أَحَدِ الكُرَماءِ، فيقولَ: واللهِ أنا اليـوم لا أَمْلِكُ أيَّ مَالٍ لعِيالي، وسوفَ يَبِيتـونَ دُونَ عَشَاءٍ. أنت قُلْتَ هذا فَقَطْ، ولكن الرَّجُل الكريم فَهِمَ أنه يَطْلُبُ مالًا، فيُعْطِيهِ.

فذِكْرُكَ حَالَكَ لرَبِّكَ عَزَّوَجَلَّ وهو أَكْرَمُ الأكرمين وَسِيلةٌ لأَنْ يُعْطِيَكَ عَزَّوَجَلَّ، واسْمَعْ إلى قـولِ أَبِيكَ آدَمَ وزَوْجَتِهِ حَـوَّاءَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فهذا تَوَسُّلٌ بذِكْرِ الحالِ؛ ولهذا غَفَرَ اللهُ لهما، وفي حَديثِ أبي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي عَلَّمَه النبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-: **«اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»**[2]. وهذا تَوَسُّلٌ إلى اللهِ بحالِ الداعي.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تَعَالَى رقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

التاسع: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بدُعاءِ الرَّجُلِ الصالحِ الذي تُرْجَى إِجابَتُه، بأن تَأْتِيَ إلى شخصٍ تُرْجَى إجابتُه، ولن نَحْتَرِزَ فنقولَ: لو كانَ حَيًّا، فالميِّتُ أصلًا ليسَ له حَياةٌ أو عَمَلٌ حتى تُرْجَى إِجابَةُ دَعوتِه، فتأتي إلى رَجُلٍ صالحٍ تُرْجى إجابتُه، وتقول: ادعُ اللهَ لي أنْ يَرْزُقَنِي ولدًا. فيَرْفَعُ يديه ويقولُ: اللَّهُمَّ ارْزُق فُلانًا ولدًا. فهذا جائزٌ، ولكنه ليسَ أمرًا مَطْلوبًا أو مَرْغوبًا أو مَرْهُوبًا، بل أَدْنَى ما يقالُ فيه: إنه جَائِزٌ، وتَرْكُه أَوْلى.

فالأَولى مِن أَنْ تأتيَ رَجُلًا وتقولَ: ادْعُ اللهَ لي. أنْ تَدْعُوَ رَبَّكَ عَزَّوَجَلَّ الذي يقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فلا تَجْعَلْ واسطةً بينك وبين اللهِ، بل ادعُ واللهَ، وسوف يَزِيدُك إيمانًا، ويَزِيدُكَ إذعانًا له، ويَزِيدُك ذُلًّا وخُضوعًا له، فليسَ صَحِيحًا أن تذهَبَ إلى رَجُلٍ فتقول: ادْعُ اللهَ لي. ثم تَذْهَب هكذا.

بعضُ الناس إذا طلبتَ منه أَنْ يَدْعُوَ لك أصابهُ الغُرورُ، والنفسُ أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ، فيَنْتَفِخُ ويقول: أنا مَن أنا؟ أنا الذي يأتي إليَّ الناسُ أدعو لهم. وهذا واقعٌ، فهناك ناسٌ فِعْلًا إذا طُلِبَ منهم أَنْ يَدْعُو لشخصٍ انتفخوا ومَشَوْا مُتبَخْتِرِينَ، وهذا ضَرَرٌ على المخلوق، وكذلك تَعَلُّقٌ بغَيْرِ اللهِ؛ لأنَّ هذا الطالب يَتعَلَّقُ قلبُه بالداعي، فيقولُ: الحمدُ للهِ، أنا واللهِ أَوْصَيْتُ فُلانًا أَنْ يَدْعُوَ لي. سبحانَ اللهِ، وما يَمْنَعُكَ عن دُعاءِ اللهِ مُباشَرَةً؟!

أقولُ هذا لمن يَطْلُبُ مِن الرَّجُل الصالح أَنْ يَدْعُوَ له، فهذا أمرٌ غَيْرُ مَرْغوبٍ، ولا ينبغي لك أن تُذِلَّ وَجْهَكَ أمامَ مَخْلوقٍ مِثْلِكَ، وتدَعَ دُعاءَ رَبِّك، بَلِ ادْعُهُ مباشرةً، وعَوِّدْ نفسَك الدعاء للهِ عَزَّوَجَلَّ تَجِد الذُّل لله عَزَّوَجَلَّ والتعلق به، ولا تَتَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ.

أما فيما يخُصُّ المطلوب فينبغي أَنْ يَجْبُرَ قَلْبَ صَاحِبِه، وَأَنْ يَدْعُوَ له، ولكن إذا امْتَنَعَ مِن ذلك تَرْبِيةً للناسِ، فلا حَرَجَ، هذا إذا لم يَكُن الطَّلَبُ مَصْلحةً لعُمومِ المسلمين، فإن كان مَصلحةً لعُمومِ المسلمين؛ كأن تأتي إلى رَجُلٍ فتقول: يا فُلان، الناس الآن في جَدْبٍ وقَحْطٍ، والمَطَرُ مُمْتَنِعٌ، والأرضُ يَبُسَتْ، فلو تَدْعُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُغِيثَهم. فهذا طَيِّبٌ، لأنك ما أَذْلَلْتَ نَفْسَكَ، إنما سألتَ لعامَّةِ المسلمين، ولا بأسَ به، بشرطِ أن نَأْمَنَ مِن كَوْنِ المسؤول لن يَنْتَفِخَ ويَغْتَرَّ، فإنْ حَدَثَ هذا تَوَقَّفْنا.

وما أكثرَ الذين يُسلِّمونَ على الشخصِ، ويقولون: أَسْأَلُكَ الدُّعاءَ، ادْعُ اللهَ لي. فما يَمنعُك أخي المسلم أن تَدْعُوَ أنتَ اللهَ؟ قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فإن قلتَ: أليس قد قِيلَ: إنَّ النبيَّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- قال لعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: «لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ»[1].

فالجواب: هذا الحديثُ لا يَصِحُّ، فهو غيرُ صحيحٍ إطلاقًا، ولا يَلِيقُ بمَقامِ النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- أَنْ يَسْأَلَ عُمَرَ، فالنبيُّ -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- أَعْلَى رُتْبَةً مِن عُمَرَ، ولا يمكن أَنْ يَقَعَ مِن الناحيةِ العَقْليةِ.

وعلى هذا فنقولُ: سؤالُ الغَيْرِ الدُّعاءَ أمرٌ ليس بمَرْغوبٍ، وليسَ بسُنَّةٍ، وَاتَّجِه إلى اللهِ، وتَعَلَّقْ باللهِ عَزَّوَجَلَّ خيرٌ لك مِن تَعَلُّقِك بالمَخْلوقِ.

هذه الأنواعُ التسعةُ هي التي حَضَرَتْني الآنَ، ورُبَّما يكونُ هناكَ أشياءُ غابتْ عني الآنَ، لكن هذه يكفي وَاحِدٌ منها.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٦، رقم ١٩٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، ١٤٩٨)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب في التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعبادة، باب منه، رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج، رقم (٢٨٩٤).

وأمَّا التوسُّلُ بِجاهِ النبيِّ ﷺ فلَعَمْرُ اللهِ إنَّ النبيَّ ﷺ أَعْظَمُ البَشَرِ جاهًا عندَ اللهِ بلا شَكٍّ، وإذا كانَ عِيسَى وَجِيهًا عندَ اللهِ، ومُوسَى وَجِيهًا عندَ اللهِ، فمُحَمَّدٌ وَجِيهٌ عندَ اللهِ بلا شَكٍّ، ولكن ماذا يَنْفَعُنِي جَاهُهُ إذا كان ليسَ عندي عَمَلٌ أَتوسَّلُ إلى اللهِ به؟ فمَنْزِلَتُه عندَ اللهِ وَجَاهُهُ عندَ اللهِ خَاصٌّ به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنا لا أَنْتَفِعُ به.

صحيحٌ لو أني أُرِيدُ أَنْ أَتوَسَّلَ إلى بَشَرٍ فأنا آتي إلى شَخْصٍ وَجِيهٍ عندَه وأقول: يا فلانُ أنتَ وَجِيهٌ عندَ المَلِك، أو وَجِيهٌ عندَ الوَزِيرِ، اشْفَعْ لي عندَه، هذا مُمْكِنٌ، لكنَّ ربَّ العالمين الذي يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى لا تَنْفَعُنِي وَجاهَةُ أَحَدٍ عِندَه.

ولذلك كانَ أَصَحُّ أقوالِ العلماءِ في هذه المسألةِ -أعني التوسُّلَ بِجَاهِ النبيِّ- هو التحريمُ.

ثم أنا أقول: يا أخي لماذا تَسْتَشْفِعُ بجَاهِ النبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وعندَكَ مِن أنواعِ التوسُّلِ الجائزِ ما يَكْفِي ويَشْفِي، «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»[1]، أقولُ هذا تَنَزُّلًا، وإلا فلا شَكَّ عندي أنه حَرَامٌ، لكن لا بَأْسَ أَنْ نَقولَ لمن يَعْتَقِدُ أنه حلال: يا أخي ما دامَتِ المسألةُ فيها شَكٌّ، والعُلَماءُ فيها مُخْتَلِفُونَ، فاتْرُكِ المَشْكوكَ فيه وتَوَسَّلْ بما هو مَعْلومُ التوسلُ بِهِ، ودَعْ مَا يَرِيبُكَ إلى مَا لا يَرِيبُكَ.

أما الاستغـاثةُ بالمَخْلوقِ، فنقـول: إذا كانَ حَيًّا قَادِرًا على إِغَاثَتِـكَ وإنقاذِكَ فلا بَأْسَ به، والدليلُ أَنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتَغَاثَهُ الذي مِن شِيعَتِه على الذي مِن عَدُوِّه فأَغَاثَه، لكنه اسْتَغَاثَهُ في شيءٍ يَقْدِرُ عليه.

لا يَقُلْ أَحَـدٌ: هذه الاستغاثةُ قبلَ أَنْ يُرْسَلَ مُوسَى، يعني قال وَهُمْ في مِصْرَ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق، باب ٦٠، رقم (٢٥١٨).

قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ، فلا حُكْمَ لها، والاستغاثةُ بالمخلوقِ حتى فيما يَقْدِرُ عليه مُحَرَّمَةٌ.

لو قالَ أَحَدٌ هذا القولَ فَقَدْ نَتَوَتَّرُ، لكن نقول: إنَّ اللهَ لم يَقُصَّ ذلك علينا إلا لنَعْتَبِرَ بِهِ، لقولِه تَعالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١]، فإذا اسْتَغَثْتَ بمَخْلُوقٍ يَقْدِرُ فافْعَلْ، مِثالُه إنسانٌ سَقَطَ في البَحْرِ وهو لا يَستَطِيعُ السِّباحَةَ، وعندَه رَجُلٌ يَعرِفُ السِّباحَةَ يَستغِيثُ به، يا فُلانُ أَغِثْنِي جَزاكَ اللهُ خَيْرًا، أَنْقِذْني، فلا مَانِعَ.

أما أنْ تَسْتَغِيثَ بمَقْبُورٍ هو نَفْسُه جُثَّةٌ هَامِدةٌ ما يستطيع أَنْ يَتحَرَّكَ، فهذا شِرْكٌ أَكْبَرُ، مَن فَعَلَه لا تُقْبَلُ منه صَلاةٌ، ولا صِيامٌ ولا حَجٌّ، ولا صَدَقَةٌ، ولا أَيُّ عَمَلٍ صالحٍ، لأنه مُشْرِكٌ باللهِ العظيمِ.

ومَا أَسْخَفَ عُقولَ هؤلاء! كيف يَستغيثونَ بأمواتٍ لا يَسْتَطِيعونَ أَنْ يَرْفَعُوا عنهم أَدْنَى أَذًى، ويَتْرُكونَ الاستغاثةَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ لولا أنَّ الشيطانَ يَؤُزُّهم إلى المعاصي أَزًّا لَكَانَ الأمرُ وَاضِحًا.

كيف تأتي إلى قَبْرٍ صاحبُه لا يَتحَرَّك ولا يَسْمَع إلا ما وَرَدَت به السُّنة تقول: يا فُلانُ أَغِثْنِي؟ الله المستعان! أين العُقولُ؟ ينبغي لمن وَاجَهَ أَحَدًا مِن هؤلاء أَنْ يقول: أَعْظَمَ اللهُ لكَ الأَجْرَ بِفَقْدِ العَقْلِ قبلَ فَقْدِ الدِّينِ.

أرأيتُم هذا المَقْبورَ لو أَنَّ أَحَدًا نَبَشَه وأَحْرَقَه وكَسَرَ رَأْسَه على الحَصَى ماذا يَفْعَلُ؟ لا يَستطِيعُ أَنْ يُنقِذَ نفسَه، فكيف يُنْقِذُكَ أنت؟ سُبْحانَ اللهِ العظيمِ، إذا كنا نَعْجَبُ مِن قُرَيشٍ يَعْبدونَ الأحجارَ والأشجارَ، والواحدُ منهم يَصْنَعُ صَنَمًا مِن التَّمْرِ، وإذا جاعَ أَكَلَهُ، سبحان الله! إِلَهٌ مَعْبودٌ يكونُ في النهايةِ مأكولًا، ثم يَخْرُجُ

عَذِرةً مِنَ الدُّبُر، سبحان الله.

المُهِمُّ وَصِيَّتِي لكم إذا رَأَيْتُم أَحَـدًا يَستغِيثُ بالأمواتِ أَنْ تَنْصَحُـوهُ بإلْحاحٍ، لكن بأَدَبٍ وتُؤَدَةٍ؛ لأن الرَّجُلَ قد يَكونُ جَاهِلًا، تقـول: له يا أخي الآن لو حَـفَرْنَا أنا وأنت القَبْرَ وأَخْرَجْنَا الرَّجُلَ وأَحْرَقْناه ما تَكَلَّم، فكيف يَنْفَعُكَ؟

فإذا قال: هذا وَجِيهٌ عندَ اللهِ، وله الشفاعةُ. نقـولُ: لا يُمْكِنُ أَنْ يَشْفَعَ وهو في قَبْرِه أَبَدًا مَهْمَا كانَ، حتى النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَشْفَعُ وهو في قَبْرِه؛ لأن النبيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١)، والشفاعةُ عَمَلٌ، إذن الرسول ﷺ أشار إلى أنه لا يَنْفَعُ الناسَ، ولا يُمكن أَنْ يشفَعَ لهم وهو في قَبْرِه، ولا أَنْ يَدْعُوَ لهم وهو في قَبْرِه، ومِن بابِ أَوْلى لا يُزِيل عنهم الشِّدَّةَ.

أرجو تحقيقَ التوحيدِ، أرجو التَّعَلُّقَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ الذي خَلَقَك مِن عَدَمٍ، خَلَقَكَ مِن نُطْفَةٍ، أرجو أن تعلمـوا أنه لا ينفعكم إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لقـد قال النبي ﷺ في وَصَايَاهُ لعبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»(٢)، الأمة كلُّها إذا كانوا لا يَمْلِكون النفعَ ولا الضَّرَر فمَنِ الذي يَمْلِكُ هذا؟ إنه الله عَزَّوَجَلَّ، فَوَجِّهِ السؤالَ إلى اللهِ، فهو الذي يَجْلِبُ النَّفْعَ ويَدْفَعُ الضَّرَرَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم (٢٥١٦).



التوسُّـل

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ، خَاتَمِ النَّبِيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ التَّوَسُّلَ نوعانِ: توَسُّلٌ جائزٌ مشْرُوعٌ، وتوَسُّلٌ مُحَرَّمٌ ممنوعٌ.

التَّوَسُّلُ الجائزُ:

أولًا: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ بأسمائِهِ: ودَلِيلُهُ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] أي: تَوَسَّلُوا إليه بِهَا.

ودليلٌ آخَرُ، وهو حديثُ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصِيبُهُ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»(١).

والشاهِدُ في الحديث قولُهُ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ». وهَذَا تَوَسُّلٌ بالأسماءِ عامَّة، ويكونُ التَّوَسُّلُ بالاسمِ الخاصِّ المناسِبِ لما تَدْعُوه، فمثلًا إذا سألتَ اللهَ المغْفِرَةَ فقُلْ: يا غَفورُ اغْفِرْ لي. وإذا سألتَ الرَّحْمَةَ فقُلْ: يا رَحْمنُ ارْحَمْنِي. وإذا سألتَهُ الرِّزْقَ:

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨).

يا رَزَّاقُ ارْزُقْنِي. وهُلَمَّ جرًّا. فهـذا توسُّلٌ أيضًا بالأسماءِ، لكنَّه تَوَسُّلٌ خاصٌّ باسمٍ خاصٍّ مناسِبٍ لما تَدْعُوه.

ثانيًا: التوسُّلُ إلى الله بصِفـاتِهِ: ومِثـالُ ذلِكَ قولُه: «اللَّهُمَّ بِعِـلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي»(١). والصِّفَةُ هنَا فِي قوله: «بِعِلْمِكَ الغَيْبَ»، فالعِلْمُ صفةٌ، و«وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ» والقُدْرَةُ صِفَةٌ.

ومِن ذلِكَ قولُهُ: «يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»(٢). فليس مَعْنَى الكلامِ أَنَّكَ تَدْعُو الرَّحْمَةَ لتُغِيثَكَ، ولكن المعْنَى أنك تسأَلُ اللهَ أَنْ يُغِيثَكَ برَحْمَتِهِ.

ثالثًا: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ بالأفعالِ: أَنْ تَتَوَسَّلَ إلى اللهِ بِفِعْلٍ مِنْ أفعالِهِ، ومنه قولُه: اللَّهُمَّ صَلِّ على محـمَّدٍ، وعلَى آلِ محـمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبراهِيمَ. فإنَّ صلاتَهُ على إبراهِيمَ فِعْلٌ مِنْ أفعالِهِ، وإن كانت بالقَوْلِ، فتوسَّلَ إلى اللهِ بفِعْلِهِ.

وكذلك أيضًا قولُ القائل: اللَّهُمَّ كما رَزَقْتَنِي، وكما عَافَيْتَنِي، وكما أَنْضَجْتَ عَقْلِي فاهْدِنِي إلى الحَقِّ. فهذا تَوَسُّلٌ بأفعالِ اللهِ.

رابِعًا: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ بالإيمانِ والاتِّباعِ، وهذا مِن فِعْلِكَ أنتَ، ومنه قولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٦]، وقولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿... فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، فقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ هذا مِنْ فِعْلِ العَبْدِ.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤، رقم ١٨٣٥١)، والنسائي: كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، رقم (١٣٠٥).
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب عقد التسبيح باليد، باب منه، رقم (٣٥٢٤).

ومن المعلومِ في هذا القِسْمِ أنه لا يمكِنُ أَنْ يتوَسَّلَ الإنسانُ إلى اللهِ بفِعْلِ الإنسانِ إلَّا إذَا كان الفِعْلُ مما يُرْضِي اللهَ، أما أَنْ يتوَسَّلَ إنسانٌ بمعْصِيَةِ اللهِ إلى اللهِ فهـذا حَرامٌ؛ لأن المعْصِيَةَ حرامٌ، لكن تتَوسَّلُ بالإيمانِ والاتِّباعِ، كما قالَ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، فهَذَا تَوَسُّلٌ إلى اللهِ بالإيمانِ والاتِّباعِ والعملِ الصالِحِ.

ومِن ذلك أيضًا: التَّوَسُّلُ بالأعمالِ الصالِحَةِ، كما توَسَّلَ أصحابُ الغارِ الثلاثةُ الذينَ آواهُمُ الليلُ فلَجَؤوا إلى غارٍ -والغارُ فتْحَةٌ في الجَبَلِ- فدَخَلُوا فيه، فانطَبَقَتْ عليهِمْ صَخْرَةٌ حتى سَدَّتِ البابَ، وعَجَزُوا أَنْ يَفْتَحُوهَا. فقَالَ بَعضُهُم لبَعْضٍ: توَسَّلُوا إلى اللهِ تَعَالَى بصالِحِ أعمالِكُمْ. فذَكَرَ أحَدُهُم بِرَّهُ بوالِدَيْهِ فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ قَليلًا، لكنَّهُم لا يَسْتَطِيعُونَ الخُروجَ، فذَكَرَ الثَّانِي عِفَّتَهُ التَّامَّةَ فَانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ مرَّةً أُخرَى لكن لا يَسْتَطِيعونَ الخُرُوجَ، وذَكَرَ الثَّالِثُ وَفاءَهُ التَّامَّ، فانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ[1].

خامسًا: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بحَالِ الإنسانِ، بحالِهِ وليسَ بعَمَلِهِ، مِثل أَنْ يقولَ القائلُ: اللَّهُمَّ إني مَرِيضٌ فاشْفِنِي. اللَّهُمَّ إني فَقيرٌ فأَغْنِنِي. فكأنَّكَ تَعْرِضُ على ربِّكَ عَزَّوَجَلَّ ما يكون سَبَبًا للرَّحْمَةِ، وهو ذِكْرُ حالِ الإنسانِ، ومنه قولُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، فهَذَا تَوَسُّلٌ بحالِ العبْدِ؛ أَنْ يذْكُرَ الإنسانُ حالَهُ التي تَسْتَوْجِبُ الرحمَةَ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُجِيبُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي، رقم (٢٢١٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣).

سادسًا: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بدُعاءِ رَجُلٍ صالِحٍ، ومنْه: أَنَّ أعرابيًّا دخلَ يومَ الجُمُعَةِ والنَّبيُّ ﷺ يخطبُ الناسَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأمْوالُ، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ -بسببِ تأخُّرِ المطَرِ- فادْعُ اللهَ يُغِيثُنا. والنَّبيُّ ﷺ يُصَدِّقُ ما يَقُولُ الأعْرابيُّ، ولم يطالِبْهُ بِبَيِّنَةٍ؛ لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَمُ هذا، فالأعْرابيُّ لم يأتِ ويُقاطِعِ النَّبيَّ ﷺ في خُطْبَتِهِ إلا وهو صادِقٌ. فرَفَعَ النَّبيُّ ﷺ يديه وقال: «**اللَّهُـمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُـمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُـمَّ أَغِثْنَا**». وكان ﷺ إذَا دَعَا يَدْعُو ثَلاثًا، وإذا لَمْ يَسْمَعِ المسلَّمُ عليه سَلَّمَ ثلاثًا، وإذا تَكَلَّمَ ولم يَفْهَمِ المخاطَبُ يتكلَّمُ ثَلاثًا.

قَالَ أَنَسٌ: وَلَا واللهِ، مَا نَرَى فِي السَّماءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً. السَّحابُ: الغَيْمُ المنتَشِرُ الذي يُرْعِدُ ويُبْرِقُ. والقَزَعَةُ: هي القِطعَـةُ الصغيرَةُ مِنَ الغيمِ. أي إنَّ الجَـوَّ صَحْوٌ. قال: وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ. وسَلْعٌ: جَبَلٌ في المدينَةِ يأتِي مِن قِبَلِهِ السحَّابُ. يقول: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ. والتُّرْسُ: جِلْدٌ مُقوّى أو نَحْوه يَتَّقِي به المقـاتِلُ الرِّماحَ. يقول: فارْتَفَعَتْ فِي السَّماءِ سَحَابَةٌ، فلَمَّا تَوَسَّطَتِ انتَشَرَتْ ورَعَـدَتْ وبَرَقَتْ وأَمْطَرَتْ. قال: فما نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ مِنبرِهِ إلا والمطَرُ يتَحَادَرُ مِنْ لِحْيَتِهِ -صلوات الله وسلامه عليه-.

في هذا آيتانِ، إحْدَاهُما: تَعُودُ إلى اللهِ. والأُخْرَى: تعودُ إلى الرَّسولِ ﷺ.

فأَمَّا الآيةُ التِي تَعودُ إلى اللهِ فَهِي القُدْرَةُ العَظِيمَةُ، فقَدْ أنشأَ اللهُ هذِهِ السَّحَابَةَ وأَمْطَرَتْ في دقائقَ مَعدودَةٍ.

وأما الآيةُ التي تعودُ إلى الرَّسولِ فَهِي أنَّ اللهَ أجابَ دعوتَهُ في الحالِ.

ثم ظَلَّتِ السماءُ تُمطِرُ أُسْبُوعًا كامِلًا، وسالَ الوادِي المعْرُوفُ في المدينة المسمَّى

قَنَاةَ شَهْرًا كاملًا، وفي الجُمعَـةِ الثانيَةِ دخَلَ رَجُلٌ، أو هُو الرَّجُلُ الأوَّلُ، والنَّبيُّ ﷺ يخطبُ قالَ: يا رسولَ اللهِ، تهَدَّمَ البِنَاءُ، وغَرِقَ المالُ مِنْ كثْرَةِ المطَرِ، فادْعُ اللهَ يُمْسُكُهُ عنَّا. وهذا الرَّجُل نَظَرُهُ قريبٌ، ولكِنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُجِبْهُ، أي: لم يَسْأَلِ اللهَ أَنْ يُمْسِكَهُ، بَلْ سأَلَ اللهَ فقَالَ: «**اللَّهُـمَّ حَوالَيْنَا ولَا عَلَيْنَا، اللَّهُـمَّ عَلَى الآكَامِ والظِّرَابِ، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**». وكان يُشِيرُ هَكَـذَا بِيدِهِ، يقولُ أَنَسٌ: فَما أشارَ إلى ناحِـيَةٍ مِنَ السَّماءِ إلا انْفَرَجَتْ. هَذَا بقُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

يقول: فَخَرَجْنَا نَمْشِي في الشَّمْسِ والسُّحُبُ حَوْلَ المَدِينَةِ تُمْطِرُ(١). سبحانَ الله العَظِيمِ، هنا الرَّجُلُ تَوَسَّلَ بدُعاءِ النَّبِيِّ ﷺ.

ومِثْلُ ذلكَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ حدَّثَ أنه رَأَى أُمَّتَـهُ ومَعهم سَبْعُونَ أَلْفًا يدْخُلـونَ الجنَّةَ بِلا حِسابٍ ولا عَذَابٍ، فقام عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقالَ: يا رَسولَ الله، ادعُ اللهَ أَنْ يَجْـعَلَنِي مِنْهُم. قـال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**». أو قـال: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»(٢). وقال آخَرُ: يا رسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يجعلَنِي مِنْهُم. فقالَ: «**سَبقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(٣). فصارَتْ هذه الجُمْلَةُ مثَلًا «**سَبقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

سابعًا: التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بدعاءِ الرَّجُـلِ الصالِحِ، ولكِنْ هل يُشْرَعُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (٩٦٧)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٦).

للإنسانِ أَنْ يأتِيَ إلى شَخْصٍ ويقُولَ: يا فُلانُ ادْعُ اللهَ لِي؟

هذا فيه تَفْصِيلٌ: إذا كانَ هذا الرَّجُلُ الذي قُلتَ لهُ: ادْعُ اللهَ لِي. انتَفَخَ وصارَ لا يحمِلُهُ الكُرْسِيُّ، وقال: أنا الوَلِيُّ، أنا مُجابُ الدَّعْوَةِ. فهذا لا يجوزُ أن نقُولَ له ذلِكَ؛ لأننا إذا قُلْنَا هذا أسَأْنَا إليه، وأَفْسَدْنَا عليهِ دِينَهُ، أما إذا كانَ لا يُبَالِي، ولكنَّه يَحْمَدُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ جعَلَهُ مَوثُوقًا عندَ النَّاسِ، والناس يتوَسَّمُونَ فيه الخيرَ، فهذا لا بأس به، لكِنْ مع ذلِكَ تَرْكُه أَوْلى؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، والإنسانُ ليسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّه واسطة، فإذا طَلَبَ مِن غَيرِهِ أَنْ يدْعُوَ له فَسَوْفَ يعتَمِدُ على دُعَاءِ هذا الغَيرِ، ويَنْسَى هو أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ. ولهَذَا -وإن قُلْنَا بالجَوازِ- لكنَّ الأَوْلَى عَدَمُه.

يُقَالُ: إنَّ الرسولَ ﷺ قال لعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَدْ أرادَ أَنْ يتوَجَّهَ إلى مكَّةَ: «**لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ**»[1]. لكِنَّ هذا حَديثٌ لا يَصِحُّ عن النَّبِيِّ ﷺ، وإذا لم يَصِحَّ بطَلَ الاستِدلالُ به، ولا يجوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ بحديثٍ ضَعِيفٍ لإثباتِ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ.

التَّوَسُّلُ الممنوعُ المحَرَّمُ:

أما التوسُّل الممنوعُ فكَأَنْ يتوَسَّلَ إلى اللهِ تَعالَى بشَيءٍ ليسَ بوَسِيلَةٍ، فإنَّ هذا حرامٌ، ولا يجوزُ، وهو نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ، وقد يكون شِرْكًا.

فالذين يتَوَسَّلُونَ إلى اللهِ بعِبادَةِ القُبْورِ، ويقولونَ: نحنَ نتَوَسَّلُ إلى اللهِ تَعالَى

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٦، رقم ١٩٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، ١٤٩٨)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب في التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعبادة، باب منه، رقم (٣٥٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب فضل دعاء الحاج، رقم (٢٨٩٤).

بعِبَادَتِهِمْ. فهذا محرَّمٌ وشِرْكٌ، يقولُ اللهُ تعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، أي: هُم يقولونَ: ما نَعْبُدُ هؤلاءِ إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفى، وَهُمْ في الحقيقةِ يُبْعِدُونَهم عنِ اللهِ، وقالَ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] هـذه وَسِيلَةٌ باطِلَةٌ، بَلْ هي شِرْكٌ، وإذا قـالَ إنسانٌ: اللَّهُمَّ إني أسأَلُكَ بمُحَمَّدٍ ﷺ. إن قلت هذَا مِنَ الوسيلَةِ الجائزَةِ أخطَأْتَ، وإذا قلتَ مِنَ الوسيلَةِ الممنوعَةِ أخطَأْتَ، وإنْ فَصَّلْتَ فَبَيِّنْ.

قد يقولُ قائل: إن كانَ النَّبِيُّ ﷺ حَيًّا جازَ، وإن كان مَيِّتًا لم يَجُزْ.

نقـول: هذا خطأ؛ لأنه إذا كان حَيًّا فسيقولُ: يا رسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لِي. وهذا لا يصْلُحُ، إذا كان قصْدُهُ الإيمانَ بالرسولِ كأن يقولَ: أسألُكَ بمحمَّدٍ أن تَغْفِرَ لي. يعـني: بالإيمانِ بِهِ، فهـذا جائز ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وهذا هُوَ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران:١٩٣]. وإن كانَ يريدُ التَّوَسُّلَ إلى اللهِ بذاتِ الرَّسولِ فهذا غيرُ جائزٍ، فذاتُ الرسولِ لا تُفِيدُكَ شَيئًا، فَقَدْ قالَ الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخاطِبُ ابنَتَهُ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»[1]. والذي يُغْنِي عنْها مِنَ اللهِ هُو الإيمانُ برَسولِ اللهِ، لا بذاتِ الرَّسولِ.

التوسل: معناه أن تَجْعَلَ هذَا الشيءَ مُوصِلًا لهذَا الشَّيءِ؛ لأن السِّينَ والصَّادَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم (٢٧٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٤).

في اللُّغَةِ العربِيَّةِ يتناوبانِ، ألستَ تَقْرَأُ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] و(اهْدِنَا السِّراطَ) بالسِّينِ. فالتوسُّلُ بمَعْنى التَّوَصُّلِ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ هذا السببُ مُوصِلًا صَالحًا للإيصالِ، أرأيتَ لَوْ أردتَ أَنْ تُوَصِّلَ طرَفَ سِلْكٍ كَهْرُبائيٍّ بسِلْكٍ آخرَ، ووضَعْتَ بينَهُما حَبْلًا مِن اللِّيفِ، فإنه لن يُوَصِّلَ الكَهرُباءَ، وهذا في المحسُوسِ، وكذلك في المعقُولِ. فالشيءُ الَّذِي لا يصِحُّ أَنْ يكونَ وَصِيلًا لا يصِحُّ التَّوَسُّلُ به مَهْما كان.

على كل حالٍ، نحنُ بيَّنَّا الوسِيلَةَ الممنُوعَةَ والوسيلةَ الجائزَةَ، والوسيلَةُ الممنوعَةُ ضَابِطُهَا أَنْ يتوَصَّلَ إلى الله بما ليسَ بوَسِيلَةٍ، ثم إنْ كان يَعْبُدُ هذِهِ الوسيلَةَ فَهِي شِرْكٌ أكبرُ، وإن كان دُونَ ذلك فَهِي مُحَرَّمَةٌ، وتكون شِرْكًا أصغَرَ؛ لأنها قد تُؤَدِّي إلى الشِّرْكِ الأكبرِ.

فبَدَلَ مِنْ أَنْ تَقولَ: أسألُكَ بذاتِ النَّبِيِّ. مثلًا، أو بِجَاهِ النَّبِيِّ. فقُلْ: أسألُكَ بإيماني بالنَّبِيِّ. وإذا قالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ بمَحَبَّتِي لرسولِ اللهِ. فقَدْ تَوَسَّلَ إلى اللهِ بمَحَبَّةِ رسولِ اللهِ، وهذا جائزٌ؛ لأن محبَةَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طاعَةٌ وعِبادَةٌ مِن أفضَلِ العِباداتِ، فَهِي وسيلَةٌ لإجابَةِ الدُّعاءِ، بل يَجِبُ علينا أَنْ نُقَدِّمَ محبّةَ الرسولِ على محَبَّةِ الولَدِ والوالِدِ والأُمِّ والنَّفْسِ والناسِ أجْمَعِينَ.

وعلامة ذلِكَ لو أنَّ إنسانًا اشتَهى أَنْ يأكُلَ شَيْئًا مُحَرَّمًا، والرَّسولُ ﷺ قد حَرَّمَهُ، فهنا تَنَازُعُ إرادَةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإرادةِ الإنْسانِ، فإنْ قَدَّمَ ما تُرِيدُهُ نفسُه دَلَّ ذلك على أنه لم يُقَدِّمْ محَبَّةَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على محَبَّةِ نفْسِهِ؛ لأنه أرْضَى نفْسَهُ بما لا يرضَاهُ الرسولُ ﷺ، وإنْ قَدَّمَ ما يُحِبُّهُ الرسولُ دَلَّ ذلِكَ على أنه

يُحِبُّ الرسولَ أكثرَ مما يُحِبُّ نفْسَهُ.

فمثلًا هناك إنسانٌ يَحْلِقُ لِحْيَتَهُ، والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ» «مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»(١). وهذا يقولُ: إنه يَحْلِقُ لحْيَتَهُ ليكونَ وجْهُهُ وجْهَ شابٍّ نظِيفًا جميلًا، والله جميلٌ يحِبُّ الجمالَ. ولكِنْ هنا شيئانِ مَتنَازِعَانِ، هما: هَوَاهُ وأَمْرُ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإذا قَدَّمَ مَا يَهْوَى، وحَلَقَ لِحْيَتَهُ، عَلِمْنَا بأن محبَّتَهُ لنَفْسِهِ أكثرُ مِن مَحَبَّتِهِ للرسولِ، وإن كان وافقَ الرَّسولَ، وإن كارهًا له لنَفْسِه، عَلِمْنَا أن محبَّتَهُ للرسولِ أعظمُ مِنْ محبَّتِهِ لنَفْسِهِ، هذا مِنْ علاماتِ تقْدِيمِ محبَّةِ الرسولِ على محبَّةِ النَّفْسِ؛ أنك تفْعَلُ ما يأمُرُ بِهِ الرَّسولُ، وإن كَرِهَتْهُ نَفْسُك.

المهِمُّ أنه يجِبُ علينَا أن نُقَدِّمَ محبَّةَ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على محبَّةِ كلِّ أحدٍ، حتَّى على النَّفْسِ.

ولا يجوزُ أنْ نُقَدِّمَ محبَّةَ الرسولِ على محبَّةِ اللهِ، ولولا أَنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ ما كان يَجِبُ علينَا أن نُقَدِّمَ محبَّتَهُ على محبَّةِ أنْفُسِنا وأَهْلِنا، وهو لَمْ يَشْرُفْ إلا بكونِهِ عبدَ اللهِ ورسولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب إعفاء اللحى، رقم (٥٨٩٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩).



الإيمانُ بالقدرِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين، أمَّا بَعْدُ:

فقد قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، فَالمصيبة قَدْ تكُون فِي الأَرْض؛ وهَذِهِ مُصيبة عَامَّة، يدخلُ فِيهَا المصائبُ فِي النَّبات، وَالمصائبُ فِي العُمران، وَالمصائبُ فِي المياه، وَالمصائبُ فِي الرِّياح، مصائبُ لَا تُحصى أنواعُها؛ فَضْلًا عَنْ أفرادِها.

والمُصيبة فِي الأنفسِ قَدْ تكُون عَامَّة، وَقَدْ تكُون خَاصَّة؛ مِثالُ المُصِيبة العَامَّة: كما لَوْ أُصيب النَّاس بِأَوْبِئَةٍ فَتَّاكَةٍ.

أمَّا المصائبُ الخَـاصَّة؛ فكَأَنْ يُصابَ الإِنْسَان بمُصيبةٍ فِي بَدَنِه، أَوْ فِي أَهْلِه، أَوْ فِي مَاله، فَكُلُّ المَصَائِب فِي كتابٍ مِن قَبْلِ أَنْ يَبْرَأَ اللهُ الخليقةَ، هَـذَا الكتابُ هُوَ اللَّوْحُ المحفوظُ؛ فإِنَّ اللهَ كتَبَ فِي اللَّوح المحفوظِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ، فَما أصاب الإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.

واعلَمْ أَنَّكَ إِذَا آمنتَ بالقَدَرِ خَيرِه وَشَرِّهِ حَصَّلْتَ فَوائدَ عديدةً مِنْهَا:

الفَائِدَة الأُولى: أنَّ هَـذَا الإِيمان يُوجب لك الطمأنينةَ التَّامَّة، فَإِذَا آمنتَ بِأَنَّ المَصَائِب مُقدَّرةٌ مَكتوبةٌ مِن قَبْلُ، أوجبَ لك هَذَا الإِيمانُ الطمأنينةَ التَّامَّة؛ لأَنَّكَ

تعلمُ أَنَّهُ مكتوبٌ ولا بُدَّ لكلِّ مكتوبٍ كَتبَهُ اللهُ أَنْ يَقعَ عَلى وَفْقِ مَا كَتبَهُ اللهُ، مَهمَا حَاوَلَتِ الأُمَّةُ، فَإِنَّهُ لَا يُمكنُ أَنْ يتغيَّرَ عَمَّا كَتبَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَلِهَذَا كَانَ مِن وَصَايا النَّبِيِّ ﷺ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١).

وكَذَلِكَ أَيْضًا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(٢).

قوله: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»، المُؤْمِن القَوِيُّ فِي إِيمانِه؛ إذ إِنَّ القَوِيَّ صِفَةٌ للمُؤمن، فَإِذَا كَانَتْ صِفَة للمُؤمن صَار المَعْنَى أي القَوِيُّ فِي إِيمانه.

قوله: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»: فيه فَائدة، وهي لِئَلَّا يَنْحطَّ قَدْرُ المُؤْمِن الضَّعِيف، ونَظِيرُ هَذَا قولُه تَعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، لِئَلَّا يَنْحطَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩ رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب قول النبي: يا حنظلة ساعة وساعة، رقم (٢٧٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

قَدْرُ الَّذِينَ تأخَّرَ إنفاقُهم[1].

ومِن ذَلِكَ أَيْضًا قولُه تعَالَى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]. قَالَ: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾، عَرَفْنَا أَنَّ سليمان فِي هَذِهِ القضيةِ أصاب، ولما كَانَ هَذَا يُخشى مِنْهُ أَنْ يَنْحطَّ قَدْرُ دَاوُدَ قَالَ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وَهَذَا لَا شَكَّ مِن بَلاغةِ القُرْآن وَالسُّنَّة.

قولُه: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»، فَاحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُك، فِي الدِّين وَفِي الدُّنْيَا.

قولُه: «وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ»، فَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى نفسِكَ، فَإِنِ اعتمدتَ عَلَى نفسك وُكلتَ إِلَيْهِا، وَإِذَا وُكِلْتَ إِلَيْهِا وُكِلْتَ إِلَى ضَعْفٍ وَعَوْرَةٍ وعَجْزٍ، فَلَا تكسَلْ، فكُنْ حريصًا وكُنْ فَعَّالًا غيرَ عَاجِزٍ.

قولُه: « وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ» خِلَافُ مَا تُرِيدُ.

قولُه: «فَلَا تَقُـلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَـدَرُ اللهِ»؛ أَيْ هَذَا قَدَرُ اللهِ.

قولُه: «وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، فَافْعَـلِ السَّبَب، وَإِذَا جَاء الأمرُ عَلَى خِلَافِ مَا تُرِيد، ففَوِّضِ الأمرَ إِلَى اللهِ، وقُـل: قَـدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَالإِيمان بِأَنَّ مَا أصابَنَا فَهُوَ بِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأَنَّهُ مكتـوبٌ يُوجِب لنَا الطُّمأنينة، ويُوجب لنَـا تَمَامَ الرِّضا باللهِ ربًّا؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّ رِضَا الإِنْسَانِ باللهِ رَبًّا، اسْتَسْلَمَ لجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ فيه؛ لأَنَّهُ رَبُّهُ

(١) الأحكام الشرعية الكبرى للخراط (٣/ ٤٦١).

ومالِكُه يتصرَّف فِيهِ كَمَا يشاءُ، فَإِذَا آمنتَ بقضائه وقَدَرِه فَإِنَّ ذَلِكَ مِن تمامِ الرِّضا باللهِ ربًّا.

الفَائِدَة الثَّانية: الإِيمانُ بِأَنَّ مَا أَصَابَنا قَدْ كُتِب وَانْتَهى، وأَلَّا يَلْحَقَنا الهَمُّ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»، فَأَنْتَ إِذَا جَاء القضاءُ وَالقَدَر بَعْدَ فِعْلِ الأَسْبَاب عَلَى خِلَافِ مَا تُريد لَا تُتْعِبُ نَفْسَكَ بالهَمِّ وتقول: لَيْتَنِي فَعَلْتُ، لَيْتَنِي فَعَلْتُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ سَافَرَ، وَفِي أثناء سَفَرِهِ أُصيبَ بحادِثٍ أَتْلَفَ سَيَّارَتَهُ، فَبِمُقْتَضى الطبيعةِ لَا يَرضى، وبِمُقْتَضَى الإِيمانِ بالقَدَرِ يَرْضَى، ويَعْلَمُ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لابدَّ أَنْ يكونَ، إِذَنْ لَا يُلحِقُ نَفْسَهُ الهَمَّ، فَلَا يَقُولُ: لَيْتَنِي لم أُسَافِرْ.

وَلِهَذَا لما ذَكَرَ اللهُ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨]، قَالَ اللهُ: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨]، فَالإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْرأَ الموتَ بَعْدَ أَنْ كَتبَهُ اللهُ، فَإِذَا آمَنَّا بقولِه تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢]، حصَل لَنا مِنَ الفوائِدِ الَّتِي أشارَ اللهُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

فالإِنْسَانُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ فِي القضاءِ وَالقَدَرِ؛ إِمَّا أَنْ يَفُوتَهُ مَحْبُوبُه، وإِمَّا أَنْ يَحصُلَ لَهُ مَحْبُوبُه، فَفِي فَوَاتِ المَحْبُوب يَحزَنُ بمُقتضى طبيعتِه، وَفِي حُصولِ المَحبوب يَفرحُ وَيَبْطَرُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣].

والإِيمانُ بالقَدَرِ لَهُ مَرَاتبُ أربعٌ، لَا يتمُّ الإِيمانُ بالقَدَرِ إِلَّا بها:

المَرْتَبَةُ الأُولى: الإِيمانُ بالعِلْم.

المَرْتَبَةُ الثَّانية: الإِيمانُ بالكِتَابَةِ.

المَرْتَبَةُ الثَّالثة: الإِيمانُ بالمَشِيئةِ.

المَرْتَبَةُ الرَّابعة: الإِيمانُ بالخَلْقِ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ النَّاظِم:

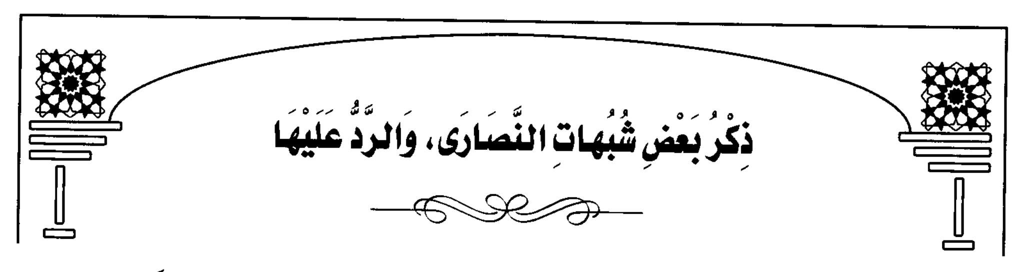
عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

فلا بُدَّ أَنْ تؤمنَ: بِعِلْم اللهِ المحيطِ بِكُلِّ شَيْء، ولا بُدَّ أَنْ تؤمنَ بِأَنَّ اللهَ كتبَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْء إِلَى قِيَام السَّاعةِ، ولا بُدَّ أَنْ تؤمنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا حَدَث فِي الكونِ فَهُوَ بِمَشِيئةِ الله، ولا بُدَّ أَنْ تؤمنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللهِ فَهُوَ مخلوقٌ مِنَ الأَعْيَان، وَالأعمالِ، وَالأَوصَافِ، الإِنْسَانُ نفسُه مخلوقٌ للهِ، أَوْصَافُه مخلوقةٌ للهِ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:٦]، وأعمالُه مخلُوقة.

فالأَوصَافُ مِثل: الطُّول وَالقِصَر، وَالبَياض وَالسَّواد، وَالنَّحَافَة وَالسِّمَن، وَالأعمالُ مِثل: فِعلِ الطَّاعات، وتَرْكِ المُحرَّمَات، أَوْ فِعْلِ المحرَّمات، وتَرْكِ الوَاجِبَاتِ.

فَالمهمُّ أَنَّ الإِنْسَانَ بِذَاتِهِ وصِفَاتِه وأفعالِه مخلوقٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وكُلُّ مَا سِوَى اللهِ فَهُوَ مخلوقٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



ذِكْرُ بَعْضِ شُبُهاتِ النَّصَارَى، وَالرَّدُّ عَلَيهَا

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ مَن تَتَبَّعَ التَّاريخَ وعَرَفَ المَعَارِكَ العَظِيمَةَ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ المُسْلِمِينَ والنَّصَارَى، وعَلِم عَدَدَ مَنْ قُتِلوا مِن المُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِي هَؤُلاءِ النَّصَارَى، عَرَف أَنَّه لا فَرْقَ بَيْنَ اليَهُودي والنصراني فِي مُعَادَاةِ المُسْلِمِينَ، وإلقاء الشُّبُهات.

وأمَّا قولُ اللهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢]، فهَذَان صِنفان، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢] فإذَا تأملنا العِّلة عرَفْنَا الفَرق، ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ هُم أَقْرَبُ مَودَّةً مِن اليَهُود والَّذِين أشرَكُوا، ولكن ما العِلَّة فِي ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة:٨٢]، يَعْنِي: عُلماء وعُبَّادًا، ﴿وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٢-٨٣] فلا توجد هَذِهِ الأوصاف فِي نصارى اليَوْمِ، وآخِرُ الأحداث ما جرى فِي البُوسْنةِ والهِرْسِك، وَهُوَ غير خافٍ علينا جَمِيعًا.

فالنَّصارى لهم شُبُهَاتٌ:

أولًا: أُولى هَذِهِ الشُّبُهات فِي الخَالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] وشَبَّهوا عَلَى النَّاس بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يتحدَّث عن نفسه بِصِيغَةِ الجمع، فيقُول فِي الأمور الكَونيَّة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ وضَمِيرُ الجَمْعِ يَدُلُّ عَلَى الجَمْعِ، وَقَالَ فِي الأمور الشَّرعية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فأتى بِصِيغَةِ الجَمْعِ، فقالوا: هَذَا دليل عَلَى أَنَّ الله تَعَالَى مُتَعدد.

وهَذَا لا شَكَّ أَنَّه تَشْبِيهٌ وتَلْبِيسٌ، وإلا فالأمرُ واضحٌ، فَإِنَّ اللهَ كَذَّبَهُم فِي قَوْلِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٦٢]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [مُحَمَّد:١٩]، وَالآيَاتُ فِي هَـذَا كثيرة؛ لكن النَّصارَى فِي قُلوبهم زَيْغٌ فاتَّبعوا ما تَشابَهَ منه.

ثانيًا: أَمَّا شُبُهاتُهم حول الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالوا: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ بُعِث فِي العرب خَاصَّة وليس مبعوثًا إِلَى جميع النَّاس، ولَبَّسُوا عَلَى ذَلِكَ بقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الجمعة:٢] وَالأُمِّيُّونَ هُم العَرب، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾.

وَقَالُوا أيضًا: إِنَّ الله تَعَالَى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧] وليس إِلَى جميع النَّاس، فلَبَّسُوا بهذا، ثُمَّ قِيل لهم: إِنَّ عيسى ابنَ مريمَ الَّذِي تَغْلُون فِيهِ وأَخْرَجْتُمُوه عن طَوْرِ الرسالة إِلَى طَوْرِ الأُلوهية بَشَّرَكُم بمُحَمَّد، فقال: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] فقالوا: هَذَا الَّذِي بُعِثَ فِي الأُمِّيينَ لَيْسَ اسمه

أحمدُ، بل اسمُه مُحَمَّد، فَلَبَّسُوا مِن وَجْهَيْن: مِن وَجْهِ تسمية المبعوث، ومِن وَجْهِ المبعُوث فيهم.

فنقول: أمَّا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، فقال بعدها: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة:٣]، وَقَالَ تَعالَى فِي آياتٍ أُخرَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] لِلْعَالَمِينَ وليس للعَرب وَحْدَهُم.

وَقَالَ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، تأمل قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، أَيْ: كُلُّ النَّاسِ، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩].

وأَقْسَم -صلَّى اللهُ علَيْهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- وَهُوَ البارُّ الصَّادق، أنَّه لا يَسمع به أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمة يهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثُمَّ يموت ولم يُؤمِنْ بالَّذِي جاء به، إلَّا كَانَ مِن أصحاب النَّار، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[١].

وأمَّا قـولكم: إنَّ الَّذِي بَشَّرَ به عيسى هُوَ أحمدُ دُونَ مُحَمَّد. فيُقال: أحمدُ مِن

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣).

أَسْمَاءِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقد جاءكُم، ولِهَذَا قَالَ فِي نَفْس الآية: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الصف:٦]، ﴿جَاءَهُم﴾ الفاعل هنا هُوَ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّر به عيسى والَّذِي اسمُه أحمدُ.

فَإنْ قالَ قائلٌ: ما الحِكْمَة في أَنَّ اللهَ أَلْهَم عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُخْبِرَ عنه بهَذَا الاسم؟

قُلْنَا: الحِكْمَة أَنَّ أحمدَ اسمُ تفضيلٍ، يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ الحَمْدِ، وَهُوَ إشارةٌ إِلَى أَنَّ مُحَمَّدًا أفضلُ الخَلق، أفضلُ البَشر؛ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَحْمَدَ النَّاسِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أفضلَ النَّاس، وهَذَا وجهُ كَوْنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْهَمَ عيسى أَنْ يَقُولَ أَحْمَد دُون مُحَمَّد، وهَذَا لا شَكَّ أَنَّهُ مِن شُبُهَات النَّصَارَى، وقَدْ رَدَّ عُلَمَاء المُسْلِمِينَ عَلَى النَّصَارَى شُبَهَهم فِي كُتُبٍ أَلَّفُوها، وبَيَّنوا خطأَهُم وضَلَالَهُم مِن نَفْسِ كُتُبِهم الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِم.

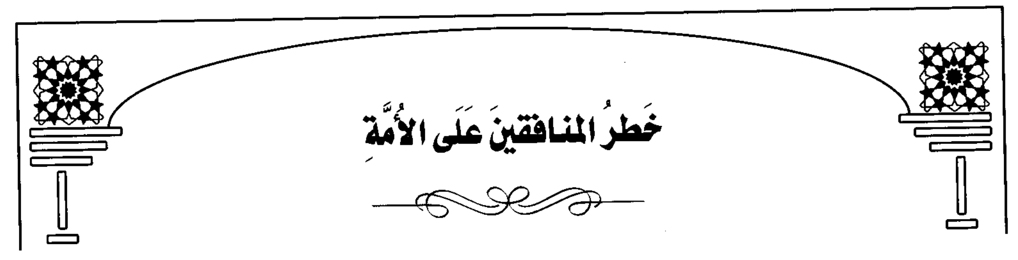
أليسَ اللهُ تَعَالَى أخبرَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ مكتوبٌ فِي التَّوراة والإنجِيل فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ...﴾ [الأعراف:١٥٧] إِلَى آخِرِ الآية.

وَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، فكما أَنَّ الإِنْسَانَ يعرفُ ابْنَهُ الَّذِي خَرَجَ مِن صُلْبِه، فهُم يَعْرِفُون مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّمَ-.

والنَّصَارَى لا يزالُون عَلَى إلقاء مِثْل هَذِهِ الشُّبَه، وعلى أَنْ يجعلُوا الطُّرُق مملوءةً بالفِتَنِ بالنِّسْبَةِ للمُسْلِمِينَ، فيُلقُون إليهمُ الشَّهَوَاتِ بجَمِيع أنواعِها مِن العُهْرِ، والزِّنَا، وغيرِ ذَلِكَ بوسائلَ مُتَنَوِّعَةٍ؛ لأَنَّهم يعلمون أنَّ المُسْلِمِينَ إِذَا انْصَرَفَتْ نُفوسُهم

إِلَى الشَّهوات أَصْبَحُوا كالبَهائِمِ، لَيْسَ للإِنْسَان هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَمْلَأَ بَطْنَهُ، ويُشبِعَ غَرِيزَتَهُ، ولا يَهْتَم بِشَيْءٍ سِوَى ذَلِكَ، فَتَنْحَطُّ الأُمَّةُ، ويَخْمَدُ الدِّينُ، ويَبْطُلُ الجهادُ، فاحْذَرُوا أعداءَكم مِن اليَهُود والنَّصارَى والمُشْرِكِينَ والمنافقين.





خَطرُ المنافقينَ علَى الأُمَّةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتَمِ النَّبيِّين، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين، أمَّا بَعْدُ:

فإن المنافِقِينَ يَعِيشون بَيْننا يَقُولون بِأَلْسنتهم مَا نَقُوله بِأَلْسِنَتِنا وَيطَّلِعُون عَلى أَسْرَارِنا، وَنَحن نَأْمَنُهم، وَهُم يُخَادعونَ اللهَ والذينَ آمنُوا وَمَا يَخْدَعون إِلَّا أَنْفُسَهُم.

هَؤُلاءِ المنافقـونَ أَشَرُّ وأَضَرُّ علَى الإسلامِ وَالمسلمينَ مِمَّن أَعْلَنُوا الكُفرَ؛ لأنَّ مَنْ أَعْلَنَ كُفْرَهُ فَهو عَدُوٌّ ظَاهِرٌ يَسْهلُ التَّحَرُّزُ مِنْهُ وَيُسْتَعَدُّ لِقِتاله، أَوْ إِدْخالِه فِي دِينِ اللهِ، لكنَّ المُشْكِلَ فِي هَذَا الذِي يُخَالطك وَيَقُول مَا تَقُول، وَقَد أَبْطَنَ الكُفرَ، وَالعياذُ بِاللهِ، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤]، فَهـذَا هوَ البَلاءُ؛ وَلِهَذَا قالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، والعالِمُ بِاللُّغةِ العَربيةِ يَفْهَمُ كَيْف عُبِّرَ عنْ عداوَتِهم بِقَوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، فَهِي جُمْلَةٌ مُكَوَّنَة مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَر وَطَرَفَاها مَعْرِفتان، وَمِثْلُ هَذَا يُفِيد الحَصْرَ، يَعْنِي هُمُ العَدُوُّ الأكبرُ، هُمُ العَدُوُّ الأعظَمُ، همُ الذِينَ يَجِبُ الحذرُ مِنْهم؛ وَلِهَذا رتَّب عَلى ذَلِك قَوْلَه: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ومِنْ خِدَاعِهم أَنَّهم إِذَا جَاؤُوا إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالُوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلاثَةِ مُؤَكِّـدَاتٍ: (نَشْهَدُ)، و(إِنَّ)، و(اللامُ)، وكلامهُـمْ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ وَلِهذا كَذَّبَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

لكنْ أدخل قَبْل هَذَا التكذيبِ قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ حتَّى لَا يَتوهَّمَ وَاهِمٌ خِلَافَ المقصودِ، فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يعلمُ أنَّ محـمدًا رسولُهُ، وَيَشْهَدُ بِذَلك كَمَا قالَ تَعَالَى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦].

إنَّ اللهَ تَعَالَى يَعلمُ أنَّ محـمدًا رسولُ اللهِ، وَيَشْهَدُ بِذَلك وَيَشْهَدُ أَنَّ المنافقينَ لكَاذِبون فِي قَـوْلِهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، يَعْني هُمْ كَاذِبون فِي الشَّهـادةِ لَا فِي المشهودِ بِهِ، فالمشهودُ بِه حقٌّ، وهوَ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، لكنَّ الشهادَةَ كاذبةٌ بَاطلةٌ، وَشَهِدُوا هذهِ الشهادَةَ المؤكَّدَةَ جَعلُوها جُنَّةً يَسْتَتِرُون بِها وَيُخْفون أَمْرَهُم، ولكنَّ اللهَ فَضَحَهُم، وللهِ الحمدُ.

ثمَّ بَيَّنَ اللهُ أنَّ هـؤلاءِ المنافِقِينَ ذَوُو هَيئةٍ حَسنةٍ جَميلةٍ، وذَوُو بَلاغةٍ عَظيمـةٍ، فقالَ تعـالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾ مَا شَاءَ اللهُ، هذَا العـالِمُ الكبيرُ، هذَا الذِي لَا يُمَاثِلُه أَحَدٌ، هَيْئتهُ عَظيمةٌ ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ تَسْمَع لِبَلاغَتِه وَفَصَاحته فَتَظُنه حقًّا وَهُو بَاطلٌ كالسَّرابِ ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩]؛ وَلهذَا قالَ: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾ وَصْفٌ مُنطبقٌ تَمامًا عليْهـم، الخَشَبُ جَمادٌ لَا خيرَ فِيـهِ، وَهِي خُشُبٌ لَمْ تَعْتَـمِد عَلى نَفْسِها، ولكنَّها مُسْنَدَةٌ إذَا رَأَيت هذهِ الخَشَبَةَ الكبيرَةَ العَـظيمةَ تَسْتَعْظِمُهَا، ولكنَّهَا مُسْنَـدَةٌ عَلى جِدَارٍ إِذَا سَقطَ الجدارُ سَقطَتْ فَلا خَيرَ فِيهِمْ.

واسْمَـعْ إِلى بُهْتانهم وَجُرْأَتِهِم وَخُبْثِهـم: ﴿يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ يَعني يَقُـول بَعْضُهم لِبَعض: لَا تُعْـطُوا المسْلِمين شَيْئًا

لَا صَدَقَةً وَلَا هَدِيَّةً، ولا شيئًا حتَّى يَنْفضُّوا.

﴿يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ نقولُ: (حتى) هُنا للتَّعْليلِ، ولَيْست لِلْغَايَة، يَعني لَا تُنْفِقُوا عليْهم لِأجْلِ أَنْ يَنْفَضُّوا، ويَدَعُوا النبيَّ ﷺ.

فما أَجْهَلَ هَؤُلاءِ المنافقينَ، أَيظُنون أنَّ صحابةَ النبيِّ ﷺ يتْرُكونه مِن أَجْل لُقْمةِ العَيشِ؟ لَا واللهِ؛ ولهذَا لما قالَ مَنْدوب قُرَيش فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ لِلنبيِّ ﷺ: إِنِّي لَا أَرَى إِلَّا أَوْبَاشًا -يَعْني أُنَاسًا مُجْتَمِعينَ- يُوشكُ أَنْ يَدَعُوكَ. قالَ لهُ أَبو بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: امْصُصْ بَظْرَ اللَّاتِ[1]، فَهَذه كَلِمات ثلاثةٌ، فَاللَّاتُ أُنثى وهِي صَنَمٌ، هوَ اللَّحمةُ الزائدةُ فِي فَرْجِ الأُنْثَى.

هذَا الكلامُ القويُّ مِنْ أَبي بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: اذهبْ أنتَ عِندَ اللَّاتِ وامْصُصْ بَظْرَها، ولنْ يَأتِيَك مِن بَظْرِها إِلَّا البَوْلُ، أَنحنُ نَدعَ النبيَّ ﷺ؟

أَيضًا هؤلاءِ المنافِقونَ يَقُولونَ: ﴿يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ عنهُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فلَيستِ الخزائنُ عِنْدكم أَيُّها المنافقونَ، بل الخزائنُ عندَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قالَ تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ هُنا الجُملةُ مُؤَكَّدة بِالقَسَمِ واللامِ والنُّون ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ﴾ أيْ: وَالله لئنْ رَجَعْنا إِلى المدينَةِ لَيُخْرجنَّ الأعزُّ مِنها الأذلَّ يُشِيرونَ بِالأعزِّ إِلى أَنْفسهم،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

وبالأذلِّ إِلَى النبيِّ ﷺ وأَصْحابه، فَجَاءَ الجوابُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولمْ يَقـلِ اللهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: واللهُ أَعزُّ، والرسُولُ أَعزُّ، والمؤمنونَ أعزُّ، فلو قال كذلك لَأَثْبتَ لِلمُنافِقينَ عِزَّةً، ولكنَّه قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ أَمَّا المنافِقُونَ فلَيْس لَهم عِزةٌ إِطلاقًا؛ لأنَّ المنافقَ أذلُّ مَن يَكون، والدليلُ على ذُلِّهِ أَنَّه أَخفَى كُفرَهُ خَوْفًا منَ السَّيفِ، فهُو ذَليلٌ مَعْنَوِيًّا ونَفْسِيًّا؛ ولهَذَا لَم يُثْبتِ اللهُ لهُ عِزَّةً حينَ رَدَّ علَيْهم بِقَـولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهذِهِ السُّورةُ عَظيمةٌ يَنبَغي أَنْ تُذكَّرَ الأُمةُ بِها كُلَّ أُسبوعٍ فِي أَكْبَرِ اجتماعٍ حتَّى يَحْذَرُوا مِنَ النفاقِ وَالمنافقينَ أَيضًا، وأَلَّا يَرْكَنُوا إِلَيْهِمْ وَأَلَّا يَأْمَنُوهم، فَمِن صِفاتِ المنافقِ أَنَّهُ إذَا اؤْتُمِن خَانَ وَإذَا عَاهَدَ غَدَرَ[1]، فاحْذَرِ المنافقَ.

ولكنْ لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَتَّهِمَ أحدًا بِالنِّفاق دُون أنْ يَتبيَّنَ لنا مِنَ القَرائِنِ القَوِيَّةِ، أَو أَن نَسمعَ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِ، لَا يَجُـوز أَبدًا، فالأصلُ فِي المُسلِمِ السلامَةُ، وأَنَّ مَا فِي قَلْبِـه هُو مَا عَلَى لِسَانِهِ، وَلَا يَحِـلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَّهِمَهُ، ولَا يَحِـلُّ أَنْ نَتَّهِمَ أَحدًا بالنفاقِ أَو بالمُرَاءاةِ، فإِنِ اتَّهَمْنَا كُلَّ أَحَدٍ بِالنفاقِ أَوْ بِالمُراءَاةِ صِرْنا مِنَ المنافِقينَ، فإِنَّ المنافقينَ هُمُ الذينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المؤمنينَ فِي الصَّدَقاتِ، والذينَ لَا يَجِدُون إِلَّا جُهْدَهُم.

المنافقُ إِذَا جَاء أَحَدٌ بِصَدقة كَبِيرة قالَ: هَذَا مُراءٍ، وإِذَا جاءَ أحدٌ بِنَفقةٍ قليلةٍ قالَ: إِنَّ اللهَ غنيٌّ عنْ صَدقتهِ.

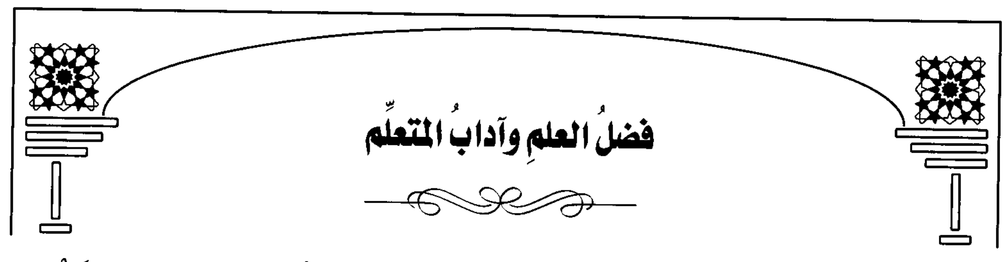
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨).

فالخُبثاءُ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ وَيَلْمِزُونَ الذينَ لَا يَجِدونَ إِلَّا جُهْدَهُم، فَما بَقِيَ شيءٌ، إذَا كَان مَن أَكْثرَ الصَّدَقَةَ قَالُوا: مُرَاءٍ. ومَن لَيْس عندَهُ إِلَّا القليلُ قَالوا: إِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَتِهِ؛ وذلِكَ لأنَّهم يُرِيدون أَنْ يَقْدَحُوا فِي المؤمنينَ بِأيِّ وَسِيلَةٍ، نسألُ اللهَ أَلَّا يُكَثِّرَهُم فِي البلادِ، وأَنْ يَكْفِينا شَرَّهُم.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.





فضلُ العلمِ وآدابُ المتعلِّم

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فنَتناوَلُ الآدابَ الَّتي يَنبغِي أو يجبُ أن يتأدَّبَ بها طالبُ العلمِ، بعد أن أذكرَ فضلَ العلمِ، والعلمُ الشرعيُّ لا يَعدِلُه شيءٌ في الفَضيلةِ، كما قالَ الإمامُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ. قِيلَ: فَأَيُّ شَيْءٍ تَصْحِيحُ النِّيَّةِ؟ قَالَ: يَنْوِي بِتَوَاضُعٍ، وَيَنْفِي عَنْهُ الْجَهْلَ»[(١)].

فالعلمُ أفضلُ ما يُتطوَّع به من العباداتِ، يعني أفضل من التطوعِ برواتبِ الفَريضةِ، وأفضل من التهجُّدِ، وأفضلُ من الوترِ، وأفضلُ من جميعِ نوافلِ العباداتِ، بل جَعَلَه اللهُ تعَالَى مُعادِلًا للجهادِ في سَبيلِ اللهِ، فقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، نَفَر: يعني خرجَ للجهادِ في سبيلِ اللهِ، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾: يعني فهلَّا نَفَرَ من كلِّ فِرْقةٍ منهم طَائفةٌ، أي: وقعدَت طائفةٌ ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]. ليتفقهوا: هل الفاعلُ النافرةُ أم القاعدةُ؟

---

(١) الفُروع لابن مُفْلح (٢/ ٣٣٩)، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي (١/ ٢٣٦).

الجوابُ: القاعدةُ، يَقْعُدون عندَ النبيِّ ﷺ يَتفَقَّهـونَ في دِينِهم، ويُنذِرونَ قومَهم إذا رَجَعَوا إليهم.

فجعَـلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الجلوسَ للفـقهِ في الدينِ بمنزلةِ الخروجِ للجـهادِ في سبيلِ اللهِ في قتالِ الأعداءِ.

فإنْ قال قائلٌ: أَيُّهما أفضلُ العلمُ أو الجهادُ؟

فالجوابُ: العـلمُ أفضلُ من حيثُ هو، بقَطْـعِ النظَرِ عن أسبـابٍ أو عواملَ تُرجِّح الجهادَ، فهذا شيءٌ آخرُ، فالعلمُ أفضلُ؛ لأن العلمَ يحتاجُ إليه المُسلِمونَ في كلِّ شيءٍ، فكيف تَتوَضَّأُ إلَّا بالعلمِ، وكيف تُصَلِّي إلَّا بالعلمِ، وكيف تصوم إلَّا بالعلمِ، وكيف تَحُجُّ إلَّا بالعلمِ، وكيف تُزكِّي إلَّا بالعلمِ، وكيف تَنامُ إلَّا بالعلمِ، وكيف تأكل إلَّا بالعلمِ، وكيف تشربُ إلَّا بالعلمِ.

فالعلمُ يدخُلُ في جميعِ الحياةِ، والجهادُ خاصٌّ بشيءٍ مُعيَّن من الدينِ، وهو صدُّ الأعداءِ وقتالُهم حتَّى يكونَ الدينُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

والجهادُ محتاجٌ إلى العلمِ، يعني لا بُدَّ أن تعلمَ كيف تجاهدُ، وكيف تَقسِم الغنيمةَ، وكيف تُحجِم عن القِتال، وكيف تُقدِم عليه، فالعلمُ الشرعيُّ إذن أفضلُ من الجهادِ في سبيلِ اللهِ، أما ما الأفضلُ للشخصِ المعيَّن أن يجاهد أو يتعلَّم؟

فنقول: رجلٌ قويُّ الجسمِ شجاعٌ مِقدام، لا يقـوم له إنسانٌ، وهو في العلمِ والفَهم والحفـظِ ضعيفٌ، فالأفضلُ في حَقِّـه الجهادُ. ورجلٌ آخرُ ضعيفُ البـدنِ، جَبَان، ليسَ عندَه قُوَّةٌ، لكنه قويٌّ في الحفظِ والفَهمِ، وتفريع المسائلِ على دَلائلِها، فالأفضلُ له العلمُ.

إذن العلمُ من حيثُ هو علمٌ أفضلُ من الجهادِ في سبيلِ اللهِ، أما إذا أردنا أن نُطبِّق هـذا على شخصٍ معيَّن فإنه يَختلف، فمِنَ النَّاسِ مَن نقـول له: الأفضلُ أن تجاهدَ، ومن النَّاس مَن نقولُ له: الأفضلُ أن تتعلمَ، حسبَ حالهم.

لكن يجبُ علينا في طَلَبِ العِلْمِ أمورٌ، وأعني بالوجوب هنا ما يَشمَل الواجبَ والمستحَبَّ:

أولًا: أن ينويَ الإنسانُ امتثالَ أمرِ اللهِ تَعَالَى في طلبِ العلمِ.

وهل أَمَرَ اللهُ بِطَلَبِ العلمِ؟

نقول: نَعَـم، أمَرَ بطلبِ العِلْمِ، فما أكثرَ ما نَسمَع في القُرآنِ: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد:٢٠]، وهذا أمرٌ بالعلـمِ، ورغَّب في العلـمِ فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، ونفيُ الاستواءِ لأن بينَهما من الفـضلِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ. وقـال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١].

وهذا شيءٌ يَشهَدُ له الواقِعُ، فكم من إنسانٍ ليسَ له حَسَبٌ، وليس له نَسَبٌ، وليس عنده مالٌ، وليس ذا قبيلةٍ مرموقةٍ، يَفضُل كثيرًا من عِباد اللهِ بسببِ علمِه.

ولهذا قِيلَ:

العِلـمُ يَرفَـعُ بيتًـا لا عِـمَادَ لَـهُ ... والجهلُ يَهدِمُ بيتَ العِزِّ والشَّـرَفِ[1]

---

(١) البيت في الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢/ ٣٥) غير معزو.

وقال الشَّاعِرُ الآخَرُ[١]:

.... فلـيس سَـواءً عـالمٌ وجَهُـولُ

وقال الثَّالثُ[٢]:

تَعَلَّـمْ فلـيسَ المـرء يُولَـدُ عَالمًـا وليسَ أخو علمٍ كمَن هو جَاهِلُ

فالعلـم أمرَ اللهُ به ورغَّب فيه، وحثَّ عليه. فلْتلاحِظْ يا طالبَ العلـمِ أنك تَطْلُبُ العلمَ امتثالًا لأمر اللهِ، ورغبةً في ثوابِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: أن تنويَ بالعلمِ حِفظَ الشريعةِ؛ لأنَّ شريعةَ النبيِّ ﷺ تُحفَظُ بشيئينِ؛ إما بالكتابةِ، وإما بالصدورِ، فتنوي بذلك حفظَ شريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولا شَكَّ أن حِفْظَ شريعةِ اللهِ من أوجب الواجباتِ، فتكون بذلك قائمًا بواجبٍ على الأمةِ جميعًا، وهو حفظُ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: أن تنويَ بتعلُّم العلمِ حمايةَ الشريعةِ عن المُحرِّفِين والمُبدِّلين، والغالِينَ والجافِينَ، فإن الشريعةَ لها أعداءٌ يحرِّفون الكلِمَ عن مواضعِه، ويُضِلُّونَ عبادَ اللهِ، وبالعلمِ يحصُلُ الدفاعُ، والحمايةُ للشريعةِ الإسلاميةِ.

وإني أضرِبُ مثلًا: لو أن رجلًا مُبْتَدِعًا حضرَ إلى شبابٍ في مكتبةٍ يُراجعونَ، والمكتبةُ مملوءةٌ من كتبِ العقيدةِ الصحيحةِ، ومن كتبِ التفسيرِ، ومن كتب الفقهِ، وغيرها من الكتب النافعةِ، فجعَلَ هذا الرجلُ المفسِدُ المُبتدِعُ المحرِّفُ يتكلَّم من

---

(١) عَجُز بيت للسَّمَوْءَل، وصَدْرُه (سَلِي إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمْ). البيان والتبيين (٣/ ١٨٦).
(٢) العِقْد الفَريد (٢/ ٨٠).

أجْلِ أن يُثبِت بِدْعتَه، ويتكلم إلى شبابٍ، والشباب لم يستوِ بعدُ، ولم يُميِّز بين الحقِّ والباطلِ، والصالحِ والفاسِدِ، وجعل يُقرِّرُ عقيدتَه الفاسدةَ، فهل يُمْكِن للكتبِ الَّتي في الرفوفِ أن تَثُور في وجهِه، وتبيِّن بِدعتَه؟

الجواب: لا، لكن لو كان هناك عالمٌ شرعيٌّ يعرِف الحقَّ ويقولُ به، ويجادلُ عنه؛ لَقامَ في وجهِ هذا المحرِّف المُبتدِعِ. ولهذا لا تَنتشِرُ البِدَعُ إلَّا في غَيبةِ أهلِ السُّنَّةِ، وغفلة علمائِهم، وإلا لا يمكِن للبدعةِ أن تُقاوِمَ السُّنَّة أبدًا؛ لأن البدعةَ باطِلٌ، والسُّنَّةَ حقٌّ، وقد قال الحقُّ ربُّ العالمينَ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

تَصَوَّر هذه الصورةَ ﴿نَقْذِفُ﴾ أي نَرْمِي بقُوة وشدَّة ﴿بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يُصِيبُه في أُمِّ دِماغِه إصابةً مميتةً، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، تصوَّر رجلًا قويًّا شُجاعًا أخذَ بحجرٍ كبيرٍ وضَرَبَ به رأسَ إنسانٍ فانفجرَ دماغُه فإنه يموت على الفور، فهكذا الحقُّ مع الباطِلِ.

ولكن الحقَّ لا بُدَّ له من أهلٍ، فالسيوفُ لا تَقطَع الرِّقاب إلَّا إذا تحرَّك أصحابُها، فلا يُمْكِنُ أن تَشِيع البدعُ في بلادٍ إلَّا لغفلةِ العلماءِ وجهلِ العامَّة؛ وإلا لا يُمكِن للبدعِ أن يقومَ لها قائمةٌ ما دام الحقُّ موجودًا قائمًا به أهلُه.

رابعًا: أن يَنوِيَ رفعَ الجهلِ عن نفسِه، فيَنْوِيَ بطلبِ العلمِ رفعَ الجهلِ عن نفسِهِ؛ لأن الأصلَ في الإنسانِ الجهلُ، والدَّلِيلُ قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل:٧٨].

هذا دليلٌ من الكتابِ، وهناك دليلٌ من الواقعِ: فأنتم إذا جلستم إلى عالمٍ

يُدرِّس المسائل الَّتي يدرِّسها فإنكم لم تكونوا تعلمونها من قبلُ، إذن ازددتم علمًا، وكلَّما نشطتم في طلبِ العلمِ وتلقِّيه منَ العلماءِ أو من الكتبِ ازددتمْ عِلمًا.

فتنوي بطلبِ العلمِ رفعَ الجهلِ عن نفسِكَ، ولا شَكَّ أن رفعَ الجهلِ عن النفسِ إحسانٌ إليها أَيُّما إحسانٍ، واللهُ تَعَالَى أمَرَنا بالإحسانِ عُمومًا، ولاسيَّما لأنفسِنا.

خامسًا -وهو من الآداب الواجبةِ-: أن يعملَ طالبُ العلمِ بعلمِه، وهذا هو المُهِمُّ، فالتطبيقُ العَمَليُّ للمَعلومِ الذِّهنيِّ أن تعملَ بالعلمِ، فأيُّ فائدةٍ لعلمٍ لا يَنتفِع به الإنسانُ ولا يَعمَل به؟! لا فائدة، بل إن هناك مَضَرَّةً؛ لأن العالمَ الَّذِي لا يَعمَل بعلمِه -أعاذني اللهُ وإياكم من ذلك- أشدُّ إثمًا وقُبحًا من الجاهِلِ، وقد قيل[1]:

وَعَالِمٍ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ ... مُعَذَّبٌ مِن قَبْلِ عُبَّادِ الْوَثَنْ

يعني العالم الَّذِي لا يَعمَل بعلمِه مُعذَّب بالنارِ قبل أهلِ الشركِ؛ لأنَّه حَمَلَ سِلاحًا وهو العلمُ وصوَّبه إلى نفسِه، فهو الآنَ قامتْ عليه الحُجَّةُ بعلمِه، فإذا لم يَعْمَلْ كان عِلمُه عليه وَبَالًا، نسألُ اللهَ العافيةَ.

إذن لا بُدَّ من العملِ بالعلمِ، والعملُ بالعلمِ يَظْهَر أثرُهُ في العبادةِ، بأن يكون طالبُ العلمِ حَريصًا على العبادةِ بجميعِ أنواعها؛ من عبادةٍ بَدَنِيَّة أو ماليَّة أو مُرَكَّبة منهما، من عبادة تتعلَّق بالآدمِيِّينَ، ومن عبادةٍ خاصَّةٍ بالخالِقِ، المهمُّ لا بُدَّ أن يظهرَ أثرُ العلمِ عليه في العبادةِ، فإذا رأينا طالبَ علمٍ قرأَ أنَّ صلاةَ الجماعةِ واجبةٌ، ورأيناه يَتهاونُ ويؤذِّنُ المؤذِّنُ وهو في بيتِه ما يخرج لصلاةِ الجماعةِ، فهذا لم يَتخَلَّقْ بأخلاقِ العالمِ، ولم يَنتفِعْ بعلمِه، ولا يكون مُبَرِّرًا له أن يقولَ: أنا جالِس أُراجِع

(١) من نظم الزبد لابن رسلان.

مسألةً مهمةً، نقول: لكنْ صلاةُ الجماعةِ أهمُّ، وصلاةُ الجماعةِ تَفُوت، والمسألةُ المهمَّةُ على زَعمِكَ لا تَفُوتُ، فإذا صليتَ فارجِعْ، لكن الشيطان يُمِلي له ويُلَبِّسُ عليه، ويقول: أنت في خيرٍ، أنت تَسعَى في طلبِ العلمِ. فلا بُدَّ من أن يظهرَ أثرُ العلمِ على العالمِ بالعبادةِ.

سادسًا: ومن آدابِ طالبِ العلمِ أنْ يَظْهرَ أثرُ عِلمِه في سُلوكِه ومعاملتِهِ للخَلْقِ، وذلك بأن يكون حريصًا على نفعِ إخوانِه المسلمينَ بالعلمِ والمالِ والجاهِ بقَدْرِ استطاعتِه، حتَّى يظهرَ أثرُ العلمِ عليه في سُلوكِه ومنهجِه، ومن أهمِّ شيءٍ في المنهجِ أن يَكُونَ عِلمُه مُمسِكًا له عمَّا يُثير الأُمَّة، ويُوجِب البَلْبَلَةَ باسمِ الغَيرة والدِّين وما أشبهَ ذلك، وأنا لا أقولُ: اجعلوا غَيرتَكم تموتُ، ولكن أقول: أَحْيوا الغَيْرةَ، ولكنِ اجْعَلُوها على حَسَب الشريعةِ.

ومَن أقوى النَّاس غَيرةً بعدَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ لا شَكَّ أنَّهم الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أشدُّ النَّاسِ غَيرةً على دِينِ اللهِ، ثمَّ مِن بعدِهم أئمَّةُ المسلمينَ، فراجِعُوا سيرةَ الصَّحَابَةِ فستَجِدونها سيرةً مُتَّزِنَةً ليستْ مُنْخَذِلَة أمامَ الواقِعِ، وليستْ ثائرةً أمام الواقِع، بل إنَّها مُعتدِلةٌ مستقيمةٌ.

ولذلك لَمَّا طَغَتِ الغَيرةُ على النَّهج السليمِ حَدَثَت الفِتن والقتال بين المُسلمينَ وسفك الدِّماء، وصار بعضُ المسلمين على بعضٍ أشدَّ منهم على اليهودِ والنَّصَارَى.

فمِن آدابِ طالبِ العلمِ أن يكون مُتَّزِنًا في مَنهجِه؛ لا ثائرًا ولا داثرًا، بل يكون مُعْتَدِلًا، يُقْدِمُ في مَوضِع الإقدام، ويُحْجِم في موقعِ الإحجامِ، ويُوازِن بين المصالحِ والمفاسدِ، وينظر بالعقلِ وبالحِسِّ ماذا حصل منْ الِاندفاع والغُلُوِّ في جميع البلادِ.

سابعًا: ومن آدابِ طالب العلـم أن يكون مُتَخَـلِّقًا بالأخلاقِ الفاضلةِ من السماحةِ واللِّين والوَقار، واحترام شعائرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لاسيَّما في المسجدِ الحرامِ، وقد بَلَغَنِي أن بعضَ النَّاسِ في المسجدِ الحرامِ يَتَحَدَّث بعضُهم إلى بعضٍ وكأنهم يتحدثون في مجلِسٍ من مجالسِ البيوتِ وما فيها من الضحِك والكلامِ واللَّغْو، وربما تكلموا بالكلامِ الباطلِ المحرَّم، وليس هذا لائقًا لا بالمكانِ ولا بالزمانِ، ولا بالإنسانِ طالبِ العلمِ، فطالبُ العلمِ يجب أن يكون مُحْتَرَمًا وَقُورًا.

وهذه نُقْطة يَجِبُ أن تَفْهَموها، وهي الوَقَارُ والسَّكينةُ؛ لأَنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أشدَّ وَقارًا كان أعظمَ احترامًا في قلوبِ النَّاسِ، ولستُ أقولُ: كونوا على كِبرياء من الأمرِ، فالتكبُّر مَذمومٌ على كلِّ حالٍ، لكنِ احترِموا أَنْفُسَكُمْ يَحْتَرِمْكُمُ النَّاسُ.

ثامنًا: ومن آدابِ طالبِ العلمِ المهمَّة جِدًّا: الدعـوةُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى لنبيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

فادعُ يا طالبَ العلمِ إلى اللهِ، يُبارِكْ لك اللهُ في العلمِ، وتُحقِّق بذلك مِيراث مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وكما جاء في الحديث: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ**»(١)، والأنبياء من مِيراثِهم الدعوةُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فادعُ إلى اللهِ، ولكن بالعلمِ وبالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ، وهذه مراتبُ بِحَسَبِ حالِ المدعوِّ، فالإنسانُ الابتدائيُّ الَّذِي ليس في قلبِه

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

شيءٌ وهو عامِّيٌّ جاهِل تكفيهِ الدعوةُ؛ دعوة بحكمةٍ، فبَيِّنْ ما تدعو إليه بحكمةٍ أي بوضعِ الشيءِ مَوضِعَه حتَّى يطمئنَّ مِمَّا تقولُ، هذه واحدةٌ.

وقد تدعو شخصًا عندَه بعضُ المخالفاتِ، لكن ليسَ عندَه مُجادلَة؛ لأنَّه عامِّيٌّ ما يستطيع أن يجادلَ، فهذا ادعُهُ بالموعظةِ، واذكرْ له منَ الترغيبِ والترهيبِ ما يَلِين به قلبُه، فمثلًا إذا قلتَ: يا فلانُ، صلِّ مع الجماعةِ. فقال: كلُّه واحدٌ، فأنا أُصلِّي في بيتي وآتي بجَميعِ أركانِ الصلاةِ وواجباتِها وشُروطِها كما في المسجد. فهذا فيه نوعٌ من العنادِ ويحتاجُ إلى موعظةٍ حسنةٍ تَصِلُ إلى قلبِه، فإن لم تَنْفَعْه الموعظةُ، وكان عندَه شيءٌ منَ الجدلِ، فإننا نُجادِلُه بالتي هي أحسنُ.

وانظُرْ تعبيرَ القُرآنِ الكريمِ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]. في الموعظة قال: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، وفي الجدال قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ لأنك في الجدالِ أمامَ خَصمٍ يُورِدُ عليك الشُّبُهاتِ، فلا بُدَّ أن تُجادِلَ بما هو أحسنُ من مجادلتِه؛ أحسنُ بالأسلوبِ، وأحسنُ بالإقناعِ، وأحسنُ بإفحامِ الخصمِ حتَّى لا يَتَمَكَّنَ منَ التحرُّكِ.

وانظرْ إلى مُحاجَّةٍ جَرَتْ بين إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ورَجُلٍ طاغيةٍ حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه، فأرادَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُبيِّن له حقيقةَ ما يَجري بينَه وبينَ الرجلِ بما يَملِكه اللهُ ولا يَملِكه غيرُه، فقال إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لهذا الطاغيةِ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فهذا الرَّجُلُ قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فهذه الكلمةُ تَحتمِلُ، ويُمْكِنُ أن يقعَ فيها الجِدالُ والمخاصمةُ وأَخْذٌ وردٌّ، فقالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فهذه لا يمكن

فيها الجَـدَلُ، فإذا أتيتَ بها منَ المغربِ صِرتَ رَبًّا، والنتيجةُ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

إذن مراتبُ الدعوةِ إلى اللهِ ثلاثُ مراتبَ: الحِكْمةُ، والمَوعظةُ الحَسَنةُ، والجِدالُ بالتي هي أحسنُ.

وهناك مرتبةٌ رابعـةٌ ذكَرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]. الَّذِينَ ظلـموا ما يحتاجون إلى مجادلةٍ بالتي هي أحسنُ، بل يُجادَلون بضربِ الرقابِ؛ لأن الظالمَ المعتديَ الَّذِي لا يُرِيدُ الحقَّ لا فائدةَ منه.

إذن من آدابِ طالبِ العلمِ الواجبـةِ أنْ يكونَ داعيًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكن على حَسَبِ المراتبِ الَّتي جاء بها القُرآنُ.

تاسعًا: ومن آدابِ طـالبِ العلمِ المُهِمَّة جِـدًّا أَلَّا يُفتِيَ نفسَه بشيءٍ ويُفْـتِيَ عِبادَ اللهِ بشيءٍ آخرَ؛ لأنَّ ابنَ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابِهِ (إِعْلام المُوقِّعين) ذَكَرَ هذه الآفةَ[1]، وهي أن بعـضَ النَّاسِ يُفتِي نفسَه بشيءٍ ويُفْتِي غيرَه بشيءٍ آخرَ في مسألةٍ واحـدةٍ، فيفتي نفسَه بجـوازِ هذا العملِ، وإذا استُفْتِيَ عنـه أَفْتَى بتحريمِه، وهذا غَلَطٌ، نعم لو أفتَى غيرَه بِحِلِّ شيءٍ ومنَعَ نفسَه منه تَوَرُّعًا فهـذا لا بأسَ به، وانتبِهْ إلى هذه النقطةِ، أما أن يُفتِيَ نفسَه بِحِلِّ شيءٍ وغيرَه بتحريمِهِ فهذا غلطٌ، لكن أن يُفتِيَ غيرَه بِحِلِّ شيءٍ ويَتورَّعُ عنه فهذا شيءٌ آخرُ.

ولَمَّا حَـدَّثَ البَرَاءُ بنُ عازِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أَرْبَعٌ لَا تَجُـوزُ**

(١) إعلام المُوَقِّعِين عن ربِّ العالمين (٤/ ١٦٢)، أقسام المفتين.

فِي الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ بَيِّنٌ عَوَرُهَا، وَالمَرِيضَةُ بَيِّنٌ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ بَيِّنٌ ظَلْعُهَا[1]، وَالْكَسِيرُ الَّتِي لَا تُنْقِي[2]». فَقَالَ له رَجُلٌ: فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ فِي السِّنِّ نَقْصٌ. قَالَ له: «مَا كَرِهْتَ فَدَعْهُ وَلَا تُحَرِّمْهُ عَلَى أَحَدٍ»[3]. فانظر إلى هـذا الفِقْهِ العَجيبِ: «مَا كَرِهْتَ فَدَعْهُ وَلَا تُحَرِّمْهُ عَلَى أَحَدٍ». يعني ليسَ للإنسانِ أن يُحَرِّمَ على عبادِ اللهِ ما أحلَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك أنَّ بعـضَ النَّاسِ في أذانِ الفجرِ في رَمَضان يقـول: هناك أذانانِ؛ أذانٌ للإمساكِ، وأذانٌ لدخولِ وقتِ الصَّلاةِ، سمِعنا أنَّه يوجد في بعضِ البلادِ مَن يقول: هذا وقتُ الإمساكِ، وهذا وقتُ الصَّلاةِ، ووقتُ الإمساكِ قبلَ وقتِ الصَّلاةِ بخمسِ دقائقَ أو أكثرَ. وهذا باطلٌ، وليسَ حقًّا، فوقتُ الإمساكِ هو الوقتُ الَّذِي تَحِلُّ فيه الصَّلاةُ سواءٌ بسواءٍ، وهـو أن﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

فإذا تبيَّن الخيـطُ الأبيضُ من الخيط الأسـودِ من الفجر فحينَئِذٍ دخَـلَ وقتُ الصَّلاةِ، وحَرُم على الصائمِ الأكلُ والشربُ، أما أن نمنعَ عبادَ اللهِ ممَّا أحلَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قبلَ أوانِ وقتِه زَعْمًا أنَّ هذا من بابِ الوَرَعِ، فهو واللهِ من بابِ الوقوعِ في التلَفِ، فلا تَمْنَعْ عبادَ اللهِ ما أحلَّ اللهُ لهـم، بل إنَّ الإنسانَ لو أكلَ قبلَ أن يتبينَ له الفجرُ

---

(١) الظلع: العَرَج.

(٢) الكسير التي لا تنقي: أي التي لا مُخَّ لها لضعفها وهُزالها.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الضحايا، باب ما يُكره من الضحايا، رقم (٢٨٠٢)، والترمذيُّ: أبواب الأضاحيِّ، باب ما لا يجوز من الأضاحيِّ، رقم (١٤٩٧)، والنسائيُّ: كتاب الضحايا، باب العجفاء، رقم (٤٣٧١)، وابنُ ماجه: كتاب الأضاحيِّ، باب ما يُكره أن يضحى به، رقم (٣١٤٤).

ثمَّ تبَيَّنَ له أنَّ أكلَه كان بعدَ طلوعِ الفجرِ فصيامُه صحيحٌ؛ لأن الأكلَ صَدَرَ منه عن جهلٍ، لكن لو صلَّى قبل الوقتِ ظانًّا أنَّه دخَلَ الوقتُ، ثمَّ تبيَّنَ أن الوقتَ لم يَدْخُلْ وجَبَ عليه إعادةُ الصَّلاةِ؛ لأنها قبلَ وقتِها، فصار الاحتياطُ للصلاةِ أَولَى من الاحتياطِ لمنعِ الصائمِ من الأكلِ والشربِ.

عاشرًا: أيضًا من آدابِ طالبِ العلمِ الواجبةِ أَلَّا يَتَسَرَّعَ في الإفتاءِ؛ لأن المفتيَ مُعَبِّر عن شَريعةِ اللهِ؛ عن اللهِ ورسولِه، فإذا أَفتَى على وجهٍ لا يجوزُ له فيه الفتوى كان كاذبًا على اللهِ ورسولِه، والعياذُ باللهِ، وما أسرعَ الَّذِينَ اتخذوا الإفتاءَ مِهنةً للرِّفعةِ، فصاروا يَتَصَدَّرُونَ للإفتاءِ بغير علمٍ، وهؤلاء من أَشَدِّ الناسِ ضَرَرًا بالأُمَّة، يَقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخِرِ رسالتِه (الفَتْوى الحَمَوِيَّة): «وقد قالَ الناسُ: أكثرُ ما يُفسِد الدُّنْيا: نِصفُ مُتكَلِّمٍ، ونِصْفُ مُتَفَقِّهٍ، ونِصْفُ مُتَطَبِّبٍ، ونِصْفُ نَحْوِيٍّ، هذا يُفْسِدُ الأديانَ، وهذا يُفْسِدُ البلدانَ، وهذا يُفسِدُ الأبدانَ، وهذا يُفسِدُ اللِّسانَ»[1].

نصفُ متكلِّم أي: قارِئ في علمِ الكلامِ، ونصفُ متفقِّه أي: قارئ في علمِ الفقه، فهَؤُلاءِ أفسدوا الدنيا، فنصف المتكلمِ أفسدَ الأديانَ؛ لأن أشدَّ مَن أضرَّ بالمسلمينَ في العقيدةِ هم أهلُ الكلامِ، وهم الَّذِينَ أفسدوا عَقائِدَ المسلمينَ.

وقالوا: نِصْفُ متكلِّم؛ لأنَّ مَن لم يَدخُلْ في الكلامِ ولم يَتعلَّم الكلامَ فهو في عافيةٍ منه، ومعلومُه مبنيٌّ على الفِطرة وليس فيه انحرافٌ، فهو سالمٌ من مَضَرَّةِ علمِ الكلامِ، ومَن بَرَعَ في علمِ الكلامِ ووصلَ غايتَه عَرَفَ أنَّه باطِل ورجعَ عنه وأعلنَ

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص ٥٥٤).

فسادَه، ورجع إلى الحقِّ، كما قال الرازيُّ: «ورأيتُ أَقْرَبَ الطُّرقِ طريقةَ القُرآنِ، أقرأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وأقرأُ في النفيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] -يعني أُثبت الاستواءَ بدونِ مماثلةٍ- ومَن جرَّب مِثلَ تَجرِبَتي عَرَفَ مثلَ مَعرِفتي»[١]. فهذا وجهُ كَوْنِ نصفِ المتكلِّم مُفْسِدًا للدينِ وللعقيدةِ.

ونصفُ المتفقِّه يُفسِد البلدان؛ لأنَّه يُفْتِي النَّاسَ بفقهٍ غَلَطٍ، فيعطي مالَ هذا لهذا، وأرضَ هذا لهذا، وسيارةَ هذا لهذا، بدون علمٍ، فيُفسِد البلدان.

ونصفُ الطبيبِ يُفْسِدُ الأبدانَ، فيأتيه الرجلُ يقول: عندي حرارةٌ، فيعطيه أقراصًا ويقول: هذه تُطفِئ الحرارةَ. وإذا بها تَزِيدُ في الحرارةِ، فأفْسَدَ البَدَنَ ولم يُصْلِحْه، وما أكثرَ ما يَتوهم بعض النَّاس في مسألة الطبِّ.

بقيَ نصفُ النَّحْوِيِّ، وما أكثرَ أنصافَ النحْويينَ عندَنا هنا في المجلِس، فنصفُ النحويِّ يتكلَّم ويظنُّ أنَّه على اللغةِ العربيةِ، وإذا هو يَنصِب المرفوعَ، ويجرُّ المنصوبَ، ويأتي بحركةٍ بين النصبِ والجرِّ أحيانًا، إشمامٍ أو إمالةٍ، وكثيرًا ما يقرأُ القارئُ على صوابٍ ثمَّ يردُّ ويَقرَأُ خطأً؛ لأن النحو عندَه يَقتضي الصورةَ الأخيرةَ الَّتي هي الخطأُ، فيَفْسُد اللسانُ العربيُّ.

فعلى كلِّ حالٍ نَعودُ إلى المهمِّ من هذا، وهو ألَّا يَتسرَّعَ الإنسانُ في الفَتْوَى، ولْيَتَّقِ اللهَ ربَّه في نفسِه وفي إخوانِه المسلمينَ، فلا يُفتِ إلَّا بعلمٍ، ولا يَتَسَرَّعْ خصوصًا في المسائل الَّتي تخالفُ رأيَ جمهورِ العلماءِ، فالمسألةُ الَّتي تخالف رأيَ جمهورِ العلماءِ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٦٠).

لا تتسرع فيها إلَّا بعدَ التروِّي والتأنِّي والنظَر في أدلَّة الفريقينِ؛ لأن الأكثرَ أقربُ إلى الصوابِ من الأقلِّ، والحقُّ ليسَ بالأكثريَّة، إنما الحقُّ بموافقةِ الكتابِ والسُّنَّة، لكنَّ الأكثرَ أقربُ إلى الصوابِ، فإذا كانتِ المسألةُ على خلافِ قولِ الجمهورِ فلا تَتسرَّعْ في الفتوى بها، حتَّى تتأمَّلَ وتتدبَّر وتنظرَ أَدِلَّةَ الفريقينِ وحُجَجَهُم، وحينئذٍ إذا تَبيَّنَ لك الحقُّ فلا بُدَّ من القولِ به.

كذلك ما كان عليه النَّاسُ، أي ما أقرَّه علماءُ البلدِ لا تَتَسرَّعْ في مخالفتِه؛ لأن أُمَّةً قامت على العملِ بهذا الرأيِ معَ وجودِ علمائِها ليسَ بالأمرِ الهيِّن أن يُنقَل إلى رأيٍ آخرَ بدون دليلٍ واضحٍ على أن القول الَّذِي هم عليه قولٌ مَرجوحٌ.

ولذلك تجد العامَّة إذا أَفتى إنسانٌ بخلاف ما يَعهدونه يقولون: أتى بدِينٍ جديدٍ. ولذلك إذا رأيتَ قَولًا صوابًا لا إشكالَ فيه مُخالفًا لما عليه علماءُ البَلَدِ فاجتمِعْ بالعلماءِ، وناقِشْهم وبيِّن لهم الصوابَ، واتَّفِقُوا على قولٍ، والحقُّ ضالَّةُ المؤمنِ، أينَما وَجدَه أخذهُ.

فهذه الآدابُ يَنْبَغِي لطالبِ العلمِ أن يُراعِيَها، وهناك آدابٌ أُخرى جانبيَّة، كاحترامِ المُعلِّمِ، والاجتهادِ في طلبِ العلمِ، وتَقْييدِ المسائلِ النادرةِ؛ لأنَّه يَمُرُّ بالإنسانِ مسائلُ نادرةٌ لا يَجِدُها في كتبِ العلماءِ، فإذا لم يُقَيِّدْها ضاعتْ، ويَتمنَّى أنْ يَذكُرَها فيما بعدُ ويَعجِز، فالمسائلُ النادرةُ اجْتهِدْ في تَقْييدِها، ولهذا قِيلَ:

الْعِلْمُ صَيْدٌ والكتابةُ قَيْدُه ... قَيِّدْ صُيُودَكَ بالحبالِ الواثِقَةْ

فمِنَ الحماقةِ أنْ تَصيدَ غزالةً ... وَتَفُكَّها بينَ الخلائقِ طالِقَةْ[1]

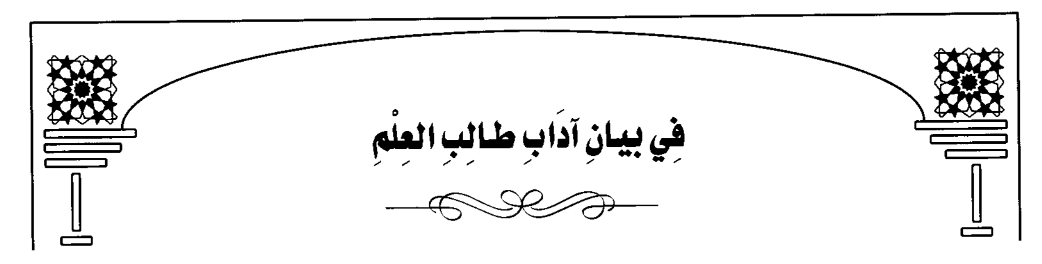
---

(١) ديوان الشافعي (ص:٤٧).

وهذا صَحِيحٌ، وكم من مسألةٍ نادرةٍ تطرأ على الإنسانِ وهو يمشي، أو وهو على فِراشِه، أو وهو خالٍ يُفكِّر، وهي واضحـةٌ جِدًّا، لكنها نادرةٌ لا تكادُ توجدُ، فيقول: هذه واضحةٌ ولا حاجةَ إلى التقييدِ، فإذا به يَنْساها، ويحتاجُ إلى تذكُّر، وربما تَضيعُ، فعليـك بتقييدِ العلمِ، فإنه مهمٌّ، خُصوصًا المسائلَ النـادرةَ الَّتي لا تَكادُ تُوجَد في الكتبِ.

والحَمْـدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّـدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





فِي بيانِ آدَابِ طالِبِ العِلْمِ

الحمدُ للهِ، نَحمُدُهُ ونستَعِينُهُ ونستَغْفِرُهُ ونتوبُ إليه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سيئاتِ أعْمالِنَا، مَن يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لَهُ، وأشهدُ أن لَا إلَه إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، بعثَهُ اللهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ، فبلَّغَ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأمانَةَ، ونصَحَ الأُمَّةَ، وجاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جهادِهِ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

أَيُّها النَّاسُ، إنَّ طَلَبَ العِلْمِ من أهمِّ المُهِمَّاتِ ولا سِيَّما في وقتِنا هذَا، فإنَّ الجهلَ قد عَمَّ وطَمَّ، ولستُ أُرِيدُ بالجَهْلِ عدمَ المعْرِفَةِ، فالمعرِفَةُ كثيرةٌ، ولكِنَّكم كَمَا قالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ: «كَثُرَ قُرَّاؤكُمْ وقَلَّ فُقَهَاؤكُمْ»(١)، حتى أصبحَ بعضُ الناسِ يتَّخِذُ مِنَ العِلْمِ متجرًا للجاهِ وصَرْفِ الأنظارِ إليهِ، فتَجِدُهُ يُفْتِي بغيرِ عِلْمٍ، ورُبما يختارُ مِنَ الفتَاوَى شواذَّ أقوالِ أهْلِ العِلْمِ؛ لأنه يريدُ أن يُطَبِّقَ المَثَلَ العامِّيَّ وهو قولهم: (خَالِفْ تُعرَفْ)، فإن المُخالِفَ لا بُدَّ أن يكونَ خِلافُه مَحِلًّا للذِّكْرِ، حتى في مسائلِ العِلْمِ التي لا يقومُ عليهَا دلِيلٌ، وهذا خطيرٌ جِدًّا.

والعِلْمَ الحَقِيقِيُّ هو المتَلَقَّى من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، والناسُ في عصْرِنَا

---

(١) أخْرَجه ابنُ أبي شَيْبة (٧/ ٤٥٢، رقم ٣٧١٥٦)، والبَيْهقِيُّ في شُعبِ الإيمانِ (٥/ ٣٦١، رقم ٦٩٥١).

مُحتاجونَ إليه غايَةَ الحاجَةِ، بل هم مُضْطَرُّونَ إليهِ، وقد كان الناسُ مِنْ قبْلُ عِندَما يَذْكُرونَ حُكْمَ مسألَةٍ يقولونَ: مَن الذِي قالَهُ مِنْ أهلِ العِلْمِ؟ وكلُّ عالمٍ يُنسَبُ العِلْمُ إلى كُتبِ مذْهَبِهِ فيُقالُ: قالَه العالمُ الفُلانِيُّ في الكتابِ الفُلانِيِّ، فيَحتَرِمُ الناسُ ذلك، أما الآنَ فأصبَحَ الناسُ على خِلافِ ذلِكَ، صاروا يقولونَ إذا ذُكِرَ حُكْمُ المسألَةِ: أينَ دَلِيلُكَ؟ هاتِ لنَا الدَّلِيلَ مِنْ كتابِ اللهِ ومِنْ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ ولا شكَّ أن هذِهِ بادِرَةُ خيرٍ، ولكنه لا بُدَّ من إحسانِ استِخْدامِه حتى لا تَتَفرَّقَ الأهواءُ ويتَفرَّقَ الناسُ شِيَعًا في دِينِ الله عَزَّوَجَلَّ.

آدابُ طالِبِ العِلْمِ التي يَنْبَغِي أن يَعْتَنِيَ بِهَا:

إخلاصُ النِّيَّةِ:

فإنَّ إِخْلاصَ النِّيَّةِ في طلَبِ العلمِ مِنْ أَوجبِ الواجِباتِ:

أَوَّلًا: أنْ يَنْوِيَ بطَلَبِ العِلْمِ وَجْهَ اللهِ، لا أن يَنَالَ به عرَضًا مِنَ الدُّنْيا، لا مَالًا ولا جَاهًا، ولا لِيُرَى مكانُهُ في العِلْمِ، ولا لأن يُمْدَحَ، ولا ليُبَاهِيَ العُلماءَ، ولا لِيُمارِيَ السُّفهاءَ، ولا لِيَصْرِفَ وُجوهَ الناسِ إليهِ، بل لا يريدُ بذلِكَ إلا وَجْهَ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ، ولهذا جاء في الحديثِ الوَعِيدُ على مَنْ طلَبَ العِلْمَ الذي يُبْتَغى به وجْهُ اللهِ لِينالَ به عرَضًا مِنَ الدُّنْيا، قال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ تعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **لَا يَتعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** يَعْنِي رِيحَهَا[1]. وهذا خَبَرٌ عظيمٌ جِدًّا.

---

(١) أخرَجه أحمدُ (٢/ ٣٣٨، رقم ٨٤٣٨)، وأبو دَاوُدَ: كتاب العلم، باب طَلَب العِلْم لغيرِ الله، رقم (٣٦٦٤)، وابنُ ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعِلْم، رقم (٢٥٢).

وأعراضُ الدُّنْيا ليسَتْ هِيَ المالَ فقَطْ، بل هِي المالُ والجاهُ والرئاسَةُ والزعامَةُ وما أشْبَهَ ذلِكَ، فطالِبُ العِلْمِ الذي لا يُبَالي بتَحْصِيلِ المالِ بينَما هوَ حريصٌ على أن يكونَ له جَاهٌ عندَ الناسِ، لا نقولُ: إنَّه مُخْلِصٌ في نِيَّتِهِ؛ لأنه طلَبَ الجاهَ، والجاهُ بالنِّسْبَةِ للعِلْمِ نيَّةٌ دَنِيئَةٌ رَدِيئَةٌ؛ لأن العِلْمَ الشرْعِيَّ أعلى من أن يُجْعَلَ وسيلةً إلى الجاهِ بينَ الناسِ، والعِلْمُ الشَّرْعِيُّ أعلى من أن يكونَ وسيلَةً لجَمْعِ حُطامِ الدُّنْيا.

ويَرِدُ علينا هُنا سُؤالٌ يحتاجُ أن يَعْرِفَ جوابَهُ الجامِعِيُّونَ، إذا قال: أنا أدرُسُ في الجامِعَةِ لأَتَخَرَّجَ وآخُذَ الشهادَةَ ثم أدْرُسَ الدراسَةَ العُلْيَا لأَحْصُلَ على الماجِسْتِيرِ ثم الدكتوراة، فهل نِيَّتِي هذه مُنافِيَةٌ للإخلاصِ؟

فنقول: إذا كان يُريدُ هذهِ الشَّهادَةَ لأجلِ أن يقومَ مَقَامًا ينْفَعُ بِهِ الناسَ فلا بأس؛ لأننا في عَصْرٍ لا يُقَوَّمُ الإنسانُ فيه إلا بالشَّهادَةِ العِلْمِيَّةِ، إلا ما شاءَ اللهُ، فمثلا لو أنَّ هناك شَخْصًا يقول: ما دُمْتُ لا أَحمِلُ الدكتوراة فلا قِيمَةَ لي حتى لَوْ كنتُ مثلَ ابنِ تَيمِيَّةَ، فأدرُسُ الدُّكتوراة لأجل أن أقومَ مَقَامًا أنفعُ بِهِ الناسَ. إذن تكون هذه الشهادَةُ وسيلَةً، فهذه نِيَّةٌ لا بأسَ بِهَا ولا تُبْطِلُ عمَلَه.

أما إذا قال: أنَا أريدُ أن أصِلَ إلى هذِهِ الشَّهادَةِ لأُوصَفَ بأنِّي دُكتور، فهذه نِيَّةٌ باطِلَةٌ.

وكذلك لو قالَ: أُرِيدُ أن أَحصُلَ في الوظِيفَةِ على المرتَبَةِ الخامِسَةِ أو الرابِعَةِ وما أشْبَهَ ذلك، فهذه أيضًا نِيَّةٌ باطِلَةٌ، فلكُلِّ امْرِئٍ ما نَوى.

ثانيًا: أن يَنْوِيَ بطلبِ العِلْمِ أن يرْفَعَ الجَهْلَ عن نفْسِهِ؛ فقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قالَ: «تَذَاكُرُ ليلةٍ أحبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيامِهَا، لِمَن صَحَّتْ نِيَّتُه. فقَالوا: يا أبَا عَبْدِ اللهِ،

مَا تَصْحِيحُ النِّيَّةِ؟ قَالَ: أَنْ يَنْوِيَ بِطَلَبِهِ رَفْعَ الْجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ عِبَادِ اللهِ»[١].

فيَجِبُ لمن أرادَ تَصْحِيحَ نِيَّتِهِ أن يَنْوِيَ بطلبِهِ أوَّلًا: حِفْظَ شَريعَةِ اللهِ؛ لأن الشريعَةَ كما تُحْفَظُ في الكُتُبِ تُحفَظُ كذلك في الصُّدورِ، وأن يَنْوِيَ أيضًا الدِّفاعَ عَنْ شَريعَةِ اللهِ؛ لأن الدِّفَاعَ عنِ الشَّريعَةِ لا يكونُ إلا بِرِجَالِهَا، ولهذا لو أنَّ رَجُلًا مُبتَدِعًا دخَلَ مَكتبَةً حافِلَةً بكتُبِ السَّلَفِ المكتوبَةِ على العقيدَةِ الصافِيَةِ السَّليمَةِ، وجَعَلَ هذا المُبتَدِعُ يُدرِّسُ في هذه المَكتبَةِ مقرَّرًا بِدعَتَهُ، فإن هذهِ الكُتُبَ لن تَقومَ مِن رُفُوفِهَا لتَرُدَّ عليه، لكن لو كانَ في المكتبَةِ رجلٌ من عُلماءِ السَّلَفِ أمكنَهُ أن يرُدَّ عليهِ.

إذن فِي طلَبِ العِلْمِ دِفاعٌ عن الشَّريعَةِ؛ لأنَّ الشريعَة لا تقومُ إلا بِرِجَالِهَا الذين يُدافِعُونَ عنْها.

فيَنْوِي بطلَبِ العِلْمِ رَفْعَ الجَهْلِ عن نَفْسِهِ؛ لأنَّ الإنسانَ في أصلِهِ جاهِلٌ؛ لِقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

فلو سُئِلنَا: هَلِ الأصلُ فِي الإنسانِ العِلْمُ أو الأصْلُ فيه الجَهْلُ؟

فالجوابُ: الأصلُ فيهِ الجَهْلُ؛ ولهذا نَجِدُ عُلومَ الإنسانِ تَتكَاثَرُ يومًا بعدَ يومٍ، فيَطَّلِعُ منَ العلومِ كلَّ يومٍ على ما لم يَطَّلع عليه في اليومِ السَّالِفِ.

ويُذكَرُ أن ابنَ حَزْمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو مِنْ أَئمَّةِ الظاهِرِيَّةِ دخَلَ يومًا المسجدَ في وقتٍ غَيْرِ مَنْهِيٍّ فيه عن الصلاةِ، فجلَسَ، فقالَ له رجُلٌ في المَسْجِدِ: قُمْ فصَلِّ ركْعَتينِ.

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٣٨٠- ٣٨١).

فقامَ فصلَّى ركعتَيْنِ، وهذا هو الصوابُ، ثم دَخَلَ مَرَّةً أُخْرَى بعدَ العَصْرِ فقَامَ يُصَلِّي رَكْعتَينِ، فقال له الرَّجُلُ نَفْسُه: اجْلِسْ، فليسَ هذَا وقتَ صلاةٍ. فقالَ ابنُ حَزْمٍ: «بالأَمْسِ لما جَلَسْتُ قلتَ: قُم فصَلِّ، واليومَ لما صَلَّيْتُ تقولُ: اجْلِسْ؟!». فطلبَ ابنُ حَزْمٍ العِلْمَ، فكانَتْ هذِهِ القضِيَّةُ سَبَبًا في طَلَبِهِ للعِلْمِ؛ لأنه عَرَفَ قدْرَ العِلْمِ[1].

مسألةٌ: بالنِّسْبَةِ لنَهْيِ الرَّجُلِ لا نوافقه عليه، فله أن يُصَلِّيَ بعدَ صلاةِ العَصْرِ، ونَرَى أن مَن دخَلَ بعدَ صَلاةِ العَصْرِ المسْجِدَ أَلَّا يَجلِسَ حتَّى يُصَلِّيَ ركْعتينِ؛ لعُمومِ قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**»[2].

تَحِيَّةُ المسجِدِ الحرامِ:

وإِنَّنِي بهذه المُناسَبَةِ أُنَبِّهُ على مسأَلَةٍ يَقَعُ السؤالُ عنْها كثيرًا، وهِيَ ما اشْتَهَرَ من قولِ بَعْضِ الناسِ أو بعضِ العُلماءِ: إنَّ المسجِدَ الحَرَامَ تحيَّتُهُ الطوافُ، فيَظُنُّ بعضُ الناسِ أَنَّك إذا دَخَلْتَ المسجدَ الحَرَامَ فإنه لا بُدَّ أن تَطُوفَ، كما أَنَّكَ لو دَخَلْتَ غيرَهُ فلا بُدَّ أن تُصَلِّيَ ركعتَينِ.

والجوابُ على ذَلِكَ: أن مَنْ دخَلَ المسجِدَ الحَرَامَ فإمَّا أنه يُرِيدُ الصَّلاةَ، وإمَّا أنه يُرِيدُ الطَّوافَ، فإن كانَ يُرِيدُ الطَّوافَ فلا حاجَةَ أن يُصَلِّيَ رَكْعتَيْنِ، فإن الطَّوافَ حينَئِذٍ يكونُ قَائمًا مقامَ التَّحِيَّةِ، وأما إذا دخَلَ إلى المسجِدِ الحرامِ لانتِظَارِ صَلاةٍ أو لِطَلَبِ عِلْمٍ فإنَّه في هذِهِ الحالِ لا يجلِسْ حتى يُصَلِّيَ ركْعتينِ؛ والدليلُ على ذلِكَ عُمومُ قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**».

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٩٩)، وتاريخ الإسلام (١٠/ ٧٤).

(٢) أخرجه البُخاريُّ: كتاب التَّهجُّد، باب ما جاء في التطوع مَثْنَى مَثْنَى، رقم (٤٣٣)، ومُسْلم: كتاب صَلاة المُسافِرين وقَصْرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين، رقم (٧١٤).

ومَعْلومٌ أنَّ أوَّلَ ما يدْخُلُ في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «المَسْجِد» المسجِدُ الحرامُ الَّذِي هُو أوَّلُ بيْتٍ وُضِعَ في الأرْضِ.

وأما الدَّلِيلُ على أن مَنْ دخَلَهُ يريدُ الطَّوافَ فإن تَحِيَّتَهُ الطَّوافُ فَهُو فِعلُ النَّبيِّ ﷺ، كما ذَكَرَهُ جابِرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في صِفَةِ حجِّ النَّبيِّ ﷺ، أنه دخَلَ المسجِدَ، ثم تقَدَّمَ إلى الرُّكْنِ فاسْتَلَمَهُ، وشَرَعَ في الطَّوافِ[1].

وبهذا نَعْرِفُ أن إطلاقَ قولِ النَّاسِ: (تحيَّةُ المسجِدِ الحرامِ الطَّوافُ) ليس بصوابٍ، وأن الصوابَ هو التَّفْصِيلُ، فمَن دخَلَهُ للطَّوافِ فتَحِيَّتُهُ الطوافُ، ومَن دخَلَهُ للصلاةِ فتَحِيَّتُهُ الصلاةُ.

أقولُ هذا مِنْ آدابِ طالِبِ العِلْمِ أن ينوِيَ بطَلَبِهِ للعِلْمِ رفْعَ الجَهلِ عن نفْسِهِ؛ لأن الأصلَ في بَنِي آدمَ الجَهْلُ، وبطَلَبِ العِلْمِ يزُولُ الجَهْلُ.

ثالثًا: أنْ يَنْوِيَ بطَلَبِ العِلْمِ رَفْعَ الجَهْلِ عَنِ النَّاسِ، وذلك بإرْشَادِهِمْ وتعْليمِهِمْ والتَّبْيِينِ لهم؛ لأنَّ طالِبَ العِلْمِ يَنبَغِي أن يقومَ بعِلْمِهِ بينَ الناسِ، وأن يُحدِّثَهُم وأن يُخْبِرَهُمْ، فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قد أخَذَ العَهْدَ على أهلِ العِلْمِ أن يُبَيِّنُوهُ للناسِ وألَّا يكتُمُوهُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]. وإنَّما أخذَ اللهُ العَهْدَ على أهْلِ الكِتابِ ليُبَيِّنُوهُ؛ لأن تعْليمَ اللهِ لهم عَهْدٌ منهم بأن يَقُومُوا بما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِنَ العِلْمِ، وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[2].

ولهذا يَنْبَغِي لِطالبِ العِلْمِ إذا جَلَسَ مَجْلِسًا ألا يُفَوِّتَ الفُرصَةَ في تعليمِ النَّاسِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحَجِّ، باب حَجَّة النبيِّ ﷺ، رقم (١٢١٨).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

ولا أقولُ: إنه يَنْبَغِي إذا جَلَسَ أن يَفْتَحَ الكِتابَ ويَقْرَأَ، فهذا قد يكونُ ثَقِيلًا على الناسِ، لكن يَنْبَغِي إذا جَلَسَ أن يتَحَيَّنَ الفُرصَةَ مثلًا بسؤالٍ مثْلِ: ما تقولونَ في كَذَا وكذا؟ حتى يَفْتَحَ بابَ العِلْمِ؛ لأنَّ السؤالَ مِنْ أبوابِ العِلْمِ، أو مَثَلًا يُوعِزُ إلى أحدِ أصحابِهِ ويقول: إذا جَلَسْنَا مجلِسًا تَسألُنِي عنْ مسألَةٍ مِنَ العِلْمِ، حتى يَنْفَتِحَ بابُ العِلْمِ، وليسَ بلازمٍ أن يأتِيَ بكِتابٍ ويَقْرَؤُهُ على النَّاسِ، إنما المُهِمُّ هو أن يُعَلِّمَ الناسَ العِلْمَ بالطريقِ التي تَسْهُلُ عليهِمْ ولا يستَثْقِلُونَها.

وفي ظَنِّي أن عَرْضَ العِلْمِ على الناسِ في المجَالِسِ في صِفَةِ السؤالِ سيكونُ أَنْفَعَ مِنْ أن تقْرَأَ عليهِمْ كِتَابًا رُبَّما لا يُدْرِكونَ مَعناهُ أو رُبَّما يَتَلَهَّوْنَ عنْه أو رُبَّما يقولونَ: مَتَى يَنْتَهِي هذا الكتابُ.

إذن: ما دَامَتْ نِيَّةُ طالبِ العِلْمِ في طَلَبِ العِلْمِ أن يَرْفَعَ الجَهْلَ عن غيرِهِ فسيكونُ حَرِيصًا على تعْلِيمِ النَّاسِ العِلمَ، ومن طُرُقِ تَعْلِيمِ النَّاسِ العِلْمَ إذا صَلَّى في مسجِدٍ أن يُذَكِّرَهُم ويَعِظَهُم، ويُبَيِّنَ لَهُمُ الحَقَّ وأَلَّا يُطِيلَ عليهِمْ، فإنه إذا أطالَ ملَّ الناسُ وسَئِمُوا، وصارُوا إذا رَأوهُ قد صَلَّى معَهُم قالوا: لَيْتَنِي لَمْ أصَلِّ في هذَا المسجِدِ.

وكَثِيرٌ مِنَ الإخْوَةِ الذين يُحِبُّونَ الخيرَ ويُحِبُّونَ نشْرَ العِلْمِ إذا قامُوا في مَوعِظَةٍ بالمساجِدِ رُبَّما يَستَغْرِقُونَ نِصْفَ ساعَةٍ أو أكثَرَ، وهذا ليسَ مِنَ العَرْضِ السَّلِيمِ، بل العرضُ السَّلِيمُ أن تَخْرُجَ مِنْ إرشادِكَ ونُصْحِكَ والناسُ يقولونَ: ليتَهُ استَمَرَّ.

رابعًا: كذلك يَنْبَغِي لطالِبِ العِلْمِ أن يكونَ دَاعِيًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والدَّعْوَةُ غيرُ نَشْرِ العِلْمِ؛ لأن الدعوةَ فيهَا حثٌّ وتَشْجِيعٌ على أن يقومَ الناسُ بِمَا أوجَبَ اللهُ عليهِمْ من الفرائضِ فِعْلًا وتَرْكًا، عَقِيدَةً وقَوْلًا وعَمَلًا.

خامسًا: يَنْبَغِي لطالبِ العِلْمِ أن يكون عامِلًا بِمَا عَلِمَ، وفي الأثر: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»[١]. وقد قالَ بَعْضُهم: «الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»[٢]، حتى قالَ بعضُ أهْلِ العِلْم: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالعَمَلِ»، وهذَا صحيحٌ؛ لأَنَّكَ إذا عَمِلْتَ بعِلْمِكَ فإنك لا تزالُ تذْكُرُهُ بهذِه الأعمالِ التِي تقومُ بِها.

والدليلُ على أنَّ هذَا من آدابِ طالِبِ العلمِ قولُه تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]. أي: عَلَى عِلْمٍ، إذن: مَا دامَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فمَعْنَى ذلِكَ أنَّ وظيفَةَ طالِبِ العِلْمِ أن يدْعُوَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هذِهِ البصيرَةِ التي عَلَّمَهُ إياهَا.

واعْلَمْ أن الداعِيَةَ إلى اللهِ إذا كانَ عامِلًا بما يدْعُو إليه كان ذلِكَ سَببًا لقَبُولِ دعوتِهِ، وهذا هو مُقْتَضَى العَقْلِ؛ ولهذا أنكرَ اللهُ على بَنِي إسرائيلَ الذين يأمُرونَ الناسَ بالبِرِّ ويَنْسَوْنَ أنفُسَهُم، ونَعَى عليهِمْ عُقولَهم فقالَ تعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]. فلو جاءَ طالِبُ عِلْمٍ وجعَلَ يُحذِّرُ مِنَ الرِّبَا ويَذْكُرُ الآياتِ والأحادِيثَ الوارِدَةَ في التَّحذيرِ منْه، وله في البنوك الربوية آلاف الدراهم، فإن هَذَا لا يَلِيقُ بِهِ؟ أو قامَ يُحذِّرُهُم من أكْلِ المالِ بالباطِلِ، ويقولُ لهم: إن الرَّجُلَ إذا فَرَّطَ في وَظيفَتِهِ فتأخَّرَ عن الموعِدِ المقَرَّرِ أو خَرَجَ قبلَ انتهاءِ الوقْتِ، فإنه يكونُ آخِذًا للمالِ بالباطِلِ؛ لأنه أخذَ ما لا يَستَحِقُّ، بينما هو يَذْهَبُ إلى وَظيفَتِهِ بعدَ ابتِدَاءِ الدَّوام بساعَةٍ ونِصْفٍ مثلًا، أو يَخرُجُ قبلَ نِهايَةِ الدَّوامِ،

(١) معجم ابن المقرئ (صـ ١٢١)، وبحر الفوائد، للكلاباذي (صـ ٩٩).
(٢) القائل هو سفيان الثوري، انظر جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١/ ٧٠٦).

فهذا الرَّجُلُ يكونُ قدْ أخذَ المالَ بالباطِلِ.

وبهذا نَعْرِفُ أن مَقامَ الدَّعْوَةِ مَقامٌ عظِيمٌ، يقولُ بعضُ الشُّعراءِ:

لَا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْلَـهُ عَارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِـيمُ[1]

وأخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنه «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ» أي: أمْعَاؤهُ «فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[2]. نسألُ اللهَ العافِيَةَ والسَّلامَةَ.

وعمَلُ طالِبِ العِلْمِ بما عَلِمَ له فائدَتانِ:

الفائدةُ الأُولَى: بَقاءُ عِلْمِهِ؛ لأن الإنسانَ إذا عَمِلَ بعِلْمِه بَقِيَ فلا ينْسَاهُ، أمَّا كونُ عِلْمِهِ يَرْقَى بالعَمَلِ به فهذا أمرٌ محْسُوسٌ، ولا حاجَةَ لإقامَةِ الدليلِ عليه؛ لأنه واضِحٌ، ويدلُّ لذلك أيضًا قولُهُ تَعالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

الفَائدَةُ الثانِيَةُ: زِيادَةُ العِلْمِ إذا عَمِلَ الإنسانُ بعِلْمِهِ، ودَليلُها قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، فالذين اهتَدَوْا لم يَزْدادُوا هُدًى فَقَطْ، بل وتَقْوَى، وكذلِكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]،

---

(١) البيتُ للأَخْطَلِ وقيل: للمُتوكِّل الليثي، انظر خزانة الأدب (٨/ ٥٦٤)، وعيون الأخبار (٢/ ٢٤)، وجمهرة الأمثال (٢/ ٤١١)، وفصل المقال (٩٣)، ومجمع الأمثال (٢/ ٢٣٨)، والمستقصى (٢/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بَدْء الخلق، باب صِفة النار، وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٧)، ومُسْلم: كتاب الزُّهْد والرقائق، باب عُقوبة مَن يأمُر بالمعروف ولا يَفْعَلُه، رقم (٢٩٨٩).

فإنَّ هذا يَدُلُّ على أن تَقْوَى اللهِ مِنْ أسبابِ العِلْمِ، بل إن الاستِغْفارَ من الذُّنوبِ سببٌ لفَتْحِ العِلْمِ.

إذن: لا بُدَّ أن يكونَ طالِبُ العِلْمِ عامِلًا بعِلْمِهِ حتى يكونَ قاصِدًا بالعِلْمِ وجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإلا فإنَّه كاذِبٌ.

ومن آدابِ طالِبِ العِلْمِ التي يجبُ عليه مُراعاتُها: أن يكونَ عارِفًا للناسِ حُقُوقَهم، وأن يكونَ مُقَدِّرًا للناسِ أحْوالَهم، فإذا خالَفَه أحدٌ من الناسِ في اجتهادِهِ فإنه لا يَحِلُّ له أن يُعَنِّفَ عليهِ، أو أن يقولَ له: إنَّكَ ضَالٌّ. وما أشْبَهَ ذلك، مَعَ أن المسألَةَ كلَّهَا مسألةُ اجتِهَادٍ؛ لأنك إذا أنْكَرْتَ عليه اجتهادَهُ فإنه هو أيضًا يُنْكِرُ عليكَ اجتهادَكَ، وله الحَقُّ في ذلك، وقالَ أهْلُ العِلْمِ: لا إنكارَ في مسائلِ الاجْتِهَادِ.

وكَثيرٌ مِنَ الإخْوَةِ الطَّيِّبينَ الذين أقْبَلُوا على طلَبِ العِلْمِ تجِدُهم إذا خَالفَهُم أحدٌ في مسألَةٍ مِنَ المسائلِ القابِلَةِ للاجتهاد، تَجِدُهم يُعَنِّفُونَه ويَشْتُمُونَهُ ويغْتَابُونَهُ، ولا يقْبَلونَ مِنه صَرْفًا ولا عَدْلًا، وهذا خَطَرٌ عظِيمٌ.

حتى إنَّ بعضَ النَّاسِ رُبَّمَا يُنْكِرُ أشياءَ ليسَ له حُجَّةٌ على إنكَارِهَا، لكن تَراءى له أن ذلِكَ لا يجوزُ، فقالَ: إنه لا يجوزُ. وقالَ لِمَن خالَفَهُ في ذلِكَ: أنتَ ظَالِمٌ، أنتَ واقِعٌ في مُحَرَّمٍ. أو رُبَّما يقولُ أكثرَ مِنْ ذلِكَ، فربما يقول: أنتَ مُبْتَدِعٌ. وما أشْبَهَ هذَا، وهذه مسألَةٌ خطِيرَةٌ، وهي في الحقِيقَةِ قد تُوجَدُ عندَ بعضِ الناسِ الذين فتَحَ اللهُ عليهِمْ شيئًا مِنَ العِلْمِ، وهذا مِنْ دَسائسِ الشَّيطانِ.

والواجبُ على طلَبَةِ العِلْمِ أن يكونُوا على قَلْبٍ واحِدٍ، وأن يكونَ بعْضُهم مُحِبًّا لبعضٍ، وأن يكونَ بعضهم عاذِرًا لمن خالَفَهُ في مسائلِ الاجتِهادِ، وأما مَنْ خالَفَ

الدَّلِيلَ مع بيانِهِ ووُضوحِهِ ولكنـه عانَدَ وأرادَ أن تكونَ كَلِمَتُهُ هِيَ العُلْيَا، فهـذا جديرٌ بأنْ يُسْبَّ ويُمْنَعَ ويُقْدَحَ فيه حتى لا يَضِلَّ الناسُ باتِّبَاعِهِ؛ لأن بعضَ الناسِ يَتبَيَّنُ له الحـقُّ، ولكنه يُعانِدُ ولا يقْبَلُهُ إصْرارًا على ما كانَ يَعتَـقِدُهُ ولو كان مُبْتَدِعًا، وهذا لا يُعْـذَرُ أبدًا بجَهلِهِ لمخالَفَتِهِ، بل الواجِبُ أن يُبَيَّنَ بُطلانُ قولِهِ وأن يُحَذَّرَ من قَولِهِ الباطِلِ، حتى يكونَ الناسُ على بَصيرَةٍ من أمْرِهِمْ في هذَا الرجُلِ الَّذي أصرَّ فيما هو عليهِ مِنَ الباطِلِ.

واعْلَمْ أن مَنْ خالَفَكَ في مسألَةٍ مِنَ المسائلِ بمُقْتَضَى الدَّلِيلِ عنْدَهُ، وخالَفْتَهُ أنتَ في هذه المسألَةِ بمُقْتَضَى الدَّلِيلِ عندكَ، فاعْلَمْ أنه لا خِلافَ بَيْنَكُما في الواقِعِ؛ لأن كُلًّا مِنْكما مشَى على ما يَقْتَضِيهِ النَّصُّ، فلا خِلافَ بينكُما، ولقد أعجَبَنِي رجُلٌ سأَلَ أحدَ الإخْوَةِ، وقال: أنتَ تقـولُ بهَذَا؟ قال: نَعَمْ أقولُ بهذَا. فقـال صَراحَةً: ولكِنِّي أنا أُخَالِفُكم، فقـال له صاحِبُهُ: بل أنْتَ تُوافِقُنِي؛ لأنك قلتَ بما يَقْـضِيهِ عِلْمُك، وهذا هو الواجِبُ عليكَ. ولهذا لو أن أحَدًا مِنَ النَّاسِ خالفَ ما يقْتَضِيهِ الدَّلِيلُ عندَه لأجلِ أن يُوافِقَـكَ أنتَ، فتقولُ لَهُ: أنت لا تُوافِقُنِي حتى لو تابَعْتَنِي، حيثُ حابَيْتَنِي في دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والواجبُ على المسلِمِ أن يكونَ صَرِيحًا فيما يقولُ، ولا يَخْشَى إلا اللهَ ما دَامَ يَرَى أنه عَلَى حَـقٍّ، ولكنه إذا تَبَيَّنَ له الحَقُّ فإن الواجبَ عليه أن يرجعَ إليه، هذِهِ نُبَذٌ من آدابِ طالِبِ العِلْمِ.

ونوجِزُ هذِه الآدابَ بكلماتٍ يَسيرَةٍ كالتَّالِي:

أوَّلًا: إصلاحُ النِّيَّةِ بأن يكونَ غَرضُهُ في طَلَبِ العِلْم وَجْهَ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ، لا يُرِيدُ عَرَضًا مِنَ الدُّنيا.

ثانيًا: أن يَنْوِيَ رَفْعَ الجَهْلِ عن نفْسِهِ وعن أُمَّتِهِ.

ثالثًا: أن يَنْوِيَ حِفْظَ شَريعَةِ اللهِ.

رابعًا: أن يَنْوِيَ الدِّفاعَ عن شَريعَةِ اللهِ.

خامسًا: أن يَعْمَلَ بما عَلِمَ.

سادسًا: أن يدْعُوَ الناسَ إلى دِينِ اللهِ، وهذَا شيءٌ غيرُ نَشْرِ العِلْمِ.

سابعًا: ألَّا يتَّخِذَ مِنَ الخِلافاتِ التي تَقَعُ ومَصْدَرُها الاجتهادُ ألَّا يتَّخِذَ من ذلِك سَبَبًا للتَّفَرُّقِ والطعْنِ في الآخَرِينَ، فإنَّ ذلك خِلافُ طَرِيقَةِ السَّلَفِ، وهو في الحقِيقَةِ خلافٌ ظاهِرِيٌّ، وإلَّا فإنَّ الهدَفَ هو الوصولُ إلى الحَقِّ وإنْ اختَلَفْنَا في المشرَبِ.

كيفَ تَطْلُبُ العِلْمَ؟

وأَمَّا كَيْفِيَّةُ طَلَبِ العِلْمَ، فإن هذِهِ الكَيفِيَّةَ تعودُ إلى المُدَرِّسِ والمعَلِّمِ، ولكن الذي يَنْبَغِي عليه أن يبدَأَ بالأهَمِّ فالأهَمِّ، فيبدَأَ أوَّلًا بكتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الصحابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانُوا لا يَتَجاوزُونَ عشْرَ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ حتى يتَعَلَّمُوهَا وما فِيهَا مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ[1]. فيَبْدَأُ بكتابِ اللهِ، ويُطالِعُ ما كتَبَهُ الأئمَّةُ في تفسيرِ كلامِ اللهِ، **ويَرْجِعُ في تفسيرِ القُرآنِ بمَا يَلِي**:

أوَّلًا: بتَفسيرِهِ تَعَالَى لكَلامِهِ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذا فسَّرَ كلامَهُ بكلامِهِ وجَبَ الرجوعُ إليهِ، فلو **قالَ لكَ قائلٌ**: ما هِيَ القارِعَةُ؟ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢

(١) أخْرَجَه أحمد (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٨٧٨).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ [القارعة:١-٤]، **ولو قالَ لكَ قائلٌ**: ما مَعْنَى قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، فكَلِمَةُ: ﴿ثُبَاتٍ﴾ فسَّرَهَا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في ذِكْرِ ما يُقَابِلُها ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، يعني متفرِّقِينَ، والدليلُ ذِكْرُ ما يُقَابِلُها، يعْنِي ذِكْر قَسِيمِهَا، نَفُسِّرُ كلامَ اللهِ بكلامِهِ.

ثانيًا: نَرْجِعُ إلى تَفْسِيرِ كَلامِ اللهِ بتَفْسِيرِه في كَلامِ النَّبيِّ ﷺ، ومثالُ ذلِكَ **لو قالَ لكَ قائلٌ**: ما هِيَ الزيادَةُ التي ذكَرَهَا اللهُ في قولِهِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]؟ **فنقولُ**: فسَّرَهُ النَّبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بأنها النظر إلى وَجْهِ الله عَزَّوَجَلَّ[١]، **ولو قالَ لكَ قائلٌ**: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] ما هِيَ القُوَّةُ؟ **فنقولُ**: القوَّةُ فَسَّرَهَا النَّبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بقولِهِ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[٢]، ورَمْيُ كلِّ وقتٍ بحَسَبِهِ، ففِي عَهْدِ النَّبيِّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كان الرَّمْيُ بالسِّهامِ التي يَصنَعُها الإنسانُ بيدِهِ، أما الآن فالرَّمْيُ بالرَّصاصِ والصَّوارِيخِ، سواءٌ على مَدَى القارَّاتِ أو التي على مَدًى قَرِيبٍ على حسَبِ الحالِ، ولهذا فإن كَلِمَةَ الرَّمْي صالِحَةٌ لكل ما يُسَمَّى رَمْيًا، ولا شكَّ أن الصوارِيخَ يُرْمَى بِهَا.

فالُمهِمُّ أن نَرْجِعَ في المرتبَةِ الثانيةِ في تفسيرِ كلامِ اللهِ إلى تفسيرِ النَّبيِّ ﷺ.

ثالِثًا: أن نَرْجِعَ في تفسيرِ كلامِ اللهِ إلى ما قالَهُ الصحابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ؛ لسَبَبينِ:

---

(١) أخْرَجَه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رُؤْية الربِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجَهْمية، رقم (١٨٧).

(٢) أخرجه مُسْلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرَّمْي والحَثِّ عليه، وذم مَن عَلِمه ثم نَسِيه، رقم (١٩١٧).

السببِ الأوَّلِ: أن الصحابَةَ أئمَّةٌ في اللُّغَةِ، حتى لو رَجَعْتَ في تفسيرِ كَلِمَةٍ إلى القامُوسِ المحيطِ للفَيرُوزِآبادِي، مع أن هذَا الرجُلَ ليسَ عَرَبِيًّا لكنه تَعَلَّمَ العربِيَّةَ، فإذا فسَّرَ الكَلِمَةَ أحدٌ مِنَ الصحابَةِ كان الرجوعُ إليه أَوْلَى؛ لأنه عَرَبِيٌّ لم يَتَأَثَّرْ لِسانُهُ باللُّكنَةِ الأَعْجَمِيَّةِ.

السببِ الثَّانِي: أن الصحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شاهَدُوا التَّنْزِيلَ، وشاهَدُوا أسبابَ النُّزولِ، وعَلِمُوا الأحوالَ المقْتَرِنَةَ بالآيَةِ مُلْصَقَةً بِهَا والقَرائِنَ، فيكونُ عِلْمُهُم بمعاني القرآنِ أكثرَ مِنْ غيرِهِمْ وأعمَلَ، ولهذا يجِبُ الرُّجوعُ إلى تفْسيرِ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والأمثلةُ على ذَلِكَ كَثِيرةٌ، وهذا مرجِعُه على تفسيرِ ابنِ جَرِيرٍ، وأحسنُ مَنْ رُوِيَ عنه في تفسيرِ القرآنِ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رابعًا: الرُّجوعُ إلى كِبَارِ المفَسِّرِينَ مِنَ التَّابِعِينَ، وإنما يكونُ الرجُوعُ في هذِهِ المرحلَةِ إلى كبَارِ المُفَسِّرِينَ مِنَ التابِعِينَ وليس إلى التابِعِينَ مُطْلَقًا، إلى كبارِ المُفَسِّرِينَ منهم مِثْل: مجاهِدِ بنِ جَبْرٍ وقتَادَةَ، فإن مجاهِدًا عَرَضَ المُصْحَفَ من فاتِحَتِهِ إلى خاتِمَتِهِ علَى ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَسْأَلُهُ عَنْ كُلِّ آيَةٍ[1]؛ ولهذا هو إمامُ المُفَسِّرِينَ في عَهْدِ التابِعِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

خامسًا: وبعدَ ذلِكَ نَرْجِعُ في المَرتبَةِ الخامِسَةِ إلى ما تَقتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ من الحقائِقِ الشرعِيَّةِ، مثالُ ذلك: الصلاةُ في القُرآنِ لها مَعْنًى لُغَوِيٌّ ولها مَعْنًى شَرْعِيٌّ، فنَحْمِلُها على المَعْنَى الشَّرْعِيِّ.

سادِسًا: أن نَرْجِعَ إلى ما تَقْتَضِيهِ الحَقِيقَةُ اللُّغَوِيَّةُ، ولهذا لو لم نَجِدْ تَفْسِيرًا له

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٧٨، رقم: ١١٠٩٧).

في كتـابِ اللهِ ولا في سُنَّةِ رسولِ اللهِ، ولا فِي كلامِ الصحـابَةِ، ولا فِي كلام التَّابِعِينَ ففَسَّرْنَاهُ بمُقْتَضَى اللُّغَةِ لكانَ ذلِكَ جائزًا، ولا يُعَدُّ من التفْسِيرِ بالرَّأْيِ المحذَّرِ عنْه.

فإن قيلَ: هل يجوزُ أن نرجِعَ في تفسيرِ القُرآنِ إلى قواعِدِ المتكَلِّمِينَ والفَلاسَفَةِ؟

فالجواب: لا؛ لأن هذِهِ القواعِدَ إن كانَتْ حَقًّا فَقَـدْ سُبِقُوا إليها، وإن كانَتْ باطِلًا وجَبَ رَدُّهَا وعدَمُ الاعتمادِ عليهَا.

وبعدَ النظَرِ في كلامِ اللهِ نَرجِـعُ إلى سُنَّةِ الرسولِ ﷺ، فنقرأُ كُتُبَ الحـدِيثِ، مثل كُتُبِ الصحاحِ وهِيَ: البُخَارِيُّ ومسلِمٌ، ومِثْل السُّنَنِ والمسانيدِ بقدْرِ المستَطَاعِ.

ثم بعـدَ ذلك نَرجِعُ إلى كُتُبِ أهلِ الفِقْهِ، وينبَغِي الرجوعُ إلى ما كتبَهُ أهلُ العِلْمِ الذين يَكتُبونَ في الفِقْهِ المقارَنِ كما يقولونَ، مثل كِتَابِ المغْنِى لابنِ قُدامَةَ، والمجموعِ شَرْحِ المهـذَّبِ للنَّوَوِيِّ وغير ذلِكَ من الكُتُبِ المعروفَةِ ككِتَابِ المُحَلَّى لابن حَزْمٍ وما أشبَه، فإن فِي هذَا افتتاحَ بابٍ لطالِبِ العِلْمِ.

وأما الكتُبُ المختَصَرَةُ في الفِقْـهِ فلكلِّ إنسانٍ على حَسَبِ ما يكـونُ آخِذًا بمذهَبِهِ؛ لأن مِنَ الناسِ مَن يتَفَقَّهُ على مذهَبِ الإمامِ أحمَدَ بنِ حنبَلٍ، ومن النَّاسِ مَن يتَفَقَّهُ على مذهَبِ الإمامِ الشافِعِيِّ، ومن الناسِ مَن يتَفَقَّهُ على مذهَبِ أبي حَنيفَةَ، ومنهم مَنْ يتَفَقَّهُ على مذهَبِ مالِكٍ، ومنهم مَن يتَفَقَّهُ على مذهبِ ابنِ حَزْمٍ والظاهرية إلى غيرِ ذلك، فكلٌّ يأخُذُ من كتُبِ مَذهَبِهِ المختَصَرَاتِ شيئًا فشيئًا.

أما في عِلْمِ النَّحْوِ الذي نحْنُ الآن في حاجَةٍ إليه، فإننا نأخُذُ في صِغَارِ الكُتُبِ، مثل كتـابِ الآجُرُّومِيَّةِ، ثم بما هو أكبرُ كقَطْرِ النَّـدِى لابنِ هشامٍ، ثم بما هو أعْلَى كألْفِيَّةِ ابنِ مالكٍ.

وإني أوجِّهُ إلى الشبابِ الصِّغارِ نصِيحَةً بأن يعْتَنُوا بحِفْظِ ألفِيَّةِ ابنِ مالِكٍ؛ لأنها خُلاصَةُ عِلْمِ النَّحْوِ، وفيها خيرٌ كثيرٌ، وإذا حَفِظَها الإنسانُ استَطَاعَ أن يَستَشْهِدَ بكُلِّ بيْتٍ منها على كُلِّ مُشكِلَةٍ تَرِدُ عليه.

كما أوَدُّ من طالِبِ العِلْمِ أن يعْتَنِيَ بتَصْحِيحِ نُطقِهِ على حسَبِ ما تَقْتَضِيهِ اللغَةُ العرَبِيَّةُ، حتى يكونَ ذلك سَلِيقَةً لَهُ؛ لأن بعضَ الإخوَةِ مِن طلَبَةِ العِلْمِ لا يَهْتَمُّ بالتَّطبيقِ على القواعِدِ العربيَّةِ، فتَجِدُه يرفَعُ المنصوبَ وينْصِبُ المرْفُوعَ، وربما يجُرُّ الفِعْلَ، فربما يقولُ إذا انتَهى مِنَ الطعامِ: (أكلَ طعامُكم الأبرارَ) بدَلا مِن: «**أَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ**»[1]. فيَجْعَلُ الطعَامَ آكلًا لا مَأكُولًا وغير ذلك.

فالحاصلُ: أن بعضَ الناسِ لا يعْتَنِي أبدًا بالعربِيَّةِ، وهذا نَقْصٌ بلا شَكٍّ.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمدٍ، وعلَى آلِهِ وصحْبِه وسلَّم.



(١) أخْرَجَه أبو دَاوُد: كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الدُّعاء لربِّ الطعام، رقم (٣٨٥٤)، وابن ماجه: كتاب الصِّيام، باب في ثواب من فطَّر صائمًا.



آدابُ طالبِ العِلْم

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

أريدُ أن أتَكَلَّمَ في هذِهِ الليلَةِ على مَوضُوعَيْنِ:

المَوضُوعِ الأوَّلِ: آدابُ طالِبِ العِلْمِ.

الموضوعِ الثاني: الأمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عنِ المنْكَرِ.

أولاً: آدابُ طالِبِ العِلْمِ:

فاعْلَمْ أن طالِبَ العِلْمِ يُريدُ أن يَنَالَ مَرْتَبَةً عَالِيَةً، ومَنْزِلَةً عظِيمَةً، ويُريدُ أن يَصِلَ إِلَى أن يكونَ وارِثًا لمحَمَّدٍ ﷺ، وذلكَ لأَنَّ «**الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا**»[1]، ولهذا لما ماتَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن ابْنَتِهِ فاطِمَةَ وعَمِّهِ، لَمْ يَرِثَا شَيئًا منْه؛ لأنَّ الأنْبياءَ لا يُوَرَّثُونَ، وهذا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكِنَّ الأنْبياءَ وَرَّثُوا العِلْمَ، فمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بحَظٍّ وافِرٍ من مِيراثِهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طَلَب العلم، رقم (٣٦٤١)، والتِّرْمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فَضْل الفِقْه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

فغَايَةُ طالِبِ العِلْمِ وهَدَفُه وهِمَّتُهُ: أن يَصِلَ إلى هذِهِ المرْتَبَةِ العالِيَةِ، وأن يكون قائِدًا للأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ، نائبًا عن رَسُولِهَا محمَّدٍ -صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم-؛ لأنه يَرِثُهُ عِلمًا، ويَرِثُهُ عَمَلًا، ويَرِثُهُ دَعْوَةً.

وإذا كان الأمرُ كذلِكَ، فإن طَلَبَ العِلْمِ هو أعظَمُ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الإنسانُ بعدَ واجِبـاتِ الدِّينِ وفرائِضِهِ، حتى إنَّ بعضَ العُلماءِ قالَ: إن طَلَبَ العِلْمِ أفضَـلُ مِنَ الجهادِ في سَبِيلِ اللهِ؛ لأن الجهادَ في سبيلِ اللهِ يَنْبَنِي على العِلْمِ، والعِلْمُ لا يَنْبَنِي على الجِهادِ في سبيلِ اللهِ، إذ إنَّه لا يمكِنُ للمُجاهِدِ أن يُجاهِدَ جهادًا صَحِيحًا إلا الجهادَ المبْنِيَّ على العِلْمِ، ولهذا جعَلَهُ اللهُ تعَالَى عَدِيلًا لَهُ في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني وقَعَدَ طائفةٌ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢]. فالفاعِلُ النافِرَةُ، تَنْفِرُ إلى الجهادِ بالسَّلاحِ والقِتالِ، فقَوْلُهُ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾، المرادُ به الطائفَةُ القاعِدَةُ، ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، فجعَلَ اللهُ تعَالَى التَّفَقُّهَ في الدِّينِ قَسِيمًا للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ.

فعـلَى هذَا يتبيَّنُ أن طَلَبَ العِلْمِ من أفْضَلِ العِباداتِ، وأجَـلِّ الطَّاعاتِ، قالَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا شَيْءَ يَعْدِلُ العِلْمَ لِمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُه. قالوا: وكيفَ خُلوصُ النِّيَّةِ يا أبَا عبدِ اللهِ؟ قالَ: يَنْوِي بِهِ رَفْعَ الجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ، وعنْ غيرِه»[1]. وقال: «تَذَاكُرُ ليلةٍ أحَبُّ إليَّ مِنْ إِحْيائِهَا»[2]، يعني: أن نتَذَاكَرَ بالعِلْمِ في ليلَةٍ أحَبُّ إليَّ مِنْ إحْيائِهَا بالصَّلاةِ.

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٣٨٠).

(٢) مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه (٩/ ٤٦٥٢).

وإذا تَبيَّنَ أن طلَبَ العِلْمِ من العباداتِ، وأنه مِنْ أجَلِّ العِباداتِ، فإنه لا بُدَّ مِنْ أمورٍ:

الأمر الأوَّل: الإخلاص في النِّيَّةِ في طلَبِ العِلْمِ، وذلك مُركَّبٌ مما يأتِي:

الأول: أن يَنْوِيَ بطلَبِهِ العِلْمَ امتثالَ أمرِ اللهِ، فإنْ قِيلَ: وهل أَمَرَ اللهُ بطَلَبِ العِلْمِ؟

قلنا: نَعْم في قولِهِ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وتَرْجَمَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا بقولِهِ: (بابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ)[1]، ثم استَدَلَّ بالآيَةِ.

ومِنْ أمْرِ اللهِ تَعَالَى بالعِلْمِ أنه رَتَّبَ عليهِ الفَضْلَ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ إما بصِيغَةِ الأمرِ المعْرُوفَةِ، وهِيَ (افْعَلْ)، أو بِذِكْرِ ما يُرَغِّبُ فيه، وهو قولُهُ تَعالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وإذا كُنَّا نَعْلَمُ جميعًا أن الإيمانَ مُرَغَّبٌ فيهِ، وأنه سَعادَةُ العَبْدِ، فالعِلْمُ كذلِكَ مِثْلُهُ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

الثاني: أن يَنْوِيَ بطَلَبِ العِلْمِ حفظَ شَريعَةِ اللهِ؛ لأن شَرِيعَةَ اللهِ تُحفَظُ إمَّا في الصُّدورِ، وإما في المَسْطُورِ، فسَلَفُ هذِهِ الأُمَّةِ أكثَرُهُم لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُبُ، أو على الأَصَحِّ: لا يَكْتُبُ، فبماذا حَفِظُوا القُرآنَ؟ غالِبُهُم حفِظَهُ في الصُّدورِ، وكذلك السُّنَّةُ النَّبوِيَّةُ، فأبو هُرَيرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لا يَكتُبُ، وهو أكثَرُ الصحابَةِ ممَّنْ نُقِلَتْ عَنْهُم الرِّوَايَةُ، فحِفْظُ الشَّرِيعَةِ يكونُ في الصُّدورِ، وذلِكَ بالعِلْمِ، ويكونُ في المسطُورِ، وذلِكَ بالكُتُبِ.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

الثالث: حِمَايَةُ الشَّرِيعَةِ والدِّفاعُ عنْها، فإنَّ الَّذينَ يُدَافِعُونَ عن شَرِيعَةِ اللهِ هم أهلُ العِلْمِ لا شَكَّ.

وانظُرْ إلى ما كتبَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في الرَّدِّ على الفَلاسِفَـةِ، والمَنـاطِقَةِ، والمُبتَدَعَةِ، تجِـدُ فيما كَتبَهُ -رحمه الله، وجَزاهُ اللهُ عن هذِهِ الأُمَّةِ خَيْرًا- حِمايةً للشَّريعَةِ الإسلامِيَّةِ مِنْ أَعْدَائِهَا، ودِفاعًا عن الشَّرِيعَةِ الإسلامِيَّةِ؛ لأن الكُتُبَ مَهْما كانَتْ لا تُدافِعُ عنِ الشَّرِيعَةِ.

وأضرِبُ لكُمْ مَثَلًا يُبيِّنُ هذا:

جاء رَجُلٌ صاحِبُ بِدْعَةٍ إلى طُلَّابٍ صِغَارٍ في مَكْتَبَةٍ، فجَعَلَ يُقَرِّرُ عليهِمْ بِدْعَتَهُ، والطَّلَبَةُ الصِّغَارُ لا يَسْتَطِيعُونَ أن يُدَافِعُوا، والمكتبَةُ هذه مَمْلُوءةٌ بكُتُبِ السَّلَفِ الَّتِي تَرُدُّ عَلَى المُبتَدِعَةِ، فلا يُمكِنُ أن تَقْفِزَ هذه الكُتُبُ لتَرُدَّ على هذا المبتَدِعِ.

وجاء رَجُلٌ آخَرُ مُبتَدِعٌ إلى طَلَبَةٍ صِغَارٍ في مَكْتَبَةٍ، وجَعَلَ يُقَرِّرُ بِدْعَتَهُ، لكِنْ كانَ هـؤلاءِ الطَّلَبَةِ الصِّغَارِ شيخٌ عالِمٌ، فهُنا يُمكِنُ لهذا العَالِمِ أن يَقُـومَ فيَرُدَّ على المُبْتَدِعِ.

إذن: حِمَايَةُ الشريعَةِ برجالِ الشَّريعَةِ، فَلْيَنْوِ طالِبُ العِلْمِ أنه قَدْ أعدَّ نَفْسَهُ لِحِمَايَةِ الشريعَةِ، والدِّفاعِ عنْهَا، وهذه نِيَّةٌ طَيِّبَةٌ.

الرابع: أن يَنْوِيَ بطَلَبِهِ للعِلْمِ أنه يصِلُ إلى دَرَجَـةِ الوِرَاثَةِ، أي: وِرَاثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وما أَحْلاهَا مِنْ وِرَاثَةٍ أن يَرِثَ الرَّجُلُ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي تُوُفِّيَ منذُ أربعَةَ عشَرَ قَرْنًا، وهو في هذَا القَرْنِ أو أكثر، فيكونُ وارِثًا للرَّسولِ ﷺ كما ورِثَ الرَّسولَ العـالِمُ في صَدْرِ الأُمَّةِ، فهَلْ يُوجَدُ إرْثُ مَالٍ يَصِلُ إلى أربعَـةَ عشَرَ قَرْنًا؟

لا يوجَدُ أَبدًا، لا يُوجَدُ مالٌ يُورَّثُ إلى أربعَةَ عَشَرَ قرْنًا، فبهـذه المُدَّةِ يَتْلَفُ المَالُ، ويَتْلَفُ النَّاسُ، وتَضِيعُ الأمورُ، لكِنَّ العِلْمَ يُورَّثُ ولو بَعْدَ أربعَةَ عشَرَ قَرْنًا أو أكثر، إلى أن يشَاءَ اللهُ.

هذه كُلُّها تحتَ قولِنَا: إخْلاصُ النِّيَّةِ، وضِدُّ إخلاصِ النِّيَّةِ الإشراكُ في النِّيَّةِ، بأن يَقْصِدَ الإنسانُ بطَلَبِ العِلْمِ أن يتوَجَّهَ النَّاسُ إليه، وأن يُجارِيَ العُلماءَ، ويُمارِيَ السُّفهاءَ، ولا يُريدُ إلا هذَا، يريدُ أن تَتَوجَّهَ إليهِ الأنظَارُ فَقَطْ، أو يُرِيدُ أن يَحْمِلَ بطَاقَةً في جَيبِهِ حتَّى يَصِلَ إلى المرتَبَةِ السادِسَةِ في التَّوظيفِ -مثلا-، فالأَوَّلُ أرادَ الرِّياءَ، والثاني أرادَ الدُّنْيا، فمِثْلُ هذَا لا يُعَدُّ مُخْلِصًا.

الذي يُريدُ الدُّنْيا أو يُرِيدُ مُراءَاةَ الناسِ في أن يكونَ إمامًا في الدِّينِ هذا ليسَ بمُخْلِصٍ، ونقولُ للأخِ الذي أرادَ هذِهِ الإرادَةَ السَّيِّئَةَ: أخْلِصِ النِّيَّةَ، وستَأتِيكَ الرِّئاسَةُ، أخْلِصِ النِّيَّةَ وسَيأتِيكَ الرِّزْقُ، ولا تجْعَلِ الدُّنيا أو الرئاسةَ في الدُّنْيا هِيَ القَصْدُ، ونحن نستَمِعُ في القُنوتِ: «**وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»[١].

ربما يقولُ قائلٌ: حَطَّمْتَنَا -جزاك الله خيرًا- فِي قِرَاءتِنَا في الجَامِعَاتِ والمدارِسِ، ربما يقولُ هكَذَا، إذن: من حينِ أن تَنْتَهِيَ الإجازَةُ نُقَدِّمُ الاستقالَةَ؛ لأننا إذا استَمْرَرْنَا في الدِّرَاسَةِ، فيعني ذلِكَ أنَّنَا مُعَرَّضُون للعُقـوبَةِ؛ لأن «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يَعْنِي رِيحَهَا[٢]. فالمسألةُ ليستْ هَيِّنَةً، وأنتَ الآن حطَّمْتَنَا!

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٢).

(٢) أخْرَجَه أحمدُ (٢/ ٣٣٨، رقم ٨٤٣٨)، وأبو دَاوُدَ: كتاب العلم، باب طَلَب العِلْم لغيرِ الله، رقم (٣٦٦٤)، وابنُ ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعِلْم، رقم (٢٥٢).

أقول: عَفَا اللهُ عنْكَ حينَ وَجَّهْتَ إليَّ هذا الظَّنَّ السَّيِّئَ، أنا لا أُحُطِّمُ القارِئينَ في الجامِعات، بل أُشَجِّعُهم، لكِنِّي أقولُ: أَخْلِصُوا النِّيَّةَ.

وربما تقول: الآن الوقتُ تَغَيَّرَ، وصارَ لا يَرْتَقِي الإنسانُ إلى القيادَةِ والرِّيادَةِ والتعليمِ إلا بالشَّهادَةِ، فأنا أُرِيدُ هذِهِ الشهادَةَ؛ لأجْلِ أن أصِلَ إلى مَوْطِنٍ أنفَعُ بِهِ الناسَ، فما ظَنُّكُمْ لو أنَّ شيخَ الإسلامِ ابن تَيمِيَّة قدَّمَ مَعْرُوضًا ليُدَرِّسَ في الجامعة الآن، فنظَرْنا إلى المعرُوضِ، وإذا به ليستْ فيه شَهادَةٌ ابتِدَائِيَّةٌ، ولا متوسِّطَةٌ، ولا ثانوية، ولا جامِعِيَّةٌ، فهُو حَسَبُ النظامِ لا يُقْبَلُ، وأنا عن نَفْسِي أقبَلُهُ لو كُنْتُ أنا مُدِيرَ الجامِعَةِ، لكِنَّ غَيْرِي لا يقْبَلُه، على كُلِّ حالٍ نِظَامًا لا يُقبَلُ.

فأنَا أُرِيدُ أن أصِلَ لهَذِهِ الشَّهادَةِ لأَتَمَكَّنَ من التَّدْرِيسِ -مثلا- في الجامِعَةِ حتى أَنْفَعَ الناسَ، فهَلْ تنْقَلِبُ الآن النِّيَّةُ إلى نِيَّةٍ خالِصَةٍ؟

نقول: نعم، إنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى، تنْقَلِبُ إلى نِيَّةٍ خالِصَةٍ، ما دامَ هذا هُوَ الغَرَضُ، والنِّياتُ لها تأثِيرٌ في الأعْمالِ.

انْظُر إلى المُهاجِرِ، قسَّمَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى قِسْمَيْنِ: «**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١)، فالعَمَلُ واحِدٌ، ولكن النِّيَّةَ مُختَلِفَةٌ، فالنِّيَّاتُ لها تأثيرٌ عظيمٌ في قَلْبِ الصَّالِحِ طَالحًا، والطالحِ صَالحًا.

الأَمْرُ الثَّانِي: مما يجِبُ على طالِبِ العِلْمِ: أن يَعْمَلَ بعِلْمِهِ، وهذا واجِبٌ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الإعمال بالنية والحسبة...، رقم (٥٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية...**»، رقم (١٩٠٧).

فوُجوبُ العَمَلِ بالعِلْمِ أعظَمُ من وُجوبِ العَمَلِ علَى العَامِّيِّ، يعني وجوب عَمَلِ العَالِمِ بعِلمِهِ أقْوَى من وُجوبِ عَمَلِ العامِّيِّ؛ لأن العَالِمَ قامَتْ عليهِ الحُجَّةُ، وعَرَفَ البَيِّنَةَ، فإذا خالَفَ كانت مُخالَفَتُهُ أعظَمَ وأشَدَّ، فيَجِبُ على العَالِمِ أن يَعْمَلَ بعِلْمِهِ، فإنْ لم يَفْعَلْ صارَ أشدَّ عَذَابًا مِنَ العامِّيِّ؛ لأن العامِّيَّ قد يكونُ له عُذْرٌ، وأما العَالِمُ فليسَ له عُذْرٌ.

ثم اعْلَمْ أن العمَلَ بالعِلْمِ سَبَبٌ لزيادَةِ العِلْمِ، واعلم أن العَمَلَ بالعِلْمِ سببٌ لحِفْظِ العِلْمِ، وبقاءِ حِفْظِهِ، ودليلُ ذلَكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، أصْلَحَ عَمَلَهُم زِيادةً على عَمَلِهِمُ الأوَّلِ، ولهذا نقول: الحَسَناتُ تَجْلُبُ الحَسناتِ، والسَّيِّئاتُ تَجْلُبُ السَّيئاتِ، إلا إذا عصَمَكَ اللهُ وتابَ. إذن: العَمَلُ بالعِلْمِ سببٌ لزيادَةِ العِلْمِ.

كذلك العَمَلُ بالعِلْمِ سببٌ لحِفْظِ العِلْمِ وبَقائِهِ، ودليلُ ذلِكَ قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، أي: نَسُوا نَصِيبًا ممَّا ذُكِّروا بِهِ، فغَلَبَ عليهِمُ الجَهْلُ، والعياذ باللهِ.

كُلُّنا يُحاوِلُ أن يَجِدَ شيئًا يَزِيدُ بِهِ عِلْمُهُ، ويَبْقَى به عِلْمُهُ، يعني: يَبْقَى به مَا عَلِمَ ويَزْدادُ، والسَّبيلُ إلى ذلِكَ: العَمَلُ بما عَلِمْتَ.

ولهذا قِيلَ: «الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»[1]، يعني: يَدْعُوه، فإن أجابَ وإلَّا ارتَحَلَ.

---

(١) القائل هو سُفْيان الثَّوري، انظر جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البَرِّ (١/ ٧٠٦).

وفي الأَثَرِ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»(١).

وقال الشافِعِيُّ(٢):

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُؤْتَى لِعَاصِي

فإنْ قيل: فما هو عَمَلُ العَالِمِ أو طالِبِ العِلْمِ؟

قلنا: عمَلُ العَالِمِ أو طالِبِ العِلْمِ له وِجْهَتانِ:

الأولى: مُعامَلَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثانية: معامَلَةُ المخْلُوقِ.

أما مُعامَلَةُ اللهِ: فبِالعبادَةِ، فليَكُنْ طالِبُ العِلْمِ أَشَدَّ الناسِ عِبادَةً للهِ، وأقْوَاهُمْ في ذاتِ اللهِ.

وأما في مُعامَلَةِ الناسِ: ليكُنْ طالِبُ العِلْمِ أحسَنَ أَخْلاقًا وآدابًا، فإذا تخلَّفَ هذَا أو هذا، صارَ طالِبُ العِلْمِ لم يَعمَلْ بعِلْمِهِ.

وأتوجه بسؤالٍ لطَلَبَةِ العِلْمِ، وأرجُو أن تُجِيبُوا عليهِ جوابًا صَرِيحًا لا تُحابُونَ فيهِ أَنْفُسَكُم: هل أَنتُمْ أحسنُ الناسِ آدابًا في مُعامَلَةِ الناسِ؟

الجواب: الواقِعُ أننا نَجِدُ -مع الأسف الشديد- أن كثِيرًا مِنَ الطلبَةِ مِنْ أَسْوأ الناسِ آدابًا -نسأَلُ اللهُ العافِيَةَ-، تجِدُ طالِبَيْنِ عندَ عَالمٍ واحِدٍ، قِراءتُهما واحِدَةٌ،

---

(١) معجم ابن المقرئ (صـ ١٢١)، وبحر الفوائد، للكلاباذي (صـ ٩٩).

(٢) ديوان الإمام الشافعي (صـ١٠٦).

يَلتَـقِيانِ ويَضْرِبُ كَتِفُ أَحَـدِهما كَتِفَ الآخَرِ، ولا يُسَلِّمُ أَحَـدُهُما على الآخَرِ، سبحان اللهِ! أينَ الأدَبُ، أين آدابُ الإسلامِ، وأينَ آدابُ العَالِمِ؟!

تجِدُ بَعْضَ الطلَبَةِ الآن ليسَ لَهُ هَمٌّ إلا أكْلُ لُحُومِ العُلماءِ، يَفْرَحُ إذا أخطأ أحدٌ مِنَ العُلماءِ خَطَأً قد يكون صوابًا وهو عندَهُ خَطَأٌ، ويكون هُو المُخْطِئَ، والعالِمُ هو المصِيبَ، ولِظَنِّه أن العالِمَ أخْطَأَ يَفرَحُ، ثم يَنشُرُ هذا الخطَأَ: قالَ فلانٌ كذا، وقال فلانٌ كذا، مع أن الصوابَ مَعَه، سبحان الله!

وما من عَالم إلا يُخْطِئُ ويُصِيبُ، فإذا قدَّرْنا أن هذا العَالِمَ أخْطَأَ -في نظرك-؛ هل يَحِلُّ لك أن تَنْشُرَ خَطأَهُ بينَ النَّاسِ؟ لا، إذا رأيتَ أنَّه أخطَأ، فإن واجِبَك نحوه النصيحةُ للهِ ولكِتَابِهِ ولرسولِهِ ﷺ ولأَئمَّةِ المسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ، فعليكَ أن تَتَّصِلَ بِهِ، وقبـل الاتصالِ به تأكَّدْ أوَّلًا من صِحَّـةِ النقْلِ إليهِ؛ لأن بعضَ الذين يَنْقُلُونَ أخطاءَ العُلماءِ لا يَصِحُّ نَقْلُهُم، فتأكَّدْ أوَّلًا من صِحَّةِ النقْلِ، وإذا تأكَّدْتَ مِنْ صِحَّةِ النَّقْلِ اتَّصِلْ بهذَا العَالِمِ، وقُلْ: بَلَغَنِي أنَّك قُلْتَ: كذا وكذا، فأرْشِدْني جزاكَ اللهُ خيرًا، لا تَقُلْ: إنَّكَ أخْطَأتَ، وبلَغَنِي عنْكَ أنتَ قلتَ: كذَا وكذَا، وأنتَ أخْطَأْتَ، فمِثْلُ هذا الأُسلوبِ ليسَ صَوَابًا، وهذا ليس من النَّصِيحَةِ، والصوابُ أن تقولَ لَهُ: أرْشِدْنِي؛ لأنه رُبَّما يكونُ عندَ العَالِمِ شيءٌ لم يَعْلَمْ بِهِ هذا الرجُلُ.

وأمَّا أن تَفْرَحَ بخَطئِهِ حتَّى تَنْشُرَهُ بينَ الناسِ، فهذا ليسَ مِنْ أخْلاقِ طالِبِ العِلْمِ، وليس بِحَـلالٍ، هو حَرامٌ، ويوجِبُ تفرُّقَ الأُمَّـةِ، ولا أعني بذلِكَ التَّفَرُّقَ بين هذَا وبينَ العَالِمِ؛ بل تَفَرُّقَ الأُمَّةِ عُمُومًا؛ لأن بعضَ الناسِ ينتَصِرُ لهذَا، وبعضُ الناسِ ينتَصِرُ لهذَا، فيَقَـعُ التَّحَزُّبُ والتَّفَرُّقُ الذي لا خيرَ فيـهِ، بل هو شَرٌّ مَحْضٌ،

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٩].

كذلك نَجِدُ أيضًا مِنْ سُوءِ أَخْلاقِ بعضِ الطَّلَبَةِ الإعجابَ بالنَّفْسِ، أقول: بَعْضُ الطلَبَةِ ابتُلُوا بدَاءِ الغُرورِ والإعْجابِ، فإذا حَفِظَ حَدِيثَيْنِ عن رَسولِ اللهِ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- قال: أنَا مَن أنَا!!

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي[1]

فَتجِدُهُ يَرَى أنه أعْلَمُ الناسِ، وهذا مِنَ البَلاءِ، فالإعجابُ بالنَّفْسِ -نسأل الله السلامة منه ومن كل داء- داءٌ عَظِيمٌ، يُعْمِي الإنسانَ عَنِ الحقِّ، ويجعَلُ الإنسانَ معتَدِيًا على غَيرِهِ، ويجعَلُهُ ينْظُرُ إلى الناسِ وكأنَّه في عُلُوٍّ، وهذا مِنَ الأَخْلاقِ السَّيِّئَةِ في غيرِ طالِبِ العِلْمِ، فكيفَ بطالِبِ العِلْمِ؟!

تجدُ طالِبَ العِلْمِ المَغْرُورَ يقْرَأ -مثَلًا- في (المُغْنِي) للمُوَفَّقِ ابنِ قُدامَةَ، أو يقْرَأُ في (شَرْحِ المهَذَّبِ) للنَّوَوِيِّ، يقْرَأُ هذه الأقاويلَ وكأنَّها أقوالُ صِبْيانٍ؛ لأنه مغْرُورٌ بنَفْسِهِ، مُعجَبٌ بِهَا، ربما يَقْرَأُ قَوْلًا لأَحدِ الأئمَّةِ الذين اتَّفَقَتْ الأُمَّةُ على إمامَتِهِمْ، ثم يقول: مَن فلان؟! لقَدْ نُقل لي أن شَخْصًا قيلَ له مَرَّةً مِنَ المرَّاتِ: هذا القولُ قولُ الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ، قال: قولُ الإمام أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ، مَنِ الإمامُ أحمَدُ ابنُ حَنْبَلٍ، هو رَجُلٌ وأنا رَجُلٌ!!

يا رجل، ليست الرُّجُولَةُ باللِّحْيَةِ، وكِبَرِ العِمامَةِ، هل الرجالُ يختَلفُونَ؟ إي والله يختَلِفُونَ، الرِّجالُ منهم الرُّسُلُ، ومنهم الأَنْبياءُ، ومنهم الصِّدِّيقُونَ، ومنهم

(١) البيت لسُحَيم بن وَثِيلٍ الرِّياحي، انظر الأصمعيات (ص ١٧).

الشُّهَدَاءُ، ومنهم الصَّالِحُونَ، ومنهم المفْسِدُونَ، ومنهم المُصْلِحُونَ، وهل كُلُّ مَن سُمِّيَ رَجُلًا يكونُ متَّصِفًا بمَعْنَى الرُّجولَةِ؟ أبدًا، هذا مِنَ الغُرورِ العَظِيمِ.

الواجِبُ على طالِبِ العِلْـمِ إذا رَأَى عَالِمًا كَبِيرًا مَشْهُورًا سابِقًا، أو في عَصْرِهِ، قد قالَ قولًا، أن يتأنَّى، ويتَرَفَّقَ، وينظُرَ مدَى صِحَّةِ هذَا القولِ بالأدِلَّةِ، لا أن يَرُدَّهُ بما حَفِظَ من حدِيثٍ أو حَدِيثَيْنِ، وربما تكونُ هناكَ أحادِيثُ غابَتْ عنْه:

قُلْ لِلَّـذِي يَـدَّعِي فِي الْعِلْـمِ مَعْرِفَـةً ... عَرَفْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ[1]

إذا رأيتَ عَالِمًا من العُلماءِ سابِقًا أو لاحِقًا، له مكانَتُهُ في العِلْمِ، قدْ قالَ قوْلًا تَسْتَنْكِرُهُ أنت بما عَرَفْتَ من العِلْمِ، فلا تُسارِعْ بِرَدِّهِ.

وكذلك إذا رأيتَ جمهورَ الأُمَّةِ على قولٍ يُخالِفُ ما عِندَكَ، فلا تَتَعَجَّلْ في الردِّ، تأنَّ؛ لأن خلافَ الجُمهـورِ شَرٌّ، وكذلِكَ مُخـالَفَةُ مَن أعْطَاهُ اللهُ تَعالَى رُسُوخًا في العِلْمِ أيضًا يَدُلُّ على ضَعْـفِ التَّصوُّرِ، ويَدُلُّ على أن الإنسان عندَهُ غُرورٌ في نَفْسِه، فتَـأَنَّ حتى يتبَيَّنَ لكَ الأمْرُ، ثم إذا تَبَيَّنَ لك الأمْرُ، وأن الصَّوابَ مَعَـكَ، فالتَمِسِ العُذْرَ لِمَنْ أخْطَأَ إن كان مَيِّتًا، وإن كان حَيًّا فالتَمِسْ له العُذْرَ، وناقِشْهُ، واتَّصِلْ بِهِ؛ حتى يَجْتَمِعَ الناسُ على أمْرٍ واحِدٍ.

ومما يجِبُ على العَـالِمِ نَشْرُ العِلْمِ حينَ يحتاجُ النَّاسُ إليه، وحين يَسألُ النَّاسُ عنْه، إما بِلِسَانِ الحَالِ، وإما بِلِسَانِ المَقَالِ.

بلسانِ الحَالِ: أن يَرَى في النَّاسِ عَمَلًا مُخَـالِفًا للسُّنَّةِ، فحينَئِذٍ يجِبُ على العَالِمِ أن يتكَلَّمَ ويُبَيِّنَ للنَّاسِ، لا يقُـلْ: إنَّ الناسَ لم يسْأَلُونِي فلا أُبَيِّنُ، لا، يجِبُ أن تُبَيِّنَ،

(١) ديوان ابن مَعْصوم المدني (ص: ٦).

ثم مَن اهتدَى وقَبِلَ فلَهُ ولَكَ، ومَن لم يَفْعَلْ فلَكَ وعلَيْهِ.

أما بِلسانِ المقَالِ، فأنْ يَأتِيَ إنسانٌ يسألُكَ، فإذا سَألَكَ إنسانٌ عن عِلْمٍ شَرْعِيٍّ تَعْلَمُه، وجب عَليكَ أن تُجِيبَهُ، ولا يحِلُّ لَكَ أن تكْتُمَهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وفي الحَدِيثِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

ولكن إذا قالَ قائلٌ: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَيَّرَ نَبِيَّهُ إذا أتاهُ أهلُ الكِتابِ أن يَحْكُمَ بينَهُم، أو يُعْرِضَ عنْهُم، فقالَ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:٤٢].

قلنا: هذَا في حَالِ الخُصُومةِ، إذا عَلِمْنَا أن هذَا السائلَ لا يُريدُ الحَقَّ، وإنما يُريدُ العِنادَ، يعني المشَقَّةَ على المَسْؤولِ والجَدَلَ، أو يُرِيدُ أن يَأْخُذَ منْهُ قَوْلًا يَضرِبُ قولَ عـالِمٍ آخر حتَّى يُوقِعَ الفِتْنَةَ والتَّشْكِيكَ بينَ النَّاسِ، ففِي هذِهِ الحـالِ لا يجِبُ على المَسْؤولِ أن يُجِيبَ عَنِ السؤالِ، بل هُوَ مُخَيَّرٌ، إن رَأَى المَصْلَحَةَ في الجوابِ أجابَ، وإنْ رَأَى المَصْلَحَةَ في تَرْكِ الجَوابِ تَرَكَ الجَوابَ.

ومِن واجِبِ طالِبِ العِلْمِ: الدعوةُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ودَعْوَةُ طالِبِ العِلْمِ إلى اللهِ تكونُ بِلِسَانِ المَقَالِ، وبِلسانِ الحَالِ.

بلسانِ المَقَالِ: أن يَقِفَ ويَتكَلَّمَ مع النَّاسِ، ويَدْعُوَهُم إلى الهُدَى، ويُبَيِّنَ لهُمُ الحَقَّ، فيهتَدُونَ على يَديهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم (٢٦٥).

وبلسانِ الحَالِ: أن يَفْعَلَ العِباداتِ على الوَجْهِ المشْرُوعِ، وأن يُعامِلَ النَّاسَ بحُسْنِ الخُلُقِ حتى يَقْتَدُوا بِهِ، ولهذا تَجِدُ بعضَ العُلماءِ يَهتَدِي الناسُ بأفعالِهِ أكثرَ مما يَهْتَدُونَ بأقْوالِهِ.

انظُر -مثلًا- إلى أميرِ المُؤْمِنينَ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما أرادَ أن يُعَلِّمَ النَّاسَ كيف يَتَوَضَّأُ النَّبيُّ ﷺ جاءَ بِماءٍ وتَوَضَّأَ، والناسُ يَنْظُرونَ إليهِ، وقالَ: «هَكَذَا كَانَ وُضُوءُ رَسُولِ اللهِ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-»[1]، هَذِه الصورَةُ سوفَ تَرْتَسِمُ في الذِّهْنِ، وتَرْسُخُ فيه أكثرَ ممَّا لو بَيَّنَهُ بلسانِ المقَالِ.

فعَلَى العَالِمِ أن يَدْعُوَ الناسَ إلى دِينِ اللهِ بِلِسَانِ الحَـالِ، وبِلِسَانِ المقَالِ، ولهذا كانَ ابنُ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في آخِرِ عُمُرِهِ لما ثَقُلَ به اللَّحْمُ، وأوْجَعَتْهُ رِجْلاهُ، كان لا يَجْلِسُ مفترِشًا، يجلِسُ مترَبِّعًا، فقال له أحـدُ أبْنائِهِ: لماذا تَجْلِسُ هذَا الجُلوسَ؟ قال: «إنَّ رِجْلَيَّ لَا تُقِلَّانِي»[2]، قال ذلِكَ؛ لأنَّ العَالِمَ يُقْتَدَى به في أفْعالِهِ، كما يُقتَدَى بِهِ في أقْوالِهِ. فعلى العَالِمِ أن يكونَ داعِيَةً إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بلِسَانِ الحَالِ وبِلِسَانِ المقَالِ.

ومما يَجِبُ على طالِبِ العِلْمِ: أن يَنْشُرَ عِلْمَهُ بوَسائلِ النَّشْرِ، ووَسَائلُ النَّشرِ اليومَ كثيرَةٌ -والحمد لله- تكونُ بالشَّريطِ، وتكونُ بالكِتَابَةِ، وتكونُ بإلْقَاءِ المُحاضَراتِ، وتكونُ بالصُّحُفِ، المُهِمُّ أن عليه أن ينْشُرَ عِلْمَهُ بكُلِّ وسائلِ النَّشْرِ حسبَ استِطَاعَتِهِ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، أمَّا أن يتعَلَّمَ العِلْمَ، ثم يَبْقَى كأنَّه كِتَابٌ مُغْلَقٌ، أو كتابٌ مُحِيَ

---

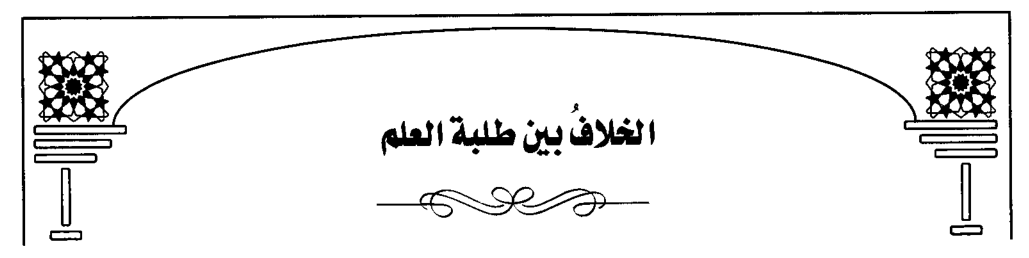
(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب في وضوء النبي ﷺ، رقم (٢٣٥).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٢٤، رقم ٦١٩١).

مَا كُتِبَ فيه، لا ينتَفِعُ النَّاسُ بِهِ؛ فإن هذا نَقْصٌ جدًّا في طالِبِ العِلْمِ، وهو لم يُؤَدِّ ما أوجَبَ اللهُ عليه مِنْ بَذْلِ العِلْمِ ونَشْرِهِ.

هذه نُبَذٌ مما يتَعَلَّقُ بطالِبِ العِلْمِ، أسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينْفَعَنِي وإياكُمْ بِهَا، وأن يجعَلَنَا ممن يَقُولُ ويَعْمَلُ، ويَسْمَعُ ويَنتَفِعُ.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبه وسلَّم.





الخلافُ بين طلبة العلم

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

فإن مِنَ المُهِمِّ الَّذِي يَجِبُ علينا جميعًا أن نَتَجَنَّبَه ما يقعُ من الخلافِ والنِّزاعِ والتَّعَصُّبِ لأحدٍ دونَ أَحَدٍ بينَ طَلَبَةِ العلم من الدُّعاةِ أو العُلَماء أو غيرهم؛ فإن هَذَا يُوجِب تفرُّق الأُمَّة وتنازعها، وإذا تنازعت الأُمَّةُ وتَفرَّقت ذَهَبت قُوَّتُها، فإن اللهَ يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وعلينا أن نَقْبَلَ الحقَّ من أيِّ مَصدرٍ كانَ، وعلينا أن نردَّ الباطل من أيِّ مصدرٍ كان، فالباطل نَردُّه، والحقُّ نَقْبَلُه.

واستمع إِلَى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، فإذا فَعَلوا الفاحشة تعللوا بأمرينِ: الأول: قولهم: وَجَدْنا عليها آباءنا، والثَّاني: قولهم: اللهُ أمرنا بها، وقولهم هَذَا فيه حقٌّ وباطلٌ، فـ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ هذا حق، و﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا باطل، فأبطل اللهُ الباطِلَ، وسَكَتَ عن الحقِّ إقرارًا له، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

إذن ردَّ الباطلَ وسكتَ عن الحقِّ؛ لأنَّه حق.

وجاءَ حَبْرٌ من الأَحْبارِ -أي من عُلماء اليهود- إِلَى النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّماوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثم أَيَّدَ ذلك رَسُولُ اللهِ ﷺ بقولِه تَعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧][1].

فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ الحقَّ منَ اليهوديِّ.

بل إن الرَّسُولَ ﷺ أقرَّ الحقَّ الَّذِي جاءَ من الشَّيطانِ، وهو أكبرُ عَدُوٍّ، يقولُ أبو هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهُ سَيَعُودُ**». فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**مَا هِيَ؟**»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ**»(١).

«**صَدَقَكَ**» يعني أَخبرَكَ بالصِّدْقِ، فأقرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الحقَّ الَّذِي جاء به منَ الشيطانِ.

إذن الحقُّ يُقْبَلُ من أيِّ إِنْسَان، والباطلُ يُرَدُّ من أيِّ إِنْسَانٍ، فلا نجعل ما يحصل من الخِلاف بينَ الدُّعاة بعضِهم مَعَ بعضٍ، أو بينَ العُلَماءِ سَبَبًا للتنازُع والتفرُّق والتعصُّب، وأنا أنتصِر لفُلَان، وأنتَ تَنتصِرُ لفُلَانٍ، فيَضِيعُ الوقتُ بالجَدَل الَّذِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

لا فائدةَ منه، بل فيه مَضَرَّةٌ لا شَكَّ، فهذا لَيْسَ بصوابٍ وليس بِسَديدٍ.

فانظُرْ ما يَنفَعُكَ وامشِ فِي الطريقِ الَّذِي يَنفَعُكَ، ودَعْ ما لا يَعْنيكَ، ولا تَقِسِ الحقَّ بالرِّجَالِ، بل العكسُ هُوَ الصحيحُ، وهو أن نَقِيسَ الرِّجَالَ بالحقِّ، يعني لا تَعْتَبِرِ الحقَّ بالرِّجَال ولكِنِ اعتبِرِ الرِّجَالَ بالحقِّ، والتعصُّبُ للأشخاصِ خطأٌ.

وأُريد بهذا التعصُّبَ للأشخاص فِي مثل زَمَنِنا هذا؛ لأَنَّهم قد يُخْطِئون، فلا تُوافق عَلَى الخطأ والصواب، بل اجعلْ نِيَّتَك وما فِي قلبِك أنك تتَّبع الحقَّ أينما كانَ، ولا تتعصَّب، ولا تُنافِر أخاكَ، ولا تجعل للشيطانِ عليك طريقًا يُلقِي بينك وبين أخيك العداوةَ والبغضاءَ من أجل التعصُّب.

أما ما يحصُل أو ما يُنسَب لبعضِ الدُّعاة، أو لبعض العُلَماء، فواجبنا أن نَسلُك فيه ثلاثةَ أمورٍ:

الأوَّل: التثبُّت، فكم من قولٍ نُقل إلينا فإذا سألنا عنه وَجدنا أَنَّه لا حقيقةَ له، وتُنسَب إلينا أقوالٌ ونحن لم نَقُلْها، ونَتَبَرَّأ منها، وكذلك يُنسَب لغيرنا أقوالٌ إذا بحثنا عنها وجدنا أَنَّه لا حقيقةَ لها. فلا بُدَّ قبل كل شيءٍ منَ التثبُّت، لا سِيَّما فِي زَمَنِ الهَوَى.

ثانيًا: المناقشة، وتكون المناقشةُ مَعَ مَن نُسِب إليه القولُ، فنسألُه ونقولُ: هل قلتَ بهذا، فإذا قالَ: نعم، فإننا نُناقشه، فقد يكون مُخْطِئًا حيث اعتمدَ عَلَى دليلٍ لَيْسَ بدليلٍ، وقد يكون مخطئًا لكونِه فَهِم الدَّليل عَلَى غيرِ مُرادِهِ، وكثيرًا ما يَعْتمِدُ الإِنْسَانُ عَلَى حديثٍ ضعيفٍ، وبعدَ المُناقشةِ يَتبَيَّنُ له ضعفُ الحَديثِ، فيَرجع.

وكثيرًا ما يَعْتمِدُ الإِنْسَانُ عَلَى فَهْمٍ فَهِمه من نصٍّ صحيحٍ من آيةٍ أو حديثٍ، ثمَّ بعدَ المُناقشةِ يَتبيَّن له خَطَأُ الفَهمِ، ويَرْجع.

إذن بعدَما يَثْبُت لك ما نُقل عن شخصٍ اتَّصِل به: سمِعنا عنك كذا وكذا، فهل هَذَا صحيح؟ فإذا قالَ: نعم، فإننا نناقشه، والواجب بعدَ المناقشةِ اتباعُ الحقِّ؛ إن كانَ معَه أو كانَ معك، ولا تتعصَّب لرأيكَ، ولا تُحرِّفِ النصوصَ من أجل رأيك، واتبع الحـقَّ، والحمدُ للهِ الرجوعُ للحـقِّ خيرٌ منَ التمادي فِي الباطلِ؛ كما قالَ أمير المُؤْمِنِينَ عمرُ بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**مُرَاجَعَةُ الحقِّ خَيْرٌ منَ التَّمادِي في الباطِلِ**»[1].

ورسولُ اللهِ ﷺ وهو أعلى النَّاسِ مقـامًا، إذا تَبيَّن له أن الأمر عَلَى خِلاف ما يقول رجَعَ، وهو الرَّسُولُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فقد قَدِم المَدِينَة من مكةَ، ومكةُ ليستْ ذاتَ زرعٍ ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧]، ما به نَخيل ولا زُروع، فلمَّا قدِم المَدِينَةَ وجَدَ أن أهل المَدِينَةِ يُؤَبِّرون النخلَ، والتأبيرُ: التلقيحُ، يعني يُؤْخَذُ من طَلْعِ الفحلِ ويُوضع فِي ثَمَرة النخلةِ.

فرأى أن فيه مَشَقَّةً، وكان ﷺ شَفِيقًا رحيمًا بالمُؤْمِنِينَ، وتتمثَّل المشقة في أن الرجل يَصْعَدُ للفحلِ يأتي باللِّقاح منه ثمَّ يَصْعَدُ للنخلةِ يُلَقِّحها، ويُمْكِنُ ما يلقحها، يعني ما يكفيها التلقيح مرةً واحدةً، فتحتاج مرتين أو ثلاثًا، فقال: «**لَوْ لَمْ تَفْعَـلُوا لَصَلَحَ**». وكان الصَّحَـابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أطوعَ النَّاس لرسولِ اللهِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فهم أطوعُ النَّاسِ، وأتقَى النَّاس، فتركوا اللِّقاحَ، ففَسَدَ الثمرُ وَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ، فَقَـالَ: «**مَا لِنَخْلِكُمْ؟**». قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَـالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[2]. يعني فأبِّروا.

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٠٦، رقم ١٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، دون ما ذكره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٣).

فالإِنْسَانُ إذا تَبيَّن له الخطأُ وجَبَ عليه الرجوعُ، لا سِيَّما فِي الأمور الشَّرعيَّة، فيَجِبُ عَلَى كلِّ إِنْسَانٍ تَبيَّنَ له خطأُ قولِه أن يرجعَ عنه، وإذا كانَ قد أعلنَ قولَه السابقَ الخطأَ فيَجِبُ أن يُعْلِنَ الرجوعَ عنه، ولا بأسَ، بل هَذَا هُوَ الواجبُ، فنَاقِشْ مَن نُسِبَ إليه القولُ أوّلًا، ثمَّ الواجب عَلَى كلٍّ منكما أن يَتَّبِعَ الحقَّ.

ثالثًا: إذا أصرَّ عَلَى خَطَئِه بعد بيانِه فحينئذٍ يجب أن يُبَيَّنَ خَطَؤُه للنَّاسِ، وأن يُحذَّرَ النَّاسُ من خَطَئِه؛ لأنَّ المُجادَلَةَ فِي الحقِّ بعدَما تَبيَّنَ مُعاندةٌ ومُضادَّة للحقِّ، فيجب أن يُبَيَّنَ خَطَؤُه فيما أخطأَ فيه، وأن يُحذَّرَ النَّاسُ مِنِ اتباعِه عَلَى هَذَا الخطأِ.

ولكن هَذَا الخطأ لا يغطِّي جميع صوابه، بمعنى أن نجحدَ كل صوابٍ وكل فائدةٍ صدرتْ من هَذَا الشخص، فإذا أخطأ مرةً فلا يعني ذلك أن جميع ما أصاب فيه فهو باطِل ومردود، فنَحْنُ قلنا: الحق يُقبَل ممن جاء به، فإذا أخطأ هَذَا الرجل فِي مسألةٍ وأصاب فِي مسائلَ فإننا نَقبَل صوابَه.

وما أحسنَ عبارةً قالها زَيْنُ الدِّين ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أحدُ تلاميذِ ابنِ القَيِّمِ -وابن القَيِّمِ معروف أنَّه كانَ تلميذًا لشيخِ الإسلامِ ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ- قالَ فِي كتابه (القواعدُ الفقهيَّةُ) وهو كتابٌ جيِّد أنصحُ به كلَّ مَن يريدُ الفقهَ عَلَى وجهٍ مُقَعَّدٍ، قال: «يَأبِي اللهُ العِصمةَ لكتابٍ غيرِ كتابِه، والمُنْصِفُ مَنِ اغتفرَ قليلَ خطأِ المَرْءِ فِي كثيرِ صَوابِه»[1].

وهذا صحيحٌ، فالإِنْسَان المنصِف الَّذِي يتَّقي الله هُوَ الَّذِي يعدِل، قال تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ

(١) انظر: شرح قواعد ابن رجب لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (١/ ١٨).

قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [المائدة:٨] .

إذن الواجب علينا نحو هَذَا الخلاف الَّذِي يحدث بين طلبة العلم، أو بين الدُّعاة، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، الواجب علينا أن نتبعَ الحقَّ أينما كان، وألَّا نتَّخِذَ من هَذَا الخلافِ سببًا للتعصُّب والعداوة والتحزُّب؛ لأنَّ الله يقول فِي القُرْآن: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون:٥٢]، فكون هَذَا الخلاف ينتشر بينَنا لا شَكَّ أنَّه من مَضرَّة الدعوة، فيُوجِب هذا أن الشباب يقف حائرًا؛ مَن نتَّبع؟ ويوجب أن يتنازعَ النَّاس فيما بينهم، وكل هَذَا لَيْسَ له ما يُوجبه، بل العقلُ والشَّرعُ يَقتضي تَجنُّبه والبُعْدَ عنه.

أَسألُ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يَجْمَعَ كلمتَنا جميعًا عَلَى الحقِّ، وأن يجعلنا ممَّن رأى الحقَّ حقًّا واتَّبَعَه، ورأى الباطلَ باطلًا واجتنبَه.

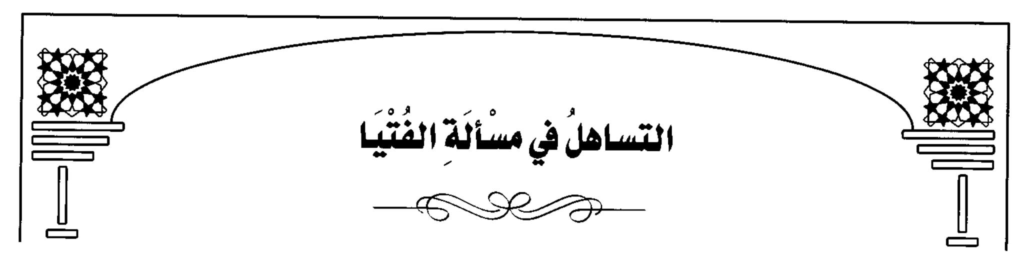
وما أحوجَ النَّاسَ اليومَ إِلَى علمٍ نافعٍ وعقلٍ راجحٍ، عِلْمٍ وعَقْلٍ، علم تَرتفِع به الشُّبُهاتُ، وعَقْل يَحْجُز الإِنْسَانَ عنِ الشهواتِ؛ لأنَّ بلاء الإِنْسَانِ من أحد الأمرينِ؛ إما الجهل وإما الشهوة.

فالإِنْسَان يُؤتَى من أَحَدِ أمرين: إما الجهل وإما الشهوة بألَّا يريد الحقَّ؛ ولهذا جاء فِي الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقًّا**» وهذا به يَزول الجهلُ «**وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ**»[1]، وهَذَا به تزول الشهوةُ، ويكون مرادُ الإِنْسَانِ مرادَ اللهِ ورسولِه.

نسألُ اللهَ أن يَجْعَلَنا ممَّن رأَى الحقَّ حقًّا واتَّبعه ورأى الباطِلَ باطلًا واجتنبَه، وألَّا يجعلَ ذلك مُلْتَبِسًا علينا فنَضِلَّ، إنه جَوَادٌ كريم، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّم عَلَى نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (١/ ٥٧١) ط دار طيبة.



التساهلُ في مسْألةِ الفُتْيَا

أصْبَحَتْ مسْألَةُ الفُتْيَا الآن -مع الأسف- كأنَّها بِضَاعَةٌ يَعْرِضُها النَّاسُ للزَّبائنِ، فهذَا معَهُ ثوبٌ، وهذا مَعَهُ سِرْوَالٌ، وهذا مَعَهُ غُتْرَةٌ، وهذا مَعَه طاقيةٌ، وكل واحِدٍ يُفْتِي بشَيْءٍ.

فقد جاءَ إليَّ رَجُلٌ العَصْرَ معتكِفًا، وهو رجلٌ من خيارِ عبادِ اللهِ إن شاءَ اللهُ، كبيرُ السِّنِّ، فقال: إنَّ شابًّا مِنَ الشَّبابِ قَدْ حدَّثَهُم، فقال: يَحْرُمُ على المُعتكِفِ ما يحرُمُ على المُحْرِمِ. وقال: لا تَقُصُّوا أظْفَارَكُمْ، ولا تَقُصُّوا شَوارِبَكُمْ، ولا تَتطَيَّبُوا، ولا تَلْبَسُوا القَمِيصَ، والمُعتكِفُ يلْبَسُ إزَارًا ورِدَاءً! فقلتُ له: دَعْهُ يُلَبِّي ويقول: لبَّيْكَ اعتِكَافًا. بَدَلًا مِنْ: لبَّيْك عُمْرةً!

فَقُلت لَهُ مُستَنكرًا: سُبْحانَ اللهِ، إلى هذا الحَدِّ تَجَرَّأَ في الفُتْيَا -والعياذ بالله-، ما عَلِمَ هؤلاءِ النَّاسُ أنَّهُم إذَا قالوا قَوْلًا لا يَنْبَنِي على كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ فإنهم سوفَ يُسألُونَ عنه يومَ القِيامَةِ؟ كيف يَفْتَرُونَ علَى اللهِ كَذِبًا؟ فالشَّرِيعَةُ مِنَ اللهِ، وليس لَدَيْهِمْ عِلْمٌ أن اللهَ قالَ هكذا، أو أن رَسولَهُ ﷺ قالَ هكَذَا؟! واللهِ لَيُسْألُنَّ عمَّا كذَبُوا عَلَى اللهِ فيما أفْتَوْا بِهِ عبادَ اللهِ، وأضَلُّوهُمْ عن سَبيلِ اللهِ.

فعليهم أن يَرْحَمُوا أنْفُسَهُم أوَّلًا، وأن يَرْحَمُوا عِبادَ اللهِ ثانِيًا، ولا يَمْنَعُوا عبادَ اللهِ ممَّا يمْنَعُهُم اللهُ منْهُ. لِيَتَّقُوا اللهَ في أنْفُسِهِمْ، وفي إخوانِهِم المُسلِمِين، ثم لْيَحْذَرُوا الوَعِيدَ الشَّدِيدَ الذي قالَ اللهُ فيهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٤]، وما أكْثَرَ العجَائبَ التي نَسْمَعُـها مِنْ هؤلاءِ الذينَ أخَـذُوا بِطَرَفٍ مِنَ العِلْمِ، فظنُّـوا أنَّهم بلَغُوا الغايَةَ، وصارَ هذَا الأمْرُ سَبَبًا لأُمورٍ كثِيرَةٍ، مِنْها:

أولًا: الإعجابُ بالنَّفْسِ، فتَجِدُ الواحِدَ منهم مُعْجَبًا بنَفْسِهِ، وكأنَّ اللهَ قَدْ جمَعَ إليهِ عِلْمُ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، حتى إنَّ بَعْضَهُم يقولُ: إذا قُلْتَ لَهُ: هذا قولُ عُمَرَ، هذا قولُ أبي بَكْرٍ، هذا قولُ أحمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، هذا قولُ الشَّافِعِيِّ، قال: ما شاءَ اللهُ، هُم رِجالٌ ونَحْنُ رِجالٌ! والرُّجُولَةُ ليستْ باللِّحْيَةِ والشارِبِ فقَـطْ، فالرُّجُولَةُ في الفِقْـهِ في دِينِ اللهِ، كما قالَ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّـهْهُ في الدِّينِ**»[1]، صحِيحٌ أنَّك تُسَمَّى ذكَرًا، وهُمْ ذُكُورٌ، لكِنْ فَرْقٌ بينَ الثَّرَى والثُّرَيَّا، فليسَ عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ مثلَ ما عِنْدَهُم.

لذلك يا أخِي، ارْفُقْ بنَفْسِكَ، اعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِكَ حتى يَعرِفَ الناسُ قَدْرَكَ، مَن لم يَعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِهِ لا يَعْرِفُ الناسُ قَدْرَهُ.

ثانيًا: إنَّهم يَفْتَرُونَ علَى اللهِ وعَلَى رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكَذِبَ، فيَقولونَ: أحَلَّ اللهُ كذَا وحَرَّمَ كذَا. وهو ليسَ حَرَامًا ولا حَلالًا، بلِ الأمْرُ على عَكْسِ ما يقولونَ، وانظُرْ إلى أهْلِ العِلْمِ الذين عِنْدَهم عِلْمٌ باللهِ، وبأحكامِ اللهِ، فالإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُسْأَلُ عن مسأَلَةٍ، فلا يَقُـولُ: هذِهِ حرامٌ. حتَّى وإن كانَ فيهَا دَلِيـلٌ على التَّحْرِيمِ، بل يقولُ: أكْرَهُ كذا، لا يُعْجِبُنِي كذَا. وأحيـانًا يقولُ: أجبُنُ عنه. أي: لا أُجِيبُ بِهِ، وهو الإمامُ أحْمَدُ، إمامُ أهلِ السُّنَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَجْبُنُ أن يقولَ عَلَى اللهِ ما لا يَعْلَمُ، ويجبُنُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب «مَن يُرِد اللهُ به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين»، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزَّكاة، باب النَّهْي عن المسألةِ، رقم (١٠٣٧).

أن يَقُولَ عَنِ الشيءِ: إنَّهُ حرامٌ، إلا إذا صَرَّحَ اللهُ بِهِ أنه حَرَامٌ. كأنْ يأتِيَ رَجُلٌ فيَسْأَلَ مَثَلًا عَنِ المَيْتَةِ حَرَامٌ أم حَلالٌ؟ فهنا نقـولُ: حرامٌ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾. وكذلِكَ: الرِّبَا حلالٌ أم حرامٌ؟ نقول: حَرامٌ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

لكن هناكَ أشياءُ فِيها نَهْيٌ دُونَ التَّصْرِيحِ والتَّحْرِيمِ، كان الأَئِمَّةُ أهلُ الْوَرَعِ يتَـوَرَّعُونَ عن إطلاقِ الحَرامِ؛ لأَنَّهم يَخْـشَوْنَ أَلَّا يكونَ اللهُ أرادَ به التَّحْرِيمَ، أو أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يُرِدْ به التَّحْرِيمَ. وهؤلاءِ لا يُهِمُّهُم أن يقُولُوا: هذا حَلالٌ، هذا حَرامٌ، هذا واجبٌ، هذا عليه دَمٌ. فقـد سَمِعْتُ رَجُلًا قبلَ أن آتِيَ إلى مَكَّةَ يقولُ: صَلَّى بِنا إمَامٌ وأخْطَأَ، وسَلَّمَ مِنْ رَكعَةٍ في التَّراويحِ، فلَمَّا سَلَّمَ مِنْ ركعَةٍ، قُلْنا له: يا إمامُ، أنتَ صَلَّيْتَ ركعَةً واحِدَةً. قال: الأمرُ سَهْلٌ، انْوُوا هذِهِ الركعَةَ وِتْرًا! وانتهَيْنَا وانْصَرَفنَا. أي: يريدُ أن يَنْوِيَ بعدَ الفِعْلِ، والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[1]، فالنِّيَّةُ سابِقَةٌ للعَمَلِ، وهذا أرادَ بِفِقْهِهِ البالِغِ أن تكونَ النِّيَّةُ بعدَ العَمَلِ، فتكونَ هذه الرَّكْعَةُ التي أخْطَأَ فِيهَا ونَسِيَ وِتْرًا يَخْتِمُ به صلاةَ اللَّيْلِ!!

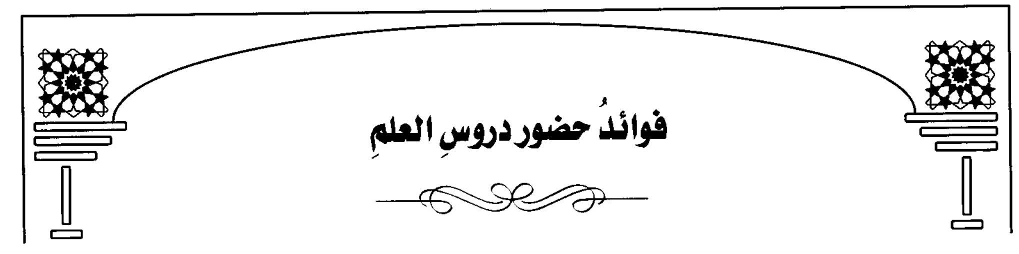
كلُّ هذا مِنَ التَّسَاهُلِ في الفَتْوَى، فإِيَّاكُمْ والتساهُلَ في الفَتْوَى، والإنسانُ إن كانَ اللهُ أرادَ أن يكونَ إمامًا، سيكونُ إمامًا قَبْلَ أن يَتَسَرَّعَ إلى الفَتْوَى. ولهذا يُروَى عَن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا**»[2].

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وبارَكَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البُخاريُّ: كتاب بَدْء الوحي، باب كيف كان بَدْء الوَحْي إلى رسول الله ﷺ رقم (١)، ومُسْلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ**». وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ تعليقًا: كتاب العلم، بابُ الاغتباطِ في العلم والحِكْمة.



فوائدُ حضور دروسِ العلمِ

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ أمَّا بَعْدُ:

فإن اللقاءاتِ بينَ عامةِ الناسِ وبينَ عُلمائِهم لها فوائدُ كثيرةٌ:

منها ارتباطُ الناسِ بعضِهم ببعضٍ.

ومنها أنَّ العلماءَ يَعرِفونَ مشاكلَ العامةِ؛ لأن العلماءَ ليسوا كالشمسِ تشملُ كلَّ شيءٍ، بل يحتاجونَ إلى مَن يُعْلِمُهم ويُخبِرُهم بأحوالِ الناسِ حتى يَستطِيعوا أن يُخاطِبوا الناسَ بمَشاكِلِهمْ.

ومنها أنَّ مجالسَ العلمِ مجالسُ خَيرٍ وذِكْرٍ وتعليمٍ لشريعةِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ومنها أنَّ العامةَ إذَا اعتَادُوا الاعتمادَ على العلماءِ صارَ العلماءُ مَرْجعًا لهم، وصارُوا يأتونَ إليهم لحلِّ مَشاكِلِهمْ، بخلافِ ما إذا انْزَوى العلماءُ وصَاروا لا يَتَّصلونَ بالعامةِ ولا يتفهمونَ أحوَالَهم، ولا يَبحثونَ عن مَشاكِلِهم، فإن الأمورَ تَضِيعُ.

والحمدُ للهِ الذي بنِعْمتِهِ تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ.





قبول الحق

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، فاحتجوا بأَمْرَيْنِ: **الأوَّل:** ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، **والثاني:** ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، انْظُرِ العدلَ والإنْصافَ فِي مخاصمةِ الخَصْمِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، وسَكَتَ عن قولِهِم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ لأَنَّهُم صَادِقون فِي أَنَّهُمْ وجدوا آباءَهم عَلَى هَذِهِ الفاحشةِ أو عَلَى هَذَا الظلمِ، فأَقَرَّ اللهُ الحقَّ وأبطلَ الباطلَ، الباطلُ قولُهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، والحقُّ قولُهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، فهل يجوزُ أَن نقبلَ الحقَّ مِن الكافرِ؟ **الجوابُ:** نَعَمْ يجوزُ، لأننا نقبلُ الحقَّ للحقِّ.

فيَجبُ أَن نَرُدَّ الباطلَ مِنَ المُسْلِمِ؛ لأَنَّ الباطلَ باطلٌ، ولِهَذَا لما قَالَ الشيطانُ لأبي هريرةَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.

وآيةُ الكُرْسِيِّ هي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

هذه الآيةُ أخْبَرَ الشيطانُ أبا هُريرةَ أَنَّهُ إذَا قَرأَها لم يَزَلْ عَلَيْهِ مِن اللهِ حافظٌ وَلَا يَقْرَبُه شيطانٌ حَتَّى يُصْبِحَ، فأخبرَ أبو هُريرةَ بذلك النَّبِيَّ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1]، وأَقَرَّه.

ولما جَاءَ رَجُلٌ عالمٌ مِن عُلماءِ اليهودِ إِلَى النَّبِيِّ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- وقال له: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ»[2]، وذكَرَ بَقِيَّةَ الحديثِ؛ ضَحِكَ النَّبِيُّ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- تَصْدِيقًا لقولِه، ثُمَّ قَرأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، أَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا العالمَ اليهوديَّ عَلَى مَا قَالَ؛ لِأَنَّهُ حقٌّ.

إِذَنْ يا أخي اقْبَلِ الحقَّ مِن كُلِّ مَن جَاءَ به؛ لِأَنَّهُ حقٌّ.

وَلِهَذَا قَالَ العلماءُ: اعْرِفِ الرِّجالَ بالحقِّ، وَلَا تَعْرِفِ الحقَّ بالرجالِ، يَعْنِي

---

(١) أخرجه البُخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رَجُلًا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه المُوكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجلٍ مُسَمًّى جاز، رقم (٢٣١١).

(٢) أخرجه البُخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قولِه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، رقم (٤٥٣٣)، ومُسْلم: كتاب صِفة القيامة والجنَّة والنار، رقم (٢٧٨٦).

لَا تَقِسِ الحقَّ بالرجالِ؛ لِأَنَّ الرجالَ قَدْ يُخْطِئونَ وَقَدْ يُصِيبُونَ، ولَكِنِ اعْرِفِ الرِّجالَ بالحقِّ، فمتى رأيتَ هَذَا الرجلَ قد جَاءَ بحقٍّ فَهُوَ رجلٌ، وإن جَاءَ بباطلٍ فليس برجلٍ.

هذه دُرَرٌ وفوائدُ مما سَمِعْنَا، وما أعظمَ القرآنَ، وما أكثرَ فوائدَه لمن تَدَبَّرَه، وما أَيْسَرَ الوُصولَ إِلَى معناه لمن تَذَكَّر به، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، هَذَا الاستفهامُ للتشويقِ، يَعْنِي تَذَكَّرُوا حَتَّى يَتبَيَّنَ لكم مِن القرآنِ مَا لم يَكُنْ بَانَ لِغَيْرِكم.

وَلِهَذَا لما قَالَ أبو جُحَيْفَةَ لعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ يريدُ أَن يقولَ: هل أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بالخلافةِ لكم؟ قَالَ: «**لَا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ**». قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: «**العَقْلُ، وَفِكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَلَّا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»[1].

وبهذا نَعْلَمُ كَذِبَ مَن قالوا: إنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ هُوَ الخليفةُ بَعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، ونَشهدُ أَنَّ الخليفةَ حَقًّا بَعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ هُوَ أبو بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَشَارَ النَّبِيُّ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- إِلَى كَوْنِهِ الخليفةَ بأمورٍ واضحةٍ: منها أَنَّهُ لما مَرِضَ وَكَّلَ أبا بكرٍ لِيُصَلِّيَ بالناسِ[2]، لم يُوَكِّلْ عَلِيًّا وَلَا عُثمانَ، وَلَا عُمرَ وَلَا ابنَ عباسٍ، وَلَا غَيْرَهم، بل وَكَّلَ أبا بكرٍ.

---

(١) أخرَجه البُخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فِكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

(٢) أخْرَجه البُخاري: كتاب الأذان، باب حَد المريض أَن يَشْهَدَ الجماعة، رقم (٦٦٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عَرَض له عُذْر من مَرَضٍ، رقم (٤١٨).

ولما مَرِضَ أَمَرَ أَن تُسَدَّ جميعُ الأبوابِ المُشْرَعةِ فِي المسجدِ إِلَّا بابَ أبي بكرٍ[١]، إشارةً إِلَى أَنَّهُ سيكونُ الخليفةَ ويَأْتِيهِ الناسُ مِنَ المسجدِ.

ولما تَخَلَّفَ النَّبِيُّ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- عن الحجِّ فِي السَّنةِ التاسعةِ أَمَرَ أَبَا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَن يَحُجَّ بالناسِ[٢].

ولما جاءَته امرأةٌ فِي حاجةٍ ووَعَدَها العامَ المقبلَ قالت: أَرَأَيْتَ يا رَسُولَ اللهِ، إِنْ لَمْ أَجِدْكَ؟ قَالَ: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي، فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**»[٣]. وقال: «**وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ**»[٤]. وقال: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ**»[٥]، يَعْنِي أعظمَهم مِنَّةً عَلَى الرَّسُولِ هُوَ أبو بكرٍ. وقال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ**»[٦]. وقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**». قِيلَ: مِنَ الرِّجَالِ. قَالَ: «**أَبُوهَا**»[٧].

فكيفَ يمكنُ بَعْدَ هَذَا أَنْ نَقولَ: إِنَّ الخلافةَ لعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؟ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَانَ فِي مَوْضِعِه مِن الخِلافةِ تَمَامًا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَحَقُّ الناسِ بالخلافةِ بَعْدَ عثمانَ،

(١) أَخْرَجه البُخاري: كتاب الصلاة، باب الخَوْخة والمَمَر فِي المسجد، رقم (٤٦٦)، ومسلم: كتاب فَضائل الصحابة، باب من فَضائل أبي بكر الصديق، رقم (٥٣٢).
(٢) أخرجه الطبراني فِي الأوسط (٣/ ١٩٦، رقم ٢٩٠٩).
(٣) أَخْرَجه البُخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة، باب الأحكام التي تُعْرف بالدلائل، وكيف معنى الدلالة وتفسيرها، رقم (٧٣٦٠).
(٤) أَخْرَجه مُسْلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فَضائل أبي بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٧).
(٥) أَخْرَجه مُسْلم: كتاب فَضائل الصَّحابة، باب من فَضائل أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢).
(٦) أَخْرَجه البُخاري: كتاب المَناقِب، باب قول النَّبي ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا**»، رقم (٣٦٥٦)، ومُسْلم: كتاب فَضائل الصحابة، باب من فَضائل أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٣).
(٧) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب من فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٨٩٠).

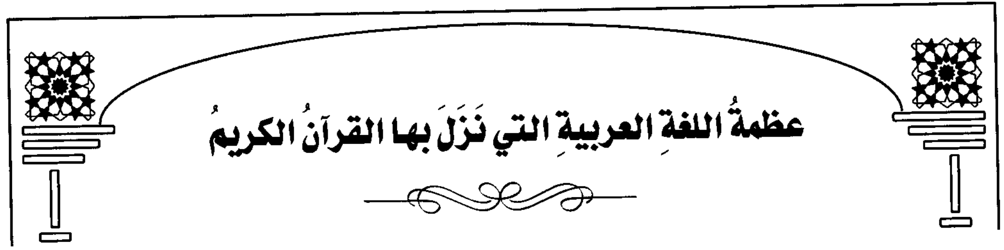
ومَنْ نَازَعَهُ فِي الخلافةِ فَإِنَّهُ مُخْطِئٌ، لكنه مجتهدٌ، والمجتهدُ مِن هَذِهِ الأمةِ إِذَا أَخْطَأَ فَلَه أجرٌ، وإنْ أَصَابَ فله أَجْرَانِ.

المهمُّ أَنَّ الواجبَ عَلَيْنَا أَنْ نقبلَ الحقَّ مِنْ كُلِّ مَن جَاءَ به، وَأَنْ نَعْرِفَ الرجالَ بالحقِّ لَا أَنْ نَعْرِفَ الحقَّ بالرجالِ؛ لِأَنَّكَ لو عَرَفْتَ الحقَّ بالرجالِ لَقَبِلْتَ الحقَّ مِن فلانٍ لِأَنَّهُ عندَكَ رجلٌ، وتَرُدُّه مِن فلانٍ لِأَنَّهُ عندك لَيْسَ برجلٍ.

اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبِسًا عَلَيْنَا فَنَضِلَّ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه وسَلَّم





عظمةُ اللغةِ العربيةِ التي نَزَلَ بها القرآنُ الكريمُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأُصلِّي وأُسَلِّمُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فاللغةُ العربيةُ التي نزلَ بها القرآنُ الكريمُ لغةٌ عميقةٌ دقيقةٌ، تختلفُ المعاني فيها باختلافِ الأدواتِ، ولا شكَّ أن اللغةَ العربيةَ أشرفُ اللغاتِ وأفضلُ اللغاتِ؛ لأن القرآنَ نزلَ بها، والقرآنُ أشرفُ الكتبِ؛ ولأن أفضلَ الأنبياءِ كانَ يَنْطِقُ بها، وهوَ محمدٌ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- ولأنَّهُ رُوِيَ أنها لسانُ أهلِ الجنةِ، وحُقَّ لنا أن نَفْخَرَ بهذهِ اللُّغةِ، وأن نَعْتزَّ بها، وأن نَتعلَّمَها؛ لأن تَعلُّمَها مما يُعِينُ على فَهْمِ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه ﷺ وكلامِ أهلِ العلمِ.

ولكن معَ الأسفِ الشديدِ فإن بعضَ المَخْدُوعينَ بالكفارِ منَ الغَرْبيينَ، وغيرِ الغَرْبيينَ، أصبحَ بعضُهم يَتنكَّرُ للُّغةِ العربيةِ، فصارَ يُخاطِبُ باللغةِ الإنجليزيةِ، وصارَ يَكْتُبُ الإرشاداتِ على اللافتاتِ باللغةِ الإنجليزيةِ، ونَجِدُ اللافتاتِ على أبوابِ المتاجرِ باللغةِ الإنجليزيةِ المحضةِ، التي ليسَ معها لغةٌ عربيةٌ، ولا شكَّ أن هذا انتكاسٌ وضعفٌ مُتناهٍ في الشخصيةِ.

فأنتَ في بلدٍ لا تَتكَلَّمُ إلا باللغةِ العربيةِ، فلماذا أيها الرجلُ المُنخدِعُ الضعيفُ الشخصيةِ لماذا تتحولُ إلى اللغةِ الإنجليزيةِ وتَدَعُ اللغةَ العربيةَ، ولو كانَ أهلُ البلدِ لا يَعْرِفونَ إلا اللغةَ الإنجليزيةَ لقُلْنا هذا عذرٌ.

ولهذا كانَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضرِبُ الرجلَ إذا رآهُ يتكلمُ بالرَّطانةِ الأعجميةِ؛ لأن هذا مَسْخٌ للغةِ العربيةِ، وتَعلُّمُ اللغةِ العربيةِ الذي يتوقفُ عليها فَهْمُ كتابِ اللهِ، وسُنَّةِ رسولِهِ فرضُ كفايةٍ، وقد يكونُ فرضَ عينٍ، بخلافِ اللغاتِ الأخرى، فالحذرَ الحذرَ منَ الانسلاخِ منَ الشخصيةِ العربيةِ.

إن التَّكَلُّمَ باللغة الأجنبية يُؤدِّي إلى إعزازِ أهلِ هذهِ اللغةِ، فالإنجليزيُّ إذا رَأَى أن لُغتَه هِيَ التي تُكْتبُ على المتاجرِ في جَزيرةِ العربِ دونَ الكلامِ العربيِّ، سينتفخُ وسيشمخُ بأنفِه وسيقولُ: عَلَتْ لُغَتي على لُغةِ هؤلاءِ القومِ في عُقرِ دارِهم. ولا نَرْضَى أن يأتيَ رجلٌ إنجليزيٌّ أحمرُ الوجهِ طويلُ العنقِ فيفخرُ علينا، لا سِيَّما إذا كانَ كافرًا.

فيَجِبُ علينا أن نستحيَ أَوَّلًا منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن نُبَدِّلَ لغةَ كلامهِ بلغةٍ أجنبيةٍ، وأن نستحيَ ثانيًا من إخواننا المسلمينَ الذينَ لا يَعرِفونَ إلا اللغةَ العربيةَ، حيثُ نُحاوِلُ أن نَرْجِعَهم إلى الوراءِ باستعمالِ اللغةِ الإنجليزيةِ مكانَ اللغةِ العربيةِ.

فإن قالَ قائلٌ: لو كتبَ العربيةَ، وتحتَها الإنجليزية هل يجوزُ؟

قلنا: نظرًا للضرورةِ وكثرةِ الأجانبِ يجوزُ، أما أن تُهْدَرَ اللغةُ العربيةُ وتُمحى منَ الوجودِ وتُكْتَب اللافتاتُ باللغةِ الإنجليزيةِ فهذا خطأٌ عظيمٌ، والواجبُ على المُراقِبِينَ في البلدياتِ أو غيرِها أن يلاحظُوا ذلكَ، حتى لا تتحولَ البلادُ الإسلاميةُ وتبدو وكأنها بلادٌ أوروبيةٌ، وأن يأخذُوا بيدٍ من حديدٍ على أصحابِ هذهِ المتاجرِ أو غيرِها، الذينَ يكتبونَ اللافتاتِ باللغةِ الإنجليزيةِ دونَ اللغةِ العربيةِ.

وسمعنَا أن بعضَ الناسِ يُعَلِّم أولادَه الصغارَ التَّلَفُّظَ باللغةِ الإنجليزيةِ

في أمورٍ شرعيةٍ كالسلامِ، فالسلامُ عِبادةٌ أمرَ بِهِ النبيُّ ﷺ بلْ قالَ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(١).

وأخبرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن إفشاءَ السلامِ من أسبابِ دخولِ الجنةِ، وهذا يَدُلُّ على الحثِّ عليهِ، وإذا أردتُ أن أُسَلِّمَ، فليَكُنْ ذلكَ باللغةِ العربيةِ: (السلامُ عليكمْ).

والعجيبُ أن العجمَ، وهم كلُّ مَن سِوى العربِ، إذا سلَّموا فإنهم يُسلِّمونَ باللغةِ العربيةِ، لكن منَ العربِ الذين أهانُوا أنفسَهُم مَن يُعَلِّمونَ أولادَهم أن يسلموا باللغةِ غيرِ العربيةِ، يقولُ لابنِهِ إذا أرادَ أن ينصرفَ: (باي باي) ومعنى هذهِ العبارةِ: في أمانِ اللهِ، أو السلامُ عليكَ.

وهذا خطأٌ، فيجبُ ألَّا نتهاونَ بهذهِ الأمورِ، ولا نَنسلخ مِن قِيَمِنا، ولا ننسلخ من عُروبتنا؛ لأن اللغةَ من أكبرِ مُقوِّماتِ الشعوبِ، ونحنُ وللهِ الحمدُ دينُنا كتابُه بلسانٍ عربيٍّ، فكلامُ نبيِّنا ﷺ بلسانٍ عربيٍّ، وكلامُ علمائنا وسلفِنا بلسانٍ عربيٍّ، ولغتُنا الدارجةُ بينَنا هيَ اللغةُ العرفيةُ بلسانٍ عربيٍّ، وإنِ اختلفتْ بعضَ الشيءِ، فلا يجب أن ننسلخَ من لغتِنا ونأخُذَ بلغةِ غيرِنا.

وإن كانَ هناكَ ضرورةٌ أن تُبيِّنَ لغيرِ العربِ الذينَ في بلادِك أن هذا المتجرَ يشتملُ على كذَا وكذَا، فاكْتُبِ اللغةَ العربيةَ فوقُ، واكْتُبِ اللغةَ غيرَ العربيةِ تحتُ،

(١) أخْرَجه مُسْلم: كتاب الإيمان، باب بَيان أنه لا يَدْخُل الجنةَ إلا المؤمنون، وأن مَحبَّةَ المؤمنين من الإيمانِ، وأن إفشاء السلام سببًا لحصولها، رقم (٥٤).

ولتكنِ اللغةُ العربيةُ بارزةً بحروفٍ أكـبرَ، ومِدادٍ أَبْيَنَ، حتى يَظْـهَرَ بذلكَ فضلُ اللغةِ العربيةِ على غيرِها منَ اللغاتِ.

وأَقْبَحُ مِن هذا أن يَرَى الإنسانُ أنهُ إذا استعملَ اللغةَ غيرَ العربيةِ فإن هـذا تَقَدُّمٌ ورُقيٌّ، والواقعُ أن في هذهِ الأعمالِ تَأَخُّرًا وانحطاطًا، والإنسانُ يجبُ أن يُحافِظَ على قِيَمِه وعلى قيمتِه وعلى ما يُثَمِّرُ دينَه.

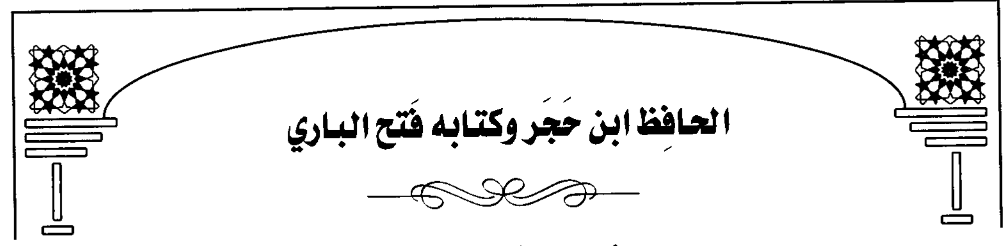
وإذا أخذنَا بهذهِ اللغاتِ فسيكونُ فهمُ القرآنِ والسُّنَّةِ علينا صَعْبًا؛ ولذلكَ نَجِدُ العلماءَ الذينَ يُعتبرونَ من فحولِ العلماءِ، إذا كانُوا لا يفقهـونَ اللغةَ العربيةَ نَجِد أن مؤلفاتِهم فيها كثيرٌ منَ الأخطاءِ؛ لأنهم لم يُحِيطُوا عِلْمًا تامًّا باللغةِ العربيةِ.

فالواجبُ علينا أن نَشْكُرَ اللهَ على نِعَمِه أنْ جَعَلَنَا من أهلِ اللغةِ العربيةِ التي نَستعِينُ بها على فَهْمِ كتابِ اللهِ، وسُنَّةِ رسولِه -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- وأن نَعْتَزَّ بأنفسِنا وقِيَمِنا ومُقوِّماتِنا، وأن نَدَعَ مثلَ هذهِ السَّفاسفَ.

كما نرجُو منَ المسؤولينَ في البلـدياتِ أو غيرِها، ممن يُهِمُّهُـم هذا الأمرُ أن يلاحظُوا ذلكَ ملاحظةً تامةً، وأَلَّا يجـعلُوا للمتلاعبينَ سبيلًا ليُهدروا لُغتَنَا، حتى تصبحَ أسواقُنا وكأنها قِطعٌ من أسواقِ أوروبا.

نسألُ اللهَ الهدايةَ، وأن يَحْفَظَ لُغتَنَا التي هي من مُقوِّماتِنا وقيمِنا، والمساعِدَةَ لنا على فَهْمِ كتابِ اللهِ، وسُنَّةِ رسولِهِ -صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-.

وصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ



الحافظ ابن حَجَر وكتابه فَتح الباري

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّينَ وإمامِ المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

نَتكَلَّمُ عن الحافظِ ابنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب فتحِ الباري في شرحِ البُخاري، هذا الكتابُ -أعني شَرْحَ البُخاري وهو فتح الباري- له نظيرٌ يُسَمَّى فتح الباري لابنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكلٍّ منهما اتِّجاهٌ من جِهة الكلام على الفِقْه واختلاف العلماء، وكلاهما نافعٌ لطالبِ العلمِ، ولكن مِن جهةِ الكلامِ على الجُمل والإعرابِ، وخلاف العلماءِ وما أَشْبَهَ ذلك، ففتحُ الباري لابنِ حَجَرٍ أكثرُ فائدةً.

أقولُ: (صاحبُ فتح الباري) لأني سَمِعتُ أن بعضَ النَّاس المُتَحَذْلِقِينَ يَسُبُّ فتحَ الباري شرح البخاري لابنِ حَجَرٍ، حتَّى بَلَغَني عن بعضِهم أنَّه قال: يجب إحراقُه، والعياذُ باللهِ، وكأنه كِتابُ زَنْدَقَةٍ، مع أنَّ المُحدِّثَ الشَّوْكَانِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب اليمنِ يُقال: إنه قيل له: أما تَشْرَحُ الجَامِعَ لِلْبُخَارِيِّ كَمَا شَرَحَه الْآخَرُونَ منَ الْعلَماء؟ فَقَالَ: لَا هِجْرَةَ بعدَ الْفَتْحِ. يَعْنِي بِهِ فتحَ الْبَارِي لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِي(١).

والكتاب نَافِعٌ جدًّا، وإذا كان فيه بعضُ الآراءِ المُنحرِفةِ الَّتي يَسُوقها إما إقرارًا أو إنكارًا، فهذا لا يُوجِبُ أنْ نُغْفِلَ الحسناتِ الَّتي تُغَطِّي السيئاتِ.

ولقد قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِهِ القَواعِدِ الفِقهيَّة في المُقدِّمة كَلِمَةً لو وُزِنَت

(١) انظر: الحِطَّة في ذِكْر الصحاح السِّتة للقِنَّوْجي (ص ٧١).

بالجبالِ لَرَجَحَتْ، يقول: «المُنصِفُ مَنِ اغْتَفر قليلَ خطأِ المَرْءِ فِي كَثيرِ صَوابِه»[١].

وهي كلمةٌ عظيمةٌ، فهذا هو المُنصِفُ، وليسَ المُنصِفُ الَّذِي يأخذُ السيئاتِ ويَنْسَى الحسناتِ، فالمُنْصِفُ مَن يُقارن بينَ الحسناتِ والسيئاتِ، فإذا رَجَحَتِ الحسناتُ انْغَمَرَتِ السيئاتُ بها.

قصة تروى عن ابنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يُقال: إنَّ الحافظَ ابنَ حَجَرٍ لما كان قَاضِيَ القُضاةِ مَرَّ يومًا بالسوقِ في مَوكِبٍ عظيمٍ، وهَيئةٍ جَميلةٍ، فهَجَمَ عليه يَهُوديٌّ يَبيعُ الزَّيْتَ الحارَّ وأثوابُه مُلَطَّخَة بالزيتِ، وهو في غايةِ الرَّثاثة والشَّناعة، فقبض على لجَام بَغلتِه وقال: يا شيخَ الإسلامِ، تَزْعُم أن نَبِيَّكم قال: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[٢]، فأيُّ سجنٍ أنتَ فيه، وأيُّ جنةٍ أنا فيها؟!

فقال: أنا بالنسبةِ لما أَعَدَّ اللهُ لي في الآخِرةِ منَ النَّعيمِ كأني الآنَ في السجنِ، وأنتَ بالنسبةِ لما أَعَدَّ لكَ في الآخرةِ من العذابِ الأليمِ كأنك في جنَّةٍ.

وأقول أنا تعليقًا منِّي: ليتَ هذا اليهوديَّ لا يجدُ من العذابِ إلَّا التوسُّخ بالزيت، لكن النَّار مثواهُ.

فلما قال هذا الكلامَ لهذا اليهوديِّ وَجَدَ اليهوديُّ هذا كلامًا معقولًا، واطمأنَّ إليه، واطمأنَّ إلى أن الدنيا سِجنُ المؤمنِ وجنة الكافرِ، فأسلمَ اليهوديُّ[٣].

---

(١) انظر: شرح قواعد ابن رجب لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (١/ ١٨).

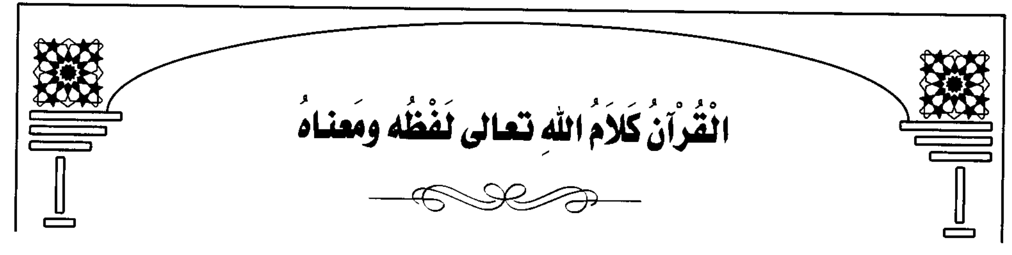
(٢) أخرَجه مُسْلم: كتاب الزُّهد والرَّقائق، رقم (٢٩٥٦).

(٣) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

الله أكبر! هداه الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الدَّلِيلِ العقليِّ الَّذِي لا يُنكَر.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تعالى لَفْظُه ومَعنـاهُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، إِنَّ الحمدَ لله، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونتوبُ إليه، ونَعُوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْـدُه ورسولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تعَالَى بالهـدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالَةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فإنه يجبُ علينا أن نؤمنَ بأنَّ هذا القُرْآنَ كلامُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كلامُ اللهِ تَعَالَى حَقِيقةً، تكلَّم به، وأنَّ لفظَه ومعناهُ كُلُّه كلامُ اللهِ، ليس كلامُ اللهِ المعاني دونَ الحروفِ، بل هو تكلَّمَ بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

فرَبُّ العزَّةِ والجلالِ تكلَّمَ بهذا اللفظِ، فسَمِعَه جبريلُ، فنَزَلَ به إِلَى رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما قال اللهُ تعَـالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] والمراد بكلامِ اللهِ: القُرْآنُ.

وقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

إذا علِمنا أنَّ هذا القُرْآنَ كلامُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفظُه ومَعْنَاهُ، فإني أَسْأَلُكم الآن: لو صَدَرَ مَرسوم ملكيٌّ أو مرسوم جمهوريٌّ أو مرسوم رئاسيٌّ، فبماذا يَتَلَقَّاه النَّاسُ؟

أيتلقَّوْنَه بالقبولِ والعملِ به، أم يتلقَّوْنَه بالرفضِ والإنكارِ؟

الجوابُ: يتلقَّوْنَه بالقبولِ والعملِ، فإن لم يفعلوا فالحبسُ أَمَامَهم، وإنْ فَعَلُوا سَلِمُوا منَ الحبسِ، لكن هذا مرسومٌ من ربِّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ، تكلَّم به وأرسلَه مَعَ مَن وَصَفَه بأنه الرُّوحُ الأمينُ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، لا خيانةَ، ولا تبديلَ، ولا تغييرَ، عَلَى قلبِ النَّبيِّ، قالَ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنَّ القلبَ مَحَلُّ الوعيِ والحفظِ والفَهمِ والعقلِ، حتَّى لا يقولَ قائلٌ: لعلَّه نَزَلَ عَلَى مُخِّه فنَسِيَ شيئًا منه، ولكنه نَزَلَ عَلَى قلبه لأَنَّه محلُّ الوحيِ ومحلُّ الوعيِ؛ كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦].

فالقلبُ مَحَلُّ العقلِ، نَزَلَ به جبريلُ الأمينُ عَلَى قلبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبعدَ أن نَزَلَ عَلَى قلبِه قَرَأَه عَلَى النَّاسِ بدونِ تغييرِ الجوابِ، واستمِعْ إِلَى قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فقد ضمِن هذا اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يعني إذا قرأهُ جبريلُ، ونسبَ اللهُ تَعَالَى قراءةَ جبريلَ إِلَى نفسِه لأَنَّه رسولٌ من عندِه، وما يقولُه الرَّسُولُ فهو قولُ المرسِلِ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، ثمَّ ماذا بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩].

اللهُ أكبرُ! تكفَّلَ اللهُ بأمرينِ: جمعِه وبيانِه.

ولهذا لم يبقَ لأيِّ مبطِلٍ أن يدعيَ أن فِي القُرْآنِ نقصًا أو زيادةً أو تغييرًا.

واستمِعْ إِلَى هذه الآيةِ، وهي وَثِيقةٌ من اللهِ على نفسِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

فمَن زَعَمَ أن فِي القُرْآنِ زيادةً أو نقصًا فقد كذَّب مَدلولَ هذه الآيةِ الكريمةِ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

وأجمعتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّة منذ بُعِثَ رسولُهَا إِلَى اليومِ؛ على أن هذا الَّذِي بين أيدينا هو كلامُ اللهِ، لا زيادةَ به ولا نقصَ، ولا تغييرَ، ولا تَبديلَ، فهَذِهِ حقيقةٌ يجبُ أن نَعرِفَها؛ أن القُرْآنَ كلامُ اللهِ لفظُه ومَعْنَاهُ، وأنه تكلَّمَ بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] كما تكلَّم بقولِه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، وكما تكلَّمَ ببقيَّةِ آياتِ القُرْآنِ، تكلَّمَ بذلك كلامًا حقيقيًّا يُسمَع، سَمِعَه جبريلُ، ونَزَلَ به عَلَى قلبِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وبهذا نعرِفُ خطأَ من يقولُ: إن كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يُسمَعُ، وليس بحروفٍ، لكنه معنًى من المعاني فِي نفسِه عَزَّوَجَلَّ، يَخْلُقُ حروفًا وأصواتًا تُعَبِّرُ عن هذا المعنى الكائنِ فِي نَفْسِه، فإن هذا بلا شَكٍّ قولُ ضلالٍ وقولٌ خطأٌ، ولا شَكَّ أن الَّذِي يفسِّرُ كلامَ اللهِ بهذا التفسيرِ لم يعدُ فِي تفسيرِه أن يُفَسِّرَ الكلامَ بأنه العلمُ فقط، ليس هو الكلامَ.

فإذا قلت: إن الكلامَ هو المعنى القائمُ بنفسِ المتكلِّمِ، وليس شيئًا يُسمَعُ، أو صوتًا يُسْمَعُ. فمعنى ذلك أنك لم تعدُ أن تفسِّرَ الكلامَ بالعلمِ، فلم تأتِ بطائلٍ.

ولهذا كان مَذهَبُ السلفِ الَّذِي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ أن كلامَ اللهِ هو اللفظُ والمعنى جميعًا، ليس كلامُ اللهِ الحروفَ دونَ المعاني، ولا المعاني دونَ الحروفِ.

ولو كان كلامُ اللهِ هو المعنى القائمَ بنفسِه دونَ المسموعِ لكان تفسيرُنا هذا يعني أن الكلامَ هو العلمُ، فلا فرقَ بين العلمِ -إذن- والكلامِ، والذين قَالُوا:

إن الكلامَ هو المعنى القائمُ بالنفسِ، وإن ما يُسمعُ أو ما يُكتبُ فهو عبارةٌ عنه، وإنه مخلوقٌ؛ قال فيه بعضُ المحققين منهم: إنه ليس بيننا وبينَ المعتزلةِ فرقٌ؛ لأننا اتَّفقْنَا عَلَى أن ما بين دَفَّتَيِ المصحـفِ مخلوقٌ، لكنَّ المعتزلةَ يقـولون: إن كلامَ اللهِ مخلوقٌ منه، ونحن نقولُ: إنه المعنى القائمُ بالنفسِ، وما يُسمَعُ ويُكتبُ فهو مخلوقٌ، وحقيقةُ الأمرِ أن لا فرقَ بيننا.

مَوقِفُ المؤمنِ تُجاهَ القرآنِ الكريمِ:

إذا علِمنا أن القُـرْآنَ الكريمَ كلامُ اللهِ، وأنه الميثاقُ الَّذِي أنزلـه عَلَى عبادِه وجَعَلَه حُجَّـةً لهم أو عليهم؛ كما قال الرَّسُـولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**القُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»(١)، فما موقفُ المؤمنِ مِنْ هذا القُرْآنِ؟

موقفُ المؤمنِ من هذا القُرْآنِ الاحترامُ والتعظيمُ والتأدُّبُ، وأن يَمتثِلَ أوامرَه، ويجتنبَ نواهيَه، وأن يصدِّقَ بأخبارِه ويَقبـلَها، هذا مَوقِفُه؛ لأنَّه يعلمُ أن هذا هو كلامُ ربِّ العالمينَ الَّذِي أنزله مِيثاقًا بينه وبين عبادِه؛ إن وَفَّوْا بميثـاقِه وفَّى اللهُ تَعَالَى بما عَهِدَ به لهـم؛ كما قال تَعـالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ هذا العهد الَّذِي علينا، والَّذِي لنا: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن

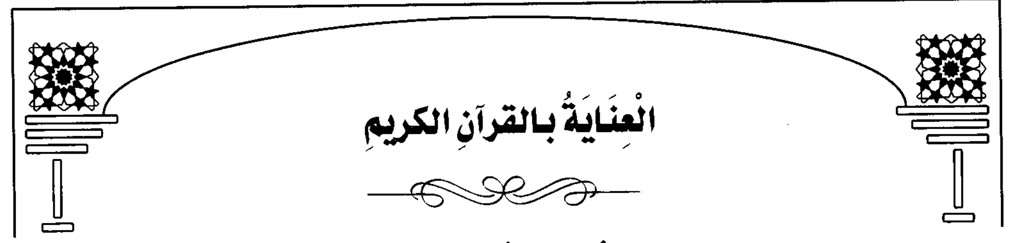
(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

﴿تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة:١٢]. والذي أخذه اللهُ عَلَى بني إسرائيلَ هو الَّذِي أَخَذَه اللهُ عَلَى جميعِ البشرِ؛ أنَّهم إذا وفوا للهِ بما عَاهَدوا اللهَ عليه وَفَّى اللهُ لهم بما عهِد به لهم.

أَيُّها الإخوةُ، إذا سمِعنا أمرًا فِي القُرْآنِ وَجَبَ علينا أن نَمْتَثِلَه، وإذا سمِعنا نهيًا فِي القُرْآنِ فإننا نَجْتَنِبُه، وإذا سمِعنا خبرًا فِي القُرْآنِ فإننا نُصدِّقُه ونَقبَلُه، ونعتقدُ أنَّه حقٌّ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





الْعِنَايَةُ بالقرآنِ الكريمِ

الحـمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النبيينَ وإمامِ المتقينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

لا شَكَّ أنَّ أوَّلَ وأَولى ما تجبُ العنايةُ به هو كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلك بتلاوتِه لَفظًا ومعنًى وعمـلًا؛ فإن تلاوةَ القُرآنِ ليستْ كما يظُنُّهُ بعـضُ النَّاسِ هي تلاوةُ القراءةِ؛ بل هي تلاوةُ القراءةِ، وتلاوةُ التـدبُّرِ، وتلاوةُ الاتِّبـاعِ والإيمانِ.

ولذلك أحثُّ إخواني المسلمينَ أن يَحرِصُوا على معرفةِ معاني كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنْ يَجتهِدوا في تطبيقِ ما علِمـوه من كتابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ لأن الصَّحابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا لا يتجاوزون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتَعَلَّمُوها وما فيها من العلمِ والعملِ، قَالُوا: «فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»(١). فليكنْ لنا فيهم أُسوةٌ.

القرآنُ كلامُ اللهِ:

ثُمَّ إننا نتكلمُ أوَّلًا: هل القُرآنُ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

الجواب: نعم، ولا شَكَّ في هذا، قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦].

وقال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]. والقصص لا تكون إلَّا كلامًا، فالقُرآنُ كلامُ اللهِ، وإذا كان كلامَ اللهِ فهو صفةٌ من صفاتِه؛

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٥٢٩).

لأن الكلامَ وصفٌ للمتكلِّمِ، وإذا كان صفةً من صفاتِه لم يكنْ مخلوقًا؛ لأن صفاتِ الخالقِ ليستْ مخلوقةً، فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس مخلوقًا، وصفاتُه كذلك ليستْ مخلوقةً، ولو قلنا: إن القُرآنَ مخلوقٌ. لَبَطَلَ الأمرُ والنهيُ؛ لأن مقتضَى هذا القولِ الباطلِ أن يكونَ القُرآنُ أصواتًا تُسمَعُ، كما تُسْمَعُ زَمْجَرَةُ السحابِ والصواعِقِ، لا معنى لها إلَّا مجرد أصوات، ولو كان القُرآنُ مخلوقًا لَكان إذا كُتِبَ فإنه يكونُ مُجَرَّدَ صورٍ وأشكالٍ فيبطلُ الأمرُ والنهيُ.

ولهذا يَلزَمُ على قولِ مَن قال: إنَّه مخلوقٌ. وهم الجَهميَّةُ أتباعُ الجَهْمِ بنِ صَفوانَ، ومَن تابَعَهُم منَ المُعْتَزِلةِ أتباعِ عمرِو بنِ عُبَيْدٍ وواصِلِ بنِ عَطَاءٍ، يَلزمُ على قولِهم: إن القُرآنَ مخلوقٌ. إبطالُ الأمرِ والنهيِ، ثمَّ يَلزَمُ من ذلك إما تحريفُ النصوصِ الدالَّةِ على أن القُرآنَ كلامُ اللهِ، وإما تكذيبُها، وليس هناك قِسمٌ ثالثٌ.

فالواجبُ عليك -أيها المسلمُ- أن تعتقدَ بأن القُرآنَ كلامُ اللهِ، تكلَّم به حقًّا، وسَمِعَه جبريلُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ونَزَلَ به جبريلُ الأمينُ على قلبِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-.

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القُرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ نزل به مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤] أي قلبِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-، وإذا نَزَلَ على القلبِ فلا بُدَّ أن يَعِيَه النبيُّ ﷺ تمامًا، وألا يَفُوتَه منه شيءٌ؛ لأن الَّذي يَنْزِلُ على الأُذُنِ مثلًا قد يَبْقَى في القلبِ، وقد لا يَبْقَى، وقَدْ لا يَصِلُ؛ لكن هنا قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ليكونَ ثابتًا راسخًا، ليس فيه زيادةٌ ولا نقصٌ، ولا تبديلٌ ولا تغييرٌ، ﴿لِتَكُونَ مِنَ

ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٤] بأيِّ لُغةٍ؟ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩]: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: قَرَأَه جِبْرِيلُ عَلَيْكَ، وإنما أَضافَ قراءةَ جبريلَ إلى نفسِه جَلَّ وَعَلَا لأنَّه رسولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فقراءتُه قراءةٌ لمرسِلِه، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾.

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان:١-٢].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

فإذا قال قائلٌ: هل نعلمُ كيف تَكَلَّم اللهُ به أو لا نَعلمُ؟

فالجواب: لا نعلمُ، لكننا نُؤمِنُ أنَّ اللهَ تكلَّمَ به بحروفٍ مُريدًا معانيَه عَزَّ وَجَلَّ، لكن على أيِّ كيفيَّة لا، فكلُّ صفاتِ اللهِ غيرُ معلومةِ الكيفيَّةِ لنا، واسْمَعْ قولَ الإمامِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام دارِ الهجرةِ حين سألهُ رجلٌ وقال له: يا أبا عبدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوَى؟ فأَطْرَقَ مالِكٌ برأسِه وجَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا، ثمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وقال: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»[1].

هكذا جميعُ الصفاتِ، نقولُ: هي معلومةُ المعنَى مجهولةُ الكيفيَّةِ؛ لأن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أعظمُ من أن نُحِيطَ بكيفيَّةِ صفاتِه عَزَّ وَجَلَّ.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

إذن، عقيدةُ المسلمِ نحوَ القُرآنِ الكريمِ هي الإيمانُ بأنه كلامُ اللهِ لفظُه ومعانيه، وأنه غيرُ مخلوقٍ؛ لأنه صفةٌ من صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وصفاتُ اللهِ تَعالَى غيرُ مخلوقةٍ، فكلُّ صفاتِ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ: الكلامُ، والقُدرةُ، والسَّمعُ، والبَصَرُ، والوَجْهُ، واليَدُ، فكلُّ صفاتِ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ؛ لأن صفاتِ الخالِقِ كالخالِقِ لا تُخلَقُ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من صفاتِه أنه أزليٌّ أبديٌّ، لكنَّ صفاتِ الأفعالِ الَّتي تتعلقُ بمشيئتِه أصلُها أزليٌّ، وما يحدثُ منها فِعْلِي، فإذا كان القُرآنُ كلامَ اللهِ، فإنَّه لا يُمكِنُ لأيِّ إنسانٍ أو لأيِّ مخلوقٍ أن يأتيَ بمثلِه؛ لأنَّه صفةُ اللهِ.

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] أي: مُعِينًا، حتَّى لو تعاونوا فلا يمكنُ أن يأتوا بمثلِ هذا القُرآنِ؛ لأنَّه كلامُ اللهِ.

يقول السلَفُ: إن القُرآنَ بدأ مِنَ اللهِ، وإليه يعودُ؛ لأنَّه تكلَّمَ به أوَّلًا، وإليه يعودُ في آخِرِ الزمانِ، فإن هذا القُرآنَ سوف يُنزَعُ مِنَ الأرضِ، وسوف يُنزَعُ مِنْ قلوبِ الرجالِ، ومن دفاترِ المصاحِفِ، ويكونُ هذا إذا أعرضَ النَّاسُ عنه إعراضًا كُلِّيًّا -نعوذُ باللهِ من ذلك- فإنَّه لا يبقى له حُرمةٌ في الأرضِ، وحينئذٍ يُنزَعُ فيعودُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أعودُ فأقولُ: ينبغي -بل يجبُ علينا- أن نتعلَّمَ معانيَ كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأننا إذا لم نعرف المعنى فكأننا لم نَقرَأْ، والدَّليلُ قولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي إلَّا قراءةً، فوَصَفَ اللهُ هَؤُلاءِ بأنهم أُمِّيُّون، والأُمِّيُّ هو الَّذي لا يقرأُ ولا يكتبُ، فالذي لا يعرِفُ معانيَ كلامِ اللهِ هو أُمِّيٌّ

وإنْ قَرَأَ، فعلينا أن نتعلمَ المعنَى، ولكن مِنْ أين نَعْرِفُ المعنى؟

إذا كان الإنسانُ طالبَ علمٍ مُتبَحِّرًا فإنَّه يستطيعُ أن يعرفَ المعنى بما عِنْدَه من العلمِ، وإذا لم يَكُنْ طالبَ علمٍ مُتبَحِّرًا فإنَّه يسأَلُ العلماءَ الموثوقَ بهم عِلمًا وديانةً وأمانةً، وليس كلُّ عالمٍ يُوثَقُ به، بل مِنَ العلماءِ مَنِ الجاهِلُ خيرٌ منه، ولكن المَرجِع إلى أهلِ العلمِ الَّذِينَ هم أهلُ العلمِ حقيقةً، الرَّبَّانِيُّونَ، فإن لم نجدْ عالمًا في بلدِنا مثلًا فهناك كُتُبٌ مؤلَّفةٌ -والحمدُ للهِ- نَرْجِعُ إليها، مثلُ تفسيرِ ابنِ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفسيرِ الشَّوكانيِّ، وتفسيرِ القُرْطُبِيِّ على ما فيه من بعضِ الخطأِ، وتفسيرِ السِّعديِّ، والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ.

فيرجِعُ الإنسانُ إلى التفاسيرِ الموثوقِ بِمُؤَلِّفيها، ويَعتمِدُ ما وَجَدَ، وإذا أَشْكَلَ عليه شيءٌ فلا بُدَّ أن يسأَلَ العلماءَ المعاصِرينَ؛ لأن بعضَ العباراتِ في كتبِ التفسيرِ تُشْكِلُ فلا بُدَّ أن يرجِعَ إلى أهلِ العلمِ المعاصِرينَ الَّذِينَ يوثَقُ بعلمِهم، ويَعْتَمِدُ الإنسانُ على ما يَقُولُونَ.

إلى أيِّ شيءٍ نَرجِع في التفسيرِ؟

قال أهلُ العلمِ: ارْجِعْ أولًا إلى تفسيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ، ثمَّ إلى تفسيرِ القُرآنِ بالسنَّةِ، ثمَّ إلى تفسيرِ القُرآنِ بأقوالِ الصَّحَابَةِ، ولا سيَّما المشهورون منهم بالتفسيرِ، ثمَّ إلى أئمَّةِ التابعين الَّذِينَ أَخَذُوا التفسيرَ عن الصَّحَابَةِ.

فهذه أربعةُ أقسامٍ:

أولًا: تفسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ.

ثانيًا: بالسنةِ.

ثالثًا: بأقوالِ الصَّحَابَةِ، ولا سيَّما المعروفون بالعنايةِ بالتفسيرِ، مثلُ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رابعًا: أئمة التابعين، ولا سيَّما الَّذِينَ أَخَذُوا التفسيرَ عن الصَّحَابَةِ؛ كمُجاهِدِ ابنِ جَبْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فإن لم نجدْ شيئًا فحينئذٍ نرجِعُ إلى ما نَفهمُه بمُقتضَى اللغةِ العربيةِ؛ لأن القُرآنَ نزلَ باللغةِ العربيَّةِ.

نحتاجُ الآن إلى أمثلةٍ:

مثالُ تفسيرِ القُرآنِ بالقُرآنِ:

قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣].

فَسَّرَها بقولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٤-٥]. فهذه القارعة.

كذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، فتفسيرها: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

مثالُ التفسيرِ بالسنةِ:

قولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] أي: أحسنوا العملَ؛ كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**،

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(١)].

اللَّهُمَّ احْفَظْنا بإيمانِنَا، واقْبَلْ منَّا أعمالَنا، وتجاوَزْ عن سيِّئاتِنَا يا ربَّ العالمينَ، اللَّهُمَّ إنَّك تَرانا وتعلَمُ مُنْقلَبَنَا ومَثْوَانا، اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ أن تَعْصِمَنا منَ الزَّلَلِ، وأن تُعِيذَنا منَ الخَطَلِ[(٢)]، وأن تُوَفِّقَنا لمَا تُحِبُّ وتَرْضَى، يا أرحمَ الراحمينَ.

والذين أَحْسَنوا أي: في عِبادةِ اللهِ، والحُسنَى هي الجنَّةُ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، يعني الجنةَ.

والدَّليلُ على أن الحسنى الجنة قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١].

وقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء:٩٥].

قال: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ فهل هناك شيءٌ أزيدُ من الجنةِ؟ نعم، فَسَّرها أعلمُ الخلقِ بكلامِ اللهِ مُحَمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- بأنها -أي الزيادة- النظرُ إلى وجهِ اللهِ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

(٢) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب. مختار الصحاح (خطل).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١).

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن ينظرُ إليك في جنَّاتِ النَّعيمِ، يا أرحمَ الراحمينَ.

فَأَلَذُّ نَعيمٍ لأهلِ الجنةِ أن يَنظُرُوا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالنظرُ إلى وجهِ اللهِ أعظمُ نعيمٍ، ولهذا جاء في الحديثِ: «**أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»(١).

الله أكبر! اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يَنْظُرُون إليك، إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

إذن، كلمةُ زيادةٍ نُفَسِّرُها بالنظرِ إلى وجهِ اللهِ، والَّذِي دلَّنا على أنَّها النظرُ إلى وجهِ اللهِ أَعْلَمُ الخلقِ بكلامِ اللهِ، وهو رسولُ اللهِ ﷺ.

وهناك مثالٌ آخرُ: قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، فما هي القوةُ؟

فسَّرها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- بأنها الرَّمْيُ، فقال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»(٢).

والرميُ يكونُ بالسهامِ، ويكونُ بالقنابلِ، وغيرِ ذلك؛ لأن الرميَ مِن رَمَى الشيءَ يعني قَذَفَ به، ولهذا نقولُ: إن الرميَ يُفسَّرُ في كلِّ زمانٍ بِحَسَبِهِ، ففي عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الرميُ يكونُ بالسهامِ، لكن في عهدِنا يكونُ بالصواريخِ والقنابلِ وما أشبهَ ذلك.

إذن، قولُه: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» هذا التفسيرُ من النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-، وهو أعلمُ الخلقِ بمرادِ الخالقِ جَلَّوَعَلَا.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الصلاة، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٧).

أقوال الصحابة:

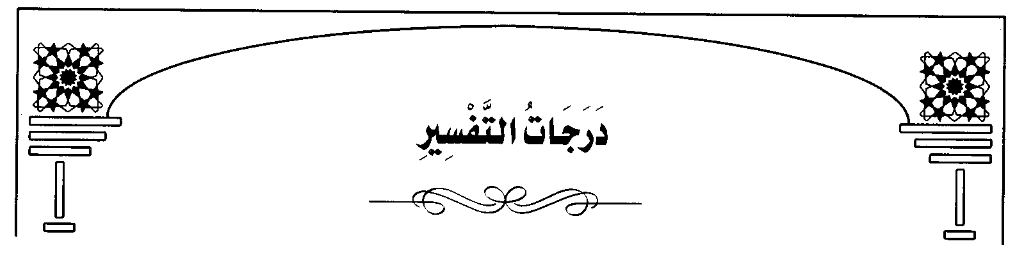
أما أقوالُ الصَّحَابَةِ فارجعـوا إلى تفسيرِ ابنِ جَريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن كان هـذا التفسيرُ يَحتاجُ إلى عنايةٍ وتخريجِ آثـارِهِ؛ لأن إمامَ المفسِّرين -من بعـدِ الصَّحَابَةِ والتابعينَ- ابنَ جَريرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كأنه -واللهُ أَعْلَمُ- خاف من إدراكِ الأجلِ، فلم يُنَقِّحِ التفسيرَ، فصار ينقُلُ الآثارَ ويَكِلُ تَصحيحَها وتضعيفَها إلى مَنْ بَعْدَه، فهو تفسيرٌ جامِعٌ، ولكن لا بُدَّ من تتبُّعِ آثارِهِ بأسانيدها.

وأسالُ اللهَ تَعَالَى أن يُيَسِّرَ من إخواننا أئمَّةِ الحديثِ في زمانِنا هذا مَن يُخَرِّجُ آثارَ تفسيرِ ابنِ جَريرٍ، وإن كان الشيخ أحمد مُحَمَّد شاكر قد حَصَلَ منه ذلك.

على كلِّ حالٍ تفسيرُ الصَّحَـابَةِ كثيرٌ، وأجمعُ ما يكون فيها أعلمُ في تفـسيرِ ابنِ جَريرٍ الطَّبَرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والحَـمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحـاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





دَرَجَاتُ التَّفْسِيرِ

إِنَّ الحـمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونتوبُ إليه، ونَعُـوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْـدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَـمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

تَفسيرُ القرآنِ الكريمِ عَلَى أربعِ دَرَجاتٍ:

الدَّرجةُ الأُولى: أنْ يفسِّرَ اللهُ تَعَالَى كلامَه بِكلامِهِ.

الدرجةُ الثَّانيةُ: أنْ يفسِّرَ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- كلامَ رَبِّهِ.

الدَّرجةُ الثَّالثةُ: أن يفسِّرَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلامَ اللهِ.

الدرجةُ الرابعةُ: أنْ يفسِّرَ التابعونَ كلامَ اللهِ.

فهذهِ أربعُ درجـاتٍ، أعلَاها الدَّرجةُ الأُولى والثَّانيةُ؛ أَيْ: تَفسيرُ اللهِ كَلامَه بِكلامِهِ، والثَّانيةُ تفسيرُ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- كلامَ رَبِّهِ، والثالثةُ تفسيرُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والرَّابعةُ: تفسيرُ التَّابعينَ.

فمنَ **الأُولى** -تَفسيرُ القرآنِ الكَريمِ بِكلامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قـولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْقَـارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]، فَما هي هذه

القَارعةُ؟ فسرهَا بقـولِهِ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ [القارعة:٣]، هذه القَارعةُ.

وكذلك قـولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النساء:٧١]، فـإنَّ قولُهُ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ يُفسرهُ قَولُهُ: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾، ووَجْـهُ ذلك أنَّ قولَهُ: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ هو مقابلُ قَولِهِ: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾، وعليه فَيكونُ مَعْنَى ﴿ثُبَاتٍ﴾، أَي: أَفرادًا، عَرَفنا ذَلك مِن ذِكْرِهِ مقابِلَه المعادلَ لهُ.

ومنَ الدرجةِ الأُولى أيضًا قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة:٩] الجوابُ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة:١١]، فهذه هي الهاويَةُ، والأمثلَةُ على هذا كثيرَةٌ.

وأمَّا تَفسيرُ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- لِكلامِ رَبِّهِ فله أَمثلةٌ أيضًا، مِنها قولُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، فالقوةُ فَسَّرها النبيُّ ﷺ بِقـولِهِ: «**أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**»(١)، هَكذا فسَّرها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-، والرَّميُ فِي كلِّ زمنٍ بحسبهِ، ففي عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرميُ بِالقوسِ والنبلِ، وفي عهـدِنَا الآنَ الرميُ بِما فَوقَ المدافـعِ، وفَوقَ المسدسِ، بِالصواريخِ وَالقنابلِ، فَإذَا تَعلَّـمْنَا هذا السلاحَ فَإنَّنا مُمْتثلون لِأَمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

مثالٌ آخرُ علَى تفسيرِ النبيِّ ﷺ لِلقرآنِ: قولُ اللهِ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٧).

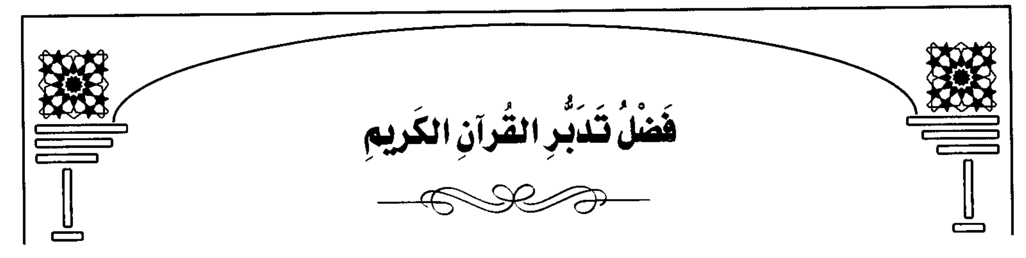
مَا المرادُ بِالحسنَى، ومَا المرادُ بِالزيـادَةِ؟ المرادُ بِالحسنَى الجنـةُ؛ لأَنَّها الدارُ الحسنَى -أَسأَلُ اللهَ أَنْ يَجعلَنا منْ سَاكِنِيها- هي الحُسْنَى، أحسنُ الدورِ دارُ الجنَّةِ، وأمَّا الزيادةُ فَفَسَّرها النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- بأنَّها النظرُ إلى وجهِ اللهِ، فالنظرُ إلى وجهِ اللهِ فوقَ نعيمِ الجنَّةِ، فقدْ وَرَدَ أنَّ في الجنَّةِ مَا لَا عينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذنٌ سَمِعت، ولَا خطرَ عَلى قلبِ بشرٍ[1]، لكنَّ النظرَ إلى وجهِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فوقَ ذلكَ، وزِيـادةٌ، فَالَّذي فسرَ الزِّيـادةَ بذلك هو النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-، ولَا قولَ لأحدٍ بعدَ قولِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-.

أمَّا تفسيرُ الصَّحابةِ لِكلامِ اللهِ فهوَ كثيرٌ، ومنْ شاءَ الاطلاعَ عليهِ فليرجعْ إلى تفسيرِ ابنِ كَثيرٍ، أو ابنِ جريرٍ، وكذلك مَا جاءَ عن التابعينَ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٤٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، بابٌ، رقم (٢٨٢٤).



فَضْلُ تَدَبُّرِ القُرآنِ الكَرِيمِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، إِنَّ الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونتوبُ إليه، ونَعُوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِهِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

بيَّن اللهُ الحِكْمَةَ من إِنْزَالِ هذا القرآنِ العظيمِ، وهو أن يتَدَبَّرَ الناسُ آياتِهِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فيَتَدَبَّرُونَها ويُكَرِّرُونَها مرةً بَعْد أَخرى، حتى يَفْهَمُوهَا تمامًا، ثم بعدَ ذلِكَ يَنتَقِلُونَ إلى المرحَلَةِ الثانيةِ ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، والتَّذَكُّرُ معناهُ: الاتِّعاظُ بما جاءَ في هذا القرآنِ الكريمِ؛ لأن تِلاوَةَ الكتابِ لها ثَلاثُ مراحِلَ، كلُّها أدْرَكَها الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذه المراحِلُ هي: تِلاوتُهُ لَفْظًا، ثم فَهْمُه مَعْنًى، ثم القِيامُ به عَمَلًا، كما قال عبدُ اللهِ ابنُ مَسْعُودٍ وغيرُهُ ممن كانَوا يُقرِئونَ التَّابِعِينَ القرآنَ: «كُنَّا لَا نَتَجَاوَزُ عَشْرَ آياتٍ مِنَ القُرآنِ حَتَّى نَعْلَمَها وَمَا فِيهَا مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا القُرْآنَ وَالْعِلْمَ والْعَمَلَ جَمِيعًا»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٨٧٨).

وهكذا يَنْبَغِي للأمَّةِ الإسلامِيَّـةِ أن تَتَدَبَّرَ كتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتَتَفَـهَّمَ مَعَانِيَه، وتَعْمَلَ بِهِ، لا أن تجـعَلَهُ لمجرَّدِ التَّبَرُّكِ بتِلاوتِهِ أو تعليقِهِ علَى الجُدْرانِ وغيرِهَا؛ فإن هذا ليس هو الَّذِي نَزَلَ من أجلِهِ القُرآنُ، ولكنَّ القرآنَ نَزَلَ ليكـونَ نِبْرَاسًا للأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ تهتَدِي بهَدْيِهِ وتَسْيرُ عليه، ولهذا لَمَّا كانَتِ الأُمَّةُ الإسلامِيَّةُ هكذا كانَتْ أمَّةً عظِيمَةً مَرْمُوقَةً عزيزَةً، ولَمَّا تَخَلَّفَتْ عن القُرآنِ وصارَ ليس همُّ كثيرٍ مِمَّنْ يَعْتَنِي بالقُرآنِ إلا أن يتْلُوهُ فقَـطْ، ويظن أنه إنَّما نَزَلَ لتِلاوَةِ لفْظِهِ، وهذا وإن كان خَيْرًا، لكنَّ الخيرَ الَّذِي من أجلِهِ نَزَلَ هذا القرآنُ وأدْرَكَهُ الصحـابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجاهَدُوا الكفَّارَ بِهِ وعلَوْا به على سائرِ الأديانِ هو أن نَتَدَبَّرَ معْنَاهُ، وأن نَتَّعِظَ بما فِيهِ.

وإنني أقولُ في هذه المناسبَةِ: إنَّ تَعْلِيقَ آياتِ اللهِ تَعَالَى كآيَةِ الكُرْسِيِّ أو غيرِهَا مِنْ كتابِ اللهِ على الجُدْرَانِ وغيرِها، أَرَى أن هذا مِنَ البِدْعَةِ، وأنه لا يَنْبَغِي للمُؤمِنِ أن يفْعَلَهُ؛ لأن السَّلَفَ الصالِحَ الذين هُمْ أشدُّ مِنَّا تَعْظِيمًا لكتابِ اللهِ وأشدُّ منَّا حِرْصًا على الانتفاعِ بِهِ لم يَفْعَلُوهُ أبَدًا، ولأن ذلك يُؤَدِّي في الحقِيقَةِ إلى امتهانِ القُرآنِ الكَريمِ؛ لأنه إِذَا عُلِّقَ فإنه سيكونُ أحيانًا خَلْفَ الظُّهورِ، وأحيانًا فوقَ الرؤوسِ.

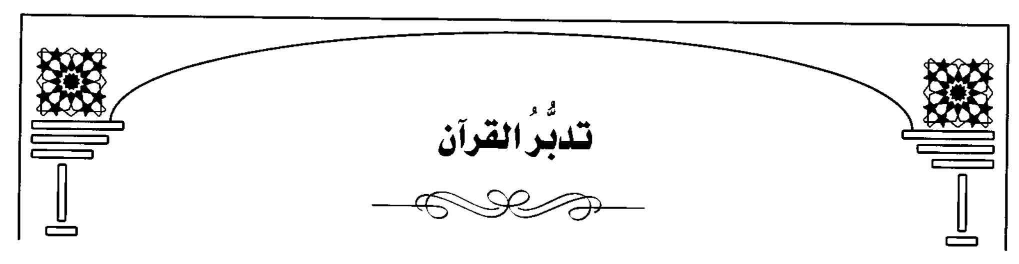
ثم إنَّ المجْلِسَ الذي تُعَلَّقُ فيـه هذه الآيَةُ أو الآياتُ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ قد يكونُ مجْـلِسَ لَغْوٍ ولَهْوٍ وغِيبَةٍ ونَمِيمَةٍ وفِسْقٍ ومعـازِفَ، وغير ذلك مما يَجْـعَلُ مَن عَلَّقَ هذه الآياتِ في مِثْلِ هذا المجلِسِ كالمُسْتَهْزِئِ بآياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حيثُ يُعلِّقُها في مكانٍ يكثُرُ فِيهِ اللَّغْوُ واللَّغطُ، ويُشْبِهُ من قال اللهُ فيهِمْ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

ثم إننا نَرَى ونَسْمَعُ بعـضَ الناسِ يجْعَلُونَ عِنْدَهُم مُسَجِّـلًا في أماكِنِ البيعِ

والشِّراءِ والمجالِسِ، والقرآنُ يُتْلَى وهُمْ يتَحَدَّثُونَ بما يتَحَدَّثُونَ بِهِ مِنْ أمورِ الدُّنْيَا وغيرِهَا، فلا يسْتَمِعُونَ إليهِ ولا ينْتَفِعُونَ بِهِ، وكأنما هو مجرَّدُ طُقُوسٍ يجْعَلُونها عِنْدَهُم، وهذا أيضًا خِلافُ قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، ولهَذَا يجبُ على الإنسانِ إذا انتَهَى مِنَ القِراءةِ أو مِنَ الاسْتِماعِ إلى هذه المسجِّلاتِ وكان يريدُ أن يتَحَدَّثَ بأمرٍ مِنَ الأُمورِ أن يُغْلِقَهَا حتى لا يكونَ لَاغيًا في القُرآنِ، ولا حَرَجَ عليه أن يُغْلِقَهَا ويَدَعَ الاستِماعَ إِلَيْهَا، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقْرَأ عَلَيَّ». فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ أَقْرَأُ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قال: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَجَعَلَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ يَقْرَأُ حتَّى وَصَلَ إِلَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قَالَ: فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، ثُمَّ قَالَ: «حَسْبُكَ»[1]، يعني: يَكْفِي ما قَرَأتَ، وهذا دليلٌ عَلَى أنه لا بأسَ أن يقُولَ الإنسانُ لقَارِئِ القُرْآنِ إذا انْتَهَى مِنَ الاستِماعِ إليهِ: حَسْبُكَ. ولا بأسَ أن يُغْلِقَ المسجِّلَ الذي يستَمِعُ فيه إلى كِتابِ اللهِ، وليسَ مَعْنى ذلِكَ الرَّغْبَةَ عَنْ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن الإنسانَ له أحْوالٌ فإذا انْتَهَى مِنَ الاستِماعِ إلى القُرْآنِ فلا حَرَجَ أن يقولَ: حَسْبُكَ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، رقم (٤٧٦٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل القرآن، رقم (٨٠٠).



تدبُّر القرآن

إِنَّ الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونتوبُ إليه، ونَعُوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعالَى بِالْهُدَى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

إن قراءةَ القرآنِ بلا تَدبُّرٍ كَلَا قِرَاءَةٍ، والدليلُ قولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، أي إلا قراءةً، فَوَصَفَ اللهُ هؤلاء الَّذِينَ لا يعلمونَ الكتابَ إلا قراءةً بأنهمْ أميونَ، والأميُّ في اللغةِ العربيةِ: مَن لا يقرأُ ولا يكتبُ.

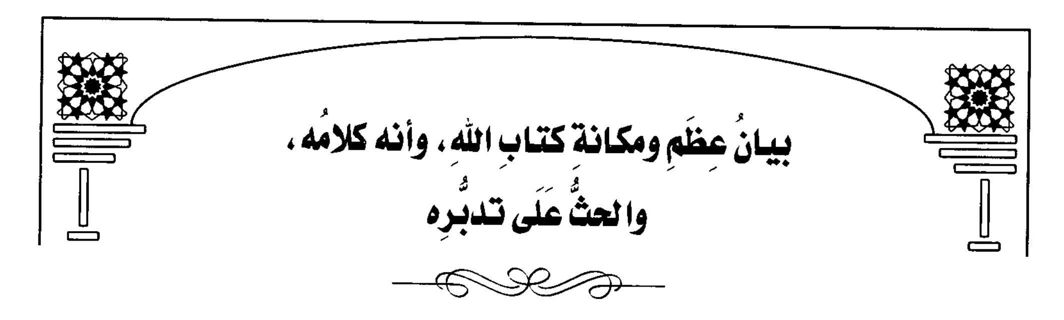
إذنْ، عَلَيْكُمْ أَيُّها الإخوةُ -ولا سيما الشبابُ مِنكُمْ- بتَدَبُّرِ القرآنِ ومراجعةِ التفاسيرِ، وعَلَيْكُمْ بتفاسيرِ الأَوَّلِينَ؛ كابنِ كثيرٍ ونحوِه؛ فإن فيها الخيرَ، فغالبُ تفاسيرِ المتأخرينَ قشورٌ كثيرةٌ واللبُّ قليلٌ، وقد يكونُ فيها الحنظلُ والمرُّ والمُنتنُ، لكنَّ تفاسيرَ الأولينَ هي النقيةُ؛ كتفسيرِ ابنِ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفسيرِ البغويِّ على ما فيهِ مِن بعضِ شطحاتٍ لَكِنَّهُ تفسيرٌ قَيِّمٌ، وكذلك تفسيرُ الشيخِ عبدِ الرحمنِ السعديِّ؛ فإنهُ تَفسيرٌ سهلٌ يَعرِفُه العاميُّ وطالبُ العلمِ، وتفسيرُ الشيخِ أبي بكرٍ الجزائريِّ.

فالتفاسيرُ -والحمدُ للهِ- كثيرةٌ، لكنْ عليكمْ بالصافي منها، وإياكمْ وما فيهِ الكَدَرُ؛ لأن ما فيهِ الكَدَرَ -ولا سيما إذا كان المفسرُ جيدًا في التعبيرِ جذابًا للقُلُوبِ- خَطِيرٌ جـدًّا؛ لأنَّ الإنسانَ قَدْ يَتَمَشَّى مع فِقْـهِ هذا المفسرِ ولا يشعرُ لقـوةِ أسلوبهِ وبلاغتهِ.

أعودُ مرةً ثانيةً وأقولُ: احْرِصُوا على تأملِ القرآنِ والتفكرِ فيهِ، والمراجعةِ فيما بَيْنَكُمْ.

والحمدُ للهِ الذي بنعـمتهِ تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنَا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ.





بيانُ عِظَمِ ومكانةِ كتابِ الله، وأنه كلامُه، والحثُّ عَلَى تدبُّرِه

إنَّ الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونَعُوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى، ودينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِه، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ القرآنَ هو الكتابُ الَّذِي أَنْزَلَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فهو أشرفُ الكتبِ، نزَلَ عَلَى أشرفِ الرُّسُلِ؛ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وهو كلامُ اللهِ حقيقةً، تكلَّمَ به، وألقاهُ إِلَى جبريلَ، وجبريلُ نزَلَ به عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضميرُ يعودُ عَلَى القُرْآنِ، و(إن) للتوكيدِ، واللامُ في ﴿لَتَنزِيلُ﴾ للتوكيدِ أيضًا، فالجملةُ مؤكدةٌ بمُؤَكِّدَيْنِ، مَعَ أَنَّه لا حاجةَ للتوكيدِ؛ لأنَّ الَّذِي أخبرَ بذلك هو أصدقُ القائلين رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ، لكن كما جَرَتْ عادةُ العربِ فِي خطاباتِهم، أن يُؤَكِّدُوا القولَ لأمرٍ عظيمٍ، وهكذا جاءَ طريقُ القُرْآنِ الكريمِ؛ لأَنَّه نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليس تنزيلَ فُلَانٍ وفُلَانٍ، بل تنزيلُ رَبِّ العالمينَ، ولم يَقُلْ: تنزيلُ اللهِ، بل قال: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. إشارةً إِلَى أَنَّه كما أن رُبُوبِيَّته عامَّةٌ لجميعِ الخلقِ، فيجبُ أن يؤمنَ جميعُ الخلقِ بهذا القُرْآنِ؛ لأَنَّه تنزيلٌ مِن عندِ رَبِّ العالمينَ، وكما أَنَّه رَبُّ العالمينَ عُمُومًا لا يَشِذُّ عن رُبُوبِيَّته أحدٌ، فيجبُ عَلَى كُلِّ الخلقِ أن يؤمنوا بهذا القُرْآنِ.

قال تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾، والرُّوحُ هو جبريلُ، وسُمِّيَ رُوحًا لأَنَّه يَنزِلُ بالْوَحْيِ، والْوَحْيُ رُوحُ القلوبِ، فبه حياةُ القلوبِ، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ القُرْآنَ رُوحٌ قولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ من الأُمِّيينَ من العربِ ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

اللهمَّ إنا نسألُك فِي مقامِنا هذا أن تَهدِيَنا به يا ربَّ العالمينَ، وتُميتَنا عليه، إنك عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

قال تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ والأمينُ هو جِبريلُ، وَصَفَهُ اللهُ بالأمانةِ، ووَصَفَه بالمكانةِ، ووَصَفَهُ بالقوَّةِ؛ فوَصَفَهُ بالأمانةِ؛ فلا خِيانةَ، فلا زَادَ فِي الكلامِ ولا نَقَصَ، ولا ألقاه إِلَى أحدٍ لم يُؤمَرْ بإلقائِهِ إليه كما ادَّعاه مَن لا يُؤمِنُ به وقال: إنه مُرْسَلٌ إِلَى غيرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لكن غَلِطَ فألقاه إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والعِيَاذُ باللهِ؛ لأَنَّ جبريلَ أمينٌ، ووَصَفَهُ اللهُ بالقوةِ، ووَصَفَهُ بالمكانةِ؛ فقد وَصَفَهُ بالقوَّةِ والمكانةِ والكرمِ بقولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] قوةٍ عَلَى الأمانةِ والحفظِ، وعندَ اللهِ مَكينٌ ذو مكانةٍ عظيمةٍ،

وشرفٍ عظيمٍ، ولهذا كان هو أفضلَ رُسُلِ الملائكةِ، ومُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أفضلَ رُسُلِ البشرِ.

قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فما مناسبةُ ذِكرِ القلبِ هنا، وفي أكثرِ الآياتِ ﴿عَلَيْكَ﴾ لكن هنا قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولماذا نصَّ عَلَى القلبِ دونَ غيرِه من الأعضاءِ، أو دونَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجواب: إنَّما ذَكَرَ القلبَ لأنَّ القلبَ مَحَلُّ الوَعْيِ والحِفْظِ، ولذلك قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ حتَّى يتبيَّنَ أن الرَّسُولَ ﷺ لم يخطئْ فيه، ولهذا لما كان يتعجَّلُ فِي القراءةِ إذا أَوْحَاهُ إليه جبريلُ تَعَجَّلَ وَقَرَأَ، فقال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، فقد تكفَّلَ اللهُ بذلك، وهي عنايةٌ عظيمةٌ بهذا القُرْآنِ الكريمِ.

ونَزَلَ القرآنُ بلسانٍ عربيٍّ فصيحٍ مُبينٍ، أي: مُظهِرٍ للمعنى المرادِ به، فهو أفصحُ الكلامِ عَلَى الإطلاقِ، وهو أصدقُ الكلامِ عَلَى الإطلاقِ، وهو من عندِ أَعْلَمِ مَنْ تكَلَّمَ عَلَى الإطلاقِ؛ مِن عندِ اللهِ، فكلامُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلامٌ مُحكَمٌ عظيمٌ، وواللهِ لا يَذُوقُهُ ولا يَتَذَوَّقُه إِلَّا مَن تدبَّره، فإذا تدبَّرَ الإِنْسَانُ كلامَ اللهِ عَرَفَ ما فيه من المعاني، والحِكَمِ، والأسرارِ، فِي اللفظِ وفِي المعنى، فِي اللَّفظِ الصَّريحِ وفِي اللفظِ غيرِ الصريحِ، فإنه سيجدُ فيه المعانيَ العظيمةَ.

فليس فِي القُرْآنِ تناقُضٌ، والدليلُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

لكن ما يأتي من القُرْآنِ ممَّا يكونُ فيه ظاهرُ التعارضِ، فلَيْسَ عَلَى المرءِ إلا أن

يتأنَّى قليـلًا ويَتدبَّرَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، فإذا تدبروا ما ظاهرُه التعارُضُ فإنه يَتبيَّنُ أنَّه غيرُ متعارضٍ، ولا يمكِنُ أن يَتعارَضَ أبدًا.

فإنْ قال قائلٌ: يَرُدُّ عَلَى هذه القاعدةِ آيتانِ من كتابِ اللهِ، وهما قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨] ﴿كُلٌّ﴾ يعني الحسنةَ والسيئةَ من عنـدِ اللهِ، وهَذِهِ آيةٌ تُبيِّنُ أن الحسناتِ والسيئاتِ من عنـدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وفي آيـةٍ أُخرى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فقسَّم الحسنةَ والسيئةَ إِلَى قسمينِ: الحسنةُ من اللهِ، والسيئةُ من النفسِ، فكيف يكونُ الجمعُ؟

قلْنا: تدبَّرْ يَتبَيَّنْ لك الجمعُ، أما الآيةُ الأُولى فإن أولئكَ القومَ اتَّهَمُوا الرَّسُولَ ﷺ بأنهم إذا أصابتهم سيئـةٌ تطيَّروا بالرَّسُـولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقَالُوا: هـذا منك يا مُحَمَّدُ. فبيَّنَ اللهُ تَعَالَى أن كلَّ شيءٍ من عندِ اللهِ، وأما الثَّانيـةُ ففيها بيانُ سببِ السيئةِ الَّتِي تصيبُ العبدَ، وهي العبدُ نَفْسُهُ، والدَّلِيـلُ عَلَى هذا قولُه تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

إذن، إضافةُ السيئةِ للعبدِ من بابِ إضافةِ السببِ إِلَى المُسَبِّبِ، وإضافتُها إِلَى اللهِ من بابِ إضافةِ المخلوقِ إلى الخالقِ، فانفكتِ الجهةُ، وحينئذٍ لا تناقضَ.

كذلك أيضًا ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه فِي يومِ القيـامةِ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ، فقـال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وفي آية أخرى قال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢]، والسوادُ والزُّرقة بينهما فرْقٌ، فكيف كان ذلك؟ فيأتي إِنْسَانٌ مُضَلَّلٌ ويقولُ: هذا القُرْآنُ مُتَنَاقِضٌ، نقول: لا تناقُضَ،

وإنما يتناقضُ عندَكَ لأنك لم تُرِدِ الِاهتـداءَ به، ولو أردتَ الاهتداءَ به لتبيَّنَ لك أنَّـه ليس بمتناقِضٍ.

فيومُ القيامةِ مُدَّتُه خمسونَ ألفَ سنةٍ، ونَحْنُ نرى أنه فِي الدُّنيا تتغيَّرُ الأمورُ فِي خـلالِ عَشْرِ سنواتٍ، وتتغيَّرُ الوجـوهُ فِي خلالِ عَشْرِ سنواتٍ، ويومُ القيـامةِ خمسونَ ألفَ سنةٍ، ألا يمكنُ أن تتغيرَ الوجوهُ من سوادٍ إِلَى زُرقةٍ، أو من زُرقةٍ إِلَى سَوَادٍ، وألا يمكنُ أن يكونَ بعضُ النَّاسِ يُحْشَرُ ووجهُهُ أسودُ، وآخرُ يُحْشَرُ ووجهُهُ أزرقُ؛ وذلك لاختلافِ جَرَائِمِهِمْ.

فإما أن يقـالَ: إنَّ المدةَ طويلةٌ تتغيَّرُ الوجـوهُ فيها، وإما أن يقالَ: إن الجرائمَ تختلِفُ، فيُحشَرُ كلُّ إِنْسَانٍ عَلَى حسبِ جريمتِه، وعلى هذا فقِسْ.

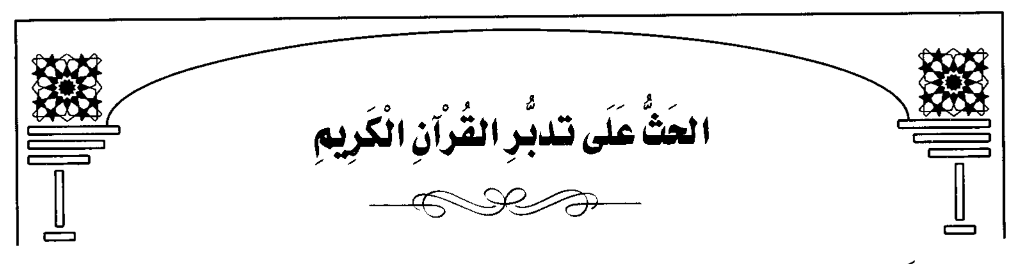
وما أحسنَ الوقـوفَ عَلَى ما ألَّفَه الشيخ مُحَمَّد الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحبُ (أضواء البيان) فِي رسـالةٍ سماها (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب)، وهو كتابٌ جيِّدٌ يبيِّنُ فيه الآياتِ الَّتِي ظاهِرُها التعارُضُ، ويجمعُ بينها، لكني أنا أُذكِّركم بأنَّ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَعْلَى الكلامِ، وأصدقُ الكلامِ، وأحسنُ الكلامِ، وأبلغُ الكلامِ، وأنه لا يمكِنُ أن يوجدَ فيه تناقُضٌ.

ومنـاظرةُ نافعِ بْنِ الأزرقِ لابنِ عبَّـاسٍ فِي هذه المسائلِ المشهـورةِ ذَكَرَهَا السُّيُوطِيُّ[1] وغيرُه، حيث كان يُورِدُ شُبُهاتٍ وابنُ عبَّاسٍ يُجيبُ عليها ويردُّ عليه.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) متفرقة في الدر المنثور للسيوطي.



الحثُّ على تدبُّرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

إِنَّ الحمدَ للهِ، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونتوبُ إليه، ونَعُوذ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِن سَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجَاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

أنزل اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى القُرْآنَ الْكَرِيمَ، وجَعَلَه مباركًا لِيدَّبَّرَ النَّاسُ آياتِه، ولِيَتَذكرَ أُولو الألبابِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]. وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ دليلٌ عَلَى ثمراتِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ، وأن ثَمراتِه كلَّها بركةٌ، وَلَوْ لم يكنْ منها إِلَّا أن الْمُسْلِمِينَ فَتَحُوا به مَشارقَ الْأَرْضِ ومَغاربَها حِينَ تمَسَّكوا به لكفى بها ثمرةً.

ومن بركةِ هذا القُرْآنِ أنَّه موعظةٌ وشفاءٌ لِمَا فِي الصُّدورِ، بل شفاءٌ للأمراضِ الجِسْمِيَّةِ، ومن بركةِ هذا القُرْآنِ أن مَنْ قَرَأَهُ فله بِكلِّ حَرْفٍ منه حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِها، فَإِذَا قلتَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢] ففي كَلِمَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ خمسةُ أَحرفٍ وهي: الهمزةُ، واللامُ، والحاءُ، والميمُ، والدالُ، كُلُّ حرفٍ منها بعَشْرِ حسناتٍ، فالجميعُ خمسون حَسَنَةً.

وفي كَلِمَةِ ﴿لِلَّهِ﴾ أربعةُ أحرفٍ وهي: اللامُ حرفُ الجرِّ، واللامُ المشددةُ، والهاءُ، فالجميعُ أربعون حَسَنَةً تضافُ إِلَى الخمسين حَسَنَة فِي كَلِمَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، فالمجموعُ تسعون حَسَنَةً فِي قولِك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فهَـذِهِ من بركاتِ القُرْآنِ، فمن بركاتِ القُرْآنِ أَنَّه شِفَاءٌ لأمراضِ الأَجْسامِ، وَلأمراضِ القُلوبِ.

ومن الأدلَّةِ عَلَى بركةِ القُرْآنِ أيضًا تلك القِصَّةُ:

بَعَثَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- سريَّةً، فنزلوا ضُيُوفًا عَلَى جماعةٍ، عَلَى أَنْ يُضَيِّفُوهم ويُطْعِمُوهم يومًا وليلةً، لكن هذه الجماعةُ لم يُوافقوا، وأبَوْا أن يُضيِّفُوهم، فتَنَحَّوا ناحيةً، فَسَلَّط اللهُ عَلَى رئيسِ هَؤُلاءِ القومِ الَّذِين لم يُضيِّفوهم عَقربًا فلَدَغَتْه، وَهي من الزواحفِ السَّامةِ، فآلَمَتْه ألمًا شديدًا، فقـالوا: ابْحثُوا عن دواءٍ، فقَالَ بَعْضُهم لبَعْضٍ: لعـل هَؤُلاءِ القومَ الَّذِين نزلوا عندهم شيءٌ، فَأَتَوْا إليهم، فقالوا: إن سَيِّدنا لُدغ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيءٍ لاَ يَنْفَعُهُ فَهَل عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيءٍ؟ قَالُوا: نعم فينا قارئٌ، وَلَكِنَّا لن نقرأَ عَلَى سَيِّدِكم إلَّا بقطيعٍ من الغَنمِ، فقالوا: نعم، خُذُوا قطيعًا من الغَنَمِ.

فذَهَبَ أحدُ الصَّحابَةِ إِلَى هذا الرَّجُلِ، وجَعَلَ يَتْفُلُ[1] ويقرأُ عَلَيْهِ سُورةَ الفَاتِحَةِ، وهَذَا الريقُ اليسيرُ إِذَا تَسَلَّطَ عَلَى مَحَلِّ الألمِ، شَفَاه اللهُ، فقامَ سيدُ القومِ اللَّدِيغُ كأنما نُشِطَ من عِقَالٍ، فكَمَا تَعرفونَ، الإبلُ تُعقلُ يَدُها بِعقالٍ يُدارُ عَلَى اليدِ، وهَذَا مَثَلٌ يُضربُ لِمَا يكونُ سَرِيعًا.

فأخذوا القطيعَ من الغنمِ، فلَمَّا أَخـذُوه أُشْكِلَ عَلَيْهِم، كيف يأخذونَ أَجْرًا

---

(١) التَّفْل: نفخ معه أدنى بزاق، وهو أكثر من النَّفْث. النهاية (تفل).

عَلَى كتابِ اللهِ؟ فأَمْسَكُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْبَرُوه بالقَضِيَّةِ، فقال: «اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ»[١]. تَطْيِيبًا منه ﷺ لقلوبِهم حَتَّى تطمئنَّ، فأَخَذُوا وضَرَبُوا لَهُ معهم بسهمٍ.

فكانت سُورةُ الفَاتِحَةِ رُقْيَةً، ولِهَذَا قال النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- للذي قَرَأَها: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»، «وَمَا يُدْرِيكَ» يَعْنِي: ما يُعْلِمُكَ أنها رُقيةٌ، ثُمَّ قال: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»[٢].

وهَذَا الحكم خاصٌّ بالَّذِي يُعَلِّم القُرْآن، أو يقرأ عَلَى المريض، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

أَمَّا الَّذِي يقرأُ ليأْخُذَ أجرًا فهَذَا لا ثوابَ له، ولا حقَّ له فِي الأجرِ، ومن ذَلِكَ ما يَفْعَلُه بَعْضُ النَّاسِ -عن جهلٍ- إِذَا مات مَيِّتٌ، جاؤوا بقارئٍ يقرأُ القُرْآنَ، يَقُولون: إنَّه يَصِلُ إِلَى الميتِ. ولكن هذه القِرَاءَةُ لن تَصِلَ إِلَى الميتِ؛ لأَنَّها قِرَاءَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ اللهِ، وإنَّما أريدَ بها الدراهمُ، وهَذَا القارئُ قد تَعَجَّلَ أَجْرَهُ، فَحِينَئِذٍ ليس له أجرٌ أو ثوابٌ فِي الآخِرةِ، وإذا لم يكنْ له ثوابٌ فِي الآخِرةِ لم يَصِلِ الميتَ شَيْءٌ من الثوابِ، فَحِينَئِذٍ نكونُ خَسِرْنَا بلا رِبْحٍ؛ لأَنَّنا أَعْطَيْنَا هذا القارئَ دراهمَ، ولكنَّ مَيِّتَنَا لم يَنْتَفِعْ.

وما أَعظمَ الجُرمَ إِذَا كان هذا العِوَضُ من أموالِ اليتامى! فَقَدْ يكونُ الورثةُ يتامى، يَعْنِي صغارًا، فنكونُ أَخَذْنَا أموالَهم بغيرِ حَقٍّ، وقد قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢٢٧٦)، وأخرجه مسلم: كتاب الآداب، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، برقم (٢٢٠١)..

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الشرط في الرقية، رقم (٥٧٣٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠].

فمن بَرَكةِ القُرْآنِ أنَّه شِفاءٌ لأَمراضِ القلوبِ، ولأَمراضِ الأجسامِ.

تَنْبِيهٌ:

تَنْبِيهٌ لإخواننا المُسْلِمِينَ، بخصوصِ أولئك المُشَعْوِذِينَ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ المالَ بالباطلِ، ويأتونَ بأدعيةٍ وطلاسمَ ما يُدرى ما هي، يُهَذْرِمُ[1] في لسانه ولا يدري ما يَقُولُ، ثُمَّ يأخذون أموالَ النَّاسِ، ولعلهم يخاطبون شيطانًا أو جِنًّا في هذه الهَذْرَمَةِ، والشياطينُ قد تعملُ للإِنْسَانِ أَشْيَاءَ يَعْجِزُ عنها البَشرُ، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في شياطينِ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذين سُخِّروا له: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣].

قَوْلُهُ: ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾ الجِفانُ: هي الصِّحَافُ، والجَوابي بِرْكَةُ الماءِ، يَعْنِي: الشياطينُ تعملُ لسليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِحَافًا كالبركِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ يَعْنِي: ثابتة لا تُحمَلُ من كِبَرِها وضَخامَتِها.

وفي آيةٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص:٣٧-٣٨]، فالشياطينُ منهم من يَبْنِي، ومنهم من يَغُوصُ في البحرِ يأتي باللؤلؤِ والمَرْجانِ والسَّمكِ وغيرِ ذَلِكَ، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ لأنَّ هؤلاءِ مَرَدَةٌ يَعْصُونَ أَمْرَهُ، فيُقَرِّنُهُمْ في الأَصْفَادِ.

---

(١) الهذرمة: الحركة الشديدة. كتاب الأفعال لابن القطَّاع (هذرم).

فعلينا أن نَحـذَرَ المُشَعْوِذِينَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَقْرَأُ بما لا يُفْـهَمُ لا تَقْبَلُوا قراءتَه، والَّذِي يَقرأُ بما يُفْهَمُ انظروا قراءتَه: هل تشتملُ عَلَى شِركٍ، أم هي قِرَاءَةٌ مَشْرُوعَةٌ، أم أَدعيةٌ مُبَاحَةٌ؟

أعودُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَـالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، قَوْلُهُ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فَللتَّدَبُّرِ مَعْنَيَان:

المعنى الأَوَّلُ: التَّفَكرُ لاسْتِخراجِ المعاني، لأَنَّهُ يُردِّدها فِي ذهنِه مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَتضِحَ له المعنى.

المعنى الثَّاني: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والنَّاسُ فِي تلاوةِ القُرْآنِ ثلاثةُ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: يقتصرُ عَلَى قراءتِه بدونِ تدبرٍ.

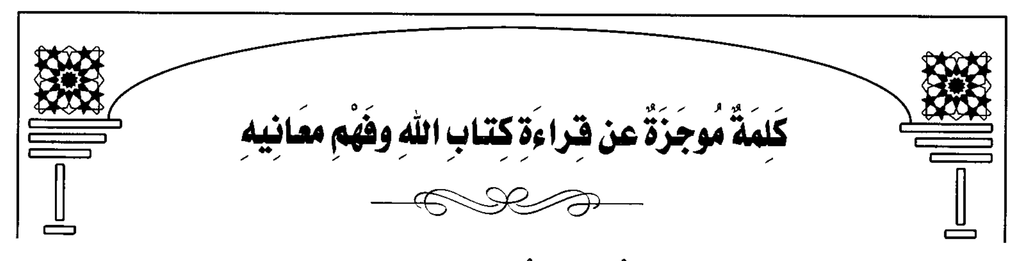
القِسْمُ الثَّاني: يقرأُ ويتدبرُ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: يقرأُ ويتدبَّرُ ويتذكرُ.

وخَيرُ هـذه الأقسامِ هو الثَّالِثُ، ولِهَـذَا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ومعنى الألبابِ: أَيْ العقول، وسُمِّي العقلُ لُبًّا، لأنَّ الإِنْسَانَ بلا عقلٍ قُشُورٌ بلا لُبٍّ، ولِهَذَا سمي العقلُ لُبًّا كلُبِّ الحبَّةِ.

فعلينا أن نتدبَّرَ القُرْآنَ، وأَلَّا نقرأَ بلا تَدبرٍ، فالقُرْآنُ كله بركةٌ حَتَّى وإن لم تتدبرْه، لكن علينا تدبرُه والاتعاظُ به؛ حَتَّى نكونَ مِمَّن يَتْلُون القُرْآنَ حقَّ تِلاوتِه.

فما أَدركناه بما أعطانا اللهُ من الفَهمِ فذاك، وما لم نُدْركْه فلنسألْ عنه أَهْلَ الْعِلْمِ، ويَجِبُ علينا أَنْ نُراجعَ العُلماءَ الموثوقين، ومُطالعةُ كتبِ التَّفْسِيرِ إِذَا كان المفسِّرُ مَوثُوقًا بعقيدتِه وبعلمِه.



كَلِمَةٌ مُوجَزَةٌ عن قِراءَةِ كِتابِ اللهِ وفَهْمِ مَعانِيه

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فإني أَحُثُّ إخْـوانِي المسلِمِينَ على تَدَبُّرِ كلامِ ربِّهِمْ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فإنَّه شِفَـاءٌ لما في الصُّدورِ، وهُدًى ورَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينِ، فيه تِبيانُ كلِّ شيءٍ، وفيهِ السعادةُ لمن تمسَّكَ بِهِ؛ قال اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦]، نسأَلُ اللهَ أن يُعيذَنا وإياكُمْ مِنْ حالِ هذا وأمثالِهِ.

وأكثرُ المسلِمِينَ اليومَ يَقْرَؤونَ القُرآنَ تَبَرُّكًا به، ورجاءً لثَوابِهِ، دونَ أن يُحاوِلُوا تَفَهُّمَ معناهُ، وهذا نَقْصٌ بلا شَكٍّ؛ لأن اللهَ قال في القُرآنِ الكريمِ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]؛ واللامُ هنَا للتَّعْلِيلِ، وبيانُ الحكْمَةِ مِن إنزالِهِ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وكنا قد ذَكَرْنَا قبلُ أن الرُّجُوعَ في تفسيرِ القرآنِ الكريمِ إلى القُرآنِ الكَريمِ؛ لأنَّ المتكلِّمَ به أعلَمُ بمرادِهِ من غَيرِهِ.

وكنا قد ذَكَرْنَا أيضا أَنَّنا إذا لم نَجِدِ التَّفْسِيرَ في كلامِ اللهِ، فَفِي سُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وإذا لم نَجِـدْ ذلِكَ في السُّنَّةِ رجَعْنَا إلى أقـوالِ الصحَابَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لأن القُرآنَ

نزَلَ بِلُغَتِـهِمْ، وفي زَمَنِهِم، فهُمْ أعلمُ الناسِ بمَعْنى كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا سِيَّما فيما يتعَلَّقُ بالحلالِ والحَرامِ، فإن لم نجِدْ فبِما تقتَضِيهِ اللُّغَةُ العربِيَّةُ، وقد سُقْنَا الأدِلَّةَ على ذلِكَ.

ولكن اعلَمْ -أخِي المسلِمَ- أن الشَّريعَةَ نَقَلَتْ بعضَ الكلماتِ عَنْ معناهَا اللُّغَوِيِّ إلى معنًى شَرْعِيٍّ، فهل إذا تعَـارضَ حَقِيقتَانِ شَرْعِيَّةٌ ولُغَـوِيَّةٌ، هل نُقَدِّمُ الحقِيقَةَ الشرعِيَّةَ، أو الحقِيقَةَ اللُّغَوِيَّةَ؟

والجوابُ: نُقَدِّمُ الحقِيقَةَ الشَّرعِيَّةَ، مثالُ ذلكَ: الصلاةُ في اللُّغَةِ الدُّعاءُ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣]؛ يعني: ادعُ لهُمْ، لكِنْ هذا المعْنَى اللُّغَوِيُّ نُقِلَ إلى مَعْنًى آخَرَ؛ فالصلاةُ في الشَّرْعِ: هي التَّعَبُّـدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ؛ بأقوالٍ وأفعـالٍ معْلُومَةٍ، أوَّلُهَا التَّكْبِيرُ، وآخِرُهَا التسليمُ.

إذن: إذَا قـال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، هل المعْنَى أقِيمُـوا الدُّعاءَ، أو أقِيمُوا العبادَةَ المعْروفَةَ؟ بل أقِيمُوا العبادَةَ المعْروفَةَ.

ولو قال قائلٌ: مَعْنى ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الدُّعاءُ؛ لأن هذا معناه في اللُّغَةِ.

قُلْنا: هذا غَلَطٌ؛ لأن الحقِيقَةَ الشرْعِيَّةَ مقدَّمَةٌ على الحقِيقَةِ اللُّغَوِيَّةِ.

بناءً على ذلِكَ؛ أقولُ لإخْوانِي: القُرآنُ الكريمُ تِبيانٌ لكُلِّ شيءٍ، كلُّ شيءٍ مُبَيَّنٌ في القُرآنِ، حتى أكْلُكَ وشُرْبُكَ، ودُخُولُك الحمَّامَ، ولُبْسُكَ الثَّوبَ، وعَقْدُ النكاحِ والطلاقِ، كلُّه مُبَيَّنٌ في القُرآنِ؛ حتَّى آدابُ الأكْلِ والشُّرْبِ، حتى آدابُ دُخـولِ الحمَّامِ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]؛ و﴿لِّكُلِّ﴾ هذه مِنْ صِيَغِ العُمـومِ، كلُّ شيءٍ، ولا يمكِنُ أن تجِـدَ شيئًا إلا وَحَلُّه في القُرآنِ،

إلا إذا كُنْتَ قليلَ العِلْمِ، أو قاصِرَ الفَهْمِ، أو مُقَصِّرًا في الطَّلَبِ، وإلا ستَجِدُه؛ لأن القُرآنَ كامِلٌ؛ لأن الدِّينَ كامِلٌ.

فإذا قال لكَ قائلٌ: أينَ آدابُ الأكْلِ في القُرآنِ؟

نقُولُ: أَلَمْ تقَرأْ قولَ اللهِ تَعالَى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١]، فإن قال لكَ: لكِنْ هلْ قالَ: إذا أكَلْتَ فَسَمِّ، وإذا شَرِبْتَ فَسَمِّ، وإذا فَرَغْتَ فاحمَدِ اللهِ، هلْ قال هذَا؟ فنُجِيبُ عليهِ: لا؛ لكِنْ قال كَلِمَةً جامِعَةً مانِعَةً؛ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف:١٥٨]، صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّمْ عليهِ، فقَالَ سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، وبَعْدَها قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ في أقْوالِهِ، وأفْعالِهِ، وما يَتْرُكُ، ومَا يفْعَلُ.

كذلِكَ تجِدُ الواشِمَةَ والمسْتوشِمَةَ مثَلًا مَلْعُونَتَيْنِ في السُّنَّةِ[1]، فهل هُما مَلْعُونتانِ في القُرآنِ؟ نقولُ: نَعَمْ؛ لأن اللهَ أمَرَنَا أن نَتَّبعَ هذا النَّبِيَّ، وأن نُصَدِّقَ بخَبَرِهِ.

وهنا قصَّةٌ مشهورَةٌ عن بعضِ العُلماءِ، أقولُها كثِيرًا في المجالِسِ؛ لأنها عِبْرَةٌ وخِبْرَةٌ وفِطْنَةٌ: رجُلٌ من عُلماءِ المسلِمِينَ الذينَ أعْطَاهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فَهمًا ثَاقِبًا كان في أورُوبَّا، وكان في مَطْعَمٍ مع طُلَّابِهِ، وكان المطعَـمُ جامِعًا بينَ المسلِمِينَ والكافرينَ، وفي زَاوِيَةٍ مِنَ المطعَـمِ رجُلٌ من علماءِ النَّصارَى المنَصِّرِينَ، ولا يقـالُ عنهم: مُبَشِّرُونَ؛ بل هم منَصِّرُونَ مضَلِّلُونَ؛ لأنهم ضالُّونَ، أما المبشِّرُونَ فهُمْ دعاةُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الموصولة، رقم (٥٥٩٦)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، رقم (٢١٢٤).

هذه الأُمَّةِ، كَمَا قال النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- وهو يبعثُ البعوثَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»[1]. وقالَ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّهِ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فاطر:٢٤]، لكن هُمْ يقولونَ: هذا مبَشِّرٌ، تَزْيِينًا وتَزْيِيفًا.

على كلِّ حالٍ؛ كان هذا الرَّجُلُ النَّصْرانِيُّ من عُلماءِ النَّصَارَى في زَاوِيَةٍ مِنَ المطْعَمِ، ورَأَى هذا العَالِمَ الإسلامِيَّ فأرادَ أن يمْتَحِنَهُ؛ فأَتَى إليهِ النَّصْرَانِيُّ وقال لهُ: إني وَجَدْتُ في كِتَابِكُم أنه تِبيانٌ لكُلِّ شيءٍ، قال: نعم، هذا كَلامُ ربِّ العَالِمِينَ عَزَّوَجَلَّ، قال النَّصْرَانِيُّ: هذا شيءٌ مِنَ الحَلْوَى مثَلَّثٌ، ولا يكونُ مستَدِيرًا، فكيف تُصْنَعُ هذا؟ واقْرَأِ القُرآنَ فلَنْ تجِدَ فيهِ شَيْئًا عَنْ هذا.

فقالَ الرَّجُلُ العالِمُ المسلِمُ: لا؛ بل هذا موجودٌ في القُرآنِ. فقالَ النَّصْرَانِيُّ: كيفَ؟! فنادَى العالِمُ المسْلِمُ صاحِبَ المطعَمِ، وقالَ: تعالَ يا رَجُلُ، ثم سأله: كيف تَصْنَعُ هذَا؟ فقال صاحبُ المطعَمِ: أصنَعُهُ بكذَا وكذَا وكذَا، وبيَّنَ لهُ، قال: هكذا جاءَ في القُرآنِ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣]، هكَذَا جاءَ في القُرآنِ، فقَالَ النَّصْرَانِيُّ: كيفَ ذلِكَ؟ قال العَالِمُ المسلِمُ: إنَّ اللهَ تَعالَى لما قَالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أحالَنَا بذلِكَ على مَصْدَرِ العِلْمِ، فعليه يكونُ هذا مَوْجُودًا في القُرآنِ، لا بِلَفْظِهِ؛ ولكن بما يدُلُّ عليهِ.

المهِمُّ: أن كلامَ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -أسأَلُ اللهَ أن يجْعَلَنِي وإياكُمْ ممن يتْلُونَهُ حقَّ تِلاوتِهِ- تِبيانٌ لكُلِّ شيءٍ، لكن قَدْ يكونُ هناكَ قُصُورٌ في العِلْمِ، أو تَقْصِيرٌ في الطَّلَبِ،

---

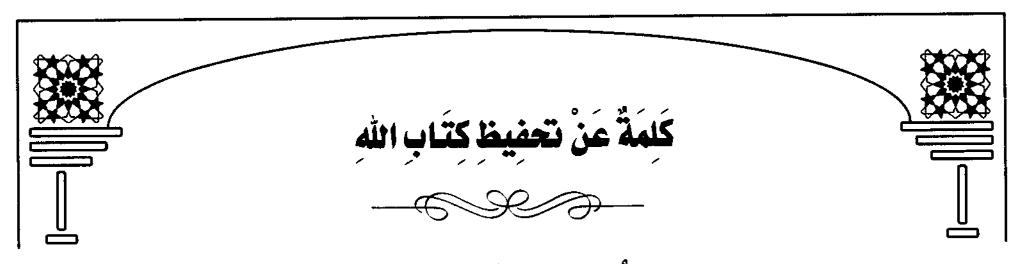
(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم (٦٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٤).

أو عدَمُ فَهْمٍ، أو قصورٌ في الفَهْمِ، أو سوءُ إرادَةٍ وقَصْدٍ، فهذِه أربعَةُ أشياءَ: قِلَّةُ العِلْمِ، والتَّقْصِيرُ في الطَّلَبِ، والقصورُ في الفَهْمِ، وسوءُ القَصْدِ.

فمثلًا أَهْلُ البِدَعِ الذين يُحَرِّفونَ كلامَ اللهِ عن مَواضِعِه، ويفَسِّرُونَهُ بما تقتَضِيهِ أهْواؤهُمْ، لا بما يُريدُهُ اللهُ ورسُولُهُ، هؤلاء قَدْ يكونُ عندَهُم عِلْمٌ كثيرٌ لكِنْ عندَهُم سوءُ القَصْدِ، يريدُونَ أن يتَّبعَ الناسُ أهْواءَهُم، وقدْ قـال اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، فيَجِبُ أن يتَنبَّهَ لذلِكَ، وأحُثُّ نَفْسِي وإياكُمْ على تَدبُّرِ كلامِ اللهِ ومعْرِفَةِ مَعناهُ، ثم العَمَلِ بِهِ؛ لأن هذا هو المقصودُ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]؛ هذا المعْنى، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ هذا العَمَلُ والتَّطْبِيقُ.

ففكِّرْ في نفْسِكَ؛ هل أنتَ ممَّنْ ينْهَجُ هذا المنهجَ، أو ممَّنْ يقْرَأُ القُرآنَ للتَّبَرُّكِ فقَطْ؟ أقولُ وبصَراحَةٍ: أكثرُ الناسِ على الثَّانِي، يقولُ: أقْرَأُ القُرآنَ؛ لأن في كُلِّ حَرْفٍ حسَنَةً، والحسَنَةُ بعَشْرِ أمثَالِها، لكِنْ نقولُ: يا أخِي؛ قِفْ تَدبَّرْ تأمَّلْ، وارجِعْ في التَّفْسِيرِ إلى أهْلِ العِلْمِ المُوثُوقِينَ بعِلْمِـهِمْ ودِينِهِمْ؛ لأنه ليس كُلُّ عالمٍ يكونُ عنْـدَهُ أمانَةٌ، وليس كلُّ أمِينٍ يكونُ عِنْدَهُ عِلْمٌ، احرِصْ على العَالِمِ الموثُوقِ في عِلْمِه وأمانَتِهِ.

وإذا لم يكنْ لدَيْكَ عالِمٌ فارْجِعْ للتَّفْسِيرِ المؤلَّفِ؛ كتفْسيرِ ابنِ كَثِيرٍ، والسَّعْدِيِّ، وأبِي بكرٍ الجزَائرِيِّ، وأمثَـالِهِم، وأنْهَاكَ عَنْ كتُبِ التَّفْسِيرِ الكَبِيرَةِ التي لا ينْتَفِـعُ بها طالِبُ العِلْمِ المبتَدِئُ، وإياكَ وتحرِيفَ الضَّالِّينَ، إياكَ أن تَرْجِعَ في تفْسِيرِ القُرآنِ إلى مَنْ يفَسِّرُهُ تَفْسِيرًا أدَبِيًّا فَقَطْ، ليس على قواعِدِ الشَّرِيعَةِ؛ لأن هذا لا يُفَسِّرُ القُرآنَ.



كَلِمَةٌ عَنْ تحفِيظِ كِتَابِ اللهِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وأُصَلِّي وأسَلِّمُ علَى نَبِيِّنَا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فيَسُرُّنِي في هذه الليلَةِ أن أحْضُرَ إلى هذا المكانِ لأَسْتَبْشِرَ بما سَمِعْتُ عن جَريانِ تحفِيظِ القرآنِ في أمِّ القُرَى؛ مكَّةَ المكرمَةِ.

إن هذه المدارِسَ وهذه الحَلَقاتِ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فتَحَهَا اللهُ على هذه البِلادِ وعلى غيرِهَا مِنْ بلادِ المسلِمِينَ؛ حتى وَصَلَ الأمْرُ إلى ما سَمِعْنَاهُ من أخِينا مديرِ هذه الجماعَةِ؛ جماعَةِ تحفِيظِ القُرآنِ، فنسألُ اللهَ تَعَالَى أن ينفَعَ بِهَا.

أيها الإخوةُ؛ إن تحفِيظَ القُرآنِ ليس إلا وَسِيلَةً إلى العَمَلِ بِهِ؛ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]. فبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الحِكْمَةَ من إنزالِ هذا القُرآنِ؛ أن يتَدَبَّرَ النـاسُ آياتِهِ، ويتأمَّلُوهَا، ويتفكَّرُوا فيـهَا؛ حتى يعمَلُوا بها؛ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

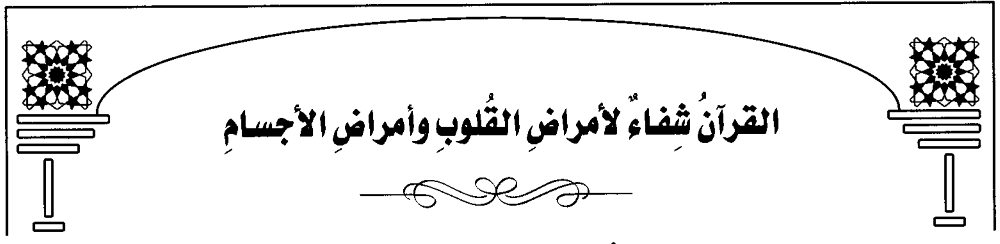
أما أن يُقْرَأَ القرآنُ بدُونِ فَهْمٍ لمعنَـاهُ، ولا عَمَلٍ بمُقْتَضاهُ، فهَذَا نَقْـصٌ كبيرٌ، يجِبُ على الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ أن تَعْتَنِيَ بفَهْمِ معَانِي كِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكَمْ من مسْألَةٍ تَعِبْنَا في طَلَبِ الوصولِ إلى حُكْمِهَا مِنَ السُّنَّةِ ومِنْ كلامِ الأئمَّةِ؛ ولكِنَّنَا لم نَصِلْ إلى ذلِكَ، فإذا رَجَعْنَا إلى القرآنِ وجَدْنَا حُكْمَها واضِحًا بَيِّنًا، وبهذا نعرِفُ فَائِدَةَ الرجوعِ إلى كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وليَحْـذَرِ الإنسانُ مِنَ التفاسِيرِ البَعيدَةِ عن التَّفْسِيرِ، ويعتَنِي بكُتُبِ التَّفْسِيرِ التي عُرِفَ مصَنِّفُوها بصِحَّـةِ العقِيدَةِ، وسلامَةِ المنْهَجِ؛ كتفْسيرِ ابنِ كَثـيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتفْسيرِ شيخِنَا عبدِ الرَّحْمنِ بن سَعْدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيرهما مِنَ التَّفاسِيرِ، وإذا أُشْكِلَ على الإنسـانِ أيُّ شيءٍ مِن هذا فليرْجِعْ إلى العُلماءِ الناصِحِـينَ الذين يعْرفونَ ما يَقْرؤونَ مِن كُتُبِ التَّفْسِيرِ، ويُبيِّنُونَ مَا فيها مِنْ أخطاءٍ؛ حتى يتبَيَّنَ الحَقُّ.

ختامًا: لهَذا أَشْكُرُ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على تَهيئَةِ هذا اللِّقاءِ، ثم أَشْكُرُ خادِمَ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفينِ على مساعدَةِ هذه الجَمعِيَّاتِ، وأرجُو مِنْ إخوانِنَا الأثرياءِ أن يُسَاعِدُوها بالمالِ والقَوْلِ والفِعْلِ، وأَحُثُّهُم على أن يُوجِدُوا مواردَ لهذِهِ الجَمْعِيَّاتِ؛ كالعِمارَاتِ تُؤَجَّرُ لمصْلَحَتِهَا، وتوقَفُ لمصْلَحَتِهَا، وكذلِكَ المساجِدُ وغيرها؛ لأن التَّبَرُّعَ لمثلِ هذه الأعمالِ لَا يزُولُ، بل يبْقَى بعدَ وفاةِ الإنسانِ.

أسأَلُ اللهَ لِي ولكُمُ التَّوفِيقَ لما يُحِبُّ ويَرْضَى، وأن يحْفَظَ حُكُومَتَنَا بكِتابِ اللهِ، ويحْفَظَ كِتَابَهُ بِهَا، إنه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالِمِينَ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحْبِه أجمَعِينَ.





القرآنُ شِفاءٌ لأمراضِ القُلوبِ وأمراضِ الأجسامِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، وأُصَلِّي وأسَلِّمُ على نَبِيِّنَا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧] كم من إنسانٍ قد قَسَا قلبه، فقَرَأَ القرآنَ، فألَانَ اللهُ قَلْبَه، واستمعْ إلى المَثَلِ الذي ضَرَبَه اللهُ حتى تَقْتنِعَ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، فهذا الجبلُ يَخْشَعُ ويَتصَدَّعُ ويَتفكَّكُ لو نَزَلَ عليه القرآنُ، ولكن إذا نَزَلَ على القلبِ لَانَ، وزَالَتْ قَسْوتُه، ولهذا قال الشيخُ ابن عبدِ القوي المرداوي في قصيدته الداليةِ المشهورةِ:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ القُرَانِ فَإِنَّهُ ... يُلِينُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ[١]

إن بعضَ الآياتِ يتلوها التالي تَوَدُّ أن يَبْقَى طِيلَةَ الزَّمَنِ وهو يَقْرَؤُها، فإنه يَجِدُ لَذَّةً، والقَلْبُ يَطْرَبُ ويفرحُ لهذه الآياتِ ويَلِينُ، أما إذا قرأ الإنسانُ بغَفْلَةٍ فالتأثيرُ قَلِيلٌ، اللهم أَلِنْ قُلوبَنا بذِكْرِكَ وكلامِك يا ربَّ العالمين.

أما كَوْنُهُ شفاءً لأمراضِ الأجسامِ فاستمعْ إلى قِصَّةٍ ذُكِرت في الصحيحين وغيرِهما: «أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا

(١) انظر الآداب الشرعية والمنح المرعية لشمس الدين محمد بن مفلح (٣/ ٥٨٨).

عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ. فَأَتَوْهُمْ، فقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفُلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»؟ ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**»[1].

اللهمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عَلَيْهِ، وهذا هو التعليمُ، فهو لم يَقُلْ: «**اضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**». لأنه جَائِعٌ، ولكن لِيَطْمَئِنُّوا أنَّ الرَّسُولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- أَكَلَ منه فيَطْمَئِنُّوا ويَأْكُلُوا، ثم قال للرجلِ الذي قَرَأَ الفاتحةَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**». أي: ما الذي أَعْلَمَكَ أنها رُقْيَةٌ.

إذن، إذا أَرَدْتَ أن تَقْرَأَ على المريضِ فعليكَ بالفاتحةِ فاقْرَأْها عليه، لكن لا بُدَّ من اعتقادٍ في القارئِ واعتقادٍ في المَقْرُوءِ عَلَيْهِ، فَيَجِبُ على القارئِ أن يعتقدَ أَنَّهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢٢٧٦)، وأخرجه مسلم: كتاب الآداب، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، برقم (٢٢٠١).

سَتَنْفَعُ بإذنِ اللهِ، وكذلك المقروءُ عَلَيْهِ لا بُدَّ أن يعتقدَ أنها سَتَنْفَعُهُ بإذنِ اللهِ، لا على سَبيلِ التَّجْرِبةِ.

ولا بُدَّ هنا من ثلاثةِ أَشْياءَ: فَاعِلٍ، ومَحَلٍّ قابلٍ، ومُؤَثِّرٍ. وسَأَضْرِبُ لكم مثلًا: وهو أن يكونَ هناك إنسانٌ شُجاعٌ معه سيفٌ، والسيفُ كلُّه ثُلَمٌ لا يَقْطَعُ اللحمَ، فهذا لا ينفعُه السيفُ وإن كان شجاعًا، لأن المُؤَثِّرَ غيرُ صالحٍ، وإنسانٌ آخرُ معه سيفٌ بَتَّارٌ ماضٍ كالبرقِ لكنه جبانٌ، إذا رأى شُجاعًا سَقَطَ السيفُ من يَدِه، فهذا لا ينفعُـه السيفُ، لأن الفاعلَ غيرُ صالحٍ، وإنسانٌ ثالثٌ شجاعٌ ومعه سيفٌ بَتَّارٌ فقَصَدَ عَمُودًا يَحْسَبُه عَدُوًّا، فجَعَلَ يَضْرِبُه بالسيفِ، والعمودُ لا يتأثرُ، وذلك لأن المحلَّ غيرُ قابلٍ.

فإذا جِيءَ مثلًا بمريضٍ إلى إنسانٍ يقرأُ عليه، ولكنَّه لا يعتقدُ أنه يَنْفَعُ، ويقولُ: أنا ذَهَبْتُ للطبيبِ الفـلاني والدكتورِ والجراحِ، وكُلُّهم لم يسـاعدوني في الشفاءِ، فكيف يَنْجَحُ هذا الذي يقرأُ بالقرآنِ؟ فهذا القرآنُ لا يُفِيدُه لأنه غيرُ مُؤْمِنٍ بهذا الأمرِ. أو إنسانٌ يقرأُ، ولكنـه شاكٌّ في الأمرِ، فهذا أيضًا لا يَنْفَعُـه، أو إنسانٌ يقرأُ بأمورٍ غيرِ شرعيةٍ، فهذا كذلك لا يَنْفَعُه، وإن نَفَعَ فهو من الشياطينِ التي تَغُرُّه.

والقرآنُ يُؤَثِّرُ في حامِلِه تأثيرًا عَظِيمًا، فالحاملُ للقرآنِ إذا كان يُؤْمِنُ به ويَعْمَلُ به فَسَوْفَ يُؤَثِّرُ في إيمانِه، وفي أعمالِه، وفي أخـلاقِه، وفي كلِّ شيءٍ، وانظرْ إلى النبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- وهو أحسنُ الناسِ خُلُقًا، تقولُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[1]. واللهِ لو قَرَأْنا القُرْآنَ وتَلَوْناه حقَّ تِلاوتِه لتَغَيَّرَ المجتمعُ كُلُّه،

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩١، رقم ٢٤٦٤٥).

لكنَّ أكثرَ الناسِ يَقْرَؤونَه للأجرِ وللتَّبرُّكِ.

هذا التأثيرُ العظيمُ لا يكونُ إلا بالقرآنِ الكريمِ، ولذلك نحن نَقْرؤُه في شهرِ رمضانَ على الأقلِّ ثلاثَ مَرَّاتٍ، ومع ذلك لا نَمَلُّ من قراءتِه، وكلما قرأتَ مَرَّةً أخرى فكأنك تَقْرَؤُه لأَوَّلِ مَرَّةٍ، ولهذا من أوصافِ القرآنِ أنه «**لَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ**»(١)، أي لا يَبْلَى، وهذا لا يُوجَدُ في غيرِ القرآنِ.

ونَجِدُ كذلك من آثارِ القرآنِ -وقد لا يَتَصَوَّرُ بعضُنا هذا الأَمْرَ- أن المسلمين فَتَحُوا به مشارقَ الأرضِ ومغاربَها؛ لأنهم يُجاهِدُونَ بالقرآنِ وللقرآنِ، كان الناسُ في خَوْفٍ وفي جُوعٍ، ثم صَاروا بعدَ ذلك في أَمْنٍ شَديدٍ وشِبَعٍ تَامٍّ، وهذا تاجُ كِسْرَى يُؤْتَى به من المدائنِ من وَراءِ النَّهْرِ إلى المَدينةِ، وأَذْكُرُ هذا حتى تَقِيسَ أخي المسلمَ حالَ المسلمين اليومَ بحالِهم بالأمسِ، فيؤتى بتَاجِ كِسْرَى مُرصَّعًا بالذهبِ واللآلِئِ والجواهرِ، لا يحملُه البعيرُ الواحدُ، وإنما يَحْمِلُه بَعِيرانِ، رُبِطَ أَحَدُهما بالآخرِ، وجعلوا التاجَ فوقهما، وأَتَوْا به من المدائنِ إلى المدينةِ إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنهم يجاهدون باللهِ، ويجاهدون للهِ، ويجاهدون في اللهِ.

وهذه ثَلاثةُ أشياءَ:

الأول: يُجاهدون باللهِ، أي: يَسْتعينونَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وليسوا مُعْجَبِينَ بأَنْفُسِهم.

الثاني: يجاهدون للهِ؛ إخلاصًا له، فهم لا يُقاتلون حَمِيَّةً لقَوْمِهم، أو لعُروبتِهم، إنما يُقاتِلونَ من أَجْلِ دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقاتِلون للهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن، رقم (٣٠٠٧).

الثالث: يقاتلون في اللهِ، أي: في شَريعةِ اللهِ، فلا يُقْدِمون على القتالِ إلا حيثُ اسْتَعَدُّوا للقتالِ، وإذا أَقْدَموا على القتالِ بدُونِ استعدادٍ فالهزيمةُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] والشاعر يقول:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحِ[1]

فكيف يمكن للإنسانِ أن يُقاتِلَ بدُونِ سلاحٍ؟! فهذا لا يَصِحُّ، بل هذا تَفْرِيطٌ وإفراطٌ في الإقدامِ.

فتَعَجَّبَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كيف يُؤْتَى بهذا التاجِ من أقصى الشرقِ إلى المدينةِ لم تُفْقَدْ منه خَرَزَةٌ واحدةٌ، وإذا كُنَّا نحن مَن استولى عليه، لكانَ كلُّ وَاحِدٍ منا يقولُ: هذا لي، هذا رِزْقِي. لكنهم أَدَّوْهُ إلى عُمَرَ، فقال عُمَرُ: إنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هذا لَأُمَنَاءُ. فقالوا: يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إنَّهم أُمَنَاءُ لأَنَّكَ أَمِينٌ، ولو أَنَّكَ رَتَعْتَ لَرَتَعُوا[2]. لكنَّ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يَرْتَعُ في مالِ المسلمين، حتى إنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان يَرْتَدِي ثَوْبًا مُرَقَّعًا، خليفةُ المسلمين عليه ثوبٌ مُرَقَّعٌ، فكان إذا أَرَادَ أن يَنامَ نامَ في المَسْجِدِ، يجعلُ كُمَّه وِسادةً لرأسِه.

ولهذا يَذْكُرُ التاريخُ أنَّ مُعاويةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في وِلايتِه على الشامِ احتاجَ أن يَجْعَلَ بَيْتَ يَهُودِيٍّ تَبَعًا لبيتِ المالِ تَوْسِعَةً له، فأبى اليهوديُّ، وقال: هذا بَيْتِي ولا أَبِيعُه بكلِّ الشامِ. فقال معاويةُ: بِعْهُ. قال: لا أَبِيعُه. فرأى مُعاويةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن المسلمين يَحْتاجُونَ بيتَ هذا الرَّجُلِ لتَوْسِعَةِ بيتِ مالِ المُسْلِمِينَ، ولهذا قَرَّرَ أن يَعْرِضَ عليه

---

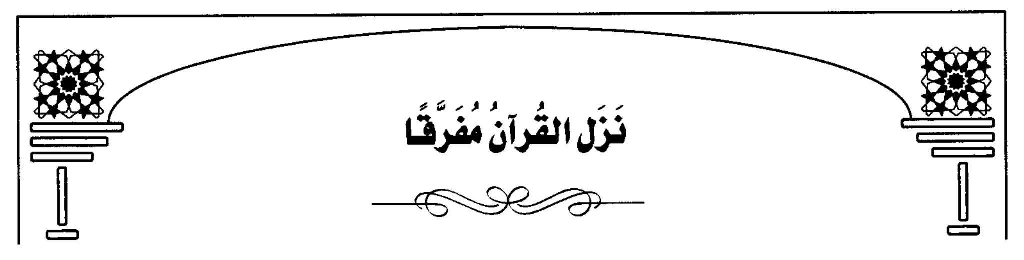
(١) البيت لمسكين الدارمي. انظر الحماسة البصرية (٢/ ٦٠).

(٢) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢/ ٤٤١، ٦٢٥).

أضعافَ قِيمَةِ البيتِ، ولكن اليهوديَّ أَبى، واستشار بعضَ أصحابِه، فقال له: اذْهَبْ إلى عُمَرَ في المدينةِ. فذهَبَ اليهوديُّ من الشامِ إلى المدينةِ، فدخَلَ المدينةَ يَسْأَلُ: أين أميرُ المؤمنين عُمَرُ؟ فدَلُّوه عليه، وإذا رَجُلٌ عليه ثَوْبٌ مُرَقَّعٌ قد نامَ في المَسْجِدِ، وجَعَلَ الحصباءَ تكونُ وِسادةً له، فتَعَجَّبَ اليهوديُّ؛ لأن مُعاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الشامِ كان أميرًا لأميرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ولكنه في قَصْرٍ فَخْمٍ ومُلْكٍ كَبِيرٍ، وهذا كان مما يحتاجُه لكي يَحْكُمَ به الناسَ هناك ويَهابُوه، فكَلَّمَ عُمَرَ في أمرِ مُعاويةَ، فأَمَرَ عُمَرُ بكتابٍ، وقيل: إنه كُتِبَ بعَظْمٍ، أو بحَصَاةٍ، إلى معاوية: أَنْصِفِ اليَهودِيَّ فليسَ كِسْرَى بأَعْدَلَ مِنَّا.

وهذا ما نَخْتِمُ به كلامنا، وسُبْحانَكَ اللهمَّ رَبَّنا وبحَمْدِكَ، نَشْهَدُ أنْ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ، نَسْتَغْفِرُكَ ونَتُوبُ إليك.





نَزَل القرآنُ مُفرَّقًا

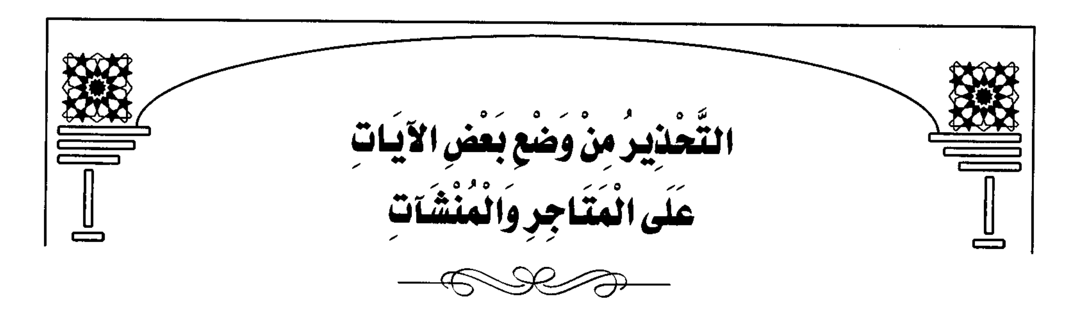
الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّـمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

بَقِيَ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم- في مكةَ قبلَ الهجرةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنةً، وبَقِيَ بَعْدَ هِجرتِه عَشْرَ سَنَوَاتٍ، فمُدةُ البَعثةِ -أي الرسالةِ- ثَلَاثٌ وَعشرونَ سَنةً.

في هذه المدةِ الوَجيزةِ تَكَوَّنَتِ الدولةُ الإسلاميةُ بَعْدَ أن هَاجَرَ النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-، ونَزَلَ القرآنُ مُفَرَّقًا على رَسُولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسلَّم-، نَزَلَ مِن عندِ اللهِ تَعالَى مُفَرَّقًا كَمَا قال تَعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ قال اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه مُفَرَّقًا لا جُمْلَةً واحدةً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: قَلْبَكَ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

وما سِواهُ مِنَ الكتبِ كَانَتْ تَنْزِلُ جُملةً واحـدةً على الرُّسلِ، أَمَّا هذا القرآنُ الكريمُ، فإنه كان يَنْزِلُ مِنْ عندِ اللهِ شَيْئًا فَشَيْئًا حتى أَتَمَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.





التَّحْذِيرُ مِنْ وَضْعِ بَعْضِ الآيَاتِ عَلَى الْمَتَاجِرِ وَالْمُنْشَآتِ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحمدُه، ونَستعينُه، ونَستغفرُه، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفُسِنا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:٩٤].

وَقال تَعالَى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:١٠٥].

هاتان الآيتان أو إحداهما تُكتب عَلَى بَعْضِ المنشآتِ والمتاجِرِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فتُوضَعُ الآيةُ فِي غيرِ مَوْضِعِها؛ لأنَّ هاتين الآيتين نَزَلَتا فِي المنافقين، وهي تهديدٌ لهم، وليست ثناءً ولا وعدًا، فينبغي أن لا نَكْتُبَهَا عَلَى المتاجرِ والمنشآتِ عَلَى وجهِ الثناءِ، فهَذَا عكسُ ما أراد اللهُ تَعالَى بهاتين الآيتين.

ففي الآيةِ الأُولى قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾، وفي الآيةِ الثَّانيةِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، فلا يُمْكِنُ أن يَرَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَمَلَنَا الآنَ؛ ولِهَذَا نَرْجُو من الَّذِين كَتَبُوا عَلَى مَتَاجِرِهِمْ أو مُنشآتِهِم قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أن يَمْحُوهَا من هذه المتاجرِ والمنشآتِ.





سورة الفاتحة

الدرس الأول:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومنْ سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه وأمينُه على وحيِه، وخيرتُه من خلقِه، ورسولُه إلى جميعِ الناسِ بشيرًا ونذيرًا، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنِ اتَّبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليما كثيرًا، **أمَّا بعدُ:**

فإنَّ الإنسانَ يقولُ في الفاتحةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والحمدُ هوَ الاعترافُ بالقلبِ، والوصفُ باللسانِ بكمالِ المحمودِ، معَ المحبةِ والتعظيمِ، يعني أن تصفَ المحمودَ بقلبِكَ ولسانِكَ بكمالِ الصفاتِ، معَ المحبةِ والتعظيمِ، فأنتَ عندمَا تقولُ: الحمدُ للهِ تشعرُ بأنكَ تحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ على صفاتِهِ الكاملةِ، وعلى إحسانِهِ الكاملِ، معَ المحبَّةِ التامَّةِ، والتعظيمِ التامِّ، فإن كررتَ وصفَ الكمالِ صارَ ثناءً.

والدَّليلُ على هذا ما جاءَ في الحديثِ الصَّحيحِ أن اللهَ تعالى قالَ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة،

وهذا دليلٌ على أن الثناءَ ليسَ هوَ الحمدَ، فالحمدُ شيءٌ والثناءُ شيءٌ آخرُ، ولهذا جاءتْ كلمةُ ثناءٍ الدالةِ على التَّكرَارِ؛ كما يقالُ: اثنانِ، يعني: واحدٌ معَ واحدٍ.

إذنِ الحمدُ وصفُ المحمودِ بالكمالِ بالقلبِ واللسانِ، أما الثناءُ فهوَ تكرارُ ذلكَ.

وقدْ حمِدَ اللهُ نفسَه عَزَّوَجَلَّ في مواضعَ كثيرةٍ؛ منها الفاتحةُ؛ فحمِدَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نفسَهُ لأنهُ الإلهُ، وحمِـدَ نفسَهُ لأنهُ ربُّ العالمينَ وخالِقُهم ومالكُهم، ومدبرُ أمرِهم جَلَّوَعَلَا، لا أحدَ يشاركُه في ذلكَ، ولا يُعينُه على ذلكَ، حمِدَ نفسَه لأنهُ الرحمنُ الرحيمُ، ولهذا قالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فهوَ عَزَّوَجَلَّ ذُو الرحمةِ الواسعةِ، وذو الرحمةِ الواصلةِ، وعَرفنَا أن الرحمةَ واسعةٌ من كلمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لأن فَعْلانَ تدلُّ على السعةِ والامتلاءِ، والإحاطة الواصلة مِن قولِه: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، يعنِـي الذي تَصلُ رحمتُه إلى مَن شاءَ مِن عبادِه.

فحمِدَ نفسَه عَزَّوَجَلَّ لأنهُ مالكُ يومِ الدينِ، الذي لا يَظهرُ فيهِ مُلكٌ لأحدٍ إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي قـولِه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دليلٌ على أن ربوبيةَ اللهِ تعالى للعالمينَ مبنيةٌ على الرحمةِ، فـ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعدَها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارةٌ إلى أن ربوبيتَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مبنيةٌ على الرحمةِ، وهوَ كذلكَ، فواللهِ لولا رحمةُ اللهِ وحلمُ اللهِ ما بقيَ على وجهِ الأرضِ أحدٌ.

والدَّليلُ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا

= ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، لكنِ الرحمةُ الواسعةُ والحلمُ الواسعُ يجعلانِ هذا الخلقَ معَ ظُلمِهم يَبقَونَ إلى أجلٍ مسمًّى، إلى أجلٍ محدودٍ معلومٍ عندَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا أبدَ الآبدينَ، كما قالَ تَعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ولهذا يَنبغي لكَ أيها القارئُ أن تصلَها بقولِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] حتى يَتبيَّنَ كمالُ الربِّ عَزَّوَجَلَّ: فناءُ مَن سِواهُ وبقاءُ وجهِهِ جَلَّوَعَلَا.

وقدْ حمدَ اللهُ جَلَّوَعَلَا نفسَه أن خلقَ السماواتِ والأرضَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١].

وحَمِدَ نفسَه لأنهُ فطرَ السماواتِ والأرضَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١].

وحَمِدَ اللهُ نفسَه حيثُ أنزلَ الكتابَ القيِّمَ الذي لا اعوجاجَ فيهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

وحَمِدَ اللهُ نفسَه على ما أنعمَ بِهِ على محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ منَ الإسراءِ، قالَ اللهُ سبحانَهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، فصدَّرهُ بالتسبيحِ، وهوَ تنزيهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عنِ العبثِ واللغوِ، وأن إسراءَه بعبدِه إلى المسجدِ الأقصى بحكمٍ عظيمةٍ يُنزهُ أن يكونَ ذلكَ عبثًا.

وحمِدَ اللهُ نفسَه على ختامِ الخلقِ والقضاءِ بينهُم: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

فكلُّ شيءٍ حمِدَ الله عَزَّوَجَلَّ على هذا القضاءِ العادلِ التامِّ، الذي لا ظلمَ فيهِ بوجهٍ منَ الوجوهِ؛ فيكونُ اللهُ تعالى حمدَ نفسَه عندَ ابتداءِ الخلقِ، وعندَ انتهاءِ القضاءِ بينَ

العبادِ: في ابتداءِ الخلقِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وانتهاء القضاءِ بينَ الناسِ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

وحمدَ اللهُ نفسَه على تنزهِهِ عَنِ العيوبِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

وكذلكَ قالَ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء:١١١].

فالمهمُّ أن الإنسانَ ينبغِي لهُ أن يتأملَ ما في القرآنِ الكريمِ مِن حمدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسَه؛ ليتبينَ أنهُ المحمودُ على كلِّ حالٍ، وكانَ النبيُّ ﷺ إذا أتاهُ ما يَسُرُّهُ قالَ: **«الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»**، وإذَا أتاهُ ما ليسَ كذلكَ قالَ: **«الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»**(١). وصدقَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إن اللهَ محمودٌ على كلِّ حالٍ، والإنسانُ في هذهِ الدنيَا متقلبٌ بينَ ضرَّاءَ وسرَّاءَ، فاللهُ يُحمدُ على هذا وهذا، قالَ النبيُّ ﷺ: **«عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**(٢).

إذنِ اللهُ تعالى محمودٌ على كلِّ حالٍ، ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ فيما يَكرهُ: **«الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»**.

وهناكَ عبارةٌ يبدُو لي أنهَا مأخوذةٌ منْ أهلِ البدعِ؛ أنهُ إذا أصابَ الإنسانَ ما يَكرَهُ قالَ: «الحمدُ للهِ الذِي لا يُحمدُ على مكروهٍ سِواهُ»، وهذا كلامٌ غيرُ صالحٍ، يُنبئُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

عن أن الإنسانَ يُظهرُ كراهــةَ ما قَضى اللهُ عليهِ، ونحنُ لا نقولُ: إن الإنسانَ يكـرهُ بعضَ المَقضِياتِ، لكنْ قضاءُ اللهِ ليسَ مَكروهًا.

واعلمْ أن هناكَ فرقًا بينَ القضاءِ والمَقضيِّ، فقضاءُ اللهِ الذي هوَ فِعلُه يجبُ أن تَرضَى بهِ، ومقضِيُّه منهُ ما يُرضَى بهِ ومِنهُ ما لا يُرضَى بهِ، فمثلًا المعاصي تقعُ بقضاءِ اللهِ وقدرِه، ولا يجـوزُ أن تَرضَى بالمعاصِي، لكن يجـوزُ أن تَرضى بكونِ اللهِ قدَّرها وقضَاها؛ لأنهُ لم يَقضِها ولم يُقدِّرْهَا إلا لحكمةٍ.

المهمُّ أن هذهِ العبارةَ غـيرُ صحيحةٍ: «الحمدُ للهِ الذي لا يُحـمدُ على مكروهٍ سِواهُ»، بلْ قلْ كما قالَ نبيُّكَ: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

والشيءُ بالشيءِ يُذكرُ: اشتُهرَ على لسانِ بعضِ الناسِ أنهُ إذا دَعا اللهَ يقولُ: «اللهمَّ إني لا أسألُكَ ردَّ القضاءِ، ولكِنـي أسألُكَ اللطفَ فيهِ». وهـذهِ أيضًا عبارةٌ مبتدَعةٌ، وغيرُ صحيحةٍ، كيفَ لا تسألِ اللهَ ما شئتَ! بلِ اسألِ اللهَ ما شئتَ.

وقدْ جاءَ في الحديثِ: «**لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ**»(١).

فأنتَ تدعو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدْ يكونُ اللهُ قَضى عليكَ شيئًا، فإذَا دعوتَهُ رفعَهُ عنكَ، أما أن تقولَ: «يا ربِّ لا أَسأَلُكَ رَدَّ القضاءِ» سبحانَ اللهِ! فالدعاءُ يَردُّ القضاءَ إذا شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولا يصحُّ أن تقولَ هذهِ العبارةَ: «اللهمَّ إني لا أَسأَلُكَ ردَّ القضاءِ ولكنِّي أسألُكَ اللطفَ فيهِ» يعني كأنكَ تقولُ: أَمرِضْنِي، أَفقِرْنِي، ولكنْ قَليلًا، وهذا غلطٌ، بلْ قلِ: اللهمَّ إني أعوذُ بكَ منَ المرضِ، وأعوذُ بكَ منَ الفقرِ، وما أشبهَ ذلكَ. وادعُ اللهِ بجزمٍ؛ فإن الدعاءَ يردُّ القضاءَ إذا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم (٢١٣٩).

وكمْ مِن إنسانٍ تعرضَ لأمراضٍ عظيـمةٍ فدعَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فرفعَهُ اللهُ بدعائِه اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

على كلِّ حالٍ هناكَ عباراتٌ تقعُ بينَ الناسِ لها رنينٌ وطنينٌ في الأذنِ، وإذا سمِعَها الإنسانُ قالَ: ما أَحلَاهَا، لكنهُ لا يتأملُ في مَعنَاهَا، وكالعبارةِ التـي يَقُولُهَا بعضُ الناسِ في الرجلِ إذا ماتَ ودُفنَ: «وارَوْهُ في مثواهُ الأخيرِ»، وهذهِ كلمةٌ لو أن الإنسانَ اعتقدَ معناهَا لكانَ كافرًا باللهِ، كافرًا باليومِ الآخرِ، فإذا كانَ القبرُ المثوى الأخيرَ فمعناهُ ليسَ هناكَ يومٌ آخرُ، وليسَ بعدَ القبرِ شيءٌ، فهذهِ كلمةٌ خطيرةٌ جدًّا جدًّا يقولُها الناسُ لأنها لها رونقٌ، ولها منظرٌ ولمعانٌ، فيقولُونَها وهُمْ لا يشعرونَ بالمعنَى الذي تدلُّ عليهِ، فهيَ كلمةٌ كفريةٌ.

ولهذا يجبُ الحذرُ منها، والتحذيرُ منهَا.

قولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: ذي الرحمةِ البالغةِ الواسعةِ الواصلةِ، وأخذْنَا ذلكَ مِنَ (الرحمنِ) على وزنْ فَعلانَ، وفَعلانُ في اللغةِ العربيةِ تدلُّ على الامتلاءِ والسَّعَةِ، وعلى هذا فالرحمنُ يعني ذَا الرحمةِ الواسعةِ، فهوَ رحمنُ الدنيَا والآخرةِ ورحيمُهما، فهؤلاءِ القومُ الذينَ وصَفَهُمُ اللهُ بأنهم كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ، همْ مَرحومونَ، أعني الكفارَ، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رحمَهُم بالرحمةِ العامةِ؛ لأنهُ لولا رحمةُ اللهِ ما حَصلُوا على أكلٍ ولا شربٍ ولا صحةٍ، ولا ذكاءٍ، ولا غيرِ ذلكَ.

والرحيمُ يعني الموصلَ لرحمتِه مَن شاءَ؛ يعذبُ مَن يشاءُ ويرحمُ مَن يشاءُ، ولهذا قالَ بعضُ العلماءِ: الرحمنُ عامٌّ والرحيمُ خاصٌّ للمؤمنينَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

والرحمةُ صفةٌ للهِ، فاللهُ موصوفٌ بالرحمةِ، والرحمةُ رقةٌ ولينٌ وعطفٌ وانعطافٌ.

أقولُ: إن الرحمةَ مِن صفاتِ اللهِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، أي صاحبُ الرحمةِ، والسلفُ الصالحُ قالُوا: إن اللهَ رحيمٌ أي متصفٌ بالرحمةِ، لكن ألا تدرونَ أن قومًا منَ الناسِ قَالوا: إنهُ ليسَ للهِ رحمةٌ، وإن الرحمةَ هيَ الإحسانُ، والإحسانُ مخلوقٌ بائنٌ منفصلٌ عنِ الخالقِ، أو إن الرحمةَ هيَ إرادةُ الإحسانِ، ففسَّرُوا الرحمةَ إما بالإرادةِ وإما بالمفعولِ المنفصلِ!

وحملَهُم على ذلكَ أنهمْ حَكمُوا على اللهِ بعقولِهم، وقالُوا: المَرجِعُ في إثباتِ الصفاتِ إلى العقلِ، فما أَقرَّهُ العقلُ أقررناهُ، وما لم يُقرَّهُ لم نُقرَّهُ!

وانظرْ -يا أخي- كيفَ يتجرأُ الإنسانُ الضعيفُ على الخالقِ العليمِ بكلِّ شيءٍ، الربُّ عَزَّوَجَلَّ يُثبتُ لنفسِه الرحمةَ وهؤلاءِ يقولونَ: لا، ليسَ هناكَ رحمةٌ، والرحمةُ هيَ الإحسانُ أو إرادةُ الإحسانِ؛ قالوا: لأن الإحسانَ ثوابٌ منفصلٌ بائنٌ عنِ اللهِ، وما هوَ مِن صفاتِه، فيفسرونَ الفعلَ بالمفعولِ، أوِ الإرادة؛ لأنهمْ يُقرونَ بالإرادةِ، سبحانَ اللهِ! قالوا: لأن المرجعَ في الإثباتِ والنفيِ في صفاتِ اللهِ إلى العقلِ، لكنْ ليتَ شِعري بأيِّ عقلٍ يُنزَّل الكتاب والسنة؟ أبِعَقلِ فلانٍ أو فلانٍ؟! ليتَ شِعري أن ننظرَ إلى هؤلاءِ الذينَ ادَّعَوا أنهمْ أهلُ العقلِ، وأن المرجعَ في صفاتِ اللهِ إلى العقلِ، لينظرُوا كيفَ تَناقضُوا، فهمْ بأنفسِهم متناقضونَ، يقولُ أحدُهم: هذا يوجبُهُ العقلُ، والثاني يقولُ: هذا يُحيلُه العقلُ، وبعضُهم يتناقضُ في كتبِه فيقولُ في بعضِهَا: هذا يوجبُهُ العقلُ ويقولُ في البعضِ: هذا يُحيلُه العقلُ.

وإني أسألُ: الحكمُ لمنْ؟ ومَنِ الذي هوَ أعلمُ؟

نقولُ: اللهُ أعلمُ بنفسِه عَزَّوَجَلَّ، وأعلمُ بغيرِه، فإذا أخبرَنَا عَن نفسِه بصفةٍ قلنَا: واللهِ ما نقبلُ هذا! اللهُ المستعانُ. فهذا خطيرٌ جدًّا.

إذنِ اللهُ موصوفٌ بالرحمةِ، فإذا قالَ: الرحمةُ: لِينٌ ورِقةٌ وما أشبهَ ذلكَ وهذا لا يَليقُ باللهِ قلنَا: هذا رحمةُ المخلوقِ، وأيضًا لا نُسلمُ أن الرحمةَ تدلُّ على اللينِ والرقةِ، فقدْ يكونُ هناكَ مَلِكٌ قويُّ السلطانِ قويُّ العزيمةِ قويُّ الشكيمةِ ويرحمُ الفقيرَ.

وعلى كلِّ حالٍ رحمةُ الخالقِ ليستْ كرحمةِ المخلوقِ، بلْ هيَ أعظمُ وأجلُّ، رأَى النبيُّ ﷺ امرأةً قدْ زاغَ عقلُها تطلبُ ولدَها بالسبيِ، ولما رأتْه أخذتْهُ واحتضنَتْه على صدرِها، فقالَ النبيُّ ﷺ لأصحابِه: «**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**». قالوا: لا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[1].

أسألُ اللهَ أن يَعمَّني وإياكُم برحمتِه، وألا يُزيغَ قلوبَنا بعدَ إذ هدانَا، وأن يَهبَ لنا منهُ رحمةً، إنهُ هوَ الوهابُ.

أيها الإخوةُ، هؤلاءِ الذينَ حَكمُوا على اللهِ بِعقُولِهم وأثبَتُوا مِن صفاتِه مَا اقتضتْ عقولُهم، ونَفَوا ما لا تقتضِيه، هؤلاءِ انْجرُّوا إلى هاويةٍ في الحقيقةِ، وأذكرُ لكمْ مثالًا: قالَ تعالى: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [السجدة:٤] ومعنى خَلقَ السماواتِ والأرضَ أوجدَ السماواتِ السبعَ والأرضَ، ثم بعدَ خلقِها استوَى على العرشِ، فعلى الفطرةِ فإن مَعنى استوَى على العرشِ: ارتفعَ وعلا على العرشِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: كتاب الرقائق، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٤).

وقدْ جاءتِ استوَى على العرشِ في القرآنِ الكريمِ في سبعةِ مواضعَ، وكلُّها بهذا اللفظِ: استوى على العرشِ.

ثم قالَ قائلٌ: (استوَى) بمعنَى (استولَى)، يعني ما يُمكنُ أن يستويَ على العرشِ، نقولُ: يا رجلُ، اتقِ اللهَ، ربُّكَ يقولُ: استوى على العرشِ، وأنتَ تقولُ: لا، بمعنَى استولَى، فأينَ يُوجدُ هذا في اللغةِ العربيةِ! فلا يوجدُ في اللغةِ العربيةِ استوَى بمعنَى استولَى أبدًا، والقرآنُ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ فصيحٍ.

قالَ تَعالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يعني صَيَّرْنَاهُ بلغةِ العربِ، لماذَا؟ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] لعلكُم تَفهمونَ مَعناهُ، ولو جاءَ باللغةِ الأعجميةِ ما فَهمناهُ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

يا إخوَاني، القرآنُ باللغةِ العربيةِ، فمَن يقولُ: استوى على العرشِ بمعنى استولى عليهِ، فأينَ الدَّليلُ في اللغةِ العربيةِ على ذلكَ!

وعجبًا لقومٍ يقولونَ: إن اللهَ موجودٌ في كلِّ مكانٍ؛ فعلى هذا القياسِ فأنتَ في الشارعِ فاللهُ في الشارعِ، وأنتَ في المسجدِ فاللهُ في المسجدِ، وأنتَ على السطحِ فاللهُ على السطحِ.. في كلِّ مكانٍ، وأنتَ تقضِي حاجتَك في الحمامِ! أعوذُ باللهِ، قولٌ تقشعرُّ منهُ الجلودُ، يكونُ اللهُ في هذا؟! هلْ يُمكنُ لمنْ قَدَرَ اللهَ حقَّ قدرِه أن يصفَ اللهَ بذلكَ ويقولَ: إن اللهَ موجودٌ في كلِّ مكانٍ؟!

فكمِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ حتى يكونَ في كلِّ مكانٍ، هذا يلزمُ منهُ إما تعددُ الإلهِ وهذا شركٌ، وإما أن تكونَ جميعُ الأشياءِ في جوفِ اللهِ والعياذُ باللهِ، وهذا حلولٌ.

فنحنُ نَشهدُ باللهِ، ونُشهِدُ اللهَ وملائكتَهُ أن اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنهُ على السماءِ، وأن هذَا مُقتضَى الكتابِ والسنةِ وإجماعِ السلفِ والعقلِ والفطرةِ، خمسةُ أنواعٍ منَ الأدلةِ كلُّها تدلُّ على علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكلُّ إنسانٍ إذا قالَ: يا اللهُ فإنهُ يتجهُ بقلبِه إلى السماءِ، ولا إشكالَ في ذلكَ، ويمدُّ يدَيْهِ إلى السماءِ، فلا يَمدُّ يدَيه إلى الحجرةِ أو إلى الغرفةِ، أو إلى السطحِ.

فصححْ عقيدتَكَ، ولا تَمُتْ على عقيدةِ أن اللهَ موجودٌ في كلِّ مكانٍ، ولكنْ مُتْ على أن اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ.

وأنتَ تقولُ في صلاتِكَ في كلِّ سجدةٍ: «سبحانَ ربيَ الأعلى»، وتسمعُ ربَّكَ يقولُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وبلَغَكَ عن نبيِّكَ أنهُ يقولُ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»(١). فلا تمتْ إلا على عقيدةِ أن اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، وأنهُ عَزَّوَجَلَّ لا يَحُلُّ في خلقِه، ولا يَحُلُّ فيهِ شيءٌ مِن خلقِه، بلْ هوَ إلهٌ وغيرُه عابدٌ، وهوَ معبودٌ وغيرُه عابدٌ، وهوَ خالقٌ وغيرُه مخلوقٌ، وإياكَ أن تموتَ على هذهِ العقيدةِ فتلقَى ربَّك وأنتَ تؤمنُ بأنهُ في كلِّ مكانٍ، وتلقى ربَّكَ وأنتَ تنكرُ أن يكونَ فوقَ السماواتِ.

فهذهِ مسألةٌ خطيرةٌ يا إخوانِي، أقولُ لكمْ هذا نصيحةً للهِ، ولكتابِ اللهِ، ولرسولِ اللهِ، ولكمْ أيها المسلمونَ، فلا تَموتُوا على هذهِ العقيدةِ فتهلِكوا واللهِ، ولكنْ

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيه، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

مُوتوا على عقيدةِ رسـولِ اللهِ ﷺ الذي يقولُ: سبحانَ ربيَ الأعلى، والذي خطبَ المسلمينَ في حجةِ الوداعِ في عرفةَ يقولُ: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّـي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(١)]، يشيرُ إلى الناسِ ويُشهدُ اللهَ في السماءِ وليسَ في الأرضِ، وذلكَ في هذا المجمعِ العظيمِ، لتنقُلَ الأمَّةُ هذا عنهُ قرنًا بعدَ قرنٍ إلى أن يشاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وهوَ الذِي قالَ للجاريةِ: «**أَيْنَ اللهُ؟**». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[(٢)].

والعجبُ أن جاريةً مملوكةً أَمَةً تَعرفُ ربَّها في السماءِ ويأتي أناسٌ يقولونَ: إن اللهَ ليسَ في السماءِ وإنهُ موجودٌ في كلِّ مكانٍ! اللهمَّ اهدِهم إلى صراطٍ مستقيمٍ.

إِخواني أكررُ: لا تَموتُوا على هذهِ العقيدةِ الباطلةِ الفاسدةِ التي يَردُّها الكتابُ والسنةُ وإجماعُ السلفِ والعقلُ والفطرةُ، إني أقولُ لكمْ هذا وما كنتُ أظن أن أبسُطَ القولَ في ذلكَ؛ لأن مِنَ الناسِ مَن قالَ: إن بعضَ الحجاجِ الذينَ أَتَوا للحجِّ يعتقدونَ هذهِ العقيدةَ، ولولا أن القائلَ ثقةٌ ما صَدقتُ؛ لأن الناسَ -والحمدُ للهِ- الآنَ اطَّلَعُوا على العلمِ، وتبينَ لهمُ العلمُ، وعرَفُوا الحقَّ.

واللهِ لو أتيتَ امرأةً عجوزًا لم تقرأْ كتابًا منَ الكتبِ، وقلتَ: أينَ ربُّكِ؟ فإنها ستقولُ: في السماءِ، ولا إشكالَ في هذا، ولم يأتِ حرفٌ واحدٌ عنِ الخلفاءِ الراشدينَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

ولا عنِ الصحابةِ، ولا عنِ التابعينَ، ولا عنْ أئمةِ الإسلامِ بعدَهم، لم يأتِ حرفٌ واحدٌ يقولُ: إن اللهَ ليسَ في السماءِ أبدًا. فاحفظْ عقيدَتَكَ أخي المسلمُ، وآمِن بأنَّ اللهَ في السماءِ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يمكنُ أن يحيطَ بهِ شيءٌ مِن مخلوقاتِه أبدًا.

فإنْ قالَ قائلٌ: ما هيَ شبهةُ القائلينَ بذلكَ؟

قلنا: شبهتُهُم قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

قالُوا: فـ(أينَ) هنا للمكانِ، وهيَ عامةٌ، أَينما كَانُوا، فهوَ مَعهُم.

نقولُ: سبحانَ اللهِ! تَستدلُّ بهذهِ الآيةِ المتشابهةِ وتُبطلُ دلالةَ نصوصٍ صريحةٍ صحيحةٍ واضحةٍ مِن أجلِ هذهِ الآيةِ التي اشتبهتْ دِلالتُها على مثلِكَ، ولم تكنْ مُشتبهةً على غيرِكَ.

ومنِ الذينَ يَتبعونَ المتشابِهَ؟

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧].

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبيَّ ﷺ قالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، رقم (٢٦٦٥).

سبحانَ اللهِ! نأتي لآيةٍ ما هـيَ واضحةٌ في الدلالةِ وندعُ آياتٍ كالجـبالِ في الوضوحِ والدلالةِ ونُلغيها.

أما قولُه تَعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤] فالمعنى أنهُ عالمٌ بكمْ وهوَ في السماءِ، ولهذا أولُ الآيةِ العلمُ وآخرُ الآيةِ العلمُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]. فالمعنى أنكُمْ لا تَخفونَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ في أي مكانٍ كنتُم، فهوَ عالمٌ بكمْ.

ثم اللغةُ العربيةُ تثبتُ المعيةَ في شيءٍ عالٍ عنِ الإنسانِ، يعنـي المعية في اللغةِ العربيةِ لا تستلزمُ المخالطةَ، فقدْ يقالُ عنِ الشيءِ: إنهُ معكَ، وهوَ بعيدٌ عنكَ.

أضربُ لكمْ مثلًا: العربُ يَقولونَ: «مَا زِلنَا نسيرُ والقمرُ مَعنَا»، والقمرُ في السماءِ، وهذهِ عبارةٌ شهيرةٌ صحيحةٌ، ويقولُ القائلُ: «ما زلتُ أسيرُ والجديُ معِي»، والجديُ نجمٌ في السماءِ معروفٌ، بل أبلغُ مِن هذا يقالُ: «هذهِ المرأةُ معَ زوجِها» يعني لم يُطلقْهَا، معَ أنها قدْ تكونُ في بلدٍ وهوَ في بلدٍ.

ويقولُ القائلُ للجندِ وقدْ وجههُم إلى ساحةِ القتالِ: «انطلِقُوا وأنا مَعكُم» وربما هوَ في غرفةِ القيادةِ، لكنْ معهُم يعني أنهمْ لا يغيبونَ عنهُ وأنهُ مُعتنٍ بهم.

والحاصلُ يا إخواني أن أهمَّ شيءٍ عندي ألا تعتقدُوا أن اللهَ موجـودٌ في كلِّ مكانٍ، وأن تَعتقِدُوا أن اللهَ في السماءِ فوقَ كلِّ شيءٍ، فهذهِ العقيدةُ الصَّحيحةُ الصريحةُ السليمةُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

إذنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ معنى الرحمنِ: ذو الرحمةِ الواسعةِ، ومعنى الرحيمِ: الرحمةُ الخاصةُ.

قولُه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيها قراءةٌ سَبعيةٌ صحيحةٌ: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)[1]، يعني يجوزُ أن تقرأَ بهما؛ لأن القراءتينِ صحيحتانِ.

وما هوَ يومُ الدينِ؟

مالكُ يومِ الدينِ يعني مالكَ يومِ القيامةِ، والدِّينُ بمعنَى الجزاءِ، والدِّينُ بمعنى العملِ، يعني أن الدِّينَ يُطلقُ على العملِ ويُطلقُ على الجزاءِ. ومنَ العباراتِ السائرةِ: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»، يعني كما تَعملُ تُجازَى.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]: أي: لكمْ عَملُكُم ولي عملِي، فقد قالَ تَعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس:٤١]. والقرآنُ يُفسرُ بعضُه بعضًا.

وقالَ تَعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٥-١٩]. المرادُ بالدينِ هنا الجزاءُ.

قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يعني أن اللهَ تعالى مالِكُ يومِ القيامةِ، أو هو المَلِكُ يومَ القيامةِ.

وهنا سؤالٌ: هلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَملكُ يومَ القيامةِ ويومَ الدنيا أم يومَ القيامةِ فقطْ؟

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٤٦).

نقولُ: يملكُ الجميعَ، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:١٢٠]، يملِكُ الجميعَ.

إذنْ لماذَا يقولُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهوَ مالكُ يومِ الدينِ ويومِ العملِ؟

نقولُ: لأن مُلكَه لا يظهرُ تمامًا إلا يومَ القيامـةِ، فيومُ القيامـةِ يظهرُ تمامًا أنهُ لا مالكَ ولا مَلِكَ إلا اللهُ، يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] يجيبُ عَزَّوَجَلَّ نفسَه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ تتلاشَى المِلكِيةُ عَن كلِّ أحدٍ فيجيبُ نفسَه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وفي الدنيا مَن يُنكرُ مُلكَ اللهِ، فهناكَ شيوعيونَ وملحدونَ ينكـرونَ مُلكَ اللهِ، لكنْ في الآخرةِ لا أحدَ يُنكرُ.

إذنْ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يعنـي أنهُ يُظهرُ مُلكَه في ذلكِ اليـومِ حيثُ لا مُلكَ لأحدٍ، سبحانَ اللهِ! الملِك والفرَّاشُ يومَ القيامةِ سواءٌ، فكلُّهم حافٍ، وكلُّهم عارٍ، وكلُّهمْ أغرلُ، يعني لـم يُختنْ، فكلُّهم سواءٌ، والمُلكُ للهِ.

أسألُ اللهَ تعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ أن يجعلَنِي وإياكُم ذلكَ اليَوم منَ السعداءِ، آمينَ.

إذنْ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أو (**مَلِك يومِ الدينِ**) أي أنهُ عَزَّوَجَلَّ هوَ الذِي يَملِكُ الملكَ التامَّ الظاهرَ الذي يَختَفِي فيهِ كلُّ مُلكٍ في ذلكَ اليـومِ. وفي هذهِ الآيةِ إثباتُ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ.

وفي سورةِ الفاتحـةِ آيةٌ هيَ الوُسطى منَ الآياتِ، وفيها حقَّانِ: حقٌّ للهِ وحقٌّ للإنسانِ، وهيَ قولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهيَ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ، ولهذا إذا قالَ الإنسانُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال اللهُ: «**هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي،**

وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[١].

وقولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني لا نعبد إلا إياكَ، فلا نعبدُ الرسولَ، ولا نعبدُ جبريلَ، لا نعبدُ إبراهيمَ، ولا نعبدُ شمسًا، ولا نعبدُ قمرًا، ولا نعبدُ حجرًا، ولا نعبدُ شجرًا، ولا نعبدُ وليًّا، ولا نعبدُ أحدًا إلا اللهَ، إياكَ نعبدُ أنتَ ربَّنا الذي نَذِلُّ لكَ، ونطيعُ أمرَكَ ونمتثِلُه، ولا نطيعُ أحدًا سواكَ إلا فيما أمرتَنَا بطاعتِهِ.

فالذينَ يَركعونَ للقبورِ، ويسجدونَ للقبورِ، ويقولُونَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نقولُ لهم: أنتمْ كاذبونَ.

فهم يقولونَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ويعبدونَ غيرَ اللهِ، نقولُ: أنتمْ كذابونَ؛ لأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ معناها: لا نعبدُ إلا إياكَ، فكيفَ تقولونَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأنتمْ تعبدونَ فلانًا وفلانًا، فهذَا كذبٌ.

انظرْ إلى المنافقينَ، يقولُ اللهُ للرسولِ ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ يشهدونَ ويؤكدونَ هذهِ الشهادةَ، يؤكدونَها بـ(إن) واللامِ، فقالَ اللهُ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ هذا حقٌّ أنهُ رسولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] كيفَ يقولونَ: نشهدُ إنكَ لرسولُ اللهِ وهمْ يُكذبونَكَ! كيفَ يقولُ هذا القائلُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهوَ يعبدُ غيرَ اللهِ! فهذا كاذبٌ مئة في المئةِ، ولولا أن الغلوَّ غيرُ جائزٍ لقُلتُ: ألف في المئةِ، وأيُّ إنسانٍ يعبدُ أحدًا سِوى اللهِ فهوَ كاذبٌ في قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

وقولُه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نستعينُ إلا باللهِ.

ومعنى الاستعانةِ: طلبُ العونِ، فلا تُعلقْ رجاءَكَ إلا باللهِ عَزَّوَجَلَّ، واعتمدْ على اللهِ، واللهِ لو صَدقْنَا الاستعانةَ باللهِ والتوكلَ على اللهِ ما احتجْنا إلى أحدٍ.

وفي الحديثِ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[1].

فالعصافيرُ تخرجُ مِن عُشِّها في أولِ النهارِ خِماصًا يعني جائعةً ما في بَطنِها شيءٌ، لكنها معتمِدَةٌ على ربِّها عَزَّوَجَلَّ، وتروحُ في آخرِ النهارِ بطانًا ممتلئةَ البطنِ، فتروحُ في الغداةِ في الصباحِ خماصًا، وتروحُ بطانًا.

ولو أننا صَدقنَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كانَ هـذا هوَ الفلاحَ، لكنِ الواحدُ منَّا -نسألُ اللهَ أن يُعامِلَنَا وإياكُم بعفوِه- إذا زُكِمَ يقولُ: أينَ المستشفَى، وهيَ زَكمةٌ معتادةٌ تصيبُ كلَّ الناسِ، وإذا أصيبَ بشوكةٍ يُخرجُها بالمِنقاشِ هوَ بنفسِه قالَ: نذهبُ إلى المستشفَى، كأن الذي ينفعُ ويضرُّ هوَ المستشفى.

وأنا لستُ أنكرُ الأسبابَ، فالأسبابُ أمرٌ طبيعيٌّ الإقرارُ بها، لكن كوننا نعتمدُ على الأسبابِ هذا الاعتمادَ ونَنسى مسببَ الأسبابِ هذا خطأٌ.

وقدْ ذكرنَا أن هذهِ الآيةَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للهِ، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للعبدِ. ولكنْ قدْ يقولُ قائلٌ في نفسِه: الآنَ ألستُ أستعينُ بأخي على مُهماتي، والرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: واللهُ في عونِ العبدِ

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم (٤١٦٤).

ما كانَ العبدُ في عونِ أخيهِ[(١)]؟

نقولُ: نعمْ، لكنْ أستعينُ بهِ في أمرٍ يَقدرُ عليهِ ويُساعدُني، ولكنـي معَ ذلكَ أعتقدُ أن الحـولَ والقوةَ كلَّهُ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومعونةُ أخـي سببٌ، والمسببُ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وفي سورةِ الفاتحةِ إشارةٌ إلى أقسامِ الناسِ: إلى قومٍ عَلِمُوا الحقَّ وعمِلُوا بهِ، وقومٍ علِمُوا الحقَّ ولم يَعملُوا بهِ، وقومٍ جهلُوا الحقَّ فعملُوا بأهوائِهم؛ ثلاث طوائفَ في نفسِ السورةِ:

فالقومُ الذينَ علِمُوا الحقَّ وعملُوا بهِ همُ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهمْ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

والقومُ الذينَ علِمُوا الحقَّ ولم يَعملُوا بهِ همُ المغضوبُ عليهمْ؛ لقولِه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

والذينَ تَاهُوا عنِ الحقِّ فضلُّوا همُ الضالونَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ومنْ أجلِ أن سورةَ الفاتحةِ اشتملتْ على جميعِ معاني القرآنِ، وعلى تاريخِ الأممِ، صارتِ الفاتحةُ تُسمى أمَّ القرآنِ؛ لأنها مَرجِعُهُ، والذي سَماهَا أمَّ القرآنِ الرسولُ ﷺ؛ قالَ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ**»[(٢)] وقالَ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

ومعنَى ﴿ ٱهْدِنَا﴾ أرشِدْنَا ووفِّقْنا، فإذا قلتَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فالمعنى: أرشِدْني إلى الصراطِ المستقيمِ، ووفقنِي للعملِ بِهِ، وليسَ المرادُ الدلالةَ فقـطْ، وبهذَا أقولُ: إن الهدايةَ نوعـانِ: هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ، وهدايةُ التوفيقِ والامتثالِ.

فإذا قلتَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فأنتَ تسأَلُ اللهَ في الحـقيقةِ علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، والعلمُ النافعُ هوَ الدلالةُ والإرشادُ، والعملُ الصالحُ هوَ التوفيـقُ والامتثالُ.

فاحرصْ -يا أخي- على المعَاني، ولا تجـعلِ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ على لسانِكَ دونَ أن يَعقِلَها قلبُك، فالمعنى: أرشِدْنا ووفِّقْنا.

فإذا قالَ قائلٌ: هلْ يَملِكُ العبادُ هدايةَ أحدٍ، يعنـي هلْ يُمكنُ لإنسانٍ أن يهدِيَكَ أو لا؟

إن قلتَ: لا فخطأٌ، وإن قلتَ: نعمْ فخطأٌ؛ ففيهِ التفصيلُ:

أما هدايةُ الدلالةِ فيمكنُ للعالِمِ أن يُعلمَ تلاميذَه فيهديهم. وهدايةُ التوفيقِ لا، فهذهِ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. اللهمَّ اهدنَا فيمنْ هديتَ.

إذنْ لو سألكَ سائلٌ: هلْ يملكُ أحدٌ هدايةَ أحدٍ؟ فإنكَ تقولُ: هدايةُ الدلالةِ نعمْ، يملِكُها الأنبياءُ والعلماءُ، وهدايةُ التوفيقِ لا يملِكُها إلا اللهُ، وما أحدٌ يملِكُها.

قالَ اللهُ تعالى مخـاطبًا نبيَّه محـمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، وهذهِ الهدايةُ هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ، فيرشدُ الناسَ إلى

الصراطِ المستقيمِ، يقولُ: يا عبادَ اللهِ، هذا صراطٌ اتبعُوه. وكذلكَ العالمُ يكونُ هاديًا إلى الصراطِ المستقيمِ، أيِ العالِمُ الذي يُعلِّمُ الناسَ شريعةَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنهُ يكونُ هاديًا إلى الصراطِ المستقيمِ.

والصراطُ المستقيمُ هوَ دينُ الإسلامِ؛ لأن ما سواهُ فهوَ طريقٌ معوجٌّ.

والذينَ أنعمَ اللهُ عليهمْ في قولِه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ همُ النبيونَ والصديقونَ والشهداءُ والصالحونَ؛ والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] جعلنَا اللهُ وإياكُم منَ الصالحينَ والصديقينَ والشهداءِ.

والمرادُ بالشهداءِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ صنفانِ منَ الناسِ: العلماءُ والذينَ قُتلوا في سبيلِ اللهِ، والدَّليلُ على أن العلماءَ منَ الشهداءِ -اللهم اجعلنَا منهمْ- قولُه تعالى في آلِ عمرانَ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

والدَّليلُ على أن الذينَ قُتلوا في سبيلِ اللهِ منَ الشهداءِ قولُه تعالى في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [آل عمران:١٤٠]، يعني الذينَ قُتلوا في أُحدٍ، فهذا صريحٌ في الآيةِ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ لما قال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، والمغضوبُ عليهمْ مَن علِمُوا الحقَّ وخالفُوه، وعلى رأسِهمُ اليهودُ، إخوانُ القردةِ والخنازيرِ، أهلُ الغدرِ والخيانةِ.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذينَ عَبدُوا اللهَ على جهلٍ وضلالٍ، وعلى رأسِهمُ النصارَى قبلَ بعثةِ محمدٍ ﷺ، وأما بعدَ بعثتِه وبعدَ أن عَرَفُوه ثم كفرُوا بِهِ فإنهم داخلونَ في قسمِ المغضوبِ عليهمْ.

ولهذا لا تظنَّ أن تفسيرَ الضالينَ بالنصارى مستمرٌّ إلى اليومِ، فهمْ ضالونَ قبلَ أن يُبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ، وأما بعدَ أن بُعثَ وعَرَفُوه كما يعرفونَ أبناءَهُم ثم كفرُوا بِهِ، صارُوا منَ المغضوبِ عليهمْ؛ لأننا نقولُ: المغضوبُ عليهمْ: مَن عرفُوا الحقَّ وخالفُوه، والضالونَ: مَن أرادُوا الحقَّ ولكنْ ضلُّوا عنهُ فعبدُوا اللهَ على جهلٍ.

قالَ سفيانُ بنُ عُيينةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ فَسدَ مِن عُلمائِنَا فِفِيهِ شَبهٌ منَ اليهودِ» يعني لم يعملْ بعلمِه «ومَنْ فَسدَ مِن عُبَّادِنَا ففيهِ شبهٌ منَ النصارَى».[1] لأن العالِمَ الذي علِمَ الحقَّ ولكنهُ فسدَ وخالفَ الحقَّ فهذا مِثلُ اليهودِ، والعابدُ الذي يعبدُ اللهَ على جهلٍ وضلالٍ مثلُ النصارَى.

فيؤخذُ مِن هذهِ الآيةِ ثلاثُ طرقٍ مِن طرقِ العاملينَ: طريقُ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهمْ، وهمُ الذينَ عَلِمُوا الحقَّ وعمِلُوا بهِ، وهمْ أربعةُ أصنافٍ: النبيونَ، والصديقونَ، والشهداءُ، والصالحونَ، والطريقُ الثانيةُ: طريقُ الذينَ عَلِموا الحقَّ وخالفُوه، والطريقُ الثالثةُ: طريقُ الذينَ عمِلُوا ولكنْ على خلافِ الحقِّ جهلًا.

وليسَ هناكَ قسمةٌ رابعةٌ؛ لأن هذهِ القسمةَ حاصلةٌ في الواقعِ، وليسَ هناكَ قسمٌ رابعٌ:

- عَلِمَ الحقَّ وعملَ بهِ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٧).

■ علِمَ الحقَّ ولم يعملْ بهِ.

■ جَهِلَ الحقَّ فَضَلَّ.

وليسَ هناكَ غير هذَا، ولذلكَ كانتْ هذهِ السورةُ أمَّ القرآنِ؛ لأن معانيَ القرآنِ ترجعُ إليها.

أخيرًا أكررُ، ثم أكررُ، ثم أكررُ لإخواني المسلمينَ أن يَتدبروا كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأن يَتفهمُوا معناهُ، وألا يتلوهُ لمجردِ التعبدِ بهِ، فالتعبدُ بهِ خيرٌ ولا شكَّ وبركةٌ وزيادةُ حسناتٍ، لكنِ الثمرةُ العظيمةُ المرجوةُ مِن كتابِ اللهِ هيَ بتدبرِهِ، ثم الاتعاظ بهِ.

قالَ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فهذهِ النتيجةُ والثمرةُ؛ أن نعرِفَ معانيَ القرآنِ، وأن نعملَ بالقرآنِ، وأن تجتمعَ كلمتُنا على القرآنِ، وأن نجعلَ الحَكَمَ بيننا هوَ القرآنَ.

فعلى كلِّ حالٍ هذهِ السورةُ سورةٌ عظيمةٌ، وما رأيتُ تفسيرًا أحسنَ من تفسيرِ ابنِ القيمِ لها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أولِ كتابِ (مدارجِ السالكينَ)، فقدْ تكلمَ عليهَا كلامًا لا تجدهُ في غيرِ كتابِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهيَ سورةٌ عظيمةٌ، وهيَ شفاءٌ مِن كلِّ مرضٍ، والدَّليلُ أن النبيَّ ﷺ قالَ للرجلِ الذي قرأَ على اللديغِ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟**»[1]. إذنِ الفاتحةُ لها مِيزاتٌ كثيرةٌ وخصائصُ كثيرةٌ.

والحمدُ للهِ الذِي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٢٢٠١).

الدرس الثاني:

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِن شُرورِ أنفُسِنَا، ومِن سَيِّئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لهُ، وأشهدُ ألَّا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورسولُهُ، وخليلُهُ وأمينُهُ عَلَى وحْيِهِ، أرْسَلَهُ اللهُ تعالَى بالهُدَى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهَدَ فِي اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليْهِ، وعَلَى آلِهِ، وأصحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أمَّا بعْدُ:**

فيَا عِبادَ اللهِ! يَا حُجَّاجَ بَيْتِ اللهِ! لقدِ اسْتَمَعْنَا إلَى قِراءَةِ إمامِنَا فِي هَذِهِ الصَّلاةِ -صلاةِ المَغْرِبِ- بعدَ الفاتحةِ سُورتَيْنِ عظيمَتَيْنِ، هُمَا سُورَةُ الفَلَقِ وسُورَةُ الناسِ، ويَحْسُنُ بنا أنْ نتكلَّمَ أوَّلًا عَلَى ما تيَسَّرَ عَلَى سُورةِ الفاتِحَةِ، سُورةُ الفاتِحَةِ الَّتِي يَقرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ كُلَّ يَوْمٍ وليلةٍ، فَرْضًا لازِمًا عَلَيْهِ، يَقْرَؤُهَا سَبْعَ عَشْرَةَ مرَّةً، والدليلُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: **«لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»**(١) وأقلُّ مَفْرُوضٍ علَيْنَا سَبْعَ عَشْرَةَ ركْعَةً: الصُّبْحُ ركعتانِ، والظُّهْرُ أرْبَعٌ، والعَصْرُ أرْبَعٌ، والمَغْرِبُ ثَلاثٌ، والعِشاءُ أرْبَعٌ، والجميعُ سَبْعَ عَشْرَةَ ركعةً، فلا بُدَّ أنْ يَقْرَأَ الفاتحةَ كُلَّ يومٍ وليلةٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

هَذَا فضلًا عمَّا نَقْرَؤُهُ فِي النوافِلِ، والنَّوافِلُ التابعةُ للمكتوباتِ -الَّتِي يُكَمِّلُ اللهُ بها الفرائضَ الناقصةَ- اثْنَتَا عَشْرَةَ ركعةً: ركعتانِ قَبْلَ الفَجْرِ، وأرْبَعَةٌ قَبْلَ الظُّهْرِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بسلامَيْنِ، واثْنَتَانِ بَعْدَ الظُّهْرِ، واثْنَتَانِ بَعْدَ المَغْرِبِ، واثْنَتَانِ بَعْدَ العِشاءِ، هَذِهِ اثْنَتَا عَشْرَةَ ركعةً، يقولُ النَّبِيُّ الصادقُ الأمينُ: «**مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ**»(١) فمَنْ صلَّى فِي اليومِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ركعةً بَنَى اللهُ له بيْتًا فِي الجَنَّةِ، لَا يَفْنَى ولا يَبِيدُ، ولا يحتاجُ إلَى مالٍ، صَلِّ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ركعةً فِي اليومِ والليلةِ منْ غيرِ الفريضةِ يَبْنِ اللهُ لكَ بذلكَ بيتًا فِي الجنَّةِ.

ولْنَتكَلَّمْ بما يُيَسِّرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى سُورةِ الفاتحةِ:

أوَّلًا: سُمِّيَتْ سُورةَ الفاتحةِ؛ لأنه افْتُتِحَ بِهَا كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهيَ فِي أوَّلِ المُصْحَفِ، لكنْ ليسَ لأنَّهَا أوَّلُ ما نَزَلَ، فأوَّلُ ما نَزَلَ عَلَى محمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ خمسُ آياتٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

هَذَا أوَّلُ ما نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ تتابَعَ القرآنُ يَنْزِلُ شَيْئًا فشَيْئًا، وتمَّ ذلكَ فِي ثلاثٍ وعِشْرِينَ سَنَةً.

وفاتحةُ الكِتَابِ أجْرُهَا أنَّها أعظمُ سُورةٍ فِي كتابِ اللهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي**»(٢) يُشِيرُ إلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] أيْ: أنَّهَا عدلَتِ القُرْآنَ كلَّهُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل السنن الراتبة، رقم (٧٢٨)، من حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤)، من حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذَنْ: هِيَ السَّبْعُ المثاني، والَّذِي قَالَ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأعلمُ الخَلْقِ بكَلامِ اللهِ هُوَ رَسُولُ اللهِ.

وسُورَةُ الفاتحةِ إذَا قُرِئَتْ عَلَى المريضِ شفاهُ اللهُ، والدليلُ أذكرُهُ لكمْ في قصَّةٍ الآنَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً -يعني جماعةً مِنَ الناسِ- فنزَلُوا عَلَى قَوْمٍ ضُيُوفًا -أيْ: يُرِيدُونَ أنْ يَنْزِلُوا عندَهُمْ لِمُدَّةِ يوم وليلةٍ أوْ أكثرَ أوْ أقلَّ- لكنْ هَؤُلَاءِ القَوْمُ الَّذِينَ نَزَلَ عليهِمْ هَؤُلَاءِ أَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمْ -أيْ: رَفَضُوا- فسَلَّطَ اللهُ عَلَى زَعِيمِهِمْ -أيْ: زَعِيمِ القومِ الَّذِينَ أَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمْ -عَقْرَبًا فلَدَغَتْهُ، فتَحَيَّرُوا، ماذَا يعملونَ؟! قالُوا: اذْهَبُوا إِلَى هَؤُلَاءِ القومِ الَّذِينَ نَزَلُوا بكمْ؛ لعَلَّكُمْ تجدونَ عنْدَهُمْ رَاقِيًا يقرأُ عليْهِ، فجَاؤُوا إِلَى الصحابَةِ، وقالُوا: هلْ مَعَكُمْ أحدٌ يَقْرَأُ؟ قالُوا: نَعَمْ، لكنْ لَا نقرأُ عليكُمْ إلَّا بجُعْلٍ، أيْ: بمالٍ، أوْ غَنَمٍ، أوْ شيءٍ مِنْ هَذَا، أوْ أَكْلٍ، فاخْتَارُوا قِطْعَةً مِن الغَنَمِ، قالُوا: نُعْطِيكُمْ هَذَا مِن الغنَمِ، أنقِذُوا زَعِيمَنَا، فذَهَبَ رَجُلٌ مِن الصحابَةِ، وقرَأَ عَلَيْهِ سُورَةَ الفاتحةِ، فقامَ الرَّجُلُ كأنَّما نُشِطَ مِن عِقالٍ -يعني مثلَ البَعيرِ المُقَيَّدِ إذَا فكَكْنَا قُيُودَهُ- كأنما نُشِطَ مِن عِقالٍ.

ثُمَّ أخَذُوا الغنَمَ، وذهبَتِ السَّرِيَّةُ بالغنَمِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقالُوا: نَخْشَى أنْ يَكُونَ حرامٌ علينَا أنْ نَأْخُذَ عِوَضًا عنْ كلامِ اللهِ، فلا بُدَّ أنْ نسألَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فجاؤُوا بالغنَمِ إِلَى الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقالَ: «**خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**»[1] قَالَ ذلكَ ليُطَيِّبَ قُلُوبَهُمْ، وهَذَا مِنْ حُسْنِ تَعلِيمِ الرسولِ ﷺ أنْ يُطَيِّبَ قَلْبَ السائِلِ بما يَطْمَئِنُّ بِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ أَخبَرَ الرَّجُلُ الَّذِي قرَأَ الفاتحةَ الرسولَ بأَنَّهُ قرَأَ عَلَيْهِ الفاتِحَةَ، وقامَ كأَنَّما نُشِطَ مِن عِقالٍ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!**» يعنِي: مَا الَّذِي أَعْلَمَكَ أنَّهَا يُقْرَأُ بِهَا عَلَى المريضِ ويُشْفَى؟!

أَلْهَمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الفاتحةَ إذَا قَرَأَ الإنسانُ بها عَلَى مريضٍ شفاهُ اللهُ، لكنْ ربَّما يُؤتَى لشخْصٍ بمريضٍ، ويَقْرَأُ عَلَيْهِ الفاتِحَةَ مرَّاتٍ متعدِّدَةٍ، لكنْ دُونَ فائدةٍ؛ ذلكَ لأنَّ القِراءةَ تحتاجُ إِلَى فاعِلٍ وقابِلٍ، أيْ: لَا بُدَّ أنْ يكونَ القارِئُ عندَهُ إيمانٌ بأنَّها تنفعُ، أمَّا إذَا لم يكُنْ مُؤْمِنًا بذلك فلا تَنْفَعُ.

ولا بُدَّ منْ قابلٍ بأنْ يكونَ المريضُ مُقْتَنِعًا بأنَّها تنفعُ، أمَّا أنْ يقولَ: اقْرَأْ عليَّ ويذهبُ وقلبُهُ فِي الصيدليَّةِ فلا تنفعُهُ القراءةُ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ المَحَلُّ قابِلًا، بأنْ يكونَ المريضُ قانِعًا بأنَّ القِراءَةَ تَنْفَعُ.

إِذَنِ: الخللُ هنا فِي القارِئِ، وقدْ يكونُ فِي القابِلِ -أي: المرِيضِ- أيضًا، أمَّا الفاتِحَةُ فاللهِ لَيْسَ فيها خَلَلٌ، فالفاتِحَةُ إذَا قرَأَ بِهَا الإنسانُ عَلَى المريضِ مُؤْمِنًا بأنَّها ستفيدُ، والمريضُ مُؤْمِنًا بأنَّها ستُفِيدُ، فلا بُدَّ أنْ تُفِيدَ.

أضربُ لكم مثلًا حِسِّيًّا: السيفُ البتَّارُ إذَا كانَ معَ إنسانٍ جبانٍ فإنَّهُ لَا ينفعُ، إذَا رأَى العَدُوَّ رمَى بالسيفِ وهَرَبَ؛ لأنَّهُ جَبانٌ، أمَّا إذَا كانَ السيفُ البتَّارُ معَ شخصٍ شُجاعٍ، تصوَّرْ أنَّ أمامَهُ عمودًا منَ الحجَرِ، وتصوَّرَ أنَّ هَذَا العمودَ رجلٌ عدُوٌّ فضربَهُ بالسيفِ، فلا ينقطعُ العمودُ؛ لأنَّ المَحَلَّ غيرُ قابِلٍ للتأثيرِ.

إِذَنِ: القراءةُ لَا بُدَّ أنْ تكونَ مِنْ فاعِلٍ وقابِلٍ مُتأثِّرٍ بها ومُؤْمِنٍ بها، أمَّا بدُونِ إيمانٍ فلا تَنْفَعُ.

فالحاصلُ: أنَّ سُورةَ الفاتِحَةِ هيَ أعظمُ سُورةٍ فِي القُرآنِ، وأفْضَلُ سُورةٍ فِي القُرآنِ، وهِيَ أُمُّ القُرْآنِ، وأنَّها تَجِبُ فِي كُلِّ ركعةٍ مِن ركعاتِ الصَّلاةِ، فيجبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أنْ يَقْرَأَهَا فِي اليومِ والليلةِ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً، وسورةُ الفاتِحَةِ إذَا قُرِئَ بها عَلَى المريضِ شفاهُ اللهُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ سمَّاها رُقْيَةً.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] يعني: أَبْتَدِئُ قِراءَتِي بكُلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ذِي الرحمةِ الواسِعَةِ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ذِي الرحمةِ الواصِلَةِ، تَصِلُ إِلَى المرحومِ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١] أسألُ اللهَ أنْ يَرْحَمَنِي وإيَّاكُمْ برحمتِهِ، فكُلُّ مَا نجدُهُ مِنْ خيْرٍ ونعماءٍ وسُرورٍ وعَمَلٍ صالِحٍ بسببِ الرحمةِ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] الحمدُ معناهُ أنَّ كُلَّ وصفٍ جميلٍ، وكلَّ وصْفٍ كامِلٍ فهُوَ للهِ، وأكْمَلُ العُلومِ هُوَ عِلْمُ اللهِ، وأكْمَلُ القُدْراتِ هِيَ قُدْرَةُ اللهِ، وأكْمَلُ القُوَى هِيَ قُوَّةُ اللهِ، وأكْمَلُ الإحسانِ هُوَ إحسانُ اللهِ، فكُلُّ وصفٍ جميلٍ اللهُ مَوْصُوفٌ بِهِ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ:١٥] قَالَ اللهُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ:١٥] ولذَلِكَ أُهْلِكَتْ عادٌ بالرِّيحِ اللطيفةِ، أُهْلِكَ بها هَؤُلَاءِ القومُ الَّذِينَ يقولونَ: مَنْ أشدُّ مِنَّا قُوَّةً؟!

قَالَ اللهُ تَعالَى: الريحُ، سهلةٌ يسيرةٌ، أهْلَكَ اللهُ بها هَؤُلَاءِ القَوْمَ؛ لأنَّهُمْ طَغَوْا واعْتَدَوْا، وقالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ:١٥].

إذَنْ مَعْنَى الحَمْدِ: كُلُّ وصْفٍ كامِلٍ فهُوَ للهِ؛ ولهَذَا نَحْمَدُ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السماواتِ والأرْضَ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] ونَحْمَدُ اللهَ الَّذِي أنْزَلَ القُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١] ونَحْمَدُ اللهَ إذَا قُضِيَ بَيْنَ العِبادِ يومَ القيامَةِ وانْتَهى كُلُّ شيءٍ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر:٧٥] ويُحْمَدُ اللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ؛ لأَنَّهُ كامِلٌ فِي كُلِّ شيءٍ.

ومعْنَى (اللهُ) أي: المعبودُ، والمعبودُ حقًّا هُوَ اللهُ، فلا أحَدَ يُعْبَدُ حقًّا إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هُناكَ أُناسٌ يَعْبُدُونَ الأصنامَ، وهُوَ باطِلٌ، وهُناكَ أُناسٌ يَعْبُدُونَ القُبُورَ وهُوَ باطِلٌ، وهُناكَ أُناسٌ يَعْبُدُونَ السَّيِّدَ فُلانًا وهُوَ باطِلٌ، وهُناكَ أُناسٌ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٢٤] وهُوَ باطِلٌ، وهُناكَ أُناسٌ يَعْبُدُونَ القَمَرَ وهُوَ باطِلٌ ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فُصِّلَتْ:٣٧] وهُناكَ مَنْ يَسْجُدُ لبَشَرٍ مِثْلِهِ، يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ إنسانٍ مَلِكٍ أوْ وَزِيرٍ أوْ رئيسٍ، ثُمَّ يَسْجُدُ لهُ، وهَذَا باطِلٌ، كَيْفَ تَسْجُدُ لشخصٍ مِثْلِكَ؟! مَا الَّذِي فضَّلَهُ عليكَ؟! يَبُولُ كما تبُولُ، ويَتَغَوَّطُ كما تَتَغَوَّطُ، ويَجُوعُ كما تَجُوعُ، ويَعْطَشُ كما تَعْطَشُ، ويتأذَّى بالبَرْدِ والحَرِّ، فكَيْفَ تَعْبُدُوهُ وهُوَ لَا يَمْلِكُ لنفسِهِ شيئًا؟! مِسْكِينٌ هذَا، وإذَا جاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ لا يقولُ لهُ: قِفْ، ولو قَالَ: لَا يُطاعُ.

وهَذَا فِرْعَوْنُ جبَّارٌ عَنِيدٌ، أرْسَلَ اللهُ إليْهِ مُوسَى بنَ عِمْرانَ، ومُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن أقْوَى الأنبياءِ، قَوِيٌّ شَدِيدٌ، لَمَّا رَجَعَ إلَى قوْمِهِ مِن مِيقاتِ ربِّهِ، ووجدَهُمْ يَعْبُدُونَ العِجْلَ ألْقَى الألواحَ الَّتِي كتبَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهُ، وأخذَ برأسِ أخِيهِ يَجُرُّهُ إليهِ، لماذَا تُمَكِّنُهُمْ

مِنْ عِبادَةِ العِجْلِ؟ ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ﴾ [الأعراف:١٥٠] هَذَا النَّبِيُّ الكريمُ مِن أشدِّ الأنبياءِ، أرسلَهُ اللهُ إِلَى أشدِّ الناسِ عُتُوًّا وهُوَ فِرْعَوْنُ الجبَّارُ العنيدُ، الَّذِي قَالَ لقومِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزُّخرُف:٥١] ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزُّخرُف:٥٢] يعني بِهِ مُوسَى ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزُّخرُف:٥٣-٥٦].

افْتَخَرَ فِرْعَوْنُ بأَنَّ الأنهارَ تَجْرِي منْ تَحْتِهِ، فأُهْلِكَ بالماءِ -سبحانَ اللهِ- أُهْلِكَ بما كانَ يَفْتَخِرُ بهِ، جَمَعَ جُنودَهُ كلَّهُم، وقالَ: هيَّا نَتَّبِعْ مُوسَى لنَقْضِيَ عليهِ، فلَمَّا وصَلَ مُوسَى بقومِهِ إِلَى البحرِ الأحمرِ، قَالَ قومُ مُوسَى لمُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] لأَنَّ البَحْرَ أمامَهُم، وعدُوَّهُم فِرْعَوْنَ وجنودَهُ خلْفَهُمْ فلا مَفَرَّ، ولكنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانَ مُؤْمِنًا مُوقِنًا، قال: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] اللَّهُمَّ كُنْ معنَا ولا تكُنْ علَيْنَا ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراءِ:٦٢] فأَوْحَى اللهُ إليْهِ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراءِ:٦٣] عَصًى يَهُشُّ بها عَلَى غنمِهِ ويَتَوَكَّأُ عليْهَا، عصًى منَ الشَّجَرِ، فضَرَبَهُ ضَرْبَةً واحدةً فانْفَلَقَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا بإِذْنِ اللهِ، وبقُدْرَةِ اللهِ؛ وانْفَلَقَ اثْنَيْ عَشَرَ طريقًا؛ لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ كانوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قبيلةً ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾ [الأعرافِ:١٦٠].

قَالَ العلماءُ: الأَسْباطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كالقبائِلِ فِي العَرَبِ، فصارتِ الطُّرُقُ

اثْنَيْ عَشَرَ طريقًا؛ لأنَّ بنِي إسْرَائِيلَ كانوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قبيلةً؛ ليكونَ كُلُّ طريقٍ لكُلِّ قبيلةٍ، وسبحانَ اللهِ! ضربَهُ حتَّى وقفَ الماءُ الجارِي كالجبالِ بقُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كُنْ فيكونُ، وقَفَ كالجِبَالِ، حتَّى قَالَ بعضُ العُلماءِ: إنَّ بني إسْرَائِيلَ خافُوا ففَتَحَ اللهُ نوافذَ فِي كُلِّ جزءٍ مِنَ الماءِ؛ لأجْلِ أنْ يرَى بعضُهُمْ بعضًا فيطْمَئِنَّ، سُبْحَانَ اللهِ! هل يُمْكِنُ نوافِذُ فِي الماءِ الجاري؟

الجوابُ: يُمْكِنُ، إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فصارُوا يَمْشُونَ عَلَى قاعِ البحرِ، وكان يَبَسًا ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧] سُبْحَانَ اللهِ فِي لحظةٍ، فعبرَ مُوسَى وقَوْمُهُ ونَجَوْا، وتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنُ مِن نَفْسِ هَذِهِ الطُّرُقِ، ظنَّ أَنَّهُ سيُدْرِكُهُمْ، لكنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أمَرَ البَحْرَ أنْ يَنْطَبِقَ فانْطَبَقَ عَلَى فِرْعَوْنَ وقومِهِ، فغَرَقُوا جميعًا، لكنْ بنُو إسْرَائِيلَ قَوْمُ مُوسَى كانَ فِرْعَوْنُ أرْعَبَهُمْ جدًّا، قالُوا: هلْ ماتَ أوْ نَجا؟ فأظْهَرَ تعالَى جُثَّةَ فِرْعَوْنَ حتَّى شاهَدُوها، سُبْحَانَ اللهِ! أظْهَرَ جُثَّةَ فِرْعَوْنَ عَلَى ظهْرِ الماءِ حتَّى شاهَدُوها ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يُونُس:٩٢] فاطمَئَنُّوا أنَّ الجبَّارَ العنيدَ قَدْ ماتَ.

انْظُرْ إِلَى قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فِرْعَوْنُ الَّذِي كانَ قَوْمُهُ يَعْبُدُونَهُ، وكانَ يقولُ لهُمْ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص:٣٨] ذهَبَ بَدَنُهُ للغَرَقِ ورُوحُهُ للحَرَقِ.

اسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [غافر:٤٦] متَى؟ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

إِذَنِ: المعبودُ حقًّا هُوَ اللهُ، والخالِقُ هُوَ اللهُ، والرازِقُ هُوَ اللهُ، والمُحْيِي هُوَ اللهُ، والمميتُ هُوَ اللهُ، والباعِثُ هُوَ اللهُ، والنافِعُ هُوَ اللهُ، والضارُّ هُوَ اللهُ، وكلُّ شيءٍ فِي الكَوْنِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٥٣-٥٤].

إِذَنِ (الحَمْدُ للهِ) معناهُ: المعبودُ حقًّا، فيَجِبُ أَنْ تُضْمِرَ فِي قَلْبِكَ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ حقًّا إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وعِبادَةُ الشَّمْسِ باطِلَةٌ، لكنْ يأتِي شخصٌ ويقولُ لكَ: الشَّمْسُ زِينَةٌ، الشَّمْسُ جميلةٌ، الشَّمْسُ إِذَا طلعتْ وَفَّرْنَا الكهرباءَ، وصارَ النورُ فِي كُلِّ مكانٍ، الشَّمْسُ تُنْبِتُ الثِّمارَ، ولكن نقولُ: الَّذِي جعَلَهَا هكَذا سِرَاجًا وهَّاجًا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ: هِيَ كغَيْرِهَا، وقدْ صرَّحَ القُرْآنُ بأَنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ وما يُدْعَى مِن دُونِهِ باطِلٌ، قَالَ اللهُ تَعالَى فِي سُورَةِ لُقْمانَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠] وفي سُورةِ الحَجِّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

إِذَنْ: لَا نتعلَّقُ بأحدٍ، لَا بولِيٍّ ولا بِنَبِيٍّ، ولا بِمَلِكٍ، ولا بأيِّ أحدٍ مِنَ الناسِ. وإِنِّي لأَعْجَبُ غايةَ العَجَبِ منْ قَوْمٍ يأتونَ إِلَى قَبْرِ مَيِّتٍ، ثُمَّ يدعونَهُ: يَا سيِّدي! يَا مَوْلايَ! امْرأَتِي لَمْ تَحْمِلْ حَمِّلْهَا. يَا سيِّدي! يَا مَوْلايَ: لَمْ أَتزَوَّجْ هاتِ لِي زوجةً. يَا سيِّدي وَمَوْلايَ: عِنْدِي مرضُ السَّرطانِ اشْفِنِي. يَا سيِّدي ومَوْلايَ: أنا فَقِيرٌ أَطْعِمْنِي.

فهَذَا قَبْرُ مَيِّتٍ، وهُوَ الآنَ أَضْعَفُ منكَ، فأَنْتَ تَمْشِي وتَذْهَبُ وتَجِيءُ، وتَبِيعُ وتَشْتَرِي، وتَتَزَوَّجُ ويُولَدُ لكَ، لكنْ هَذَا هامِدٌ، انْقَطَعَ كُلُّ شيءٍ، لَا يَمْلِكُ لنَفْسِهِ نَفْعًا ولا ضَرًّا.

وأَشْرَفُ الخَلْقِ عَلَى اللهِ محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، ومعَ ذَلِكَ يقولُ اللهُ لهُ يأْمُرُهُ أنْ يُعْلِنَ للمَلَأِ إلَى يَوْمِ القِيامَةِ ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجنِّ:٢١] أبَعْدَ هَذَا يتعلَّقُ الإنسانُ بالمخلوقِ؟! ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجنِّ:٢١] هَذِهِ واحِدَةٌ.

إعلانٌ آخرُ: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجنِّ:٢٢] يعني: لوْ أرادَ اللهُ أنْ يُصِيبَنِي بشيءٍ مَا اسْتَطَعْتُ أنْ أَمْلِكَ الدَّفْعَ.

إذَنْ: لَا يَمْلِكُ محمَّدٌ أشْرَفُ الخَلْقِ عندَ اللهِ لنَا ضَرًّا ولا رَشَدًا، ولا يَمْلِكُ لنفسِهِ مَنْعًا ولا دَفْعًا، فما بالُكُمْ بغَيْرِهِ؟!

إذَنِ: المسألةُ عقليًّا -دُونَ أنْ يَكُونَ هُناكَ دليلٌ شَرْعِيٌّ- تُبْطِلُ عِبادَةَ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ. عجيبٌ منَ العرَبِ قَبْلَ بعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يصنعُ الواحِدُ منهُمْ تَمْرًا، يَعْجِنُهُ ويَجْعَلُهُ تِمْثَالًا، ثُمَّ يَعْبُدُهُ، وإذا جاعَ أكَلَهُ، سُبحانَ اللهِ! أنتَ تَعْبُدُهُ ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ تَأْكُلُهُ! هَذَا جَهْلٌ، يَنْزِلُ الواحدُ منهُمْ بالوادِي، يُرِيدُ أنْ يَطْبُخَ الزادَ عَشاءً أوْ غداءً، فيأْخُذُ أربعةَ أحْجارٍ، ثلاثةَ أحْجارٍ للقِدْرِ، والحَجَرُ الرابعُ يَنْصِبُهُ ويَعْبُدُهُ، هَذَا جَهْلٌ، ومعَ ذَلِكَ يقولونَ لمُحَمَّدٍ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] ونقولُ لهمْ: واللهِ العُجابُ شُغْلُكُمْ أنتُمْ، أنْ تَجْعَلُوا الآلِهَةَ مُتعَدِّدَةً.

لِهَذَا إِذَنْ: لَا يجوزُ لأيِّ إنسانٍ أنْ يُعَلِّقَ قلبَهُ برجاءٍ ولا خَوْفٍ إلَّا بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ فهو الرَّبُّ.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] للرَّبِّ ثلاثَةُ معانٍ: الخالِقُ، المُدبِّرُ لكُلِّ شيءٍ، الحاكِمُ عَلَى كُلِّ شيءٍ، فالَّذِي بِيَدِهِ ملكوتُ كُلِّ شيءٍ هُوَ اللهُ، والمُدَبِّرُ للأُمورِ كلِّهَا هُوَ اللهُ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يُونُس:٣١] فالَّذِي خَلَقَ الخَلْقَ هُوَ اللهُ، لم يَخْلُقْكَ أَبُوكَ، ولا خَلَقَتْكَ أُمُّكَ، ولا خَلَقَكَ الزعيمُ، لم يَخْلُقْكَ إلَّا اللهُ.

فالرَّبُّ أيِ الخالِقُ، المالِكُ، المُدَبِّرُ.

قِيلَ لأعرابِيٍّ: بما عرفْتَ ربَّكَ؟ قالَ: الأثرُ يَدُلُّ عَلَى المَسِيرِ، والبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى البعيرِ، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، وبِحارٌ ذاتُ أمْواجٍ، ألَا تَدُلُّ عَلَى السميعِ البصيرِ؟!!(١)

قالَ: الأثَرُ يَدُلُّ عَلَى المَسِيرِ: فأنتَ إذَا وجَدْتَ أثَرَ قدمٍ فِي الرَّمْلِ، والقَدَمُ تَبِينُ فِي الرَّمْلِ، فالأثَرُ يدُلُّ عَلَى المَسِيرِ.

والبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى البعيرِ: فإذَا وجَدْتَ بَعْرَةً فِي البَرِّ فلا بُدَّ منْ بَعِيرٍ جاءَتْ هُنا، فسماءٌ ذاتُ أَبْراجٍ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الفرقان:٦١] وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، فالأرضُ ذاتُ فِجاجٍ ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحجّ:٢٧].

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٢٦٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٦).

والثالِثُ: بحارٌ ذاتُ أمْواجٍ مُتلاطِمَةٍ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] ألَا تَدُلُّ عَلَى السميعِ؟

الجوابُ: بَلَى، تَدُلُّ عَلَى السميعِ البصيرِ، فالَّذِي يستطيعُ أنْ يُحَرِّكَ البَحْرَ حتَّى يَمُوجَ هُوَ اللهُ، والَّذِي جعَلَ هَذِهِ الفِجاجَ فِي الأرضِ جِبالًا عظيمةً شامخةً وبَيْنَهَا طُرُقٌ هُوَ الله عَزَّوَجَلَّ، والَّذِي جعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجًا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذَنْ: لماذا تتعلَّقُ بغيرِ اللهِ، وهُوَ لَا يَمْلِكُ شيئًا؟!

فالمُلْكُ كُلُّهُ للهِ، وأُوَجِّهُ لك نصيحةً: إذَا مَسَّكَ الضُّرُّ فالْجَأْ إِلَى اللهِ، وإذا أَرَدْتَ شيئًا يَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ فالْجَأْ إِلَى اللهِ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الناسِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢] ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] حتَّى الَّذِي يُرِيدُ الدُّنْيَا لَا يسألُ إلَّا اللهَ، يقولُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

إذَنِ: المعقولُ والمنقولُ كلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَلَّا نَتَعَلَّقَ إلَّا باللهِ.

فإنْ قَالَ قائلٌ: هُناكَ وَلِيٌّ صالِحٌ تَقِيٌّ معروفٌ مَيِّتٌ، ألَا نَأْتِي إليْهِ ونقولَ: يَا فُلانُ! اشْفَعْ لنَا إِلَى اللهِ! نقولُ هَذَا عنْ عقيدةٍ.

فالجوابُ: لَا نَأْتِي إليْهِ أبدًا، ولا نقولُ: اشْفَعْ لنَا عندَ اللهِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ ليسَ كمُلوكِ الدُّنْيَا يحتاجُ إِلَى بوَّابٍ وإلى سكرتيرٍ، بل نتعامَلُ مِن قُلُوبِنَا إِلَى ربِّنَا رَأْسًا، ولا نقولُ: يَا فلانُ! اشْفَعْ لنا أوْ غَيْرَهُ.

بلْ نقولُ: يَا رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

أَمَّا أنْ نَقُولَ: يَا فُلانُ! اشْفَعْ لِي! فلا يجوزُ.

إذَنْ: لَا نقولُ: يَا فُلانُ أغْنِنِي، ولا نقولُ: يَا فُلانُ اشْفَعْ لي إلَى اللهِ، وإنَّما نقولُ: يَا ربَّنَا أغْنِنَا! يَا ربَّنَا أعْطِنَا؛ لأَنَّهُ لَا أحدَ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فَهِمْنَا أنَّ الرَّبَّ يتضمَّنُ ثلاثةَ أُمُورٍ: هِيَ خالِقٌ، ومالِكٌ، ومُدَبِّرٌ.

﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] العالَمُونَ كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ، فكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ فهو عالَمٌ، عالَمُ الإنْسَانِ، عالَمُ الجِنِّ، عالَمُ الملائكةِ، عالَمُ الحَشَراتِ، عالَمُ النَّمْلِ، عالَمُ السماواتِ، عالَمُ الأرضِ، وهَذَا يكونُ بإيذاءِ ربِّ كُلِّ شيءٍ، تقولُ: ربُّ كُلِّ شيءٍ، وتقولُ: ربُّ العالَمِينَ، ومعْنَاهُمَا واحِدٌ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ سِوَى اللهِ فهُوَ مِنَ العالَمِ.

وقالَ العُلماءُ: سُمِّيَ هَذَا الخَلْقُ عالَـمًا؛ لأنَّهُ عَلَمٌ عَلَى اللهِ، أيْ دليلٌ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] مَا أَلَذَّ هاتَيْنِ الكلمتَيْنِ وأبْرَدَهُمَا عَلَى القَلْبِ حينَ جاءَ اللهُ بِهِمَا بعدَ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] إشارةً إلَى أنَّ رُبُوبِيَّتَهُ للعالَمِينَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الرحمةِ، فهُوَ جَلَّوَعَلَا أرحمُ الراحمينَ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف:٦٤] رأَى النَّبيُّ ﷺ امرأةً فِي السَّبْيِ مَشْدُوهَةً، عَقْلُهَا قَدْ طارَ، تبحثُ عنْ ولَدٍ لها صَبِيٍّ، فلمَّا رأَتْهُ أخَذَتْهُ فِي شفقةٍ وحنانٍ، وضَمَّتْهُ إلَى صدْرِهَا، هَذِهِ رحمةٌ عظيمةٌ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ لأصحابِهِ وهمْ ينظرونَ إلَى المرأةِ: «**أَتَظُنُّونَ أَنَّ**

هَذِهِ الْمَرْأَةَ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قالُوا: لَا. قالَ: «إِنَّ اللهَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا»[1] اللَّهُمَّ ارْحَمْنا برَحْمَتِكَ.

فلْنَتَعَرَّضْ لرحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لاسِيَّما فِي هَذِهِ المشاعِرِ العظيمةِ، واعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَرْحُمُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحماءَ، حتَّى الَّذِينَ يَرْحَمُونَ البهائِمَ يَرْحَمُهُمْ.

رأتِ امرأةٌ بَغِيٌّ -زَانِيَةٌ- كلْبًا يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فنزلتْ إِلَى ماءٍ، وأخَذَتْ بخُفَّيْهَا مِنَ الماءِ، وسَقَتِ الكَلْبَ، فغَفَرَ اللهُ لها؛ لأنَّها رَحِمَتْ هَذَا الكَلْبَ، فرَحِمَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أرحمُ الراحمينَ، وهُوَ يُحِبُّ الرُّحماءَ مِن عِبادِهِ، ويَرْحَمُ الرُّحماءَ مِن عِبادِهِ.

لكنِ الآنَ إذَا جاءَ الطفلُ إليكَ فِي المَجْلِسِ وعِنْدكَ رِجالٌ، تقولُ له: اذْهَبْ إِلَى أُمِّكَ، ولا تَجْعَلُهُ يَدْخُلُ، هَذَا هُوَ الواقِعُ عندَ كثيرٍ مِن الناسِ، وهَذَا غَلَطٌ، بلِ اجْعَلْهُ يَدْخُلُ ويَسْتَأْنِسُ، وفَرِّحْهُ؛ لأنَّ الرحمةَ لَا تنالُكَ إلَّا برَحْمَتِهِ.

انظُرُوا إِلَى محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أرْحَمِ الخَلْقِ بالخَلْقِ، كانَ ذاتَ يَوْمٍ يُصَلِّي بالناسِ، وكانَ ساجِدًا، فجاءَهُ الحَسَنُ أوِ الحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فركِبَ عَلَيْهِ وهُوَ ساجِدٌ، جعلَهُ بَعِيرًا له، جعلَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعِيرًا له، فأطالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ السُّجُودَ، فلمَّا فَرَغَ مِن صلاتِهِ كأَنَّ الصحابةَ سألوهُ، أوْ هُوَ ظنَّ أنَّهُ أُشْكِلَ عليهِمُ الأَمْرُ: لِماذا أطالَ السُّجُودَ، قالَ: «إِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ يَقْضِيَ نَهْمَتَهُ»[2] فما ظَنُّكُمُ الآنَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥٤)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٣)، والنسائي: كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم (١١٤١)، من حديث شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لوْ أنَّ أحدًا منكُمْ يُصَلِّي بالناسِ إمامًا، وجاءَ ابنُهُ أوِ ابنُ بِنْتِهِ ورَكِبَ عليه؟ فإنَّه يضْرِبُهُ بيَدِهِ حتَّى يَسْقُطَ.

ونقولُ: كانتْ أُمامَةُ بنتُ بنتِهِ زَيْنَبَ، ابنةُ أبي العاصِ، طفلةٌ كانتْ معهُ وهُوَ يُصَلِّي بالناسِ، إمامُ الأئِمَّةِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وعلَى آلهِ وسَلَّم، يُصَلِّي بالناسِ، وهُوَ يَحْمِلُ أُمامَةَ إذَا قامَ، وإذا سَجَدَ وضَعَهَا عَلَى الأرْضِ، وإذا قامَ أخذَهَا[1]، فهلْ أحدٌ منكُمْ يَفْعَلُ هَذَا؟! فَعَلَ الرَّسُولُ ذَلِكَ ليكونَ أُسْوَةً لأُمَّتِهِ برحمةِ هَؤُلَاءِ الأطفالِ.

إذَنِ: ارْحَمُوا مَنْ فِي الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السماءِ، وجَرِّبْ تَجِدْ، فإذا أشْفَقْتَ عَلَى الصَّبِيِّ الصغيرِ، ورَحِمْتَهُ وقَبَّلْتَهُ وحَمَلْتَهُ وجَعَلْتَهُ يَضْحَكُ، تَجِدُ فِي قَلْبِكَ لِينًا ومَحَبَّةً للضُّعفاءِ.

إذَنِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ جاءتْ بعدَ قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] ليُبَيِّنَ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هَذِهِ الرُّبُوبِيَّةَ العامَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الرحمةِ.

إذَنْ: تعَرَّضْ لرحمةِ اللهِ، وارْحَمْ مَنْ فِي الأرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّماءِ.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] ولوْ قرَأَهَا قارِئٌ: (**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) سَتُنْكِرُونَهَا عليهِ؛ لأنَّ الَّذي لَا تعلمونَهُ تُنْكِرُونَهُ، عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ قارِئًا يقرأُ آيةً فِي سُورةِ الفُرقانِ فأنْكَرَ عليْهِ، وأخذَ بتَلابِيبِهِ، وقالَ: لَا يُمْكِنُ أنْ تَقْرَأَ هَذَا حتَّى نَصِلَ إلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إذا حمل جارية، رقم (٥١٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم (٥٤٣)، من حديث أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ وصَلَا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا قرأَ الآيَةَ الفُلانِيَّةَ عَلَى خلافِ الَّتِي أَقْرَأْتَهَا، قالَ: «**اقْرَأْ**» فقرأَ الرَّجُلُ، فقالَ: «**هكذا أُنْزِلَتِ**»، «**اقْرَأْ يَا عُمَرُ**» فقَرَأَ، قالَ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**»[1].

إِذَنْ: لوْ قرأَ قارِئٌ: (**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) نُنْكِرُ عليْهِ؛ لأَنَّنا لَا نَعْرِفُ إِلَّا ﴿مَٰلِكِ﴾ لكنِّي أقولُ لكمْ: فِيهَا قراءةٌ صحيحةٌ عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) و(مَلِكِ) تُعْطِي مَعْنًى أَكْبَرَ مِن ﴿مَٰلِكِ﴾ فإذا كُنْتَ تَمْلِكُ سيَّارَةً مثلًا يُقالُ: «مالِكٌ» لكنْ لَا يُقالُ: «مَلِكٌ» فمَلِكٌ أعْظَمُ، لكنْ معَ ذَلِكَ إِذَا جُمِعَتْ (مَلِكٌ) و(مَالِكٌ) تُفِيدُ مَعْنًى آخَرَ جديدًا؛ لأنَّ منَ الناسِ مَنْ يكونُ مَلِكًا لكنْ لَا مُلْكَ له، لَا يُدَبِّرُ.

أَرَأَيْتُمْ مَلِكَةَ بِريطانْيَا، فإِنَّها تُسَمَّى مَلِكَةً «**وَلَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهَمُ امْرَأَةً**» لكنَّهَا لَا تَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ، فهيَ مَلِكَةٌ لَكِنْ ليستْ مالِكَةً.

هُناكَ أيْضًا أُمَمٌ لهم مُلُوكٌ، ويُقالُ: مَلِكٌ، والتدبيرُ لغَيْرِهِمْ، فهُوَ غيرُ مالِكٍ، لكنْ رَبُّ العالَمِينَ مَلِكٌ مَالِكٌ.

إِذَنْ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يَوْمُ الدِّينِ: هُوَ يَوْمُ القِيامَةِ، وسُمِّيَ يَوْمَ الدِّينِ؛ لأَنَّهُ يُدانُ بِهِ النَّاسُ، أيْ: يُجازُونَ عَلَى أعْمالِهِمْ، فالجزاءُ الأَوْفَى والجزاءُ النِّهائِيُّ يكونُ يَوْمَ القِيامَةِ.

ولهَذَا أُنَبِّهُكُمْ عَلَى كَلِمَةٍ شائعةٍ عندَ النَّاسِ، وهِيَ خطأٌ عظيمٌ، يقولونَ عَنِ الرَّجُلِ إِذَا ماتَ ودُفِنَ: صارَ إِلَى مَثْوَاهُ الأخيرِ، وهذِهِ كلمةٌ عظيمةٌ، لوْ أنَّ الإنْسَانَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، رقم (٢٤١٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، رقم (٨١٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اعْتَقَدَ معْنَاهَا لكانَ كافرًا باللهِ، إنَّما المَثْوَى الأخيرُ هُوَ يَوْمُ القِيامَةِ، فلوْ أخَذْنَا بمدلولِ هَذِهِ الكلمةِ لكانَ المَعْنَى إنكارَ البَعْثِ، وإنكارُ البَعْثِ كُفْرٌ؛ ولذَلِكَ يَجِبُ إنكارُ هَذِهِ الكلمةِ، وألَّا يُقالُ هَكَذا.

سَمِعَ أعْرابِيٌّ -ولا بَأْسَ أنْ نأْتِيَ بِقِصَّةٍ أُخْرَى للأعرابِ- رَجُلًا يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] واللهِ هُناكَ شيءٌ وراءَ المقابِرِ! كَيْفَ عَلِمَ هَذَا؟ قالَ: إنَّ الزائِرَ غيرُ ساكِنٍ، وإنَّ اللهَ قَالَ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢] إذَنْ: فلا بُدَّ أنْ نَرْحَلَ عَنِ المقابِرِ إلَى يَوْمِ القِيامَةِ.

إذَنْ: يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ القِيامَةِ، وسُمِّيَ يَوْمَ الدِّينِ؛ لأنَّ النَّاسَ يُدانُونَ فيهِ عَلَى أعْمالِهِمْ، أيْ: يُجازُونَ.

فإذَا قَالَ قائِلٌ: هلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مالِكُ يَوْمِ الدِّينِ، أوْ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ ويَوْمِ الدُّنْيَا.

فالجَوَابُ: هُوَ مالِكُ يَوْمِ الدِّينِ؛ لأنَّ الدُّنْيَا فِيهَا مُلُوكٌ لعبُوا عَلَى أقْوامِهِمْ أيضًا، حتَّى إنَّ فِرْعَوْنَ يقولُ: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزُّخرُفِ:٥١] ويقولُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعاتِ:٢٤] لكنْ يَوْمُ القِيامَةِ لَا مُلْكَ فيهِ إلَّا للهِ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافِرٍ:١٦].

إذَنْ: يَوْمُ القِيامَةِ لَا مُلْكَ لأحدٍ إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهَذَا قالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] لأنَّ مُلْكَهُ يَظْهَرُ، وانفرادُهُ بالمُلْكِ يَظْهَرُ يَوْمَ القِيامَةِ، وإلَّا هُوَ مالِكُ الدِّينِ والدُّنْيَا، مَالِكُ كُلِّ شيءٍ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] هَذِهِ الآيةُ شَمِلَتِ الدِّينَ كُلَّهُ، كُلُّ الدِّينِ فِي هَذَا، فالإنْسَانُ يَعْبُدُ اللهَ، ومَنْ يُعِينُهُ عَلَى عِبادةِ اللهِ؟ الجوابُ: اللهُ؛ ولِهَذَا تقولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] بمَعْنَى: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، ولا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ بمَعْنَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] يَعْنِي: لَا نَسْتَعِينُ إِلَّا إِيَّاكَ، لَا نَسْتَعِينُ بأحدٍ غَيْرِكَ، فمَنْ يُعِينُكَ عَلَى قِيامِ الليلِ إِلَّا اللهُ؟! ومَنْ أعانَكَ حتَّى جِئْتَ إِلَى مكَّةَ إِلَّا اللهُ؟! ومَنْ أعانَكَ حتَّى يَسَّرَ لكَ الفُلْكَ تَجْرِي فِي الهواءِ وفي الماءِ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟! كُلُّ هَذَا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وإذا كُنَّا لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللهُ فلا يُمْكِنُ أَنْ نَعْبُدَ اللهَ فِي غَيْرِ مَا شَرَعَ اللهُ، لَا بُدَّ أَنْ نَسْلُكَ الطريقَ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لنا وتَوَصَّلْنَا إليهِ.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تضمنتِ الإخلاصَ والمُتابعةَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهَذَانِ هُمَا الرُّكْنَانِ الأصيلانِ فِي العملِ، كُلُّ عِبادةٍ لَا بُدَّ أَنْ يكونَ الإِنْسَانُ فِيهَا مُخْلِصًا للهِ، مُتَّبِعًا لرَسُولِ اللهِ.

فلوْ أَنَّ إنسانًا عَبَدَ اللهَ مُخْلِصًا، لكنْ جاءَ بعِبادةٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطانٍ، فإنَّها لَا تُقْبَلُ، ولوْ أَنَّ إنسانًا أَتَى بعِبادةٍ عَلَى الوجْهِ الَّذِي جاءتْ عنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لكنْ يُرائِي فِيهَا، يريدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَمْدَحُوهُ عليْهَا، يُقالُ: فُلانٌ واللهِ يَعْبُدُ اللهَ، فُلانٌ يَصُومُ، فُلانٌ يُجاهِدُ، فُلانٌ يَتَصَدَّقُ، فلا تُقْبَلُ منهُ؛ لأَنَّهُ فَقَدَ الإخْلاصَ، فلا بُدَّ مِنْ إخْلاصٍ، ولا بُدَّ مِنْ مُتابَعةٍ لرَسُولِ اللهِ ﷺ.

ولهَذَا نَحُثُّ إخْوَانَنَا الحُجَّاجَ والمُقِيمِينَ أنْ لَا يَعْبُدُوا اللهَ إلَّا عَلَى بصيرةٍ، يَتَعَلَّمُونَ شريعةَ اللهِ مِنَ العلماءِ الموثوقِ بِهِمْ، مِنَ الكُتُبِ الَّتِي أَلَّفَهَا العلماءُ الموثوقونَ؛ حتَّى يَعْبُدُوا اللهَ عَلَى بَصِيرَةٍ.



الدرس الثالث:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧].

سُورَةُ الفاتحة سُورَة عظيمةٌ، وهي أعظمُ سُورَةٍ في كتابِ اللهِ، وهي السبعُ المثاني الَّتي نصَّ اللهُ عليها في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، و(القُرآن) هذه منصوبة عطفًا على قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي: وآتيناكَ القُرآنَ العظيمَ، فخصَّ سُورَة الفاتحة أولًا للاعتناءِ بها، وبيان أهمِّيَّتها، ولذلك فرض النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قراءتها في الصَّلاة فقال: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(١).

والنفيُ هنا نفيٌ للصحَّة، وليس نفيًا للكمالِ، وعلى هذا فمَن صلَّى صلاةً لا يَقرأ فيها بفاتحةِ الكتابِ فصلاتُه غيرُ صحيحةٍ؛ لأن هذا قولُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (٧٥٦). ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٤).

عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ. والنصوصُ الواردةُ في هذا عامَّة لم تُخَصِّص مُصَلِّيًا دون آخرَ.

فهي ركنٌ في حقِّ الإمامِ، وركنٌ في حقِّ المنفرِد، وركن في حق المأمومِ؛ ركن في الجميعِ في الصَّلاةِ السِّرِّيَّةِ والصَّلاة الجهريَّة، وهذا هو القولُ الراجِحُ من أقوالِ أهلِ العلمِ؛ أن قراءة الفاتحةِ لا بُدَّ منها في كل صلاةٍ.

فإذا قال قائل: إذا كان الإمام في الصَّلاةِ السِّرِّيَّة يقرأ بعد الفاتحةِ مباشرةً؟

فالجواب: يقرأُ المأمومُ الفاتحةَ، ولو شَرَع الإمام في القراءة الَّتي بعد الفاتحةِ فإنه يستمرُّ؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ صلى بأصحابه يومًا صلاة الفجر، فجعلوا يقرؤون خلفه، فقال: «**لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأُمِّ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا**»[1].

وعليه فلنقرأِ الفاتحةَ في صلاةِ التراويحِ خلفَ الإمامِ وإنْ كان يقرأُ.

فإذا قال قائل: أيما أفضلُ؛ أن أقرأَ معه الفاتحةَ متابعةً لقراءتِه، بمعنى أنَّه إذا قرأ آيةً من الفاتحةِ قرأتُها بعدَهُ، أو أن أُنصِت للفاتحةِ، فإذا انتهى منها قرأتُ الفاتحةَ؟

فالجواب: الثَّاني أفضلُ؛ لأن استماعَكَ لقراءةِ الإمامِ الفاتحةَ وهي ركنٌ أَولى من استماعِكَ لقراءتِه غيرَ الفاتحةِ وليس برُكنٍ؛ ولأنه إذا قرأَ الفاتحةَ فستُؤَمِّن أنت إذا فرغَ منها، وكيف تؤمن على قراءةٍ لا تُنصِت لها. لهذا نقول: أنصِتْ لقراءةِ الإمامِ الفاتحةَ، فإذا فرغ منها فأقرأِ الفاتحةَ ولو قرأ.

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، رقم (٨٢٣)، والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في القراءة خلف الإمام، رقم (٣١١)، والنسائي: كتاب الافتتاح، باب قراءة أم القرآن خلف الإمام فيما جهر به الإمام، رقم (٩٢٠).

فإذا قال إنسانٌ: كيف يكون هذا وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]؟

قلنا: إن الله لم يقل: وإذا قُرِئَتِ الفاتحةُ فأَنصِتوا لها، بل قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ والقُرآن عامٌّ، والعامُّ يجوز أن يُخَصَّص، وهنا نقول: هذه الآية عُمومها مخصوصٌ بالفاتحةِ، فإنه لا بُدَّ من قراءتها.

من أسماء الفاتحة: أُمُّ القُرآنِ:

والفاتحةُ تُسمَّى أمَّ القُرآنِ؛ لأن جميع معاني القُرآن تَرجِع إلى الفاتحةِ، جميع معاني القُرآن يَعني أُصولها ترجع إلى الفاتحة، والمرجِعُ يُسمَّى أُمًّا؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، يعني اللَّوح المحفوظ الَّذِي إليه المرجِع فيما يُكتب. إذن سُمِّيَتْ أُمَّ الكتابِ لأن معانيَ القُرآنِ الكريمِ تَرجِع إليها كما سيَعرِف ذلك مَن يَقِف على تفسيرها.

من أسماء الفاتحة: الصلاة:

سمَّى اللهُ تَعَالَى الفاتحةَ صلاةً، يعني أطلق عليها اسم الصَّلاة؛ لأَنَّه لا بُدَّ في الصلاةِ منها؛ ففي الحديثِ القُدُسِيِّ «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»[1]. فالصَّلاة هي الفاتحة.

ويدل لهذا التفصيلُ: «**فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي،**

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**». فسمَّاها الله تَعالَى صلاةً لأنَّه لا بُدَّ في الصَّلاة من قراءتها، وإلا لم تكنِ الصَّلاةُ صلاةً.

الفاتحة سبع آيات تبدأ بالحمد:

والفاتحـةُ سبعُ آياتٍ؛ لقولِه: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ [الحجر:٨٧] وهذا محَلُّ إجماعٍ فيما نَعلَم، أنَّها سبعُ آياتٍ لا تَزيد ولا تَنقُص.

ولكن هل البسملةُ مِنها أو لا؟

قيل: إنَّها منها، وعلى هذا القولِ ترقيمُ المصحَـف الَّذِي بين أيدينا؛ فإنَّ رقمَ واحد في المصاحفِ البسملةُ.

وقيل: إن البسملةَ ليستْ منَ الفاتحـةِ، وهذا القولُ هو الراجِح، بل هو عند التأمُّل المُتعَيِّن، لا قول صحيح سواه؛ أن البسملة ليستْ من الفاتحةِ.

ولْنَنْظُرْ كيف نُرَجِّح أنَّها ليستْ منَ الفاتحةِ؛ نرجح ذلك بأمورٍ:

أولًا: أن في الحديثِ القُدسي الَّذِي سقناه آنِفًا ابتدأ الله الفاتحةَ بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، ولو كانت البسملةُ منها لَكان بدأ بها: بسم الله الرحمن الرحيم، فلمَّا لم يذكُرْها جَلَّوَعَلَا عُلم أنَّها ليستْ منَ الفاتحةِ، وإلا لَذكَرَها، واللهُ تَعالَى أعلمُ بآياتِه مِن خَلقه.

ثانيًا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان في الصَّلاةِ الجهريَّة لا يجهر بالبسملةِ[1]، ولو كانتِ البسملةُ منَ الفاتحةِ لجهرَ بها، فما الَّذِي يجعله يجهرُ في الآياتِ الباقيةِ سوى البسملةِ؟ لا شيء إلَّا أنَّها ليست منها.

فهذا تأييدٌ بكلامِ الله، وبسُنةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ تأييد بكلامِ اللهِ يعني في الحديثِ القُدُسِيِّ، وبسُنَّة النبيِّ ﷺ العَمَلِيَّة؛ كان في الصَّلاة الجَهرِيَّة إذا قرأ الفاتحةَ لا يَقرأُ: بسم الله الرحمن الرحيم.

ثالثًا: أن الله تَعالَى قال: إنَّه قَسَمَ الصَّلاة بينه وبين عبده نِصفينِ، وصدق اللهُ، ولْننظر: الذي لله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذه ثلاث.

والذي للعبد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بين الله وبين العبدِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عبادةُ اللهِ للهِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عونُ العبدِ للعبدِ.

وعلى هذا ثلاثُ آياتٍ ونصفٌ للهِ، وثلاث آياتٍ ونصف للمخلوقِ؛ للعبدِ، فثلاثُ آياتٍ خالصة للهِ، وثلاث آياتٍ خالصة للعبدِ، والآيةُ السابعةُ وهي الوسطَى بين الثلاثِ والثلاثِ؛ بينهما نصفينِ، فالوسطَى هذه نصف في اللفظِ، ونصف في المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، رقم (٣٩٩).

ولو جعلنا (بسم الله الرحمن الرحيم) آيةً لم تكنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي النصفَ، فهذا أيضًا دليلٌ.

رابعًا: التناسُب في الآياتِ القُرآنية هو طريقةُ القُرآنِ، ولذلك تجد السورةَ الَّتي آياتها قصيرة تجد كل الآيات قصيرةً، والسورةَ الَّتي آياتها طِوال تجد كل آياتِها طِوالًا، فلننظرْ: إذا قلنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذه الخمس متناسبة، ثم قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إذا قلنا: إن هذه آية واحدة على اعتبارِ أن البسملةَ منَ الفاتحةِ صارتْ هذه الآيةُ لا تتناسب مع الآياتِ الَّتي قبلها؛ لِطُولها، وإذا قسمنا هذه الآيةَ آيتينِ وقلنا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الآية السادسة، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هذه السابعة صارتِ الآياتُ متناسبةً.

إذن فالتناسُب المعنويُّ والتناسبُ اللفظيُّ يدلُّ على أن البسملةَ ليستْ منَ الفاتحةِ. وعلى هذا تكونُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آيتينِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آية، فتتناسَب آياتُ السورةِ لفظًا ومعنًى.

ومن المعلومِ أن القُرآنَ الكريمَ فيه مراعاة المناسبةِ، حتَّى إن الله تَعَالَى يُقدِّم ما حقُّه التأخيرُ، ويؤخِّر ما حقُّه التقديمُ من أجل التناسُب، ألم ترَوْا إلى قولِ اللهِ تَعَالَى عن السحرةِ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] فقدَّموا موسى، وموسى أفضلُ من هارونَ. وفي سُورَة طه مراعاةً للآياتِ ذكر الله

عن السحرةِ أنَّهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، فأخَّر اللهُ تَعَالَى في سياقِ الآيةِ ذِكرَ موسَى لِتَناسُبِ الآياتِ.

نأتي إلى الفاتحة ونقول: لا بُدَّ أن تكون آياتها متناسبةً في الطُّول، والأمرُ والحمدُ للهِ واضحٌ، وبهذا التقريرِ الَّذِي قرَّرناه يَتبيَّن أن البسملةَ ليستْ منَ الفاتحةِ، لكن بعض العلماءِ يقول: إنَّها من الفاتحةِ.

فما مَوقِفُ المأمومِ إذا صلَّى خلفَ إمامٍ يَجهَر بالبسملةِ؟ أيصلي خلفَه؟ أو يهجُر مَسجده؟

نقول: يصلي خلفَه ويَستمِع لقراءتِه؛ لأن هذه مسائلُ خلافيَّة بين علماءِ أهلِ السنَّة، يعني ليستْ خِلافًا بين سُنِّيِّينَ ومُبْتَدِعِينَ، بل بين أهلِ السنَّة، ومسائلُ الخلافِ بين أهلِ السنةِ إذا كان يَسُوغ فيها الاجتهادُ فإنه لا يُنكِر أحدٌ على أحدٍ، ولكن يُناقِشه بالتـي هي أحسنُ، فأصلي خلفَه ولا يُهِمُّنـي أن أصليَ خلفَه إذا لـم يكـن من موانعِ الصَّلاةِ خلفَه إلَّا هذه، فهذه ليستْ مانعًا.

وأذكر لكم نصَّ الإمامِ أحمـدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، ابنُ حنبلٍ إمام أهلِ السنَّة، مُحارِب البِدعة، يقول: إن الإنسان إذا صلَّى خلفَ إمامٍ يقنُت في صلاةِ الفجرِ فإنه يُتابِعُه، فيُصَلِّي خلفه ويبقى معه طول دُعائِه ويُؤَمِّن على دعائِه، مع أن القنـوتَ في صلاةِ الفجرِ على وجـهِ الدوامِ عند بعضِ علماءِ المسلمـينَ أهلِ السنَّة بِدعةٌ، ولكن هذه المسائلُ الخلافيةُ لا تَمنَع من الاقتداءِ؛ لأن الأمـةَ الإسلاميةَ أمةٌ واحدةٌ، والخلاف لا يُوجِب التفرُّقَ، بل ولا يُجيز التفرقَ بين المسلمينَ، وكم قلنا عن هذه المسألة، وهي التفرقُ: إن التفرقَ شرٌّ منَ الموافقةِ على ما ليسَ من معصيةِ اللهِ.

فصار الآن لو أن إنسانًا صلَّى خلف إمامٍ يجهرُ بقراءةِ البسملةِ فهذا جائزٌ، فأنا أرى أنَّها غير سُنة أن يجهرَ، وهو يرى أنَّها سُنة فجهرَ، فيجوز أن أصليَ معه، ولا يجوز أن أُفارِقَه من أجلِ هذا؛ لأن هذا مِمَّا اختلف النَّاسُ فيه.

نعود إلى الفاتحةِ ونذكرُ معانيَها على سبيلِ الإيجازِ والاختصارِ، ونسأل اللهَ تَعَالَى أن يُوَفِّقَنا للصوابِ:

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أن الله تَعَالَى كامِل الصفاتِ، كامل الإفضالِ والإنعامِ، فصفاتُه جَلَّ وَعَلَا كاملةٌ من جميعِ الوجوهِ، فحياته كاملة، وعلمه كاملٌ، وقُدرتُه كاملة، وسمعه كاملٌ، وبصره كامل، ورحمتُه كاملةٌ، وكل صفاتِه كاملة، فإنعامه كامل، وإحسانه تام، أسبغ على عباده النعمَ وأتمَّ عليهم النعمَ؛ نِعَم الدنيا ونعم الدين، استمع إلى قول الله تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فاللهُ تَعَالَى كامِل الصفاتِ، كامِل الإفضالِ والإحسانِ، فمن أجل ذلك استحقَّ أن يُحمَد، فنقولُ مُثْنِينَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خَالِقهم، ومالِكهم ومُدَبِّر أمورِهم، فهو الخالِق وحدَه، لا خالقَ إلَّا اللهُ، وهو المالِكُ وحدَه، لا مالِك إلَّا اللهُ، وهو المدبِّر للأمورِ وحدَه، لا مدبِّرَ للأمورِ إلَّا اللهُ.

وسأضرِب لكم مثلًا ضَرَبه الله لنا مَثَلًا، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾

[الحج:٧٣] فالَّذِي يخلق هو الله ربُّ العالمينَ، وخلقه ليسَ بصعبٍ عليه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإذا أراد اللهُ أن تقوم الخلائقُ لله فهي واحدة، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

فتصوَّر هذه القُدرة العظيمة، فكل الخلائِق بكلمةٍ واحدةٍ تقوم لله عَزَّوَجَلَّ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! الخلق يَنفرد به الربُّ، والمُلك يَنفرِد به الربُّ، فلا مالِكَ إِلَّا اللهُ، ونحن وإنْ ملكنا ما نَملِك من الأموالِ فليس مُلْكُنا عَامًّا، فالآن أنا أملِك مثلًا القلمَ، لكن مُلكي فيه ليس عامًّا، ولو أردتُ كَسرَه الآن ما يمكن أنْ أكسِره، فحرامٌ عليَّ؛ لأنَّه مُلك مقيَّد بشريعةٍ من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عن إضاعةِ المالِ[1].

فنحن نملِك الأشياءَ لكن مُلكًا قاصرًا، وملكًا محدودًا، فالملكُ العامُّ المُطلَق لله عَزَّوَجَلَّ، وتدبير الأمورِ للهِ، ولا نَملِك أن نُدبِّر الأمورَ، حتَّى أمورنا الخاصَّة ما نَملِكها، فأحيانًا يَعزِم الإنسان على شيءٍ عَزمًا أكيدًا، وربما إذا كان الشيء سَفَرًا يكون قد رَبَطَ مَتاعَه وحضَّر السيارةَ، وإذا به لا يسافر؛ إما بأمرٍ قَدَرِيٍّ لا يُمكِن دَفْعُه، وإما بانتقاضِ العزيمةِ؛ إما بأمرٍ قدري بأن تخرب السيارةُ، أو تنتقض العزيمةُ فيقول: سأُؤَجِّل السفرَ من الضحَى إلى آخِر النهارِ. فهذا يدلُّ على أن تدبيرَ الأمورِ بيد اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال...، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه، رقم (٥٩٣).

ولهذا سُئل أعرابيٌّ -والأعرابُ أحيانًا يكون عندهم ذكاءٌ-: بمَ عرفتَ ربَّك؟ قال: بِنَقْضِ العزائمِ وصَرْفِ الهِمَمِ.

سُبْحَانَ الله! أعرابيٌّ ما دَرَسَ علمَ المنطِق، ولا الفلسفةَ، ولا شيئًا، يقول: بنقض العزائم وصرف الهمم.

فأحيانًا يكون عند الإنسانِ عَزيمة أكيدةٌ، ويَعمَل العملَ لما يريدُ، وإذا بالعزيمةِ تنتقض بدون سببٍ، يعني بسبب يكونُ معقولًا، لكن بغيرِ سببٍ للتراجُع عن الشيءِ، فأحيانًا يريد أن يتجهَ إلى المدينةِ من طريق القصيم، وكان عازمًا على أن يتجهَ نحو المدينة من القصيم، وفي لحظةٍ تَنْصَرِفُ هِمَّتُه إلى أن يسافرَ عن طريق الطائِفِ، وهذا موجودٌ، فمَنِ الَّذي صرفَ همَّته بعد أن كان عازِمًا؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذن ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالِقِهم، ومالكهم، ومدبِّرِ أُمورهم.

والعالم: كلُّ مَن سِوَى الله، قالوا: مأخوذ من العلامةِ؛ لأن المخلوقات كلها عَلَم على الخالقِ جَلَّوَعَلَا. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

وهذا كثير، ومنه قول الشاعر[1]:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَـهُ ... أَمْ كَيْـفَ يَجْحَـدُهُ الجَاحِـدُ

(١) من شعر أبي العتاهية. الأغاني (٤/ ٣٩).

وَفِي كُـلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَى أَنَّـهُ واحِـدُ

ويدلُّ على أنَّه واحدٌ انتظامُ الخَلْقِ، فخلق السَّماواتِ والأرضِ مُنتظِم لا يَضْطَرِبُ ولا يتناقض، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]. فالخالقُ هو اللهُ وحدَه.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: ذي الرحمةِ الواسعةِ، وهو برحمتِه الواسعةِ يَرحَم من يشاء. وإتيانُ هذينِ الاسمينِ بعد قولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على أن هذه الربوبيَّة مَبنيَّة على الرحمةِ، وصدقَ الله أن ربوبيته لخلقِه مبنيَّة على الرحمةِ، لكن رحمة الله تكون عامَّةً لجميعِ الخلائقِ، وتكون خاصَّةً للمؤمنينَ، والعامَّة لجميعِ الخلقِ، فلو سَأَلَنا سائلٌ: هل الكافر مرحومٌ أم غير مرحوم؟

قلنا: أما بالعامة فمرحومٌ لأنَّ اللهَ يُهَيِّئُ له الرزقَ، فيُنبِت له الزرعَ، ويُدِرُّ له الضَّرعَ، ويفتح عليه من معلوماتِ الكونِ ما لم يكنْ معلومًا له من قبلُ، ويعطيه الصحةَ والعافيةَ وغير ذلك، وهذا رحمةٌ وليس انتقامًا.

وكذلك المؤمنُ يحصل له هذا، لكن المؤمن له رحمةٌ أُخرى خاصةٌ، وهي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يهديه صراطَه المستقيمَ، وهذا هو قوله تعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

فالحاصل أَنَّا نقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له رحمة عامة تشمل جميعَ الخلائقِ،

ورحمة خاصة بالمؤمنِ، ثانيًا الرحمة العامة بالنسبة للكافرِ تَنقطِع بموته، والخاصة بالنسبةِ للمؤمنِ -جَعَلَني اللهُ وإياكم منهم- تَبقى، حتَّى قَالَ اللهُ تَعَالَى للجنَّةِ: «**أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ**»[1]، وقال تَعَالَى: ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٧].

اللَّهُمَّ ارحمنا برحمتِك يا ربَّ العالمينَ، اللَّهُمَّ أحسِن عواقبنا في الأمورِ كلِّها، وأحسِنْ خاتمتنا، واجعلنا مع الَّذِينَ أنعمتَ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ، وحسُن أولئك رفيقًا.

ثم قال تَعَالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ولك في هذه الآيةِ أن تقولَ: (**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**)[2]، وأن تقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والقراءتانِ مجتمعتينِ لهما فائدةٌ أكثرُ من دلالةِ كلِّ لفظٍ مِنهما على معناهُ الخاصِّ، فمَلِك مأخوذة من المُلك والسُّلطان والعَظَمة، ومالِك مأخوذةٌ من التصرُّف، كما تقول: مالِك الدار، أي الَّذِي يَتصَرَّف فيها، فإذا جمعتَ القراءتينِ إلى بعض نَتَجَ من ذلك أن الله تَعَالَى مَلِكٌ ومالِك، فقد جمع عَزَّوَجَلَّ بينَ الأمرينِ؛ أَنَّه ملِك وأنه مالِك، وكم من مَلِكٍ ليس بمالِكٍ، وكم من مالِكٍ ليس بمَلِكٍ.

ويُقال: إن بريطانيا لهم مَلِكة ولكنها ليستْ مالكةً، فليس لها من الأمرِ شيءٌ إلَّا مجرَّد اللَّقَب، أما مالِكٌ وليسَ بمَلِك فهذا كثيرٌ، فليس كلُّ مَن يَملِكُ ثيابَه مَلِكًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، رقم (٧٤٤٩)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٤٦).

لكنَّ الربَّ جَلَّوَعَلَا مَلِكٌ مالِكٌ.

وهل للإنسانِ أن يقرأ هذه الآية: (ملك يوم الدين) في نفسِ الصَّلاة؟

الجواب: نعم، له أن يَقرَأَها في نفس الصَّلاة؛ لأنها قراءةٌ ثابتةٌ عن النبي ﷺ، بل أقول: إنَّه ينبغي أن يقرأَ أحيانًا بِـ(مَلِكِ) وأحيانا بـ(مالكِ) ليأتيَ بالسُّنتين جميعًا، فكلاهما سُنة عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

قوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يعني يوم الجزاء، وذلك يوم القِيامَة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]. إذن ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، وهو يوم القِيامَةِ.

واعلمْ أن الدينَ تارةً يُراد به العملُ، وتارةً يراد به الجـزاءُ على العملِ، فمِن إرادة العملِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] -(ولِيَ) لازِمٌ أنْ تُحرِّكَ اللامَ بالكسرِ، ولا تصح القراءة (ولْيَ دين)، فإن هذا تحريف، بل قل: «ولِيَ دين»؛ لأن لام الجرِّ يجب كسرُها، ومما يحصل به الغلط بمثل ذلك قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، بعضُ النَّاسِ يكسِر اللامَ فيقول: «ثم لِيقضوا تفثهم ولِيوفوا نذورهم» وهذا غلطٌ؛ لأنك لو كسرتها صارت لامَ التعليلِ، وإذا سكَّنتها صارت لامَ الأمرِ، فكثيرٌ من القرَّاء نسمعهم يأتون بالواحدةِ في موضع الأخرى، فيجب التنبُّه لهذا؛ أن اللام الَّتي تُسكَّن بعد الواوِ وثُمَّ والفاءِ إنَّما هي لامُ الأمرِ، أما لامُ التعليلِ فلا بُدَّ من كَسرِها على كل حالٍ.

إذن قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاءِ، وهو يوم القِيَامَة.

فإذا قلتَ: أليس الله تَعَالَى مَلِكًا ومالكًا للدنيا والآخرةِ؟

فالجواب: بلى، ولكن ملكه لا يَظهَر تمامًا على وجهٍ لا إنكارَ فيه إلَّا يومَ القِيَامَة، ففي الدنيا مَن أنكـرَ أن يكون اللهُ مَلِكًا أو أن يكون مالكًا، أو أن يكون موجـودًا -نسأل اللهَ العافيةَ- لكن في الآخرةِ لا يمكِن الإنكار؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن نفسِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فلا يجيب أحد بشيءٍ، فيقول هو عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

ففي ذلك اليوم يَظهرُ مَلَكُوته ومُلكه عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وإذا قرأتَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنك تُؤمنُ بأن هناك بَعْثًا ويومًا يُجازَى فيه العامِلُ بعمله؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هذه الجملةُ فيها حصرٌ، أي تَخصيص شيءٍ بشيءٍ.

وإعراب (إيا) مفعولٌ مقدَّم لـ(نعبد)، و(إياك نستعين) كذلك مفعولٌ مقدَّم لـ(نعبد)، والمعمولُ بالنسبةِ لعاملِه متأخِر، فإذا قُدِّم دلَّ على الحصرِ.

إذن معنى قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أننا لا نعبدُ إلَّا إياكَ، وهذا عقيدةُ كل مؤمنٍ، وعملُ كل مؤمنٍ، لا يعبد إلَّا اللهَ وحدَه، فمَن عبد غيرَ اللهِ فهو مُشرِك كافِر، قال الله في حقِّه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢]، حتَّى لو صلَّى، وصامَ، وتصدَّقَ، وحَجَّ، وهو يعبدُ غيرَ اللهِ

من القبورِ أوِ الأشجارِ أو الكواكبِ فإنه كافِر مُخَلَّدٌ في النارِ، والعياذُ باللهِ.

اللَّهُمَّ إنا نعوذُ بك أن نُشرِكَ بك ونحن نعلمُ، ونستغفرك لما لا نَعلَمُ.

إذن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بمعنى لا نعبد إلَّا إياك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نَستعين إلَّا إيَّاك. والاستعانةُ طلبُ العونِ.

فالذي أهلٌ لأنْ يُطلبَ منه العونُ حَقًّا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أما الاستعانةُ بغيرِ اللهِ فمِنها ما هو شِرك، ومنها ما هو جائزٌ، فإذا استعنتَ مخلوقًا حيًّا ليُعِينَكَ على شيءٍ يَقدِر عليه فهذا جائِز، فلو قلتَ لشخصٍ: أعِنِّي من فَضلِك على حملِ هذا المتاعِ، فإن هذا يجوز. وإذا استعنتَ مَخلوقًا ميتًا فهذا شِرك؛ لأن الميتَ لا يَنفعُك أبدًا مهما كان. وإذا استعنتَ مَخلوقًا غائبًا، تعتقد أن له قوَّةً سِرِّيَّةً يُعِين بها مَنِ استعان، ولو كان بعيدًا، فهذا شِرك أيضًا.

ومع هذا لا استعانةَ حقًّا إلَّا باللهِ عَزَّوَجَلَّ، حتَّى لوِ استعنتَ بالمخلوقِ فإن لم تؤمنْ بقلبِكَ أنك مُستعين باللهِ فإن أَمْرَكَ لا يُيَسَّرُ؛ لأن هذا المخلوقَ إن لم يشأِ اللهُ أن يُعِينَك فلن يُعِينَكَ، فاستعانتُكَ بمخلوقٍ تَتضمَّن استعانَتَكَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ اهدنا أي: دُلَّنا ووَفِّقْنا، فالهدايةُ هنا المطلوبةُ هي هدايةُ الدلالةِ، وهدايةُ التوفيقِ، يعني الهدايتينِ، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ولم يقلِ: اهدنا إلى الصراطِ المستقيمِ؛ لتشملَ الهدايتينِ؛ هداية الدلالةِ وهي العلمُ، وهداية التوفيقِ وهي العملُ.

وعليه فالهدايةُ نوعانِ: هدايةُ دلالةٍ، وهذه شاملة لجميعِ الخلقِ، فكلُّ الخلقِ قد هداهمُ اللهُ هدايةَ دلالةٍ، وهداية توفيقٍ، وهي خاصَّة بمَن وُفِّقَ للعملِ.

فقول الله تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، المراد به هدايةُ الدلالـةِ، وليستْ هدايـة التوفيقِ؛ لقولِـه: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

وقول الله تَعَالَى للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] هداية دلالة، إن الرَّسُول ﷺ لا يستطيعُ أن يهديَ أحدًا هداية توفيقٍ أبدًا، ولو كان يستطيع لَهَدَى عمَّه أبا طالبٍ، لكنه لم يستطعْ، فقد حضر عمَّه أبا طالبٍ وهو في سِياق الموتِ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّـى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُـوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَـى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[١].

وعمه أبو طالبٍ له فضلٌ كبيرٌ على الإسلامِ؛ لأنَّه دافعَ عن النبيِّ ﷺ ونصره، وقَضاياه معَه مشهورةٌ، حتَّى كان يقول[٢]:

لقد علِمـوا أنَّ ابنَنـا لا مُكَـذَّبٌ ... لَدَيْنَا ولا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الأباطِـلِ

ويعني بـ(ابننا) مُحَمَّدًا ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

ويقول(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارِ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

اللهمَّ ربَّنا اهدِنا الصراطَ المستقيمَ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] المرادُ بها هدايةُ التوفيقِ، يعني لا تَستطيع يا مُحَمَّدُ أن تهديَ مَن أحببتَ هداية توفيقٍ.

وهداية الدلالةِ والإرشادِ ذكرت أنَّها عامَّة، ودليلُ عُمومِها قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢] أي الدلالة على الخيرِ، فأوجبَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ على نفسِه -وله أن يُوجِبَ على نفسِه ما شاءَ- الهدَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وفعلًا هذا الَّذِي حصلَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فالله تَعَالَى بيَّن ووضَّح، ولكن التوفيق بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. اللَّهُمَّ اهدنا صراطَكَ المستقيمَ.

وأنت يا أخي تقرأ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في اليوم والليلةِ سبعَ عَشْرةَ مرةً على الأقلِّ، فماذا يَخطُر بقلبِك إذا قلتَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؟

أكثر الأحيان يَغفُل الإنسانُ عن هذا المعنى، فيَقرؤها وكأنها حروفٌ عابرةٌ،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

وهذا نقصٌ كبيرٌ في القراءةِ، فاستحضِرْ إذا قلتَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أنك تسأل ربَّك شيئين: أن يُعلِّمَك وأن يُوَفِّقَك للعمل، فاستحضِر هذا يا أخي حتَّى يكونَ الدعاءُ دعاءً حقيقيًّا، دعاءَ المضطرِّ، لا شيئًا يمرُّ على اللسانِ.

وأقول لكم قولي هذا وأنا أشدُّكم تقصيرًا، إلَّا أن يشاء اللهُ، ولكن يجب أن نَنْتَبِهَ، فإذا قرأتَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فاشعرْ بأنك تسأل اللهَ العلمَ والعملَ.

قال: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ولا يكون الطريقُ صِراطًا إلَّا إذا جمع ثلاثةَ أشياءَ: السَّعَة والاستقامة والسُّهولة، والسَّعَةُ ضِدُّها الضِّيق، والاستقامةُ ضِدُّها الاعوجاجُ، والاعوجاجُ نوعانِ: إما انحراف يَمينًا وشمالًا، وإما هُبُوطًا وعُلُوًّا، فإذا كان الطريق مَلَفَّاتٍ فلا يُسَمَّى صِراطًا، وإذا كان فيه ارتفاعاتٌ ونزولٌ فلا يُسَمَّى صِراطًا، وإذا كان صعبًا وفيه رملٌ خفيفٌ دقيقٌ إذا وَطِئْتَ عليه غاصَتْ رِجلُك إلى نصفِ الساقِ فإنه لا يكون صِراطًا.

وقوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ من باب التوكيدِ، المستقيم يعني الَّذِي لا اعوجاجَ فيه؛ لا صُعودًا ولا نُزولًا، ولا انحرافا يمينًا وشمالًا، فهو مستقيمٌ.

ثُمَّ بيَّن سالِكَ هـذا الطريقِ فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ تسـأل اللهَ أن يَهدِيَك هذا الصراطَ ويُوفِّقكَ لدخولِه وسُلوكِه.

والذين أنعمَ عليهم أربعةُ أصنافٍ منَ البشَر، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩].

فهل أنت تستحضِر إذا قلتَ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هـؤُلاءِ الأصنافَ الأربعةَ؟ والواقعُ أنه تستولي على القلوبِ الغفلةُ فلا يُستحضَر معنى ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولكن أرجو منكم أن تَستحضِروا هذا المعنى؛ أن تَستحضروا أنكم إذا قلتم: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنكم تطلبون طريقَ هَؤُلاءِ الأخيارِ؛ النبيِّين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحينَ، وهم أربعةُ أصنافٍ.

قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أثبتَ أوَّلًا ثمَّ نفَى ثانيًا، فمَنِ المغضوبُ عليهم ومَنِ الضالُّونَ؟

نُعطيكم فيهم ضابطًا: المغضوبُ عليهم: كلُّ مَن علِم الحقَّ فخَالَفَهُ، والضالُّ: كلُّ مَن خالَفَ الحقَّ عن غيرِ عمدٍ؛ أي: عن جهلٍ.

والمغضوبُ عليهم أشدُّ؛ لأنهم عَلِموا الحقَّ ولم يَعمَلوا به، أما الآخرونَ فإنهم جاهلونَ، جهِلوا الحقَّ، فالأولون فاتهم العلمُ، والآخرونَ فاتهم العملُ، والَّذِينَ أنعم اللهُ عليهم جَمَعوا بين العلمِ والعملِ.

وهذه أصنافُ النَّاسِ: عالمٌ عاملٌ، وعالمٌ معاندٌ غير عاملٍ، وجاهلٌ. وقد جاء في الحديثِ أن المغضوبَ عليهم هم اليهودُ، وأن الضالِّين هم النَّصَارَى[1]، وهذا الوصفُ يَنطبِق على النَّصَارَى قبل بَعْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، أما بعد بَعثةِ الرَّسُولِ ﷺ فهم مغضوبٌ عليهم؛ لأن إنكارَ النَّصَارَى رسالةَ مُحَمَّدٍ كإنكارِ اليهودِ رسالةَ عِيسَى ومُحَمَّد.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢).

إذن النَّصَارَى الآن لا يُمكِن بعد بعثةِ الرَّسُـول أن يُوصَفوا بأنهم ضالُّون، والحديث إنْ صحَّ فالمراد النَّصَارَى قبلَ البعثةِ، أما بعدَ البعثةِ فهم مغضوبٌ عليهم لأنهم علِموا الحقَّ وعاندوا فلم يَعمَلوا به، فصار المغضوبُ عليهم يشملون بعد بعثةِ الرَّسُولِ ﷺ اليهودَ والنَّصَارَى.

وأنا أقول لكم أيُّها الإخوة: صدق الله، اليهودُ والنَّصَارَى بعضهم أولياء بعض، فلا يمكن أن تَحيدَ عن هذا أبدًا، ولا تظنَّ خلافَه أبدًا؛ لأنَّه قول الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [المائدة:٥١]، بعضهم أولياء بعضٍ ضد المؤمنينَ، وهم فيما بينهم أيضًا أعداء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة:١١٣]، لكنهم عَدوَّان ضد عدو ثالثٍ لهما وهم المسلمونَ.

فلا تظنَّ الآن أن النَّصَارَى في شقٍّ، واليهود في شقٍّ بالنسبة لعداوةِ المسلمينَ أبدًا، فهم سواءٌ، ولا يَخفَى علينا جميعًا ما حدثَ من الحروبِ الصَّلِيبِيَّة في العُصُور الوسطَى بين النَّصَارَى والمسلمينَ، فهي حروبٌ طاحنةٌ لا تُنسَى، حتَّى تَعرِفوا -بارك الله فيكم- أن أعداءَكم النَّصَارَى كأعدائكم اليهود تمامًا، لكن النَّصَارَى لا يُصرِّحون، ولا يُظهِرون بما يُظهِر الغاصبونَ، واليهودُ -عليهم وعلى النَّصَارَى لعنةُ اللهِ إلى يوم القِيَامَةِ- غاصبونَ، كما هو معروف، يَدَّعونَ أن أرض فِلَسْطِينَ لهم، ويقولون: إن موسى يقـول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة:٢١]، ويقولون: الأرضُ أرضُنا، ويَستدِلُّونَ بالآيةِ.

وجوابنا على هذا سهلٌ؛ أن الله تَعَالَى كَتبَها لبنـي إسرائيلَ حين كانوا مؤمنينَ

أتباعًا لموسَى، وحين كان على الأرضِ المقدَّسة العمالِقَةُ الوَثَنِيُّونَ، ولا شَكَّ أن أحقَّ النَّاس في ذلك الوقتِ أن يَرِث الأرضَ اليهودُ؛ لأنهم مؤمنونَ، ولقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

ولذلك لا يَنبغي إطلاقًا أن نحاولَ أن نَرِثَ أرضَ الكفارِ إلَّا إذا كنا صالحينَ، سواء كانتِ الأرضُ لنا أوَّلًا أو ليستْ لنا، فإرثُ أرضِ اللهِ بلا صلاحٍ لا يمكِن؛ لأن الله كتبَ في الزَّبور أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ. ولذلك لن نحاولَ الانتصارَ التامَّ بالحـقِّ على اليهودِ أو غير اليهود إلَّا إذا انتصرنا على أنفسنا، وأقمـنا دينَ اللهِ وشريعةَ اللهِ في عبادِ اللهِ، فحينئذٍ يَتَوَجَّهُ النصرُ.

وفي السورة الكريمة قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ وقال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: غير الَّذِينَ غضِبتَ عليهم، فالنعمةُ أضافها الله إلى نفسِه؛ لأنَّه هو المنعِم حقًّا، فهو المنعِمُ بالهدايةِ حقًّا، وهو المنعِم بالتوفيقِ حَقًّا، وفي الغضبِ قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾، ولم يقل: غير الَّذِين غضِبتَ؛ لأن الغضبَ على أعداءِ اللهِ يكون من اللهِ ومن أولياءِ اللهِ.

ولذلك يجب علينا أن نَغضَبَ على كل مَن غضِب الله عليه، فهذا من البلاغةِ العظيمةِ؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ أضاف النعمة إلى الله لأنَّه المنعم، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لأن الغضبَ لا يَختصُّ بالله، بل الغضب منَ اللهِ ومن أولياء الله على أعداءِ اللهِ.

قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي التائهينَ، الَّذِينَ عبدوا الله تَعَالَى على جهلٍ وضلالٍ.

فهذه كلماتٌ يسيرةٌ بالنسبةِ للفاتحةِ، وهي أعظمُ وأعظمُ وأعظمُ من أن يحيطَ الخلقُ بمعانيها تصريحًا أو تلميحًا، إشارةً أو عبارةً، ولهذا كتب فيها ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كِتابا مُسْتَقِلًّا طويلًا، وذلك في (مَدارج السالكين) رَحمهُ اللهُ وغَفَر لهُ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الرابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، أرسَلَه اللهُ تعالى بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأَدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمةَ، وجاهَدَ في الله حق جِهادِه بنفسه ومالِه وعِلمه ودَعْوَتِه وتَرْبيتِه، فصلى اللهُ وسَلَّمَ عليه وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

إِنَّ خيرَ الكلامِ كلامُ الله، وخيرَ الهديِ هَدْيُ محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ولم ينزل مِنَ السماء قَطُّ كتابٌ أشرفُ مِن هذا القرآن الذي بين أيدينا، نسأل اللهَ تعالى أَنْ يجعلَه قائدًا لنا ولكم إلى جنات النعيم.

نزل القرآن الكريم لنتدبَّرَ آياتِه، ولِنَتَّعِظَ بها، ولما نرجو مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الثواب، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩] إن هذا القرآنَ مبارَك في ثوابه، فالحرفُ منه بحَسَنَةٍ، والحَسَنَةُ بعَشْرِ حسنات.

وإنه مبارَك في آثارِه؛ فقَدْ ملكت به هذه الأُمة مشارِقَ الأرض ومغارِبَها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢] ففتَحَتِ الأُمة الإسلامية حين كَانَتْ متمسكة به مشارِقَ الأرض ومغارِبَها، وانْهَدَمَتْ به عُروش كِسرى وقَيْصَرَ وغيرِهم.

إنه مبارَك في تأثيره في قلبِ الإنسان، وفي سُلوكه وفي مَنهجه، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لرسوله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وقالت

عائشةُ: كَانَ خُلُقُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ القُرْآنَ[1]. إذن فمَن كان خُلقه القرآن فهو على خُلق عظيم.

إن له أثرًا في القَلب، فهو يُلِين القلبَ، ويُوجب تَوَجُّه القَلب إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي تكلَّم به، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، هذا الجَبل وَهُوَ حصًى قاسٍ يخشع ويَتَصَدَّعُ مِن خَشية الله، فهل الذي يُؤَثِّرُ في هذا الجَبل يُؤَثِّرُ في مُضْغَةٍ في جسم الإنسان؟ بالتأكيد نعم، ولكن مع الأسفِ فإن كثيرًا منا يقرؤه قراءةً لَفْظِيَّةً فقط، ولذلك لا تتأثر به القُلوب لإعراضها عن مَعَانيه العظيمة، وعما يشتمل عليه مِنَ التربية العظيمة، فلذلك لا تتأثر به القلوب، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى في بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤] فلا يليقُ بنا أَنْ نَكُونَ مِثل بني إسرائيل، واللهِ لا يَلِيقُ.

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُلَيِّنَ قلوبَنا لِذِكْرِه.

فيَجِبُ أَنْ يؤثِّر القرآنُ في قلوبِنا؛ لِأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حقيقةً، تكلم به حقيقةً، وسمعه جبريلُ مِن رب العالمين حقيقةً، ونَزَلَ به على قلب النبي ﷺ، لَيْسَ على أُذُنِهِ يسمع فلا يَعِي، بل على قلبه ليكونَ مِنَ المنذرين، ونزل بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣] أي: صَيَّرْنَاه بِلُغَةِ العرب ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] أي لعلكم تعقلون مَعَانِيَهُ وتفهمونها.

وقد أشار اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى هذا المَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/ ١٤٨، رقم ٢٤٦٠١).

ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩] أي يتفهَّمُـوها، ويعقِلُوها، ويعرفـوها وبعد ذلك ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩] لِيَتَّعِظَ أصحابُ العُقول بها فهموا مِن كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لفظه ومعناه.

تفسيرُ سُورة الفاتحة:

ولو سُئِلَ أحدٌ عن معنى آية لا نكادُ نجد إجابةً صحيحة، فسُورة الفاتحة كلنا نقرؤها، وهي أعظمُ سُورة في كتاب الله، ولذلك جَعَلَ اللهُ قِراءتها في الصَّلَاة رُكنًا لا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إلا بها، فَقَدْ سَأَلْنَا عن معنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فوجدنا الإجابة إجابةً مضطَرِبَةً. ومعنى الآية: كُلُّ المحامد لله رب العالمين، وَهُوَ يُحمد على كمال صفاته وسُلطانه وقُدرته وحِكمته ورحمته، وعلى ما له مِنَ الإنعام والإفضال على العِباد، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[١]، ومعنى «يَأْكُلَ الأَكْلَةَ» يأكل الطعام، ومعنى «يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ» لَيْسَ الماء فقط، لكن أيُّ شَربة، فكل شيء تشربُه مِثل الحَليب والعَصير والمَرَق فاحْمَدِ اللهَ عليه.

أما قَوْلُه تَعَالَـى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالِـق العالَمين، مالِك العالَمين، مُدَبِّرُ العالمين، فهو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ والنجومَ والشمسَ والليلَ والإنسان، فكل شيء اللهُ خالقُه، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]. والعالَـمون: كُلُّ مَا سِوَى اللهِ فهو عالَم، وسُمُّوا عالَمين لأنهم عَلَمٌ على خالِقِهم عَزَّوَجَلَّ أي دَلِيل، فالعَلَمُ: الدَّلِيلُ، كما قالت الخَنْسَاءُ في أَخِيها صَخْرٍ[٢]:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٣/ ٢٢٤).

وَإِنَّ صَخْرًا لتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

وأما قَوْلُه تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهُما اسمان مِن أسماء الله يَدُلَّانِ على الرحمة، فالرحمنُ يَدُلُّ على سَعَةِ الرحمة، والرحيم يدُلُّ على وجودِ الرحمة.

قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: مالِك يومِ القيامة، فيومُ الدِّين يعني يوم القيامة؛ لأن الدِّين هو الجزاء.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ اللهُ مالِكَ الدنيا والدِّين والآخرة؟ قلنا: بلى، ولكن ذَكر اللهُ ذلك؛ لأن يومَ الدِّينِ لا يوجد مَلِكٌ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ. ونَجِدُ في الدنيا مُلُوكًا، ومع ذلك مُلكهم قاصِر، فمَثلًا: أنا أملِك هذا القَلَمَ، ولكن تملُّكي له قاصِر؛ فأنا لا أستطيعُ أن أتصرفَ فيه كما شئتُ، ولكن حَسَبَ ما وَرَدَ في الشرع.

وفي الدنيا مِلك عامٌّ ومِلك خاصٌّ، أَمَّا فِي الآخِرَةِ فلا مالِك إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهرون على سَطح الأرض لا يُكِنُّهُم حَجَر ولا شَجَر ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فهذه هي الحِكمة في أَنَّ اللهَ قال ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يقول: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إياكَ، ولا نَسْتَعِينُ إلا إياكَ، هذا المعنى، تُقِرُّ هذا إقرارًا بِقَلْبِكَ عن يقين.

فَإِنْ قَالَ قائلٌ: هل يصح هذا الكلام مِن شخصٍ يَعْبُدُ قبرًا؟

قلنا: هذا كَذِبٌ، كيف تقول: لَا نَعْبُد إِلَّا إياكَ، وأنت تعبد قبرًا؟

العِبَادَةُ لَا تَكُونُ إلا لله، ولهذا سُئل النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عَنِ

الرَّجُل يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»(١). لأن هذا الركوع لا يصح إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ، فلَا عِبادَةَ إلَّا للهِ وَحْدَهُ.

لو أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ قال: أنا أعبدُ هذا الشيخَ الوَلِيَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقَرِّبَنِي إلى الله، أنا ذُنوبي عظيمة وهذا وَلِيٌّ. فيَعْبُدُه لِيُقَرِّبَهُ إلى الله، نقول: هذا لا يَزِيدُكَ مِنَ اللهِ إلا بُعدًا. قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ يعني يقولون: ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وهذا لا يزيدُهم إلا بُعدًا.

إن النبي ﷺ سَدَّ كُلَّ طريقٍ يُوصل إلى الشرك، ولو كان بَعِيدًا، قال رَجُل للرسول ﷺ: ما شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فقال: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا»(٢)، فالذي يقول ذلك هو النبيُّ إنكارًا لهذا الرَّجل لأنه قَرَن مشيئة الرَّسولِ ﷺ بمشيئة الله.

أما إذَا كَانَ الإنسانُ تحت إمرة رَجُل والرَّجل هو الذي يقول: افعل، أو: لا تفعل، فيقول: ما شَاءَ الله ثُمَّ شئت، أو يقول: إن شئتَ، فلا حَرَجَ في قوله هذا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ سُئل: أَنَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الإِبْلِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قِيلَ: أَنَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الغَنَمِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ»(٣). فوَكَل الأمرَ إلى مشيئته وَحْدَهُ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الاستئذان، باب المصافحة، رقم (٢٧٢٨)، وقال: حسن. وابن ماجه: كتاب الأدب، باب المصافحة، رقم (٣٧٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧٤، رقم ٧٨٣)، والطبراني (١٢/ ٢٤٤، رقم ١٣٠٠٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٣).

ولهذا إذا أكلتَ لحمَ إبلٍ انتقضَ وضوؤك، ووجَب عليك أن تتوضَّأَ، فإنْ صليتَ بلا وضوء فصلاتُك باطلة، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَمَرَ بالوضوء مِن لحوم الإبل، وجعل الوضوءَ مِن لُحوم الغَنم عائدًا إلى مشيئة الإنسان.

ونقول لمن يطوف على قَبر شخص يَدَّعِي أنه وليٌّ، ويقول: إنه يطوف تعظيمًا لهذا الوليِّ ورجاءً لشفاعته عند الله، نقول له: أَيُمكن أَنْ يَكُونَ هذا ممن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ لا والله، لا يقوله، ولو قاله لقلنا: كذبتَ أنت لا تستعين بالله، ولا تعبد الله.

أظن أنه يوجد في بلاد المسلمين قُبور يُدَّعَى أنها قبور أولياء، والله أعلمُ بما تحت التراب، لا نقول شيئًا فيمن تحت التراب، لكننا نقول شيئًا فيمن على ظَهر الأرض، نقول لهم: هذا الوليُّ لا ينفعُك، ولو كان حيًّا وقلتَ له: ادْعُ اللهَ لي قلنا: لا بأسَ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مَيِّتًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يدعوَ اللهَ لك؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ**»[1] فلا يمكن هذا.

ولو قال: أنا أطوف حولَ قبرِه مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقَرِّبَنِي إلى الله، لا مِنْ أَجْلِ أَنْ يدعوَ لي. قلنا: هذا محرَّم لا يجوز، لا طوافَ حول أي بناءٍ في الأرض إلا حول بناءٍ واحد وَهُوَ الكعبة.

ولو أَنَّ رَجُلًا أتى إلى قَبر يَدَّعي أنه قبر وليٍّ وقال: يا سيدي، يا وليَّ الله، إِنَّ عليَّ دَيْنًا قَدْرُهُ مئةُ ألفٍ فأَعِنّي على قضائه. فهذا شِرك، وَهُوَ غير صادِق إذا قرأ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان مِنَ الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

لقد أوصى النبيُّ ﷺ ابنَ عَمِّهِ وَهُـوَ عبدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقال له: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»(١).

قال: «**اعْلَمْ**» بمعنى قولنا: انتبه: «**أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**» فإذا أعطاك إنسان ألف ريالٍ، فهذا نفعٌ، لكن اللهَ هُوَ الَّذِي كتب على هذا الرَّجُل أَنْ يُعْطِيَكَ ألفَ ريال، ولذلك إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاسْتَعِنْ بالله.

في قِصة الهِجرة خرج النبي ﷺ مِنْ مكةَ أَحَبِّ البلاد إليه، لأن المشركين حالُوا بَيْنَهُ وبَيْنَ تبليغِ الرِّسالة، وآذَوْهُ أَشَدَّ الإيذاء -صلوات الله وسلامه عليه- خرج هو وأبو بكر فقط حتى إِنَّ أبا بكر لما استأذنه أَنْ يُهاجر مع الناس قال له: «**انْتَظِرْ**»، وهذه إشارة مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إلى أَنَّ أبا بكرٍ سيكون صاحِبَهُ في هِجرته، خرج النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ هو وأبو بكر مُخْتَفِيًا مِن مكةَ، وبقـي في غارِ ثَوْرٍ ثلاثةَ أيام، والمشركون اجتهدوا أعظمَ اجتهادٍ في الحُصول عليهما، وقالوا: مَن جاء بهما أو دَلَّ عليهما فله مئة ناقة. ومئة ناقة ذاكَ الوقتَ لها شأنٌ عظيم، فكانوا يَقِفُون على الغار ويقول أبو بكر لِلنَّبِيِّ ﷺ: يا رَسُولَ اللهِ لَوْ نظر أحدُهم إلى قدميه لَأَبْصَرَنا، لا يوجد

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب، رقم (٢٥١٦).

أي مانعٍ أبدًا، لا عُشُّ عَنكبوت، ولا شجرة، ولا طَيْرٌ، ولا غيره، لو نظر أحدهم إلى قدميه لَأَبْصَرَنا، فقال له النبي ﷺ وَهُوَ واثِقٌ: «لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللهَ مَعَنَا، فَمَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»(١). فما ظنُّكم باثنين اللهُ ثالثهما؟ إنه لا أحدَ يستطيع أَنْ يَضُرَّهُمَا، مَن كان الله معه فهو منصور، ولم تستطع قـريشٌ أَنْ يَعْثُروا عليهما في هذا الغار.

بعض المؤرخين يقولون: إن هناك عَنكبوتًا بَنَت عليهما عُشًّا، وإن هذا العُشَّ ظَلَّل عليهما. وبعضهم يقول: كان على فَمِ الغارِ شَجَرة لها أغصانٌ، وقَيَّضَ اللهُ حمامةً على هذه الأغصان تُغَرِّدُ، فقال المشركون: لا يوجد أحدٌ، الحمامةُ لا تبقى على هذه الشجرة تُغَرِّدُ وحَوْلَها أُناس. كل هذا كذبٌ؛ لأنه لَوْ كَانَ الأمرُ كذلك لم يكن هذا آية، كل أُناس يختبئون بغارٍ ويكون عليهم عُشُّ عَنكبوت وطائرٌ يُغَرِّدُ يعرف الناس أنه لَيْسَ فيه أحدٌ، ولكن الذي حَجَبَ أعيُنهم عن رؤية الرسول وصاحبِه اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا».

وهذا نظير قول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين خرج مِن مِصر متوجهًا إلى بلاد الشام مُشَرِّقًا، وصل إلى البحر الأحمـر المسمى بَحْرَ القُلْزُمِ فيما سَبَق، وإذا فـرعونُ بجُنوده وحُشوده وراءهم، والبحرُ أمامهم، فقال بنـو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أكدوا هذا بـ(إنَّ) و(اللام)، البحر أمامنا وفرعون وجنودُه خَلفنا، أَيْقَنُوا بالموت، فقال موسى قول المطمئن الواثق: ﴿كَلَّآ﴾، يعنـي لن نُدْرَكَ، ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١]. الله أكبر! اللَّهُمَّ كن معنا يا رب العالمين، فأوحى اللهُ إليه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾، عصا موسى تَضْرِب البَحر! العصا التي طُولها مِترٌ ونِصف أو مِتران

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النُّبُوَّة في الإسلام، رقم (٣٦١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرحل، رقم (٢٠٠٩).

تَضْرِبُ البَحر الذي عرضُه بالأميال، فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر إلى اثنتي عَشْرَةَ طريقًا لبني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل اثنا عَشَرَ سِبْطًا، فانفلقَ اثني عَشَرَ طريقًا في لحظة، وصار الماء كالجبال، تعالى الله عُلُوًّا كبيرًا، أمسكه الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، والذي يُمسك السماء أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلَّا بإذنه، فصارت المياهُ الجاريةُ كالجِبال، وكان كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم، فقاع البحر الذي هو مِن طِين صار يَبَسًا في الحال، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧] ولم يَقُلْ: يابِسًا. والفَرْقُ بين (يَبَس) و(يابِس) معلومٌ عند أهل اللغة العربية، فيَبَس على الثبوت والاستمرار والاستقرار يعني في الحال، صار كأن لم يَجْرِ عليه ماءٌ، بِخِلَافِ يابِس، فاليابِسُ قد يُقال للشيء النَّدِيِّ، لكن هذا يَبَسٌ، ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ مِن فرعونَ ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧] مِنَ الماء أيضًا.

فلما انتهى موسى وقومُه خارجين مِنَ البحر ودخل فرعون وقومُه في البحر أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ البحرَ فانطبَق على فرعونَ وقومِه، فلما أدركَ فرعونَ الغرقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٩٠]، فتأمل القرآن الكريم، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ما قال: آمنتُ بالله. لِيَشْهَدَ أَنَّ بنـي إسرائيل كانوا على حَقٍّ، وكان فيما سبـق يُطاردهم، ويُقَتِّلُ أبناءهم، وهذا في غاية الذُّلِّ أنَّ هذا الجبار العَلِيَّ المتكـبِّرَ جَعَل نفسه خَلف بنـي إسرائيلَ، فَقِيلَ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١-٩٢] فقط لا بِرُوحِك، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢] أي علامة على انتهائك، فينظرون إليك ليعلموا أنك قد هَلَكْتَ، وَلَيْسَ معنى الآية أنك تكون للعالمين آية.

بنو إسرائيلَ قد أَرْعَبَهُم فرعونُ أَشَدَّ الرُّعب، ولو لم يَرَوْا جِسمه بَعْدَ الغَرق لكان في رؤوسهم كل احتمالٍ، يقولون: ربما ما غَرِقَ، ربما مشَى به الماء على الساحل، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نطمئنَّ. لكن رب العالمين أرحمُ الراحمين عَزَّوَجَلَّ أبقى هذا الجسد ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بأي شيء ﴿بِبَدَنِكَ﴾ وَلَيْسَ برُوحِك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يعني لبني إسرائيلَ فقط، وَلَيْسَ لكل الناسِ، كما ذكرنا، فهُم لما رأوه واطمأنوا أَنَّ هذا هو الجبَّار العَنيد اطمأنُّوا، وذَهَب مع مَن ذَهَب مِن قومه في قَعْرِ البَحر، أو أكله الحُوت، أو مَا أَشْبَهَ ذلك، هذا ما دَلَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ.

قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] يعني: دُلَّنا على الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، هذه واحدة، ثانيًا: وَفِّقْنَا لاتِّباعه؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كل هدايةٍ تَنْفَعُ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:١٧] ثم قال بَعده: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، فمعنى ﴿ ٱهْدِنَا﴾ تسأل اللهَ أَنْ يُعَلِّمَك ويَدُلَّك على الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وأيضًا يُوفقك لسُلوكه، فكَم مِن إنسان عَلِم ولم يَعمل، وكَم مِن إنسانٍ عَمِل لكن على غير هُدًى، وعلى غيرِ عِلم، وكلاهما مخالفٌ للصراط المستقيم.

إذن ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني دُلَّنا عليه، ووَفِّقْنَا لِسُلُوكِه، والصراط المستقيم هو شريعةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق الذين أنعمتَ عليهم، والذين أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُم النبيُّون والصِّدِّيقون والشهداء والصالحون، أربعة أصناف.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم الذين عِلموا الحَقَّ ولم يَعْمَلُوا به، وَعلى رأسهم اليهود.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم الذين عبدوا الله على غير عِلم وَعلى رأسهمُ النصارى، ولهذا قال سُفيانُ بن عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادنا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى»(١).

انتهت سُورة الفاتحة والحمد لله، وأخذَنا شيئًا من تفسيرها، وهذا ما أُحب أن أَحُثَّ إخواني عليه أَنْ يتدَّبَرُوا القرآن، أي: أَنْ يَتَفَهَّمُوا معانِيَهُ، وبعد ذلك يكون التطبيق، ولِيَتَذَكَّرَ أولو الألبابِ.

والحمدُ للهِ الذِي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ.



---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/ ١٣٨).

الدرس الخامس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧].

هذِهِ السُّورَةُ تُقرأ عَلَى أقلِّ تقدير سَبْعَ عَشْرَةَ مرَّةً فِي اليومِ، وَمَعَ ذَلِكَ فإنَّ كثيرًا مِنَ المُسْلِمِينَ يقرؤُونها وَلَا يَفهمون معناها، فَهُمْ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا بمنزلَةِ الأُمِّيِّين الَّذِينَ لَا يعلمونَ الكِتَابَ إِلَّا أمانيَّ، والقُرْآن إِنَّمَا نزل ليتدبَّر النَّاسُ آياتِهِ وليتذكَّرُوا بِمَا فِيهِ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

وَهَذِهِ السُّورَة -أعنِي سُورة الفَاتِحَة- هِيَ أَفْضَلُ سورةٍ فِي كتابِ الله، وَهِيَ السَّبْع المثانِي الَّتِي قَالَ الله عَنْهَا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، ولِهَذَا فَرَضَ اللهُ عَلَى لسانِ رسولِهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- عَلَى كُلِّ مصلٍّ أَن يقرأَهَا فِي كُلِّ ركعةٍ؛ لقولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ، فَهِيَ خِدَاجٌ»[1]، يَعْنِي فاسدةً، وقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ»[(١)].

آياتُها سبعٌ بالاتِّفاق ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾، وَلَكِنْ قَالَ بعض العُلَماء: إنَّ آياتِها سبعٌ، فابتدؤُوا بالبسملَةِ، فتكونُ كالآتي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧]

هَذِهِ سَبْعُ آياتٍ، وَلَكِنِ القولُ الرَّاجح أَنَّهَا سبع آيات تبتدئ بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحيح عَنْ أَبِي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[(٢)].

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أولَ الفَاتِحَة هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كَمَا أَنَّ بقيَّة السُّور ليستِ البسملةُ آيةً منها، فكَذَلِكَ سورةُ الفَاتِحَة.

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، رقم (٨٢٣)، والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في القراءة خلف الإمام، رقم (٣١١)، والنسائي: كتاب الافتتاح، باب قراءة أم القرآن خلف الإمام فيما جهر به الإمام، رقم (٩٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

ويدلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا المعنى واللفظُ، المعنى أَنَّ الله قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَة: إِنَّهُ قسمها بَيْنَه وبينَ عبدِه نصفَيْنِ، فيقتضي أَن تَكُونَ ثلَاثُ آياتٍ مِنْهَا لله، وثلَاثُ آياتٍ مِنْهَا للعبد، وآيةٌ مِنْهَا بينَهُما.

فلننظرْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ آيةٌ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثانيةٌ ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثالثةٌ، هَذَا كلُّه للهِ، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ آيةٌ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آيةٌ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية، هَذِهِ ثلَاثٌ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ آيةٌ بَيْنَ الله وبَيْنَ العبدِ نصفَيْنِ؛ ثُمَّ هَذِهِ الآيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عَلَى حسَب التَّرتيبِ الَّذِي ذكرتُ تكُون هِيَ الآية النِّصف؛ لأَنَّ قبلَها ثلَاثَ آياتٍ، وبعدَها ثلَاثُ آياتٍ.

المُرجِّحُ الثَّالِثُ: أَنَّنَا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ أول الآيات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ صارتِ الآياتُ متناسقة متقاربةً، وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ أولَ آياتها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صارتِ الآيَةُ السَّابِعةُ طويلةً لَا تَتَنَاسبُ مَعَ مَا قبلَها؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قارنها مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فستكونُ طويلةً ولَا نسبةَ بَيْنَهُما.

وَعَلَى هَذَا فيكُونُ القولُ المتعيِّن أَنَّ أولَ آياتِ سورةِ الفَاتِحَة هِيَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هُوَ خبرٌ بمعنَى التحدُّثِ عنْ صفاتِ اللهِ الكاملةِ، بدليلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الحَدِيث القُدُسيِّ: «**حَمِدَنِي عَبْدِي**»، وَهَذِهِ الجملةُ خبريَّةٌ محضَةٌ لَيْسَتْ بمعنَى الأَمْرِ.

والحمدُ هُوَ وَصْفُ المحمودِ بالكمالِ الذَّاتِيِّ وبالكمالِ المتعدِّي للغيرِ، فيُحمدُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى كمالِ صفاتِه، وَعَلَى كمالِ إِحسانِه، أمَّا كمالُ صفاتِهِ فَقَدْ قَالَ اللهُ عَنْ نفسِه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، والمثَلُ معناه الصِّفَةُ، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ المَثَل يأتِي بمعنَى الصِّفة قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ [محمد:١٥]، فمعنَى المَثَل أَيِ الصِّفةُ العُلْيَا، كُلُّ وصفِ كمالٍ فَلِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَكْمَلُهُ، فيُحْمَدُ اللهُ عَلَى كمالِهِ، ومِن ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١]، فهَذَا وصفٌ يتعلَّق بكمالِ الصِّفاتِ، والوَصْفُ عَلَى كمالِ الإحسانِ مِثْل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥]، هَذَا حمدٌ عَلَى كَمال الإِحسانِ، عَلَى النِّعمِ.

وَفِي الحَـدِيث: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُـلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْـها، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[1]، هَذَا حمدٌ عَلَى الإِحسانِ.

إِذَنْ فاللهُ محمودٌ عَلَى كمالِهِ فِي ذاتِه، وَعَلَى إِحسانِهِ لعبادِهِ، يُحمد عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا.

ومثالُ حمدِه عَلَى كمالِ صفاتِه: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١]، وقولُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]؛ لأَنَّ تنزيلَ الكِتَابِ لمصلحةِ الخَلْقِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

ومثال حمده عَلَى إحسانِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

وهُنَاكَ فرقٌ بَيْنَ الحمدِ والثَّناء؛ فقالَ فِي الجملةِ الأُولَى: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، وَفِي الثَّانِيَةِ قَالَ: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»، ففرَّق اللهُ بَيْنَ الحمدِ وبينَ الثَّناءِ، فالحمدُ وصفُ المحمودِ بالكَمالِ وإِنْ لَمْ يتكرَّرْ، والثَّناء لَا بُدَّ فِيهِ من تكرارِ الوَصْفِ بالكَمال، فإِذَا كُرِّر الوصفُ بالكَمال صارَ ثناءً.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حمِدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسَهُ؛ لأَنَّهُ ربُّ العالَمِينَ، والرَّبُّ هُوَ الخالقُ المالِكُ المدبِّرُ، والعَالَمون كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ، فكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ فَهُوَ عالَم، لَكِنَّهُم أصنافٌ: عالَمُ البشرِ، وعالَمُ الحيوانِ، وعالَمُ الأفلاكِ وهكَذَا، فكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ فَهُوَ عالمٌ، حَتَّى السَّماء والأَرْضُ والنُّجوم والشَّمسُ والقَمَر وكلُّ شَيْءٍ فَهُوَ عالَمٌ، وسُمِّيَ عالمًا لكونِهِ عَلَمًا عَلَى خالِقِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ كُلَّ شيءٍ فِي الكونِ هُوَ شاهدٌ عَلَى آياتِ اللهِ، قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

فالعالَم إِذَنْ كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ مِنْ حَيَوان وغَيْرِ حيوانٍ، مِنْ حيٍّ وميِّتٍ؛ لأَنَّهُ عَلَم عَلَى خالقِهِ.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هَذَا ثناءٌ؛ لأَنَّهُ تَكرار لوصفِ الكَمالِ، والرَّحْمَنُ: ذُو الرَّحمةِ الواسعةِ والرَّحيمُ: الرَّحمةُ الخاصَّة بالمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ بعضُ العُلَماءِ: الرَّحْمَنُ باعتبارِ وصفِهِ، والرَّحيم باعتبارِ فِعلِه. وَهَذَا أحسنُ، ولِهَذَا جاءتْ عَلَى وزنِ (فعْلَان)،

---

(١) البيت للبيد، كما في محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني (٢/ ٤١٠).

ووَزْنُ (فعلَان) يَدُلُّ عَلَى السَّعَة والامتلاءِ، والرَّحِيم جَاءَتْ عَلَى وزنِ (فعيل) الدَّالِّ عَلَى صُدُورِ الفِعْلِ، فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ رَحْمَن رَحِيم، أَي ذُو رحمةٍ واسعةٍ يُوَصِّلُها إِلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عبادِهِ.

يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: الرَّحْمَـةُ إرادةُ الإِحسانِ، أَوِ الإِحسانُ إِلَى الخَـلْقِ. وَهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لأنَّ إِرادةَ الإِحسانِ مِنْ آثارِ الرَّحمَـة؛ لأنَّ الرَّحيمَ يُريدُ الإِحسانَ، والإِحسانُ إِلَى الخلقِ نفسُه مِنْ آثارِ الإِرادةِ، ولكنَّنَا نَقُولُ: الرَّحمةُ صِفَة اتَّصفَ اللهُ بِهَا عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ رحمةٌ تَلِيقُ بِهِ كسائِرِ صفاتِهِ؛ كسَمْعِهِ وبَصَرِهِ وقُوَّتِهِ وعِزَّتِهِ، فَنَحْنُ نَقُولُ: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ اتَّصَفَ بِهَا الخالقُ عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ حقيقةٌ، لكنَّها رحمةٌ تَلِيقُ بِهِ.

والَّذي فسَّر الرَّحمة بالإِحسانِ أَوْ بإِرادة الإِحسانِ هُمُ الأشاعرةُ، ومنعُوا أَنْ يُوصَفَ اللهُ بالرَّحمةِ، قَالُوا: لأنَّ الرحمةَ تَقْتَضِي الرِّقَّةَ واللِّينَ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، فالرَّبُّ قويٌّ عزيزٌ قادرٌ قاهرٌ كَيْفَ يَكُون رحيمًا، ولِهَذَا تَقُولُ: رَحِمْتُ فُلَانًا، يَعْنِي رَقَقْتُ لَهُ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ مَا يُمكِنُ أَنْ يُوصَفَ بالرِّقَّة.

وأيضًا الإِرادةُ لَهَا دليلٌ عقليٌّ والرَّحْمَةُ لَيْسَ لَهَا دليلٌ عقليٌّ، ونَحْنُ لَا نُثْبِتُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ العَقْلُ -يَقُولُونَهُ هُمْ- أَمَّا نَحْنُ فنُثبِتُ كُلَّ مَا أثبتَهُ لنفسِهِ، لِذَلِكَ قَالُوا: المُرَادُ بالرَّحْمَـةِ الإِحسانُ الَّذِي هُوَ الشَّيْءُ المنفصِلُ عَنِ اللهِ أَوْ إِنَّهُ إِرادةُ الإِحسانِ؛ لأَنَّهُم يُثبتونَ الإِرادةَ.

نَقُول: مَا هُوَ دليلُ الإِرادةِ العقليُّ حَتَّى ننظُرَ هَلِ الرحمةُ يَدُلُّ عَلَيْهَا العَقْلُ أَوْ لَا؟ قَالُوا: دَلِيلُ الإِرادةِ العقليُّ التَّخصيصُ، يَعْنِـي كون اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَجْـعَلُ السَّماءَ سَماءً والأَرْضَ أَرْضًا والإِنسانَ إنسانًا والبعيرَ بعيرًا والحمارَ حمارًا، هَذَا يَدُلُّ عَلَى الإِرادةِ، فكون المخلوقاتِ بعضُهَا كَذَا وبعضُهَا كَذا يَدُلُّ عَلَى إرادةِ الخَالِقِ.

نَحْنُ نُوَافِقُ عَلَى أَن تَخصيصَ المخلوقاتِ يَدُلُّ عَلَى الإرادةِ، فماذَا عَنِ الرَّحْمَةِ؟ نَقُول: أيضًا الإحسانُ إِلَى الخلقِ يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ، إذ هَلْ يُحسنُ إِلَى غيرِهِ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ رحمةٌ؟ الجَوَابُ: لَا، ودَلَالةُ الإحسانِ عَلَى الخَلْقِ إِلَى الرَّحْمَةِ أظهَرُ وأوضَحُ وأبْيَنُ مِنْ دَلَالةِ التَّخْصِيصِ عَلَى الإرادةِ؛ لأنَّ دَلالةَ التَّخصيصِ عَلَى الإرادةِ لَا يفهمُهَا إِلَّا طالبُ علمٍ، ودَلَالةُ الإحسانِ عَلَى الرحمةِ كُلُّ إنسان يفهمُهَا، فَلَوْ خرجْتَ مَثَلًا بَعْدَ المطَرِ وقابَلَكَ عاميٌّ، وقلتَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ هَذَا المطَرُ؟ قَالَ: هَذَا مِنْ رَحْمَـةِ اللهِ. فالعَامِّيُّ الَّذِي لَا يفهَمُ يستدِلُّ بنِعَمِ اللهِ عَلَى رحمةِ اللهِ.

فالرَّحمة قَدْ دلَّ عَلَيْهَا العقلُ ودَلالتُه عَلَيْهَا أقوَى مِنْ دَلالَةِ التَّخصيصِ عَلَى الإِرادةِ.

لَكِنْ قَالُوا: كَيْفَ يَكُون هَذَا والرَّحْمَةُ هِيَ الرِّقَّة واللِّينُ، واللهُ منزَّهٌ عَنْ هَذَا؟

نَقُولُ: الرَّحمة الَّتِي تَقْتَضِي الرِّقَّةَ واللِّين أمامَ الشَّيْءِ إِنَّمَا هِيَ رحمةُ البَشَرِ، أَمَّا رحمةُ الخَالِقِ فَلَا تستلزمُ ذَلِكَ وَلَا تَقتضِيهِ، عَلَى أَنَّنَا نمنَعُ قولَكُمْ: إِنَّ الرَّحْمَةَ تقتضِي اللِّينَ؛ لأَنَّنَا نجدُ مَثَلًا ملكًا مِنَ الملوك قَوِيًّا ذَا سُلطانٍ وقُدْرةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَرحَمُ الضَّعيفَ ويُعَدُّ هَذَا فِي حقِّه كَمالًا، فَلَوْ وَجَدْنَا ملكًا قويًّا قويَّ السُّلطانِ والنُّفوذِ لَهُ هَيْبَةٌ، لَكِنْ إِذَا رَأَى الضَّعِيفَ رَقَّ لَهُ ورَحِمَـهُ فإِنَّنَا لَا نَقُول: إِنَّ هَذَا دليلٌ عَلَى ضَعْفِ المَلِكِ، بَلْ دَلِيلٌ عَلَى كَمالِه وحكمتِه، وأَنَّه يُنَزِّلُ كُلَّ شيءٍ منزلَتَهُ.

المُهِمُّ أَنَّ هَذَا البحثَ يستفيدُ مِنْهُ طالبُ العِلْمِ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَن نفى صفةً مِنْ صفاتِ اللهِ بحُجَّةٍ عقليَّةٍ فإِنَّ هَذِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِ ولَيْسَتْ لَهُ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَن يُقِرَّ بالجَمِيعِ، وإِمَّا أَن يُنْكِرَ الجميعَ، أَمَّا أَن يُقِرَّ بالبَعْضِ ويُنْكِرَ البَعْضَ، فَهَذَا مِنْ بَابِ التَّنَاقُضِ.

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يَعْنِي: ذِي الرَّحمة الوَاسِعَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي لَا يُدركها العقلُ.

وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي المُوصِّل للرَّحمة مَنْ شَاءَ مِن عبادِهِ، يُعذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ويَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ.

قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وفِيهَا قِرَاءَةٌ (مَلِك يوم الدين).

قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: الأَوْلَى أَنْ نَقْرَأَ ﴿مَٰلِكِ﴾ بالأَلِفِ مِنْ أجلِ أَن نكسِبَ زيادة عَشْر حَسَنَاتٍ؛ لأنَّ كُلَّ حرفٍ فِي القُرْآنِ يَزيد عَشْرَ حَسَنَاتٍ.

لكنَّ القولَ الصَّحيحَ أَنَّكَ تَقْرَأُ أحيانًا (ملِك) وأحيانًا ﴿مَٰلِكِ﴾؛ لأنَّ هَـذَا أَفْضَلُ مِنَ اقتصارِكَ عَلَى ﴿مَٰلِكِ﴾ أَو عَلَى (ملِك)؛ لأنَّ (ملِك) صحَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بالنَّقْلِ المتواترِ كَمَا صَحَّ عنه ﴿مَٰلِكِ﴾، وتمامُ الاقتداءِ بالرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ تقرَأَ كَمَا قرَأَ بـ﴿مَٰلِكِ﴾ وبـ(ملِك).

وهكَذَا نَقُول فِي كُلِّ آيةٍ فِيهَا قراءَتَانِ: إِنَّ الأَفْضَلَ أَنْ تَقْرَأَ بِهَذِهِ القِرَاءَةِ تارةً وبالقِرَاءَةِ الأُخْرَى تارَةً أُخرَى؛ لتتحقَّقَ لَكَ مُتابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ، ولأجْلِ أَلَّا تُنْسَى القراءاتُ الثَّابتةُ؛ لأَنَّكَ إِذَا كنـتَ تَقْرَأُ بِهَذَا مَرَّةً وبِهَذَا مَرَّةً بَقِيتَ حافظًا لِلْقِـرَاءَاتِ كُلِّهَا.

ولكنِ احذَرْ أَنْ تَقْرَأَ بِقِرَاءَةٍ لَمْ تتيقَّنْهَا، فَلَوْ أَنَّ واحدًا قَالَ: أَنَا أَقْرَأُ، وقَرَأَ الآيَةَ عَلَى غَيْرِ الموجودِ فِي المصحفِ، وقُلْنَا لَهُ: كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا قَالَ: والله أَظُنُّ فِيهَا قراءة. فَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لأنَّ هَذَا كلامُ الله فلَا بُدَّ أَن تتيقَّنَ أَنَّ القراءةَ واردةٌ عَلَى هَذَا الوجهِ وإِلَّا وَجبَ عَلَيْكَ التَّرْكُ.

وَيُسْتَفَادُ مِنَ القراءَتَيْنِ فائِدَةٌ لَا تحصُلُ بانفرادِ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ أَنَّكَ إِذَا جمعت بَيْنَهُمَا استفدتَ مِنْ ذَلِكَ المِلْكِيَّةَ والتَّصرف، يَعْنِي صَارَ فِي الآيَة دليلٌ عَلَى ثُبُوتِ المِلْكِيَّةِ والتَّصَرُّف، المِلْكِيَّة من (ملِك)، والتَّصَرُّفُ مِنْ ﴿ مَٰلِكِ ﴾.

ولِهَذَا أَنَا مَثَلًا أستطِيعُ أَنْ أتصرَّفَ فِي هَذَا القلمِ، وأستطيعُ أَنْ أُهدِيَهُ أَو أبيعَهُ أَوْ أُعِيرَهُ، لَكِنْ أَنَا لَسْتُ مَلِكًا، فكُلُّ مَلِك مَالكٌ وَلَيس العكس.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ المِلْكيةَ والسُّلطانَ أعلَى مِنْ مجرَّدِ التَّصرُّفِ، لَكِنْ يُوجَدُ مَنْ يَكُونُ مَلِكًا بِلَا مُلْكٍ، فِفِي المُلوكِ السَّابقينَ نَسْمَعُ أن مُلُوكَ بَنِي أُمَيَّةَ ومُلُوكَ بَنِي العَبَّاسِ وغيرَهُم ملكهم مُلْكُ صُورَةٍ فَقَطْ فلَا يتصرَّفُون، والَّذِي يتصرَّفُ هُمْ الوزراء والحاشية، أمَّا الملك نفسه فَلَا يتصرَّفُ، وَهَذَا يُقالُ عَنْهُ: إِنَّهُ مَلِكٌ بلا مُلْكٍ، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ مَلِكٌ بملْكٍ تَامٍّ، فاستُفِيدَ مِنَ القراءَتَيْنِ فَائِدَةٌ لَا تَكُونُ فِي إِحداهُمَا، وَهُوَ أَن مُلْكَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تامٌّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَهُوَ مَلِكٌ مَالِكٌ.

قوله: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هُوَ يومُ القِيَامَة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩]، هَذَا اليومُ سُمِّيَ يومَ الدِّين؛ لأنَّ النَّاسَ يُدَانُونَ بِهِ، يَعْنِي يُجْزَوْنَ بِهِ، والدِّينُ يُطلَقُ تَارَةً عَلَى الجَزَاءِ، وتارَةً عَلَى العَمَلِ، فقولُه تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] المُرَادُ بالدِّينِ هُنَا العَمَل.

وقولُهُ تَعَالَى: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٥-١٧]، المُرَادُ بالدِّينِ هُنَا الجَزَاءُ.

وَفِي الفَاتِحَة: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ المُرَادُ بِهِ الجزاءُ، فيَوْمُ الدِّينِ يَعْنِي يَوْمَ الجَزَاءِ، يقَالَ: كَمَا تدِينُ تُدَانُ أَي كَمَا تَعْمَلُ تُجَازَى.

فَإِذَا قَالَ قائلٌ: أَلَيسَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مالكًا للدِّينِ والدُّنْيا؟ فالجَوابُ بَلَى، قَالَ: إِذَنْ لماذَا خصَّ بالدِّين؟ الجوابُ: لأنَّ مُلْكَه يظهَرُ تمامًا فِي ذَلِكَ اليوم، ففِي ذَلِكَ اليومِ يَتلاشَى مُلك كُل مَلِك، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فَلَا مُلْكَ لأحدٍ، وتَتَلَاشَى المِلْكيَّاتُ إِلَّا ملكُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، فلهذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

أَمَّا فِي الدُّنْيَا ففِيها مُلوكٌ، لَكِن فِي الآخِرَةِ فَلَا مُلُوك، والكَبِيرُ والصَّغير سواءٌ، والسَّيِّدُ والمملوكُ سَوَاءٌ، ويُحْشَرُ النَّاسُ حفَاةً عراةً غُرْلًا[١]، ليس عَلَيْهِم لباسٌ، وليس عَلَيْهِم حِذَاءٌ، وأَنْتَ ما تمشِي حافيًا هنَا فِي الدُّنيا، والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قَدْ نَهَى عَنْ كَثْرَةِ الإرفَاهِ[٢].

إِذَنْ حُفَاة: يَعْنِي لَيْسَ عَلَيْهِم نعالٌ، عُرَاة: لَيْسَ عَلَيْهِم كساءٌ أَو لِبَاس، غُرْلًا: يَعْنِي غَيْرَ مختونِينَ، فالقُلْفَة الَّتِي تُقطَع فِي الخِتانِ تَعُودُ يوم القِيامَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وردِ فِي مسند أحمد[٣]: «بُهْمًا»، أَي: لَيْسَ معهم مالٌ.

قالتْ إِحدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود: أول كتاب الترجل، رقم (٤١٦٠)، والنسائي: كتاب الزينة، باب الترجل، رقم (٥٢٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥، رقم ١٦٠٨٥)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣٣) قال الهيثمي: فيه عبد الله بن محمد ضعيف. والحاكم (٢/ ٤٧٥، رقم ٣٦٣٨)، والضياء (٩/ ٢٥ رقم ١٠). وأخرجه أيضًا: البخاري في الأدب المفرد (ص:٣٣٧، رقم ٩٧٠).

إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ»[1]. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

نسأَلُ اللهَ أَن يجعلَهُ عَلَيْنَا وعلَيْكُم يَوْمًا يسيرًا، فَهُوَ يَوْمٌ شَدِيدٌ عسِيرٌ لَكِنَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ يسيرٌ.

إِذَنْ خُصَّ الملك بيَوْمِ الدِّينِ لأنَّ المُلْكِيَّةَ فِيهِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولأنَّ الدُّنْيَا فِيهَا مُلوك، أمَّا الآخِرَةُ فلَيْسَ فِيهَا إِلَّا الملكُ للواحِدِ القهَّار عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الخطابُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ وَجَدْنَا أَنَّ الآياتِ الثَّلاثة الأُولَى الحَدِيثُ فِيهَا بلفظِ الغائبِ، قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولَيْسَتِ الحمدُ لَكَ يا ربَّ العالمينَ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ غائِب، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ غائب غَيْرُ مُخاطَب، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مخاطَبٌ، لَمْ يَقُلْ: إِيَّاهُ نَعْبُدُ، بَلْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ففِي الآيَة التفاتٌ، والالتفاتُ تَغْيِيرُ أسلوبِ الخِطَابِ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى الخطابِ، والالتفاتُ لَهُ فوائِدُ:

الفائدةُ الأُولَى: تنبيهُ المخاطَبِ، وَهَذَا فِي كُلِّ التفاتٍ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾ [المائدة:١٢] لَوْ كَانَتِ الآيَـةُ بدونِ التفاتٍ لقَالَ: «وبعَثَ مِنْهُمُ اثنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا»، لَكِنْ قَالَ: ﴿وَبَعَثْنَا﴾ ففيها التفاتٌ.

ويَكُونُ تنبيهُ المخاطَبِ بسببِ الالتفاتِ؛ لأنَّ الكلامَ إِذَا جَاءَ عَلَى نَسَقٍ واحِدٍ صار مَعَهُ الإِنْسَانُ ولم يَحْدُثْ شيءٌ يُوجِبُ التفَّكير، فَإِذَا تغيَّر الأسلوبُ أوجَبَ ذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

أَنْ يفكِّرَ الإِنْسَانُ كَيْفَ تَغَيَّرَ الأسلوبُ؟ مَا الَّذِي غَيَّرَهُ؟ كَيْفَ انتقلنَا مِنَ الغَيبَةِ إِلَى الخِطَابِ؟ أَو مِنَ الغيبةِ إِلَى المتكلِّمِ؟

الفائدةُ الثَّانية: أَنَّ فِي الالتفاتِ فائِدَةً يُعَيِّنُهَا السِّيَاقُ، وَهَذِهِ الفَائِدَةُ تختلِفُ باختلافِ السِّيَاقَاتِ، فَفِي السُّورَةِ الَّتِي معَنَا لما حَمِدَ الإِنْسَانُ رَبَّهُ وأثنى عَلَيْهِ ومجَّدَهُ صَارَ كأَنَّهُ حَاضِرٌ عِنْدَهُ يُخاطِبُهُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قُوَّةُ هَذِهِ الأوصافِ جَعَلَتِ المتكلِّمَ كأَنَّه يُخاطِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فانتقلَ مِنَ الغَيبة إِلَى الخِطَابِ، قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولِهَذَا نَحْنُ فِي التَّشَهُّد نَقُولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»[(١)]، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ لَيْسَ بحاضِرٍ لَكِنْ قُوَّةُ استحضارِهِ جَعَلَتْنَا كأَنَّنَا نُخاطِبُه مخاطبةَ الحاضِرِ، ولِهَذَا كَانَ المشروعُ أَن نَقُولَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ**» إِلَى يومِنَا هَذَا وَإِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَا نَقُول كَمَا رَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابنِ مَسعودٍ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ، بَلْ نَقُول: عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ؛ لأَنَّ البخاريَّ رَوَى عَنِ ابْنِ مسعودٍ قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ، التَّشَهُّدَ، كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ: «**التَّحِيَّاتُ للهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا، فَلَمَّا قُبِضَ قُلْنَا: السَّلَامُ -يَعْنِي- عَلَى النَّبِيِّ ﷺ[(٢)].

فنَقُولُ: لا، نَحْنُ نَقُول: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ**»، ولو بَعْدَ موتِهِ؛ لأَنَّ الرَّسُول صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حِينَ عَلَّمَنَا ذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: قُولُوا السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليدين، رقم (٦٢٦٥).

النَّبِيُّ مَا دُمْتُ حَيًّا، فَإِذَا مِتُّ فقولُوا: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ، ولأنَّ الصَّحابةَ وهُمْ يقولُونَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» لَا يَقْصِدُونَ أَنَّهُم يُخاطبونَهُ بِذَلِكَ؛ لأَنَّهُم يَقُولُونَ هَذَا وهُمْ بَعِيدُونَ عَنْهُ وَهُوَ لَا يَسمعُهُم، يَقُولُونَ هَذَا وهُمْ فِي بَلَد آخرَ غَيْرِ المدينَةِ، فَهُمْ لَا يقصدون بِذَلِكَ أَن يُخاطِبُوهُ حَتَّى نَقُولَ: إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ حياتِهِ وموتِهِ، ولِهَذَا خَطَبَ أميرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا ثبتَ ذَلِكَ فِي موطَّأِ مالِكٍ[1] وعلَّمَهُمُ التَّشَهُّدَ بلفظِ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»، ولم يُنْكِرْ عَلَيْهِ أحدٌ، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْلُومُ الفِقْهِ والعِلْمِ والتَّوَاضُعِ.

ولِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ مَا ذكـرَهُ أميرُ المُؤْمِنِـينَ عُمَرُ هُوَ الصَّوابُ، وأَمَّا مَا ذَكَـرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مسعود فَهُوَ اجتهادٌ مِنْهُ قَدْ يَكُون فِيهِ مُصيبًا، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ مخطئًا، فنحنُ الآنَ نَقُول: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» لَا لأَنَّهُ أمامَنَا نُخاطِبُهُ بَلْ لِقُوَّةِ استحضارِنَا لَهُ كأَنَّنَا نُخاطِبُهُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مَا يُسَمَّى عِنْدَ البلاغِيِّـينَ بالحَصْرِ، وَهُوَ إِثباتُ الحُكْمِ فِي المحصورِ فِيهِ، ونفيُهُ عَمَّا سِوَاهُ. وطريقُ الحَصْرِ فِي هَذِهِ الآيَةِ تقديمُ مَا حقُّه التَّأْخِيرُ وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ﴾، وَهُوَ ضمير مفعول بِهِ، ورُتبةُ المفعولِ بِهِ تَكُونُ بَعْدَ العامِلِ، و﴿نَعْبُدُ﴾ عاملٌ، و﴿إِيَّاكَ﴾ معمولٌ، وحقُّ المعمولِ التَّأخيرُ عَنِ العامِلِ لَكِنْ قُدِّمَ هنَا لإِفادةِ الحَصْرِ.

وَعَلَى هَذَا فيَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى وزنِ قولِنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، من حَيْثُ المعنَى، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِيهَا حصرُ الأُلوهِيَّةِ باللهِ، وأَنَّهُ هُوَ الإِلَهُ وحدُه و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فِيهَا حَصْرُ العِبادَةِ فِي اللهِ، وأَنَّهُ وحدَهُ هُوَ المعبودُ.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٩٠).

لكنْ قَدْ يقولُ قائلٌ: الآيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فِي العبادةِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الألوهيَّةِ. فنقُولُ: الألُوهيَّة هِيَ العبادةُ، لَكِنَّهَا بالنِّسْبَةِ للهِ تُسمَّى أُلُوهِيَّة، وبالنِّسْبَةِ للعَبْدِ تُسَمَّى عبادةً أَو عبوديَّةً، ولِهَذَا تَجِدُونَ العُلَمَاءَ تَارَةً يَقُولُونَ: تَوْحِيدُ الأُلوهيَّةِ، وتارَةً يُسَمُّونَهُ تَوحِيدَ العِبَادَةِ، فَهِيَ باعتبارِ اللهِ المعبودِ أُلوهيَّةٌ، وباعتبارِ العَبْدِ العَابِدِ عِبَادَةٌ.

والعبادةُ تُطلَقُ عَلَى معنيَيْنِ: فيُرادُ بِهَا تَارَةً التَّعبُّدُ الَّذِي هُوَ فِعْلُ العابِدِ، وتارَةً المتعبَّدُ بِهِ الَّذِي يتقرَّب بِهِ الإِنْسَانُ إِلَى اللهِ، فعَلَى الأَوَّل -وهو التَّعبُّد- نَقُولُ: العبادَةُ تذلُّل الإِنْسَانِ للهِ بفعلِ أوامرِهِ واجتنَابِ نواهِيهِ، وَعَلَى الثَّانِي أَنَّ العبادَةَ بِمَعْنَى المتعبَّد بِهِ نَقُول كَمَا قَالَ شيخ الإِسْلَام ابنُ تَيْمِيَّةَ[1]: هِيَ اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّه اللهُ ويرضَاهُ مِنَ الأَقْوالِ والأَعْمَالِ البَاطِنَةِ والظَّاهرةِ، كالصَّلَاة، والزَّكَاة، والصِّيام، والحجّ، وصدق الحَدِيثِ، وأداء الأمانةِ؛ وبر الوالدينِ، وصِلَة الأرحامِ، والوفاء بالعهودِ، والأمر بالمعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكَرِ، والجهاد للكفَّارِ والمنَافِقِينَ، والإحسان إِلَى الجارِ واليتيمِ والمسكينِ وابنِ السبيلِ والمملوكِ مِنَ الآدمِيِّينَ والبهائمِ، والدُّعاء والذِّكْر والقراءة، وأمثال ذَلِكَ.

لَكِنْ إِذَا قامَ الإِنْسَان يصلِّي أَمَامَنَا، قُلْنَا: إِنَّ صلاتَهُ حركاته وأقواله وأفعاله تعبُّدٌ.

والعبادةُ تَكُونُ للهِ وحدَهُ، فَلَا يجوزُ لرَجُلٍ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثُمَّ إِذَا خرَجَ مِنَ المَسْجِد ذَهَبَ إِلَى قبرِ الوليِّ وجَعَلَ يَسْجُدُ لَهُ ويَذْبَحُ لَهُ، فَهَذَا غَيْرُ صادقٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأَنَّهُ أشركَ بِاللهِ.

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١٤٩).

كذَلِكَ رَجُلٌ يقرأُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فخَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ فصَارَ يأخُذُ المَالَ بالرِّبَا والغشِّ والخيانةِ، فهَذَا غَيْرُ صادقٍ فِي قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لأَنَّهُ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»(١)، فسَمَّى المُنْهَمِكَ فِي تحصيلِ الدِّرْهَمِ والدِّينَار عبدًا، وسَمَّى المُنْهَمِكَ بالخَمِيصَةِ وبالثَّوبِ وبالخَمِيلَةِ وبالفِرَاشِ عَبْدًا.

إِذَنْ فالمنهمِكُ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّتِي يُحَصِّلُهَا بالحلالِ والحرامِ لَمْ يَصْدُقْ فِي قولِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لَكِنَّهُ لَيْسَ كالَّذِي يَعْبُدُ الصَّنَمَ، بَلْ هَذَا فِيهِ نوعُ شِرْكٍ، لَكِنَّهُ لَا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ.

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هَذِهِ أَيْضًا فِيهَا حَصْرٌ، يَعْنِي: لَا نَسْتَعِينُ إِلَّا إِيَّاكَ، لَكِنِ المُرَادُ بِذَلِكَ استعانةُ العبادَةِ، فاستعانةُ العبادَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ، أَمَّا استعانةُ غَيْرِ الله فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ المُستعانُ فهَذِهِ جَائزةٌ، فَلَوْ قلتَ لشَخْصٍ: أعنِّي عَلَى حَمْلِ أثاثي إِلَى السَّيَّارَةِ؛ فَهَذَا جَائزٌ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ استعانَةَ عبادةٍ، ولَيْسَ هَذَا مِمَّا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ، بل هُوَ مِمَّا يُقْدَرُ عَلَيْهِ، وَهِيَ استعانَةٌ يُرَادُ بِهَا أَنْ يُعِينَ أَخَاهُ، ولِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وَهُوَ يُعَدِّدُ الصَّدقاتِ: «**تُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو، رقم (٢٨٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

وكَذَلِكَ أخبرَ أَنَّ مِنْ حَقِّ المُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ أَنْ يُعِينَهُ إِذَا ظُلِمَ عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُ(١).

إِذَنِ، الاستعانةُ الخاصَّةُ باللهِ هِيَ استعانةُ العبادةِ الَّتِي يَستعِينُ الإِنْسَانُ باللهِ وَهُوَ يعتقدُ أَنَّ ربَّهُ أعظمُ مِنْهُ وأعلَى مِنْهُ، وأَنَّهُ عبدٌ للهِ واللهُ رَبُّهُ.

وَهَذِهِ الجملةُ حَقٌّ للآدمِيِّ، يَطْلُبُ العَوْنَ مِنَ اللهِ، ولِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»(٢)، فجَمَعَ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ العبادةِ والاستعانةِ مِنْ أجلِ أَلَّا يعتمِدَ الإِنْسَانُ عَلَى نفسِهِ ويتَّكِلَ عَلَى نفسِهِ، حَتَّى فِي العبادةِ يَستعِينُ باللهِ، فَلَا تعتمِدْ عَلَى نفسِكَ؛ لأَنَّكَ إِنْ وُكِلْتَ إِلَى نفسِكَ وُكِلْتَ إِلَى ضَعْفٍ وعَجْزٍ، فكلَّما أردتَ أَن تفعلَ عبادةً فاستحضِرْ أَنَّكَ مُستعين باللهِ، فَإِذَا أردتَ أَنْ تتوضَّأَ فاستحضِرْ أَنَّكَ مُستعينٌ بالله، فلَوْلَا إعانةُ اللهِ وتيسيرُ المَاء حَتَّى وصلَ إِلَيْكَ وأَنَّ اللهَ أعطاكَ قدرةً عَلَى استعمالِهِ مَا توضَّأْتَ.

فكلُّ شَيْءٍ اجعلْهُ مربوطًا باستعانَتِكَ بربِّكَ عَزَّوَجَلَّ، ولِهَذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

واعلمْ أَنَّكَ تَستفيدُ باستعانةِ اللهِ فائِدَتَيْنِ عظيمَتَيْنِ:

الأُولَى: التعبُّدُ للهِ بالاستعانةِ.

---

(١) كما في الحديث: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**». قالوا: يا رَسُولَ الله هَذَا المَظْلُومُ كَيْفَ نَنْصُرُ الظَّالِمَ؟ قال: «**تَمْنَعُوهُ مِنَ الظُّلمِ**». أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب أَعِن أخاك ظالما أو مظلوما، رقم (٢٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

والثَّانيةُ: تَيْسِيرُ أمرِكَ؛ لأنَّ اللهَ إِذَا أعانَكَ تيسَّرَ لكَ الأمرُ، أَلَمْ تعلمُوا أَنَّ سُلَيْمَانَ ابنَ دَاوُدَ قَالَ: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ -أَوِ المَلَكُ- قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ، وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»[1]، مَا قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فطَافَ عَلَى سَبْعِينَ امرأةً يُجامِعُهُنَّ فَلَمْ تَلِدْ إِلَّا واحدةٌ نِصْفَ إِنسانٍ لِيُرِيَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عبادَهُ أَنَّ الأمرَ أمرُه، وأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُعِنْكَ خُذِلْتَ، بَلْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ذكرْنَا الآنَ أَنَّ فِي الجمعِ بَيْنَ العبادةِ والاستعانةِ إشارةً إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَقْرِنَ جميعَ أعمالِهِ بالاستعانةِ بِاللهِ حَتَّى لَا يَكِلَهُ اللهُ إِلَى نفسِهِ.

قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الهدايةُ هُنَا يُرادُ بِهَا الهدايتانِ؛ هدايةُ الدَّلالةِ، وهدايةُ التَّوفيقِ، فهُنَاكَ هِدايةُ دَلالةٍ وهدايةُ توفيقٍ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] هـدَيناهم هداية دَلالةٍ، ولكنَّـهُم لَمْ يُوَفَّقُوا فاستحبُّوا العمَى عَلَى الهُدى.

وقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] يُخاطِبُ اللهُ نَبِيَّه ﷺ هَذِهِ هدايةُ التَّوفيق، يَعْنِي لَا تستطيعُ يَا محمَّدُ أَنْ توفِّقَ شخصًا ضالًّا فيهتديَ؛ لأنَّ ذَلِكَ إِلَى اللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] هَذِهِ هدايةُ الدَّلالةِ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في اليمين، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَدُلُّ النَّاسَ عَلَى الخيرِ، بَلْ حَتَّى غَيْرُ الرَّسُولِ يَدُلُّ النَّاسَ عَلَى الخيرِ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وَفِي هَذِهِ الآيَةِ فِي سورةِ الفَاتِحَة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ طلبُوا الهدايةَ مِنَ اللهِ بالمعنيَيْنِ جميعًا؛ هداية الدَّلالةِ وهداية التَّوفيقِ، ولِهَذَا لَمْ تتعدَّ بِـ(إلى)، لَمْ يَقُلِ الإِنسانُ: اهدنَا إِلَى الصِّرَاطِ، بَلْ قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ ليشملَ الهدايتَيْنِ جميعًا.

والصِّرَاطُ المستقيمُ هُوَ شرعُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى وَضعَ هَذَا الشَّرْعَ ليوصِّلَ إِلَيْهِ كالطَّرِيقِ الَّذِي يُفتح ويُسَوَّى ليوصِّلَ إِلَى غايتِهِ فِي المكانِ، فالصِّراطُ هُنَا الشَّرْعُ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لعبادِهِ ليوصِّلَهم إِلَيْهِ، والمستقيمُ هُوَ الَّذِي استقامَ حِسًّا ومعنًى، لَيْسَ فِيهِ اعوجاجٌ، ولَيْسَ فِيهِ فسادٌ، بَلْ هُوَ مستقيمٌ حِسًّا ومستقيمٌ معنًى، لَوْ تدبرتَ شريعةَ اللهِ، ولَا سِيَّما شريعةُ النَّبِيِّ ﷺ لوجدتَها مُستقيمةً صالحةً لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

جاءَنَا رجلٌ وقَالَ: إِذَا كُنْتُمْ تقولونَ: إِنَّ الإِسْلَامَ صالحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ فزمانُنَا هَذَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا أَنْ تخرُجَ المَرْأَةُ متبرجَةً حَتَّى تُشَابهَ بنَاتِ جنسِهَا، كَيْفَ تُحَجِّبُهَا والنِّسَاء يمينًا وشِمالًا مُتبرِّجَاتٌ كاشفاتُ الوُجُوهِ، فَماذَا نَقُولُ؟

وجاءَ رَجُلٌ آخَرُ فقَالَ: الاقتصادُ الدَّولِيُّ الآنَ لَا يستقيمُ إِلَّا بالرِّبَا؛ لأنَّ مَسْأَلَةَ بَيْعِ السِّلَع والعقاراتِ والسَّيَّاراتِ وَمَا أَشبَهَ ذَلِكَ مُتعِبٌ، لَكِنِ الرِّبَا خُذْ مِئَةً وبعدَ سَنَةٍ تُعطينِي مِئَةً وعِشْرِينَ هَذَا سَهْلٌ، وَلَا يستقيمُ الاقتصادُ إِلَّا بالرِّبَا، وَإِذَا كَانَ لَا يستقيمُ إِلَّا بالرِّبَا وأَنْتَ تقولُ: إِنَّ الإِسْلَام صالحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ فالرِّبَا مِنَ الإِسلامِ، لأَنَّكَ تقولُ: إِنَّ الإِسْلَامَ صالحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وجاء ثالثٌ فقَالَ: الأَدْيَانُ كلُّهَا أفيونُ الشُّعُوبِ تُقَيِّدُ الحريَّاتِ، تَقُولُ للرَّجُلِ الَّذِي يُريد أَن يشرَبَ الخَمْرَ: لَا تَشْرَبِ الخَمْرَ، والَّذِي يُريد أَن يزنيَ: لَا تزنِ، وللَّذِي يُريد أَن يسرقَ: لَا تسرقْ، هَذَا كَبْتٌ للحرِّيَّاتِ، أطلقِ الحرِّيَّاتِ، خَلِّ مَنْ يريدُ الزِّنَا ليزنيَ، ومَنْ يُريدُ السَّرِقَةَ ليسرقَ، ومَنْ يُريد شُربَ الخَمْرِ ليشربَ الخَمْرَ؛ لأنَّ هَذَا الزَّمَن لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِهَذَا، وأَنْتَ مِن قاعدتِكَ أَنَّ الإِسْلَامَ صالحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

فَمَا هُوَ الجوابُ عَنْ هَذِهِ الإِشكالاتِ؟ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اتَّخَذَ مِنْ هَذِهِ العبارةِ أَنْ جَعَلَ الإِسْلَامَ بمنزلةِ العَجِينَةِ؛ كلٌّ يُشَكِّلُه عَلَى مَا يريد، كَمَا أَنَّ بَعْضَ النَّاس اتَّخذ مِنْ قولِ الرَّسُول ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»[1] أَنَّ مسائِلَ المعاملاتِ لَا دَخْلَ للشَّرْعِ فِيهَا، بَلْ تَحْكُمُ فِيهَا العادةُ، فهَذِهِ العباراتُ يتَّخِذُ مِنهَا مَنْ فِي قلبِهِ زَيْغٌ غرضًا يَصلُ بِهِ إِلَى هواهُ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧].

ونَحْنُ نَرُدُّ عَلَى الأَوَّلِ (صالحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ) فنَقُول: إِنَّ المَرْأَةَ إِذَا خرجتْ كاشفةً الوجهَ وقلتَ: إِنَّ هَذَا مِنَ الصَّلاحِ؛ قلنا: إِنَّكَ كاذبٌ، هَذَا لَيْسَ مِنَ الصَّلاحِ، بَلْ هَذَا مِنَ الفسادِ، والواقعُ شاهد بِذَلِكَ؛ انظرْ إِلَى الشُّعُوب ما الذي وصلتْ إِلَيْهِ لَمَّا قِيلَ للمرأةِ: اخرجِي كاشفةً الوجهِ؟ هَلِ اقتصرتِ المَرْأَة عَلَى كَشْفِ الوجهِ؟ لَا، بَلْ كشفَتِ الوجهَ والرَّأْسَ والرَّقَبَةَ والنَّحْرَ والسَّاقَ والذِّرَاعَ والعَضُدَ، وَهَذَا فسادٌ.

وهلِ اقتصرتِ المَرْأَة عَلَى أَن أخرجتِ الوَجْهَ عَلَى طبيعتِهِ؟ لَا، بَلْ زَيَّنَتْ وَجْهَهَا، فسوَّدَتِ العينَ وحمَّرتِ الشِّفَاهَ والخدودَ، وخرجتْ ولم تقتصِرْ عَلَى طبيعتِهَا، وَهَذَا شيءٌ لَا نَقُولُه عَنْ تخرُّص، بَلْ نَقُوله عَنْ أمرٍ واقعٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢، رقم ١٢٥٦٦)، وابن ماجه: كتاب الرهون، باب تلقيح النخل، رقم (٢٤٧١).

والمرأَةُ -كَمَا تعلمونَ- ضَعِيفَةٌ، ترغبُ أَن تخرجَ متجمِّلَةً، فتخرجُ وتكونُ فتنةً لنفسِهَا ولغيرِهَا، فكَيْفَ تقولُ: إِنَّ التَبرُّجَ هُوَ الصَّالحُ للزَّمَانِ! التَّبرُّج لَيْسَ صالحًا للزَّمَانِ، بَلْ هُوَ فسادٌ للزَّمَانِ.

والَّذِي قَالَ: الرِّبَا صالحٌ للزَّمان لأنَّ بِهِ قِوامَ الاقتصادِ؛ نَقُول له: مَن قَالَ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا لأَنِّي أقسِّمُ الرِّبَا إِلَى قسمَيْنِ: قسمٌ استثماريٌّ، وقسمٌ استغلاليٌّ استهلاكيٌّ، فالمحرَّمُ القِسْمُ الاستغلاليُّ الاستهلاكيُّ، أمَّا القِسْمُ الاستثماريُّ فَإِنَّهُ جَائزٌ؛ لأنَّ فِيهِ مصلحةً وفائِدَةً، والإِسلامُ صالحٌ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ، فَهَذَا صلاحٌ.

نَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، هَذَا كَذِبٌ، أمَّا الرِّبَا الاستغلاليُّ فظاهرُهُ أَنَّهُ ظلم ويُرَادُ مِنْهُ استغلالُ الفقيرِ، ومثاله: رجلٌ فقيرٌ لَيْسَ عِنْدَهُ ثوبٌ، ولَيْسَ عِنْدَهُ دابَّة يركبُها، ولَيْسَ عِنْدَهُ سيَّارَة يركبها، ومحتاجٌ ومُضْطَر، فيقولُ لَهُ التَّاجِرُ: تعالَ أَنَا أُعطيكَ ألفَ رِيَالٍ لَكِنْ إِنْ كَانَتْ حاجتُكَ شديدةً يَكُون الألفُ ألفَيْنِ، وإِن كَانَتْ متوسِّطَةَ الحالِ يَكُونُ الألفُ ألفًا وخمسَ مئةٍ، وإِن كَانَتْ حولَ الغِنَى، فالألفُ ألفٌ ومِئَتَانِ، فلمَّا اشتدَّتْ حاجتُه وعظُم فقره زادتِ الضَّريبةُ عَلَيْهِ؛ لأنَّ التَّاجِرَ لَا يريدُ مِنْ هَذَا الرِّبَا أَن يرحمَ الخَلقَ، بل يُريد أَن يستعبدَهُم ويستغلَّهُم، يقول هَذَا: أوافقُ عَلَى أَنَّهُ حرامٌ؛ لأَنَّهُ ظُلم، أَمَّا إِذَا كَانَ الرِّبَا استثماريًّا يُقصَد بِهِ تنميةُ المالِ، فَهَذَا لَا بأسَ به.

فنَقُول: مَتَى يَكُون هَذَا استثماريًّا؟ إِنَّهُ لَا يُمكن أَن يُوجدَ رِبا زيادةٍ لشَخْصٍ إِلَّا وَهِيَ نَقْصٌ فِي جَانب الشَّخْصِ الآخَرِ، فهَذَا لَا بُدَّ مِنْهُ؛ زيادةٌ يُقابلها نقصٌ، كَمَا تقول: وَاحِد زائِد وَاحِد يُساوِي اثنَيْنِ، فهو أمرٌ واضح، حَتَّى وإِنْ كَانَ استثماريًّا؛ لأَنَّكَ سَوْفَ تستثمِرُ عَلَى حسابِ الآخَرِينَ، فَهَذَا ظُلم.

ثُمَّ مَنْ قَالَ لَكَ: إِنَّ الرِّبَا لَا يَكُونُ إِلَّا ظُلمًا؟ قَدْ يَكُون غَيْرَ ظُلم، ويَدُلُّ لهذا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جِيءَ إِلَيْهِ بتَمْرٍ جيِّدٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟». قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ، فَبِعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ، لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «أَوَّهْ أَوَّهْ، عَيْنُ الرِّبَا، عَيْنُ الرِّبَا، لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْر بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِهِ»[1]، مَعَ أَن هَذَا الرِّبَا لَيْس فِيهِ ظُلم؛ لأَنَّ الصَّاعَ الطَّيِّبَ يُساوِي فِي القِيمَة صاعَيْنِ مِنَ الرَّدِيِّ، والتَّراضي بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ حاصِلٌ، فالبَائِعُ غَيْرُ مظلومٍ، والمُشْتَرِي غَيْرُ مظلومٍ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّهْ أَوَّهْ، عَيْنُ الرِّبَا، عَيْنُ الرِّبَا».

وبِهَذَا تبيَّنَ أَنَّ الرِّبَا بنوعَيْهِ حرامٌ: الاستثماريّ والاستغلاليّ، وأَنَّ هَذَا التَّقسيمَ إِن كَانَ صاحِبُه يعتقِدُ أَنَّهُ عَقْلٌ فَهُوَ عَقْلٌ فاسدٌ؛ لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُخالف النَّصَّ فَهُوَ فاسدٌ لَا يُقبل.

الثَّالِثُ صاحبُ الحُرِّيَّاتِ يُريد أَن يُبيحَ الزِّنَا والخَمْر والسَّرِقة، ويَكُون النَّاسُ أحرارًا؛ لأَنَّ الحُرِّيَّةَ هِيَ مِنْ حَيْثُ هِيَ صلاحٌ، لَكِنَّهَا حُرِّيَّةٌ كاذِبَةٌ خادِعَةٌ تكُون عَلَى حساب رِقِّ الآخَرِينَ، مَا هِيَ صَالِحَةٌ.

نَقُولُ: أَنْتَ الآنَ زعمتَ أَنَّ الزِّنَا صلاحٌ؛ لأَنَّهُ حُرِّيَّة، لَكِنَّهُ حُرِّيَّة لَكَ رِقٌّ لغَيْرِكَ، وفساد للأنسابِ، واختلاطٌ فِي المياهِ، وتشويهٌ للسُّمعةِ، فيَخْرُج الشَّعْب كُلُّ واحِدٍ لَا يَدري مَنْ أَبُوه؛ لأَنَّ المياهَ اختلطتْ.

وهناك أَيْضًا مرضٌ جديدٌ بسببِ الزِّنَا؛ مَرَض خَبِيثٌ أَرْسَلَهُ اللهُ عقوبةً ورجزًا مِنَ السَّماء وهُوَ الإِيدزُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب: إذا باع الوكيل شيئا فاسدا، فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢)، ومسلم: كتاب المُساقَاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، رقم (١٥٩٤).

وكذلك السَّرِقَة؛ قَالَ: أسرقُ مئة ريالٍ، أو أسرقُ عَشَرَةَ آلافِ ريالٍ، أو أسرِقُ عِشْرِينَ ألفِ ريالٍ وأذْهَبُ لأشترِيَ سيَّارَةً وأؤسِّس البَيْتَ، فهَذِهِ حُرِّيَّة، لَكِنْ عَلَى حسابِ الآخَرِينَ، فهَذَا المسروقُ مِنْهُ يُمكن أَلَّا يَكُونَ عِنْدَهُ إِلَّا الَّذِي سرقْتَهُ، فأصبحَ هَذَا المسروقُ مِنْهُ فقيرًا مُعْدِمًا، وأصبحتَ أَنْتَ غنيًّا بغَيْرِ حَقٍّ مِنْ أَكْلِ المالِ بالباطلِ، أينَ الحُرِّيَّةُ! هَذِهِ حُرِّيَّةٌ خادِعةٌ باطِلة عَلَى حسابِ رِقِّ الآخَرِينَ.

والَّذِي يشربُ الخَمْرَ وقَالَ: دعونِي أَكُنْ حُرًّا أشربُ الخَمْر، سواء خَمْرٌ اشترَاهُ أَوْ صنعَهُ ويُريد أَن يشربَهُ، هَذِهِ حُرِّيَّة، نَقُولُ له: أَنْتَ زعمتَ أَنَّهَا حُرِّيَّة، وَهِيَ رِقٌّ لكَ أَنْتَ قَبْلَ كُلِّ أحدٍ؛ لأنَّ شاربَ الخمرِ يُصبح مجنونًا أَو شِبْهَ مجنونٍ يتكلَّمُ بكلامٍ غَيْرِ معقولٍ.

ذَكَرَ بَعْضُ الوعَّاظ -وما أدري هَلْ هَذَا صَحِيحٌ أَو لَا- أَنَّ شارِبَ خَمْرٍ جَعَلَ يَبُولُ ويتوضَّأُ ببولِهِ، ويقولُ: اللَّهُمَّ اجعلنِي مِنَ التَّوَّابِينَ واجعلنِي مِنَ المتطهِّرِينَ. وَهَذَا يُمكن أَن يقعَ؛ لأنَّ السُّكْرَ -نسأَلُ اللهَ العافيةَ- يؤدِّي إِلَى الجنونِ.

وكانَ حَمْزَةُ قَبْلَ تحريمِ الخَمْرِ قَدْ سَكِرَ، فعَدَا عَلَى نَاقَتَيْنِ لعَلِيِّ بْنِ أَبِي طالبٍ، فَأَجَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وَبقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، فشَكَاهُ للنَّبِيِّ ﷺ فجاءَ إِلَيْهِ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فعَلَ، فَإِذَا حَمْزَةُ قَدْ ثَمِلَ، مُحْمَرَّةً عيناهُ، فَنظَرَ حَمْزَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنظَرَ إِلَى رُكْبَتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنظَرَ إِلَى سُرَّتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ حَمْزَةُ: هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي؟ فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ ثَمِلَ، فَنَكَصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَقِبَيْهِ القَهْقَرَى[١].

---

(١) أخرجه البخاري: أول كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩١)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمور، رقم (١٩٧٩).

فالسُّكْرُ يُؤدِّي إِلَى الذُّنـوب، وَهَذَا رِقٌّ، فقدِ انحبَسَ عقـلُكَ الآنَ وصِرْتَ مأسورًا لَيْسَ عندكَ حُرِّيَّة، فأينَ الحُرِّيَّة!

ويأتِي الصِّنفُ الرَّابعُ المُلحِدُ المارِقُ مِنَ الإِسْلَامِ ومِنَ الأديانِ كلِّها، يَقُولُ: الأديانُ أفيونُ الشُّعوبِ تُؤخِّر الشُّعوبَ. نَقُول: كذبتَ، الأديانُ عِزُّ الشُّعوبِ، ولِهَذَا كَانَتِ الأُمَّة الإِسلاميَّةُ وَهِيَ متمسِّكَة بدينِهَا كَانَت أعزَّ دولِ العالَمِ، ملكُوا كِسْرَى وقَيْصَرَ، وكِسْرَى وقَيْصَرُ فِي ذَلِكَ الوقتِ كالرُّوسِ والأَمْرِيكَانِ فِي وقتنَا هَذَا، أعظمُ دَوْلَةٍ مَلَكَها الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي سنواتٍ قليلةٍ، فكيف يُقَالَ: إِنَّهُ أفيونُ الشُّعوبِ!

لكِنْ ضعـفُ الشَّخصيَّة فِي الوَاقِعِ عِنْـدَ المنتسبينَ للإِسلامِ هِيَ الأفيـونُ فِي الحقيقةِ، مَعَ الأسفِ الآنَ الشُّعوب الإِسلاميَّة عِنْدَها ضَعْفُ شخصيَّة وعندَها تبعيَّة للكفَّار، لَا تَرى فِي نفسِها القوَّة وَلَا الانتصارَ الَّذِي وعدَها اللهُ؛ لأنَّ العُدَّةَ الَّتِي يَكُون بِهَا النَّصْرُ مفقودةٌ من غالبِ الشُّعُوب الإِسلاميَّة.

وَلَكِنْ نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ الشُّعُوبَ الإِسلاميَّة اليومَ فِيهَا -وللهِ الحـمدُ- صَحوة ويَقَظة تبيَّنُ لكثيرٍ مِنْ شبابِهَا أَنَّ التَّبعيَّة للكفَّار مهزلةٌ ومَذَلَّة، وأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نكونَ أمَّة إِسلاميَّة قويَّة تَدِين بدِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لتَقْهَرَ أعداءَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣] لأيِّ شَيْءٍ؟ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يَعْنِي ليجعله فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَظهرُ الإِسْلَامُ إِلَّا بظهور أهلِهِ، وَلَا يَظْهَرُ أهـلُ الإِسْلَام إِلَّا بإِظهارِهم للإِسلامِ وافتـخارِهم بِهِ واعتزازِهم بِهِ، وألَّا يجـعلُوا أنفسَهُم أذنَابًا للغَيْرِ.

إِذَنْ تبيَّنَ -والحمدُ للهِ- أَنَّ الدِّينَ الإِسلاميَّ فِيهِ كَمَالُ الحريَّة، لَكِنَّهَا حُرِّيَّة مُتَّزِنَة تقيِّد النَّزَوَاتِ وتُقيِّد الانطلاقاتِ الزَّائفة، وتجعَلُ مِنَ الشُّعُوبِ شعبًا معتدلًا متوازنًا.

بَقِيَ عندنَا شُبهةٌ أُخْرَى أشرتُ إِلَيْهَا، وَهِيَ قولُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ**»، هَذَا الحَدِيثُ استدلَّ بِهِ كثيرٌ مِنَ المتأخِّرِينَ عَلَى تحليلِ كثيرٍ مِنَ المحرَّمَاتِ فِي بابِ المعاملاتِ، وقَالَ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ**»، وَهَذَا الاستدلالُ غَيْرُ صحيحٍ.

نَقُولُ: مَا سببُ الحَدِيثِ؛ حَتَّى نعرِفَ مَا المُرَادُ بِهِ؟

سببُ الحَدِيثِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ وَجَدَ النَّاسَ يَصْعَدُونَ إِلَى فُحُولِ النَّخْلِ ويأخذونَ ثَمَرَهَا، ثُمَّ يَنْزِلُونَ مِنْهَا ثُمَّ يَصْعَدُونَ إِلَى إِنَاثِ النَّخْلِ ويُلَقِّحونَهَا بِثَمَرِ الفُحول، وَهَذَا فِيهِ تعبٌ، وَفِيهِ إِضاعةُ وَقْتٍ، وَفِيهِ خطرٌ، فقَدْ يسقُطُ الإِنْسَانُ مِنَ النَّخلة، فلَمَّا رأَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ قَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**». فتركَهُ النَّاسُ وصارُوا لَا يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، ففَسَدَتِ الثِّمَارُ تِلْكَ السَّنَةَ، والَّذِي أفسدَهَا عدمُ التَّأْبِيرِ، فمَا لُقِّحَتْ، وعادةً إِذَا لَمْ تُلَقَّحِ النَّخْلُ أصبحَتْ شِيصًا فاسدةً لَا يُنتفَعُ بِهَا، فجاؤُوا للرَّسُولِ ﷺ وأخبرُوهُ فقَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ**». مَا قَالَ بأحكامِ دُنْياكم، فأحكامُ الدُّنْيَا والدِّينِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنْ مَا يَكُونُ بالتَّجارب هَذَا إِلَى الإِنْسَان، فقَدْ يدركُ بالتَّجارب مَا لَا يدركه الآخرُ.

فأَنَا الآنَ لَوْ طُلِبَ منِّي أَنْ أصنعَ كرسيًّا أو مسجِّلًا مَا عرفتُ، ويجيءُ لُكَعُ ابْنُ لُكَعَ ويصنَعُ الكرسيّ ويصنعُ المسجِّل، وَهُوَ دُونَكَ فِي العلمِ والمعرفةِ والتَّقوى؛ لأَنَّهُ تعوَّدَ بالممارَسَةِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أرادَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مَسَائِلَ الصِّنَاعَةِ والحِرْفة تَرْجِع إِليكُم، أَنْتُمْ أعلمُ بِهَا، فكُلُّ مَن كَانَ محترفًا فِي شَيْءٍ فَهُوَ أعلمُ بِهِ مِنْ غَيْرِه، أَمَّا الأَحكامُ فَهِيَ إِلَى الشَّرع، فالشَّرْعُ يقولُ: هَذَا حرامٌ، ويقولُ: هَذَا حَلَالٌ،

لَكِنِ الصِّنَاعةُ حِرْفَة تعودُ إِلَى الصَّانعِ، ولِهَذَا فإِنَّ النَّجَّارَ يَعْرِفُ كَيْفية النجارة، لَكِنِ الحدَّاد لَا يعرِفُ كَيْفية النجارة، والنَّجَّار لَا يعرفُ الحدادة، فكُلُّ إِنسان لَهُ صنعتُه.

إِذَنْ هَذَا الحَدِيثُ الَّذِي تشبَّثَ بِهِ بَعْضُ المعاصرينَ اليومَ، وقَالَ: إِنَّهُ إِذَا كنَّا أعلمَ بأمورِ دنيانَا فنَحْنُ نرى أَنَّ الاقتصادَ لَا يقوم إِلَّا بالرِّبا، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ عندنَا علمٌ غَيْرُ علمِ الشَّرْع، فالرِّبَا حلالٌ.

نَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، لسنَا أعلمَ بالأحكامِ مِنْ رَسُول اللهِ ﷺ، لَكِنْ فِي الصَّنائعِ والحِرفِ الَّتِي لم يمارسْهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَكُونُ النَّاسُ أعلمَ مِنْهُ بها، ولِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يُلقِّحون النَّخْل أعلمَ مِنَ الرَّسُول فِي التَّلقيح، فالأمرُ والحمدُ للهِ واضحٌ، وشريعةُ اللهِ لَا تتغيَّر وَلَا تتبدَّلُ أبدًا.

وقدِ استدلَّ بَعْضُ النَّاس ببعضِ التَّصرفات مِنَ الخلفاءِ فقَالُوا: إِنَّ بَعْضَ الخلفاء غيَّر الحكمَ الشَّرعيَّ لمصلحةٍ رآها. قُلْنَا: مَنْ؟ قَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعَلَ الطَّلاق الثَّلَاثَ ثَلَاثًا[1]، وكانَ الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ فِي عهدِ الرَّسُول ﷺ وأَبِي بكرٍ وسنتَيْنِ من خلافةِ عُمَرَ الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ واحدةً، يَعْنِي لَوْ قَالَ الإِنْسَانُ لزوجتِهِ: أَنْتَ طالقٌ ثلاثًا، لَا يَقَعُ إِلَّا واحدةً، فَلَمَّا كثُر ذَلِكَ فِي زمنِ عُمَر ألزمَ النَّاسَ بما ألزَمُوا بِهِ أنفسَهُم، وجَعَلَ الثَّلَاثَ ثلاثًا. قَالَ: هَذَا تغييرٌ اقتضَتْهُ الحالُ، فَإِذَا اقتضتِ الحالُ أَن نُحلِّلَ الرِّبَا حلَّلْنَاه.

وَقَالَ أيضًا: إِنَّ عُمَر بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أكثرَ النَّاسُ مِنْ شُرْبِ الخمرِ استشارَ الصَّحابةَ وقَالَ: مَا رأيُكم؟ لأنَّ شُرْبَ الخمرِ لَيْسَ فِيهِ حدٌّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

فَإِنَّهُ كَانَ يُؤتى بالشَّاربِ فِي عهدِ النَّبِيِّ ﷺ فيقُوم النَّاسُ إِلَيْهِ يضربونَهُ، فمِنْهُم مَنْ يضربُ باليَدِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَضْرِبُ بطرَفِ الثَّوب، ومِنْهُم مَنْ يضرب بالنَّعل، ومِنْهُم مَنْ يضربُ بالجريدِ، بدونِ حدٍّ معينٍ، ولِهَذَا قَالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ: «مَا كُنْتُ لِأُقِيمَ حَدًّا عَلَى أَحَدٍ فَيمُوتَ، فَأَجِدَ فِي نَفْسِي، إِلَّا صَاحِبَ الخَمْرِ، فَإِنَّهُ لَوْ مَاتَ وَدَيْتُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَسُنَّهُ»(١).

استشار عُمَر الصَّحابةَ: ماذَا نصنَعُ؟ النَّاسُ انهمكُوا فِي الخمرِ، فقال عبدُ الرَّحْمَنِ ابنُ عَوْفٍ: أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَأَخَفِّ الحُدُودِ. فَجَلَدَ عُمَرُ ثَمانِينَ(٢).

فنقُول فِي الجوابِ عَنْ هَذَا: إِنَّ عُمَر بنَ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يغيِّرِ الحكمَ الشَّرْعِيَّ وَلَكِنَّهُ زادَ فِي العقوبةِ؛ سواء فِي مسألةِ الطَّلَاق الَّذِي ألزمَهُم به، أو فِي مسألةِ زيادة عقوبةِ شاربِ الخَمْر، والزِّيَادة فِي العقوبةِ تَقْتَضِيها المصلحةُ، فأَنْتَ الآنَ لَوْ قلتَ لما انهمكَ النَّاسُ فِي الرِّبا: سأشدِّد عليهم التَّحريم. قُلْنَا: هَذَا صحيحٌ، أَمَّا أَن تقولَ لما انهمَكَ النَّاس فِي الرِّبا: سأحلِّلُ لَهُمُ الرِّبا، فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وإلا لكَانَتِ الشَّريعةُ ألعوبةً كُلُّ جيلٍ يتَّخِذُ شريعةً خاصَّةً لَهُ. وصَلَّى اللهُ وسلَّم عَلَى نَبِيِّنا محمَّد وَعَلَى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِينَ.

نعودُ الآنَ لنكملَ الكلامَ عَلَى تفسيرِ الفَاتِحَةِ؛ لِأَنَّهَا ركنٌ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، فَلَا بُدَّ أَن يعرفَها الإِنسانُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، رقم (٦٧٧٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦).

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ذَكَرَهَا بلفظِ الجَمْعِ: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ والسَّائل واحِدٌ، وَكَانَ المتوقَّع أن يقَالَ: اهدِني؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي الاستفتاحِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ؛ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يستفتِحُ صَلَاةَ اللَّيْلِ بقولِهِ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1].

قَالَ: «**اهْدِنِي**»، ولم يَقُلِ: اهدِنَا، فلِمَاذا جاءتْ فِي سورةِ الفَاتِحَةِ بكلمةِ ﴿ ٱهْدِنَا﴾ وأنتَ تَدْعُو وحدَكَ عندما تُصَلِّي منفردًا أو تُصَلِّي حَتَّى مَعَ الإِمَامِ وتقول: ﴿ ٱهْدِنَا﴾؟

قَالَ أَهْل العِلْمِ: لأَنَّ المقامَ يقتضي ذَلِكَ؛ فإِنَّ مَنْ كَانَ يَدْعُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ فِي مقامٍ عالٍ ومَنْزلةٍ رفيعةٍ؛ لأَنَّ الدُّعاء عبادةٌ. وَلَكِنْ قَدْ يقَالَ: هَذَا يُنتقضُ بأَنَّ الرَّسُولَ قَالَ: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ**»[2] وَهُوَ دعاءٌ، وَلَكِنِ الظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أَنَّهُ لما عَلِم اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ سيقرؤُها مَنْ يَكُون إمامًا للنَّاسِ صارَتْ بلفظ ﴿ ٱهْدِنَا﴾؛ ليَكُونَ الدُّعاءُ للإِمامِ القارئِ ولمن خَلْفَه، ولو كَانَ الإِمَامُ يَقُولُ: «اهْدِنِي الصِّرَاط المستقيمَ» لكانَ يَدْعُو لنفسِه، وَلَا يَلِيقُ أَنْ يدعُوَ لنفسِهِ، ثُمَّ يقولُ النَّاسُ وراءه: آمينَ، فيؤَمِّنون عَلَى دعاءٍ لَا ينتفِعُ بِهِ إِلَّا الدَّاعي، هَذَا مَا ظَهَرَ. واللهُ أعلم.

على كُلِّ حال نَحْنُ نَقُول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الضَّميرُ يعودُ عَلَى جميعِ الأمَّةِ الإِسلاميَّة، وَلَا يمكن أَن تَكُونَ الأمةُ الإِسلاميَّةُ رفيعةَ المقامِ عزيزةَ المنالِ إِلَّا إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠).

تمَّتِ الهدايَةُ لَهَا جميعًا بحكامِها ومحكومِيها؛ فإِنِ انتفتِ الهدايَةُ فِي أحدٍ مِنْهُم اختلَّ مِنَ العزةِ والكرامةِ بقدرِ مَا اختلَّ مِنَ الهدايةِ، ولِهَذَا ينبغِي لنا أَن نستشعِرَ ونَحْنُ نَقُول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَنَّنا ندعُو لأنفسِنا وللأمَّةِ جميعًا.

ثم قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ الخطابُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وهُمْ أربعةُ أصنافٍ بيَّنَهُمُ اللهُ فِي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩]، والذينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِم هُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الحَقَّ وعَمِلُوا به، فهؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِم، وهم أربعةُ أصناف فِي هَذِهِ الآيَةِ؛ قَالَ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣]، وَفِي آيَةٍ ثالثةٍ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فأضافَ الصِّراطَ إِلَى نفسه، وَهُنَا أَضَافَهُ إِلَى البَشَرِ، إِلَى غيرِه، فكَيْفَ يَكُونُ الأمرُ؟ هَلْ هُنَاكَ تناقضٌ أَو هُنَاكَ وجهُ جَمْعٍ؟

الجَوَاب: هُنَاكَ وَجْهُ جَمْعٍ؛ وَذَلِكَ لأنَّ القُرْآن لَا يُمكن أَن يتناقضَ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، فَلَا يُمكن أَن يتناقضَ القُرْآن بعضُه مَعَ بَعْضٍ، وَلَا يُمكن أَن يتناقضَ القُرْآن مَعَ صَحِيحِ السُّنَّةِ، وَلَا يمكنُ أَن تتناقضَ السُّنَّةُ الصَّحيحةُ بعضُها مَعَ بَعْض أبدًا، فإِنْ تَرَاءَى لكَ تَنَاقُضٌ فَأَعِدِ النَّظر مرةً بَعْدَ أُخْرَى، حَتَّى يتبيَّنَ لكَ أَنْ لَا تناقضَ، فإِنْ لم يتبيَّنْ فاعلمْ أَنَّ علمَكَ قليلٌ وفهمَكَ ثقيلٌ، علمُكَ قليلٌ لأَنَّكَ لـم تعرفِ الأدلَّةَ الَّتِي يَكُون بِهَا الجمعُ، أَو فهمُكَ ثقيلٌ لأَنَّكَ بليدٌ مَا تعرِفُ كَيْفَ تجمعُ بَيْنَ النُّصُوصِ، أَمَّا مَعَ العلمِ والفَهْمِ، فَإِنَّهُ

لَا يُمكن أَن يوجدَ تناقضٌ فِي كتابِ اللهِ وَلَا تناقضُ فِي سُنَّةِ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وَلَا تناقض بَيْنَ كتابِ اللهِ وسنةِ الرَّسُول ﷺ.

وجهُ الجمع بَيْنَ هَذِهِ الآيَةِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وآيَةِ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى:٥٣] سهلٌ، فنَقُولُ: أُضيفَ الصِّرَاط إِلَى اللهِ لأمرَيْنِ: الأمرُ الأوَّل أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وضعَه لعبادِه وشَرَعه لهُم، والأمرُ الثَّانِي أَنَّهُ موصِّل إِلَيْهِ؛ كَمَا لَوْ قلتَ مَثَلًا: هَذَا طريقُ مكَّة. لَمَاذَا طريقُ مكَّةَ؟ يَعْنِي موصِّل إِلَيْهَا، فصارتْ إِضافةُ الصِّرَاط إِلَى اللهِ لأمرَيْنِ: الأمرُ الأولُ: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وضعَه وشَرَعَهُ لعبادِهِ. والثَّانِي: أَنَّهُ موصِّل إِليهِ.

ووجهُ إِضافتِه إِلَى الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِم لأَنَّهُم هُمُ الَّذِينَ رَضُوهُ وسَلَكُوهُ، فأُضِيفَ إِلَيْهِم، كَمَا تَقُولُ مَثَلًا: هَذَا شارِعُ فلانٍ، إِذَا كَانَ هُوَ الَّذِي يَمْشِي فِيهِ ويَسِير عَلَيْهِ، هَذَا أَيْضًا الصِّرَاطُ أُضيف إِلَى الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِم؛ لأَنَّهُم رضُوا هَذَا الصِّرَاط وسَلَكُوهُ، فأُضِيفَ إِليهِم.

إِذَنْ لَا تناقضَ بَيْنَ الآيَاتِ؛ لأَنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنْهَا حُمِلَت عَلَى وجهٍ لَا يُناقِضُ مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الآيَةُ الأخرى.

والذين أنعمَ اللهُ عَلَيْهِم هُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الحَقَّ وعَمِلُوا بِهِ، وهُمْ أربعةُ أصنافٍ: النَّبِيُّون والصِّدِّيقون والشُّهداء والصَّالحون، ويدخل فِي النَّبِيِّين هُنَا الرُّسل مِنْ باب أولى؛ لأَنَّ كُلَّ رسولٍ نبيٌّ، ولَيْسَ كُلُّ نبيٍّ رسولًا، ومَعْلُومٌ أَنَّ الأعمَّ يدخلُ فِيهِ الأخصُّ.

الصِّدِّيقون هُمُ الَّذِينَ قالُوا الصِّدق وصدَّقُوا به، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ

بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر:٣٣] فمَن قَالَ الصِّدقَ وصدَّق بِهِ فَهُوَ صِدِّيقٌ، ومَنْ قَالَ الكَذِبَ أَو كذَّب بالصِّدْقِ فلَيْسَ بالصِّدِّيق، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»(١).

والشُّهداءُ قِيلَ: هُمُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سبيلِ اللهِ. وقيلَ: هُمُ العُلَماءُ. والقاعدةُ فِي التَّفسير أَنَّ الآيَةَ إِذَا كَانَتْ تحتمِلُ معنيَيْنِ لَا يتناقضانِ فَإِنَّهَا تُحمَل عَلَيْهما جميعًا؛ لأنَّ ذَلِكَ أوسَعُ فِي مدلولِها، فإِنْ كَانَا يتناقضانِ رُجِّحَ مَا يترجَّح وتُرِكَ الآخَرُ.

مثالُ المعنيَيْنِ اللَّذَيْن لَا يتناقضانِ هَذِهِ الآيَة: الشَّهداء، فَإِذَا فُسِّرَتْ بالعُلَماء وبالذين قُتِلُوا فِي سبيلِ اللهِ لم تتناقضْ.

وكَذَلِكَ هُنَاكَ أمثلةٌ أُخـرَى، مثل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨]، معنَى عَسْعَسَ: أقبلَ، وقِيلَ: مَعْنَاهُ أدبَر، وَلَا تناقضَ بَيْنَ المعنيينِ؛ لأنَّ الصُّبحَ حِينَ إدبارِه وإقبالِه آيَة مِنْ آياتِ اللهِ، فَهُوَ آيَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ فِي حالِ الإِدبارِ وَفِي حالِ الإِقبالِ، ولِهَذَا أقسمَ اللهُ باللَّيْلِ إِذَا عسعسَ وبالصُّبْح إِذَا تنفَّسَ، يَعْنِي أَقْسَمَ الله باللَّيْل فِي حالِ إقبالِهِ وَفِي حالِ إدبارِه؛ لأنَّ إقبالَهُ وإدبارَه كِلَاهُما مِنْ آيَاتِ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

أمَّا إِذَا تناقـضَ المعنيانِ، فيجبُ التَّرجيحُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة:٢٢٨] والقُروءُ جَمْـع قَرء بالفَتْح، وفُـسِّرَ القَرءُ بالحَيْضِ، وفُسِّر القَرْء بالطُّهر، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يختلفُ المعنَى، وَلَا يمكنُ أَن يلتئِمَ هَذَا المعنَى مَعَ هَذَا المعنى، بَلِ المعنَى إِمَّا كذَا وإِمَّا كذَا، فالمعنيانِ يتناقضانِ، وَلَا يمكنُ أَن يتَّفِقَا، وَحِينَئِذٍ نعمَلُ بالتَّرجيح، والرَّاجِحُ أَنَّ القَرْء هُوَ الحَيْض؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي المستحاضَةِ: «**اجْلِسِي أَيَّامَ أَقْرَائِكِ**»[1]، يَعْنِي أَيَّام حَيْضِك.

على كُلِّ حالٍ، لَيْسَ هَذَا المقامُ مقامَ تَرجيح، لَكِنْ أريدُ أَن أمثِّلَ لهِذِهِ القاعدةِ التفسيرِيَّة: «إِذا احْتَمَلَتِ الآيَةُ معنيينِ لَا يتناقضانِ حُملت عَلَى المعنيَيْنِ جميعًا»؛ لأَنَّ حملَها عَلَى المعنيَيْن جميعًا أوسعُ فِي مدلولِها، وَإِذَا كَانَ المعنيانِ يتناقضانِ وَجَبَ التَّرجيحُ وعَمِلْنا بالرَّاجحِ.

إِذَنِ كلمة الشهداء تشمَلُ العُلَماءَ والذين قُتلوا فِي سبيلِ اللهِ، والعُلَماءُ أعظَمُ شَهَادَةً مِنْ غيرِهم؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]، والملائكةُ وأولُو العلمِ شَهِدُوا بوحدانيَّةِ اللهِ، وكلَّما كَانَ الإِنْسَانُ أعلمَ كَانَتْ شهادتُه بتوحيدِ اللهِ أقومَ وأوكدَ وأعظمَ، ولِهَذَا يَشْهَدُ العُلَماءُ مِنْ آيات اللهِ وتوحيدِه مَا لَا يشهدُهُ غيرُهم، ومِنْ ثُمَّ يَتَسَلَّطُ الشَّيْطَان عَلَى طالبِ العلمِ بإِلقاء الوساوسِ فِي قلبه، حَتَّى إِنَّهُ يأتي بوَسَاوِسَ يحبُّ الإِنْسَانُ أَن يحترِقَ وَلَا يتكلَّمُ بها، ويُحِبُّ أَن يسقطَ مِنَ السَّماء ويتمزَّقَ قبلَ أَن يَصِلَ إِلَى الأَرْضِ وَلَا يتكلَّمُ بِهَا، وهي وساوسُ عظيمةٌ خطيرةٌ يُلقيها الشَّيْطَانُ فِي قلبِ الإِنْسَان إِذَا رأَى مِنْهُ إِقبالًا عَلَى

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٤، رقم ٢٥٦٨١).

العلمِ؛ لأنَّ العِلْمَ يُوَصِّل إِلَى اليقينِ، والشَّيْطَانُ يُريدُ منَّا أَن نشكَّ، وأن ننخلِعَ مِنَ الدِّين، لَكِنْ هَذِهِ الوساوسُ لَا تؤثِّرُ في الإِنسانِ، بَلْ هِيَ صريحُ إِيمانِهِ كَمَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أخبروهُ بِذَلِكَ؛ قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[1].

سبحانَ اللهِ! وساوسُ تَكُونُ صريحةً؟ نَعَمْ؛ لأنَّ هَذِهِ الوساوسَ إِنَّمَا يُلقيها الشَّيْطَانُ عَلَى قلبٍ صَرِيحِ الإِيمانِ، يَعْنِي خالصَ الإِيمانِ؛ لأنَّ القلبَ الَّذِي عِنْدَهُ شكوكٌ يَكُونُ الشَّيْطَانُ مَعَه مستريحًا، مَا يأتي إِلَيْهِ أصلًا؛ لأَنَّهُ خرابٌ، ولِهَذَا قِيلَ لابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نُوَسْوَسُ، فَقَالَ: «صَدَقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالبَيْتِ الخَرَابِ؟»[2]. فالشَّيْطَانُ يأتِي للقلبِ العامرِ حَتَّى يدمِّرَه.

وَلَكِنْ دواءُ هَذِهِ الوساوسِ أمرانِ:

الأَوَّل: أَنْ يستعيذَ بالله، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[3]، يستعيذُ باللهِ يَعْنِي يقول: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَان الرَّجِيم، لَكِنْ يقولُها بقلبٍ صادقٍ مُفتقِرٍ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا يقولُها عَلَى اللِّسان وَلَا تَصِلُ إِلَى القلبِ؛ لأَنَّهُ إِذَا قالَها عَلَى اللِّسان ولم تصلْ إِلَى القلبِ لَا ينتفِعُ بِهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَن يشعُرَ فِي تِلْكَ الحالِ أَنَّهُ مُفتقِرٌ إِلَى اللهِ، وأَنَّهُ مُعْتَصِمٌ بِهِ، وأنَّ أمامَهُ عدُوًّا يُهاجِمه وَهُوَ الشَّيْطَان، ويلتجِئ إِلَى مَنْ بيدِهِ ملكوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٢) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب (ص:٢٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

الثَّاني: أَن ينتهيَ، يَعْنِـي يُعْرِض عَنْ هَـذَا ويتركهُ، كأَنَّه لَا شَيْء يُلْهَى عَنْه، وَلَا يلتفتُ إِليه، وكثيرٌ مِنَ النَّاس الآنَ يأتيهِ الشَّيْطَانُ فِي مسألةِ الوُضوء ويقولُ لَهُ: إِنَّكَ أحدثتَ، فيبدأُ يَشُكُّ هَـلْ أحدَثَ أَو لَا، نَقُولُ: استعذْ باللهِ وانتهِ عَنْ هَـذِهِ الوساوسِ، وَلَا تخرُجْ مِنَ المَسْجِد أَو تقطعِ الصَّلَاة حَتَّى تسمعَ صوتًا أَو تجدَ رِيحًا.

والصَّالحون هُمُ الَّذِينَ صَلَحُوا فِي ظاهِرِهم وباطنِهم، وصلاحُ الإِنْسَانِ يَكُون بفِعْلِ الأوامرِ وتَرْكِ النَّواهي، لَكِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، بَلْ يَكُونُ دونَ ذَلِكَ، فالصَّالح مَن قام بحقِّ اللهِ وحقِّ العبادِ، وإِن لم يَصِلْ إِلَى مرتبةِ الصديقيَّة والشهادةِ.

ثمَّ قَالَ عزَّوَجَلَّ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إِذَا قُلنا: إِنَّ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهم هُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الحَقَّ وعَمِلُوا بِه، فقَسِيمُ هَؤُلَاءِ اثنانِ: مَن جَهِلَ الحَقِّ ومَنْ عَلِم بِهِ ولم يَعْمَلْ بِهِ، ولِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالمغضوبُ عَلَيْهِم هُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الحَقَّ ولَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، وَعَلَى رأسِهِمُ اليهودُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، وهَؤُلَاءِ هُمُ اليهودُ، فقد عَلِمُوا الحَقَّ، يَعْرِفُون النَّبِـيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ كَمَا يَعْرِفُون أبناءَهم، وَلَكِنْ كذَّبوهُ، فصارُوا عالمينَ بالحَقِّ وليسُوا عامِلِينَ بِهِ.

والضَّالُّ هُوَ مَن لم يعلمْ بالحَقِّ وصارَ يتخبَّطُ فِي عبادتِهِ خَبْطَ عشواء، وَعَلَى رأس هَؤُلَاءِ النَّصَارَى؛ فإِنَّ النَّصَارَى ضالُّون لعدمِ علمِهم بالحَقِّ، لَكِنْ إِذَا عَلِمُوا الحَقَّ ولم يَعْمَلُوا بِهِ صارُوا من جِنْسِ اليَهُودِ.

أنتَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ الآنَ تسألُ اللهَ أَن يهـدِيَكَ صراطَ الَّذِينَ أنعمَ عَلَيْهِم، وأن يجنبكَ صراطَ الَّذِينَ غَضِب اللهُ عَلَيْهِم أَو أضلَّهم.

ومَن عصَى مِنْ علماءِ هَذِهِ الأمَّة يَكُونُ مِنَ المغضوبِ عَلَيْهِم. ومَن عَصَى مِنْ عُبَّادِنا الجُهَّال فَهُوَ مِنَ الضَّالين، ولِهَذَا قَالَ سُفْيَان بنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادنا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى»[1]؛ لأنَّ النَّصَارَى عَبَدُوا اللهَ عَلَى ضلالٍ، واليهود استكبرُوا عَنْ عبادةِ اللهِ عَنْ علمٍ.

فصارَتْ هَـذِهِ الآيَة الكريمةُ تشتمِل عَلَى العديدِ مِنَ المعاني الَّتِـي لَهَا أهميَّةٌ عظيمةٌ فِي حياة الفردِ والمجتمعِ أَيْضًا، وَلَكِنْ هل نَحْنُ نستحضِرُ هَذِهِ المعانِيَ؟ لَا، مَا نستحضرُ هَذِهِ المعانِيَ، بَلْ نقرؤُهَا للتعبُّد بلفظِها فَقَطْ، أمَّا المعنَى فنحنُ لَا نعلمُه.

ويأسَـفُ الإِنْسَان أَن يُوجدَ مِن إخوانِهِ -ولَا سِيَّـما الشَّباب- مَنْ لَا يعرِفُ معنَـى مَا يَقْرَأُ؛ لأنَّ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُون معنَـى مَا يقرؤُون وصفَهم الله بأنَّهم أُمِّيُّـون؛ فقَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أَي: إِلَّا قراءةً، مَا يَعْرِفُون الكِتَاب إِلَّا قراءةً، أمَّا المعنَى فلَا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ -خصوصًا الصَّحابةَ- لَا يتجاوزون عَشْرَ آياتٍ، حَتَّى يتعلَّموها وَمَا فِيهَا مِنَ العِلم والعَمَل، قالُوا: فتعلمْنَا القُرْآنَ والعِلمَ والعَملَ جميعًا[2].

وهكَذَا المؤمنُ يتربَّى بعلمِه وينتفعُ بِهِ، لَا يَكُون كالحمارِ يحمِلُ أسفارًا لَا ينتفعُ بها، فَلَوْ أتيتَ بالعديد مِنَ الكتبِ النَّافعةِ وحملتَها عَلَى الحمارِ، فلن يصبحَ الحمارُ عالمًا،

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٤/ ١٣٨).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠).

وإِنَّمَا هُوَ بليدٌ، سواءٌ حَمَّلْتَهُ كتبًا أم لَا، وَقَدْ مثل الله عَزَّوَجَلَّ بأَنَّهم كالحمار فقَالَ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] لَا ينتفعُ بها.

فأنتَ يا طالبَ العلمِ إِذَا حملتَ العلمَ فانتفعْ بِهِ، وأنتَ يَا قارئَ القُرْآن إِذَا حملتَ القُرْآن فانتفعْ بِهِ، اعرِفْ مَعْنَاهُ وطبِّقْه؛ حَتَّى لَا يَكُونَ القُرْآنُ حجَّةً عَلَيْكَ؛ لأَنَّ القُرْآنَ إِمَّا حجَّةٌ لِلإِنْسَانِ، وإِمَّا حجَّة عَلَى الإِنسانِ.

إِذَنْ ينبغِي أَن نعرِفَ معنَى هَذِهِ السُّورَةِ العظيمةِ ولو عَلَى سبيلِ الإِجمالِ، حَتَّى إِذَا قرأْنَاهَا انتفعْنَا، أَمَّا أَنْ نقرأَهَا ونَحْنُ لَا نعرِفُ المعنَى، فَلَا شكَّ أَن هَذَا قصورٌ، وإِنْ كَانَ يجزئُ مِنْ حَيْثُ الإِجزاء وإِبراء الذِّمَّة، لَكِنْ هُوَ قصورٌ فِي الواقعِ.

وَفِي النِّهايَة يَقُول القارئُ: آمينَ، وآمينَ: اسمُ فعلٍ بِمَعْنَى استجِبْ، وتقولُ: آمـينَ بدونِ تشيدِ الميمِ؛ لأَنَّكَ لَوْ شدَّدْتَ الميمَ وقلتَ: آمِّـين فسيَكُونُ معناها: قاصدينَ، كَـمَا قَالَ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢] أَي قاصِدِيهِ، وبهـذا يَفسُدُ المعنَى.

وهَذِهِ السُّورَة العظيمة هِيَ ركنٌ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ يقومُ بِهَا المصلِّي، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ**»(١).

ولا بُدَّ مِنَ القِرَاءَةِ باللِّسان؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاس يقرَأُ بقلبِهِ، وبعضَ النَّاس يقرأُ بعينِهِ، وبَعْض النَّاس يقرأ بقلبِهِ فيمرُّ القُرْآن عَلَى قلبِهِ بدونِ نطقٍ، فَهَذَا لَا تُجزئُهُ قراءتُه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

فِي الصَّلَاة، وَلَا قِراءته عَلَى أَنَّهُ وِردٌ يَحمِي الإِنسانَ، وَلَا قراءته عَلَى أَنَّهُ يحصُل عَلَى عَشْرِ حَسَنَات فِي الحَرفِ.

والقِرَاءَة بالعَيْن كَذَلِكَ لَا تُجزئ؛ لأنَّ بَعْض النَّاسِ يَفْتَحُ المصحفَ، ثُمَّ ينظُرُ إِلَى الصَّفَحَاتِ ينظُرُ إِلَى الصَّفْحَةِ اليُمنى بالعَيْن يتابعُ الحروفَ بعينه، وينظُرُ للصَّفْحَةِ اليُسْرى كَذَلِكَ، فيُمكن أَن تستغرِقَ قراءةُ العينِ دقيقةً واحدةً، فيقرأُ صفحتَيْنِ يُنهيهما فِي دقيقتَيْنِ؛ لأَنَّهُ يَمُرُّ بالعَيْنِ فَقَطْ عَلَى الآيات والكَلِمات، وَهَذَا لَا يَنْفَعُه وَلَا يُثاب عَلَيْهِ، فثَوَابُ القَارِئِ بلسانِهِ، فالقِرَاءَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا باللسانِ، لَا بالقلبِ وَلَا بالعَيْنِ.

والحمدُ للهِ الذِي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ.



الدرس السادس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بَعْدُ:

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧].

إن سُورة الفَاتِحَة هِيَ أفضلُ سورِ القُرْآن الكَرِيم، وَلِهَذَا فرضَ اللهُ عَلَى عِبَاده أَنْ يقرؤوها فِي كُلِّ رَكْعَة من صلواتِهم، ومَن لَمْ يَقرأْها فلَا صَلَاةَ لَهُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَفِي حديثِ عُبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1]، وفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»[2] والخِدَاجُ هُوَ الشَّيْءُ الفَاسِدُ، وَبِهَذَا نَعْلَمُ أَنَّ النَّفْيَ فِي قَوْلِهِ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧١٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٦٠٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

نَفْيٌ للصِّحَّة؛ لأَنَّ قَوْلَه «فَهِيَ خِدَاجٌ» أَيْ فاسِدَةٌ، وقَوْلُهُ: «لَا صَلَاةَ» أَيْ لَا صَلَاةَ صَحِيحَةً، وَهَذَا هُوَ المُتَعَيِّنُ.

وَهِيَ السَّبْع المَثَانِي؛ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧].

وهَذِهِ السُّورَةُ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا فِي الحَدِيث القُدُسي: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»(١).

فهَذِهِ السُّورَة قَسَّمَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ بَيْنَهُ وبَيْنَ عَبْدِهِ نِصْفَيْنِ؛ ثَلَاثُ آيَاتٍ للهِ، وثلاثُ آيَاتٍ للعَبْدِ، وآيَةٌ بَيْنَ الرَّبِّ والعَبْدِ؛ والآياتُ الثَّلَاثُ الَّتِي للهِ هِيَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

والآياتُ الثَّلَاث الَّتِي للعَبْدِ هِيَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والَّتِي بَيْنَ الرَّبِّ والعَبْدِ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

فَالعِبَادةُ حَقُّ الله، والاسْتِعَانَةُ حَقُّ الآدمِيِّ؛ لأَنَّ الاسْتِعَانَةَ هِيَ طَلَبُ العَوْنِ.

وهَذِهِ السُّورَة وَصَفَهَا النَّبِيُّ بأمِّ القُرْآنِ؛ وأُمُّ الشَّيْء مَرْجِعُهُ، فجَمِيعُ مَعَانِي القُرْآن مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ قَدْ تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ السُّورَةُ؛ ففِيهَا التَّوْحِيدُ بأَنْوَاعِهِ، وَفِيهَا الأَحْكَامُ، وَفِيهَا الأَخْبارُ، وَفِيهَا ذِكْرُ الرِّسَالَاتِ، وَالنُّبُوَّاتِ، وَفِيهَا ذكرُ أَتباعِ الرُّسلِ، وَفِيهَا ذِكْرُ المنحرفِينَ عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ، فمَعَانِي القُرْآن كُلُّهَا تَنْصَبُّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ وَلِهَذَا سمَّاها النَّبِيُّ ﷺ «**أُمَّ القُرْآنِ**»[1].

حُكْمُ قِراءَةِ الفَاتِحَةِ فِي الصَّلاةِ:

اخْتَلَفَ فِي هَذَا العُلَماءُ اختلافًا كثيرًا، وأَرْجَحُ الأَقْوالِ أَنَّهُ لَا تَصِحُّ الصَّلَاة إِلَّا بِهَا، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفاتِحَةِ الكِتَابِ**»[2]، وقَوْلُهُ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ**»[3] يَعْنِي فَاسِدَةً.

فَلَا تَصِحُّ صَلَاةٌ لَا يُقرأُ فِيهَا بفاتحِةِ الكِتَابِ إِلَّا مَسْأَلَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الصَّلَاةِ وَالإِمَامُ رَاكِعٌ، فَإِنَّ قِرَاءَةَ الفَاتِحَة فِي هَذِهِ الرَّكْعَةِ تَسْقُطُ، والدَّلِيلُ حَدِيثُ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ المَسْجِدَ والنَّبِيُّ ﷺ رَاكِعٌ، فَأَسْرَعَ ثُمَّ رَكَعَ قَبْلَ أن يدخُلَ فِي الصَّفِّ، ثُمَّ دَخَلَ فِي الصَّفِّ، فلَمَّا انْصَرَف النَّبِيُّ ﷺ سَأَلَ: مَنِ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧١٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٦٠٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (٣٩٥).

فقَال أَبُو بَكْرَةَ: أَنَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**زَادَكَ اللهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدْ**»[1]. أَيْ: لَا تَرْجِعْ لمثلِ هَذَا العَمَلِ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ النَّبِيُّ ﷺ بإِعَادَةِ الصَّلَاةِ، وَلَا بِقَضَاءِ الرَّكْعةِ الَّتِي أَدْرَكَ رُكُوعَهَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الفَاتِحَةَ تَسْقُطُ فِي هَذِهِ الحَالِ.

وَفِي ذَلِكَ أَيْضًا تَعْلِيلٌ غَيْرُ الدَّلِيل، وَهُوَ أَنَّ القِرَاءَة ذِكْرٌ وَاجِبٌ فِي حَالِ القِيَامِ، والقِيَامُ فِي هَذِهِ الحَال سقَطَ عَنِ الْمُصَلِّي، من أَجْلِ مُتَابَعَةِ الإِمَامِ، فَإِذَا سقَطَ القِيَامُ، سقَطَ الذِّكْرُ الوَاجِبُ فِيهِ تَبْعًا لَهُ، فهَذِهِ المَسْأَلَةُ -عَلَى القَوْلِ الرَّاجِحِ- تَسْقُطُ فِيهَا قِرَاءَةُ الفَاتِحَة، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ العُلَمَاءِ خَالَفَ فِي هَذَا، لَكِنْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الحَدِيثُ أَقْوَى.

فإِنْ قَالَ قَائلٌ: هَلْ يَقْرَأُ الإِنْسَانُ الفَاتِحَةَ لَوْ دَخَلَ والإِمَامُ قَدِ انتهى مِنْهَا، وشَرَعَ فِي قِرَاءَة السُّورَةِ، فَهَلْ يقرؤُهَا أَوْ يُنْصِتُ لِقِرَاءَةِ الإِمَامِ؟

الجَوابُ: يَقْرَؤُهَا عَلَى القَوْل الرَّاجِح، وَلَكِنْ لَا تَسْتَفْتِحْ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهى أَصْحَابَهُ عَنِ القِرَاءَةِ فِيمَا يُجْهَرُ فِيهِ إِلَّا بأمِّ القُرْآنِ، فَقَالَ ﷺ: «**لا تَفْعَلُوا إِلَّا بِأُمِّ القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا**»[2]، فالنَّهْيُ عَنِ القِرَاءَة إِلَّا بأمِّ القُرْآن يشمل النَّهْي عَنِ الاستفتاحِ، فَفِي هَذِهِ الحَال لَا تستفتح ولكِنْ كَبِّر، ثمَّ قُلْ: أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَان الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِلَى آخرِ السُّورَةِ.

وهُنَا يَرِدُ سؤالٌ: لَوْ أدركتُ الإِمَامَ راكعًا، وكبَّرْتُ للإِحْرَامِ فَهَلْ تُكبِّر للرُّكوعِ مَرَّةً ثانيةً، أَوْ تَكْتَفِي بتكبيرَةِ الإِحْرَامِ عَنْ تكبيرةِ الرُّكُوعِ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا ركع دون الصف، رقم (٧٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٦٨ رقم ٢٢٦٩٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب، رقم (٧٠٢).

الجَوَابُ: قَالَ العُلَمَاء: إِنَّ تَكْبِيرَةَ الإِحْرَام تَكْفِـي عَنْ تكبيرَةِ الرُّكُوع، ولَكِـنِ الأَفْضَلُ أَنْ يُكَبِّرَ مَرَّتَيْنِ؛ مَرَّةً للإحرامِ، وَهُوَ قائِمٌ مُعْتَدِلٌ، ومرَّةً إِذَا أهوَى إِلَى الرُّكُوعِ.

الكَلامُ عَلَى البَسْمَلَةِ:

أَوَّلاً: هَلِ البَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنَ الفَاتِحَةِ أَوْ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ:

البَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَلَيْسَتْ آيَةً مِنْ كُلِّ سُورَةٍ، حَتَّـى الفَاتِحَةُ لَيْسَتِ البَسْمَلَةُ آيَةً مِنْهَا، وَلِهَذَا لَوِ اقْتَصَرَ الإِنْسَانُ فِي قِرَاءَة الفَاتِحَةِ عَلَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إِلَى آخرِ السُّورَةِ لَكَفَاهُ ذَلِكَ، ويَكُونُ قَدْ أَتَى بالرُّكْن، فالبَسْمَلَةُ لَيْست آيةً؛ لَا مِنَ الفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا، وإِنَّمَا هِيَ آيَةٌ مستقلَّةٌ مَعَ كُلِّ سُورَةٍ.

ويَدُلُّ لِهَذَا القَوْلِ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم قَالَ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»، والصَّلَاةُ هُنَا هِيَ الفَاتِحَـةُ؛ وَسَمَّاهَا بالصَّلَاةِ؛ لأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بِدُونِهَا «**فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعالَـى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْـدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

قوله: «**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**» أَيْ كَرَّرَ وصفَ اللهِ بِالكَمَالِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٦٠٣).

قولُه: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»: فالمُلكُ مَجْدٌ وعَظَمَةٌ، وَلِهَذَا يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «مَجَّدَنِي عَبْدِي».

فيَجِبُ أَنْ نستحضرَ هَذِهِ الآياتِ، وَأَنَّ اللهَ يُنَاجِينا، لِنَعْرِفَ أَنَّ الصَّلاةَ صِلَةٌ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١)، فالصَّلَاةُ هِيَ قُرَّةُ عَيْنِ المُؤْمِنِينَ.

قولُهُ: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»، أَيْ هَذَا بَيْنِي وبين عَبْدِي نصفين، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هَذِهِ العِبَادَة حَقُّ الله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هَذِهِ استعانةٌ، تَسْتَعِينُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلَكَ مَا سألتَ أَنْ يَهْدِيَكَ اللهُ الصِّراطَ المستقيمَ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ.

فالرَّاجِحُ أَنَّ البَسْمَلَة لَيْسَتْ مِنَ الفَاتِحَة، بَلْ هِيَ آيةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، يُؤتَى بِهَا فِي ابتداءِ السُّورَةِ، مَا عَدَا سُورَةَ بَرَاءَة.

فالفَاتِحَة عَلَى القَوْل الرَّاجِح: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيةُ الأولى، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الثَّانيةُ، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الثَّالثةُ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الرابعةُ، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الخَامسةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ السادسةُ، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ السابعةُ.

و﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ليست مُقَيَّدَةً فِي المصحفِ آية؛ لأَنَّ المصحفَ إِنَّمَا جُعِلَ بناءً عَلَى القَوْلِ الثَّانِي، والقَوْلُ الرَّاجِح الَّذِي دلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ هُوَ المُنَاسِبُ للسُّورَةِ لفظًا ومَعْنًى.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٤ رقم ٤٠٢١)، والنسائي (١٢/ ٣٦٩ رقم ٣٩٥٦).

أمَّا لفظًا فإنَّ آياتِ السُّورَة متقاربةٌ، فَلَوْ قُلْنَا: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آيةٌ واحدَةٌ لكانَتْ بالنِّسبةِ للآياتِ الَّتِي قَبْلَهَا طويلةً، ومِنَ البَلَاغَةِ أَنْ تَكُونَ الآياتُ مُتَقَارِبَةً، وهَذَا ترجيحٌ لَفْظِيٌّ.

أمَّا الترجيحُ المعنويُّ، فهَذِهِ السُّورَة قَسَّمها اللهُ جَلَّوَعَلَا بَيْنَهُ وبَيْنَ عبدِهِ نِصْفَيْنِ؛ آيات ثلاثٌ للهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وآياتٌ ثلاثٌ للعبدِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والَّتِـي بَيْنَ الرَّبِّ والعَبْدِ وَاحِدَةٌ وَهِيَ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ فالعِبَادةُ حَقُّ اللهِ، والاستعانةُ حَقُّ الآدميِّ؛ لأَنَّ الاستعانةَ هِيَ طَلَبُ العَوْنِ.

فالقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّ أولَ سورةِ الفَاتِحَة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالنَّصِّ والتَّعليلِ، فالنَّصُّ حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ، والتَّعْلِيلُ هو اللَّفْظِيُّ والمَعْنَوِيُّ.

فَائِدَةٌ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ:

لَا يُمْكِنُ لأَيِّ بَشَرٍ أَنْ يُحِيطَ بكَلَامِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأَنَّ كَلَامَ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وصفاتُه لَا يُدْرِكُهَا البَشَرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء:٨٨].

وقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود:١٣].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ ﴾ [الطور:٣٤].

فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ مِنَ البَشَرِ بِمِثْلِ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِيطَ البَشَرُ بكَلَامِ اللهِ، ودَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا طَالَعْتَ كُتُبَ التَّفْسِيرِ، وجدتَ أَنَّ عُلَماءَ التَّفْسِيرِ يتناولونَ القُرْآنَ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ: مِنْ جهةِ المَعْنَى، ومِنْ جِهَةِ البلاغةِ، ومِنْ جِهَةِ الإِعْرَابِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِيطُوا بِهِ، فَتَجِدُ أَنَّ المُفسرينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتُوا بِكُلِّ مَا يَحْتَوِيهِ اللَّفْظُ القُرْآنِيُّ، حَتَّى الإِنْسَانُ نَفْسُهُ يَقْرَأُ الآيَةَ اليَوْم فيَتبيَّنُ لَهُ فِيهَا معانٍ، ويَقْرَؤُهَا فِي اليَوْمِ الثَّانِي فيتبيَّنُ لَهُ مَعَانٍ أَكْثَرُ، ويتأمَّلُ فيزدادُ.

سُئِلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَـةِ**». قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَـةِ؟ قَالَ: «**العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**»(١)، فقولُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ**» لأن النَّاس يختلفون فِي الفَهْمِ، «**وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ**» وكَانَ مَعَهُ صَحِيفَةٌ يَعْنِي: شَيْءٌ مَكْتُوبٌ «**العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**».

فالشَّاهد أَنَّنَا سنتكلمُ عَلَى مَا تيسَّرَ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ السُّورَةِ العَظِيمَةِ، الَّتِي فُرض عَلَيْنَا أَنْ نَقْرَأَهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ صَلَوَاتِنَا.

مَعْنَى البَسْمَلَةِ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَيْ: يَبْتَدِئُ بكُلِّ اسم مِنْ أَسْمَاء اللهِ فِيمَا هُوَ مبتدِئٌ فِيهِ، مَثَلًا: إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يقرأَ، فيقدَّرُ الفِعْلُ الَّذِي يتعلَّق بِهِ الجَارُّ والمجرورُ: بِاسْمِ اللهِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير فيه، رقم (٢٨٣٦).

أَيْ: أقرأُ بِاسْمِ اللهِ، وَإِذَا كَانَ يُرِيد أَنْ يَتَوَضَّأَ فيَكُونُ التَّقْدِيرُ: أتوضَّأُ بِاسْمِ اللهِ، وَإِذَا كَانَ يُرِيد أَنْ يأكُلَ فيَكُـونُ التَّقْدِيرُ: آكلُ بِاسْمِ اللهِ، وَإِذَا أرادَ أَنْ يَشْرَبَ فيَكُـونُ التقديرُ: أشربُ بِاسْمِ اللهِ، وَإِذَا أرادَ الذَّبِيحَةَ فلابدَّ أَنْ يقولَ: بِاسْمِ اللهِ.

مَعْنَى: اسم:

اسمٌ مُضَافٌ، ولَفْظُ الجَلَالَةِ مُضَافٌ إِلَيْهِ، والمفردُ المُضَافُ يُفيد العمومَ، قَالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فنِعَمُ اللهِ لَا تُحصَى، وَلَا حَصْرَ لَهَا، فاسمُ اللهِ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَسْمَاءِ اللهِ، فعِنْدَمَا تَقُولُ: بِاسْمِ اللهِ كأَنَّكَ تَتبَرَّكُ وتَسْتَعِينُ بكُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، لَيْسَ بِاسْمٍ وَاحِدٍ فَقَطْ.

مَعْنَى: الله:

أمَّا «الله»، فَهُوَ علم عَلَى ذاتِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ يختصُّ بِهِ، لَا يُسمَّى بِهِ غَيْرُه، فَهُوَ عَلَمٌ، ولَكِنْ يَدُلُّ عَلَى الألُوهيَّةِ، وَهِيَ العِبَادةُ، أَيْ: بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لَا مَعْبُودَ بحقٍّ إِلَّا هُوَ عَزَّوَجَلَّ.

معنى: الرَّحمن:

أمَّا الرَّحْمَنِ فَهُوَ ذُو الرَّحْمَة الشَّاملةِ الوَاسِعَةِ.

مَعْنَى: الرَّحيم:

الرَّحِيم، هُـوَ ذُو الرَّحْمَة الوَاصلة لمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِه، وَلَا سِيَّمَا المُؤْمِنُونَ، ورَحْمَةُ اللهِ للمُؤْمِنِينَ ولغيرِهِمْ، لَكِـنْ رَحْمَةَ اللهِ للمُؤْمِنِينَ خاصَّـة لَيْست كرحمتِهِ للكَافِرِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ للهِ رَحْمَةٌ عَلَى الكَافِرِ؟

قُلْنَا: للهِ رَحْمَةٌ عَلَى الكَافِرِ، فاللهُ أَعْطَاهُ سمعًا وبَصَرًا وعَقْلًا وطعَامًا وشَرَابًا وغَيْرَ ذَلِكَ، وهَذِهِ رَحْمَة مِنْ وَجْهٍ، ونِقْمَةٌ مِنْ وَجْهٍ آخرَ؛ لأَنَّ الكَافِرِ مَا ينتفع بِهِ مِنْ نِعَمِ اللهِ، فَإِنَّهُ ضَرَرٌ عَلَيْهِ، ويَأْثَمُ بِهِ يَوْم القِيَامَة، فَإِذَا أَكَلَ لُقْمَةً فإنه يَأْثَمُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَة، وَإِذَا لَبِسَ ثَوْبًا مِنَ البَرْدِ فإنه يَأْثَمُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَة، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣]، ولغَيْرِ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْهِمْ جُناحٌ فِيمَا طَعِمُوا، بَلْ حَتَّى المُؤْمنونَ أَيْضًا قَدْ يَكُون عَلَيْهِمْ جُناحٌ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى اشترط حَتَّى فِي المُؤْمِنِينَ فقَالَ: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣].

دليلٌ آخرُ، قولُه تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢] إِذَنْ غيرُ الَّذِينَ آمَنُوا غيرُ خَالصةٍ لَهُمْ، بَلْ يُعاقبون عَلَيْهَا.

فرَحْمَةُ اللهِ للكَافِرِ تعقبُها نِقْمَةٌ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَكَ وأمدَّكَ وأعدَّكَ، فَكَيْفَ تكفُرُ بِهِ، وَلَوْ أَنَّ أحـدًا مِنَ البَشَرِ أحسَنَ إِلَيْكَ بدرهمٍ وَاحـدٍ، لَمَلَكَ مِنْكَ بقدرِ مَا أعطاكَ مِنَ الدَّراهم، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بالإِيجاد وَالخلق، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩].

فالطِّفْلُ يُولَدُ، وتَضَعُهُ أُمُّهُ عَلَى فَخِذَيْهَا ويلتقمُ الثَّدْيَ، وَالَّذِي دلَّه عَلَيْهِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] وَاللهُ أمدَّكَ بالنِّعْم، قَالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾

[الشعراء:١٣٢-١٣٤]، وَلِهَذَا كَانَ الكَافِرُ مستحقًّا لأَنْ يعاقبَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، الحَمْدُ وَصْفُ المَحْمُودِ بالكَمالِ، فَإِذَا قلتَ: الحَمْدُ للهِ؛ فمعناهُ: أَصِفُهُ بكُلِّ كَمالٍ، والحَمْد لَهُ سببَانِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: كَمال المحمودِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: إفضالُ المَحْمُودِ.

واللهُ مَحْمُودٌ عَلَى الوجهَيْنِ؛ مَحْمُودٌ لكَمال صفاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومَحْمُودٌ لكَمال إفضالِهِ وإِنعامه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، إِذَنِ الحَمْدُ وصفُ المَحْمُود بالكَمال الذَّاتيِّ، فَهُوَ كَامِلٌ فِي ذَاته، وصِفَاتِه، وأفعالِه، وَالمتعدي، فمثلًا رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ كَامِلُ الحَيَاةِ، وَالدَّلِيل قولُه تعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] لكَمال حياتِه لَا تَأْخذُه السِّنَةُ أَيِ النُّعاس، أَوِ النوم أَيِ النَّوم العميقُ.

وكَمالُ القُدْرةِ كَذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، فالخلقُ كُلُّهُمْ يموتونَ فِي لحظة وَاحدةٍ إِلَّا مَن شَاءَ الله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، ثُمَّ نفخة أُخْرَى ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ [الزمر:٦٨]، كُلُّ العَالم يقومُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، إن كَانت إلَّا صيحة وَاحدة يُصاح بِهِمْ فَإِذَا هُمْ قيامٌ ينظرُون، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

ومن قُدْرَةِ اللهِ مَا حدَث لُموسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرعونَ وجنودِهِ، فقَدْ خَرَجَ مُوسَى وقومُه مِنْ مصرَ متَّجِهِينَ نَحْوَ البحرِ الأَحْمَرِ، ولمَّا وَصَلُوا إِلَى البَحْرِ الأَحْمَرِ فَإِذَا البحرُ أَمَامَهُمْ وفِرْعَونُ خلفَهُم، فَقَالَ أصحابُ مُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ جملةٌ مُؤكَّدة بـ(إنَّ) واللامِ، فالبحرُ أمامَنَا، وفِرْعَونُ وجنودُه خلفَنَا، ولَكِنِ الثِّقة باللهِ عَزَّوَجَلَّ واليقينُ جَعَلَتْ مُوسَى يَقُول موقنًا باللهِ: كَلَّا لسنَا بِمُدْرَكِينَ: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢] أيقنَ بِأَنَّ اللهَ مَعَهُ.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]، ضربَ بعصاهُ البَحْرَ، فكَانَ كُلُّ فِرقٍ كَالجبلِ العظيمِ، اثنَيْ عشَرَ فَرِيقًا، وَاثنَتَيْ عَشْرَةَ طريقًا وَاسعة، وَالمَاءُ بَيْنَ هَذِهِ الطرقِ كَالجِبَال، وَالمَاءُ بطبيعتِهِ سَائل، لَكِنَّهُ بأمرِ اللهِ وُطِّدَ، حَتَّى قَالَ بعضُ المفسِّرِينَ: إن اللهَ جعلَ فِي هَذِهِ الأَطوادِ فُرَجًا، لأجلِ أَنْ يَرَى بَنُو إِسرائيلَ بَعْضهُمْ بَعْضًا حَتَّى لَا يَقْلَقُوا عَلَى إِخْوَانِهِمُ الآخرينَ، فكَانَ ينظُر بَعْضُهُمْ إِلَى بعض من خلال هَذِهِ الفُرَجِ.

انفلقَ البَحْرُ بإِذْنِ اللهِ، وبقُدْرَة للهِ، فبِعَصًا يتوكَّأُ عَلَيْها، ويَهُشُّ بِهَا عَلَى غنمِهِ، ضَرَبَ بِها هَذَا البَحْرَ فحدَثَ مَا حَدَثَ، وَالأَرْضُ الَّتِي كَانَ المَاءُ عَلَيْهَا أحقابًا مِنَ الزَّمَنِ وكانَتْ وَحْلًا فِي لَحْظَةٍ يَبِسَتْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧].

مِثْلُ هَذِهِ القصَّةِ تُوجب للمُؤْمِنِ الموقِنِ أَلَّا يخاف مِنْ أَحَدٍ، فَلَا تُعَلِّقْ خَوْفَكَ بمَخْلُوقٍ، وَاعْتَمِدْ عَلَى اللهِ، وَافعَلِ الأَسْبَابَ الَّتِي أُمرتَ بِهَا، لَكِنْ لَا تُعَلِّقْ قلبَكَ بِغَيْرِ فاطِرِ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالأَمْرُ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاجْعَلْ قلبَكَ معلَّقًا بربِّكَ حَتَّى تَطْمَئِنَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

هَذَا المِثَالُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إِذَنْ هُوَ يستحِقُّ الحَمْدَ لكَمَالِ قُدْرَتِهِ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤].

خاتَم النَّبيِّين مُحَمَّدٌ صلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِمَامُنَا وقُدْوَتُنَا، خرَجَ مِنْ مَكَّةَ لأَنَّ أَهْلَهَا قرَّرُوا أَنْ يقتُلُوهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]، يُثْبِتُوكَ أَيْ: يحبِسُوكَ، أَوْ يقتلُوكَ أَوْ يُخرجُوكَ، فاستقرَّ الرأيُ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ، فيَجتمِعُ عَشَرَةٌ مِنَ الشَّبَابِ مِنْ قَبَائِلَ متفرِّقَةٍ، ويَضْرِبُون مُحَمَّدًا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى يتفرَّقَ دَمُهُ فِي القَبَائِلِ، فَلَا تستطيعُ بَنُو هاشِمٍ أَنْ تُطالِبَ بدَمِهِ، وتقتنعُ بالدِّيَةِ.

ولكِنْ مَا مِنْ أحدٍ يُحارِبُ اللهَ إِلَّا خُذِلَ، فخرجَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ بينِهِمْ، وذكَرَ المؤرِّخونَ أَنَّهُ كَانَ يَذُرُّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ التُّرَابَ، ويقُولُ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس:٩]، ثم خرج وَاخْتَفَى بِغَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فلَمَّا سمعت قريش بِأَنَّهُ خرج طار عقلُها، فخَرَجُوا يطلبـون النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ وصاحبَه، ورصدُوا مكافأةً مِئَةً مِنَ الإِبلِ، فذهَبَ

النَّاسُ يبحثونَ حَتَّى وقفوا عَلَى الغارِ الَّذِي فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولَمَّا وقفوا عَلَيْهِ ونظَرَ أَبُو بَكْرٍ وَإِذَا النَّاسُ عَلَى الغارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَوْ نظرَ أحدُهُم إِلَى قدمِهِ لأبصرَنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[1] لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، ومَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَإِنَّهُ لَا يُمكن لأحدٍ أَنْ يتغلبَ عَلَيْهِ أبدًا أَوْ أَنْ ينالَهُ سُوءٌ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- لعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2].

فلم ترَ قريشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَلَا صَاحِبَهُ وهُمَا فِي الغَارِ، وَلَوْ نظَرَ أحدُهُم إِلَى قَدَمِهِ لأَبْصَرَهُمَا.

إِذَنِ الحَمْد أَنْ يُحمَدَ اللهُ عَلَى كَمَالِ صفاتِهِ، وَهَـذَا الكَمَالُ الذَّاتي، وعَلَى كَمَالِ إحسانِهِ وإِنعامِهِ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

ومِنْ ثَمَّ شُرِعَ للإِنْسَانِ إِذَا أكلَ الأكلَ أَنْ يَقُولَ: الحَمْدُ للهِ، وَإِذَا شَرِبَ الشُّرْبَ أَنْ يَقُولَ: الحَمْدُ للهِ، قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ، أَوْ يَشْرَبَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٤٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩ رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب قول النبي ﷺ: «**يا حنظلة ساعة وساعة**»، رقم (٢٧٠٦).

الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[1]، فَإِذَا انتهينا مِنَ الطعام أَوِ الشَّراب نقولُ: الحَمْدُ لله، فَإِذَا شربتَ فِنْجَانَ قَهْوَةٍ أَوْ شايٍ فإنك تَحْمَدُ اللهَ، وَإِذَا أكلتَ فقُلِ: الحَمْدُ لله.

فحَمْدُ اللهِ مَعْنَاهُ: وَصْفُهُ بالكَمَالِ الذَّاتِيِّ، وَالكَمَالِ الَّذِي يتعلَّقُ بالغَيْرِ، وَهُوَ الإِحْسَانُ إِلَى الخَلْقِ.

﴿لِلَّهِ﴾ اللهُ عَلَمٌ عَلَى ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُسمَّى بِهِ غيرُه، وَلَا يُوصفُ بِهِ غيرُهُ؛ لأَنَّ الأُلُوهِيَّةَ وَصْفٌ خَاصٌّ بربِّ العَالَمِينَ جَلَّ وَعَلَا، وَاللَّامُ فِي قولِهِ ﴿لِلَّهِ﴾ للاسْتِحْقَاقِ وَالاختصاصِ؛ لِلاستحقاقِ لأَنَّ اللهَ مُستحِقٌّ للحَمْدِ، وللاختصاصِ لأَنَّ الحَمْدَ الكاملَ للهِ وَحْدَهُ.

فغَيْرُ اللهِ يُحمَدُ، لَكِنْ لَا يُحمد حَمْدًا كَامِلًا، بَلْ يُحمد حَمْدًا جزئيًّا عَلَى شَيْءٍ مُعَيَّن، أَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ مَحْمُودٌ حَمْدًا كَامِلًا، فاللَّامُ فِي قولِهِ: (لله) للاستحقاقِ وَالاخْتِصَاصِ، فغَيْرُ اللهِ لَا يستحقُّ أَنْ يُحمَدَ؛ فمَنْ تفضَّلَ بشَيْءٍ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ سَبَبًا ووَسِيلَةً، فَلَوْ أَنَّ شَخْصًا أَهْدَى إِلَيْكَ مُصحفًا، فلَا شَكَّ أَنَّهُ أحسنَ إِلَيْكَ، لَكِنِ الإِحْسَانُ الأصليُّ للهِ، فهُوَ الَّذِي سَخَّرَهُ حَتَّى أَهْدَى إِلَيْكَ المُصْحَفَ، فَهُوَ وَسِيلَةٌ فَقَطْ وسببٌ، وَأَمَّا المُنعِمُ حَقِيقَةً فَهُوَ اللهُ، فالمستحقُّ للحمدِ، وَالمختصُّ بالحَمْد الكاملِ هُوَ اللهُ.

المَعْنَى الأَوَّلُ للرَّبِّ (الخَالِقُ):

قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ﴾، أَيْ: خالق مالك متصرِّف؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُصرِّفُ، قَالَ النَّبِيُّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل، رقم (٤٩٢١).

ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قَلْبِي إِلَى طَاعَتِكَ»(١)، إِذَنْ ربُّ العَالَمِينَ؛ أَيْ خالقُ العَالَمِينَ، فَلَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]؛ فكُلُّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دونِ اللهِ، وتَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أربابٌ لَنْ يخلقُوا ذُبابًا وَلَوِ اجتمعُوا لَهُ، وَلَوِ اجتمعَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُوجِدوا حيوانًا ضَئِيلًا ضعيفًا مَهينًا مَا استطاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩]، فالحيواناتُ المنويَّةُ لَيْسَ فِيهَا رُوحٌ، وَلَا يستطيع الخلقُ أَنْ يَخْلُقُوهَا، مَعَ أَنَّهَا تَخْرُجُ من ذَاتِ أنفسِهِمْ، وهُمْ لَمْ يَخْلُقُوهَا؛ وَالحبَّةُ يضعُها الحَرَّاثُ فِي الأَرْضِ، ويَسقِيها، وتُنبتُ، فالَّذِي فلَقَها هُوَ اللهُ؛ لأَنَّ اللهَ فالقُ الحَبِّ وَالنَّوَى، قَالَ تعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤].

فَإِنْ قِيلَ: الإِنْسَان الصِّنَاعِيُّ (الآلِيُّ) الَّذِي يَعْمَلُ بالكُمبيوتَرِ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ خَلْقٌ؟

قُلْنَا: هَذَا الإِنْسَانُ الصِّنَاعِيُّ لَوْ صَفَعَهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدمَ عَلَى وجهِهِ لَا ينتقمُ لنفسه، فإِذَنْ لَيْسَ بَشَرًا، فَهُوَ لَيْسَ خَلقًا بَلْ صَنْعَةٌ، وَالصَّانعُ غايةُ مَا هُنَالِكَ أَنْ يُحوِّلَ الشَّيْءَ من صفة إِلَى صفَةٍ؛ كَالنَّجَّار يُحوِّلُ الخشبَ إِلَى بابٍ، وَالحَدَّادُ يُحوِّلُ صَفَائِحَ الحَدِيدِ إِلَى سَيَّاراتٍ، أَمَّا الخَالِقُ حقيقةً فَهُوَ اللهُ.

المَعْنَى الثَّاني للرَّبِّ (المَالِكُ):

اللهُ وَحْدَهُ هُوَ المَالِكُ، فَلَا مالكَ للخلقِ إِلَّا الله، هُوَ مالكُهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفعلُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٤٨٠٤).

مَا يشاءُ؛ وَلِهَذَا أرسلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَهُوَ يُعزِّي ابنتَهُ الرَّسُولَ قَائِلًا لَهُ: «**ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا أَنَّ للهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»[1]؛ فالمُلكُ للهِ وَحْدَهُ.

فإنْ قَالَ قائلٌ: تَقُولونَ: إنَّ المُلكَ للهِ وَحْدَهُ، وَقَدْ أَثْبَتَ اللهُ الملكَ لغَيْرِهِ، فقَالَ فِي كتابِهِ الكَرِيمِ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١]، وقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النور:٣٣]، وقَالَ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المُؤْمِنُون:٦]، فكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ؟

الجَوَابُ: إنَّ مَا يملِكُه البَشَر هُوَ جزءٌ ممَّا يملكُهُ اللهُ، فمُلكُ البَشَر ناقصٌ وقاصرٌ؛ فأَنَا أملِكُ حقيبةَ دُرُوسِي، وَأَنْتَ لَا تملِكُها، وَأَنْت تملِكُ حقيبةَ دُرُوسِكَ وَأَنَا لَا أملِكُها، ومُلكِي أيضًا قاصرٌ مِنْ حَيْثُ التَّصرفُ؛ فَلَا يَملِكُ الإِنْسَانُ أَنْ يتصرَّفَ فِي مالِهِ كَمَا يَشَاءُ، فَلَوْ أرادَ أَنْ يُتْلِفَ مالَهُ فَلا يملِكُ هَذَا، وَإِذَا أتلفَهُ فَهُوَ آثمٌ، وحَجَرْنَا عَلَيْهِ ومَنَعْنَاهُ مِنَ التَّصرفِ؛ وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِضاعةِ المَالِ.

إِذَنْ مُلكُ البَشَرِ قاصرٌ مِنْ حَيْثُ الشُّمولُ، وقاصرٌ مِنْ حَيْثُ التَّصرفُ، أَمَّا ملكُ اللهِ فَهُوَ شاملٌ وتامٌّ، يتصرَّفُ فِي خلقِهِ كَمَا يشاءُ، يُعطِي ويمنعُ، يُعِزُّ ويُذِلُّ، يُحيي ويُميتُ، يَرْفَعُ ويخفِضُ، إِلَى غيرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّصرُّفاتِ فِي مُلْكِهِ.

المعنى الثَّالثُ للرَّبِّ (المدبِّرُ):

والمدبِّرُ هُوَ المَعْنَى الثَّالثُ للرَّبِّ؛ فتدبيرُ اللهِ للخلقِ شامِلٌ مُطْلَقٌ، بِمَعْنَى يُدَبِّرُ كَمَا يشاءُ، فَلَا أحدَ مِنَ الخلقِ يملِكُ التَّدبيرَ المُطلقَ؛ فالعَبْدُ إِذَا دبَّرَ شيئًا فإِنَّما يُدبِّرُه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، رقم (٦١٤٠).

عَلَى وجهٍ محدودٍ، تستطيعُ أَنْ تُدبِّرَ عَبْدَكَ الَّذِي تملِكُهُ، لَكِنِ التَّدبيرُ المُطلقُ بِمَعْنَى أَنْ تأمُرَهُ أَنْ يدخُلَ فِي النَّارِ فيحترقَ، أَوْ ينزلَ فِي البَحْرِ فيغرقَ لَا يمكنُ، لَكِنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يملِكُ ذَلِكَ، قَدْ يُسلِّطُ الحرَائِقَ فتحرِقُ الخَلَائِقَ، قَدْ يُدبِّرُ المِيَاهَ فتُغرِقُ، وَلَا يَخفَى عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أغرقَ قَوْمَ فِرْعَونَ إِلَّا مَن آمَنَ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ اللهَ دَمَّرَ عادًا بالرِّيَاحِ، فأصبُحوا لَا يُرَى إِلَّا مساكنُهم، لَكِنْ غيرُ اللهِ لَا يملِكُ هَذَا.

قَوْلُهُ: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾:

العَالَمون هم كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ، وسُمُّوا بِهَذَا لأَنَّهُمْ عَلَمٌ عَلَى خَالِقِهِم؛ وَالعَلَمُ عَلَى الشَّيْءِ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ، ومِنْهُ العَلَمُ الَّذِي يُحمَلُ فِي الحَرْبِ؛ ليَكُونَ عَلَامَةً عَلَى الفِئَةِ أَوِ الطَّائِفَةِ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]، وقَالَ تَعَالَى متحديًا الخلقَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]؟

والجَوَابُ: لَا هَذَا وَلَا هَذَا، مَا خُلِقُوا من غيرِ شَيْءٍ، وَلَا هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أنفسَهُم، وَكَيْفَ يَخْلُقُونَ أنفسَهُمْ وَهُمُ المَعدومونَ، كَيْفَ يُوجِدُ نفسَهُ مَنْ كَانَ معدومًا، فيتعيَّنُ أَنَّ الخَالِقَ هُوَ اللهُ.

أَمَّا خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَهُمْ يُقِرُّونَ بِذَلِكَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [لقمان:٢٥]، فالعَالَمونَ هُمْ كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ وَالشَّجرِ وَالدَّوابِّ وَالإنسِ وَالجنِّ، فكُلُّ شَيْءٍ داخلٌ فِي الآيَةِ، وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ فَهُوَ عالَمٌ.

فإِنَّ فِي هَذَا الخلقِ، فِي كُلِّ فردٍ مِنْهُ آيةٌ تَدُلُّ عَلَى وحدانِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى عظمتِهِ، وعلى انفرادِهِ بالمُلْكِ، قَالَ الشَّاعرُ بيتًا يحمِلُ هَذَا المعنَى:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

فكلُّ شَيْءٍ فِي الإِنْسَانِ جسدًا ورُوحًا آيةٌ تَدُلُّ عَلَى وحدانيتِهِ، وَفِيهِ مِنَ الآياتِ مَا يُبهِرُ العقولَ، وعُلَمَاءُ التَّشْريح وَالطِّبِّ يعلمُونَ مَا فِي الإِنْسَانِ مِنَ الآياتِ العظيمةِ، ومَعَ هَذَا فلَمْ يَصِلُوا إِلَى الغايةِ؛ بِدَلِيلِ قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فالرُّوحُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ لَا تَعلَمُ عَنْ كُنهها وحقيقتِها شَيْئًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، كَأَنَّ اللهَ يُوبِّخُهم عَلَى هَذَا السُّؤال، هَلْ مَا بَقِيَ عَلَيْكُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا أَنْ تَسأَلُوا عَنِ الرُّوح، ومَا أكثَرَ الأُمُورَ الَّتِي تَخْفَى عَلَيْكُمْ، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحدٌ، فَانْظُرْ إِلَى روضةٍ نزلَ عَلَيْهَا المطرُ فأنبتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ؛ زوجٌ بِمَعْنَى صنف، فتجد هَذِهِ الأعشاب مختلفةً بالحجمِ، مختلفةً فِي اللَّوْن، أزهارُها تسرُّ النَّاظرين، فالَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الأزهارَ وَجَعَلَ فِيهَا هَذِهِ الألوانَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ فِي هَذِهِ النَّباتات من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَا يعرفُه أصحابُ علمِ النَّبات.

قولُه تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾:

قَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ذي الرَّحْمَة، الَّذِي يرحمُ بِهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ

وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١].

وقولُه تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فِيهِ فائدةٌ عظيمةٌ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مَعَ كونِه ربًّا لِلْعَالِمِينَ جميعًا، فإن ربوبيته مبنيَّةٌ عَلَى الرَّحْمَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبقَتْ غَضَبِي»(١)، وَالدَّلِيل عَلَى أَنَّ رحمته سبقَتْ غضبَهُ قولُه تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:٤٥].

فَإِنْ قِيلَ: اللهُ تَعَالَى ينتقِمُ مِنَ الظالمين، ومِنَ الْمُجْرِمِينَ، فَهَلْ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذَا الانتقامَ رحمةٌ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ ربوبيته قائمةٌ عَلَى الرَّحْمَة؟

الجَوَابُ: نَعَم، الانتقامُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ رحمةٌ؛ لأَنَّ المجرمَ يعتدي عَلَى غيرِه؛ فَإِذَا انْتَقَمَ اللهُ مِنْهُ فهَذِهِ رَحْمَة لِمَنِ اعْتُدِيَ عَلَيْهِ، أَنْ كَفاهُمُ اللهُ تَعَالَى شَرَّه، وَانْتَقَمَ مِنْهُ، وَهِيَ أَيْضًا رَحْمَةٌ بِهِ إِنْ كَانَ كَافِرًا؛ لِئَلَّا يزدادَ إِثمُه وكفرُه، ورَحْمَة بِهِ إِنْ كَانَ عاصيًا، لِئَلَّا تزدادَ مَعَاصِيهِ، إِذَنْ فالانتقامُ مِنَ المجرمِ رَحْمَة بِهِ، ولِمَنِ تعدَّى إِجرامُه إِليه.

قولُهُ تَعَالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾:

يومُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ، وللدِّينِ معنيانِ فِي القُرْآن:

أحدُهما: العَمَلُ.

الثَّاني: الجَزَاءُ.

فَفِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وفي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قل أي شيء أكبر شهادة، رقم (٦٨٩٦).

ﱡﭐ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﱠ [آل عمران:١٩]، المرادُ بالدِّينِ العَمَلُ، وقولُه تَعَالَى: ﱡﭐ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﱠ [الكَافِرون:٦] المرادُ بالدِّين العَمَلُ، أَيْ: لكم عملُكم ولِي عَمَلِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﱡﭐ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﱠ [الانفطار:١٧-١٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﱡﭐ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﱠ المراد بالدِّين هُنَا الجزاءُ.

وهناك قِرَاءَة سَبْعِيَّة متواترةٌ عَنِ الرَّسُول ﷺ: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)[1]، فَلَوْ قَرَأَ قارئ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» صحَّتْ صلاتُـه، إِلَّا إِذَا كُنَّا بَيْنَ العوامِّ، فَإِنَّهُ لَا يقـرأُ إِلَّا بالقِرَاءَة الَّتِي بينَ أيديهِم، وَلَا نقرأُ لهُمْ بالقِرَاءَةِ الأُخْرَى؛ لأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُحدثُ فتنةً بَيْنَ العَامَّةِ، وَرُبَّمَا يُزعزعُ ويُزلزلُ تعظيمَهم للقُرْآنِ، إِذَا رأَوْا أَنَّ فِيهِ آياتٍ يختلف بعضُها عَنْ بعضٍ، والعوامُّ كَمَا يَقُول النَّاس: العوامُّ هوامٌّ؛ تأكُلُك.

فلَوْ أَنَّكَ أتيتَ بقِرَاءَةٍ لَا يَعْرِفُونَها لحصَلَ بِذَلِكَ فتنةٌ بالنِّسبة للقُرْآنِ الكَرِيمِ، وَرُبَّمَا يحصُل عَلَيْكَ أَنْتَ مضرَّةٌ، فيغتابونَكَ عَلَى الأقلِّ؛ يقولون: هَذَا الرَّجُل يُخبِّط بالقُرْآنِ، كُلَّ يوم يأتي لَنَا بقِرَاءَةٍ.

فَإِذَا كُنَّا بَيْنَ عَامَّة فإِنَّنَا لَا نقرأُ إِلَّا بالقِرَاءَة الَّتِي بَيْنَ أيدينا، لَكِنْ إِذَا كَانَ بَيْنَنَا وبينَ أنفسِنَا، أَوْ مَعَ طلبـةِ علمٍ، فالأَولى أَنْ نقرأَ أحيانًا بِهَـذَا، وأحيانًا بِهَـذَا، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ علمٌ بالقِرَاءَة الثَّانية لَا ظنٌّ، فَإِذَا اشتبهَ عَلَيْكَ هَلْ فِيهِ قِرَاءَةٌ ثانيةٌ بِهَذَا اللفـظِ أَوْ لَا، فالوَاجبُ عَلَيْكَ الكَـفُّ؛ لأَنَّ القُرْآن الكَرِيمَ لَا تجـوزُ تلاوتُه بالظَّنِّ، فلا بدَّ أَنْ تَكُونَ تلاوتُه باليَقِينِ؛ لأَنَّهُ كَلَامُ ربِّ العَالَمِينَ، وَلَا يمكن

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٤٦).

أَنْ تتكلم بكَلَام رب العَالَمِينَ عَلَى وجه تظن أَنَّهُ كَلَامه، فتكون مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كذبًا.

مثالُ ذَلِكَ استفتاحُ الصَّلَاةِ فِيهِ عِدَّةُ صيغٍ، فاقرأْ بصيغةٍ مرَّةً، وأُخْرَى مرَّةً، كَذَلِكَ القِرَاءَاتُ يَنْبَغِي لطلبةِ العِلْمِ أَنْ يحفظُوها؛ مِنْ أجلِ أَنْ يَقْرَؤُوا بِهَذِهِ تَارَةً، وبِهَذِهِ تَارَةً، حِفْظًا للقِرَاءَاتِ الوَارِدةِ عَنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ مِنْ جِهَةٍ، ومِنْ أَجْلِ أَنْ تزدادَ علومُه فِي القُرْآنِ من جهةٍ أُخْرَى، لَكِنْ لَا يَجمع بين القراءتين، فيَقرؤونَ مَرَّةً بِهَذِهِ، ومرَّةً بِهَذِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى مالك يومِ الدِّين وَالدُّنْيَا أيضًا، فلِمَاذَا خصَّ الملكَ بيومِ الدِّين؟

قُلْنَا: لأَنَّ ملكَه وملكيتَه تظهرُ فِي ذَلِكَ اليومِ أكثرَ مِنْ ظهورِها فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فالأُمَمُ الكَافِرةُ لَا تَعرفُ إِلَّا رؤساءَها، وَلَا يَعْرِفُونَ اللهَ؛ لأَنَّ فِطرتَهم منحرِفةٌ لَيسَ عِندَهُم إِلَّا الرَّئيسُ الفلانيُّ، إِذَنِ الملكيةُ لَمْ تظهرْ للهِ فِي الدُّنْيَا، لَكِنْ يَوْمَ القِيَامَة تظهرُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فَلَا مُلكَ لأي إِنْسَانٍ مِنَ البشرِ، حَتَّى الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وهُمْ أفضلُ الخلق، دعاؤُهم فِي ذَلِكَ اليوم: «**اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[1].

فَإِنْ قِيلَ: مَا الفرقُ بَيْنَ «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**» و«**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»؟

قُلْنَا: لأَنَّ المُلكَ فِيهِ مجدٌ وعظَمَة وسُلْطَة، وَلِهَذَا قَالَ: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»، فالمجدُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٥٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

يَدُلُّ عَلَى العظمةِ والملكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

قَوْلُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ﴿إِيَّاكَ﴾: مفعولٌ بِهِ مقدَّم، وعامِلُهُ ﴿نَعْبُدُ﴾، وقُدِّم عَلَى عامِلِه لإفادةِ الحصرِ؛ فمعناهُ: لَا نعبدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَالقاعدةُ البلاغيةُ أَنَّ تقديمَ مَا حقُّه التَّأْخِيرُ دليلٌ عَلَى التَّخصيص وَالحصرِ وَالقصرِ، فإِيَّاكَ نعبدُ بِمَعْنَى لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِياكَ.

مَعْنَى العِبَادَةِ:

والعِبَادَةُ هِيَ التَّذَلُّلُ، مأخوذةٌ مِنْ قولِهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أَيِ المسهَّلُ لسالكِه، المُذلل.

وَالعِبَادةُ تُطلقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ:

المَعْنَى الأَوَّلُ: فِعْلُ العَبْدِ، وَهُوَ التَّعبُّدُ.

المَعْنَى الثَّانِي: مفعولُ العَبْدِ، وَهُوَ العِبَادةُ.

فَإِذَا قامَ الإِنْسَانُ يُصَلِّي للهِ، فقيامُه هُوَ الفعلُ، وَالصَّلَاةُ هِيَ المفعولُ.

ومِنْ ثَمَّ قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: العِبَادَةُ اسمٌ جَامعٌ لكلِّ مَا يحبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ، كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالطَّهارةِ وَمَا أَشْبَهَهَا، ففسَّرَهَا رَحِمَهُ اللَّهُ بمفعولِ العَبْدِ.

والتَّعبُّدُ وَهُوَ فعلُ العَبْد، هُوَ التَّذَلُّلُ للهِ محبَّةً وتعظيمًا، فالمستكبرُ الَّذِي لَا يَعبدُ اللهَ لَيْسَ عابدًا، وَالَّذِي يعبدُ اللهَ ويعبُدُ غيرَهُ لَيْس عابدًا.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ التَّذَلُّلُ للهِ محبَّةً وتعظيمًا؟

قُلْنَا: إِنَّ فعلَ الأوامر بالمحبة، وَإِذَا استعظمتَ شيئًا وَصَار فِي نفسِكَ عظيمًا فَلَا تقعُ فِيمَا نَهَى عَنْهُ، كشخصٍ عظيمٍ قَالَ لَكَ: لَا تفعلْ هَذَا الشَّيْءَ، فَلَا تتجاسر أَنْ تفعلَهُ، وَلِهَذَا يَكُونُ التعظيمُ حَامِلًا للإِنْسَان عَلَى تركِ المُحرَّماتِ، فبالمحبةِ يَكُونُ فعلُ الأوامرِ، وبالتَّعظيمِ يَكُونُ تركُ النَّواهِي.

هَذَا هُوَ الأصلُ، مَعَ أَنَّ التعظيمَ قَدْ يَكُون سببًا لفعلِ الأوامرِ أيضًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يعظِّمُه فإنه يَخشَى إِذَا خَالفَ أمرَهُ أَنْ يُعَاقِبَهُ، وكَذَلِكَ المحبةِ، فقَدْ يتركُ الإِنْسَانُ مَا يُنهَى عَنْهُ مِنْ أَجْلِ محبتِه للنَّاهي، حَتَّى لَا يُخالِفَه فِيمَا نَهَى عَنْهُ، لَكِنِ الأصلُ أَنَّ فِعْلَ الأوامرِ بالمحبةِ، وتركَ النَّواهِي بالتعظيمِ، ولكِنْ كِلَاهُمَا يَجتمعانِ أحيانًا.

وَلَوْ أَنَّ رجلًا قِيلَ لَهُ: إِنَّ بيعَ الدِّرْهم بالدِّرْهمين ربًا حرامٌ، فَقَالَ: أَنَا أحبُّ جمعَ المَال، وَصَارَ يبيعُ الدِّرْهمَ بالدِّرْهمين، فَهَذَا لَا يُعدُّ عابدًا للهِ، بَلْ عابدًا للدِّرْهمِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»(١).

فمَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ غيرَهُ فليس بمخلصٍ، فَلَوْ أَنَّ شخصًا يَعبُد اللهَ بالصَّلَاةِ وَالصدقةِ وَالصِّيَام وجميعِ العِبَادَة لَكِنْ يعبدُ مَعَهُ غيرَه، فَإِنَّهُ لَيْسَ بمخلصٍ، وَلَا يقبلُ اللهُ مَا تعبَّدَ بِهِ؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ فِي الحَدِيث القُدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٦٨٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٥٣٠٤).

ولَوْ أَنَّ رجلًا إِذَا قِيلَ لَهُ: أَلَّا تصلِّي، قَالَ: عِنْدِي زبونٌ يُرِيدُ أَنْ يشتريَ البِضَاعَةَ، فَهَذَا لَيْسَ عابدًا للهِ حقًّا، وعبوديتُه للهِ نَاقصةٌ؛ لأَنَّ العَابد للهِ حَقًّا هُوَ الَّذِي يَدَعُ مَا يهواهُ لِرضَا مولَاهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣]، فالإِنْسَانُ لَا يعبدُ هواه، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»[1].

قَوْلُهُ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**»، أَيْ: هلكَ عبدُ الدِّينار، وَهُوَ الَّذِي يُقدِّم تحصيلَ الدِّينار عَلَى طاعةِ الله، وعابدُ الدِّرْهم هُوَ الَّذِي يُقدِّم تحصيلَ الدِّرْهم عَلَى طاعةِ الله. وَالخَميصةُ: لباسٌ، وَالخَميلةُ: فِراشٌ.

ومِنَ النَّاس مَنْ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا ثوبُه المعنويُّ، وَهُوَ لباسُ التَّقْوَى، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا الثَّوبُ الحِسِّيُّ كَالخَميصةِ، وَقَدْ يَكُونُ لباسُ التَّقْوَى مُرقعًا ومُخرَّقًا لَا يبالي بِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ.

والخَميلةُ هِيَ الفراشُ، فكثيرٌ مِنَ النَّاس يحرِصُ عَلَى فرشِه، سواءٌ كَانَ فراشَه الخَاصَّ كغرفةِ النَّوم، أَوِ العَامَّ كَالفراشِ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ مدخلِ البَاب، فأكثرُ النَّاس اليومَ يَستدينون مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْرِشوا محلَّ الأقدامِ، ومِنَ السَّفَهِ أَنْ تشغلَ ذمتكَ، وَرُبَّمَا تموتُ قَبْلَ أَنْ تُوَفِّيَ هَذَا الدَّينَ، فتبقى نَفسُك مُعلقةً بِدَينك، فمِنَ الحكمةِ إِذَا لم يكُنْ عِنْدَكَ دَرَاهمُ تَشْتَرِي بها فِراشًا أَنْ تشتريَ أقلَّ مَا يَكُونُ مِنَ السَّجَّادِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُقدِّمَهُ للضَّيْفِ، إِذَا جَاء يجلِسُ عَلَيْهِ، وَإِذَا خرجَ تَطْوِيهِ للضَّيْفِ الآخرِ، وبقيةُ البيتِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٦٨٦).

يَكُونُ عاريًا، وهَذَا لَا يضرُّ، وقد كَانَ النَّاسُ يفعلون هَذَا فِي أيامٍ مَضتْ.

وعندَ العَامَّة مثلٌ يقولون: «مُدَّ رِجْلَيْكَ عَلَى قَدِّ لِحَافِكَ»، فإِذَا كَانَ لحافًا كبيرًا فمَدِّدْ رِجليكَ، وَإِذَا كَانَ قصيرًا فكُفَّ رِجْلَيْكَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

الاستعانة هِيَ طلبُ العَون، وطلبُ العون يَكُونُ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ، أَمَّا طلبُ العونِ من غيرِه فَإِنَّهُ ينقسمُ إِلَى قسمَيْن:

القسمُ الأَوَّل: أَنْ تطلبَ العونَ من قادرٍ عَلَيْهِ، مثلُ أَنْ تقولَ للرَّجُلِ: أَعِنِّي عَلَى حملِ متاعِي عَلَى السَّيَّارة، فَهَذَا جَائزٌ وَلَا حرجَ فِيهِ؛ لأَنَّ المُستعانَ قادِرٌ عَلَى عونِك، كَذَلِكَ لَوْ قلتَ لشخصٍ: أَعِنِّي عَلَى إِصلاح سيارتي، جاز؛ لأَنَّ هَذَا استعانةٌ بمَنْ يقدِرُ عَلَى عونِكَ، وَلَا حرجَ فِي هَذَا.

القِسْمُ الثَّاني: أَنْ يَطلبَ العونَ مِمَّا لَا يُمكنُ أَنْ يُعينَ، ولَكِنْ يطلبُ مِنْهُ العونَ عَلَى وجهٍ خفيٍّ، مثالُ ذَلِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَطلبون العونَ مِنَ الأمواتِ، فيقولُ: يَا سَيِّدِي فلانُ أعنِّي عَلَى كَذَا وكذَا، فَهَذَا النوع شركٌ أكبرُ؛ لأَنَّ الميتَ لَا يستطيعُ أَنْ يُعينَ الحيَّ، وَلَا يستطيعُ أَنْ يدفعَ عَنْ نفسِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يعينَ غيرَهُ؛ لأَنَّهُ ميتٌ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، فالميتُ لَا يمكنُ أَنْ يُستعانَ به.

ومَنِ استعانَ بميتٍ فقد ضَلَّ فِي دينِه، وسَفِهَ فِي عقلِه، ضَلَّ فِي دينِه لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]،

وسَفِه فِي عقلِه لأَنَّهُ طلَبَ العونَ مِنَ الميتِ، وَهُوَ جمادٌ جُثَّةٌ هَامِدَةٌ، فكَيْفَ يطلبُ مِنْهُ العونَ! فَهَذَا سَفَهٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، فالاستعانةُ بغيرِ اللهِ فِيمَا لَا يقدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ شركٌ، وَالاستعانةُ بغيرِ اللهِ فِيمَا يقدِرُ عَلَيْهِ المستعانُ تنقسمُ إِلَى قسمينِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: قِسْمُ شِرْكٌ.

القِسْمُ الثَّانِي: قِسْمٌ جَائِزٌ، فَإِذَا استعنت بحيٍّ قادِرٍ عَلَى معاونتك فَهَذَا جَائِزٌ، وَإِذَا استعنتَ بميتٍ فَهَذَا شركٌ؛ لأَنَّ المَيِّتَ لَا يستطيعُ أَنْ يدفعَ عَنْكَ الضَّرَرَ، وَلَا عَنْ نفسِهِ أَيْضًا.

فمَنْ طَلَبَ مِنْ شخصٍ أَنْ يجعلَ حَمْلَ زوجتِهِ ذَكَرًا فَهَذَا شِرْكٌ، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّذكيرِ وَالتَّأنيث إِلَّا الخَالِقُ عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠]، فهؤلاءِ أقسامٌ أربعةٌ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾، فمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُولدُ لَهُ إِلَّا الإِناثُ.

القِسْمُ الثَّانِي: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، فمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُولدُ لَهُ إِلَّا الذكورُ.

القِسْمُ الثَّالث: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾، فيجعلُهُم أصنافًا؛ لأَنَّ الزَّوجَ يُطلق عَلَى الصنْفِ، وَالمَعْنَى: يجعلُ بعضَهُم ذُكُورًا وبعضَهُم إِناثًا.

القِسْمُ الرابع: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، لَا يُولَدُ لَـهُ؛ لأَنَّ الأمرَ أمـرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمِنْ الاستعانةِ باللهِ أَنَّكَ تأتِي للصَّلَاةِ مُعتمدًا عَلَيْهِ متوكِّلًا عَلَيْه، وينْبَغِي لَنَا عِنْدَمَا نُريد أَنْ نفعلَ العِبَادَة أَنْ نشعُرَ بأَنَّنَا نستعينُ اللهَ، وأَنَّهُ لَوْلَا معونةُ اللهِ مَا قَدَرْنا عَلَيْهَا، حَتَّى نجمعَ فِي عِبَادتِنا بينَ العِبَادَةِ وَالاستعانةِ. ويدلُّ لهذَا قولُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»[١]، فاحرِصْ وَاستعنْ، ولَا تعتمِدْ عَلَى الحرصِ فَقَطْ، فضُمَّ إِلَى الحرصِ الاستعانةَ باللهِ؛ حَتَّى تكونَ مُتبرِّئًا من حولِكَ وقُوَّتِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الخِطَابَ فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَكَيْفَ يُخاطِبُ المُصَلِّي غيرَه وَهُوَ يُصَلِّي؟ ونحنُ نَعْلَمُ أَنَّ الكَلَامَ فِي الصَّلَاة يُبطل الصَّلَاةَ، فَكَيْفَ جَاءتِ الآيةُ بصيغةِ المخاطبةِ؟

الجَوابُ: أَنَّ الكَلَام المُبطِلَ للصَّلاةِ هُوَ كَلَام الآدمِيِّينَ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ**»[٢]، أَمَّا المخاطبة مَعَ اللهِ، فإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ**»[٣]؛ أَيْ يُخاطبه.

وفي قولِ المُصلِّي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَسمعُ القِرَاءَةَ، وإِنْ كَانَتِ القِرَاءَةُ خفيَّةً، بَلْ إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يعلم مَا تُوسوس بِهِ النَّفس، وَمَا تُحدث بِهِ النَّفسُ، وإِنْ لَمْ يتكلمْ بِهِ الإِنْسَانُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٤٨٢٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، رقم (٨٤١).
(٣) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، بَلْ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ يَعلمُ اللهُ مَا تُوسوسُ بِهِ النَّفسُ، فهنا خطابُ الإِنْسَانِ مَعَ اللهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ يسمَعُ الخِطابَ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ ولذَلِكَ يَرُدُّ عَلَيْهِ ويَقُولُ: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾:

قولُه تَعَالَى: ﴿ٱهْدِنَا﴾، صيغتُه صيغةُ الأمرِ، ولكِن لَا يُقَالُ: إِنَّهُ أمرٌ؛ لأَنَّهُ مُوَجَّه مِنَ المخلوقِ إِلَى الخَالِقِ، ولكنَّه يقَالُ: فعلُ دعاءٍ؛ إذ إنَّ المخلوقَ لَا يُمكن أَنْ يأمرَ الخَالقَ، بَلْ هُوَ يَدْعُوهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ العُلَمَاء: إِذَا أَتَتْ (لا) النَّاهيةُ فِي فعلٍ موجَّهٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ فَسَمِّهَا دُعائِيَّةً، وَإِذَا جَاءتْ صيغةُ الأَمْرِ فِي فعلٍ مُوَجَّهٍ إِلَى اللهِ فسَمِّهِ فِعْلَ دُعاءٍ، وهَذِهِ قاعدةٌ مفيدةٌ؛ مثلَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ [البقرة:٢٨٦]، تقولُ: (لَا) دعائِيَّةٌ، وَلَا تَقُلْ: (لَا) نَاهيةٌ؛ لأَنَّكَ لَا تَنهى الخَالِقَ عَزَّوَجَلَّ، وَإِذَا أتتْ صيغةُ الأمـرِ فِي فعل موجَّه إِلَى اللهِ فسَمِّه فعلَ دعاءٍ.

والهدايةُ لَهَا مَعْنيَانِ:

المَعْنَى الأَوَّلُ: هدايةُ الدلالةِ، **والمَعْنَى الثَّاني**: هِدَايَةُ التَّوفيقِ.

فهدايةُ الدلالةِ أَيْ: يدلُّكَ إِلَى شيءٍ، وهدايةُ التَّوفيقِ أَنْ يوفِّقَك للعملِ به؛ ولْنَضرِبْ لِهَذَا أمثلةً: سُئِل أَبُو بكرٍ حينَ قَدِمَ مُهاجرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ: مَنْ هَذَا الَّذِي مَعَكَ؟ فقَالَ: «هَذَا الرجل يَهْدِينِي السَّبِيلَ»[2]. فالمرادُ بالهدايةِ هُنَا هدايةُ الدلَالَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩١١).

وكَذَلِكَ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢]؛ فهَذِهِ أَيْضًا هدايةُ الدلالةِ.

ومِنْهَا قولُه تعَالَى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

أمَّا هدايةُ التَّوفيقِ، فَهِيَ أَنْ يُوفِّقَك الهَادِي الَّذِي هَدَاكَ إِلَى العَمَلِ؛ ومِنْهُ قولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦]، يَعْنِي لَا تَهْدِي هدايةَ توفيقٍ.

أَمَّا هدايةُ الدلَالةِ فَإِنَّهُ يَهْـدِي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَكِنْ لَا يَستطيعُ أَنْ يُوَفِّقَ أَحدًا للهِدَايَةِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

فقَوْلُهُ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هِيَ من هداية الدلالة، ومن هداية التَّوفيق، فَأَنْتَ إِذَا قلتَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فإنك تسأَلُ اللهَ علمًا نافعًا، وهَذِهِ هدايةُ الدلالةِ، وعَمَلًا صَالحًا؛ وهَذِهِ هدايةُ التَّوفيقِ.

إِذَنْ معنى ﴿ٱهۡدِنَا﴾: دُلَّنَا ووَفِّقْنَا.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هُوَ دِينُ الإِسْلَامِ؛ لأَنَّهُ يُوَصِّلُ إِلَى اللهِ، فمَنْ سَلَكَ هَذَا الدِّين وَصَلَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يَعْنِـي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ عِوَجٌ، وَلَا ارْتفاعٌ وَانْحدار؛ لأَنَّ الطَّرِيق يَكُونُ فِيهِ عِوَجٌ إِمَّا بانحرافٍ يَمِينًا وشمالًا، وإِمَّا بارتفاعٍ ونزولٍ.

فالطَّرِيق الَّذِي فِيهِ ارْتفاعٌ ونزولٌ لَيْسَ مستقيمًا؛ لأَنَّكَ أحيانًا تهبطُ وأحيانًا ترتفِعُ، وَالطَّرِيقُ الَّذِي فِيهِ شمَالٌ ويَمِينٌ لَيْسَ بمُسْتَقِيمٍ أيضًا؛ لأَنَّكَ أحيانًا تَنْحَرِفُ

يَمِينًا، وأحيانًا تَنْحَرِفُ شمَالًا، فَلَا يَكُون مُسْتَقِيمًا؛ فالْمُسْتَقِيمُ هُوَ المعتدِلُ المستوِي. وإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الإِسْلَام وَجَدْنَا أَنَّهُ طريقٌ مستوٍ معتدلٌ يُوَصِّل إِلَى المقصودِ بكُلِّ سهولةٍ.

وهَدَى تتعدَّى بنفسِهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٦]، وتتعدَّى بـ(إِلَى)، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

فإِنْ تعدَّتْ بإِلَى فَهِيَ بِمَعْنَى الدلَالَةِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣]، ومِنْهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وإِنْ تعدَّتْ بنفسِهَا صَارَت بِمَعْنَى الدلَالَةِ وَالتَّوفيقِ، فتَقُولُ: هديتُ فُلَانًا، أَوْ هَدَى اللهُ فلانًا.

فقَوْلُهُ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أَيْ دُلَّنَا عَلَيْهِ بالعِلْمِ ووفِّقْنَا لَهُ، فيَكُونُ هَذَا الدُّعاءُ متضمِّنًا لسؤالِ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَلَيْسَ مقصودًا بِهِ العِلْمُ فَقَطْ، وَلِهَذَا تعدَّى بنفسِهِ، فمَنْ علِمَ أَنَّ صَلَاةَ الجماعةِ وَاجِبَةٌ، ولكِنَّهُ لَا يُصَلِّي مَعَ الجماعةِ، فَهَذَا لم يُوَفَّقْ للعَمَلِ بِهِ.

وعَلَى هَـذَا فَإِذَا قَالَ الْمُصَلِّي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فَإِنَّهُ يسأَلُ اللهَ عِلْمًا وعَمَلًا، عِلْمًا نَافعًا يَهْتَدِي به، وعَمَلًا صَالِحًا يُرْشَد بِهِ، ويشـمَلُ هداية الإِرْشادِ وَالدَّلالةِ، وهدايةَ التَّوْفِيقِ وَالعَمَلِ.

فالعِلْمُ لَا يَكُونُ مُفِيدًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَقْـرُونًا بالعَمَلِ، أَمَّا إِذَا كَانَ غـيرَ مقرُونٍ بالعَمَلِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مُفِـيدًا، بَلْ ضَارًّا، وضَرَرُهُ أكبرُ مِنْ نَفْعِهِ، وَالجَهْلُ خَيْرٌ مِنْ علمٍ لَا ينفعُ.

ومِنْ ثَمَّ يُمكنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ النَّاسَ ينقسمونَ إِلَى أربعةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: جَاهلٌ، مِنْ عَامَّـةِ النَّاس، لَا يعلمُ شيئًا، لسانُ حَاله يَقُـولُ: سمعتُ النَّاسَ يقولون شيئًا فقلتُه.

القِسْمُ الثَّاني: عالمُ مِلَّةٍ، وَهُوَ الَّذِي عَلِمَ الحقَّ وَاتَّبعه، وَصَارَ لَا يَحِيد عَنْهُ طَرفةَ عَيْنٍ.

القِسْمُ الثَّالث: عالمُ أُمَّةٍ، وَهُوَ الَّذِي أعطاهُ اللهُ عِلْمًا، لَكِنَّهُ لَا يَتَّبِعُ مَا قامَ بِهِ الدَّلِيلُ، وإِنَّما يتَّبعُ فِيهِ مَا يروقُ للأمَّةِ، فينظرُ مَا يَصلُح للنَّاسِ فيأتِيهم بما يَصْلُحُ لهم، فَإِذَا رأَى فِي الشَّرع مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّيْء حرامٌ، وَلَكِنَّهُ لَا يروقُ للنَّاسِ، فيقولُ: حلال إرضاءً للأمَّةِ.

ومِنْ هَذَا مَا يفعلُه بعضُ النَّاس فِي الأُمُور الخلافيَّةِ، فيَكُون فِيهَا أحدُ القَوْلَين أوسعَ مِنَ القَوْل الثَّاني بالنِّسْبَةِ للعملِ، لَكِنَّهُ أبعد عَنِ الصَّوَاب بالنِّسْبَةِ للشَّرْعِ، فتجدُ عَالمَ الأُمة يُفتِي النَّاسَ بالقَوْل المَرجوحِ إِرضاءً للأُمَّة؛ لأَنَّ هَذَا هُوَ القَوْلُ المناسبُ للناسِ.

وهَذَا يجري فِي كثيرٍ مِنَ الأُمُور الخلافيةِ، كبعضِ مسائلِ الرِّبا، وكَذَلِكَ فِي مسائل النِّكاحِ وَالنَّذر وَمَا أشبهَ ذَلِكَ، فتجدُ بَعْضَ عُلَماء الأُمَّةِ ينظرُ مَا يَروقُ للنَّاسِ فيُفتِيهِمْ وَلَوْ عَلَى حسابِ مَا يَرى أَنَّهُ هُوَ الرَّاجحُ، وَهَذَا إِثمُه عظيمٌ عَلَيْهِ، كَما جَاء فِي الحَدِيثِ: «**القُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الجَنَّةِ**»[1]، فمَنْ عَلِمَ بالحَقِّ وحَكمَ بِهِ فَهُوَ فِي الجنةِ، ومَن حَكَمَ بجهلٍ، أَوْ حَكمَ بما يعلمُ أَنَّ الحقَّ فِي خلافِه فَهُوَ فِي النَّارِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ، رقم (١٢٤٠).

القِسْمُ الرَّابع: عَامِلُ دولةٍ، وَهُوَ الَّذِي ينظرُ مَا يَروق للدَّوْلَةِ، ويصلحُ لَهَا ويُفتيها بِهِ، وَلَوْ كَانَ يَرَى أَنَّ الحقَّ فِي خلافِه، وَهَذَا يقعُ كثيرًا مِنْ بَعْضِ العُلَمَاءِ الَّذِينَ اشترَوُا الحياةَ الدُّنْيَا بالآخرةِ، وَصَاروا يتكلَّمون حَسَبَ مَا تُمليه عَلَيْهِمُ الدولةُ، سواء بحقٍّ أَوْ بباطلٍ، ومِنْ ذَلِكَ مَن يَقُول: إِنَّ بعضَ النُّظُمِ الاشتراكيةِ مِنَ الدينِ الإِسْلَامِيِّ، ويستدلُّون عَلَى ذَلِكَ بآيات متشابهاتٍ، وكُلُّ ذَلِكَ إرضاءً للدَّولةِ.

فعَالِمُ الدَّولة سَوْفَ يجدُ حِسَابَهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حينَما يُنادي المُنادِي: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، وسيجدُ هَذَا حِينَ يتبرَّأُ مِنْهُ مَنِ اتَّبعَ هَوَاهُ مِنْ أجلِهِ، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

فَإِنْ قِيلَ: لِمَاذَا جاءَ قَوْلُهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟

قُلْنَا: لأَنَّ العِبَادَة إِذَا لم تَكُنْ فِي إِطَارِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم صَارَتْ بِدْعَةً، لَا تُقبلُ عِنْدَ اللهِ؛ لأَنَّ مِنْ شَرْطِ العِبَادَةِ المتابَعةُ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، وهَذِهِ لَا تتحقَّقُ إِلَّا فِي اتِّباعِ الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ، كَذَلِكَ الاستعانةُ، فتستعينُ باللهِ في إِطارِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَبِهَذَا نعرِفُ أَنَّ أولئكَ القَوْمَ الَّذِينَ يَكُون لديهم غَيرةٌ شديدةٌ، وعَاطفةٌ قويَّة، تخرُجُ بِهِمْ عَنِ الحدود الشرعيَّة، أَنَّهُمْ لم يأتُوا بالاستعانةِ عَلَى الوجهِ المطلوبِ؛ لأَنَّ الاسْتِعانةَ لا بدَّ أَنْ تكونَ عَلَى وَفْقِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم، أَمَّا أَنْ تعصِفَ بنفسِكَ بمقتضَى عَاطفتِكَ بدونِ أَنْ تُقيِّدَها بالشَّرعِ وبالعقلِ فهَذِهِ العَاطفةُ سَوْفَ تكونُ عَاصفةً، وسيحدثُ

فِيهَا فوضَى كبيرةٌ وخللٌ عظيمٌ، ويَكُون ضررُها أكبرَ بكثيرٍ مِنْ نَفْعِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هَذَا بدلٌ أَوْ عطفُ بيانٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ يَعْنِي أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ صراطُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أنعمتَ عَلَيْهِمْ بالهدايةِ العِلْميَّةِ، وَهِيَ هدايَةُ الدلالة، وَالهداية العَمَليَّة وَهِيَ هِدَايَة التَّوفيق، ونُسِب إِلَى الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِمْ لأَنَّهُمْ همُ الَّذِينَ يَسلكونَ هَذَا الصِّرَاطَ.

والَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُمْ أربعةُ أصنافٍ، ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [النساء:٦٩] وهُمْ:

أولًا: النَّبيُّون. ثانيًا: الصِّدِّيقون.

ثالثًا: الشُّهداء. رابعًا: الصَّالحون.

أوَّلًا: النَّبيُّونَ:

والنَّبِيُّ هُوَ مَن يُوحى إِليهِ فِي الشَّرع وَلَا يُؤمر بتبليغِه، وَالرَّسُولُ هُوَ الَّذِي يُوحى إِلَيْهِ فِي الشَّرْعِ ويُؤمَر بتبليغه، وَلِهَذَا كَانَ آدمُ نبيًّا وَلَيْسَ برسولٍ؛ لأَنَّ أولَ الرُّسُل هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثانيًا: الصِّدِّيقُون:

أمَّا الصِّدِّيقُونَ فإِنَّهُم الَّذِينَ بَلَغُوا فِي الصِّدق غايتَه مَعَ اللهِ، ومعَ عِبَادِ الله، وعلَى رأسِ هَؤُلَاءِ الصِّدِّيقين أبو بكرٍ صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ فِي الغارِ، فَإِنَّهُ أفضلُ الصِّديقين. وَالصِّدِّيقيَّةُ درجةٌ عظيمةٌ تَلِي درجةَ النبوةِ؛ وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ

عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[1].

ثالثًا: الشُّهداء:

للعُلَماء فِيهم قولَان: الأولُ: أَنَّهُمُ العُلَماء، وَالثَّاني: أَنَّهُمُ الَّذِينَ قُتلوا فِي سبيلِ الله، فالعُلَماءُ شهداءُ، حَتَّى لَوْ ماتَ العَالم عَلَى فِراشِهِ فَهُوَ شهيدٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]، فجعلَ اللهُ تَعَالَى أُولِي العِلْمِ شهداءَ؛ لأَنَّهُمْ يشهدون للرسلِ بالبلاغِ، ويشهدونَ عَلَى الأُمَّة بِأَنَّ الدَّعوةَ بلغَتْهُم، فلهَذَا كَانُوا شُهداءَ، لكنَّهم لَوْ مَاتُوا عَلَى فِراشِهم لَا يُعطَوْن حكمَ الشَّهيدِ بحيثُ لَا يُغَسَّلُون وَلَا يُصلَّى عَلَيْهِم، لكنَّهم شهداءُ عَلَى عِبادِ اللهِ فِي شرعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا الشُّهداء الَّذِينَ قُتلوا فِي سبيلِ اللهِ فإنَّهم شهداءُ بلا شكٍّ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وَالذين قُتلوا فِي سبيلِ اللهِ هُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا لتكونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وَقَدْ سُئل رسولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلِ شجاعةً، ويقاتل حَمِيَّةً، ويُقاتل ليُرى مكانُه، أَيُّ ذَلِكَ فِي سبيلِ اللهِ؟ فقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، رقم (٥٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالمًا جالسًا، رقم (١٢١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٣٥٣١).

فإِنْ قَالَ قَائلٌ: إِنسَانٌ مظلومٌ قُتِلَ فَهَلْ يَكُونُ شَهِيدًا؟

قُلْنَا: نَعَمْ يَكُونُ شَهِيدًا، وقاتِلُهُ يَكُونُ فِي النَّارِ، فإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فقيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»[1].

فجعَلَ النَّبِيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ البَاغِيَ الَّذِي يَعْتَدِي عَلَى المسلِمِ ليأخذَ مَالَهُ إِذَا قُتِلَ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَأَمَّا المُعتَدَى عَلَيْهِ إِذَا قَاتل دَفْعًا عَنْ مَالِهِ فَإِنَّهُ يَكُون شَهِيدًا، وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يُقتلُ يَكُونُ شهيدًا، فالشَّهَادَةُ حُكمٌ مِنَ اللهِ، فمَنْ حَكَمَ اللهُ لَهُ بالشَّهَادَةِ فَهُوَ شهيدٌ، ومَنْ لَمْ يَحكُمِ اللهُ لَهُ بالشَّهَادَةِ فلَيْسَ بشَهِيدٍ.

فَإِنْ قِيلَ: رجلٌ فِي صُفوفِ المجاهدينَ قُتِلَ فَهَلْ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: هَذَا الرَّجُلُ شهيدٌ بعينِهِ أَوْ لَا؟

قُلْنَا: لَا نشهَدُ لَهُ بعينِهِ؛ لأَنَّ الشَّهَادَةَ بالعَيْنِ تحتاجُ إِلَى نَصٍّ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فعُمَرُ بنُ الخطَّابِ، وعُثمانُ بنُ عفانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا نشهَدُ لَهُمَا بالشَّهَادَةِ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَهِدَ لهما، ويدلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم لَمَّا صعِدَ جَبَلَ أُحُدٍ وكانَ مَعَهُ أَبُو بكرٍ، وعُمَرُ، وعثمانُ، ارتجَّ بهِمُ الجبلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم: «**اثْبُتْ أُحُدُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ،**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم، رقم (٢٠٥).

وَشَهِيدَانِ»(١)، فالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ وَالصِّديق أَبُو بكر، وَالشَّهِيدان: عُمَرُ وعُثمانُ.

أَمَّا مَنْ لم يشهَدْ لَهُ الرَّسُول ﷺ فإِنَّنا لَا نشهدُ لَهُ، لكنَّنا نرجُو لَهُ ذَلِكَ، ولَنا أَنْ نَقُولَ كلمةً عَامة: إنَّ مَن قُتِلَ فِي سبيلِ اللهِ فَهُوَ شهيدٌ، فنشهدُ لكلِّ مُؤْمِنٍ بِأَنَّهُ فِي الجنَّةِ بدونِ تعيينٍ، أَمَّا من كَانَ معروفًا بالصَّلَاحِ وَالإِيمانِ فَلَا يصحُّ أَنْ نشهدَ لَهُ بعينِه أَنَّهُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ.

وقد ترجمَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صحيحِه فقَالَ: «باب لَا يقالُ: فلانٌ شهيدٌ» وَاستدلَّ عَلَى ذَلِكَ بدليلَيْنِ:

الأَوَّلُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ**»(٢). وَالشَّاهد فِي الحَدِيث قَوْلُهُ: «**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ**»، يعني: اللهُ أعلمُ بمَن يُجرحُ فِي سبيلِه، فقد يُجرحُ الإِنْسَانُ فِي الجهادِ وَلَا يَكُون مِنَ الشُّهداء.

واستدلَّ بِدَلِيلٍ آخرَ وهُوَ: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ التَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ. قَالَ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلًا، رقم (٣٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الجهاد باب لا يقال: فلان شهيد، ووصله في: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٣)، وأخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ. قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: **«وَمَا ذَاكَ؟»** قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»**(١)، فاستدلَّ البخاريُّ عَلَى أَنَّنَا لَا نشهَدُ لشخصٍ بعينِه أَنَّهُ شهيدٌ وإِن قُتِلَ فِي الجهادِ.

وذكر الحَافظُ ابنُ حجرٍ فِي فِتْحِ البَارِي أثرًا عَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَطَبَ النَّاس وقَالَ: تَقُولُونَ فِي مَغَازِيكُمْ: فُلَانٌ شَهِيدٌ، وَمَاتَ فَلَانٌ شَهِيدًا، وَلَعَلَّهُ قَدْ يَكُونُ قَدْ أَوْقَرَ رَاحِلَتَهُ، أَلَا لَا تَقُولُوا ذَلِكُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا كَمَا قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: **«مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ»**(٢).

رابعًا: الصَّالحون:

قالَ أهلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ الصَّالح هُوَ الَّذِي قَامَ بِمَا يجبُ عَلَيْهِ مِنْ حقوقِ اللهِ، وحقوقِ العِبَادِ، لَكِنَّهُ لم يأتِ بالمُكمِّلاتِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَاءَ بالمكملاتِ لارتقى إِلَى مرتبةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول: فلان شهيد، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ٤١٢، رقم ٢٩٣).

الصِّدِّيقيةِ، أَوِ الشهداء. وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كُلَّمَا فعلَ الإِنْسَانُ مَا يُكَمِّلُ بِهِ دينَهُ كَانَ ذَلِكَ أتمَّ فِي صلاحِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ۝٧﴾:

المغضوبُ عَلَيْهِمْ: هُمُ الَّذِينَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم، وغَضِبَتْ عَلَيْهِمُ الرُّسُل، وغَضِبَتْ عَلَيْهِمُ الملائكةُ، وغضبَتْ عَلَيْهِمْ جميعُ الأُمَم المسلمةِ، وهؤلاءِ هُمُ اليهودُ، ويعني ذَلِكَ انحسارَ الغضبِ فِي اليهودِ، لَكِنَّنَا نقولُ: هُمُ اليهودُ عَلَى سبيلِ التَّمثيلِ، وإِلَّا فالمَعْنَى الشَّاملُ للمغضوبِ عَلَيْهِمْ: هُمْ مَنْ عَلِمُوا الحقَّ فلم يأخذوا به، وَاليهودُ عَلِمُوا الحقَّ ولم يأخذوا بِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، فيعرفون النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أبناءَهُمْ، ولكنَّهُم لم يَقْبَلُوا الحقَّ، ولم يأخذوا بِهِ، فكانُوا مغضوبًا عَلَيْهِمْ، فالمغضوبُ عَلَيْهِمْ بالمَعْنَى العَامِّ: هُمْ مَنْ علِم الحقَّ وَلَمْ يعملْ بِهِ، وعلى رأسِهم اليهودُ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المَائدة:٦٠]، وَالذين جعَلَ اللهُ منهمُ القردةَ وَالخنازيرَ همُ اليهودُ، ودَلِيلُ ذَلِكَ قولُه تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٣ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٦٤ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٥ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦].

فجعلهم اللهُ قردةً، وهؤلاءِ القومُ كَانُوا فِي نعيم ففسقُوا، وَانقسمُوا ثَلَاثَةَ أقسام: قسمٌ فَسَقُوا، وقسمٌ صلَحوا وأَمَرُوا بالمعروفِ ونَهَوْا عَنِ المنكرِ، وقسمٌ سَكَتُوا، بَلْ قَالُوا للنَّاهِـينَ عَنِ المنكر: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فجعلهُمُ اللهُ قردةً.

وأُمَّةٌ أُخْرَى حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يصطادوا الحيتانَ يومَ السبتِ، فصارتِ الحيتانُ يومَ السبتِ بكثرةٍ عَلَى المَاءِ، وفي بقيةِ الأسبوعِ لَا تأتِي، وَاليهودُ يُحِبُّون المَالَ حبًّا عظيمًا، فعَجَزُوا أَنْ يصبرُوا عَنْهَا فَتَحَيَّلُوا عَلَى ذَلِكَ، فوَضَعُوا شَبَكًا فِي المَاء يومَ الجمعةِ فتأتِي الحيتانُ يومَ السبتِ فتدخلُ فِي الشَّبَكِ، فَإِذَا كَانَ يومُ الأحدِ جَاءُوا وأخذُوا الحيتانَ، قَالَ اللهُ تَعَالَـى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥].

فاليهودُ قومٌ غضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُم عَلِمُوا الحقَّ وَلَمْ يَعملُوا به، وعَلِمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، فهُم يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أبناءَهم، فَلَمَّا جَاءَهم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فعَصَوا اللهَ عَنْ علمٍ، فَصَارُوا مغضوبًا عليهِمْ.

قولُه تعَالَى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾:

الضَّالُّون: هُمْ مَن ضلُّوا عَنِ الحقِّ، وعلى رأسِهِمُ النَّصارى، فإِنَّ النَّصَارى عِندَهُم إِرادةٌ للحقِّ، لكِنْ ضَلُّوا عَنْهُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أَي: اتَّبعوا عِيسَى ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، فلهَذَا كَانُوا ضَالِّين عَنِ الحقِّ.

والله أنكرَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الرَّهبانيَّةَ، فهُمْ يُريدون رِضوانَه، ولكنَّهم ضلُّوا عَنْ ذَلِكَ، فالَّذي فاتَ اليهودَ مِنَ الهُدى هُوَ هُدَى التَّوفيق؛ لأنَّهُمْ عَلِمُوا الحقَّ، وَالَّذِي فَاتَ النَّصَارى هُوَ هُدَى الضَّلالة.

والنَّصَارى الَّذِينَ عَلِمُوا الحقَّ ببِعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّهم مثلُ اليَهُودِ؛ لأنَّهُمْ عَلِمُوا الحقَّ ولم يَعْمَلُوا بِهِ ولم يَتَّبِعوه، فصَارُوا داخلينَ فِي المغضوبِ علَيْهِم، ولَكِنِ المرادُ بالنَّصارى الَّذِينَ كَانُوا قبلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُريدون الحقَّ ولكن عَمُوا عَنْهُ، ولَمْ يهتدُوا لَهُ، أَمَّا بَعْدَ بِعثةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبلوغِ الرِّسَالَةِ لَهُمْ فإنَّهم يكونونَ مِنْ عِبادِ اللهِ المغضوبِ عَلَيْهِم، لَا مِنْ عِبَادِ اللهِ الضَّالِّين.

إذن هَذِهِ الآيةُ قَسَّمَتِ النَّاسَ إِلَى ثَلاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ؛ وهُمُ الَّذِينَ عَلِمُوا الحقَّ وَاتَّبَعُوه، وهُمْ أربعةُ أصنافٍ: النَّبيونَ، وَالصِّدِّيقون، وَالشُّهداء، وَالصالحون.

القِسْمُ الثَّاني: المغضوبُ عَلَيْهِم، وهمُ الَّذِينَ عرَفوا الحقَّ فلَمْ يأخذُوا به.

القِسْمُ الثَّالث: الضَّالُّون؛ وهُمُ الَّذِينَ لم يُوَفَّقُوا للحقِّ ولم يَعْرِفُوهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هناك عُبَّادٌ مِنَ المسلمينَ عِندَهُم طرقٌ مبتدَعَةٌ فِي العِبادة، هَلْ يُلحقون بالمغضوبِ عَلَيْهِمْ أم بالضَّالين؟

الجَوَابُ: يُلحقونَ بالضَّالِّين، فهم يُشْبِهُونَ النَّصَارى الَّذِينَ أرادُوا الحقَّ، ولكنْ ضَلُّوا عَنْهُ، فهؤلاءِ ضَلُّوا عَنِ الحقِّ، وَالوَاجبُ عَلَى العُلَمَاءِ الَّذِينَ يَعلمونَ الحقَّ أَنْ ينصحُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُريدونَ الحقَّ، ولكنْ ضلُّوا عنه، ويَهْدُوهُمْ إِلَى الحقِّ ويُبينوا لهمُ

الحَقَّ وَلَا يَنْفِرُوا مِنْهُم؛ لأَنَّ بعضَ النَّاس إِذَا رَأَى أَحَدًا مُبتدِعًا نفرَ مِنْهُ، وَالوَاجبُ أَنْ ينصحَهُ، ويُبيِّنَ لَهُ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ مخالفٌ لشريعةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى يهديَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ.

ومِنَ النَّاسِ مَن يعلمُ الحقَّ ولكِنْ لَا يعمَلُ به، فيعلمُ أَنَّ بِر الوَالدَين وَاجبٌ، ولكِنْ لَا يبَرُّ وَالدَيه، فَهَذَا عَلِمَ الحقَّ ولكِنْ لم يَعْمَلْ بِهِ، وعَلِمَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ وَاجبة، ولكِنْ لَمْ يَصِلْ رَحِمَهُ، فَهَذَا فِيهِ شبهٌ مِنَ اليهود؛ لأَنَّهُ عَلِمَ الحقَّ ولكِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ.

عَلِمَ أَنَّ صَلَاةَ الجماعة وَاجبةٌ، ولكِنْ لَمْ يُصَلِّ مَعَ الجماعةِ، ففيه شبهٌ مِنَ اليهودِ؛ لأَنَّهُ عَلِمَ الحقَّ ولَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فالعَالِمُ الَّذِي لَا يعمَلُ بعلمِهِ عَلَى خَطَرٍ عظيمٍ؛ لأَنَّهُ يُشبه اليهودَ، فالوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نتعلَّمَ ونعملَ، حَتَّى نكونَ مِنَ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عليهم.

قَالَ سُفيانُ بنُ عُيينَة رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن فسَد مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ اليهودِ، ومَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى؛ لأَنَّ الَّذِي فَسَدَ مِنْ عُلمائِنَا عَلِمَ الحقَّ ولَمْ يتبِعْه، فصارَ مُشابهًا لليهودِ، وَالَّذِي فسَد مِنْ عُبَّادِنا عَلِمَ الحقَّ، ولكِنْ لَمْ يُوَفَّقْ لَهُ، فصَارَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَى[1].

والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٧).

الدرس السابع:

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومنْ سيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه وأمينُه على وحيِه، وخيرتُه من خلقِه، ورسولُه إلى جميعِ الناسِ بشيرًا ونذيرًا، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنِ اتَّبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا، **أمَّا بعدُ:**

إنَّ كلَّ قارئٍ في أيِّ بُقْعَةٍ وهو قائمٌ يُصلِّي يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاللهُ تعالى يقولُ لَهُ: «**حَمِدَنِي عَبْدِي**»، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**». وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] قال: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] قال: «**هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**». والضمير يعودُ إلى الله في ﴿إِيَّاكَ﴾ في المَوْضِعَيْنِ، والعبادَة خاصَّة باللهِ، والاستِعَانَةُ مِنْ حَظِّ المخْلُوقِ؛ يَسْتَعِينُ اللهَ فيُعِينُهُ، فإذَا قالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] إلى آخِرِ السُّورَةِ قالَ: «**هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

فهل نحن إذا قَرَأْنا هذِهِ السورَةَ ونَحْنُ نُصَلِّي نستَحْضِرُ هذِهِ المعانِيَ الجليلَةَ؟ نعم أحيانًا نَسْتَحْضِرُ في الواقِعِ -وأنَا أتحدَّثُ عنْ نَفْسِي، وأنا أَشَدُّكُم تَقْصِيرًا- وأحيَانًا لا نستَحْضِرُ، وكان الذِي ينبَغِي لنا أن نستَحْضِرَهَا حتَّى نخْشَعَ، حتى يؤمِنَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

الإنسانُ أنَّه يُناجِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ كما قالَ النَّبِيُّ ﷺ في الذين يُصَلُّونَ: «كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ»[1].

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هنا حُكْمٌ وسَبَبٌ، الحُكْمُ: هو الحَمْدُ، والسبب: الأُلُوهِيَّةُ والرُّبُوبِيَّةُ العامَّةُ، والرَّحْمَةُ العامَّةُ والخاصَّةُ، فهذه أربعة.

إذن الحُكْمُ هو إقرارُ العَبْدِ بِلسانِهِ وقلْبِهِ أن الحمدَ لله، وهو الوصْفُ بالكمالِ المطلَقِ الذي ما فَوْقَهُ شيءٌ، وما مِثْلُهُ شيءٌ، للهِ؛ لأنه رَبُّ العالَمِينَ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لأَنَّه ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لأَنَّه المالِكُ.

إذن يُحمَدُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ على الأَوْصافِ العَظِيمَةِ لأَنَّه رَبُّ العالِمِينَ.

ومَعْنَى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنه خالِقُهم، خَلَق السماواتِ، وخَلَقَ الأرضَ، وخَلَقَ النُّجومَ، وخَلَقَ الشَّمْسَ، وخَلَقَ القَمَرَ، وخَلَقَ الإنسانَ، وهذا لا إشكالَ فيهِ، حتَّى المشْرِكُونَ الَّذِينَ أنكرُوا أُلُوهِيَّةَ اللهِ وقالُوا للرَّسولِ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] حتى هَؤلاءِ لَوْ سألتَهم: مَنْ خَلَقَهم؟ ليَقُولُنَّ: الله، حتَّى المشْرِكونَ لا يُنْكِرُونَ هذا، فاللهُ تعالى هو الخالِقُ المالِكُ، فهو مالِكُ السماواتِ والأرضِ.

ولا أحَدَ يملِكُ لنفْسِه نَفْعًا ولا ضَرًّا، فالذي يَمْلِكُ النَّفْعَ والضرَّ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولا أحَدَ يمْلِكُ أن يفْعَلَ ما يشاءُ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١٣٧]،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٣٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣]، فالأَمْرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ.

ويظهَرُ مُلكُهُ التامُّ يومَ الدِّينِ؛ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وقبله: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ لمن؟ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، فليس هناك مَلِكٌ، ولا مملوكٌ، ولا رئيسٌ، ولا مرؤوسٌ، ولا وزير، ولا وزارةٌ، ولا مديرٌ، ولا إدارةٌ، بل كلُّ شيءٍ يتلاشى، وكلُّ الناسِ يومَ القيامَةِ يُحشَرُونَ حُفَاةً عُراةً غُرْلًا، الذكورُ والإناثُ.

ولما قالَتْ عائشةَ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ عُراةٌ؟ قال: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»[1].

فالأمرُ عظيمٌ كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ لماذا؟ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٣-٣٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] فليس هناكَ نَسَبٌ ولَا قَرَابَة ولا أُخُوَّة، فكلُّها تَتَباعَدُ، وكلُّ إنسانٍ مَشْغُولٌ بنفْسِهِ.

إذن المُلْكُ يومَ الدِّينِ للهِ عَزَّوَجَلَّ المدبِّرِ لجميعِ الأمورِ، ولكِنْ أقولُ: تَدْبِيرُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَدْبيرٌ شرْعِيٌّ، فهو الَّذِي يُحَلِّلُ ويحرِّمُ ويُوجِبُ ويُبِيحُ، وهذا للهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩).

قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ العالَمونَ: يقولُ شيخُ الإسلامِ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلُّ ما سِوَى اللهِ عالَم، وأنا واحِدٌ من ذَلِكَ العَالَم، فإذا قِيلَ لكَ: بِمَ عَرَفْتَ ربَّك؟ فقل: بآياتِهِ ومخْلُوقاتِهِ[1].

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: ذي الرَّحْمَةِ الواسِعَةِ، الرحمَةِ البالِغَة، فإنَّ الله يُعَذِّبُ مَن يشاءُ ويَرْحَمُ من يشَاءُ.

قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يومُ الدِّينِ هو يومُ القيامَةِ، سُمِّي بذلِكَ لأنَّه تُدانُ فيه النُّفوسُ بما عَمِلَتْ، وكما جاءَ في المَثَلِ: كما تَدِينُ تُدانُ، فيومُ الدِّينِ هو يومُ القيامَةِ؛ لأنه يومٌ تُدانُ فيه النُّفُوسُ بما عَمِلَتْ، إن خَيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشَرٌّ.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليس هناكَ فَرْقٌ بينَ (لا نَعْبُدُ إلا إيَّاكَ) وبين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مِن حيثُ المعْنَى، لكن من حيثُ الصِّيغَةُ بينهما فَرْقٌ، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بمَعْنى (لا نَعْبُدُ إلا إيَّاكَ)، وهذا يجِبُ على كلِّ مؤمِنٍ ألا يَعْبُدَ إلا اللهَ، ولذلك لو أمَرَكَ أبُوكَ الذي تجِبُ طاعَتُهُ بمَعْصِيَةٍ، فلا تُطِعه؛ لأنَّكَ تَعبدُ اللهَ، لا تَعْبُدُ أباكَ، وإذا كنتَ تعبدُ اللهَ، فلا بُدَّ أن تُقَدِّمَ طاعتَهُ على طاعَةِ كلِّ أحدٍ.

ولو أَمَرَكَ الأميرُ بمَعصيَةِ اللهِ، فلا تُطِعْهُ؛ لأنكَ تعبدُ اللهَ، والطاعَةُ عِبادَةٌ، فلو أطَعْتَهُ في معصِيَةِ اللهِ لعَبَدْتَهُ معَ اللهِ، ولذلك كلُّ مَن أطاعَ أحدًا في مَعْصِيَةِ اللهِ فهو عبدٌ لهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ يَعْنِي العُلماءَ، ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ يعني العُبَّادَ ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، قالَ عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ للرَّسولِ ﷺ: إنَّا لَسْنا نَعْبُدُهُمْ، فقَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ**

---

(١) شرح ثلاثة الأصول، لفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى (ص:٤٤).

فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١).

إذن طاعَةُ غيرِ اللهِ في معصِيَةِ اللهِ عبادَةٌ لَهُ، فالمؤمنُ يقولُ: أنا لا أَعْبُدُ إِلَّا اللهُ، ولو أمَرَنِي أقرَبُ الناسِ إِلَيَّ، وأَوْجَبُهُم طاعَةً، فإنَّنِي لا أُطِيعُهُ في مَعْصِيَةِ اللهِ.

ولا يَقُلْ قائل: يَرِدُ علَى كلامِكَ الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّ الرسولَ لا يأمُرُ بمَعْصِيَةٍ أبدًا، فالرَّسولُ ﷺ لا يأمُرُ إلا بِمَا يُرْضِي اللهَ، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]. ففيه هذا إشكالٌ مع قولِه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بمعنى لا نَسْتَعِينُ إلا إيَّاكَ.

لكِنْ يُرَدُّ عليه أَنَّكَ تَسْتَعِينَ بالرَّجُلِ فتقول: يا فُلانُ أَعِنِّي عَلَى حَمْلِ متَاعِي إلى السَّيَّارَةِ. يعني أَنَّكَ تَسْتِعينُ اللهَ فِيمَا لا يَقْدِرُ عليهِ إِلَّا اللهُ، فهذَا لَا يُمْكِنُ أن تَسْتَعِينَ غيرَ اللهِ فيه، لكن تَسْتَعِينُ مَخْلُوقًا فيما يَقْدِرُ عليه هذا جائزٌ، فالإنسانُ يأخُذُ الدواءَ وهو مَرِيضٌ ليُشْفَى، والشَّافِي هُو اللهُ وهذا الدَّواءُ سببٌ.

أيضًا أنتَ تقولُ لفُلانٍ: أعِنِّي. فيُعينُكَ، فهذَا الشَّخْصُ سببٌ، فلا يُنَافِي قولَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يعْنِي: تَسألُ اللهَ هِدَايَةَ التَّوْفِيقِ وهدَايَةَ الإرشادِ، يعْنِي: تسألُ الله أن يُعْلَمِّكَ، وأن يُوَفِّقَكَ للعَمَلِ، فكم مِنْ إنسانٍ هُدِي وتَعَلَّم وعَرَفَ، ولكنه لم يُهْدَ هِدَايَةَ التَّوفِيقِ، استَمِعْ للقرآنِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، هَدَيْنَاهُم هِدايَةَ الإرشادِ والدَّلالَةِ مَعًا، لكِن

---

(١) أخرجه الطبراني (١٧/ ٩٢، رقم ٢١٨).

استَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى.

إذن أنتَ إذا قُلْـتَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنك تُرِيدُ الإرشاد، وهو الدَّلالَة، والتَّوفِيـق وهو العَمَل، ولذلك أقولُ وأخصُّ بذلِكَ النَّحْوِيِّـينَ: لم يَقُلْ: «اهْدِنَا إلى الصِّراطِ»، بل قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ لِيَشْمَلَ الهدايَةَ إليهِ، والهِدَايَةَ فيه، فأنتَ حينما تسألُ اللهَ إذا قُلْتَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنك تسألُ اللهَ عِلْمًا نافِعًا، وعَمَلًا صالحًا.

قوله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أيك الذي لا عِوجَ فيهِ، وهُو ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والذين أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ فُصِّلُوا في سُـورَةِ النساءِ، فَقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهـؤلاءِ هُمُ الذينَ حُرِمُوا هِدايَةَ التَّوفِيـقِ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهؤلاء الَّذِينَ حُرِمُوا هدايَةَ الإرشادِ. والَّذِينَ حُرِمُوا هدايَةَ التَّوفِيقِ -وهم المغضوبُ عليـهِمْ- هم الَّذِينَ عَلِمُوا الحـقَّ، ولم يَعْمَلُوا بِهِ، وعلى رأسِـهِمُ اليهودُ، والضالُّون هم الَّذِينَ أرادُوا الحـقَّ، وعَلَى رأسِهِمُ النَّصارَى، ولكني أقولُ: النصارَى قَبْلَ أن يُبعَثَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هُمُ الضَّالُّونَ، أمَّا بعدَ بعثَةِ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتَكْذِيبِهم إياهُ فَهُم مِنَ القِسْمِ الأوَّلِ الذين هُمُ المغضـوبُ عليهِمْ، ولهذا نحنُ نقولُ الآن: النَّصارَى مَغضوبٌ عليهِم، واليهودُ مغْضُوبٌ عليهِمْ؛ لأن هؤلاءِ اليهودِ والنَّصارَى كلُّهُم كذَّبُوا الرُّسُلَ، يعني النَّصارَى كذَّبُوا الرُّسُلَ لتكْذِيبِهِمْ محمدًا، واليهودُ كذَّبُوا الرسلَ لتكْذِيبِهِمْ عيسى ومحمَّدًا.

إذن نُعْطِيكُم قاعِدَةً: المغضـوبُ عليهِمْ: كلُّ مَن عَلِمَ الحَـقَّ، ولـم يعْمَلْ بِهِ، والضالُّونَ: كلُّ مَنْ أرادَ الحقَّ، ولـم يُوَفَّقْ له، يَعْنِي ضَلَّ عَنْهُ.

إذن أقسامُ الناسِ ثلاثَةٌ:

الأوَّل: مَن عَلِمَ الحقَّ وعَمِلَ به، وهؤلاء الذين أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ.

الثاني: مَن عَلِمَ الحقَّ واستكْبَرَ عنه، وهؤلاءِ المَغْضُوبُ عليهِمْ.

الثالث: مَن لم يَعْلَمِ الحَقَّ، وضلَّ عنْه، وهؤلاء الضالُّونَ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.





سورة البقرة

الدرس الأوَّل:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فإنَّ مَن تَأَمَّلَ أَوَّلَ سُورةِ البَقَرةِ تَبيَّنَ له أنَّ اللهَ قَسَّمَ النَّاسَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مُؤْمِنٍ ظَاهِرًا وبَاطِنًا، وكَافِرٍ ظاهرًا وبَاطِنًا، ومُنافِقٍ؛ مُؤْمِن ظَاهِرًا كَافِرٍ بَاطِنًا، ففي قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٢-٥] هذهِ الآياتُ تَذْكُرُ المُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وبَاطِنًا.

وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧] هاتانِ الآيتانِ تشمل مَن كانَ كافرًا ظَاهِرًا وبَاطِنًا، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] إلى آخرِ هذه الآياتِ، هذا في المُنافِقِينَ الذين آمنوا ظَاهِرًا وكَفروا بَاطِنًا.

وفي الآياتِ الأُولَى التي هي في ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وبَاطِنًا ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا القُرْآنَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، ولكن في آياتٍ أُخْرَى ذَكَرَ أنه هُدًى للنَّاسِ، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فكيف نُوَفِّقُ بينَ الآيتينِ، أنْ يقولَ هنا: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، عمومًا؛ المُتَّقِينَ وغَيْرِهم؟

نُوَفِّق بينَهما أن معنَى كونِه هُدًى للناسِ أيْ: دَلِيلًا للنَّاسِ، يَدُلُّهم على الخيرِ ويُبَيِّنُه، وكذلك يَدُلهم على مواقعِ الشرِّ ويُبَيِّنُها، لكن يُرَغِّبُ في الخيرِ ويُحَذِّرُ من الشرِّ، وكلُّ الناسِ يحصل لهم ذلك بالقرآنِ، وأمَّا قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالمرادُ بالهِدايةِ هنا هِدايةُ التوفيقِ، يعني أن المتقين يُوفَّقون فيَهْتَدُونَ به وَيَنْتَفِعُون به.

واسْتَمِعْ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥] آيةٌ واحدةٌ صارت لقومٍ هُدًى وشِفاءً، وصارت لأقوامٍ عَمًى وضَلالًا والعياذُ باللهِ، فالمؤمنون زَادَتْهم إيمانًا وهم يَسْتَبْشِرونَ، والمنافقون الذين في قُلوبِهم مَرَضٌ زَادَتْهُم رِجْسًا إلى رِجْسِهم، وماتوا وهم كافرون.

فالمُتَّقُونَ هم الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بالقرآنِ، وكُلَّما ازْدَادَ الإنسانُ تُقًى ازْدَادَ انتفاعًا بالقرآنِ في حِفْظِه وفَهْمِه والعَمَلِ به.

وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، الغَيْبُ: أيْ: ما غابَ عن الأبصارِ مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ به، كاليومِ الآخِرِ والجَزَاءِ والجَنَّةِ والنارِ، وأما المُشاهَدُ فكلُّ إِنسانٍ يُؤْمِنُ به، فكُلُّ إنسانٍ

يُؤْمِنُ بالسماءِ وبالأرضِ وبالشمسِ والقمرِ والنجومِ والجبالِ والشجرِ، لكن الذي فيه المَدْحُ هو الإيمانُ بالغيبِ الذي يَعْتَمِدُ فيه المُؤْمِنُ على تصديقِ خَبَرِ اللهِ ورَسُولِه، أما الشيءُ المُشاهَدُ فلا أحَدَ يُنْكِرُه، ولا يُنْكِرُه إلا شَخْصٌ مُكابِرٌ، مثل السُّوفُسْطَائيةِ الذين يُنْكِرونَ الأشياءَ المَحْسوسَةَ، فهناك جَماعةٌ أَشْبَهُ ما يكونون بالمَجانِين يُنْكِرونَ حتى الشيءَ المَحْسوسَ، ويُنْكِرُ أحدهم حتى نَفْسه، يقول: واللهِ أنا ما أَدْرِي هل أنا فُلانٌ أو غيرُ ذلك.

ويُذْكَرُ أن رَجُلينِ منهم أرادا النَّوْمَ، فقال أحَدُهما للآخَرِ: أخشى أن نَغْلَطَ إذا استيقظنا مِن النومِ، فلا أَدْرِي هل أنا نَفْسِي أو أنت، فقال أَحَدُهما: ليَرْبِطَ كلُّ واحدٍ مِنَّا حبلًا، فارْبِط أنت مثلًا حَبْلًا أحمرَ، وأنا أَرْبِطُ حبلًا أَخْضَرَ من أجلِ إذا قُمْنَا لا نَغْلَطُ ولا نَحْسَبُ أنَّكَ أنا، وأنا أنتَ.

فهل يُمْكِنُ أن يقالَ لهؤلاء: إنهم عُقلاء؟ وهم يُنْكرونَ كلَّ شيءٍ مَحْسوسٍ، فتَقولُ له: هذه الشمسُ، فيَقولُ: لا، لَعَلَّها القَمَرُ، وتقول: هذه سيارة، يقولُ: ما أدري، ربما تكون هذه طَيارةً أو ربما تكُون مُسَجِّلًا، أو ربما تكون مِذْياعًا، ومع ذلك يقولون عن أنفسهم: إنهم عُقَلاء.

أقولُ: إن الأشياءَ المحسوسةَ لا يُنْكِرُها إلا شَخْصٌ مُكابِرٌ مثل السُّفُسْطائيةِ، أما الأشياءُ الغَيْبِيَّةُ، فهي التي يُمْدَحُ على الإيمانِ بها أو يُذَمُّ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يعني يَسْتَوِي عليهم الإنذارُ وعَدَمُه، فلن يُؤْمِنَ سواءٌ أنذرتَ أم لم تُنْذِر، وهذه الآيةُ مُشْكِلةٌ مع الواقعِ، فإنَّ مِن الكُفَّارِ مَن أَنْذَرَهُ النبيُّ ﷺ وآمَنَ، ومنهم مَن أَنْذَرَه فلم يُؤْمِن، ومِمَّن

أَنْذَره الرَّسولُ فآمَنَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، كانَ كافرًا مُنكِرًا للدعوةِ الإسلاميةِ، فمَنَّ اللهُ عليه بالهِدايةِ فأَسْلَمَ، ومنهم مَن أَنْذَره فلم يُؤْمِن، مثل عَمِّه أبي لَهَبٍ عَمِّ النبيِّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ فقد أَنْذَره النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ولكنه لم يُؤْمِنْ. إذن كيف نُوفِّق بينَ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وبين مَن أنذره النبيُّ ﷺ فآمن؟

نُوَفِّق بينهما فنقولُ: المرادُ بالآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ المرادُ بهم الذين حَقَّت عليهم كَلِمةُ العَذَابِ، يعني: وَجَبَت عليهم كلمةُ العذابِ، وأنهم لا يُؤْمِنـونَ، ودَليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

ويَجِبُ عليك -أيها المُؤْمِنُ- أن تَعْلَمَ عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وما صَدَرَ عن رسولِه لا يُمْكِنُ أبدًا أن يَتناقَضَ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، فإذا مَرَّ بك شيءٌ ظَاهِرُه التعارُضُ والتناقُضُ، فأَعِدِ النَّظَرَ مَرَّةً بعدَ أُخْرَى حتى يَتبيَّنَ لك الجمعُ، فإن لم يَتبين فالواجبُ أن تَقِفَ وأن تقولَ كما يقولُ الراسخونُ في العِلْمِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

واللهُ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ في القرآنِ أشياءَ مُتشابهةً من أجلِ الابتلاءِ والامتحانِ؛ لأنَّ المؤمنين يقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ولا يُمْكِـنُ أن يَتناقَضَ، وأما الذين في قُلوبِهم زيغٌ فيَتَّبعون هذا المُتشابِهَ، ويأخذون منه قَدْحًا في القرآنِ الكريمِ، كما قالَ تعالـى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ

﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ (مِن) هنا للتَّبعِيضِ، أيْ بَعْضُ الناسِ وهم المنافقون ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أيْ: بألسنتِهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بقُلوبِهم، فهم يقولون بألسنتهم: إنهم مؤمنون، ولكنهم غيرُ مؤمنين بقلوبهم، وهؤلاء هم المنافقون الخُلَّص، وهناك أُناسٌ قالوا: آمنا، فقال اللهُ لرسولِه: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، هؤلاء أحسنُ حالًا من المُنافِقِينَ؛ لأن اللهَ قال فيهم: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، و(لَمَّا) تُفِيدُ الانتفاءَ مع قُرْبِ الوُقوعِ، يعني أنه لم يَدْخُل، ولكنه قَرِيبًا يَدْخُلُ، فهؤلاء يقولونَ: آمنا باللهِ وباليومِ الآخِرِ بألسِنَتِهم، ولكنهم ليسوا بمُؤْمِنِينَ في ذلكَ بقُلوبِهم.

والعَجَبُ أن هؤلاء المُنافِقِينَ يَقولون هذا القَوْلَ ويَحْلِفُونَ عليهِ ويَشْهَدون بهِ، ولكنهم يَحْلِفون على الكَذِب وهم يَعْلَمُون، فاسْتَمِع إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]، شهادةً مُؤَكَّدَة بـ(إنَّ)؛ واللهِ نَشْهَدُ إنك لَرسولُ اللهِ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]، لكاذبون في قولِهم: إنهم يَشْهَدُونَ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ.

وهنا نَسْأَلُ: ما فَائِدَةُ إدخالِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ قبلَ إبطالِ قَوْلِهم في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؟ أو بطريقة أخرى: ما الفائدة من إدخال قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ بينَ قَوْلِهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وتكذيبِ اللهِ لهم في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؟

الجواب: لو كانَ سياقُ الآيةِ: قالوا: نَشْهَدُ إنك لرسولُه واللهُ يَشْهَدُ إن المنافقين

لكاذبون، لتَوَهَّم الواهم أنَّ الله يَشْهَدُ بشَهادةِ المُنافِقِينَ بأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، يعني يَشْهَدُ بأنهم كَاذِبون بأنَّ محمدًا رسولُ الله، وهذا لا يُمْكِنُ أن يَقَعَ، ولهذا بَدَأَ اللهُ بإثباتِ رسالتِه قبلَ أن يَأْتِيَ بإبطالِ قَوْلِهم؛ لئلا يَحْصُلَ هذا المَحْذُورَ. والسببُ في أَنَّهم يَحْلِفُون ويشهدون بأنه رسولُ اللهِ أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:٢]، الأَيْمانُ سِلاحٌ أمامَ الناسِ، وبهذا إذا رأيتَ اللِّسانَ يُكْثِرُ الأيمانَ في إثباتِ ما يَقولُ، فَاتَّهِمْه ليسَ بالنفاقِ، ولكن اتهمه بالكَذِب.

فإذا كان كُلَّما تكلَّم قامَ وحَلَفَ فمعناهُ أنه غيرُ وَاثِقٍ من نَفْسِه، ولا يَرَى أن الناسَ يَثِقُونَ به إلا بالأَيْمانِ، فاتهمه، فلا يَنْبَغِي للإنسانِ أن يَحْلِفَ إلا على أَمْرٍ هامٍّ جدًّا، أو إذا طُلِبَ منه أن يَحْلِفَ، أما أنْ يَحْلِفَ في كلِّ أمرٍ فهذا خَطَأٌ.

صِفاتُ المُنافِقِينَ:

هؤلاء المُنافِقونَ ذَكَرَ اللهُ فيهم أوصافًا متعددةً هي:

أولًا: ادَّعَوا الإيمانَ وهم كَاذِبونَ.

ثانيًا: يُخادِعونَ اللهَ والذين آمنوا، والخِدَاعُ والمَكْرُ والكَيْدُ معناها مُتقارِبٌ، أي يأتون بالأشياء خُدْعةً ليَنْخَدِعَ بهم مَن يَنْخَدِعُ، ولكنـهم إذا خادعوا اللهَ والرسولَ والمؤمنين فإنما يَخْدَعون أنفُسَهم، أما اللهُ والمؤمنون فلن يَنْخَدِعوا، ولن يَنْطَلِيَ عليهم باطلُ هؤلاء وكُفْرُهم.

ثالثًا: مَرَضُ القُلوبِ، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠]، ومرضُ القَلْبِ ليسَ هو الأَلَمَ الذي يُحِسُّ به الإنسانُ أحيانًا في قلبِه، فهذا مَرَضٌ جَسَدِيٌّ يكونُ في المُؤْمِنِينَ ويكونُ في غيرِ المؤمنين، لكنْ مرضُ القَلْبِ هو المَرَضُ الدِّينِيُّ، ويكونُ في شيئين: في شُبُهاتٍ

وإراداتٍ، وإن شئتَ فقُل: شَهَوات.

أما الشُّبهات فهي الشكوكُ التي مَنْشَؤُها الجَهْلُ، فيكونُ عند الإنسانِ شُكوكٌ في أمرٍ يَجِبُ يَقِينُه فيه، فيَتَرَدَّد هل هناك بَعْثٌ أو لا؟ هل هناك جَنَّةٌ أو نَارٌ أو لا؟ هل هناك رَبٌّ أو لا؟ هل هناك كذا؟ هل هناك كذا من أُمورِ الغيبِ؟ نقول: هذا مَرَضُ شُبهات.

أما مرض الإرادات فأن يكونَ الإنسان عالمًا بالحقِّ لكنه لا يُرِيدُه، يعلم مثلًا أن الخَمْرَ حرامٌ ولكنه يَشْرَبُها، ويَعْلَم أن السَّرِقة حرامٌ ولكنه يَسْرِق، ويعلم أن الزنا حرام ولكنه يَزْنِي، ويعلم أن قَتْلَ النفسِ حَرَامٌ ولكنَّه يَقْتُلُ، فهذا مَرَضُ إرادةٍ، أي أنه لا يُرِيدُ الخيرَ، وإنما يُرِيدُ الشرَّ، ويُسَمِّيهِ بعضُ العلماءِ شَهْوةً، والشهوةُ هنا بمعنى الإرادةِ.

هؤلاء المنافقون في قُلوبِهم مرضٌ، أي: مرضٌ عظيمٌ، وهو مَرَضُ الشكِّ -والعياذُ باللهِ- ومَرَضُ سُوءِ القَصْدِ، فإنهم لا يُرِيدونَ الخَيْرَ للمُسْلِمِينَ أَبَدًا، وإنما يُرِيدونَ الشَّرَّ بقَدْرِ ما يَستطيعُونَ، فمن صِفاتِهم الإفسادُ في الأرضِ، يُفْسِدونَ في الأرضِ بالمَعاصِي والخِداعِ والكَيْدِ للمُؤْمِنِينَ ومُوالاةِ الكافرين، لكن إذا قِيلَ لهم: لا تُفْسِدوا في الأرض فإنهم يقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فيُواطِئون أعداءَ اللهِ ويُمالِئُونَهم على أولياءِ اللهِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠].

﴿كُتِبَ﴾ بمَعْنى: فرَض، والدَّليلُ على أنَّ ﴿كُتِبَ﴾ بمَعنى فرَض قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعْنِي: إذا نَزَلَ الموتُ بالإنسانِ.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ الخَيْرُ: هُوَ المالُ الكثيرُ.

﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ بالرَّفْعِ نائبُ فاعِلٍ.

﴿كُتِبَ﴾ فهِي المكتُوبَةُ، يعني: فُرِضَتْ عليكُم الوصِيَّةُ، لِمَنْ؟ ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾: الأمِّ والأبِ.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مِثْلُ الأخِ والعَمِّ، وابنِ الأخِ، وما أشبَه ذلِكَ.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما جَرَى به العُرفُ.

﴿حَقًّا﴾ أي: مؤكَّدًا، ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: على الذِينَ يتَّقُونَ اللهَ.

هذه الآيةُ أُكِّدَ فيهَا الوجوبُ من عِدَّةِ أوْجُهٍ:

أولًا: مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾.

ثانيًا: من قَولِهِ: ﴿حَقًّا﴾.

ثالثًا: مِن قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فيتبَيَّنُ بذلِكَ أن هذِهِ الوصِيَّةَ من علامَاتِ التَّقْوى، وأن عَدَمَ القِيامِ بها مُنافٍ للتَّقْوى.

فقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعْنِي أن الإنسانَ يجِبُ عليهِ عندَ موتِهِ أن يُوصِيَ لوالِدَيْهِ، وأن يُوصِيَ للأقْربينَ مِنْ قَرابَتِهِ فَرْضًا واجِبًا ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فإن قِيلَ: هَلْ هذِهِ الوصِيَّةُ بَقِيَتْ أو لَا؟

فالجواب: هَذِه الوصِيَّةُ بَقِيَتْ في بعضٍ دون بعْضٍ، فمَن كانَ وارِثًا مِنْ هؤلاءِ فإنَّ الوصِيَّةَ في حَقِّه لم تَبْقَ؛ لأن اللهَ حدَّدَ للوارِثِ ما يستَحِقُّهُ مِنْ تَرِكَةِ الميِّتِ؛ ولهذا جاء الحديثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»[1].

فمثَلًا: لو أنَّ الإنسانَ في آخِرِ حياتِهِ أوصْى لأبيهِ بشَيءٍ مِنْ مالِهِ، مثلُ أن يقولَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧، رقم ٢٢٣٤٨)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في تضمين العور، رقم (٣٥٦٥)، والترمذي: كتاب الفرائض، باب ما جاء لَا وصية لوارث، رقم (٢١٢٠)، والنسائي: كتاب الوصايا، باب: إبطال الوصية للوارث، رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه: كتاب الوصايا، باب لَا وصية لوارث، رقم (٢٧١٣).

سيَّارَتِي هذه لأَبِي وَصِـيَّة، ثمَّ ماتَ، فهَلْ تُنفَّذُ هذِهِ الوصِيَّةُ؟ لا تُنفَّذُ؛ لأنَّ النَّبِـيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قال: «**لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**».

ولو كان عِنْدَ الإنسانِ جَدٌّ وله أبٌ، فأَوْصَى عندَ موتِهِ بهذِه السَّيَّارَةِ لجَدِّهِ وهو رَجُلٌ غَنِيٌّ، والسيارَةُ لا تُساوي شيئًا بالنسبَةِ لبَقِيَّةِ مالِهِ، فهَلْ هذا يجوزُ أو لا؟

الجواب: ظاهِرُ الآيَةِ أَنَّه يجِبُ؛ لأن هذا الجَدَّ مِنَ الأَقْرَبينَ وليسَ بوارِثٍ، ولهذا ذهَبَ بعضُ العُلماءِ إلى أنه إذا ماتَ الإنسانُ عن ابنَيْنِ، وله ابنٌ ثالِثٌ ماتَ قَبْلَه، ولابنِهِ الثالِثُ أبناءٌ؛ أنه يجِبُ أن يُوصِي لأبناءِ ابنِهِ؛ لأنهم مِنَ الأَقْرَبِينَ.

والعلماءُ مختلِفُونَ في هذِه الآيَةِ، فمنهُمْ من قالَ: إنَّها منْسُوخَةٌ نهائِيًّا، ومنهم مَنْ قالَ: إنَّها مخْصُوصَةٌ. فالذينَ قالُوا: إنها منْسُوخَةٌ، قالوا: لا تجِبُ الوصيَّةُ للأقْرَبينَ مطْلَقًا، سواءٌ كانُوا وارِثِينَ أو غيرَ وارِثِينَ، والذين قالُوا: إنها مخَصَّصَةٌ، قالُوا: تجِبُ الوصِيَّةُ للأَقْرَبِينَ، ولا تجوزُ للوارِثِينَ، وإلى هذا ذهَبَ عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقولُهُ قوِيٌّ؛ لأنَّ اللهَ أكَّدَ هذا الفَرْقَ بقولِهِ: ﴿كُتِبَ﴾ و﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ورَأْي جُمهور العُلماءِ أَنَّها منْسُوخَةٌ، ولكِنَّ بعضَ العُلماءِ قالَ: إنَّها مُخصَّصَةٌ، وإنها يَخْرُجُ مِنْها الوالِدُ الوارِثُ، والأَقْرَبُ الوارِثُ، وأما مَنْ لم يَرِثْ فإنَّه تجِبُ الوصِيَّةُ لَهُ، ولكن ليسَ بحَدٍّ مُعَيَّنٍ، بل بِمَا أرادَ المُوصِي والله أعلم.

أَقْسَامُ الوصِيَّةِ:

قالَ العُلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: تنْقَسِمُ الوصِيَّةُ إلى خمْسَةِ أقسامٍ:

الأوَّلُ: وَصِيَّةٌ واجِبَةٌ.

الثاني: وصِيَّةٌ محَرَّمَةٌ.

الثالث: وَصِيَّةٌ مستَحَبَّةٌ.

الرابع: وصِيَّةٌ مكْرُوهَةٌ.

الخامس: وصِيَّةٌ مباحَةٌ وجائِزَةٌ.

إذن تجْرِي فيهَا الأحكامُ الخَمْسَةُ؛ لأنَّ الأحكامَ التَّكْلِيفِيَّةَ خمسَةٌ: الواجِبُ، والمحرَّمُ، والمنْدُوبُ أو المستَحَبُّ، والمكْرُوهُ، والمبَاحُ.

فإن قيل: مَتَى تكونُ الوصِيَّةُ واجِبَةً؟

قلنا: قالَ العلماءُ: تكونُ واجِبَةً فيمَا إذا كانَ على الإنسانِ حَقٌّ لا يَثْبُتُ إلا بِهَا.

مثَالُهَا: أن يوصِيَ فيقُول: إن فِي ذِمَّتِي لفُلانٍ كذَا وكذا؛ لأنه لو ماتَ ثم جاءَ المُقْرِضُ، وادَّعى على الورَثَةِ أن فِي ذِمَّةِ الميِّتِ ألفَ رِيالٍ، ولم يَأْتِ بِبَيِّنَةٍ؛ ضاعَ حَقُّهُ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**»[1]، فهذِه هِي الوَصِيَّةُ الواجِبَةُ.

أما الوَصِيَّةُ المحَرَّمَةُ فهِي أن يُوصِيَ بشيءٍ محَرَّمٍ، أو أن يُوصِيَ لوارِثٍ، أو أن يُوصِيَ بزائدٍ عَنِ الثُّلُثِ.

مثالُ الأَوَّلِ: أن يُوصِيَ بمالٍ للكَنائسِ -مثلًا- وهو مُسْلِمٌ، فهَذِهِ الوصِيَّةُ حرَامٌ، أو يُوصِيَ بمالٍ للمُغَنِّينَ، فهذَا حَرامٌ؛ لأنَّ الله قالَ: ﴿**وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ**﴾ [المائدة:٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي ﷺ: «**وصية الرجل مكتوبة عنده**» رقم (٢٥٨٧)، ومسلم: في أول كتاب الوصية، رقم (١٦٢٧).

ومثالُ الثَّانِي -أن يوصِيَ لوارِثٍ-: مثل أن يقولَ: أَوْصَيْتُ لابْنِي بكَذَا وكذَا، وله أبناء آخرون، فإن ذلِكَ حَرَامٌ، أو يقول: أَوْصَيْتُ لابْنَتِي بكَذَا وكذَا، وله وارِثٌ غيرها، فإن ذلِكَ حرَامٌ؛ لأن هذا مِنْ تَعَدِّي حدودِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ فرَضَ لكُلِّ وارِثٍ ما اقتَضَتْ حِكْمتُهُ أن يكونَ لَهُ، وقالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٣-١٤].

والفرائضُ والمواريثُ قد حدَّدَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لكِنْ لو أنَّ سائِلًا سألَ: ما تَقُولونَ في رَجُلٍ له ثَلاثَةُ أبناءٍ؛ الابنُ الأوَّلُ بلَغَ عشرينَ سنَةً، وطلَبَ النِّكاحَ، فزَوَّجَهُ أبوه بخَمْسينَ ألفًا، والابنُ الثَّانِي بلَغَ ثَمانِيَ عشْرَةَ سنَةً، وطلَبَ النِّكاحَ، فقَالَ أبُوهُ: أنا لم أُزَوِّجْ أخاكَ إلَّا حينَ بلَغَ العِشرينَ، فقالَ: يا أبِي، ولكِنِّي الآن أطلُبُ النِّكاحَ، زوِّجْنِي، فإذا كانَ أخِي تأخَّرَ في تَزَوُّجِهِ إلى عِشرينَ سَنَةً، فأنا لا أُريدُ أن أتأخَّرَ، زَوِّجْنِي، فهَلْ يجِبُ على أبيهِ أن يُزَوِّجَهُ؟

نقول: نعم، يجِبُ أن يُزَوِّجَ، ولا يُعَدُّ ذلكَ محابَاةً لهذا الابنِ. فَلا يقُولُ قائلٌ: إنَّه لم يُزَوِّجِ الأوَّلَ إلا حِينَ بلَغَ عِشرينَ سنَةً، لكِنْ نقولُ: الأوَّلُ هو الذِي اختارَ لنَفْسِهِ التأخُّرَ، أمَّا هذا فيطْلُبُ النِّكاحَ في هذه السنِّ فيَجِبُ على أبيهِ أن يُزَوِّجَهُ.

فإن قِيلَ: إذا كانَ لهذا الرَّجُلِ ابنٌ ثالِثٌ، بلغ ستَّ سِنينَ، فهل يجوزُ أن يُوصِيَ لَهُ في تركَتِهِ، فيقول: أوْصَيْتُ لابْنِي فُلان -يعني الصغير- بخمسينَ ألْفًا يتزَوَّجُ بِهَا؛ لأنِّي قَدْ زَوَّجْتُ أخوَيهِ قبْلَهُ بخَمسينَ ألفًا، أو لا؟

فالجواب: لا يجوزُ، فهذَهَ من الوَصِيَّةِ للوارثِ، نقولُ: لا يحِلُّ لَهُ أن يُوصِيَ لهذَا الابنِ الصغيرِ بما زوَّجَ به أَخَوَيهِ مِنَ المهرِ؛ لأن المهْرَ مِنَ النفقَةِ، وهذا الصغيرُ لم يبْلُغْ أن يكون مستَحِقًّا لهذه النفَقَةِ، وعلى هذا: فلا يحِلُّ أن يوصِيَ لهذَا الصغيرِ بِمَا يقابِلُ ما زَوَّجَ به أخَوَيهِ الكَبِيرَيْنِ، ولو أوْصَى بذلكَ كانَ آثِمًا، ولأخويهِ أن يُرَدَّا الوصِيَّةَ، ويبْطِلاهَا؛ لأنها وصِيَّةٌ لوارِثٍ.

فإن قالَ قائلٌ: كيفَ تقولونَ: إن الوصِيَّةَ للوارِثِ حرَامٌ، وأنتم تقولونَ: إن الوارِثَ بالخيارِ؛ إن شاءَ أمْضَاهَا، وأعطَاهَا مَن وُصِّي له بِهَا، وإنْ شاءَ رَدَّهَا، فكيفَ تقولونَ: إنَّها حرَامٌ؟

قلنا: إنها حَرامٌ لأن الورَثَةَ قَدْ يستَحْيُونَ ويخجَلُونَ أن يَرُدُّوا وصِيَّةَ مورِّثِهم؛ لأنَّهم ورِثُوا المالَ منْه، فتَجِدُ الواحِدَ يخجَلُ ويقولُ: لماذَا أرُدُّ وصِيَّتَهُ لهذَا الوارِثِ، وأنا إنما وَرِثْتُ المالَ منْه؟ فلهذا جاءَ التَّحْرِيمُ، فلا يجوزُ للإنسانِ أن يُوصِيَ لأحدٍ مِنَ الورَثَةِ.

وأما الثالث: فهو أن يُوصِيَ بزائدٍ عَنِ الثُّلُثِ، فهذا أيضًا حرَامٌ، فَيَحْرُم أن يوصِيَ بزائدٍ عن الثُّلُثِ، فلو قالَ: أوصَيتُ بنِصْفِ مَالي للمجاهِدِينَ في سبيلِ اللهِ، فالوصِيَّة حرَامٌ، ولا تجوزُ، ودليلُ ذلك أن سَعْدَ بنَ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استأذنَ النَّبِيَّ ﷺ أن يوصِيَ بثُلُثَيْ مالِهِ، قالَ: «**لَا**»، قالَ: فالشَّطْرُ -يعني: النِّصْفَ- قال: «**لَا**»، قالَ: فالثُّلُثُ؟ قال: «**فَالثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٥٩٢)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٩).

إذن الوَصِيَّةُ فيما زادَ عنِ الثُّلثِ حرَامٌ، فإن أوْصَى بما زادَ على الثُّلُثِ فهو آثِمٌ وعاصٍ، وقد وَرَدَ الوعيدُ الشَّدِيدُ فيمَنْ جارَ في وَصِيَّتِهِ عندَ موتِهِ.

فإن قال قائل: أليسَ ما زادَ على الثُّلُثِ راجِعًا إلى الورَثَةِ إن شَاءوا أمْضَوْه، وإن شَاءوا رَدُّوهُ؟! **قلنا:** بَلَى.

فإذا قال: إذن كيفَ يكونُ حرَامًا والأمرُ راجِعٌ للورثَةِ؟

فالجوابُ كما أجَبْنَا فيما سَبقَ: أن الورَثَةَ قَدْ يخجَلُونَ ويُنَفِّذُونَ الوصِيَّةَ مع زيادَتِهَا عَلَى الثُّلُثِ.

وأما الوصِيَّةُ المستَحَبَّةُ: فهي وَصِيَّةُ مَن لَهُ مالٌ كثيرٌ يستَغْنِي بِهِ الورثَةُ، ويكونُ مِقْدارُ الوصيَّةِ الخُمُسَ، والمالُ كثيرٌ، يسْتَغْنِي بِهِ الوارِثُ، أو المالُ قَلِيلٌ؛ لكن الوارِث غَنِيٌّ، فهُنَا الوصِيَّةُ مستَحَبَّةٌ.

لكن يجِبُ أن نَتَنبَّهَ لقولِنَا: «إنها مستَحَبَّةٌ بالخُمسِ»، وهذا خِلافُ ما عليه اليومَ أكثرُ الناسِ، حيث يُوصُونَ بالثُّلُثِ، ومعلومٌ أن الثُّلُثَ رُخْصَةٌ جاءتْ بعد مماكَسَةِ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ لرَسولِ اللهِ ﷺ؛ ولهذا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَوْ غَضَّ النَّاسُ إِلَى الرُّبْعِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قَالَ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ**»[1]. وأَوْصَى أبو بكرٍ الصِّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونِعْم الأُسوَة هُوَ بخُمُسِ مالِهِ، وقال: «**أُوصِي بِمَا رَضِيَ اللهُ لِنَفْسِهِ**»[2]، فأَوْصَى بالخُمُسِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، رقم (٢٧٤٣)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩/ ٦٦، رقم ١٦٣٦٣).

إذن فالسَّهْمُ الذي ينبَغِي للإنسانِ أن يُوصِيَ به هو الخُمُسُ، وهذه هِيَ الوصِيَّةُ المستحبَّةُ.

وأما الوَصِيَّةُ المكروهَةُ: فقَدْ قالَ العُلماءُ: تُكْرَهُ وصيةُ فَقِيرٍ وارِثُه محتَاجٌ. كإنسانٍ فَقِيرٍ ليسَ عندَهُ مالٌ كَثِيرٌ، ولنَفْرِضْ أن عندَهُ ثَلاثَ مِئةِ رِيالٍ، وَوَارِثُهُ فَقِيرٌ، ومحتاجٌ، فهنا نقولُ: لا تُوصِ بشَيْءٍ، فإذا أوْصَيْتَ بمئةٍ فسَيَتَبَقَّى للوارِثِ مِئتانِ، والوارِثُ محتاجٌ فَقِيرٌ، فدَعِ الوَصِيَّةَ، «**وَأَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»، فحِينَئذٍ تُكْرَهُ الوصِيَّةُ. فالوَصِيَّةُ المكروهَةُ هي وصِيَّةُ الفَقيرِ الَّذِي له وارِثٌ محتَاجٌ.

وأَمَّا الوصِيَّةُ المباحَةُ: فإنها وَصِيَّةَ مَن ليسَ له وارِثٌ، ولو أَوْصَى بكُلِّ المالِ، كرَجُلٍ ليس له عَقِبٌ، وليس له آبَاءٌ ولا أمَّهات، وليس لَهُ إخْوَةٌ، أي: ليسَ له وارِثٌ علَى الإطلاقِ، فالوَصِيَّةُ هنا مباحَةٌ، ولو كانَتْ بجَميعِ المالِ.



الدرس الثالث:

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّينَ وإمامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أمَّا بَعْدُ:**

فقدِ اسْتَمَعْنَا إِلَى قِراءةِ إمَامِنَا فِي هَذَا الصَّباحِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦] وقدْ ذَكَرَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ بعدَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقرة:١٩٥].

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البَقرة:١٩٦] وفي هَذَا إشارَةٌ إِلَى أنَّ الحَجَّ والعُمْرَةَ نَوْعٌ مِنَ الجِهادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأنَّ الإنْفاقَ فِيهِمَا إنْفاقٌ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ ولهَذَا قالتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ- : **«هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهادٌ؟ قَالَ: عَلَيْهِنَّ جِهادٌ لا قِتَالَ فِيهِ، الحَجُّ وَالعُمْرَةُ»**[1].

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البَقرة:١٩٦] فِي قَوْلِهِ: (أَتِمُّوا) وفِي قَوْلِهِ (لله) إشارةٌ إِلَى الرُّكْنَيْنِ الأساسِيَّيْنِ فِي العِبادَةِ ألا وهُمَا: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابعَةُ لرَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ- فلا بُدَّ لكُلِّ عِبادةٍ مِنْ إخْلاصٍ للهِ ومُتابعةٍ لرَسُولِ اللهِ، فمَنْ أشْرَكَ معَ اللهِ غَيْرَهُ فإنَّ عِبادَتَهُ غَيْرُ مقْبُولَةٍ؛ لعَدَمِ الإخْلاصِ، دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ الَّذِي رَواهُ أبو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّ اللهَ قَالَ: **«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٦٥)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج جهاد النساء، رقم (٢٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأمَّا المُتابعَةُ لرَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ- لِما رَواهُ البُخارِيُّ وغيْرُهُ عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ**»[1] أيْ: مَرْدُودٌ عليْهِ.

فقَوْله: (أَتِمُّوا) يَسْتَلْزِمُ أنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نُتِمُّ هَذِهِ العِبادةَ، ولا طَرِيقَ لنا إلَّا بالعِلْمِ، ولا طَرِيقَ إلَى إتْمامِها إلَّا باتِّباعِ الرَّسُولِ ﷺ فِيها؛ ولهَذَا كانَ النَّبِيُّ ﷺ يقولُ فِي حَجَّةِ الوَداعِ: «**خُذُوا عَنِّي مَناسِكَكُمْ**» أو: «**لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَناسِكَكُمْ؛ فَلَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ هَذا العَامِ**»[2] صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِ.

وفي قَوْلِهِ: (للهِ) الإخْلاصُ لَا لِغَيْرِه، لَا تُرِيدُونَ بذَلِكَ أنْ تُمْدَحُوا، ولا تُرِيدُونَ بذَلِكَ أنْ يُقالَ: يا حاجُّ؛ لأنَّهُ فِي بَعْضِ البلادِ إذَا حجَّ الإنْسانُ صارَ يُنادى بِقَوْلِهِمْ: يا حاجُّ! وكأنَّ العِبادَةَ كُلَّها هِيَ الحَجُّ، وهَذا غَلَطٌ، فالصَّلاةُ أهَمُّ مِنَ الحَجِّ، والزَّكاةُ أهَمُّ مِنَ الحَجِّ، ومعَ ذَلِكَ نرَى كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَحُجُّونَ، أوْ بعبارةٍ أصَحَّ يَحْرِصُونَ عَلَى الحَجِّ ولا يَحْرِصُونَ عَلَى الصَّلاةِ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مَرْيَم:٥٩] هَؤُلاءِ الَّذِينَ لَا يَقُومونَ إِلَى الصَّلاةِ إذَا قامُوا إلَّا كُسالَى، فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ المُنافِقِينَ، ومعَ ذَلِكَ إذَا أخَلُّوا بهَذا فِي نُسُكِهِمْ، فِي حَجِّهِمْ أوْ عُمْرَتِهِمْ فإنَّهُمْ لَمْ يُتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ للهِ؛ لأنَّ اللهَ قَالَ لعِبادِهِ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ [البَقَرة:١٩٧].

---

(١) علقه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش، (٣/ ٦٩)، وأخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة، رقم (١٢٩٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأيُّ فُسُوقٍ أعْظَمُ مِنْ تَرْكِ الصَّلاةِ، إنَّ تَرْكَ الصَّلاةِ كُفْرٌ مُخْرِجٌ عَنِ المِلَّةِ، إنَّ الإنْسَانَ إذَا تَرَكَ الصَّلاةَ كانَ كافِرًا باللهِ، يُحْشَرُ معَ فِرْعَوْنَ وهَامانَ وقَارُونَ وأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، ويُخَلَّدُ فِي نارِ جَهَنَّمَ، والعِياذُ باللهِ.

كيْفَ تَحْرِصُ عَلَى الحَجِّ وتُضَيِّعُ الصَّلاةَ؟! وإنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْفِقُ الأمْوَالَ فِي الحَجِّ ويَسْهُلُ عَلَيْهِ أنْ يُنْفِقَهَا، لكنَّهُ يَصْعُبُ عَلَيْهِ أنْ يُؤَدِّيَ دِرْهَمًا واحدًا فِي الزَّكاةِ، فتَجِدُهُ فِي عِراكٍ معَ نَفْسِهِ أنْ يُخْرِجَ زَكاةَ مالِهِ الَّذِي أوْجَبَهُ اللهُ عليْهِ، وقَرَنَ الزَّكاةَ معَ الصَّلاةِ فِي عدَّةِ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ، وتَوعَّدَ عَلَى مَنْ بَخِلَ بِهَا، ومعَ ذَلِكَ لَا تَجِدُهُ يَحْرِصُ عليْهَا كما يَحْرِصُ عَلَى الحجِّ، وهَذَا واللهِ مِنِ انْقلابِ الأُمورِ، مِنَ العَكْسِ فِي التَّصوُّرِ والعَكْسِ فِي التَّطْبِيقِ.

إنَّ الإنْسَانَ العاقِلَ لَيُقَدِّمُ الأهَمَّ فالأهَمَّ، وإذَا كانَ الإنْسَانُ فِي دُنْيَاهُ فيما يَبِيعُ فِيهِ ويَشْتَرِي، يُقَدِّمُ مَا هُوَ أرْبَحُ وأكْسَبُ، فلماذا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي دِينِهِ؟! لِماذَا يُضَيِّعُ الصَّلاةَ؟! لِماذَا يَمْنَعُ الزَّكاةَ؟! لِماذَا يُخِلُّ بالصَّوْمِ، لكنَّهُ يَحْرِصُ عَلَى أنْ يَحُجَّ؟! ومعَ ذَلِكَ فإنَّ حَجَّهُ فِيهِ خَلَلٌ كَثِيرٌ.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦] حتَّى فِي النَّفْلِ يَجِبُ عليْكَ أنْ تُتِمَّ الحَجَّ والعُمْرَةَ للهِ، وهَذَا ممَّا يَخْتَصُّ بِهِ الحَجُّ والعُمْرَةُ أنَّهُ يَجِبُ إتْمَامُ نَفْلِهِما، وأمَّا مَا عداهُما مِنَ العِبادَاتِ فإنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الإنْسَانِ إتْمامُ نَفْلِهِ؛ ولهَذَا لوْ شَرَعَ الإنْسَانُ فِي الصَّوْمِ تَطَوُّعًا، ثُمَّ بَدَا لهُ أنْ يُفْطِرَ فلهُ ذَلِكَ، دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ عَلَى أهْلِهِ فقالَ: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**» قالُوا: نَعَمْ، عِنْدَنَا حَيْسٌ -والحَيْسُ هُوَ التَّمْرُ المَخْلُوطُ بالأقِطِ والسَّمْنِ- قالَ: «**أَرِينِيهِ** -يقولُ لزَوْجِهِ- **فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِمًا**»،

فَأَتَتْ بِهِ فَأَكَلَ مِنْهُ»[1] لكنِ الحَجُّ والعُمْرَةُ لَا يجوزُ للإنْسَانِ أنْ يَقْطَعَهُما.

ومعَ الأسفِ أَنَّهُ تَرِدُ عَلَيْنَا أسْئِلَةٌ كَثِيرَةٌ فِي رَجُلٍ جَاءَ مُحْرِمًا بعُمْرَةٍ، فلمَّا رأى الزِّحامَ تحلَّلَ وانْصَرَفَ، وهَذَا حَرامٌ، فإذا رَأَيْتَ الزِّحامَ ابْقَ حتَّى يَقِفَ، ولوْ بَقِيتَ يَوْمَيْنِ أوْ ثَلاثةً أوْ أرْبَعَةً أوْ شَهْرًا أوْ شَهْرَيْنِ، لَا يُمْكِنُ أبدًا لِمَنْ شَرَعَ فِي حَجٍّ أوْ عُمْرَةٍ أنْ يَتَحَلَّلَ منْهُما إلَّا بما ذَكَرَ اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقَرة:١٩٦].

ومعْنَى ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ أيْ: مُنِعْتُمْ مِنْ إتْمامِ الحَجِّ والعُمْرَةِ فأنْتُمْ فِي عُذْرٍ، لكنْ عليكُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ، وهذِهِ الآيَةُ نزلَتْ فِي السَّنَةِ السادِسَةِ مِنَ الهِجْرَةِ فِي عامِ الحُدَيْبِيَةِ، حينَما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ إلى مَكَّةَ يُرِيدُ العُمْرَةَ، ولكنَّ قُرَيْشًا -الَّتِي أخذَتْها حَمِيَّةُ الجاهِلِيَّةِ- أبَوْا أنْ يَدْخُلَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى مَكَّةَ ليَعْتَمِرَ، وما كانَتْ قُرَيْشٌ أوْلياءَهُ إنْ أوْلِياؤُهُ إلَّا المُتَّقُونَ، الَّذِينَ عَلَى رَأْسِهِمْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وأصْحابُهُ، لكنْ لِحَمِيَّتِهِمُ الجاهِلِيَّةِ قالُوا: لَا يُمْكِنُ أنْ تَدْخُلَ، معَ أَنَّهُ لوْ جَاءَ أعْرابِيٌّ مِنْ أقْصَى الجَزِيرَةِ لأَذِنُوا لهُ أنْ يَدْخُلَ، لكنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ أبَوْا أنْ يَدْخُلَ، وجرَى بَيْنَهُمْ وبينَ الرَّسُولِ ﷺ مُفاوضاتٌ مَشْهُورَةٌ، ومُراسلاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا -أيْ مِنَ المفاوضاتِ الَّتِي جَرَتْ- أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ بَيْنَهُمْ وبينَ قُرَيْشٍ صُلْحًا عَلَى أنْ يَرْجِعَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ ولا يُتِمَّ عُمْرَتَهُ، وعلى أنْ يَأْتِيَ مِنَ العامِ القادِمِ ويُتِمَّ عُمْرَتَهُ، ويَدْخُلَ مكَّةَ، ويَبْقَى ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فقطْ، وعلى أنَّ الحَرْبَ بَيْنَهُمْ مَوْضُوعَةٌ لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنواتٍ، وعَلَى أنَّ مَنْ أتَى مِنَ الكُفَّارِ إلَى المُسْلِمِينَ مُسْلِمًا فإنَّهُمْ يَرُدُّونَهُ إلَى قُرَيْشٍ، ومَنْ ذَهَبَ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال، رقم (١١٥٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

المُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْشٍ فإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وحصَلَ بذَلِكَ مُراجعاتٌ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ ابْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النَّبِيِّ ﷺ وقالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نَقْبَلُ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قَالَ: لِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وهُوَ نَاصِرِي**». فَلَمَّا أَيِسَ عُمَرُ فِي مُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَاقَشَهُ فِي ذَلِكَ، وَأَوْرَدَ عَلَيْهِ مَا أَوْرَدَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَجَابَ أَبُو بَكْرٍ بِمَا أَجَابَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَقَالَ لَهُ، أَيْ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يَعْصِيَهُ، وهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ».

وجَرَى الصُّلْحُ، وأمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحِلُّوا فَيَنْحَرُوا الهَدْيَ، ويَحْلِقُوا الرُّؤُوسَ، ويَرْجِعُوا إِلَى المَدِينَةِ، لكنْ لِثِقَلِ الأمْرِ عَلَى الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَصَلَ مِنْهُمْ بَعْضُ التَّمَنُّعِ؛ لعَلَّ النَّبِيَّ ﷺ يَرْجِعُ فِي الأمْرِ، أَوْ يَنْزِلُ وَحْيٌ مِنَ السَّماءِ يُغَيِّرُ الوَضْعَ، فدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ على أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكانتِ امْرَأَةً عاقِلَةً، فرأَتْهُ مُغْضَبًا، فسأَلَتْهُ فأخْبَرَهَا أَنَّهُ أمَرَ بأنْ يَحِلُّوا ويَحْلِقُوا لكنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فقالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، اخْرُجْ وادْعُ الحَلَّاقَ، ولْيَحْلِقْ رَأْسَكَ، ولا تُكَلِّمْ أحَدًا، فخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ودعَا الحَلَّاقَ، فحَلَقَ رَأْسَهُ، فعَلِمَ الصَّحابَةُ أَنَّ الأمْرَ قَدِ انْتَهَى، وأَنَّهُ لَا رُجُوعَ، فجَعَلَ يَحْلِقُ بعْضُهُمْ بَعْضًا، حتَّى كادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى ذَلِكَ[1]، والقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ.

وإِنَّنِي بهذِهِ المُناسَبَةِ أَوَدُّ مِنْ إِخْوانِي المُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ بسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فإنَّ العِلْمَ بسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَزِيدُ المَرْءَ إيمانًا، يَزِيدُ المَرْءَ مَحَبَّةً لرَسُولِ اللهِ ﷺ يَزِيدُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المَرْءَ اتِّباعًا لرَسُولِ اللهِ ﷺ يَزِيدُ المَرْءَ مَعْرِفَةً بكيفيَّةِ تَدَرُّجِ هَذَا الدِّينِ الإِسْلامِيِّ، وأَنَّهُ لَيْسَ لُقْمَةً تُحْسَى فقطْ، بلْ لَمْ يأتِ إلَّا بكَدٍّ وتَعَبٍ وجِهادٍ، يَزِيدُ المَرْءَ تَمَسُّكًا بدِينِهِ؛ لأَنَّهُ إذَا كانَ هَذَا الدِّينُ الإِسْلامِيُّ لَمْ يَأْتِ إلَّا بهذِهِ الصُّعوباتِ فإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإنسَانِ أنْ يَشُدَّ يَدَيْهِ به، وأَلَّا يَتهاوَنَ به.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البَقَرة:١٩٦] أمَرَ النَّبيُّ ﷺ أصحابَهُ أنْ يَنْحَرُوا الهَدْيَ، قَالَ جابِرٌ: «**فَاشْتَرَكْنَا فِي البَدَنَةِ سَبْعَةٌ، وَفِي البَقَرَةِ سَبْعَةٌ**»(١)، وَفِي الشَّاةِ وَاحِدٌ.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البَقَرة:١٩٦] المُحْرِمُ عَلَيْهِ شَعَرٌ، ولا يَحِلُّ لهُ أنْ يَحْلِقَ شَعَرَهُ حتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ؛ أيْ: حتَّى يُنْحَرَ، فإذا نُحِرَ حَلَقَ، ولا يَحِلُّ لهُ الحَلْقُ قبْلَ ذَلِكَ؛ لقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البَقَرة:١٩٦] لكنْ هَذَا خُفِّفَ بعدَ ذَلِكَ؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ فِي مِنًى عمَّنْ حلَقَ قَبْلَ أنْ يَنْحَرَ، قالَ: «**انْحَرْ وَلَا حَرَجَ**»(٢).

أَخذَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ حَلْقَ الرَّأْسِ مِنْ مَحْظُوراتِ الإحْرامِ، فلا يَحِلُّ للإِنْسَانِ أنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ، لكنْ لوْ كانَ هُناكَ عُذْرٌ فلا بَأْسَ، ولقَدْ تَشَدَّدَ قَوْمٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا حتَّى رَأَيْنَا بَعْضَ المُحْرِمِينَ إذَا أرادَ أنْ يَحُكَّ رَأْسَهُ يقولُ هكذَا، يَنْقُرُهُ نَقْرَةً؛ لأَنَّهُ يَخْشَى أنْ تَسْقُطَ شَعَرَةٌ، وهَذَا فِي الحَقِيقَةِ مِنَ التَّنَطُّعِ فِي الدِّينِ الَّذِي

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب الاشتراك في الهدي، رقم (١٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب السؤال والفتيا عند رمي الجمار، رقم (١٢٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر، رقم (١٣٠٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[(١)] ولهَذَا رَوَى مالِكٌ فِي (الْمُوطَّأِ) عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها قالت: «لَوْ لَمْ أَحُكَّهُ بِيَدِي لَحَكَكْتُهُ بِرِجْلِي»[(٢)] كُلُّ هَذَا مُبالَغَةً فِي جَوازِ حَكِّ الْمُحْرِمِ رَأْسَهُ.

وإِذَا حَكَكْتَ رَأْسَكَ، وسَقَطَ منهُ شَعَرَةٌ، أَوْ شَعَرَتانِ أَوْ ثلاثٌ أَوْ أَرْبَعٌ فلا حَرَجَ، فأَنْتَ لَمْ تَحُكَّ رَأْسَكَ لِيَتَساقَطَ الشَّعَرُ، بلْ حَكَكْتَهُ لتَسْتَرِيحَ مِنْ هَذِهِ الحَرارةِ.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] فمَنْ كانَ مرِيضًا، بِهِ صُداعٌ، وقِيلَ: لهُ إِنَّهُ لَا يُزالُ عنكَ الصُّداعُ إِلَّا أنْ تَحْلِقَ رَأْسَكَ فلْيَحْلِقْ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ [البقرة:١٩٦] أيْ: فحَلَقَ فعليْهِ فِدْيَةٌ ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ أيْ: أوْ بِهِ أذًى مِنْ شَعَرِ رَأْسِهِ، فرُبَّما يَتجَمَّعُ القَمْلُ -والقَمْلُ حَشَرَةٌ صَغِيرَةٌ تُؤْذِي الإنْسَانَ- فِي الرَّأْسِ ويَتأَذَّى بِهِ الإنْسَانُ، فلهُ أنْ يَحْلِقَ الرَّأْسَ، كدَفْعِ الصائلِ إذَا صالَ عَنِ الإنْسَانِ، فلهُ أنْ يُدافِعَهُ، ولوْ أدَّى ذَلِكَ إِلَى قَتْلِهِ، كذَلِكَ إذَا صالَ عليكَ القَمْلُ وآذاكَ بسَببِ الشَّعَرِ فلكَ أنْ تُزِيلَ هَذَا الشَّعَرَ.

وفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ حُمِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَالقَمْلُ يَتنَاثَرُ عَلَى وَجْهِهِ -يَعْنِي مِنْ رَأْسِهِ- فَقَالَ لهُ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ-: «لَعَلَّكَ آذاكَ هَوامُّ رَأْسِكَ»، قَالَ: نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الموطأ (١/ ٣٥٨ رقم ٩٣).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ وَأَنْ يَفْدِيَ»[(١)].

ولَمَّا أرادَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يَحْتَجِمَ وهُوَ مُحْرِمٌ حَلَقَ مَوْضِعَ الحِجامَةِ، فقدْ صَحَّ عنهُ ﷺ أنَّهُ احْتَجَمَ وهُوَ مُحْرِمٌ[(٢)]، وبالضَّرُورَةِ أنَّ الإنْسانَ الَّذي يَحْتَجِمُ عَلَى رأسِهِ سَوْفَ يَحْلِقُ الشَّعَرَ مَوْضِعَ الحِجامَةِ، فحَلَقَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ رَأْسِهِ مَوْضِعَ الحِجامَةِ، لكنْ لَمْ يَرِدْ أنَّهُ فَدَى، والسَّببُ فِي ذَلِكَ أنَّهُ لَمْ يَحْلِقْ إلَّا جُزْءًا يَسِيرًا مِنَ الرَّأْسِ، وأمَّا مَنْ حَلَقَ كُلَّ رَأْسِهِ أوْ حَلَقَ مَا يُماطُ بِهِ الأَذَى عَلَى مَا قالهُ الإمامُ مالِكٌ[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهَذَا هُوَ الَّذي عَلَيْهِ الفِدْيَةُ، والفِدْيَةُ فِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ، و(أوْ) للتَّخْيِيرِ.

﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البَقَرة:١٩٦] والقُرْآنُ لَيْسَ فِيهِ بيانُ كم الصِّيامُ، ولا كَمِ الصَّدَقَةُ، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ بيَّن ذَلِكَ بأنَّ الصِّيامَ ثلاثَةُ أيَّامٍ، وأنَّ الصَّدَقَةَ ثَلاثَةُ آصُعٍ لسِتَّةِ مَساكِينَ، فيكونُ لكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صاعٍ، وأمَّا النُّسُكُ فَهِيَ شاةٌ أوْ مَعْزٌ يذْبَحُها الإنْسانُ، ويَتَصَدَّقُ بِهَا كُلِّها عَلَى الفُقَراءِ.

﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البَقَرة:١٩٦] إذَا أَمِنْتُمْ مِنَ العَدُوِّ، وإنَّما قالَ: «إِذَا أَمِنْتُمْ» لأنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ حَصْرِ النَّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ عَنْ إتْمامِ عُمْرَتِهِمْ عامَ الحُدَيْبِيَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المحصر، باب الإطعام في الفدية نصف صاع، رقم (١٨١٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، رقم (١٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الحجامة والقيء للصائم، رقم (١٩٣٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز الحجامة للمحرم، رقم (١٢٠٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) المدونة (١/ ٤٤١-٤٤٢).

فإنْ قَالَ قائِلٌ: إذَا أُحْصِرَ الإنْسَانُ بغَيْرِ عدُوٍّ كإنْسَانٍ أُصِيبَ بمَرَضٍ أثْنَاءَ النُّسُكِ، ولمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُكمِلَ، هلْ يُعطَى حُكْمَ مَنْ أُحْصِرَ بعَدُوٍّ أوْ لا؟

فالجَوَابُ: اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي هَذَا، فمنهُمْ مَنْ قالَ: لَا يُعطَى حُكْمَ المُحْصَرِ بعَدُوٍّ؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ [البَقَرة:١٩٦] ولَمْ يَقُلْ: فإذا شُفِيتُمْ.

وقالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: إنَّهُ إذَا أُحْصِرَ بمَرَضٍ فهُوَ كالمُحْصَرِ بعَدُوٍّ؛ لأنَّ العِلَّةَ واحِدَةٌ، وهيَ: عَدَمُ القُدْرَةِ عَلَى الإتْمامِ، وهَذَا القَوْلُ أَصَحُّ، أنَّ الإنْسَان لوْ أُحْصِرَ بمَرَضٍ أوْ كَسْرٍ أوْ مَا أشْبَهَ ذَلِكَ ممَّا يَعُوقُهُ عَنْ إتْمامِ النُّسُكِ؛ فإنَّهُ يَحِلُّ، لكنْ عَلَيْهِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ، وعليْهِ أيْضًا أنْ يَحْلِقَ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَ بذَلِكَ[1]، فيكونُ عَلَى المُحْصَرِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ بالقُرْآنِ، والحَلْقُ بالسُّنَّةِ.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البَقَرة:١٩٦] وذَلِكَ بأنْ يَقْدَمَ إلَى مَكَّةَ فِي أشْهُرِ الحَجِّ، وكانَ المفروضُ إذَا قَدِمَ إلَى مَكَّةَ أنْ يُحْرِمَ بالحَجِّ، ويَبْقَى مُحْرِمًا إلَى أنْ يَحِلَّ يَوْمَ العِيدِ، لكنَّ اللهَ يَسَّرَ ذَلِكَ بأنْ شَرَعَ للعِبادِ أنْ يَتَمَتَّعُوا بالعُمْرَةِ؛ أيْ: بسَبَبِ العُمْرَةِ، إلَى الحَجِّ؛ ولهَذَا أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مَنْ لَمْ يَسُقِ الهَدْيَ مِنْ أصْحابِهِ أنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً[2]، وأنت إذَا قَدِمْتَ فِي أوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ مثلًا مُحْرِمًا بحَجٍّ تَحِلُّ فِي اليَوْمِ العاشِرِ.

لكنْ نقولُ: هُناكَ مَا هُوَ أسْهَلُ، أنْ تَجْعَلَ حَجَّكَ عُمْرَةً، وتَحِلَّ وتَتَمَتَّعَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، رقم (١٥٦٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بما أحلَّ اللهُ لكَ؛ ولهَذَا قالَ: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ﴾ [البقرة:١٩٦] أيْ: بسببِ العُمْرَةِ تَمَتَّعَ بما أحَلَّ اللهُ لهُ بالعُمْرَةِ إلَى الحَجِّ.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦] أيْ: فعليْهِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ، وإنَّما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: (مَا اسْتَيْسَرَ) لأنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الإسْلامِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى اليُسْرِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي آياتِ الصِّيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] وقالَ بعدَ آيةِ الوُضوءِ والغُسْلِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦] وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[١] وقالَ ﷺ وهُوَ يُرْسِلُ البُعُوثَ إلَى النَّاسِ يدْعُوهُمْ إلَى دِينِ الإسْلامِ يقولُ: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»[٢] «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[٣] وقالَ ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»[٤].

والنُّصُوصُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ؛ ولهَذَا لَا تُشَدِّدْ عَلَى نَفْسِكَ، ولا تُشَدِّدْ عَلَى غَيْرِكَ، مادامَ فِي الأمْرِ سَعَةٌ فاحْمَدِ اللهَ تَعالَى عَلَى تَيْسِيرِهِ، وخُذْ برُخْصَةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ تُؤْتَى رُخصَةُ كما يُحِبُّ أنْ تُؤْتَى عَزائِمَهُ، لكنْ بعضُ النَّاسِ يَظُنُّ أنَّ الدِّينَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النَّبي ﷺ يتخولهم بالموعظة، رقم (٦٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالتَّشَدُّدِ، حتَّى إنَّهُ يَكُونُ عندَهُ فِي أَيَّامِ الشتاءِ الماءُ البارِدُ القارِسُ والماءُ الساخِنُ الهادِئُ، ويختارُ الماءَ البارِدَ القارِسَ، يقولُ: لأَنَّهُ أشقُّ عَلَيَّ، وكُلَّما كانَ الشَّيْءُ أَشَقَّ فهو أَفْضَلُ، نقولُ: هَذَا غَلَطٌ، ولَيْسَ بصَحِيحٍ، فإذا شَقَّتِ العِبادَةُ ولم تَجِدْ سَبِيلًا إلَى اليُسْرِ فنعَمْ، كما قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ: «**أَجْرُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ**»(١) أيْ: عَلَى قَدْرِ التَّعَبِ؛ لكنْ كَوْنُكَ تَخْتَارُ الأَشَقَّ معناهُ وُجُودُ الأَيْسَرِ، فهَذَا مُخالِفٌ للشَّرِيعَةِ.

فلوْ أَنَّ رَجُلًا أصابَتْهُ جَنابَةٌ فِي يَوْمٍ بارِدٍ، لوِ اغْتَسَلَ هَذَا اليَوْمَ فرُبَّما يُصابُ بالزُّكامِ، أَوْ بالصُّداعِ، أَوْ مَا شابَهَ ذَلِكَ، وإذَا قُلْنَا له: تَيَمَّمْ، قالَ: لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَيَمَّمَ، أنا أُرِيدُ أَنْ أَغْتَسِلَ بالماءِ البارِدِ، ولا أُبالِي ولوْ مَرِضْتُ، فقدْ أَخْطَأَ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرة:١٨٥] ولَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَمْرَو بْنَ العاصِ فِي سَرِيَّةٍ، أَجْنَبَ، وكانتِ اللَّيْلَةُ بارِدَةً، فتيَمَّمَ، وصلَّى بأصحابِهِ، فلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ له: «**أَصَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟**» أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخْتَبِرَهُ، فقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، كانَتِ اللَّيْلَةُ بَارِدَةً وَذَكَرْتُ قَوْلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساءِ:٢٩] فتَيَمَّمْتُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ إِقْرارًا لهُ عَلَى فِعْلِهِ(٢).

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البَقَرة:١٩٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب، رقم (١٧٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١/ ١٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٣)، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم، رقم (٣٣٤)، وعلقه البخاري: كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض، (١/ ٧٧).

الصِّيامُ: صِيامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ.

الصَّدَقَةُ: أنْ يُطْعِمَ ستَّةَ مَساكِينَ، لكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صاعٍ، فتكونُ الأصواعُ ثلاثةً.

النُّسُكُ: أنْ يَذْبَحَ شاةً ويُوَزِّعَهَا عَلَى الفُقَراءِ والمَساكِينِ، ولا يَأْكُلَ مِنْهَا شَيْئًا؛ لأنَّهَا كفَّارَةٌ.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البَقَرة:١٩٦] صيامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ فِي الحَجِّ يَبْتَدِئُ وقْتُهَا مِنْ حِينِ أنْ يُحْرِمَ بالعُمْرَةِ، ويَنْتَهِي بآخِرِ يَوْمٍ مِنْ أيَّامِ التَّشْرِيقِ، ولا يُصامُ يَوْمُ عَرَفَةَ ولا يَوْمُ النَّحْرِ، فمثلًا لوْ أنَّ الإنْسَانَ تَمَتَّعَ بالعُمْرَةِ إلَى الحَجِّ، وقَدِمَ فِي اليَوْمِ الخامِسِ والعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ ذِي القِعْدَةِ، وهُوَ يَعْرِفُ أنَّهُ لَيْسَ عندَهُ مَالٌ يَشْتَرِي بِهِ هَدْيًا، يَصُومُ مِنْ يَوْمِ خَمْسٍ وعِشْرِينَ.

فإذا قَالَ قائِلٌ: إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ والرَّجُلُ لَمْ يَشْرَعْ فِي الحَجِّ بَعْدُ.

قُلْنَا لهُ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**دَخَلَتِ العُمْرَةُ فِي الحَجِّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»(١).

فلوْ صَامَ اليَوْمَ الخامِسَ والعِشْرِينَ، وصامَ اليَوْمَ السابعَ والعِشْرِينَ، وصامَ اليَوْمَ الأَوَّلَ مِنْ شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ، والأيَّامُ مُتَفَرِّقَةً أوْ مُتَتابِعَةً، فلَا بَأْسَ؛ والدَّلِيلُ عَدَمُ الدَّلِيلِ عَلَى وُجُوبِ التَّتابُعِ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لوْ أرادَ التَّتابُعَ لَبيَّنَهُ، كما قَالَ تَعالَى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المُجادَلَة:٤] فلمَّا قَالَ: صِيامُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ ولَمْ يَقُلْ مُتتابِعَةً؛ عُلِمَ أنَّهُ لا بَأْسَ أنْ تَكُونَ مُتتابِعَةً أوْ مُتَفَرِّقَةً.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أيْ: إذَا رَجَعْتُمْ مِنَ السَّفَرِ، فإذَا رَجَعَ الإنْسَانُ إِلَى أَهْلِهِ، واسْتَقَرَّ واسْتَوْطَنَ يَصُومُ سَبْعَةً، فلو صامَ ثانِيَ يَوْمِ قَدِمَ، وبعدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ صامَ اليَوْمَ الثَّانِيَ، وبَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامِ اليَوْمَ الثَّالِثَ، وبعدَ عِشْرِينَ اليَوْمَ الرابعَ، وبعدَ شَهْرٍ اليَوْمَ الخامِسَ، وبعدَ شَهْرَيْنِ اليَوْمَ السادِسَ، وبعدَ ثلاثَةِ أَشْهُرٍ اليَوْمَ السابعَ -فإنَّهُ يجوزُ، ولا يُشْتَرَطُ التَّتابُعُ، والدَّلِيلُ عَدَمُ الدَلِيلِ، وهُوَ أَنَّ اللهَ تعالَى لَمْ يَشْتَرِطِ التَّتابُعَ، وإذَا كانَ اللهُ تعالَى أطْلَقَ الشَّيْءَ ولَمْ يَشْتَرِطْ فِيهِ شَيْئًا فهُوَ عَلَى إطْلاقِهِ.

وإذَا كانَ رَجُلٌ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَشْتَرِيَ الهَدْيَ ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصُومَ، فلا شَيْءَ عَلَيْهِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرة:٢٨٦] ويقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] ولهَذَا أخَذَ العُلَماءُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ وأمْثالِها قاعِدةً مُفِيدَةً، وهِيَ: أَنَّهُ لَا وَاجِبَ معَ عَجْزٍ.

وبهَذَا التَّقْرِيرِ الَّذِي ذكَرْنَا يَتبَيَّنُ قِصَرُ نَظَرِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَنْ نُحْرِمَ مُتَمَتِّعِينَ بالعُمْرَةِ؛ خَوْفًا مِنَ الهَدْيِ، وإِنَّمَا نُحْرِمُ مُفْرِدِينَ؛ لأنَّ المُفْرِدَ لَيْسَ عَلَيْهِ هَدْيٌ، وهَذَا خَطَأٌ فِي التَّصَوُّرِ، وجَهْلٌ فِي العِلْمِ، نقولُ: يَا أَخِي أَحْرِمْ مُتَمَتِّعًا كما أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بذَلِكَ[1]، ثُمَّ إنْ تَيَسَّرَ لكَ الهَدْيُ فما أسْهَلَهُ! كإنْسَانٍ عندَهُ مئةُ أَلْفِ رِيالٍ والهَدْيُ بخَمْسِ مِئَةِ رِيالٍ، فلَيْسَ صَعْبًا عليْهِ، وهُوَ مُسْتَيْسِرٌ، أَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ شَيْءٌ، فصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ مُتتابِعَةً أَوْ مُتَفَرِّقَةً، أنْتَ بالخِيارِ، فلَيْسَ هُناكَ صُعُوبَةٌ، فإذا صُمْتَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يَوْمًا، يَكُونُ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ: المُحَرَّمُ وصَفَرٌ ورَبِيعٌ الأَوَّلُ ورَبِيعٌ

(١) كما أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، رقم (١٥٦٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١٣)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الثَّانِي وجُمادَى الأُولَى وجُمادَى الثَّانِيةُ ورَجَبٌ، فلوْ تَبْقَى إلَى رَجَبٍ وتَصُومُ كُلَّ شَهْرٍ يَوْمٍ -فإنَّهُ جائزٌ، ولا تُوجَدُ مَشَقَّةٌ إذَا صامَ الإنْسَانُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يَوْمًا.

ولَوْ كانَ الإنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَصُومَ ولا يَوْمًا واحِدًا فلا شَيْءَ عليْهِ، فلماذا تُصَعِّبُ هَذَا النُّسُكَ الأفْضَلَ وهُوَ التَّمَتُّعُ خَوْفًا مِنَ الهَدْيِ مع أنَّ الأمْرَ مُيَسَّرٌ؟! لكنَّ الشَّيْطانَ عَدُوٌّ للإنْسَانِ.

يقولُ بعضُ النَّاسِ: أخْتارُ غَيْرَ التَّمَتُّعِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ حجَّ قارِنًا.

قَالَ الإمامُ أحْمَدُ وهُوَ أعْلَمُ الأئِمَّةِ بالسُّنَّةِ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا أَشُكُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَجَّ قَارِنًا، وَلَكِنَّ الْمُتْعَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ»[1] فإذا احْتَجَّ بِفِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ قُلْنَا: فِعْلُ الرَّسُولِ عَلَى العَيْنِ والرَّأْسِ، لكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ساقَ الهَدْيَ، ولَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ التَّمَتُّعِ إلَّا سَوْقُ الهَدْيِ؛ لأنَّهُ قالَ: «**لَوْلَا أَنَّ مَعِيَ الهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ مَعَكُمْ**»[2] ثُمَّ أَمَرَ أصحابَهُ أنْ يَتَمَتَّعُوا، وحَثَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وغَضِبَ لذَلِكَ، لَمَّا رأَى بَعْضَهُمْ تَمَنَّعَ، أوْ قَامَ يُناقِشُ، غَضِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فسُنَّةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِعْلُهُ وقَوْلُهُ، وإذَا تعارَضَ القَوْلُ والفِعْلُ قُدِّمَ القَوْلُ؛ لأنَّ الفِعْلَ يَحْتَمِلُ الخُصُوصِيَّةَ، أوْ يَحْتَمِلُ العُذْرَ، أوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأُمورِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الفِعْلُ.

وإذَا قَالَ بعضُ النَّاسِ: الإفرادُ أفْضَلُ؛ لأنَّ الإنْسَانَ يأْتِي بالحَجِّ مُفْرَدًا مُسْتَقِلًّا، ثُمَّ يأْتِي بعْدَهُ بعُمْرَةٍ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، رقم (١٥٦٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١٦)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قُلْنَا: سُبْحَانَ اللهِ!

أَوَّلًا: هَذَا قِيَاسٌ فِي مُقَابَلَةِ النَّصِّ، والقِيَاسُ فِي مُقَابَلَةِ النَّصِّ باطِلٌ مَرْدُودٌ.

ثانيًا: إنَّ المُتَمَتِّعَ يأْتِي بعُمْرَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وَحَجٍّ مُسْتَقِلٍّ، إذَنْ: لَا فَرْقَ.

ثالثًا: أَنَّهُ لَمْ يُعْهَدْ عَنْ صَحابِيٍّ أَنَّهُ أَتَى بعُمْرَةٍ بعدَ الحَجِّ، إلَّا قَضِيَّةُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومَنْ كانَتْ مِثْلَ عَائِشَةَ فلهَا أنْ تَأْتِيَ بعُمْرَةٍ.

وقَضِيَّةُ عَائِشَةَ أَنَّهَا أَحْرَمَتْ بالعُمْرَةِ مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ، وفي أَثْناءِ الطَّرِيقِ فِي سَرِفَ حاضَتْ، فلَمَّا حاضَتْ أمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أنْ تُدْخِلَ الحَجَّ عَلَى العُمْرَةِ ففَعَلَتْ، فصَارتْ قَارِنَةً، ولَمَّا انْتَهَى الحَجُّ قالتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ، يَرْجِعُ النَّاسُ بِحَجٍّ وعُمْرَةٍ وأَرْجِعُ بِحَجٍّ؟» فلَمَّا أَلَحَّتْ عَلَيْهِ أمَرَ أخَاهَا عبدَ الرحمنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنْ يَخْرُجَ بِهَا إِلَى التَّنْعِيمِ، وأنْ تُحْرِمَ بعُمْرَةٍ[1].

وأَخُوهَا عَبْدُ الرَّحْمنِ كانَ معَهَا، ولَمْ يُحْرِمْ مع أَنَّ الأَمْرَ مُيَسَّرٌ عليْهِ، فهُوَ أتى إِلَى المِيقاتِ، ويَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْرِمَ، وسَوْفَ يَصْحَبُ أُخْتَهُ، ومعَ ذَلِكَ لَمْ يُحْرِمْ بعُمْرَةٍ؛ لعِلْمِهِ أنَّهُ لا عُمْرَةَ بَعْدَ الحَجِّ.

فتبَيَّنَ بهَذَا أنَّ القَوْلَ بأنَّ التَّمَتُّعَ هُوَ الأفْضَلُ هُوَ القَوْلُ المُطابِقُ للسُّنَّةِ تَمامًا، ولنا فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، ولنا فِي قَوْلِهِ اتِّباعٌ حَسَنٌ.

فإنْ قَالَ قائِلٌ: مَنْ سَاقَ الهَدْيَ هلِ الأفْضَلُ التَّمَتُّعُ أوِ الأفْضَلُ القِرَانُ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، رقم (١٥٦١)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالجَوَابُ: مَنْ سَاقَ الهَدْيَ الأفْضَلُ القِرانُ، لكنْ أيْنَ الَّذِينَ يَسُوقُونَ الهَدْيَ الآنَ؟ فلوْ أَتَيْتُمْ بِهَدْيِكُمْ بالطائِرَةِ فهو مُشْكِلَةٌ؛ حيثُ يحتاجُ إِلَى تَذْكَرَةِ راكِبٍ، وهَذَا صَعْبٌ، ولوْ أتَيْتُمْ بِهِ مِنْ جُدَّةَ مَثلًا، فإِنَّكَ قادِمٌ بالحافِلَةِ، ولوْ أتَيتَ بالشاةِ معك احْتاجَتْ إِلَى تَذْكَرَةِ راكِبٍ، معَ مَا يَكُونُ فِيهَا مِنْ رَوْثٍ أوْ بَوْلٍ أوْ ثُغاءٍ أوْ غَيْرُ ذَلِكَ، فلا يُوجَدُ أحَدٌ يَسُوقُ الهَدْيَ الآنَ، ولا أدْرِي إنْ كانَ مَثلًا حَوْلَ مَكَّةَ بادِيَةٌ عنْدَهُمْ غَنَمٌ، أوْ عِنْدَهُمْ إِبِلٌ وساقُوا الهَدْيَ، فهذِهِ يُمْكِنُ، لكنْ حَسَبَ عامَّةِ الحُجَّاجِ لَا أحَدَ يَسُوقُ الهَدْيَ.

إذَنْ: فالأفْضَلُ التَّمَتُّعُ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦] لِماذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ معَ أنَّ العَدَدَ هُوَ عَشَرَةٌ؟

الجَوابُ: لئلَّا يَظُنَّ الظانُّ أنَّهُ لَمَّا فُرِّقَتْ فكانَتْ ثَلاثَةً فِي الحَجِّ وسَبْعَةً إذَا رَجَعَ؛ أنَّها تَتفَرَّقُ ولا يُضَمُّ بَعْضُهَا إِلَى بعضٍ، فأرادَ اللهُ أنْ يُبيِّنَ أنَّ هَذِهِ الثَّلاثَةَ والسَّبْعَةَ المُتفَرِّقَةَ يُضَمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ حتَّى تكُونَ عَشَرَةً كامِلَةً.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩٦] ﴿ذَٰلِكَ﴾ اخْتَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في مَرْجِعِ الإشارَةِ، فقِيلَ: إِنَّهُ عائِدٌ عَلَى التَّمَتُّعِ، وأنَّ أهْلَ مَكَّةَ لا تَمَتُّعَ لَهُمْ؛ لأنَّ المُتمَتِّعَ يأْتِي بعُمْرَةٍ، والعُمْرَةُ لَا بُدَّ للإنْسَانِ أنْ يَأْتِيَ فِيهَا مِنْ خَارِجٍ، وأهْلُ مَكَّةَ لَيْسَ لهُمْ عُمْرَةٌ.

وقِيلَ: إنَّ مَرْجِعَ الإشارَةِ الهَدْيُ، أيْ (ذَلِكَ) أيْ: وُجُوبُ الهَدْيِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ

أَهْلُهُ حاضِرِي المَسْجِدِ الحَرامِ، وعلى هَذَا القَوْلِ يَكُونُ لأهْلِ مَكَّةَ تَمَتُّعٌ، لكنْ لَيْسَ عليهِمْ هَدْيٌ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦] مَعْنَى التَّقْوَى أنْ يَتَّخِذَ الإنْسَانُ وِقايةً مِنْ عَذابِ اللهِ، وذَلِكَ بِفِعْلِ الأوامِرِ واجْتِنابِ النَّواهِي.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦] شَدِيدُ العِقابِ لِمَنْ عَصاهُ ولَمْ يَتَّقِهِ؛ فإنَّهُ تَعالَى يُعاقِبُهُ عُقُوبةً لَا يُعاقِبُهَا أحدًا، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦].

إذَنِ: اتَّقِ رَبَّكَ، واعْلَمْ أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ، وأنَّكَ إنْ لَمْ تَتَّقِهِ فسَوْفَ يُعاقِبُكَ عِقابًا لَا نَظِيرَ لهُ فِي العُقُوباتِ.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] أيْ: يَكُونُ الحَجُّ فِي أَشْهُرٍ مَعْلوماتٍ وهِيَ ثلاثَةٌ: شَوَّالٌ، وذُو القِعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ أشْهُرٌ جَمْعُ شَهْرٍ، والجَمْعُ أَقَلُّهُ ثَلاثَةٌ، فالحَجُّ أشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ.

واخْتَلَفَ العُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِيمَا لوْ أحْرَمَ بالحَجِّ قَبْلِ أشْهُرِهِ، يَعْنِي لوْ أحْرَمَ إنْسَانٌ بالحَجِّ فِي رَمضانَ، وقالَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ حَجَّةً، هلْ يَنْعَقِدُ أوْ لَا يَنْعَقِدُ؟

فمِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّهُ لا يَنْعَقِدُ لأنَّهُ قَبْلَ وقْتِهِ، كما أنَّ الصَّلاةَ قَبْلَ وقْتِها لَا تَصِحُّ.

ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: يَنْعَقِدُ عُمْرَةً، ولا يَنْعَقِدُ حَجًّا.

ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: يَنْعَقِدُ حَجًّا معَ الكَراهَةِ.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة:١٩٧] انْتَبِهْ لكَلِمَةِ (فَرَضَ) يَتَبَيَّنْ لكَ أنَّ مَنْ عَقَدَ نُسُكًا فقدِ الْتَزَمَ بِهِ وفَرَضَهُ عَلَى نفسِهِ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧].

الدرس الرابع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعـمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْـلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشـهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تَعالَـى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

ثَلاثَةُ أَشْياءَ نَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ تَكونَ فِي الحَجِّ:

الأوَّلُ: الرَّفثُ وَهُوَ الجِماعُ ومُقَدماتُهُ.

الثَّانِي: الفُسُوقُ، وهُوَ العِصْيانُ؛ لِأَنَّ الفِسْقَ هُوَ الخُرُوجُ عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمنِ، فَيَشْمَلُ ذَلكَ كُلَّ فُسُوقٍ: يَشْمِلُ النَّظَرَ المُحرَمَ، كَأَنْ يَنْظُرَ الرَّجلُ إِلَى امْرَأةٍ أجنبِيَّةٍ، ويَشْمَلَ الغِيبَة، والنَّمِيمةَ، ويَشْمل شُرْبَ الدُّخان؛ وَلِهَـذَا يُعْتبر شَاربُ الدُّخان فِي النُّسُكِ قَد نَقص نُسُكه؛ لِأَنَّهُ فِسق، إذ إِنَّ شَرْبَ الدُّخان دَلت قَواعدُ الشَّريعةِ عَلى أَنَّه مُحرَّم، هُوَ لَمْ يُنَصَّ عليْه بعَيْنه، لَكن الشَّريعةَ الإِسلَاميَّة مِنْ خَصَائِصها أَنَّها شَرِيعة ذَات قَواعد ثَابتة تَلْحق بِها جُزْئيَّات كَثِيرة. والاستهْزَاء بِالنَّاس منَ الفُسوقِ، والتَّنابزُ بالألقابِ منَ الفسـوقِ، وكُلُّ مَعْصية فَهي منَ الفُسـوقِ، فَإِذا دَخلت فِي النُّسُك فتَجَنب كُلَّ المَعَاصي، وَإِلَّا انتَقص نُسُكك.

فإنْ قِيلَ: هَل لِلْحَاج أَنْ يَتخلَّف عنْ صَلاة الجَماعة إِذَا كَانَ رَجُلًا؟

قُلْنَا: إِذَا تَخَلَّف فهُو فاسِقٌ، يَنْقص نُسُكه.

وَإِذَا اعْتَدَى عَلَى النَّاس بالزِّحَام والأذيَّة، فإنَّ نُسُكه يَنقُص؛ ولِذَلك قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾.

وقيل: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أيْ: لَا جِدَالَ فِي فرضيَّة الحجِّ، وهَذَا ضَعِيف، والصَّواب أنَّ المُحرِم مَنهيٌّ عنِ الجِدَال؛ لِأَنَّ الجدَال يَشغل النَّفسَ، ويُلْهيك عنِ النُّسك، وعَنِ التَّعبد للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَلِذَلكَ يُؤْمَرُ المُحرِم بأنْ يَبْتعد عنِ الجِدَال، ولَكِن إِذَا كَانَ يَلْزم مِنَ الجِدَال نُصْرة الحَقِّ وخِذْلان البَاطِل، كَانَ الجِدَال هُنَا وَاجبًا؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، فأمر بِالجدالِ.

وَالجدَالُ المَنْهيُّ عَنْه فِي النُّسُك هُوَ الجِدَال الَّذِي لَمْ يُؤمَرْ به، مِثلَما يَحْصل بَيْن النَّاسِ فِي مَجَالسهم منَ المُمارَاة، فهَذَا يَقُول كَذَا وَهَذَا يَقُولُ كَذَا، وَهَذَا يَقُولُ: إِنْ كَانَ الأَمْر كَما قلت فعليَّ مِئَة رِيَال، وإنْ كَانَ الأمرُ عَلَى خِلَاف مَا قُلت فعلَيْك مِئَة رِيَال، فَيَجمعونَ بَين المُجَادلة والمُماراة وبَيْن المَيْسر؛ والمُرَاهنةُ لَا تَجوزُ إلَّا فِي ثَلَاثةِ أَشياءَ: الخيلِ، والإبلِ، والسِّهامِ.

والغِيبةُ فسَّرهـا النَّبـيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بأنَّها: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»[1] سواءٌ فِي خُلقه، أَو فِي خِلقتِهِ، أَو فِي مَنْهجِهِ، فَلَوْ قُلت: فُلان قَصِير، أَو قَبيح

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

الوَجْه، أَو أَعْور، تَسْخر مِنْهُ، فَهَذِهِ غِيبَة، أَو قُلت: فُلَان أَحْمَقُ أَوْ سَرِيعُ الغضبِ، فَهَذِهِ أَيْضًا منَ الغيبةِ.

والغِيبة مِن كَبائر الذُّنوب، شَبهها اللهُ بِأَقْبح تَشْبيه، فَقَال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وَلَا يُمْكن لِأَحَد أن يُحِب أَن يأكلَ لحمَ أَخِيه مَيْتًا.

وَانظرْ إِلَى التَّعْبير البَلَاغي، فَاللهُ لَمْ يَقُلْ: أَيُحِب أَحدكم أَنْ يأكلَ لَحْم أَخِيهِ حيًّا، بَلْ قَالَ: مَيْتًا؛ لِأَنَّك تغتابُ شخصًا غائبًا لا يَسْتطيع أَنْ يُدَافعَ عَن نفسهِ، وكذَلك المَيت لَا يَسْتطيع أَنْ يدافعَ عَن نفسهِ، فَإِنِ اغتبتَ أَخاكَ فكأَنَّما أَخذت قِطعة لحمٍ مِنْهُ ميتًا.

وقدْ قَالَ بعضُ المفسرينَ: إنَّ الَّذي يَغتابُ شخصًا يُمثَّل لهُ يومَ القيامةِ المعتَدَى علَيْه ميتًا، ويُرْغم المُعْتدي عَلَى أَنْ يَأكلَ منهُ ميتًا، وَهَذَا عذَاب شَدِيد، ولِهَذَا كَانَت الغِيبةُ منْ كبائرِ الذُّنُوب.

والغيبةُ يَتَضاعف إِثْمها بِحَسب النَّتَائج، فمَثلًا: غِيبة العُلَماء لَيْست كَغِيبة العَامَّة، وغِيبة الأُمَراءِ ذَوِي السُّلطة لَيْست كَغِيبة سائرِ النَّاسِ، فأشدُّها قبحًا غيبة الأُمَراء وَالعُلَماء، فَأَنْت إِذَا اغْتَبْت العَالمَ فالغِيبَة لَا تَعود إِلَى شَخْصه فَقَط، بَلْ تَعُود إِلَى شَخْصه، وَإِلى مَا يَحْمله مِنْ شَريعة اللهِ؛ لِأَنَّك إِذَا اغْتَبت العَالم، وسَقط مِن أَعْين النَّاسِ فإنهم لَا يَقْبلون مَا قَالَ بِه منَ الشَّريعة، فَيَنقص قَدره، وَإِذَا نَقَص قَدْره قلَّ وَزْن قَوْله، فَأَصْبح النَّاسُ لَا يَثِقُون بِهِ، ولَا يعتدُّونَ بِقَوْلِهِ، وَهَذِهِ جنَاية عَلَى الشَّريعةِ.

وحَمَلَةُ الشريعةِ العُلَمَاء لَهم حُرْمة منْ جِهَتين: مِن جِهة أَنَّهُمْ مُسلِمُونَ، ومِنْ جِهَة أَنَّهُمْ حَامِلُون لِشَريعةِ اللهِ، والأُمَراء إِذَا اغْتَبْتهم فَإِنَّ الجِنَاية لا تكون لشَخص الأَمير فحسب، وأَعْني بِالأَمير مَنْ لَه إِمْرة، سَوَاء كَانت كَبيرةً أَو صَغِيرةً، فَمُحَافظُ القَرْيةِ أَمِير، ومُدِير المَدْرسةِ أَمِير، وَالأَمِير فِي السَّفَر أَمِير، وَالرَّئِيس أَمِير، وَالمَلِك أَمِير.

فَإِذَا اغْتَبْت الأَمير فَالغِيبة لَا تَقتصِرُ على شَخْصه، بَلْ تَعُود إِلَى أَمْرِهِ، وإِذَا قلَّت قِيمةُ الأَميرِ فِي نُفُوس الشُّعُوب، تَمَرَّدوا عَلَيْه، وعَصوا أَمْره، وحَصَلت الفَوْضى، وكَان إِذَا أَمَر بِالشَّيء الَّذِي فَائِدته مِثل الشَّمْس، لَم يَكن لِأَمره قِيمةٌ، لِأَنَّ هَذَا الرجلَ اغْتَابه فِي مَجْلس، ثُمَّ انْتَشَرَتِ الغيبةُ؛ ولِذَلِكَ كانتْ غِيبةُ العُلَمَاءِ أشدَّ إثْمًا منْ غِيبةِ العامَّةِ، وغِيبة الأُمَراءِ أَشَدَّ إثْمًا منْ غِيبة سائِرِ الشَّعب.

ولَيْسَ مَعنى ذَلك أنَّ العُلَمَاءَ والأمراءَ مَعْصومونَ، فَكُلٌّ يُخْطِئُ ويُصِيب، ولكِن مَنْ سَمِع عَن عَالم مَا شَيئًا رَآهُ خَطأً، فَعلَيْه أَنْ يَتَّخذَ الخُطُوات التَّالية:

الخُطْوة الأُولَى: التَّثبت مِنْ نسبةِ هَذَا القَول إِلى العَالم؛ لِأَنَّهُ قَد يَنقل شَخص عَن العَالم مَا لَم يَقله، لِيُرَوِّجَ بِضَاعته، وَيُروجَ فِكْره، والعالمُ بريءٌ مِن هَذَا القولِ، لَكن لَمَّا كَانَ العالمُ لَه وزْنٌ وقيمةٌ فِي المجتمعِ، ذَهَب يُلطِّخهُ بهذَا القَول.

الخُطْوة الثَّانيَة: التَّفكير، هَل هَذَا الَّذي قَاله العالمُ خَطأٌ أَمْ صَوَابٌ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَسْمع الشَّيْءَ الَّذِي يَسْتغربُهُ، يَظن فِي بَادِئ الأَمْرِ أَنَّه خطأ، وَلَكن إِذَا تَأمَّله وَجده صَوابًا، وَهَذَا يَقَع كثيرًا، فَكَثيرًا مَا نَسْمَعُ عَن شَخْصٍ قولًا غريبًا نَسْتَغربهُ، فَنَقُولُ: هَذَا قولٌ خطأٌ، مُخَالف للنَّاس، فيجبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتأَمَّلَ أوَّلًا هلْ هُوَ خطأ أَمْ صَوَاب، فَإِذَا تأمَّلتَ ورأَيْت أَنَّهُ صوابٌ لكنَّه عنْدَ العامَّةِ خطَأ، فالواجبُ

علَيْك أنْ تَنْصرَ هَذَا الصوابَ، وأنْ تدافـعَ عنْ هَذَا العالمِ الَّذِي نُسِـبَ إلَيْه هَذَا القولُ، وأنْ تَقُولَ: هُوَ مُحِقٌّ، وأَنْ تُجَادِلَ بِالحَقِّ؛ دفاعًا عنِ الحقِّ مِن وَجْهٍ، ودفاعًا عنْ عِرضِ العالمِ مِنْ وَجْه آخرَ.

الخُطْوة الثَّالِثةُ: إذَا تبيَّن لكَ أنْ مَا نُسِـبَ إلَى هَذَا العالمِ صَحِيح مِن حَيْـثُ الثُّبوت، وخَطأ من حَيْثُ الرَّأي، فالوَاجـبُ علَيْك ألا تُشهِّرَ بالعالمِ، ولَا يَجُـوزُ التَّشْهير بالعُلَماءِ، فَالعُلَماء لَهُم حرمةٌ، إنْ أَخْطَؤوا فَخَطؤهم إذَا كَانَ عنِ اجتِهَاد مَغْفور. فَلَا تُشَهِّرْ بِهِ، بَلِ اتَّصل بالعالمِ الَّذِي صحَّ عِنْدَك مَا نُقِل عَنْه، وتُبين لَكَ أنَّه خَطأ، وقُل لَه بِأَدبٍ: أَحْسن اللهُ إِلَيْكَ يَا شَيخُ، سَمِعنا عَنْكَ أنَّك قلتَ كذَا وكذَا، وأشكَلَ علَيْنا وجْهه، فبَيِّن لنَا جزَاكَ اللهُ خيرًا، فحينَئِذٍ تَجد العَالم يَطْمَئنُّ، ويَنْشرح صدُره، ويَتَقبل المُنَاقشة، والعَالم الَّذِي يَخَاف اللهَ ويَخْشى اللهَ، لَا بُدَّ أَنْ يَرجع للحقِّ؛ لأَنَّهُ منْ نِعْمة اللهِ عَلَى العبدِ إِذَا قَالَ قولًا خطَأً أَنْ يُيسر اللهُ لَه مَن يُنَبهه علَيْه حَتَّى يَرجعَ للصوابِ.

فإنْ نَاقشتَ العَالِمَ بِأَدَبٍ واحترَام، فحِينئذٍ يُبينُ لَكَ وجْه مَا قَال، فإما أن يَتبيَّن أنَّه صَحِيح فَيَجب علَيْك أنْ تَأخذَ بِه، وأنْ تُدافعَ عَنه، وإمَّا أَنْ يَتبين لَهُ هُوَ بَعْدَ المُناقشة أنَّه عَلَى خَطَأٍ، فَيَجب عَلَيْهِ أَنْ يَرجعَ إِلَى الصَّوَابِ، ولَوْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ العُلَماءِ، فلَيْس أَحَدٌ منَ النَّاسِ معصومًا إِلَّا مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

أمَّا الأمراءُ، فَنخطو فِيما يُنسبُ إِلَيْهم تِلك الخُطَوات الَّتِي اتَّبعناها مَعَ العالمِ وهِيَ:

الأُولَى: التَّثبت أوَّلًا منْ صِحَّة مَا نُسِبَ إِلَيْهِم.

ثَانِيًا: إذَا تَبيَّنَ لَكَ أَنْ مَا نُسب إِلَيْه حَقٌّ، فَالواجبُ نَصره والدِّفَاع عَنْهُ.

ثَالِثًا: إذَا تَبيَّنَ لَك صِحة مَا نُسب إِلَيْه، وأَنَّه خَطأ، فَالوَاجب أنْ تَتَّصلَ بالأَمِير، إمَّا مُشَافهة أَوْ مُكَاتبة، أَوْ بِأَي وَسِيلة اتِّصَال أُخْرى، وفِي أَدَب وبِأَدب، كما كَانَ أَئِمة أَهْل السُّنَّة يُخَاطبون الخُلَفاء مِنْ أَئِمة البِدَع بِـ(يَا أَمِير المُؤْمنينَ).

فالإِمَام أَحْمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامُ أَهْلِ السُّنَّة، يُخَاطب المَأْمون بِـ(يَا أَمِير المُؤْمنينَ). فَتخاطب الأَمِير بِأَدبٍ، وَتبيِّن لَهُ الحقَّ، وإِنْ أَخَذتِ الأميرَ العزَّةُ بالإِثْم، وأَصرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْه مِن خَطَأ، فلَا يَحل لَك أَنْ تنشرَ خَطأهُ؛ لِأنَّك لَو نَشرت خَطأ الأَمير، امْتَلأت قُلوب النَّاسِ حقدًا عَلَيْهِ، وتمرَّدُوا علَيْهِ، والأَمِير يرَى أنَّ لهُ سُلْطَة، وأنَّه لا يُريد أنْ يُنَازعَه أَحَد فِي سُلْطَتِهِ، فرُبَّما يَزْداد فِيما هُوَ عَلَيْهِ، وَالنَّاسُ يَزْدادونَ تمردًا علَيْه، فيَحْصل الصدَام، ويَحْصل الشَّر والبلاءُ.

والأَمْثلة مَوْجودة فِي عَالمنَا اليَوْم، فالصِّدَام بَيْن الأُمَراء وبَيْن الشُّعُوب مَوْجود، والنَّتِيجة إِسَالة الدِّمَاء، وانْتِهَاك الأَعْراض، وإِتْلاف الأموالِ بِدُون فَائدةٍ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[1]، فعلَيْنا أنْ نَصبرَ، ونَسألَ اللهَ لَهم الهداية.

بعضُ النَّاس إِذَا رَأَى منْ أَمِيره مَا يَكرهُ، أَشَاع السوءَ، ومَلَأَ القُلوبَ حقدًا علَيْه، مَعَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَكون لِهَذَا الأميرِ منَ الحسناتِ أَضْعاف أَضْعَاف مَا أَسَاءَ فِيهِ، وهَذَا لَيْسَ منَ العدلِ أَنْ تَنْشرَ السيئاتِ وتُخْفي الحسنَاتِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورا تنكرونها**»، رقم (٧٠٥٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، رقم (١٨٤٩).

ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ لا يَحْمِلكمْ بُغْضهم عَلَى ألا تَعْدلوا ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

ولَا يَكون الرجلُ كَالمَرْأة، فالمَرْأة يُحسِن إِلَيْها الزَّوج مَدَى الدَّهر، وإِذَا رَأَتْ منْه سَيِّئَة واحدةً قالتْ: «مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»(١)؛ فَلِذَلِكَ يَجب العدلُ، ويَجِبُ أَلَا نملأَ قُلوب الشُّعوبَ حقدًا عَلَى وُلاةِ الأُمور، بَلْ نَدعو اللهَ لَهمْ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ قريبٌ مُجيبُ الدُّعَاءِ.

بعضُ الجُهالِ الَّذِينَ امتلأتْ قُلُوبهم غَيرةً، لكنَّها خَلَتْ منَ الحكمةِ، إِذَا رَأَوا منَ الأمراءِ مَا يَكْرهونَ، قَاموا يَدعون عَلَيْهم ولَا يَدْعون لَهم، فإِنْ قُلت: ادْعُ اللهَ لِلْأَمير بِالهدايةِ، أَبى وَقَالَ: اللهُ لَا يَهْديه، وَهَذَا الدُّعَاءُ لَا يَجُوزُ، فلَيْس بعزِيزٍ عَلَى اللهِ أَنْ يَهديَ الضالَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

والأميرُ إِذَا أمرَ بِمَعصيةٍ فإِنَّهُ لا يُطاعُ، فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أَلَيْس اللهُ يَقُول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]؟

قُلْنَا: بَلَى، قَالَ اللهُ هَذَا، لَكِنه قَالَ: ﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ﴾ ولَمْ يَقل: أَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ، فجعلَ طَاعةَ وُلاة الأمورِ تَابعةً لِطَاعة اللهِ وَرَسُولهِ ﷺ، فإِنْ أمرَ الأميرُ بِمَعصيةٍ، فعلَيْنا أنْ نُطيعَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: هَلْ نُطِيعُ وَلِيَّ الأَمْر العَاصِيَ فِي غَيْرِ المَعْصِيَةِ؟

قُلْنَا: بَعضُ النَّاسِ فهِمَ أنَّ الأميرَ العاصِي إِذَا أَمرَ بِمَا لَيْس بِمَعصيةٍ لَا يُطاعُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب كفران العشير، وكفر دون كفر، رقم (٢٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٧).

وهَذَا فَهم مُنكر لَم يَفهمه السَّلف، ولَيْس هُوَ مَعْنى النُّصُوص، فَإِذَا كَانَ الأَميرُ فاسقًا وأمرك بِأَمْر لَيْسَ بِمَعصيةٍ، فَنَحْن نُطِيع وليَّ الأمرِ العاصِي فِي غَيْرِ المَعْصِية، فَولي الأَمْر وإِنْ كَانَ فاسقًا تَجِب عَلَيْنَا طاعتهُ، والصَّحَابَة كانُوا يُقِيمونَ الجِهَاد والجُمَع والأعيادَ مَعَ الأُمَراءِ، أبرارًا كَانُوا أو فُجارًا، بَل كانُوا يُصلونَ خَلف الحَجَّاج الثَّقفيِّ وهُو مَن هُوَ فِي الظُّلم والعدوانِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَل هُناك فَرق بَين أَمِير يَأمر بِمَعصية، وبَيْن أَمِير عَاصٍ يَأْمر بِمَا لَيْسَ بِمَعصية؟ **قُلْنَا:** الأَمير العَاصي الَّذِي لَا يَأمر بِمَعصية، عِصيانُه عَلَى نَفْسه، وكَم مِن إِنْسَانٍ عِنْده قُوة، وحنْكة، وسِيَاسة، وتَدْبير صَالح للرَّعِية، وعِنْده شَيْءٌ منَ المَعَاصي، وَهذَا خَير لِلْأُمة مِن أَمِير عَابِد لَكِنه لَيْسَ لَه رَأْي، ولَا تَدْبير، فَهَذَا لَا يَصلح.

فلَا بُدَّ أَنْ يَكونَ الإِنْسَانُ مُحِيطًا بالنُّصوص تمامًا، عارفًا لَها، مسيِّرًا لَهَا عَلَى مَا أَرَاد اللهُ ورَسُوله ﷺ.

قَولهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

(مَا) شرطيَّةٌ تَجْزم فِعْلَيْن: الأَوَّل: فِعل الشَّرط، والثَّانِي: جَوَاب الشَّرط.

(تَفْعَل) فِعل مُضَارع مَجْزوم بـ(مَا) عَلَى أَنَّهُ فِعل الشَّرط، وعَلَامة جَزْمه حَذْف النُّون، والوَاو فَاعل.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جَار ومَجْرور.

﴿يَعْلَمْهُ﴾ جوَابُ الشَّرْط، وَلِهَذَا جُزِمَ، والفَاعِل هُوَ اللهُ.

والمَعْنى: أَيُّ خَيْر يُفعل فَإِن اللهَ يَعْلمه؛ لِأَنَّ (مَا) الشَّرطيَّة تُفيد العُمُوم، فأَي

خَير يُفْعل فَالله يَعْلمه، وهَذَا حَثٌّ مِنَ اللهِ لِعَباده أنْ يَفعلوا الخَيرَ فِي الحجِّ وَالعُمْرَةِ، وفِي كُلِّ وقْت. فعلَيْنا بفِعل الخَيْرات، والإِكْثار منَ الذِّكرِ، وقِرَاءة القُرْآنِ، والدُّعَاءِ، لَا سيَّما فِي الأَيام الفَاضِلة الَّتِي قَالَ فِيها رَسُول اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ**»[1].

قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: خُذُوا زَادًا، وهَذَا يَشْمل زَاد البدنِ، وزَاد القلبِ، فزَادُ البَدَنِ: هُوَ الطَّعامُ، والشَّرابُ، والخيمةُ، والمكانُ الَّذِي تَجْلس فِيه، وزَاد القَلب هُوَ التَّقوى؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، فَخَير زَادٍ يَتزوَّد بِه الإِنْسَانُ أَنْ يتَّقِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْله تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

التَّقوى: هِيَ اتِّخَاذ وِقَايةٌ منْ عذَاب اللهِ بِفِعل أَوَامرِهِ، واجتِنَاب نَوَاهيهِ.

وقَوله تَعَالَى: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ: يَا أَصْحاب العُقُول؛ لِأَنَّ العَقْل يَحْمِل صَاحبَهُ عَلَى تَقْوى اللهِ، وَالَّذِي لَا يَتَّقِي اللهَ غَيْرُ عَاقِل، وقدْ يَكون لَيْسَ لَه عقْل إطلاقًا كَالكُفَّارِ مثلًا، وقَدْ يَكونُ لَه عقلٌ فِي شَيْءٍ دُونَ شَيءٍ؛ لِأَنَّ الدِّينِ عَقل، ومنْ لَم يتديَّنْ فَلَيس بِعَاقلٍ؛ لِأَنَّ منْ لَيْسَ عِنْدَهُ دِين قَد خَسر الدُّنيا والآخِرةَ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩).

الدرس الخامس: تفسيرُ آيةِ الكرسيِّ:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظالمينَ، وأشهد أن لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، إله الأولينَ والآخرينَ، وصلى الله وسلَّمَ على نبينا مُحَمَّدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قال تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فضلُ آيةِ الكرسيِّ:

إن آيةَ الكرسيِّ هي أعظمُ آية في كتاب الله؛ سأل النبي ﷺ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] فضرب على صدرِ أُبَيٍّ وقال: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»[(١)] يعني معناه أنك عالمٌ. فأعظمُ آيةٍ في كتابِ اللهِ آيةُ الكرسيِّ، وأعظم سُورَة في كتاب الله سُورَة الفاتحةِ.

فهذه الآية أعظم آيةٍ في كتاب الله، ومَن قرأها في ليلةٍ لم يزلْ عليه من اللهِ حافظٌ، ولا يقربه شيطانٌ حتَّى يصبحَ، وهذا الحديثُ له سببٌ: وهو أنَّ النَّبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

استحفظَ أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على صَدَقَةِ الفطرِ يَجمعُها النَّاس فيأتون بصدقاتهم حتَّى يُوَزِّعَها النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وفي ليلةٍ من الليالي أتاه شَخصٌ بصورةِ إنسانٍ فأخذ من الطعام؛ من الصدقات المجموعةِ، فأمسكه أبو هُرَيْرَةَ وقال: «وَاللهِ لَأَرْفعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ» فادَّعى أنَّه ذو فاقةٍ وعِيَال، يعني أنَّه فقيرٌ وله عائلةٌ، فرقَّ له أبو هُرَيْرَةَ وتركه.

ثم غدا أبو هُرَيْرَةَ إلى رسول الله ﷺ فقال له: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟**» فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**». يعني كذب عليك وسيعودُ.

قال أبو هُرَيْرَةَ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ. فأصر أبو هُرَيْرَةَ على أن يرفعه إلى النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. يقول أبو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.

فلما غدا أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره، فقال: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ**»(١). يعني أخبرك بالصدق وهو قوله: إنَّه إذا قرأ هذه الآية لم يزلْ عليه من الله حافظٌ ولا يقربه شيطانٌ حتَّى يصبحَ، «**وَهُوَ كَذُوبٌ**» يعني الشيطان، كذوب أي موصوف بالكذِب الملازِم له، ولكن قد يَجُود البخيلُ، وقد يَصدُق الكذوبُ.

إذن هذه الآية إذا قَرَأْتَها في ليلةٍ مُؤمنًا بما صحَّ عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أن الله سيحفظك، وأنه لا يَقرَبُك شيطان، فإن الله تَعَالَى يَحميك ويحفظك؛ لأن كلام النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حقٌّ، ولا يقول إلا حقًّا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ.

ولكن المشكلة أن كثيرًا من النَّاس يقرؤها بحروفها دون معانيها، ويقرؤها بعض النَّاس ليجرِّب، لا مُوقنًا بما جاء فيها، وهذا هو الَّذِي يجعل فوائد الآياتِ الكريمة معدومةً في حقِّنَا؛ لنقصِ الإيمانِ، أو لنقصِ اليقينِ في كونها تنفعُ أو لا تنفع.

إذن مَرتبة هذه الآيةِ أنَّها أعظمُ آيةٍ في كتابِ اللهِ، وإذا قرأها الإنسان في ليلةٍ لم يزلْ عليه من اللهِ حافِظ ولا يَقرَبه شيطان حتَّى يصبحَ.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية العظيمة:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبودَ حقّ إلا الله، فالذين يعبدون الأشجارَ، ويعبدون الأنهارَ، ويعبدون الشمسَ، ويعبدون القمرَ، كل هَؤُلاءِ عَبَدوا آلهةً باطلةً،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، فكلها باطلةٌ.

والعجبُ أن بعض النَّاسِ يعبدون البقرَ، وإذا جاعوا ذَبحوها وأكلوها، وكانت العربُ في جاهليتهم منهم مَن يَعبُد الطعامَ، فيعبد العجوةَ، حيث يأخذ تمرًا ويعجنه على هيكل معيَّن ثمَّ يعبده، وإذا جاع أكلهُ، ما شاء الله! هذا معبود مأكول؛ إذا جاع أكلَه، وهذا سَفَه لا شك. ومنهم مَن إذا نزل بأرضٍ جمع أربعةَ أحجارٍ، واختارَ أحسنها هيكلًا وجعله مَعبودًا له، وجعَل الثلاثة الأخرى مناصبَ للقِدر، والقِدر هو الَّذي يُطبَخ فيه الطعامُ، فانظُرِ السفهَ العظيمَ، يعبد حجرًا إخوانه مَناصِبُ للقِدرِ، وأشياء عجيبة، لكنَّا نقول: لا إلهَ إلا هو، أي لا معبودَ حقّ إلَّا هو.

ولا يصِحُّ أن يقولَ قائل: إن التقديرَ: «لا معبود إلا الله»؛ لأن هناك أشياءَ تُعبَد من دون اللهِ، وإذا قلنا: «لا معبودَ إلا الله» لزِم أحدُ أمرينِ: إما الكذِب؛ لوجود معبوداتٍ سوى اللهِ، وإما أن تكون هذه المعبودات هي اللهَ، وكلاهما باطل.

إذن يجب أن نقول: إن المعنى (لا معبود حق إلا الله)، فيكون خبر (لا) محذوفًا، ويكون لفظُ الجلالةِ بعد (إلا) بدلًا منه.

وكلنا -والحمدُ للهِ- نعلم أنَّه لا إِلَهَ إلَّا اللهُ، كما قرر الله ذلك في كتابه، وأوَّلُ مَن يَشهَد بذلك -وأسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم- أهلُ العلمِ، بعد شهادةِ الله عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨]، ولهذا كلما ازداد الإنسان علمًا ازداد توحيدًا؛ لأن الله قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾. فلا أحد من البشر أقوم شهادةً بالإخلاصِ من أهل العلمِ.

قوله: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ أي: ذو الحياةِ الكاملةِ، ووجهُ الكمال في حياة الله أنَّها لم تُسبقْ بعدمٍ، ولا يَلحَقها فناء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]. وفسر النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ هذه الأسماء بقولِه: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١).

فهذه إذن حياة ربنا عَزَّوَجَلَّ لم تُسبقْ بِعَدَمٍ؛ لأنَّه الأول الَّذِي ليس قبله شيءٌ، ولا يَلحَقها فناءٌ؛ لأنَّه الآخِر الَّذِي ليس بعده شيء، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وحياتنا نحن مسبوقةٌ بعدمٍ، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ يعني قبل ولادتِه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] إذن حياتنا مَسبوقة بعدمٍ ثمَّ كانت، أيضًا ملحوقة بفناءٍ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

أما حياة الله عَزَّوَجَلَّ فليستْ مسبوقةً بعدمٍ، ولا يَلحَقها فَناء؛ لأن الله تَعَالَى هو الأول الَّذِي ليس قبله شيءٌ، والآخِر الَّذِي ليس بعدَه شيء.

فحياة الربِّ عَزَّوَجَلَّ كاملة أولًا وآخرًا، كذلك أيضًا حياة كاملة في أوصافها ومعانيها، فهو كامل في سَمْعِه، وفي بصره، وفي عِلمه، وفي قُدرته، وفي قوته، وفي جميعِ الصفاتِ؛ لأنَّه يَلزَم من كمال الحياةِ كمالُ هذهِ الصفاتِ. إذن حياة الله كاملة من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

أوَّلها وآخرها، كاملة من حيثُ الأوصافُ والمعاني، فهو كاملٌ في عِلمه، وفي سَمْعِهِ، وفي بصرهِ، وفي قُدرته، وفي قوته، وفي جميع صفاتِه.

قوله: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القيوم: مِن قام يقوم، وهو القائمُ بنفسِه، فلا يحتاج إلى خلقه، القائم على غيرِه، فكلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إليه.

فمعنى القيوم: القائمُ بنفسه فلا يحتاج إلى أحد، القائم على غيره فيحتاج إليه كل أحد، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] كمن لا يملِك شيئًا؟ أيهما أولى بالعبادة؟ والجواب: القائمُ على كل نفسٍ بما كسبتْ.

إذن القيـومُ لو قلتُ لك: فسِّرها، فلتقلِ: القائم بنفسِه فلا يحـتاج إلى أحدٍ، القائم على غيره، فكلُّ أحدٍ مُحتاج إليه جَلَّوَعَلَا.

قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يعني لا يمكِن أن ينامَ، ولا أن يلحَقه النُّعاسُ. والسِّنة بالكسر: النعاس، أي: لا يُمكِن أن يلحقه نُعاس، ولا يمكن أن يَلحَقه نومٌ؛ لكمالِ حياتِه وكمالِ قيوميَّته، فكلَّما كمُلتِ الحياةُ لم يحتجِ الإنسانُ إلى النومِ، وكلما كملت الحياةُ لم يلحقِ الإنسانَ نعاسٌ، ولهذا كان أهل الجنة لا يَنامون؛ لكمال حياتهم، فكذلك الربُّ عَزَّوَجَلَّ لا ينام؛ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»[1]، يعني لا يمكن أن ينامَ، وهو معنى الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. (سِنة) أي: نُعاس، وهو مُقَدِّمَةُ النومِ، (ولا نوم) وهو معروف.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إن الله لا ينام**»، وفي قوله: «**حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»، رقم (١٧٩).

واعلمْ أن كلمةَ (لا يَنبغي) في القُرآنِ الكريمِ بمعنى الشيء الممتنِع غايةَ الامتناعِ، فـ(لا ينبغي) في كلام الفقهاء غير (لا ينبغي) في القُرآن، فـ(لا ينبغي) في القُرآن تعني لا يُمكِن وممتنِع؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩١-٩٢] يعني محالًا، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»؛ لأَنَّه كامل الحياة، كامل القيومِيَّة. أرأيتم لو نام عَزَّوَجَلَّ، وحاشاه ذلك، فمن يدبِّر الخلق؟ لا أحد، إذن لا يمكِن أن ينام لكمالِ حياتِه، وكمال قيوميتِه.

ولماذا لا تأخذه السِّنَةُ والنومُ؟

الجواب: لكمال حياته وكمال قيوميتِه؛ لأَنَّه لو كان ينام لكان قِيامُه بنفسِه ناقصًا، لكنه لا ينام، ولو كان ينام لكان قيامهُ بغيرِهِ ناقصًا؛ لأن الكونَ موجود، فلو قُدِّر أن مدبِّر الكون يأخذه النومُ فمن يدبِّر الكون؟ لا أحدَ.

إذن لو قال لك قائل: لماذا لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ؟ فإنك تقول: لكمالِ حياتِه وكمال قيوميتِه جَلَّوَعَلَا.

قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إعراب هذه الجملة أن نقولَ: (له) جارٌّ ومجرورٌ خبرٌ مقدَّم، (ما في السَّماوات) مبتدأ مؤخَّر، ففي الجملةِ تقديمُ الخبرِ على المبتدأِ، وتقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يفيد الحصرَ، كما قرَّر ذلك علماءُ البلاغةِ، أي أَنَّه لَهُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وليس لغيرِه، فكلُّ ما في السَّماوات والأرض فهو للهِ، لا أحدَ يُشاركه فيه، ولذلك يدبِّر عَزَّوَجَلَّ الكونَ، ويحكُم بينَ العبادِ، ويحكم في العبادِ.

ولذلك مَنِ اتخذَ قوانينَ مخالفةً للشريعةِ فقد أشركَ باللهِ، حيث جعلَ حاكمًا بين الخلقِ سوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المالِك لها، المدبِّر لما في السَّماواتِ والأرضِ، فلا مدبِّرَ إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا حاكم بين الخلقِ وفي الخلقِ إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

والسَّماوات جمعُ سماءٍ، وعددها سبعٌ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ المراد بالأرض هنا الجنسُ، أي كل ما يُسمَّى أرضًا، والأَرَضُـون سبعٌ، ودليل ذلك قـولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلاق:١٢].

لو قال قائل: (مثلهن) يعني في الصفة، **قلنا:** هذا لا يمكِن؛ لأن السَّماء أعظم من الأرضِ بكثير، فإذا تعذَّرتِ المماثلةُ في الصفةِ تعَيَّنَ أن تكون المماثلةُ في العددِ. إذن ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي في العدد، أي: سبع أَرَضِـين، وصحَّت السنةُ بذلك، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ به يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[1].

يعني من يأخذ شبرًا من الأرضِ ويُدخِله مِلْكَهُ يُطَوَّق بذلك يوم القِيامَةِ من سبعِ أَرَضِينَ، والعياذُ باللهِ، يعني يأتي ذلك طَوقًا في عُنُقه يَحمِله أمام العالمِ كلهم؛ شاهِد ومشهود.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

إذن السَّـماوات سبع، والدَّليل قوله تَعالَـى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلاق:١٢]. وقال تَعالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الإسراء:٤٤]، والأرَضون سبع، والدَّليل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (من): استفهام بمعنـى النفيِ، ويدلُّ على أنَّه بمعنى النفيِ إتيانُ (إلا) بعده: (إلا بإذنِه) ويكون المعنى: لا أحد يشفعُ عند الله إلا بإذنِه؛ لكـمال سُلطانه، وكمال عَظَمَتِه. وأشرفُ البـشرِ عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُحَمَّد رسولُ اللهِ، ومع ذلك لا يَشفَع إلا بإذن الله، فلا يمكن أن يشفع عند الله إلا بإذنِ اللهِ.

والعلةُ في أنَّه ما يشفع إلا بإذنِه هي كمالُ سُلطانه، وكلما قويَ السلطانُ قَويت الهَيبة، ولذلك تجد الملوكَ في الدنيا إذا كان الملكُ قابضًا على الحُكم قَبضًا حقيقيًّا صار له هَيبة عظيمة، فما أحد يتكلَّم في مجلِسه، وإذا لم يكن كذلك قَلَّتِ الهيبةُ.

إذن لكمالِ سلطانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكمال عَظَمَته تَبَارَكَوَتَعَالَى، لا أحد يشفعُ عنده إلا بإذنِه.

وبهذا نعرِف ضلالَ أولئك القومِ الَّذِينَ يَعبُدون الأموات، والقبور، والأولياء، ويقولون: نريد أن يَشفعوا لنا عند الله، نقول: هذا لا يمكِن أبدًا؛ لأن هَؤُلاءِ لا يمكن أن يشفعوا إلا بإذن الله، وهل يمكن أن يأذن الله تَعالَى في الشفاعةِ للمشركينَ؟ أبدًا، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، يعني لو شفعوا ما تنفعهم، ولا يمكن أن يأذنَ اللهُ لأحدٍ أن يشفع لمشرِك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، والله تَعالَى لا يَرتضي المشركَ أبدًا.

فما يفعله هَؤُلاءِ المساكين الَّذِينَ يأتون إلى القبورِ ويقولون: يا سيدي، يا فلانُ، يا وليَّ الله، ثمَّ يدعـونه، هذا شِرك أكبر يا إخـواني، ولا ينفع الإنسانَ معه صِيَام، ولا صلاة، ولا زَكاة، ولا حجٌّ، ولا صدقة.

يقول تَعَالَى للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ على فرض ما لا يُمكِن أن يقعَ ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥] فكيف إذا أشرك غيرُه؟ فإنه يَحبَط العملُ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

إذن هَؤُلاءِ المساكين لا ينفعهم عملٌ، حتَّى لو جاء للبيتِ وحجَّ واعتمَرَ، حتَّى لو أنفقَ الأموالَ العظيمةَ في بناء المساجِدِ، وإصلاح الطرقِ، والإحسان للفقراءِ، لم يَنفَعْه؛ لأن عمله حابِط، قال تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

فإذا جاء إلى صاحب القبر وقال: يا سيِّدي، يا مولايَ، يا وليَّ الله، اشفعْ لي عند الله، فهو ما دعا الميتَ وما قال: اغفِرْ لي، ارحمني، ارزقني، بل قال: اشفعْ لي عند الله، فأقلُّ أحوال هذا أنَّه مبتدِع بدعةً محرَّمةً، وعاصٍ لله، على أن بعض النَّاس يقول: إنَّه مُشرِك باللهِ.

إذن طلبُ الشفاعةِ من الأمواتِ حرامٌ، وليس حلالًا ولا يجوز، ودعاؤهم شِرك أكبرُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣] يعني يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾. والحقيقةُ أن عبادتهم إياهم تُبْعِدهم من الله تَعَالَى دَرَكَاتٍ هاويةً في النارِ، والعياذُ بالله.

فعليكم -أيها الإخوة المسلمون- أن تتنبهوا لمسألةِ الشركِ.

والشركُ خَفِيٌّ، قد يدخل في الإنسان وهو لا يشعُر، فإياكَ إياك، فإذا مَسَّكَ الضرُّ فالجأْ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا احتجتَ لشيءٍ فالجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تتخذْ مِن دونه أولياءَ.

الشفاعة:

والشفاعة: هي التوسُّط للغيرِ لجلبِ منفعة، أو دفع مَضَرَّة. فإذا طلبتَ من شخصٍ أن يتوسطَ لك لتكونَ في وظيفةٍ، وأنت مُستحِق لها فهذه شفاعة نوعها: جَلب نفعٍ وليس دفعَ مضرةٍ، وإذا وجبَ لك على شخصٍ مالٌ، فجاء إنسان إليك وقال: يا فلانُ أَسقِط هذا المالَ عن زيدٍ، فهذه شفاعة نوعها: دَفع مضرةٍ.

إذن الشفاعة: التوسط للغيرِ لجلبِ منفعةٍ أو دفع مضرةٍ.

إن النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ يشفع للخلائقِ إذا أصابهم الكربُ والغمُّ يومَ القِيَامَةِ على وجهٍ لا يُطيقونه، فيشفع إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يقضيَ بين العبادِ ويُريحهم من ذلك الموقف، ونوع هذه الشفاعةِ: دَفع مضرةٍ؛ لأنَّه يشفعُ إلى اللهِ أن يريحَ العبادَ من غمٍّ وهمٍّ هذا الموقفِ؛ لأن النَّاس يوم القِيَامَة -نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الموقنينَ به العاملينَ له- يصيبهم من الغمِّ والكربِ ما لا يُطِيقون، فيَبحثون عن أحدٍ يشفعُ لهم، فيذهبون إلى آدمَ فيَعتذر، وإلى نوحٍ فيعتذر، وإلى إبراهيمَ فيعتذرُ، وإلى موسى فيعتذر، وإلى عِيسَى فلا يَعتذِر بشيءٍ، لكن يُحيل الشفاعةَ إلى مَن هو أَولى بها؛ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فيقول: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ.

فيأتون إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فيشفع لهم[(١)].

وإذا بلغَ أهلُ الجنةِ إلى باب الجنةِ وجدوه مُغلَقًا، فيشفع النبيُّ ﷺ إلى الله في أن يفتحَ باب الجنةِ. اللَّهُمَّ اجعلنا من داخليها! وهذا النوعُ من الشفاعةِ هو: جلب منفعةٍ.

إذن الشفاعة هي التوسطُ للغيرِ لجلبِ منفعةٍ أو دفع مضرةٍ.

شروط الشفاعة:

أقول: حَكَمَ سلطانٌ من سلاطين الدنيا على شخصٍ بالحبسِ، فتقدم أحدُ رجالِ السلطانِ ومُقَرَّبيه إلى السلطانِ ليشفعَ، يقول للسلطان: أرجو أن تعفو عن هذا الَّذي حكمتَ عليه بالحبسِ، فهذا الشافع هل يمكن أن يشفعَ قبل أن يستأذنَ من السلطان؟

الجواب: يمكن أن يشفع قبل أن يستأذنَ، لا سيَّما إذا كان السلطان ضعيفًا، وكلَّما قويَ السلطانُ قَوِيَتْ هَيبتُه في النفوسِ، ولا أحد يَجْرُؤ أن يتكلمَ عنده إلا بعد استئذانٍ.

أما الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ يعني لا أحد يشفع عند الله، ولو كان من أقرب النَّاسِ إلى اللهِ، وأعظمهم جاهًا عند الله، لا يمكن أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله عَزَّوَجَلَّ. ولكن هل الله يأذَن لكل شافعٍ أن يشفعَ، ولكل مشفوعٍ له أن يشفع له؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح:١] ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

نقول: لا، الشفاعة لا بُدَّ فيها من شروط:

الشرط الأول: أن يكون الله تَعَالَى راضيًا عن الشافع.

الشرط الثَّاني: أن يكون الله راضيًا عن المشفوعِ له، أي أن المشفوع له ممَّن يَستحِق أن يشفع له.

الشرط الثَّالث: إذن الله تَعَالَى بالشفاعةِ.

فلا يمكن للعاصي أو للكافرِ أن يشفعَ إلى اللهِ؛ لأنَّه لم يرضَ الله عنه، ولا يمكِن لأحدٍ أن يكون مُقَصِّرًا في حق اللهِ ثمَّ يشفع لغيرِه، ولذلك يَعتذِر آدمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الشفاعة بأنه عَصَى ربَّه؛ أكل من الشجرةِ وقد نهاهُ الله عنها، وإن أبانا آدمَ عصى الله عَزَّوَجَلَّ فأكل من الشجرة الَّتي نُهي عنها ولكنه تاب إلى اللهِ، وبعد أن تاب إلى الله اجتباه ربه، واصطفاه، واختارَه، فتاب عليه وهداه. إذن الذنب الَّذي كان أذنبه من قبل انمحى بالتوبة؛ ولهذا لا يجوز أبدًا لأحدٍ أن يُعَيِّرَ آدمَ بأنه عصى؛ لأننا نقول له: إن هذه المعصيةَ انمحتْ تمامًا بالتوبةِ إلى اللهِ، وأبدله الله تَعَالَى منزلةً أعلى من منزلتهِ الَّتي كان عليها.

ويعتذر نوحٌ بأنه سأل ما ليس له به عِلم، حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، وسأل الله أن ينجيَ ابنه مع أن ابنه كافِر، فقَالَ اللهُ تَعَالَى له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]. ونوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تاب إلى الله، لكن لعلوِّ مَرْتبَتِهما -آدم ونوح- اعتذرا عن الشفاعة من أجلِ المعصيةِ الَّتي تابا منها.

وإبراهيم يَعتذِر بأنه كذبَ ثلاثَ كَذَبَاتٍ، ولكنها ليستْ كذِبًا في الواقع، وإنما هي تَوْرِيَة، لكن لعلوِّ منزلتِهِ هاب أن يشفعَ مع كونِه ورَّى في حديثِه. وموسى يَعتذِر أيضًا بأنه قتل نفسًا بغير حق، وهو القِبطيُّ الَّذِي اعتدى على الإسرائيليِّ، ولكنه تاب إلى الله وتاب اللهُ عليه، إلا أنَّه لعلوِّ منزلتِهِ رأى أن هذا يَحُـولُ بينه وبين أن يكونَ شافعًا إلى الله.

المهم أنَّه لا يشفعُ إلى اللهِ إلا مَنِ ارتضى الله تَعَالَى، وأما من لم يرضَ اللهُ عنه فإنه لا يمكن أن يشفعَ.

والشرطُ الثَّاني: رضا الله عن المشفوعِ له، بمعنى أنْ يكونَ المشفوعُ له من أهلِ الشفاعةِ، أي: ممَّن يَستحِقُّ أن يشفعَ له، مثل المؤمن العاصي، فالمؤمن العاصي أهلٌ لأن يشفعَ له، ولذلك تكون الشفاعة للعُصاةِ من المؤمنين ألا يدخلوا النار، أو أن يُخرجوا من النار، أما الكافر فلا يمكن أن يُشفع له؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، يعني لو شفع لهم ما نفعتهم؛ لأن الله لم يَرْتَضِهِ، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فالكافر إذن لا تنفعُ الشفاعة له، ولا يَحِل لأحدٍ أن يشفعَ له، ولذلك لو مات رجلٌ لا يُصَلِّي أبدًا فلا يجوز لنا أن ندعوَ الله له بالرحمةِ، ويحرُم علينا أن نقول: «اللهمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ ارحمْـه»؛ لأنَّه ليس أهلًا لذلك؛ إذ إن الكافـرَ لا يُدعى له بالمغفرةِ ولا الرحمةِ؛ لقول الله تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

وهذه مسألةٌ خطـيرةٌ جِدًّا؛ لأن بعـض النَّاس يموت قـريبه، وهو يعلم أنَّه

لا يصلي في المسجد ولا في بيته، فيدعو له بالمغفرة، وهذا حرام عليه؛ لأنَّه كافر، والكافر لا يُدعى له بالمغفرة، ومن دعا له بالمغفرةِ فقد باء بالإثم.

وإذا قال قائل: يَنتقِض عليكم هذا بشفاعةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لعمه أبي طالبٍ.

قلنا: أبو طالب عمُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الشقيق، وكان له مَواقِفُ دِفاعيَّة عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فدافَعَ عنه وناصَرَهُ وحاطَهُ[1]، وقال في مَدْحِهِ القصائدَ العظيمة، من ذلك قوله[2]:

لقد علِمـوا أنَّ ابنَنـا لا مُكَـذَّبٌ ... لَدَيْنَا ولا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الأباطِـلِ

(لقد علموا) يعني قريشًا.

ومنها قوله[3]:

وَلَقَـدْ عَلِمْـت بِـأَنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ ... مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ البَرِيَّـةِ دِينَـا

لَـوْلَا المَلَامَـة أَوْ حِـذَار مَسَـبَّةٍ ... لَوَجَـدْتَنِي سَـمْحًا بِـذَاكَ مُبِينَـا

يعني حمى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حمايةً عظيمةً، ولكنه -والعياذ بالله- مات على الكُفر؛ لأنَّه لما حضرتْه الوفاةُ كان عنده النبي ﷺ ورجلانِ من قريشٍ، فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعرِض عليه الإسلام، يقول: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ**

---

(١) أي: صانه ودافع عنه.

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

بِهَا عِنْدَ اللهِ». فيقول له الرجلانِ المشرِكان: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ وملةُ عبد المطلبِ الشركُ، فكان آخر ما قال: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[1]؛ لأن الله تَعَالَى قد قضَى بحكمتِه أن يموتَ هذا الرجل مع نُصرته للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحمايته له؛ أن يموتَ على الكفرِ؛ لنعلمَ أن الله على كل شيء قدير.

واستأذن النبي ﷺ ربه أن يشفعَ له، فكان في ضَحضَاحٍ مِن نارٍ وعليه نَعلانِ يَغلي منهما دِماغُهُ[2]، والعياذ باللهِ، فمن شِدَّة حرارتها الدماغُ يغلي، وإذا كان الدماغُ يغلي فما دونه من باب أولى؛ لأن الدماغَ أبعدُ شيءٍ عن القدمينِ، فإذا كان يغلي فغيره أشد.

فهذا يقال: الشفاعةُ نفعته من وجهٍ، ولم تنفعْه من وجه آخَرَ.

فالوجه الَّذِي نفعته هو التخفيف؛ لأَنَّه أحسن إلى النبي ﷺ إحسانًا عظيمًا، والإحسان إلى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إحسان إلى الإسلامِ، وإلى دينِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ولم تنفعْه من وجهٍ آخرَ، وهو إخراجهُ من النارِ؛ لأَنَّه لم يزل في نار جَهَنَّم والعياذ باللهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤)

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩).

إذن ذكرنا أن الشفاعة: التوسُّط للغير بجلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرةٍ، ولها شروط ثلاثة:

الأول: رضا الله عن الشافِعِ.

الثَّاني: رضاه عن المشفوعِ له.

الثَّالث: إذن اللهِ تَعَالَى بالشفاعة.

ولا تنفَع الشفاعةُ عندَ اللهِ إلا بإذنِه؛ لكمالِ سُلطانِه وعظمتِه؛ لأنَّه كاملُ السُّلطانِ، فلا أحدَ يتكلَّم ولو بالخيرِ للغيرِ إلا بإذن اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لكمالِ سُلطانِه وعظمتِه جَلَّوَعَلَا.

ثمَّ قال تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ والذي بين أيدينا هو المستقبَل، فكلُّ شيءٍ بين يديك معناه أنَّك خلفَه، فيكون المستقبَلَ، فيَعلَمُ اللهُ تَعَالَى المستقبلَ وإن لم يكنْ، ويعلمُ متى يكونُ، وكيف يكونُ، وما عاقبتُه.

والماضي أيضًا يعلمه، وهو ما خلفناه وراء ظهورنا، يعلم الماضيَ فلا ينساه، ويعلم المستقبَلَ فلا يخفى عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولهذا قال موسى عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢] لا يضل يعني: لا يجهل، ولا ينسى أي: لا يغيب عنه ما كان عالمًا به.

قوله تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ يعني أن الخلق كلهم لا يحيطون بشيء من علمِ الله إلا بما شاء، وقوله: ﴿مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ يحتمل معنيينِ:

المعنى الأول: أن يكون العلمُ بمعنى المعلومِ، أي لا يحيطون بشيء مِمَّا يعلمه الله إلا بما شاء.

والثَّاني: أن يكون العلمُ علمَ ذاتِ الله تَعَالَى وصفاتِه، أي أن النَّاس لا يحيطون بشيءٍ من علم ذات الله تَعَالَى، وعلم صفاته، إلا بما شاء.

والأول أعمُّ؛ لأنَّه يشمل ما يعلمه الله تَعَالَى من نفسه وصفاتِه، وما يعلمه من خلقه، فالخلق كلهم لا يحيطون بشيءٍ من علمِ اللهِ -أي: مِمَّا يعلمه الله- إلا بما شاء، وهذا يعني أننا لا نسأل العلمَ إلا من اللهِ، فينبغي لنا ألا نسألَ العلمَ إلا من المعلِّم عَزَّوَجَلَّ وهو الله تَبَارَكَوَتَعَالَى.

قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يعني أحاط بالسَّماوات والأرضِ كرسيُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فما هو هذا الكرسي؟

جاء عن ابن عباسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا أنَّه مَوْضِعُ قَدَمَي اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى[1].

وهذا الكرسيُّ وَسِعَ السَّماواتِ والأرضَ كلها، وقد جاء في الحديثِ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**»، والمراد بالحلقة حَلْقة المِغْفَرِ، وهي حلْقة ضَيِّقة. والفلاة: الأرضُ الواسعةُ، فما نسبة هذه الحلقةِ إلى هذه الفلاةِ؟ لا شيءَ، إذنِ السَّماوات السبعُ والأرَضُون السبعُ بالنسبة للكُرسي لا شيءَ، قال: «**وَفَضْلُ العَرْشِ**» وهو الَّذِي استوى عليه الرحمنُ جَلَّوَعَلَا «**عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ**

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠، رقم ٣١١٦).

الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ»[1]. إذن الكرسي بالنسبة للعرشِ ليس بشيءٍ، هذا وهو من مخلوقاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكيف بالخالق الأعظم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

إنه لا يمكن لأحدٍ أن يحيط باللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] يعني أن الأبصار ترى الله عَزَّوَجَلَّ لكنها لا تدركه؛ لأَنَّه أعظمُ من أن تحيط به الأبصارُ.

إذن الكرسي هو مَوضِع قدمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ونسبة السَّماوات والأرض إليه كحلقةٍ أُلقيتْ في فَلَاةٍ من الأرض، ونسبة الكرسي إلى العرشِ كحلقة في فلاةٍ.

قوله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يُثقِله حِفظ السَّماوات والأرض، فهو الحافظ لهما عَزَّوَجَلَّ علمًا وقدرةً وسلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

العلو:

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ (هو) الضميرُ يعود على الله عَزَّوَجَلَّ. و(العلي) صفة مُشَبَّهة مأخوذةٌ من العُلُوِّ، والصفةُ المشبَّهة يقولُ علماءُ النحوِ، وعلماءُ البلاغةِ: إنَّها صفة ثابتةٌ دائمةٌ.

وعلوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ينقسِم إلى قسمينِ:

علو ذات وعلو صفات، أما علو الذاتِ فمعناه أن الله نَفسَه فوق كل شيءٍ، عالٍ على جميع مخلوقاتِه جَلَّوَعَلَا، وأما علو الصفاتِ فمعناه أن جميع صفات الله عَزَّوَجَلَّ عُليَا، فكل صفةٍ من صفاته عليا ليس فيها دُنُوٌّ ولا نقص بوجهٍ من الوجوه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١).

إذن فالعلو ينقسمُ إلى قسمينِ: الأول علو الذاتِ، يعني أن الله نفسَه فوق كل شيءٍ، والثَّاني علو صفاتٍ، يعني أن الله تَعَالَى كامل الصفاتِ، فكل صفاتِهِ على أعلى ما يكونُ.

فلنعدْ إلى الأولِ، وهو علوُّ الذاتِ؛ أي أن الله تَعَالَى فـوق كل شيءٍ، وهذا المعنى دلَّ عليه القُرآنُ، والسُّنة، وإجماع السلَف، والعقل، والفِطرة، خمسة أنواع من الأدلة، يعني ليست خمسةَ أفرادٍ، فخمسة أنواعٍ من الأدلة دلَّت على علوِّ الله تَعَالَى الذاتيِّ، أي أنَّه جَلَّوَعَلَا فوق كل شيء:

الكتاب:

والكتاب دلالته على علوِّ اللهِ الذاتيِّ متنوِّعة، فتَارَةً بلفظِ العلوِّ، وتارةً بلفظِ الفوقيَّة، وتارةً بلفـظِ نزولِ الأشياءِ من عنده، وتارة بلفـظِ صعودِ الأشياءِ إليه، وأنواعها كثيرة، مثالُ ذلك بلفظِ العلوِّ قوله تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى:١]، يعني الَّذِي فوق كل شيء. وهذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

ومثاله بلفظ الفوقيةِ قوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠].

ومثاله بلفـظِ نزولِ الأشياءِ منه قـوله تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر:٢].

ومثاله بلفـظِ صعودِ الأشياءِ إليه قـوله تَعَالَى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وقـوله تَعَالَى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤]. والأمثلة على هذا كثيرة.

السنَّة:

أمَّا السُّنَّة فثبَتَ عن النبيِّ ﷺ العلوُّ الذاتيُّ لِربِّنا جلَّوَعَلَا بقولِهِ وفعلِهِ وإقرارِهِ؛ فكل أنواع السنَّة جاءت بإثباتِ علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: قول، وفعل، وإقرار:

أما القول فالنبي ﷺ يقول في سُجُوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[(١)].

وأما الفعلُ فإن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أثبت ذلك في أكبر مُجتَمَع اجتمعَه الصَّحَابَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وفي أفضل يومٍ، وذلك يوم عَرَفَةَ، حينما خطبَ النَّاس صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ خطبةً عظيمةً بليغةً، وقال للناس: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**». قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. والذي قال هذا هم الصَّحَابَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ونحن نقول بقولهم، نشهد أن رسولنا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قد بلغ ونصحَ وأدَّى. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(٢)].

فأي إنسانٍ عاقلٍ يشهد أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حين يفعل ذلك ويَجزِم جزمًا ويتيقَّن يقينًا أنَّه يشير إلى الله عَزَّوَجَلَّ في العلو.

فهذه شهادة من النبي ﷺ بالفعل؛ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوق.

أما الإقرار ففي الحـديث: قال معاويةُ بنُ الحَكَمِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

غنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**». فَأَتَيْتُهُ بِهَا -وهي جارية أَمَة مملوكة لم تَتَعلَّم- فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ -ما قالت: في الأرض، ولا عن يمين، ولا عن شمال- قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1].

فهذا نُسميه سُنة إقـراريَّة، فثبت علوُّ الله عَزَّوَجَلَّ العلو الذاتي بالقـولِ والفعلِ والإقرارِ.

الإجماع:

أما الإجماع: فأجمع الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأئمة الهدى من بعدهم، على علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الذاتيِّ. وعلِمنا هذا الإجماع من أن هَؤُلاءِ القوم يقرءون القُرآن ويقرءون السنةَ، ولم يأتِ عن واحـد منهم حرفٌ يدل على أن الله ليسَ في السَّماء، فكـونهم يقرءون القُرآن، ويعرفون معناهُ، ويقرءون السنةَ ويعرفون معناها، وكلاهما يدلُّ على علو اللهِ الذاتيِّ، ولم يأتِ عن الصَّحَابَة ما ينافي ذلك، فإن هذا يدلُّ على إجماعهم على مدلولِ هذه النصوصِ.

وهذه طريقة يُعرَفُ بها الإجمـاعُ قَلَّ مَن يَتَفَطَّن لها، وهي أنَّه إذا دلَّ الكتابُ والسنَّةُ على معنًى من المعاني، ولم يَرِدْ عن الصَّحَابَة ما يُنافيه، فهو إجماع، فخُذْ هذه القاعدةَ تَنْفَعْكَ، وتضرب بها وجوهَ المبتدِعة، وتُصِمّ بها آذانَهم.

إذن لدينا الكتاب، والسنَّة، والإجماع.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

العقل:

أما العقل فسَلْ أيَّ إنسانٍ: أيهما أكملُ؛ أن يكون الموصوف عاليًا، أو أن يكون نازلًا سافلًا؟ فعقلًا أن يكون عاليًا؛ لأن العلو فيه معنَى السُّلطة والكمال، ولهذا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦-١٧] فقال: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ليدلَّ على كمال سُلطته جَلَّوَعَلَا. ولهذا إذا جاء الأمرُ من فوق فإن الإنسان لا يستطيع أن يستترَ منه.

إذن نقول: إن العقل دلَّ على علوِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

واعلمْ أنَّه إذا قيل: العقلُ فالمرادُ به العقلُ الصريحُ، يعني السالمَ من الشبهاتِ، ومن الشهواتِ، أما عقل مَنِ اشتبهَ عليه الأمرُ فهذا لا عقلَ له، وأما عقلُ من يريد الباطلَ فهذا لا عقل له؛ لأن من يريد الباطلَ فإنه يُكابِر، كما قال ذلك من قاله من النَّاس: إن الله ليس عاليًا بذاته، وإنه معنا في كل مكانٍ. نسأل الله العافيةَ، فهذه كلمةٌ منكرةٌ، وهذا منكرٌ من القول وزُور؛ أن الله معنا في كل مكانٍ، ألا يستحي هذا القائلُ من ربه عَزَّوَجَلَّ ثمَّ من خلقه أن يكون الله تَعَالَى معه في كل مكان، إن الإنسان يكون في المرحاض، ويكون في المسجدِ، ويكون في السوق، ويكون في البيتِ، فهل يُمكِن لإنسانٍ يؤمنُ باللهِ وعظمةِ اللهِ وسلطان اللهِ أن يقول: إن الله معه في المِرحاض؟!

لا واللهِ، فالإنسان إذا أرادَ أن يخاطبَ زميلَه، ويتكلم عن كلمةِ (مرحاض) فإنه يقولُ له: (تكرم) قبل أن يقولَ كلمة (مِرحاض)، فكيف يَليق بعاقلٍ، فضلًا عن مؤمنٍ، أن يجعلَ ربَّ الأرضِ والسَّماوات الَّذِي هو فوق كل شيءٍ في المرحاضِ معه

والعياذ باللهِ، وهو جالِس يَبول أو يَتَغَـوَّط! نسأل الله العافيةَ! فهذه قلـوبٌ زائغةٌ لا تقدِّر الله حقَّ قَدْرِه.

الفِطرة:

أما الفطرة فكل إنسانٍ مَفطور على أن الله فوقَ كل شيءٍ، فبمجرَّد أن يقول إنسان: (يا ربِّ) فإنه يَنصرِف قلبُه إلى الله عَزَّوَجَلَّ. ولما صار أحد المُبْتَدِعَةُ يُقرِّر أن الله ليسَ في السَّماء، وينكِر استواءَ اللهِ على العرشِ، قال بعض الحاضرينَ: يا أُستاذُ، دعنا من ذِكـر العرشِ -لأن استواء الله على العرش ثابتٌ بالسمعِ، يعنـي لولا أن الله أخبرنا أنَّه مستوٍ على العرش ما علِمنا هذا- ولكن أخبِرنا عن هذه الضرورةِ الَّتي نَجِدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارفٌ قَطُّ: يا اللهُ، إلا وَجَدَ من قلبِهِ ضرورةً تَطْلُبُ العلوَّ، لا تَلتفِت يَمْنَةً ولا يَسرةً، فكيـف نَدفَع هذه الضرورةَ عن قلوبنا؟ فجعل يَضرِب على رأسِه ويقول: حَيَّرَنِي حيَّرني[1]. لأَنَّه عَجَزَ أن يردَّ على هذا.

إذن علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذاتيُّ دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ والإجمـاعُ والعقلُ والفطرةُ. وخاب مَنِ افترى، خاب من افترى، خاب من افترى، فزعمَ أن الله معنا في كل مكانٍ، فعلى من قال هذا أن يتـوبَ إلى اللهِ قبلَ أنْ يموتَ على هذهِ العقيدةِ الفاسدةِ، الَّتي لـم يقدر اللهَ فيها حقَّ قَدْرِهِ، قبل أن يُلاقِيَ ربَّه وهو يقول: إن الله في السـوقِ، وفي المِرحاض، وفي المسجدِ، وفي السطحِ، وفي القَبـو، وفي الغُرفة، وفي الحُجرة، بل أدَّى ذلك إلى أن قال: إن الله في بطنِ الكِلاب والعياذُ باللهِ! نسأل اللهَ العافيةَ.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤)، ومختصر العلو للذهبي (ص:٢٧٦).

يا إخواني، يا مسلمونَ، هل يمكن لإنسانٍ أن يتكلمَ أو يَتَفَوَّهَ بهذا، فضلًا عن أن يَعتقِدَه! ولولا أنَّه قد قيلَ ما كان يَنبغي لنا أن نقولَه، لكنه قد قيلَ، فلو سألتَ بعض العامـةِ عند هَؤُلاءِ العلماءِ الضالينَ: أين اللهُ؟ لقال: في كـل مكانٍ، والعاميُّ لا يَدري، لكن يقول له هذا المبتدِع الضالُّ: إن الله في كل مكانٍ، فيقول: إن الله في كل مكان.

ولو قال قائل: ما شُبهة هَؤُلاءِ الضالينَ الَّذِينَ يقولون: إن الله في كل مكان؟

قلنا: شُبهتُهم قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وقوله تَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧].

وقول اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨].

فنقول: الحمد للهِ، صدقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

فهؤلاء من هذا الصنفِ، الَّذِينَ يتبعون متشابهَ القُرآنِ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ، وهؤلاء قد زاغتْ قلوبهم والعياذ باللهِ؛ لأنهم اتبعوا المتشابهَ وتركوا المُحْكَم.

فهل المعيَّة تَقتضي أن يكون من معَك مصاحبًا لك في المكانِ؟

نقول: إن اقتضتْه في مَوضع لم تقتضِه في موضِعٍ، يعني أنَّها لا تَستلزِم أن يكون

الَّذِي معك مخالطًا لك في المكان أبدًا، هي وإن اقتضتْه في بعض الأحيان لكن ليس بلازمٍ، فالعرب العُرَبَاء يقولون: «ما زلنا نسير في البَرِّيَّةِ والقمر مَعَنا». والقمرُ مكانه في السَّماء. فالعربية الفصيحة تقول: «ما زلنا نسير والقمر معنا»، فلا يلزم من قولنا: القمر معنا أن يكون القمرُ في الأرضِ، فإذا كان هذا لا يَلزَم في كوكبٍ من أصغر الكواكبِ، فكيف يَلزَم بالنسبة لربِّ العالمينَ الَّذِي وَسِعَ كرسيُّه السَّماواتِ والأرضَ.

ويقول العرب: «زوجةُ فلانٍ معه» وهو في أقصى الصينِ، وهي في أقصى المغربِ، ويقولون نطقًا صحيحًا عربيًّا: زوجة فلان معه، فلا يَلزَم من هذا أن تكون معه في المكان، لكنها مُطلَق مُصَاحَبة.

ويقول القائد للجيشِ: «اذهبوا إلى المعركةِ في الجهةِ الفلانيةِ وأنا مَعَكُم» وهو جالس في غُرفة القيادةِ، فالمَعِية إذن ما اقتضتِ المصاحَبةَ في المكان.

والأمثلة على هذا كثيرة، فهؤلاء اتَّبعوا المتشابهَ وتركوا المحكَم، تركوا الأدلةَ اليقينيَّة القطعيَّة على أن الله تَعَالَى فوق كل شيء، وأخذوا بهذا المتشابه؛ مع أن هذا المتشابه -واللهِ- ليس بمتشابهٍ على الراسخينَ في العلم، بل يعلمون أن المعيةَ أوسعُ مِمَّا قال هؤلاء، وأنها تُطلَق على مُطلق المصاحبةِ، سواء كانت مصاحبةً في المكانِ، أو في الرأيِ، أو ما أشبه ذلك.

والصبيانُ في أسواقهم يحصل بينهم تقاطعٌ وتهاجرٌ، فيجيء صبيٌّ لآخرَ ويقول له: «أنت معي أم مع فلان؟» وهذا كان موجودًا وأنا صغير، فيقول الآخر: «أنا معك»، وكل منهما يذهب لأهلِه، ومع ذلك يكون معه.

فالمعيَّة أوسعُ دائرةً مِمَّا يظنُّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ في قلوبهم زَيغ، وأسأل الله أن يَهْدِيَهُمْ، وأنا لا أقول: أدام الله زَيْغَهم، ولا أقول: شَدَّدَ اللهُ عليهم الزيغَ، لكنني أسأل الله تَعَالَى أن يَهديَهم حتَّى يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الاعتقاد الباطلِ الَّذِي دلَّ على بُطلانِهِ كتابُ الله، وسنة رسول الله، وإجماع صحابة رسول الله، والأئمَّة مِن بعدهم، والعقل، والفطرة.

وأدعوهم من هذا المكانِ إلى أن يتوبوا إلى الله، وأن يؤمنوا بأن الله تَعَالَى فوق كل شيءٍ بذاتِه؛ لكنه محيط بكل شيءٍ عِلمًا. وأنا أعرِف أن كثيرًا من المسلمينَ، ولا أقول: أكثرهم، بل كثير منهم يَعتقدون هذا الاعتقادَ بسبب علماءِ الضلالِ عندهم، الَّذِينَ يلقنونهم أن الله تَعَالَى نفسَه في كل مكانٍ، وسُبْحَانَ الله العظيم! إذا كان الله مع الإنسانِ في غُرفته، ومع الساجدِ في مسجدِه، فبهذا يكون الله اثنينِ، وإذا كان الثَّالث يقودُ سيارتَه.. وهلمَّ جرًّا، ويكون آلهة لا تُحصَى، أو يكون مُتَجَزِّئًا؛ بعضه هنا وبعضه هنا، وكل هذا باطِل، ولا يقول به مسلمٌ، بل لا يقول به عاقلٌ، فضلًا عن مسلم.

وإذا كان النَّصَارَى كفروا بقولهم: إن الله ثالثُ ثلاثةٍ، فكيف بمن يقول: إن الله نفسه في كل الأمكنةِ مع كل واحدٍ، فوالله يا إخواني هذه مُصيبة عظيمة، أسأل الله تَعَالَى أن يهديَ هَؤُلاءِ إلى الحق حتَّى يتوبوا إلى الله، وحتى يلاقوا ربَّهم وهم يُعظِّمونه حق عَظَمَتِهِ، ويؤمنون بما جاء في كتابه، وسُنة رسوله ﷺ.

إنني أُحَمِّل مَن سَمِعَ كلامي هذا أمانةً أن يَبُثَّهُ في مُجْتَمَعِه إذا كانوا يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، وأن يُنْقِذَ إخوانَه من هذا الضلالِ العظيمِ، وأُبَشِّره أنَّ النَّبيَّ

صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لما بعَث عليَّ بنَ أبي طالبٍ إلى خَيبرَ قال له: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»(١).

وقوله: «حُمْر» بسكون الميمِ وليس بضمها؛ لأن (حُمُرًا) بضمِّ الميمِ: جمع حِمار، وبسكونها (حُمْر) جمع حمراء، كخُضْر جمع خَضراء. وبعض النَّاس يَغلَط في هذا فيقول: خير لك من حُمُر النعمِ. نقول: ما شاء الله! الإبل صار لها حَمير! إذن يجب أن نُسَكِّنَ الميمَ فنقول: خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم؛ لتكون جمعَ حَمراء. والنعم هي الإبلُ، وكان العرب يضربون المثل بها في نَفاسة الأموالِ، يعني المال النفيس هو الإبل الحمراء.

فأَخرِجُوهم من الظلمات إلى النور، وأنقذوهم من هذا الضلال العظيم، فإذا هدى الله على أيديكم أحدًا فهو خيرٌ لكم من حُمْرِ النعَم، والدالُّ على الخير كفاعل الخير.

العُلُوُّ في الصفاتِ:

أمَّا العلوُّ في الصفاتِ فهذا قد أجمعتْ عليه الأُمَّة الإسلاميَّة، فكلُّ الأمةِ الإسلاميةِ تَعتقِد أن الله تَعَالَى عالٍ بصفاتِه، ولكنِ اختلفوا فيما يكونُ العُلُو، فمنهم مَن قال: كل مَن أثبتَ للهِ صفةً فقد نفَى عنه العلوَّ؛ العُلُوَّ المعنويَّ أو الوصفيَّ، حتَّى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ النَّاس إلى الإسلام والنبوة.. رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحَابَة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٦).

إنَّهم قالوا: مَن أثبتَ لله ما أثبتَه لنفسِه منَ (الوجهِ) فقدْ تَنَقَّصَ اللهَ، أعوذ بالله! يقول: إذا أثبتَّ لله وجهًا فقد تنقَّصتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ومَثَّلْتَهُ بخَلْقِه، وعليك أن تُنكِرَ الوجهَ، وتُحوِّل معناه إلى معنًى آخَرَ.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فجَرِّدْ نفسَكَ من كل قولٍ فإنك سَتَفهم أن اللهَ له وجهٌ، فإذا جردتَ نفسك من كل قولٍ تجد أن الفهمَ يجُرُّكَ جرًّا إلى أن الله له وجهٌ، وهذا واجبٌ أن نُثبِت للهِ ما أثبتَه لنفسِه، فهؤلاء يقولونَ: ما يمكِن أن تُثبِت لله وجهًا؛ لأنك إذا أثبتَّ لله وجهًا فقدْ تنقَّصْتَ اللهَ حيثُ شَبَّهْتَه بالآدميِّ.

فنقول: وهل يَلزَم من إثباتِ الوجهِ لله أن يكونَ مُماثِلًا لأوجهِ المخلوقينَ؟

الجواب: لا واللهِ لا يَلزَم، قال تَعَالَى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فآمِنْ بأن للهِ وجهًا حقيقةً، واقرأْ قولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فآمِنْ واعلمْ بأن هذا الوجهَ لا يُماثِل أوجهَ المخلوقينَ؛ لِقولِه تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، أما أن أُنكِر ما أثبته اللهُ لنفسِه، وأدَّعي أن إثباته يَستلزِم التمثيلَ، فهذا خطأ، فأنا أُومِن بأن للهِ وجهًا حقيقيًّا. وأنا لا أدَّعي هذا من عندي، ولكن بقولِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وكلمة (ذو) جاءتْ مرفوعةً لأنها صفة للوجه، فالوجهُ موصوفٌ بذي الجلالِ والإكرامِ، ولا يمكن أن يدورَ في خَلَدي -أي في قلبي وفَهمي- أن هذا الوجهَ مُماثِل للمخلوقين، لا يمكِن أبدًا؛ لأننا نعلم بالعقلِ أنَّه لا يمكِن أن يَتماثل الخالِق والمخلوق، ولو تماثَلَ

الخالقُ والمخلوقُ لَلَزِمَ أن يكون الكونُ كلُّه إما خالقًا وإما مخلوقًا، وهذا مُمتَنِع. أيضًا لديَّ آيةٌ من القُرآنِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ثم نقول قاعدة مُفيدة لكم جميعًا أيها الإخوة: لا يَلزَم مِن الِاشتراكِ في الاسمِ أو الصفةِ تَماثُل المُسَمَّى والموصوف. فهذه قاعدةٌ عقليَّة مُتَّفَقٌ عليها.

ويظهر ذلك بالمثالِ: نحن نعلمُ أن الفيلَ له قوَّة عظيمة، ونعلم أن البَعوضة لها قوة، فلا يَلزَم مِنِ اشتراكهما في القوةِ أن تَتماثَل القوتانِ، مع أن كُلًّا مِنهما له قوةٌ. وأيضًا نعلم أن الفيلَ والبعوضة يَشترِكان في الجِسميَّة، فكلٌّ منهما جِسم، ولا يَلزَم مِنِ اشتراكهما في الجسميةِ أن يكونَ الجسمُ واحدًا، فمعلوم أن الفيلَ أكبر آلاف المراتِ.

فإذن خُذها قاعدةً: لا يَلزَم من الاشتراكِ في الاسمِ والصفةِ أن يتماثَل المسمَّى والموصوف، فإذا كان اللهُ له وجهٌ، والإنسان له وجه، فلا يَلزَم من اشتراكهما في هذا أن يتماثَل الوجهانِ.

إذن أُثبِت الوجهَ للهِ وأقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: صِفْ لنا وجهَ اللهِ؟

قلنا: هذا السؤالُ حرامٌ، وبِدعة ومُنكَر؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ تلا على أصحابِه هذه الآيةَ فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] ولم يقلْ منهم أحد: صِف لنا وجهَ الله.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الَّذِي أدراكَ؟

قلنا: لم يُنْقَلْ. فلم يَقُل واحد من الصَّحَابَة: يا رسول الله، صِف لنا وجه الله أبدًا، مع أنَّه لو وُجِّه إليه هذا السؤالُ لَكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جديرًا بأن يُوَجَّهَ إليه مِثْلُ هذا السؤالِ؛ لأنَّه يَعلَم من صِفات اللهِ ما لا نَعلم؛ لكن مع ذلك ما وَجَّهُوهُ تَأَدُّبًا مع اللهِ ورسولِه، وهم يعلمون أنَّه لا يمكِن لأحدٍ أن يحيطَ باللهِ علمًا، فما سألوهُ.

فقل لي أيُّها السائِلُ المتنطِّع: أأنتَ أشدُّ تعظيمًا للهِ من صحابةِ رسولِ اللهِ؟ لا.

أأنتَ أشدُّ حُبًّا لمعرفةِ صفاتِ اللهِ من أصحابِ رسولِ اللهِ؟ لا.

إذن أنت الآنَ مُتَنَطِّعٌ، وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»(١).

ونقول: هذا حرامٌ، فلا تقلْ: صِف لي وجهَ اللهِ؛ لأنَّه لا يمكِن إدراكه أبدًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولا يمكن أن يُدْرِكَ أحدٌ كيفيَّة صفات اللهِ. ونقول: إن الله تَعَالَى قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، يعني: لا تقل بما لا تعلَم، ولا تسأل عما لا يُمكِن الإحاطةُ به، فهذا من العدوانِ في السؤالِ.

واستمِعْ إلى قصةٍ جاءتْ عن أحدِ الأئمَّة الأربعةِ رضوان الله عليهم، مالِك بن أَنَس إمام دار الهِجرة، وصاحب (المُوَطَّأ)، وهو الإمام المشهورُ المعروفُ، كان في مجْلِسِهِ فقال رجل: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

وهو سأل الآنَ عن الكيفيةِ وليس عن المعنَى، يعني كيف الاستواء على العرشِ، فأطرقَ مالِكٌ برأسه حتَّى جَعَلَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا من شِدَّة تعظيمِه لله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورزَقنا ما رَزَقَه من تعظيم الله ومحبَّته، فجعل يتصبب عرقًا لأن هذا سؤال عظيم، ثمَّ رفع رأسَه وقال له: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أُرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا». ثمَّ قال: أَخْرِجُوهُ مِنَ المَسْجِدِ[1]. الله أكبرُ! انظر هذه الشدة في ذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: أخرجوه من مسجدِ النبيِّ ﷺ.

قوله: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» يعني ما أحد يجهل معنى الاستواءِ، فمعناه معلوم، فمعنى استوى على العرشِ أي: علا عليه علوًّا يليقُ بجلالِهِ من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهذا ما حاجة إلى أن نسألَ عنه، فالاستواءُ يعني العلوَّ على العرشِ.

قوله: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» يعني لا يُمكِن أن نُدرِكَه بعقولنا؛ لأن عقولنا أقصرُ وأنقصُ من أن تُدرِكَ كيفية صفات اللهِ.

قوله: «والإيمانُ به واجِبٌ» أي الإيمان بالاستواء واجبٌ؛ لِوُرُود النصِّ به، فقد ذكَر الله استواءَه على العرشِ في سبعةِ مواضعَ من القُرآن، ومنها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فلذلك وجبَ الإيمانُ بأن الله استوى على عرشِهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: «والسؤالُ عنه بِدعَة» لأن الصَّحَابَة، وهم أشدُّ منَّا حِرصًا على معرفةِ اللهِ بأسمائِه وصفاتِه، ويواجهون مَن هو أعلمُ الخلقِ باللهِ، لم يسألوا عن كيفيَّة الاستواء، فمَن سأل عن كيفية الاستواءِ فهو مُبْتَدِعٌ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥).

ثم قال: «وما أُراكَ إلا مُبتدِعًا» أي ما أظنُّك إلا مبتدعًا. وصدق حَدْسُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم أمر به فأُخرج لأنَّه مبتدع ضالٌّ يُضِلُّ النَّاس، ويُورِد عليهم التشكيكاتِ. وحَقُّ هذا أن يُطرَدَ من جلسات العلمِ، ومن أماكن جلساتِ العلمِ.

وفي الوجه لو قال إنسان: كيف وجهُ اللهِ؟ فإننا نجيبه بما أجابَه به مالِك مَن سأله عن الاستواءِ، فنقول: الوجهُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ مَعقولٍ، والإيمان به واجب، والسؤالُ عنه بِدعة. فهذا الميزانُ الَّذِي ذكرهُ الإمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ ميزانٌ لجميع الصفاتِ، فجميع صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ معلومة المعنَى، ولولا أنَّها معلومة المعنى ما حَدَّثَنَا الله بها، ولا حدثنا بها رسولُه، أما الكيفيَّة فمجهولة، ولا يمكن الوصول إليها؛ لأن العقولَ أعجزُ وأقصرُ من أن تُدرِكَ كيفيَّة صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ردٌّ على إشكال:

قد أشكلَ على بعضِ الإخوةِ قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وقال: لو أَخَذْنا بظاهرِ الآيةِ لَكانَ اللهُ تَعَالَى تُحيط به السَّماء، كما أقول: فلان في الحجرةِ، فالحجرة تحيط به، لكن هذا الفهم فهمٌ قاصر من جهة اللغةِ، فَهْمُ مَن لم يُعظِّم اللهَ حقَّ تعظيمهِ من جهة العقيدةِ، فهمُ مَن يريد أن يُبطِل النصوصَ القطعيَّة بعلوِّ اللهِ الذاتيِّ.

والغالبُ إذا خاطبكَ عامِّيٌّ بهذا؛ يعني أورد عليك هذا الإشكال، الغالب أنَّه صادرٌ عن جهلٍ، إذن لا بُدَّ أن نُعلِّمه، أما المعانِد الَّذِي يقول: إن الله ليس فوق

فهذا مُعانِدٌ مُكابِرٌ حُجَّتُه داحضةٌ في الدنيا، والحمد للهِ، وعند ربِّ العالمينَ سينظر ماذا يُجيبه به ربُّ العالمينَ يومَ القِيامَة.

فالعامِّيُّ نقولُ له: قول الله تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يَقتضي أن تكون السَّماءُ ظرفًا للخالقِ عَزَّوَجَلَّ، وكيف يمكِن هذا والله تَعَالَى قد وسِع كُرسيُّه السَّماواتِ والأرضَ؟

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يحيط به شيءٌ من مخلوقاتِه أبدًا، بل هو عالٍ فوق كلِّ شيءٍ، وليس فوقَ المخلوقاتِ إلَّا الخالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فيُخَرَّجُ قولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ على أحد وجهينِ:

إما أن يكونَ المراد بلفظِ السَّماء: العُلُوّ، وإما أن تكون (في) بمعنى (على)، فإذا كانت السَّماء للعلوِّ صار معنى قولِه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في العلوِّ، ليس في السَّماء هذا السقف المحفوظ. وإن قلنا: (في) بمعنى (على) صار المراد ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: على السَّماء، ولا إشكال.

يبقى أن يطالبنا الإنسانُ فيقول: ائتوني بدليلٍ على أن السَّماء تكونُ بمعنى العلوِّ.

فنقول: على العينِ والرأسِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]، فالمراد بالسَّماءِ العُلُوُّ؛ لأن المطرَ لا ينزل من السَّماء التي فوق، بل ينزل من السحابِ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

إذن السَّماء هنا في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المراد بها العلوُّ.

فإذا قال: ائتوا لي بشاهدٍ على أن (في) تأتي في اللغةِ بمعنى (على)؟

قلنا: أهلًا وسهلًا، على العَين والرأس، طلبتَ أمرًا ليسَ بِعَسِيرٍ؛ استمِع إلى قولِ فِرعونَ للسحرةِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، ومعلوم أن فرعونَ لا يُريد أن يَخرِق بطنَ الجذوع ويُلقي السحَرة فيها، وإنما المرادُ أُصلبنَّكم على جذوعِ النخلِ. فتبَيَّنَ الأمرُ أنَّه -والحمدُ للهِ- لا إشكالَ في ذلك، فمعنى قوله تَعَالَى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي: في العلوِّ، أو في السَّماءِ أي: على السَّماء، وانتهى الأمرُ واضحًا، ولله الحمدُ.

قوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذو العظمة البالغة، فهو جَلَّ وَعَلَا أعظم العظماء، ولا أحد يقوم لعظمته، قال تَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٧].

أسماء الله وصفاته في آية الكرسي:

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تكلم بهذه الآيةِ العظيمةِ؛ آية الكرسي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾. وفي هذه الآية خمسة أسماء من أسماءِ اللهِ: الله، الحيُّ، القيُّوم، العَلِيُّ، العظيم.

و(الله) هو أصل الأسماء، وهو العَلَمُ الَّذِي لا يُسَمَّى به غيرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومعناه أن له الأُلُوهِيَّة على جميع الخلق، فهو معبود الخلق كلهم حقًّا، وما سواه من المعبودات فهو باطِل. والحيُّ سَبَقَ تفسيره، والقيومُ كذلك.

إذن فيها من أسماء الله خمسة، وفيها من صفات الله ما تَضَمَّنَتْه هذه الأسماء الخمسةُ؛ لأن كل اسم من أسماءِ اللهِ يَتَضَمَّنُ صفةً من صفات الله؛ لأن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ كلها حُسنى، فهي دالَّة على معانٍ حَسَنَةٍ، بل أعلى ما يكون من الحُسن، ولذلك نقول قاعدة مفيدة: كل اسمٍ من أسماءِ اللهِ فهو مُتَضَمِّنٌ لصفةٍ من صفات اللهِ.

الله: فيه الأُلُوهِيَّة، والحي: الحياة، والقيوم: القيومية، والعليُّ: العلا، والعظيم: العظمة.

وفيها أيضًا من صفاتِ اللهِ انفرادُ اللهِ تَعَالَى بالأُلُوهِيَّة؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. واعلم أن ثبوت الأُلُوهِيَّة بدون إفرادِه ما يَكفي، فلا بُدَّ من إثبات الأُلُوهِيَّة وإثبات انفراد الله تَعَالَى بها؛ لأن التوحيد لا يتم إلا بنفيٍ وإثباتٍ:

مثال ذلك إذا قلت: لا قائم في البيت إلا زيدٌ..

وزيد هذا مسكين، دائمًا النحْويون يُمثِّلون به، فأحيانًا يجعلونه فاعلًا، وأحيانًا يجعلونه مفعولًا به، فإذا قلت: «ضرب زيدٌ عمرًا» صار زيد فاعلًا، وإذا قلت: «ضرب عمرو زيدًا» صار مفعولًا به. وقد سمِع عامِّيٌّ مُدَرِّسًا في النحْو يدرس ويمثل (قام زيد، ضربت زيدًا، أكرمت زيدًا) فقال: لا تؤذوا زيدًا، كل شيء زيد زيد! لكنه لا يدري أن المثال لا يعني الواقع.

أقول: إذا قلت: «لا قائم في البيت إلا زيد» فهذا توحيد، وأنا لا أقصد توحيدَ ربِّ العالمينَ، بل هو توحيد في المعنى، فمعناه نفيتُ القيامَ عن كل أحدٍ في هذا البيت إلا زيدًا، إذن وحَّدتُه بالقيامِ.

وإذا قلت: «زيد قائم في البيت»، فهذا إثباتٌ، تثبت أن زيدًا قائِم، لكن لا يَمنَع أن يكون غيره قائمًا، فيمكن أن يكون غيره أيضًا قائمًا. فإذا قلت: «لا أحد قائم في البيت»، فهذا نفيٌ مَحْضٌ، ومعناه العَدَمُ.

إذن التوحيد لا يمكن إلا بنفيٍ وإثباتٍ؛ نفي الحكم عن غير الموحَّد، وإثباتُه للمُوحَّد.

إذن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إثبات انفرادِه بالأُلُوهِيَّة، ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فيه إثبات الحياة والقيوميَّة، واجتماع الحياة والقيومية يُفيد معنًى زائدًا على إثبات الحياةِ والقيوميةِ، ألا وهو أنَّه عَزَّوَجَلَّ كامل في نفْسه، مُفتقِر إليه جميعُ خلقِه.

ومن الصفات في هذه الآية انتفاءُ السِّنة والنـوم: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وهذه من الصفات المنفية.

واعلم -يا أخي- أنَّه لا يوجـد في صفات اللهِ نفيٌ محْـضٌ، بل كل نفيٍ في صفاتِ اللهِ فهو مُتَضَمِّن لكمالٍ، وانتبِهْ لهذه القاعدةِ.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ هـل لأنَّه غير قابلٍ للسنَة والنومِ أو لكمالِ حياتِه وقيوميَّته؟

نقول: لكمال حياته وقيوميتِه، ولذلك لا يَصلُح أن نقول: هذا العمودُ لا تأخذه سِنَة ولا نوم؛ لأنَّه غير قابلٍ. فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكمال صفاتِه ولكمالِ حياتِه وقيوميتِه لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، فهنا نفى عن نفسِه اللُّغُوبَ؛ لكمال قـوته عَزَّوَجَلَّ،

واللغوب هو التعَب والإعياءُ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣] أي لم يَعْجزْ بذلك.

إذن القاعدة: لا يوجد في صفات الله نفيٌ محضٌ، بل كلُّ نفيٍ لصفاتِ اللهِ فهو مُتَضَمِّن لكمالٍ.

ومن الصفات في هذه الآيةِ عُموم ملكِ اللهِ؛ لقولِهِ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وفي هذه الجملة إثبات عمومِ ملكِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإثبات عموم الملكِ من قولِه: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن (ما) اسم موصولٌ، وجميع الأسماء الموصولةِ تُفيد العمومَ، حتَّى الاسم المُفرَد في الموصولِ يفيد العمومَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣]، ولم يقل: أولئك هو المتَّقِي؛ لأن الاسم الموصول يفيد العمومَ وإن كان مُفرَدًا.

إذن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إثبات عمومِ ملكِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الجملة إثبات انفرادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالملكِ، وهذا شيء غير العمومِ، ويُؤخَذ انفراد الله تَعَالَى بالملك من تقديم الخبرِ، وهو (له)، والخبر حقُّه التأخيرُ، وقد قال علماءُ البَلَاغَةِ: إن تقديم ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، والحصرُ إثباتُ الحكمِ في المذكورِ ونفيُه عمَّا سِوَاه.

ومن صفات الله في هذه الآيةِ قوةُ عظمةِ اللهِ وسُلطانه؛ مأخوذةٌ مِن قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ لكمال عظمته وسلطانه، فلا أحد يتكلمُ إلا بإذن اللهِ،

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

ومن صفات الله في هذه الآية: عمومُ علمِ اللهِ؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وهذا يعمُّ الماضيَ والمستقبَلَ جملةً وتفصيلًا.

ومن صفات الله في هذه الآية: ضَعف الإنسانِ عن إدراك كُنْه وحقيقة صفات اللهِ، فالإنسان وإن علِم المعنى في صفاتِ اللهِ لا يمكن أن يُدرِكَ كُنه الصفةِ وحقيقتها؛ لقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

ومن صفات الله تَعَالَى الثابتة في هذه الآية: أن لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُرْسِيًّا خاصًّا به؛ لقولِه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ومن فوائدها في إثبات صفات الله: تمام قوةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وعلمه، وحفظه، ومراقبته؛ لقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، أي لا يُثقِله حفظ السَّماوات والأرض، فهو الحافظ لهما عَزَّ وَجَلَّ علمًا وقدرةً وسلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيتهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومن فوائد الآية فيما يتعلق بصفاتِ اللهِ: إثبات العلوِّ والعظمةِ، وهذه ذَكَرْتُها من قبلُ حيث قلنا: إن كل اسمٍ من أسماء الله يدلُّ على صفةٍ من صفاتِ الله.

والحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس السادس:

قال تعالَى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٤-٢٨٦]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

لَمَّا نَزلت هَذِهِ الآيةُ -وكانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إيمانُهم إيمانًا حقيقيًّا قويًّا- عرَفُوا أَنَّهمْ سَيُحَاسبونَ عَلَى مَا فِي نُفُوسهمْ، سَوَاءٌ أَبْدَوه أَم أَخْفَوه، وهَذَا الأَمْر كَانَ شاقًّا جدًّا عَلَى نُفُوسهمْ، أَنَّ كُلّ مَا وَقع فِي نَفوسهم سَيُحَاسبهم اللهُ علَيْه، فجَاؤوا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجثُوا عَلَى رُكَبِهم، وَقَالَوا: يَا رَسول اللهِ، إنَّ اللهَ تَعالَى أَنْزَل علَيْنا هَذِهِ الآيَةَ، يُرِيدُون أَنْ يَقُولُوا: إنَّ هَذَا الأمر شَاقٌّ عَلَيْهم، فقالَ لَهم النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَما قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ**» قالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ[١]؛ امتثالًا لِأَمرِ الرَّسُول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلمَّا ارتاحَتْ نُفُوسهم لِهَذَا وانْقَادتْ لِذَلك، قَالوا: سَمِعنا وأطعْنَا، فأَنْزلَ اللهُ قولهُ تَعالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

وَقَوْله: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ التَّقْديرُ: نَسْأَلكَ غُفْرانكَ، وكأنَّهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَتَبوا عَلَى أَنْفسهم حِينَ قَالُوا: يَا رَسولَ اللهِ، هَذَا شَاقٌّ عَلَيْنَا، فَسَأَلُوا اللهَ المَغْفِرَةَ.

﴿رَبَّنَا﴾ أَيْ: يَا رَبَّنَا.

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إليكَ المَرجع فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَنْزل اللهُ هَذهِ الآيةَ.

قَوْلهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ أَيْ: لَا يُلزِمُ اللهُ النفسَ إلَّا مَا تُطِيق فَقَطْ، ومَا لَا تُطِيق فَهو سَاقطٌ، لَا يجب عَلَيْها.

فحَديث النَّفس لَا يُمْكن لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَخلصَ مِنْه؛ لِأَنَّهُ يَهْجم عَلَى الإِنْسَانِ هُجُومًا شرسًا لَا يَسْتطيعُ أَنْ يَتخلصَ؛ وَلِهَذَا جَاء الحديثُ مُطابقًا لِلآيةِ تمامًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**»[٢]، ما أَكْثرَ مَا تحدَّث بِهِ النَّفس منَ الشيءِ الَّذِي هُوَ أكبرُ منَ الجبالِ، ولكنَّ الإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَخْضع لَه، فَإِنَّهُ لَا يَضُره أبدًا مَهْمَا كَان، فَلَوْ أَنَّهُ حدث

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، رقم (١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

نَفْسه بِأَكبر الطَّوامِّ فيما يَتعلق بِالله، أَوْ بِكتاب اللهِ، أَوْ بِرَسولِ اللهِ ﷺ أَو بِدِين اللهِ، أَو بِأَيِّ شَيء، ولكنَّه لَم يَرْكن إليهِ، ولَمْ تَطْمئنَّ نَفسه إِلَيْه، فإِنَّ ذَلك لَا يَضرهُ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**».

وبِهَذَا الحديثِ والآيةِ الكَريمة يَتبَيَّن أَنَّ المُوسْوسينَ قَدِ ابتلُوا بِمَرض، سَواء كَانَ الوَسواس فِيما يَتَعلق بِالله، أَو كِتاب اللهِ، أَوْ رَسول اللهِ ﷺ أو الصَّلَاةِ، أو الطَّهارةِ، أو الصَّوْمِ، أو الحجِّ، أو النِّكَاحِ، أو الطلاقِ، أو غيرِ ذلكَ.

فكلُّ مَا كَانَ وسواسًا لا يركنُ إِلَيْه الإِنْسَانُ، فَإِنَّهُ لَا يَضرهُ، حَتَّى لَو حدَّثَ الإِنْسَانُ نفسهُ بِأَنه طَلق زَوْجته، وَقَالَ: إنَّ هَذِهِ المَرْأَة الَّتِي نَكَّدت عليَّ حَيَاتي طَالقٌ، يَقُوله بِقَلْبِه وَلِسَانه لَمْ يَنْطق بِذَلك، فَلا تَطلُق؛ لِأَنَّهُ حَدِيث النَّفس.

فَإِنْ أصابَ رجلًا وسواس فِي طَلَاق زَوْجته، وَقَالَ: لَا يُمْكن أَنْ أَبْقى هَكَذا قلقًا، إِلَّا أَن أُطلق صَرَاحةً، فَطَلق امْرَأته، فَهَذَا غَيْر صَوَاب، بَلْ لَو طَلَّق فِي هَذِهِ الحَال فَلَا طَلَاق عَلَيْه؛ لِقَوْلِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»[1]، وَهَذَا مُغْلق عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ مَغْصوبٌ، وَلَوْ سَأَلتَه: أَتُريد طَلاق امْرأتك حقًّا لَقَال: لَا، ولَكن قَهرتني الوسَاوِس، فَأَردت أَن أَسْتَريح.

رَجل آخَر مُبْتلى بِالوَسْـواس، فَأَتَاه الشَّك أَنَّه أَحْدث، وصَار يُعَالج نَفْسه، فَقَلق، فَلِأَجل أَنْ يَستريحَ ذَهب يَبُول وَلَيس بِه حَاجة لِلْبول، وَلَكِن لِيَقطع الوَسْواس، فَهَذَا خَطأ، وَدَوَاء هَذَا وَصَفه الطَّبِيبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقَالَ: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ**

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطلاق، باب في الطلاق على غلط، رقم (٢١٩٣)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٦).

صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»[١] أَيْ: حَتَّى يَتَيقنَ تيقنًا محْسوسًا لَا مَوْهومًا أَوْ مُتَغيرًا.

قَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: اختِلَاف التَّعبير لِاخْتلاف الحُكم؛ لِأَنَّ الخَيرَ يُكسبُ بِالنِّيَّة، والخَير الحَسَنَة بِعَشرة أَمْثَالها، وَأَمَّا الشَّر فإِنَّ السيِّئَةَ بِوَاحِدَةٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَتحققَ أَنَّه فَعَلَ سَيِّئَةً، وَلَكِنَّ الهَمَّ بِالسيِّئَةِ مَعَ فِعل الأسبابِ وَالعجزِ عنْهَا، يَأثم بِهِ الإِنْسَانُ، كَمَا بيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ.

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

﴿إِن نَّسِينَآ﴾ أَيَّ شَيْءٍ لَا تُؤَاخِذْنَا.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أيْ: جَهِلنَا، فَقَال اللهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»[٢].

فكلُّ شَيْءٍ يَقَع منْكَ نسيانًا أَو خطأً، فَإِنَّهُ مَعْفوٌّ عنه، لَكِن إنْ كَانَ مَأمورًا سَقَطَ الإِثْمُ بِتَرْكِهِ، وَوَجبَ استدرَاكُهُ بِقَضائِه، ودَليلهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا»[٣] ولَمْ يَقُلْ: فإِنَّهَا تَسْقُطُ عَنْهُ.

أَمَّا إِذَا كَانَ فِعْلَ محظورٍ، فَإِنَّهُ يَسْقط عنه الإثمُ، والكَفَّارةُ إنْ كَان فِيهِ كفارةٌ، والجزاءُ إِنْ كَانَ فِيهِ جَزَاء، والفِدْيَة إِنْ كَان فِيهِ فديةٌ، هَذَا فِي فِعل المحظورِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين من القبل والدبر، رقم (١٧٥)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يكلف إلا ما يطاق، رقم (١٢٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي الصلاة فليصلِّ إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة، رقم (٥٧٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨٤).

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: مَا الفرقُ بَيْن فِعل المَأمورِ وتَرْك المحظورِ، فَكُل مِنْهما لَا يُؤَاخذ فِيهِ بِالنِّسْيان وَالخَطأ.

قُلْنَا: الفَرْق أَنَّ فِعْل المَأْمور لَا بُدَّ مِنْ قَضَائه، وفِعْل المَحْظور نِسْيانًا أَوْ جَهلًا لَا يَتَرَتبُ عَلَيْهِ شيءٌ.

ولِنَضْرب لهَذَا أمثلةً:

المِثَال الأَوَّل: رَجُلٌ صَلَّى بِغَيْر وُضُـوء ناسيًا، فَإِذَا تذكَّر وَجب أَنْ يَتَـوضأَ ويُصَلِّيَ، ولا يأثمُ بهَذِهِ الصَّلَاةِ الَّتِي صَلَّاها مُحْدِثًا؛ لِأَنَّهُ نَاسٍ.

المِثَال الثَّاني: رَجُل صَلَّى وعَلى ثَوبه نَجَاسة ونَسِيَ أَنْ يَغْسلهَا، فإِذَا تَذكَّر بَعد الصَّلَاةِ فصَلاته صَحِيحة، ولَا إِعَـادة عَليه، وإِذا صَلَّى ناسيًا ولم يَتَـوضأْ، فعلَيْه الوُضُوء وإِعَادة الصَّلَاةِ.

المِثَال الثَّالِثُ: رَجُلٌ أَكَل وهُو صَائمٌ نَاسيًا، فصَوْمه صَحيحٌ ولا قَضَاءَ عَلَيْه؛ لِقَوله -صَلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم-: «**إِذَا نَسِيَ فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ**»[1].

المِثَال الرَّابعُ: رَجُلٌ نَسِيَ أَنْ يَنْوِيَ الصِّيَامَ فِي غَيْر رَمَضَانَ، ولمَّا طلعتِ الشَّمْس ذكر، فَنَوى منْ طُلُوع الشَّمْسِ، فلَا يَصح صومُه فرضًا، وإِنَّما يَصح نفلًا؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ من بَاب فِعْلِ المأمورِ، ولِأَنَّه في الفَرضِ لَا بُدَّ أنْ تستوعبَ النِّيَّةُ جميعَ النَّهار منَ الفجرِ إِلَى الغروبِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٢٩٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

المِثَال الخَامِسُ: رَجل مُحْرِم قَتل صيدًا ناسيًا، وهَذَا فِعْل مَحْظـور، فلَيْس علَيْه إثْم، ولَيس علَيْه جَزَاء.

المِثَال السَّادِسُ: رَجُـلٌ يَسير بِسَيارته فِي مَكَّـةَ، أَوْ فِي المُزْدلفة، أَوْ فِي مِنـى، فَاصْطدمت حَمامة بِسَيارته، بِدُون قَصد مِنه، فَلَيس عَلَيْه إِثْم، ولَيْس علَيْه جَزَاء، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥].

فَائِدَةٌ:

كُل مَن تلبَّس بِشَيءٍ ناسيًا أو مُخطئًا، فلَا شَيْءَ علَيْه، لكِن المَحْظور يَرْتفع عنْه كُلُّ مَا يَتعلق بِه مِن كَفَّارة أَو فِدْية أَو جَزَاء، وَالمَأْمور يَقْضيه؛ استدراكًا لِلْواجب.

والأدلَّةُ عَلَى وُجُوب القَضاء مَعَ الجَهْلِ:

الدَّلِيل الأَوَّلُ: قِصَّةُ الرَّجل الَّذِي دَخل المَسجد وصلَّى ولَمْ يَطْمئنَّ فِي صلاتِه، فأَمَره الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُعيدَ صلَاته؛ لِأَنَّهُ تَرك مأمـورًا وهُو الطُّمَأنينة، حَتَّى علَّمه ﷺ مَاذا يَصنع[١].

الدَّلِيل الثَّانِي: مُعَاوية بنُ الحَكم تَكلم فِي صَلَاته مرَّتَيْن، ولَم يَأمره بالإعادةِ؛ لِأَنَّ الكلامَ منْ بَاب فِعل المحظورِ، وكَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَدْري أَنَّه حَرَام، فلَمْ يَأْمرهُ النَّبيّ ﷺ بقضاءِ الصَّلَاةِ[٢].

---

(١) حديث الجاهل في صلاته أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم (٧٢٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

قَولهُ تَعالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

المرادُ لَا تُحملنا شرعًا ما لَا طَاقة لَنا بِه، ولَا يُمكن أَنْ يَكونَ قَدَرًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى قَد يُكلف الإِنْسَانَ قدرًا مَا لَا يَستطيع؛ كأَن يَحترق، أَو يَسْقط عَلَيْه الجدارُ، أو يَحبسه العدوُّ فَيُعذبه صباحًا ومساءً، لكنْ شرعًا لَا يُكلف اللهُ أحدًا ما لَا يُطيقه أبدًا؛ ولذلكَ قلنَا: إنَّ طلاقَ الموسوسِ لَا يَقع؛ لِأَنَّهُ لَا يُطيق إِلَّا مَا تكلم بِه.

قَوله تَعالَى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أَيِ: اعْفُ عنَّا مَا فرَّطنا فِيهِ منَ الواجبِ، وسَامحنَا عَنِ التقصيرِ فِي الواجبِ.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أَيِ: اغفرْ لَنا مَا اقْترفناه منَ الذنوبِ؛ لِقَوله تَعالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥] فَاعْفُ عنَّا بِالتفريطِ فِي الواجبِ، واغفرْ لَنا فِي فِعْلِ المحرمِ وفِي المَعاصِي.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أَيْ: تَلَطف بِنَا.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ الَّذِي تَتولى أُمُورنَا.

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنْ بَنِي آدم ومنَ الجنِّ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ كَافر: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص:٧٤]، فَتَسأل اللهَ أَنْ يَنْصرك عليْه بِحَيثُ لَا يُغويك وَلَا يُرْديك، وَكَذلك الكَافِرون مِن بَنِي آدَم أَمْرهم ظَاهِر.

نَسْأل اللهَ تَعالَى أَنْ يَتَولانَا وَإِيَّاكم بِعِنايته، وأَنْ يَنْصرنا عَلَى القَوْم الكَافرينَ، إِنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الدرس السابع:

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٤-٢٨٦].

قولُهُ تَعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذه جُملَةٌ خبريةٌ، فِيها ما يَدُلُّ عَلى الحَصْر، وطَريقُ الحَصْرِ فِي هذهِ الآيةِ تقديمُ مَا حقهُ التَّأخيرُ؛ لأنَّ تقديمَ مَا حقهُ التأخيرُ يفيدُ الحصرَ، ففِي هذهِ الآيةِ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾قُدِّمَ مَا حقُّهُ التأخيرُ، وهوَ الخبرُ، عَلى مَا حَقهُ التقديمُ، وهوَ المبتدأُ.

وَ ﴿وَمَا﴾ هَنا للعمومِ، أَي: كلُّ مَا فِي السماواتِ وَالأرضِ فإنَّهُ للهِ، لَا يشاركهُ فيهِ أحدٌ أبدًا، لَا مَلَكٌ مُقربٌ، ولَا نبي مُرسلٌ، واستمعْ إِلَى قولِ اللهِ تعالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ لَا يَملكونَ مثقالَ ذرةٍ ملكًا مستقلًّا ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ملكٌ مشتركٌ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، يعنِي لَا أحدَ عاونهُ عَلى خلقِ السَّماواتِ

وَالأرضِ، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يَعني: لَا أحدَ يشفعُ إلَّا بإذنِ اللهِ، وبهذِهِ الأمورِ الأربعةِ المنفيةِ انقطعتْ عُرَى المشركينَ الذينَ يدعونَ أنَّ آلهةً تشفعُ لهمْ عندَ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، يَعْني: أنَّ الإنسانَ إذَا أضمرَ شيئًا فِي نفسهِ فأبداهُ للناسِ، يَعْنِي أظهرهُ أَو أَخفاهُ؛ فإنَّ اللهَ يحاسبهُ، وإذَا حاسبهُ فَالنتيجةُ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، وهذهِ الآيةُ لما نَزلت شقَّتْ عَلى الصَّحابةِ؛ لأنَّ الإنسانَ يكونُ فِي نفسهِ أشياءُ يَستحق أنْ يُعذَّبَ عَليها، ولكنْ أنزلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَعد ذَلِك: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فَما لَا يدخلُ فِي وسعكَ لَا تحاسَبُ عليهِ؛ ولهذَا قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْلَمْ أَوْ تتكلَّمْ**»[1]، فَلو حَدَّثتكَ النفسُ بأشياءَ كُفرية، ولكنَّك لَمْ تَركنْ إلى هذَا الحديثِ وَلَمْ تَعملْ بِهِ، فلا تحاسبُ عليهِ.

الشيطانُ يُلقي فِي قلبِ الإنسانِ أَشياءَ لَو أَنَّهُ ركنَ إلَيْها لكانَ كافرًا، قَد يُلقي فِي قلبكَ وجودَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كأنْ يقولَ لكَ: مَا هوَ الدَّليلُ عَلى وُجودِ اللهِ مثلًا؟ قدْ يُلقي فِي قلبكَ أنَّ القرآنَ ليسَ كلامَ اللهِ، وقَد يُلقي فِي قَلْبك أنَّ الصلاةَ لَا فائدةَ مِنْها، وقَد يُلقي فِي قلبكَ أَنَّك طَلقت زَوْجتك، إلَى غَير ذَلك منَ الوَساوسِ الَّتي لَا حصرَ لَهَا، فإذَا لَم تَركنْ إلَيها فإنَّها فِي سبيلِ العفوِ، فيعفُو اللهُ عَنها، ولَا تُؤاخَذ عَليها، ولَا تُحاسَب عَليها؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ وَلِهَذَا يُبتلى كثيرٌ منَ الناسِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

بِهذِهِ الوساوسِ، فَتجده يَسأل يَقـول: إنِّي فَكرت أنِّي طَلقت زَوجتـي، فَنقول لَه: لَا تطلق زَوْجتك.

ولَو قَال: إنِّي تَصورت أَنَّني أُخَاصمها وأُنَازعها، وأَنها تَقول لِي: فَعَلت كَذَا، وأقُول: فَعلت كَذَا، وإِنَّني غَضبت فَطَلقتُها، فَهل تطلق؟

نَقول: لَا؛ لأنَّ هذَا حَديثُ نفسٍ لَا يَنبغي أنْ يركنَ إليهِ الإنسانُ.

وإنِّي أَقول إرَاحَةً لِهَؤلاء الذينَ ابتُلوا بِالوسواسِ فِي بابِ الطلاقِ: إنَّ الموسوسَ لَا يَقع لَه طلاقٌ أبدًا؛ حتَّى لَو قالَ: امرأَتِي طالقٌ، فإِنَّه لَا طلاقَ لهُ؛ لأَنَّه مُوسوسٌ، بعضُ الناسِ إذَا ابتلُوا بِالوسواسِ وضَاقت نَفسه قَال: إذن امْرَأتي طَالقٌ، فَهل تطلق؟

نقولُ: لَا تُطلق؛ لأنَّ هذَا طلاقٌ فِي إغلاقٍ، وقَد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»(١).

سأَلَ سائلٌ شَخصًا عندهُ شيءٌ منَ العلمِ، وقالَ: إنَّنـي شَككتُ هَل أَحدثتُ أَو لَا، وكَان طاهرًا؛ لَكنْ شكَّ هَل أحدَثَ أَو لَا، فَقَال لهُ المفتِي: أخرِجْ رِيحًا لِتَتيقنَ أَنَّك أَحْدثتَ، وهذِه فَتْوى غلطٌ، فالصَّوابُ أنْ نقولَ كَما قَال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**لا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»(٢)، وعَلى هذَا ففتوى هذَا الرجلِ تُعتبَرُ خطأً؛ لأَنَّه فِي الواقعِ لم يَحُلَّ مُشكلةً إلَّا بِما هُو أشكل مِنها؛ إذْ إنَّ

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٦، رقم ٢٦٤٠٣)، وأبو داود: كتاب الطلاق، باب في الطلاق على غلط، رقم (٢١٩٣)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين من القبل والدبر، رقم (١٧٥)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).

الإنسانَ لَا يُريدُ أنْ يَتوضَّأَ وهوَ شَاكٌّ فِي الحَدَثِ، فكَيْف نَقولُ: انقُضْ وُضوءَكَ، ثمَّ تَطهَّر؟! هذَا غلطٌ، وهذَا مِما يَسُوءنا كَثيرًا أنْ يتقدمَ أَحد بِمثل هذهِ الفتاوَى الَّتي لَيست مَبنيةً عَلى هُدى منَ اللهِ، والأمرُ خطيرٌ، فالفَتوى بِغير علمٍ وبُرهانٍ تُدخلنا فِيمنِ افترى عَلى اللهِ كذبًا، أَو هِي من الافتراءِ عَلى اللهِ كذبًا، فعَلى الإنسانِ أنْ يتأهبَ لمناقشةِ يومِ القيامةِ، وألا يُفتيَ بغيرِ علمٍ.

إذن قولهُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، هذَا شيءٌ ثقيلٌ عَلى النفوسِ ولكنَّ اللهَ خففهُ بقولهِ تَعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فَما لَا يدخلُ فِي وسعكَ فإنَّك غَير مُكلفٍ بهِ، يَقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، يُستثنى مِن هذَا الشركُ، فإنَّ الإنسَانَ إذَا أَضمرَ الشركَ باللهِ، وركَن إلَيه؛ فلَا يُغفر له؛ كَقولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كلُّ شيءٍ فاللهُ تَعالى قادرٌ عَليه، إنْ كانَ مَوجودًا فهوَ سُبحانه قَادر عَلى إعدامهِ، وإنْ كانَ مَعدومًا فَهو -جلَّ شأنهُ- قَادرٌ عَلى إيجادهِ، ولَا يُسْتثنى مِن هذَا شيءٌ.

ثمَّ قالَ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ المرادُ بالرسولِ هُنا النبيُّ مُحمد ﷺ، وَ(أل) فِي ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ تكونُ للعهدِ، والعهودُ ثلاثةٌ: ذِكريٌّ، وحُضوريٌّ، وذِهنيٌّ، وهِي هُنا للعهدِ الذهنيِّ؛ لأنَّ هذَا معلومٌ بِالذهنِ، والَّتي للعهدِ الحضوريِّ كأنْ تقولَ: اليومَ آتيكَ، فـ(أل) هنا لِلعهدِ الحضوريِّ، يَعني اليومَ الحاضرَ آتيكَ، ومنهُ

قولُ اللهِ تَعَالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣]، يَعنـي اليَومَ الحاضر، وهذهِ الآيةُ نَزلت فِي يوم عرفةَ.

قَالَ العُلماءُ: وكُلَّما جَاءت (أل) بعدَ اسمِ الإشارةِ فهيَ للعهدِ الحضوريِّ، نحو: ذَلكَ اليوم، ذَلك الرجل، ومَا أشبهَ ذلكَ.

قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٤]، (كلٌّ) يعني منَ الرسولِ والمؤمنينَ، آمنَ باللهِ وملائكتَهِ وكتبهِ ورُسلهِ وَاليومِ الآخرِ.

ويتضمنُ الإيمانُ بِاللهِ أَربعةَ أَشياءَ:

الأوَّلُ: الإيمانُ بِوجودهِ.

الثَّاني: الإِيمانُ بِرُبوبيته.

الثالثُ: الإيمانُ بِأُلوهيتهِ.

الرَّابعُ: الإيمانُ بِأسمائهِ وصِفاتهِ.

فمنْ أنكرَ وُجودَ اللهِ فَهو غيرُ مؤمنٍ بهِ، ومنْ أقر بِهِ ولكنْ أنكرَ رُبوبيته أَصلًا أَو فرعًا، يَعنـي أَنْكرها فِي كلِّ شيءٍ، أو أَنْكـر أَن يَكونَ ربًّا فِي بعـضِ الأَشياءِ؛ فإنَّه لَم يؤمنْ باللهِ، ومنْ آمنَ باللهِ بِوجودهِ وَرُبوبيتهِ دُون أُلُوهيتهِ؛ فإنَّه لمْ يؤمنْ بهِ. ومنْ آمنَ باللهِ، أَي بِوجودهِ ورُبوبيتهِ، وأُلوهِيته دُون أَسمائه وصِفَاته؛ فإنَّه لَم يؤمنْ بهِ، وهذَا الأخيرُ إمَّا أنْ يكونَ لمْ يؤمنْ بِه أصلًا، أَو لمْ يؤمنْ بهِ عَلى وجهِ الكمالِ.

قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الملائكةُ جمعُ ملأكٍ، ولَيست جَمعَ ملكٍ، بَل جمع ملأكٍ،

ومَلأكُ أصلهُ مألكَ، مَأخوذ منَ الأَلوكةِ وهيَ الرسالَةُ، وهذِهِ الاشتقاقَاتُ يَعْرفها عُلماءُ الصَّرفِ، أمَّا طالبُ العلمِ المبتدئ فسوفَ يَستنكرُ هذَا الشيءَ، ويقولُ: ملائكةٌ جمعُ مَلَك، وهوَ قَد يُقبل مِنه هذَا التعريفُ عَلى سبيلِ المجاوزَةِ.

علَى كلِّ حالٍ الملائكةُ هُم عالمٌ غيبيٌّ، خَلَقهمُ اللهُ تَعالى صمدًا، لَا يَأكلونَ، ولَا يَشربونَ، وخلقهمْ مِن نورٍ، وجَعل وَظَائفهم مُتَنَوعة؛ مِنهمُ الموكلُ بالوحيِ، وهوَ جبريلُ، ومِنْهم الموكلُ بالقطرِ والنباتِ، وهوَ ميكائيلُ، ومِنْهم الموكلُ بِالنفخِ فِي الصورِ، وهوَ إِسرافيلُ، عَليهمُ السَّلامُ، هَؤلاءُ الثَّلاثةُ كانَ النبيُّ ﷺ إذَا استفتحَ فِي صلاةِ الليلِ ذَكرهم، فَقالَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ**»(١).

فإنْ قيلَ: فَما مُناسبةُ ذلكَ؟

قلنَا: المناسبةُ أنَّ هَؤلاءِ الملائكَةَ الثَّلاثةَ كلٌّ مِنهم مُوكلٌ بِما فيهِ الحياةُ، فَجبريلُ مُوكل بِما فيهِ حياةُ القلـوبِ، وهوَ الوحيُ، وإِسرافيلُ مُوكل بِما فيهِ حياةُ الأبدانِ الأبدية، وهُو النفخُ فِي الصُّورِ، ومِيكَائيل مُوكل بِما فِيه حَياةُ النباتِ، وهُوَ المطرُ، وَالمناسبَةُ ظَاهرةٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قَد قَام منَ النَّومِ، والقيامُ منَ النَّومِ حياةٌ بعدَ وفاةٍ، ودليلُ ذلكَ قولُهُ تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]، وَقولُهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام:٦٠]، فناسبَ أنَّه بعدَ الاستيقاظِ منْ هَـذِهِ الوفاةِ الصُّغرى أنْ نذكرَ هَـؤلاءِ الملائكَةَ الَّذين بِهمُ الحياةُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠).

ومنَ الملائكةِ منْ هُو مُوكلٌ بقبضِ الأرواحِ، وهوَ ملكُ الموتِ، ودليلُ ذلكَ قولهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجد:١١]. وقدِ اشتهرَ فِي الأخبارِ الإسرائيليَّةِ أنَّ اسمهُ عزْرائيل؛ ولكنَّ هذَا لَا يصحُّ، فلمْ نجدْ فِي القرآنِ ولَا فِي السنَّةِ أنَّ اسمهُ عِزرائيلُ، وإنَّما اسمهُ مَلكُ الموتِ.

ومنَ الملائكةِ منْ وُكلَ بِالنارِ، وهوَ مالكٌ، ودليلُ ذَلك قَولهُ تَعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

قوله تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فقالَ اللهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»[١]. يَعْني: لَا أُؤاخذكمْ إنْ نَسيتم أَوْ أَخْطَأتم، فما هوَ النسيانُ ومَا هوَ الخطأُ؟

أمَّا النسيانُ فَهُوَ: ذُهولُ القلبِ عنْ شيءٍ مَعلومٍ، بِمَعنـى أنَّ الإنسانَ يَعلمُ الشيءَ ثمَّ يذهبُ وينْسى، وأمَّا الخطأُ فهوَ الجهلُ، بأنْ يرتكبَ الإنسانُ مَا يلامُ عليهِ مِن غـيرِ قصدٍ، فإذَا فعلَ الإنسانُ الشَّيْءَ نَاسيًا أَو مُخـطئًا فإنَّ اللهَ تَعالى لَا يُؤاخذهُ بِذلك؛ لِقولِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وهذَا عامٌّ فِي كلِّ العبادَاتِ، وفِي كلِّ المعاملاتِ، وفِي كلِّ التَّصرفاتِ، فكلُّ مَا ثَبت عَن جهلٍ أَو نِسيانٍ فإنَّ اللهَ لَا يُؤاخِذُ بهِ، وقَد جاءَ لِذلك أَمْثلة منَ السنةِ؛ ولِنأخذْ مِنها أَمثلةً فِي الصَّلاةِ، وأَمثلةً فِي الصدقَةِ، وأَمثلةً فِي الصِّيامِ، وأمثلةً فِي الحجِّ.

فمنْ أَمثلتهِ فِي الصَّلاةِ: ثبتَ فِي الصَّحيحِ أنَّ مُعاويةَ بنَ الحكمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاءَ إِلى الصَّلاةِ، فَدخل مَعَ النَّاسِ وسلمَ، فعطسَ رجلٌ منَ القومِ فَقَالَ: الحمدُ للهِ؛ لأنَّ منَ السنةِ إذَا عطستْ أنْ تقولَ: الحمدُ للهِ، ومنْ سمعكَ كانَ حقًّا عليهِ أنْ يقولَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يكلف إلا ما يطاق، رقم (١٢٦).

يَرحمكَ اللهُ، فلَمَّا قالَ الرَّجلُ الذِي يُصلي: الحمدُ للهِ، قالَ لهُ معاويةُ: يَرحمكَ اللهُ، فَرماهُ النَاسُ بِأبصارهمْ، أيْ أنَّ المصلينَ نَظَروا إِلَيْه نَظرَ استنكارٍ؛ لأَنَّه تكلمَ فِي الصَّلاةِ، فقالَ مُعاويةُ: وَا ثُكل أُمي، يَعني يَدعو عَلى نفسهِ بأنْ تَثْكله أمُّه، وهذهِ كلمةٌ تَقولها العربُ مِن غيرِ قصدٍ لِمَعْنَاهَا، فزادَ الطينَ بلةً، يَعْني تَكلم مَرَّتين لكنْ في المَرَّةِ الأُولَى دَعا لِأخيهِ، وفي المرةِ الثَّانيةِ دَعا عَلى نفسهِ؛ لكنْ قالَ: وَا ثُكْل أُمي، فجعلَ الصَّحابة يَضربونَ عَلى أَفْخاذهم يُسْكتونه فَسكت، فَلما انصَرف مِن صَلاتهِ دَعاهُ النبيُّ ﷺ، قالَ مُعاويةُ: فَبِأبي هُو وأُمِّـي مَا رَأيت مُعلمًا أَحسن تَعليـمًا منهُ، واللهِ مَا كَهَرني[1]، ولَا نَهَرني، وإِنَّما قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ لِلتَّسْبِيحِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَقِـرَاءَةِ القُرْآنِ**»، أَو كَما قالَ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ[2]، ولمْ يَأمرهُ بِالإعادةِ؛ لأَنَّه كَان جَاهلًا، ولَو عَلم مَا تكلمَ.

إِذن لَو قَال قائلٌ: مَا الحُكم لَو أنَّ الرجلَ تَكلم فِي صلاتهِ جَاهلًا؟

الجوابُ: لَا إعادةَ عليهِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لمْ يأمرْ مُعاويةَ بنَ الحكمِ بِالإعادةِ.

كَذلك لَو تَكلم نَاسيًا أَيضًا فَلا شيءَ عليهِ، فَلَو وقفَ زَميلهُ عليهِ وهوَ يُصلِّي وقالَ: يَا فلانُ، أينَ الشيءُ الفلانيُّ؟ فأجابهُ وهوَ يصلِّي نَاسيًا: عَلى يَمِينك إذا دَخلتَ، قالَ ذَلك وهُو يُصلي وهُو ناسٍ، فَلا تبطلُ صلاتهُ؛ لأنَّ كلامهُ لَه وهُو ناسٍ.

كَذَلك لوَ استأذنَه أحد وهُو يُصلي فَقال لِلْمستأذنِ: تفَضل نَاسيًا أَيضًا فلَا شيءَ عليهِ؛ لقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

---

(١) أي: ما عبَس في وجهي وقطَّب.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

فإنْ قالَ قائلٌ: مَا الفرقُ بينَ حديثِ مُعاويةَ بنِ الحكمِ والحديثِ الَّذي يُلقبونه بحديثِ المسيءِ فِي صلاتهِ، وهُو مَا ثَبت فِي الصَّحيحينِ مِن حَديث أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَجلًا دَخل المسجدَ فَصلى؛ لكنَّه صَلى صلاةً لَا يطمئنُّ فِيها، يركعُ بسرعةٍ، ويَرفع بِسرعةٍ، ثمَّ جاءَ فسلَّم عَلى النبـيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فقالَ لهُ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فرجعَ الرجلُ، فصلَّى كصلاتهِ الأُولى، ثمَّ عادَ فسلَّم عَلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، فقالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فَصلى كَالأولى، ثمَّ جاءَ إِلى النبيِّ ﷺ فَسلم عَليه، ثُم رَجع فصَلى، وفِي الثَّالثة قالَ: والَّذي بَعثك بِالحقِّ لَا أحسنُ غيرَ هذَا، فَعَلمني، فَعلمه. وقالَ لهُ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**»(١).

فأمرهُ أنْ يعيدَ الصلاةَ معَ أنَّه كَان جاهلًا، ولمْ يأمرْ مُعاويةَ أنْ يعيدَ الصَّلاةَ؛ لأنَّه كانَ جَاهلًا، والسـؤالُ: مَا الفرقُ بينَ هذَا وهذَا؛ حديـث معاويةَ بنِ الحكمِ، وحديث المسيءِ صلاتهُ؟

والجوابُ: قالَ العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ قصةَ مُعاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي فعلِ محظورٍ، وقصةُ الرجلِ الَّذي لمْ يتمَّ صلاتهُ فِي تركِ مأمورٍ، وتركُ المأمورِ لَا يُعذَرُ فيهِ بالجهلِ مَا دامَ الطلبُ باقيًا، أقولُ: مَا دامَ الطلبُ باقيًا، ويعذرُ فيهِ بالجهلِ فِيما سقطَ الطلبُ فيهِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم (٧٢٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

أمَّا فعلُ المحظورِ فإنَّه يسقطُ بالجهلِ على كلِّ حالٍ، هذَا هوَ الفرقُ، وهوَ الأصلُ عندَ جمهورِ العُلماءِ: أنْ يفرقَ بينَ تركِ المأمورِ، وتركِ المحظورِ، فتركُ المأمورِ لَا يسقطُ بالجهلِ مَا دامَ الطلبُ بَاقيًا، أمَّا ما مَضَى وقتهُ فَيسقطُ بِالجهلِ، والدَّليلُ عَلى هذَا أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ لمْ يأمرْ هذَا الرجلَ بِإعادةِ صَلاتهِ الماضيَةِ؛ لأنَّ الطلبَ انْتَهَى، وأمرهُ أنْ يعيدَ الصلاةَ الحاضرةَ؛ لأنَّ الطلبَ مَا زالَ باقيًا.

هذا مثالٌ فِي الصلاةِ، ومثالُ وقوعِ الخطأِ فِي الصدقةِ: حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ رجلٍ تصدقَ فوضعَ صدقتهُ فِي غيرِ أهلهَا، خرجَ يومًا يَتصدق فَوَقعتِ الصدقةُ فِي يدِ غنيٍّ، والغنيُّ ليسَ منْ أهلِ الصدقةِ، فجعلَ الناسَ يَتحدثونَ: تُصُدِّق الليلةَ عَلى غنيٍّ، فقالَ الرجلُ: الحمدُ للهِ، حمدَ اللهَ عَلَى كلِّ حالٍ، وكأنَّهُ ندمَ علَى ذلكَ، ثمَّ تصدقَ فِي الليلةِ الثَّانيةِ، فَوَقعتِ الصدقةُ فِي يدِ سارقٍ، فأصبحَ الناسُ يَتحدثونَ: تُصُدقَ الليلةَ عَلَى سارقٍ، فقالَ: الحمدُ للهِ عَلى ذلكَ، وكأنَّهُ نَدِمَ عَلى ذلكَ، ثمَّ تصدقَ الليلةَ الثَّالثةَ، فوقعتِ الصدقةُ فِي يدِ زانيةٍ، فجعلَ الناسُ يَتحدثونَ: تصدقَ الليلةَ عَلى زانيةٍ، فقالَ: الحمدُ على غنيٍّ، وعلَى سارقٍ، وعلى زانيةٍ، ظنَّ أنَّ الصدقةَ لنْ تقبلَ، فقيلَ لهُ: أمَّا صدقتكَ فَقد قبلتْ، فإنَّ الغنيَّ ربَّما يتخذُ منهَا أُسوةً فيتصدقُ، وأمَّا السارقُ فربَّما يتخذُ منْهَا كفايةً فلا يسرقُ، وأمَّا الزانيةُ فرُبَّما تسدُّ حاجتهَا فَلا تزنِي[1].

فحُسْنُ النيةِ جعلَ السيئةَ حسنةً؛ لأنَّ الرَّجلَ إِنَّما أَراد بِصدقتهِ وجهَ اللهِ، ومنْ ثمَّ أخذَ العلماءُ فائدةً عظيمةً منْ هذَا الحديثِ، وهيَ أنَّ الرَّجلَ إذَا أدَّى زكاتهُ إِلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٢، رقم ٨٢٦٥).

شخصٍ يظنُّهُ منْ أهـلِ اليُسرِ فِي الزكاةِ، ثمَّ تبينَ لهُ أنَّه ليسَ بأهـلٍ لَهَا؛ فإنَّ الزكاةَ تَجْزِي، يَعني لَو أنَّك تَصَدقت عَلى إنسانٍ ودَفَعت إلَيْه زكاةً تظنُّهُ أهلًا لذلكَ، ثمَّ تبينَ أنَّه غنيٌّ؛ فإنَّ زكاتكَ مَقبولةٌ، بناءً عَلى مَا حَصل مِن ظنكَ.

هذَا مِن فعلِ الصدقةِ.

ومثالُ وقوعِ الخطأِ فِي الصَّومِ: قالتْ أسماءُ بنتُ أَبِي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أفطرنَا عَلى عهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فِي يومِ غيمٍ، ثمَّ طلعتِ الشمسُ»، وهذَا يحدُث؛ أنَّهم أَفْطروا قَبلَ الوقتِ، يَعني قبلَ أنْ تغربَ الشمسُ، ولمْ يأمرهمُ النبيُّ ﷺ بِالقضاءِ[1]، ولوْ كانَ القضاءُ وَاجبًا لأمرهمْ بِهِ؛ لأَنَّهُ إذَا كانَ وَاجبًا كانَ منَ الشَّريعةِ، فَالنبيُّ ﷺ يلزمهُ أنْ يبلغَ الشَّريعةَ، ولوْ كانَ أمر بهِ لنُقلَ إلينَا؛ لأنَّ الشَّريعةَ محفوظةٌ، فلَمَّا لمْ يُنقلْ إلَينا أنَّه أَمَرهمْ بِالقضاءِ؛ علِمنَا أنَّه لمْ يأمر بهِ، وأنَّ مَن أكلَ وتبيَّنَ أنهُ فِي نهارٍ فإنَّهُ لَا قضاءَ عليهِ.

ومثلُ ذلكَ: لَو قامَ الإنسانُ منَ اللَّيلِ، فأكلَ سَحورًا يظنُّ أنَّ الليلَ باقٍ، ثمَّ تبينَ أنه قَد طَلعَ الفجرُ قبلَ أنْ يتسحرَ؛ فإنَّ صومهُ صحيحٌ، ولا قضاءَ عليهِ ولَا إثمَ عليهِ.

وكذلكَ مِن أمثلةِ الخطأِ فِي الصِّيامِ: مَا وَرد عَن عديٍّ بنِ حاتمٍ حينَ أرادَ أنْ يصومَ، وكانَ قَد قرأَ قولَ اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فجعَل عديٌّ تَحت وِسادتهِ عِقالينِ -والعقالُ هوَ الحبلُ الذي تُربط به

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، رقم (١٩٥٩).

يدُ البعيرِ- أحدهما أَسودُ، والثَّاني أَبيضُ، وجعلَ يأكلُ، وكلَّما أكلَ نظرَ إِلى العقالين الأسودِ والأبيضِ؛ حتَّى تَبينَ لهُ العقالُ الأسودُ منَ العقالِ الأبيضِ، ثمَّ أمسكَ، فلمَّا أصبحَ غدَا إِلى رسولِ اللهِ ﷺ وأخبرهُ بأنَّه جعلَ يأكلُ حتَّى تبينَ العقالُ الأسودُ منَ العقَالِ الأبيضِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ وِسَادَكَ لَعَرِيضٌ**»[1]؛ لأنَّ المرادَ بالخيطِ الأبيضِ والأسودِ إنَّما هوَ بياضُ النهارِ وسوادُ الليلِ، ولمْ يأمرهُ بالإعادةِ؛ لأنَّه كانَ جَاهلًا بالحكمِ، يظنُّ أنَّ هذَا منْ مرادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وليسَ مرادَ اللهِ، أمَّا مَا وردَ فِي حديثِ أسماءَ فقدْ كانتْ جاهلةً بِالحالِ.

وقدْ صحَّ عنِ النبيِّ ﷺ منْ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أنَّه قالَ: «**مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ**»[2]، وعلَى هذَا فلو نَسِيت وشرِبتَ، أَو نَسيت وأَكلت وأنتَ صائمٌ فأتمَّ الصومَ، فإنما أَطعمكَ اللهُ وَسقاكَ، ولكنْ مَتَى ذَكرت أنَّك صائمٌ وَجب عَلَيكَ الإمساكُ، وكَذَلك مَتى عَلمت وَجب عَلَيكَ الإمساكُ.

وبِهَذا نكونُ قَد ذكرنَا أمثلةَ الخطأِ وَالنسيانِ فِي الصَّلاةِ، والصَّدقةِ، والصَّومِ.

فأمَّا النسيانُ فِي الحجِّ فإذَا فعلَ الإنسانُ محظورًا فِي الحجِّ فليسَ عليهِ إثمٌ، ولا فديةٌ، ولَا شيءٌ، ودليلُ ذلكَ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]، فقولهُ يدلُّ علَى أنَّ الإنسانَ إذَا قتلهُ غيرَ متعمدٍ فلَا شيءَ عليهِ، وهكذَا أيضًا جميعُ محظوراتِ الإحرامِ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب وقت السحور، رقم (٢٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، رقم (٦٢٩٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

إِذَا فَعَلها الإنسانُ جَاهلًا أَو نَاسيًا أَو مكرَهًا فلَا شيءَ عليهِ، فلوْ أنَّ الإنسانَ حلقَ شيئًا منْ رأسهِ جاهلًا أو نَاسيًا أَو جَامع زَوْجته جَاهلًا أَو ناسيًا وهوَ محرمٌ؛ فلا شيءَ عليهِ، وحجهُ صحيحٌ.

فإذَا فعلَ الإنسانُ شيئًا لجهلٍ أو نسيانٍ فلَا يؤاخذُ بهِ، فِي أيِّ عبادةٍ كانتْ، فإذَا عاملَ الإنسانُ فِي شيءٍ محرمٍ جاهلًا فلَا شيءَ عليهِ؛ لكنْ يجبُ عليهِ أنْ يصححَ العقدَ، مثالُ ذلكَ: رجلٌ باعَ درهمًا بِدرهمينِ، وبيعُ الدرهمِ بالدرهمينِ ربًا؛ ولكنَّهُ لَا يَدْري، نقولُ: هذَا الرجلُ لَيس بآثمٍ، ولكنْ يجبُ عليهِ أنْ يردَّ البيعَ، ودليلُ ذلكَ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ جاؤُوا إِلَيْه بتمرٍ جيدٍ، فقالَ: منْ أينَ هذَا؛ لأَنَّه كانَ ﷺ يعلمُ أنَّ تمرَ خيبرَ رديءٌ، قالُوا: يَا رسولَ اللهِ، كنَّا نأخذُ الصاعَ منْ هذَا بِالصَّاعينِ، والصَّاعين بِالثَّلاثةِ، فقالَ: «**عَيْنُ الرِّبَا، رُدُّوهُ**»[1]، ولكنَّه لمْ يُؤنبِّهم عَلى مَا فَعلوا؛ لأَنَّهُم كَانوا جَاهلينَ؛ لكن ردَّ البيعَ مِن أجلِ أنْ يصححَ العقدَ؛ لأنَّ هذَا يمكنُ تَلافيهِ؛ فَلذلكَ أمرَ النبـيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ برده حتَّى يقعَ العقدُ عَلى وجهٍ صحيحٍ.

بقيَ لَنا مما يُعذرُ بِهِ الإنسانُ الإِكراهُ، فإِذَا أُكرهَ الإِنسانُ عَلى شيءٍ فليسَ عليهِ إثمٌ، والدَّليلُ قولهُ تَعالَى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل:١٠٦]، فإذَا رفعَ اللهُ الحكمَ عمَّن أكرهَ عَلى الكفرِ؛ فَما دُونَ الكفرِ منْ بابِ أَوْلَى، وعَلَى هذَا فلَو أنَّ رجلًا أَكره إِنسانًا عَلى الأكلِ وهوَ صائمٌ فأكلَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب: إذا باع الوكيل شيئا فاسدًا، فبيعه مردود، رقم (٢٣١٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٤).

فإنَّهُ لَا يفسدُ صَومهُ بذلكَ.

ومنْ ذلكَ لَو أكرهَ الرَّجلُ زَوجتهُ عَلى الجماعِ، وهيَ صَائمةٌ، فَجَامعها، فإنَّ صَومها لَا يَفسد بِذلك؛ لأنَّها مُكرهةٌ، والمُكرَهُ مَرفوعٌ عنهُ حكمُ ذَلكَ الإكراهِ؛ لأنَّ اللهَ إذَا رفعَ الحكمَ في الإكراهِ عَلى الكفرِ فَما دُونه مِن بابِ أَوْلَى.

وقدْ رُويَ عنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[1].

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، والإصرُ بِمَعنى الشدةِ، أَيْ: لَا تَحمل عَلينا شِدة كَما حَملت علَى الَّذينَ مِن قبلنَا، الذينَ مِن قَبْلنا شَدد عَليهم وضَيق عَليهم، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ [الأنعام:١٤٦]، وأمرَ اللهُ تَعالى الذينَ عَبَدوا العجلَ أنْ يقتلَ بعضُهُم بَعضًا؛ تَحقيقًا لِلتوبةِ، وهَذَا -والحمدُ للهِ- لَا يوجدُ فِي هذهِ الشَّريعةِ، بَل إنَّنا نَجد فِي هذهِ الشَّريعةِ أنَّ مَن تَاب تَابَ اللهُ عليهِ، بِدونِ أَيِّ تشديدٍ عليهِ.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قالَ اللهُ: «**قَدْ فَعَلْتُ**»، فَلا يُحمَّلُ الإنسانُ منَ الأمورِ الشرعيَّةِ مَا لَا يُطيقه، وهذَا مِن رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ قالَ تَعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾، العفوُ فِي مقابلِ التفريطِ فِي

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٣)، والبيهقي (١٠/ ٦٠، رقم ١٩٧٩٨).

الواجباتِ، والغفرانُ فِي مقابلِ فعلِ المحرماتِ، وَالرحمةُ فِي مقابلِ هذَا وهذَا؛ فإنَّ اللهَ تَعالى إِذَا رَحِمَ الإنسانَ مَنَّ عليهِ بتركِ المحرماتِ، وفعلِ المأمورَاتِ.

ثمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي نهايةِ الآياتِ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وكانَ معاذُ بنُ جبلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذَا قرأَ هذهِ الآيةَ يقولُ: آمينَ؛ لأنَّهَا دعاءٌ، والدُّعاءُ يُؤمَّن عَلَيه.

واللهُ الموفقُ، وصلَّى اللهُ وسلَّم عَلَى نبيِّنا مُحمَّد، وعَلَى آلهِ وَأَصْحابه أَجْمعينَ.

الدرس الثامن:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، ونُصلِّي ونُسلِّم على نبيِّنا محُمَّد خاتمِ النبيينَ، وإمام المتقينَ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٤-٢٨٦].

قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كل ما في السَّماوات وما في الأرضِ فهو لله خَلْقًا وملكًا وتدبيرًا.

فمَنْ خلق ما في السَّماوات وما في الأرض؟ الله.. مَن الَّذِي يملك ما في السَّماوات والأرض؟ الله.. مَن الَّذِي يدبِّر ما في السَّماوات والأرض؟ الله.. إذن: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ وليس لأحدٍ ملك في السَّماوات ولا في الأرض.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٖ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣] فنفى الله تَعالَى عن هذه

الأصنامِ كلَّ ما يَتَعَلَّق به المشركون:

أولًا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني على وجه الاستقلال، ولا ذرَّة واحدة، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في السَّماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي مشاركة ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي ما لله ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: من مُعِين ومساعد، فالكل للهِ وحدَه يتصرف في ملكِه كما يشاء، لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ ولا رادَّ لأمرِه، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] واحدة ليس لها تكرارٌ، فجميع الملوكِ قد يأمرونَ ويأمرون ولا يُمْتَثَلُ أمرُهم، لكن مالِك الملك جَلَّوَعَلَا أمره واحد ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

قوله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟﴾ أي: تُظْهِروا ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، فما أظهره الإنسانُ من قولٍ أو فعلٍ يُحاسَب عليه، وما أخفاه يُحاسَب عليه، وهذا الحكمُ شديدٌ وليس خفيفًا، فما في النفس يُحاسَب عليه الإنسان، وهذا صعب جدًّا.

ولهذا لما نَزَلَتْ هذه الآية، أتى إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ خير الأُمَّة، وخير القرونِ؛ أصحابُ رسولِ الله ﷺ وجَثَوْا على رُكَبِهِم، ولهم خَنِين[1]، يقولون: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ:**

---

(١) الخنين: ضرب من البكاء.

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ».

فقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا -يعني: وسيُنزل الله الفرج- غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ.

فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فلما استسلموا لأمر الله -على شدَّته في نفوسهم- أنزل الله الفرجَ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ وهو محمَّد ﷺ ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

اللَّهُمَّ اجعلنا منهم يا ربَّ العالمين، اللَّهُمَّ ارزقنا إيمانًا لا شَكَّ معه، وإخلاصًا لا شِرك معه، واتباعًا لا ابتداع معه، يا ربَّ العالمين.

قوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ مفعول لفعلٍ محذوفٍ، أي نسألُك غفرانك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربَّنا.

قوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ يعني المَرجِع في أمورنا كلها، لا مَرجع إلا إلى الله؛ في أمور الشريعةِ، وفي أمور القضاءِ والقدَر.

فإذا مسَّك الضرُّ أيها الإنسان فإنك تَرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعندما تريد أن تعرف الشريعةَ لتعبدَ اللهَ بها فإنك ترجع إلى الله؛ إلى الكتابِ والسنَّة.

قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني لا يُلْزِمها ويحمِّلها شيئًا إلا ما

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، رقم (١٢٥).

تَقدِر عليه، وهذه -واللهِ- قاعدةٌ عظيمةٌ في الشريعةِ الإسلاميَّة، أن الله لا يُلزِم العبادَ إلا بما يستطيعونَ.

ولنضربْ لهذا أمثالًا: رجلٌ مريضٌ لا يستطيعُ الوضوءَ بالماءِ، فإنه لا يُلزَم أن يتوضأَ بالماءِ، بل يَتيَمَّم، والحمدُ للهِ، وإن لم يجدْ تُرابًا أو لا يستطيع أن يتيممَ لأنَّه مريض ما يستطيع أن يتحرَّك فإنه يُصَلِّي بلا وضوءٍ ولا تيممٍ؛ لأن الله لا يكلِّف نفسًا إلا وُسعَها.

كذلك: في الصَّلاةِ رجلٌ لا يستطيع أن يُصَلِّيَ الفريضةَ قائمًا، فإنه يُصَلِّي قاعدًا، فإن كان لا يستطيعُ أن يُصَلِّيَ قاعدًا، فإنه يُصَلِّي على جنبٍ، وإن كان لا يستطيعُ أن يُومِئَ فإنه ينوي بقلبه، فالإنسان الَّذِي لا يستطيعُ أن يومئَ برأسِه عند الرُّكُوع وعند السُّجُود فإنه يَنوي بقلبِه، يقول: اللهُ أكبرُ، ثمَّ يقرأ، ثمَّ إذا فرغَ من القراءةِ قال: اللهُ أكبرُ ونوى أنَّه راكعٌ.. إذن لا يكلِّف الله نفسًا إلا وُسعها.

كذلك في الصيام: إنسان مريض لا يستطيعُ أن يصومَ، لكن يرجو أن يُشفَى بعد شهرٍ أو شهرينِ، فإنه يُفطِر ويصوم في أيامٍ أُخَرَ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فهذا تيسير، فإن كان لا يستطيع أن يقضيَ لأن مرضَه مُزمِن، فإنه يُطعِم عن كل يومٍ مِسكينًا، والحمد للهِ الأمرُ ميسَّر.

نأتي إلى الحجِّ: إنسان عنده مالٌ كثيرٌ، لكنه شيخٌ كبيرٌ لا يستطيع الثُّبُوتَ على الراحلةِ، فإننا لا نَحْمِلُهُ على الراحلةِ ونَشُدُّ عليه السُّيُور، بل نقول: أَنِبْ غيرَك يحج عنك؛ لأن الأمر والحمدُ للهِ مُيَسَّر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ولهذا أخذ علماءُ المسلمينَ من هذه الآيةِ قاعدةً عظيمةً فقالوا: لا واجبَ معَ

عجزٍ، ولا مُحَرَّمَ مع ضرورةٍ. وهاتانِ قاعدتانِ عظيمتانِ في الإسلامِ.

مثال: رجلٌ وجبَ عليه كفارةُ قتلٍ؛ قتل نفسًا خطأً وليس عنده مالٌ يَشتري به رقبةً، ولا يستطيع الصيامَ، فلا شيءَ عليه؛ لا إطعام ولا غير إطعام؛ لأن الله لم يذكرْ في كفارةِ القتلِ إلا شيئينِ: العِتْقَ والصيامَ، وهذا يدلُّ على أن مَن عَجَزَ عن الصيامِ فلا شيءَ عليه.

كذلك: رجل جامَعَ زوجتَه في نهار رمضانَ، وهما صائمانِ في بلدهما، ولم يجدْ عتقَ رقبةٍ، ولا يستطيع صيامَ شهرينِ متتابعينِ، ولا يجد إطعامَ ستينَ مِسكينًا، فلا شيءَ عليه، وهكذا؛ لأن الله تَعَالَى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والحمد لله.

قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ يعني: لها ما كسبتْ من الحسناتِ، وعليها ما اكتسبتْ منَ السيئاتِ.

ثم اسمعِ القاعدةَ العظيمةَ الَّتي لا تَجِدُها في مُؤَلَّفٍ، إنَّما هي في كتابِ اللهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فقال الربُّ الكريمُ: «قَدْ فَعَلْتُ»[1]. يعني: لا أُؤاخذكم إن نسيتُم أو أخطأتم.

وهذه قاعدة عظيمة يا إخواني، لم يَكْتُبْها مؤلِّف من المخلوقينَ، ولم يَقُلْها ذو فَلسفةٍ من الفلاسفةِ، إنَّما قالها ربُّ العبادِ الَّذي يَتَعَبَّدُهُمْ بما شاء جَلَّ وَعَلَا، فيقول: لا مؤاخذةَ بالنسيانِ أوِ الخطأِ، والحمدُ للهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، رقم (١٢٦).

ولنضربْ لهذا أمثلةً: رجـلٌ صلى، ولما انصرفَ من صلاتِهِ وجدَ على ثَوبِه نجاسةً، لكن لم يعلمْ بها قبل أن يصليَ، فحُكمُ صلاتِه أنَّها صحيحةٌ؛ لأنَّه لم يعلمْ، فهو داخل في قولِه: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

رجلٌ آخرُ كان على ثوبِه نَجاسة وأراد أن يَغسِلَها، ولكـنه نسيَ فصلَّى فيه، والرجلُ الآنَ يعلمُ النجاسة لكن نسيَ فصلَّى في ثوبِه، فحُكْمُه أنَّه لا شيءَ عليه؛ لأنَّه ناسٍ.

ولهذا أقول: يَنبغي لَمن أصابتْ ثوبَه نجاسةٌ أنْ يُبادِرَ بِغَسلِها، ولا يقول: إذا أردتُ أن أصليَ غسلتُ الثوبَ، بل بادِرْ بالغَسلِ حتَّى لا تنسَى. وهل لهذا أصلٌ في السنَّة؟

الجواب: نعم، أُتي النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بصبيٍّ صغيرٍ يرضعُ، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أحسنَ النَّاسِ خُلُقًا، وكان يَرحَم الصبيانَ، ويتلطَّف لهم، ويتحمَّل أذاهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، جِيءَ بالصبيِّ وأقعدهُ في حجرِه، فبال الصبيُّ، وهو لا يعلمُ أنَّه في حجرِ رسولِ اللهِ ﷺ! فدعا النبي ﷺ فورًا بماء فَصَبَّهُ عليه[1]، وما قال: إذا جاء وقتُ الصَّلاة نضحتُه، بل صَبَّهُ عليه.

وقصة أخرى: جاء رجل من الأعرابِ إلى مسجدِ النبي ﷺ، ومسجدُ النبي ﷺ أشرفُ المساجدِ بعد المسجدِ الحرامِ، فتنحَّى في ناحيةٍ من المسجدِ وجعل يَبُولُ؛ لأنَّه أعرابيٌّ جاهِلٌ، ما يَدري، يَحسِب البول في رَحَبَةِ[2] المسجدِ كالبولِ في البرِّ، فلمَّا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب بول الصبيان، رقم (٢٢٣)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (٢٨٧).

(٢) رَحَبَةُ المسجد بفتح الحاء: ساحته. مختار الصحاح (رحب).

جلسَ يبولُ قام الصَّحَابَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يَزْجُرُونَه، ولكن الَّذِي أعطاهُ اللهُ الحكمةَ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ ﷺ نهاهم، قال: «**لَا تُزْرِمُوهُ**» أي: لا تَقطَعوا بولَه عليه، دَعُوه يَبُول ويُكمِل، فأقره النبيُّ ﷺ على منكَرٍ اتقاءً لما هو أعظمُ منه، وهذا من الحكمةِ، فقد أقره على منكرٍ لئلَّا يقعَ فيما هو أعظمُ.

فلما انتهى الأعرابيُّ من البولِ في الحالِ أمرَ النبيُّ ﷺ أن يُراقَ على بولِهِ سَجْلٌ من ماءٍ[1]، أي دَلْو أو سَطْل من الماءِ يُصَبُّ على البولِ، ولم يتأخَّرِ الرَّسُولُ ﷺ في إزالةِ النجاسةِ، وما قال: تأتي الشمسُ والهواءُ والريحُ أو المطرُ ويزولُ، بل قال: الآن صُبُّوا عليه.

وهذا يدل على أن السنَّة أن يُبادَر بإزالةِ النجاسةِ، سواء على المُصَلَّى أو على ثوبِكَ، أو على بَدَنِكَ، ولا تَتَهَاوَن.

وهذا الأعرابيُّ الَّذِي بال وانتهَى من بولِه، دعاه الرَّسُول ﷺ وقال له بِلُطْفٍ، ولم يُوَبِّخْهُ لأنَّه بال في المسجدِ، بل قال له بلطفٍ، وانتبهْ أيها الآمِرُ بالمعروفِ والناهي عن المنكَر، انتبه أيها الداعي إلى اللهِ، وعامِلِ النَّاسَ بالرِّفق؛ فإن الله تَعَالَى يعطي على الرفق ما لا يُعطِي على العُنف. قال للرجل: «**إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ وَلَا القَذَرِ**»؛ لأن الله أذِن أن تُرفَع، فلا يَصلُح فيها شيءٌ منَ الأذى والقذر «**إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ**». اللَّهُمَّ صلِّ وسلم عليه وارزقنا اتباعَه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، رقم (٢٨٤، ٢٨٥).

فلما قال هذا الكلام انشرحَ صدرُ الأعرابيُّ، وقال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِـي وَمُحَمَّدًا، وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا»[(١)]؛ فهو يطلبُ الرحمـةَ لنفسِه، وما يُلام على هـذا، ولمُحَمَّـدٍ -صلوات الله وسلامه عليه- لأنَّه لم يَزْجُرْهُ وتكلمَ بالرفقِ، وبيَّن الحُكْم والحكمة، أما الآخرون وهم الصَّحَابَة فقد زَجَروه ونَهَوْهُ بشدةٍ، ولهذا قال: «لا تَرْحَمْ مَعَنَا أحدًا». ونقول: عفا اللهُ عنه، رحمةُ الله واسعةٌ تَسَعُ النبيَّ ﷺ والأعرابيَّ وكلَّ شيءٍ.

وهذا الحديث يدلُّ على ما تدلُّ عليه الآية؛ أن الجاهلَ لا يُؤاخَذ، وأن المفاسدَ تُدفَع الكـبرى بالصغرى؛ لأن هذا الرجـلَ لو قام وهو يَبُول أثناءَ بولِه لَتَضَرَّرَ هو بنفسِه؛ لأن إمساكَ البـولِ مع استعدادِه للخروجِ ضررٌ على مَجاري البولِ، هـذه واحدة، ولأنه لو قام فإما أن يبقَى كاشفًا عورتَه فيرى النَّاس عورتَه، ويتلوَّث المسجدُ بالنقطِ، وإما أن يَستُر بإزارِه عـورتَه فيتلوَّث الإزارُ والفَخِذُ، والمفسدةُ حصلتْ بالبولِ، فلْتُخَفَّفْ بقدْر الإمكان.

إذن هذا مثال على القاعدةِ في الطهارةِ.

كذلك أيضًا في الصَّلاة: كلام النَّاس في الصَّلاةِ حرامٌ، كإنسان مثلًا بجانبهِ صاحبُه، وقال: يا فلانُ -وهو يصلي- لا تنسَ الموعدَ الَّذِي اتفقنا مع فلانٍ عليه، فهذا لا يجوز، وكان الصَّحَابَة أولَ الأمرِ يتكلم بعضهم إلى بعضٍ في الصَّلاةِ؛ حتَّى نزل قوله تَعَالَى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨][(٢)]، فأُمِرُوا بالسكوتِ، ونُهُوا عن الكلام. فلو أن إنسانًا تكلَّم جاهلًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم، رقم (٦٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة، رقم (١٢٠٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٩).

يَحسِب أن الكلام لا يَضُرُّ، فلا تبطُل صلاتهُ؛ لقولِهِ تَعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. فهذا الرجل مُخطِئ، ولو علِم أن الكلامَ حرامٌ ما تكلَّم، لكن يَحسِب أن الكلام اليسيرَ لا بأسَ به.

ولهذا شاهد في السنَّة: دخلَ مُعاويةُ بنُ الحكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصَّلاةِ، فعطسَ رجلٌ منَ الَّذِينَ يصلون..

وإذا عطسَ الإنسانُ خارجَ الصَّلاةِ فإنه يقول: الحمدُ للهِ لا شكَّ، لكن إذا عطسَ في الصَّلاةِ فإنه يقول بعضُ العلماءِ: لا يقول؛ قال: لأن في الصَّلاة شُغلًا، والصَّلاة لها أذكارٌ خاصةٌ، فلا تقل إذا عطستَ: الحمد لله. لكن القول الراجح أنك إذا عطستَ في الصَّلاةِ أن تقول: الحمدُ للهِ.

ومعاويةُ بنُ الحكمِ غير معاويةَ بنِ أبي سُفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمعاويةُ بنُ أبي سفيانَ أحد أُمراء المؤمنينَ، لكن معاوية بن الحكَم ليس كذلك، وهو منَ الصَّحَابَة.

سمِع معاويةُ هذا الرجلَ لما عطسَ قال: الحمد لله، فقال له معاوية: يَرحَمُك الله، فلما قال: يرحمك الله جعل الصَّحَابَة ينظرونَ إليه يُنكِرون هذا، ورماه النَّاس بأَبْصَارِهِم، فقال: واثُكْلَ أُمِّيَاه[1]. فجعلوا يَضرِبون على أفخاذهم يُسْكِتُونه، فسكتَ هذا الرجلُ.

فهو إذن تكلمَ في الصَّلاةِ مرتينِ، فلما انصرف من صلاته يقول معاوية: فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي، وَلَا ضَرَبَنِي، وَلَا شَتَمَنِي. قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا**

---

(١) كلمة توجع ونُدبة.

شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

ولم يأمره بإعادة الصَّلاة، فما قال: أَعِد صلاتك، مع أنَّه فعل شيئا مُحَرَّمًا، لكن فعله جاهلًا.

كذلك: رجل يُصَلِّي فاستأذن عليه أحدٌ يدقُّ البابَ، فنسيَ وهو يُصَلِّي وقال: تَفَضَّلْ، وهو يُصَلِّي لكنه ناسٍ، فصلاتُه صحيحةٌ، والدَّليل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. الحمد لله.

إذن أخذنا أمثلةً في الطهارةِ، وفي الصَّلاةِ، فنتناول الصيام: رجل صائمٌ وكان عطشانَ، فمر بالبَرَّادةِ فشربَ، فلما شرب ذكر أنَّه صائم، فصيامُه صحيحٌ، والدَّليل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وهناك أيضًا دليل خاصٌّ بالموضوعِ، وهو حديثُ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ قال: «**مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ**»[٢]. الحمد لله.

كذلك: رجل في البرِّ، وهو صائمٌ، والسَّماء غَيْم مُدْلَهِمَّة[٣]، ثمَّ لما أكل وشرِب إذا بالغيمِ يَنجلي والشمسُ تطلُع، فصيامه صحيح؛ لأنَّه لم يُفطِر وهو يعلمُ أنَّه في النهار، ولكنه جاهل، يظن أنَّه في الليلِ، فالصيامُ صحيحٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيًا، رقم (١٩٣٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب أكل النَّاسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

(٣) أي: مُظْلِمة.

ومثل هذا ما وقعَ في هذا البلدِ قبل أيام قليلةٍ بعد رمضانَ، سمِع المؤذنُ صَوتًا في الراديو -أظن- يُؤَذِّن، ومعلومٌ أننا هنا -في مكة- نسمع أذان الرياضِ، فأمسكَ بالميكروفون وأذَّن، فأفطر أهـل الحيِّ، وبعد ذلك أذَّن المؤذِّن، فصيام أهـلِ الحيِّ صحيحٌ؛ لأنهم مَعْذُورُونَ، فقد أَفْطَروا على الأذان، فصيامهم صحيحٌ.

فإذا سألكم سائل: ما هو الدَّلِيل؟ قلنا: قوله تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وهناك دليلٌ خاصٌّ في المسألةِ، أخرجه البُخَارِيُّ في صَحِيحِه عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قالتْ: «أَفْطَرْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ غَيْمٍ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ»[1].

إذن أكلوا وشَربوا في النهارِ؛ لكنهم جاهلون، لا يَدرون، فظَنُّوا أن الشمسَ غَرَبَتْ، ولم يَأْمُرْهُمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بالقضاءِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يعلمُ مرادَ اللهِ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، ولذلك لم يأمُـرْهُم بالقضاءِ، ولو كان القضاءُ واجبًا لأمـرهم به؛ لوجوبِ الإبلاغِ عليه، ولو أَمَرَهم به لَنُقِلَ إلينا؛ لأنَّه يكون من الشريعةِ، والشريعةُ محفوظةٌ والحمدُ لله.

إذن هذا في الصَّومِ، وبقيَ علينا الحجُّ:

رجل أحرمَ فلبِس الإزارَ والرداءَ، ونسي أن يخلعَ السراويلَ، ولم يتذكرْ إلا حينَ وصل إلى مَكَّة فخلعَ السروالَ، فلا شيءَ عليه، مع أنَّه لا يجوزُ لُبس السَّراويل مع وجود الإزارِ، والدَّلِيلُ على قولنا: لا شيءَ عليه قولُه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثمَّ طلعت الشمس، رقم (١٩٥٩).

كذلك في الحجِّ رجلٌ وقفَ هو وزوجتُه في عَرَفَةَ، ودفعوا من عرفةَ إلى مُزْدَلِفَة، وباتوا بها، وكان هذا الرجلُ (فقيهًا غيرَ فقيهٍ)، وقد سمِع بالحديث «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»[1] فقال: انقضَى الحجُّ، فبات مع زوجتِه تلك الليلةَ وجامَعَها، ولسانُ حالِه يقول: إن الجماعَ في هذه الليلة حلالٌ، ودليلُهُ قولُ النبي ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**». وجاء يسأل: هل جِماعه حلالٌ أو حرامٌ؟

نقول: حرام لا شـكَّ؛ لأن جماع الحاجِّ لا يجـوز إلا إذا رَمَى وحلقَ وطافَ وسعَى، وهذا ما فعل شيئًا من هذا. والذي يَلْزَمُـهُ لو كان مُتَعَمِّدًا المُضِيُّ في حجِّه والقضاءُ من العامِ القادمِ، وبَدَنَة يَذْبَحها ويُوَزِّعها للفقراءِ، فأمرُه شديدٌ، لكن هذا الرجل جاهِل ومُسْتَنِد على دليلٍ ليس فيه دَلالةٌ على ما يريدُ، فنعذرهُ ونقول: حجُّك صحيح. والدَّلِيل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

ويشكِل على هذا شيء: رجل سلَّم من صلاة الظُّهْر الرباعيَّة في الركعة الثَّالثةِ، ونسيَ الرَّابِعة، وخرج إلى بيته وانتهـى، ثمَّ بعد ذلك تبيَّن أنَّه صلى ثلاثًا، فنقـول: صلاتُه غيرُ صحيحةٍ.

فإنْ قال: كيف تَقولون: إنَّها غيرُ صحيحةٍ والله يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؟

قلنا: إن النبيَّ ﷺ أعلمُ بكتابِ اللهِ منك، فلما سلَّم في صلاةِ الظُّهْر أوِ العصرِ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، رقم (١٩٤٩)، والترمذي: أبواب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، رقم (٨٨٩)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، رقم (٣٠١٦)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، رقم (٣٠١٥).

من ركعتينِ ناسيًا وذُكِّر فَذَكَرَ أتمَّ[١]، ولما صلى خمسًا، وذكَّروه أنَّه صلى خمسًا لم يَقُل: إني ناسٍ وانتهى، بل سجد للسهوِ جبرًا لهذه الزيادةِ[٢]. فلا يبقى عندنا إشكالٌ -والحمدُ للهِ- في الموضوعِ؛ فالذي لا يُؤاخَذ فيه بالخطأِ والنسيانِ هو فِعل المحرَّم دونَ تركِ الواجبِ، أما تركُ الواجبِ فلا بُدَّ من الإتيانِ بالواجب، أو بِبَدَله إن كان له بدلٌ، وما يسقُط بالجهلِ والنسيانِ، اللَّهُمَّ إلا إذا كان الإنسانُ قد عاش في الباديةِ بعيدًا عن العلمِ فهنا يسقط الواجبُ.

والدَّلِيل على هذا أن رجلًا دخل المسجدَ وصلَّى صلاةً لا يطمئنُّ فيها ويُسْرِعُ، وجاء وسلَّم على النبي ﷺ، فقال له: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فصلى الرجل صلاةً لا يطمئنُّ فيها، ثمَّ عاد وسلَّم، فقال له: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» فعاد الرجل ثمَّ رجع فقال: «**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»؛ لأنَّه لم يطمئنَّ، والطمأنينةُ ركنٌ من أركانِ الصَّلاةِ، قال: والذي بعثك بالحقِّ لا أُحْسِن غير هذا، فعلِّمني. فعلمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٣].

إذن القاعدةُ أن سقوطَ المؤاخذةِ بالجهلِ والنسيانِ إنَّما هو في فِعل المحرَّم، أما الواجبُ فلا يسقطُ بالنسيانِ، بل يُؤتى به، فإن لم يكن له بدلٌ سقطَ؛ لأن الله لا يُكَلِّف نفسًا إلا وُسْعَها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب ما جاء في السهو، باب إذا صلى خمسا، رقم (١٢٢٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب: اقرأ ما تيسر معك من القُرآن، رقم (٣٩٧).

وانظر -يا أخي- الثمرةَ العظيمةَ في الاستسلامِ التامِّ للهِ وكيف يُفَرِّجُ اللهُ تَعَالَى للإنسانِ، فالصَّحَابَة لما استسلموا وقالوا: سمِعنا وأطعنا فرَّج الله لهم[1]، وهكذا لو أن أحدًا من النَّاسِ يعيش على أكل الرِّبَا والمعاملةِ بالربا ويرابي فقيل له: اتقِ الله ودع الربا، فتركه لله، فإن الله سوفَ يعوِّضه خيرًا مِمَّا ترك؛ لأن الاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ كله خير، وكله بركة.

أسأل الله تَعَالَى أن يجعلني وإياكم ممن أسلم قلبه ووجهه لله.

فإذا استسلم الإنسان لربِّه حصلَ له الخيرُ العظيمُ، وقد لا يكون في الحالِ امتحانًا من اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكن العاقبة للمتَّقين. فاتقِ الله -يا أخي- ولا تستعجِلْ، فقد يكون العِوَض عاجلًا، وقد يكون آجلًا، فيمتحن الله العبدَ هل يبقى على ما هو عليه من تقوى الله، أو ينكُص على عَقِبَيْهِ والعياذُ باللهِ. أسأل الله لي ولكم التوفيقَ والسدادَ.

والحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، رقم (١٢٥).

الدرس التاسع:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمدٍ وعَلى آلهِ وأَصْحابه ومَنْ تَبِعهم بِإِحسانٍ إِلَى يوم الدينِ، **أمَّا بعدُ:**

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، لـمَّا نزلتْ هذهِ الآيةُ الكَريمةُ جاءَ الصحابةُ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَزعينَ، وقَالُوا: يَا رسولَ اللهِ، كَيف نُؤاخذُ بِما لَم نَتكلم به، ولمْ نَعملْ بهِ؟ فقالَ لَهمُ النبيُّ ﷺ: «**لَا تكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، وَلَكِنْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**»[1]، فَفَعلوا ذَلك، فقالُوا: سَمِعنا وَأَطعنا، فَأنزلَ اللهُ لَهمُ الفرجَ فِي قولهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فَخففَ اللهُ عنهمْ، وأسقطَ عَنهمْ مَا لَم يَعْملوا، أَو يتكَلموا بِه، أَو يَقع فِي نَفْسهم فِعْلُه.

وهاهنا مسألة: إذَا فعلَ الإنسانُ شَيئًا مُحرمًا خطأً، ولَا يَدْري أنَّه محرَّم فَلَيس عَليه شيءٌ، مَهما كَان هذَا الذنبُ، ومَهما عَظُمَ، لكنْ إذَا علِمَ بِالتحريمِ وجَب عَليهِ الكفُّ، وكذلكَ مَن فَعل شيئًا نَاسيًا مما حرمَ اللهُ عَليه فإنَّه لَا حرجَ عليهِ، ولَا إثمَ، ولَا كفارةَ؛ لأنَّ اللهَ عَفَا عَن ذَلكَ، وكَذَلك مَن نسيَ وفعلَ شَيئًا مُحرمًا فَلا شيءَ عليهِ، ولَا كفارةَ، ولَا إثمَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم (١٨٤).

ولنَضْرب لذَلِك عدةَ أمثلةٍ:

المثالُ الأَوَّلُ: رجلٌ تكلَّم وهُو يصلِّي جَاهلًا يظنُّ أنَّ الكلامَ فِي الصلاةِ حلالٌ، ثمَّ جاءَ يَسْتفتي، فنقولُ لهُ: لَا شيءَ عليكَ، صَلاتكَ صَحيحةٌ، ولَا إِعادةَ عليكَ؛ ويدلُّ لهذَا أنَّ رجلًا تكلمَ فِي الصلاةِ معَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ جاهلًا، فَلَما انصرفَ منَ الصلاةِ لَمْ يأمرهُ النبيُّ ﷺ أنْ يعيدَ الصلاةَ(١).

المثالُ الثَّاني: رجلٌ بالَ فِي المسجدِ مِن غيرِ أنْ يعلمَ أنَّه حرامٌ، والمعلومُ أنَّ هذَا محرمٌ، فَقامَ الناسُ يَزْجرونهُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ لَا تُزْرِمُوهُ**»، أَي: لَا تَقْطعوا عَليه بولَهُ، فَتركهُ يَبولُ حتَّى قضَى بولهُ، فلَما انتَهى منَ الصَّلاةِ دعَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ الرجلَ، فقالَ لهُ: «**إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا يَصِحُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الأَذَى، إِنَّمَا هِيَ التَّكْبِيرُ وَالتَّحْمِيدُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ**»، أَو كَما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ(٢)، ولمْ يأمرهُ بِالإعادةِ؛ لأَنَّه كانَ جَاهلًا لَا يَدْري.

المثالُ الثالثُ: رجلٌ كَان يُصلِّي، فسلمَ عَليه آخرُ، فقالَ هذَا المصلِّي: عليكَ السلامُ؛ لكنَّه جاهلٌ لَا يَدْري أنَّ هذَا حرامٌ، فَلم يَأمرهُ النبيُّ ﷺ بالإعادةِ؛ لأنهُ كَان جَاهلًا، وقَد عَفَا اللهُ عَن هذهِ الأمةِ الجهلَ، ولله الحمدُ.

المثالُ الرَّابع: رجلٌ كانَ يصومُ، ولَمَّا استيقظَ منَ اللَّيلِ جعلَ يَأكلُ ويَشربُ؛ بناءً عَلى أنَّ الليلَ باقٍ، فَتبين لَه بعدَ ذلكَ أنَّ الليلَ قَدِ انتَهى، وأنَّ الشمسَ قَد طلعتْ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٨٤١).

فأَمْسك، ولمْ يأمرْهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بِالإعادةِ؛ لأَنَّه أكلَ جَاهلًا يظنُّ أنَّ الليلَ باقٍ.

منْ ذلكَ أَيضًا: لَو أنَّ رجلًا كانَ مُسافرًا ومعهُ أهلهُ، فَجامعَ أهلهُ فِي رمضانَ، فإنَّ صيامَهُ صَحيحٌ؛ لأنَّ الصيامَ فِي حقِّ هذَا الرجلِ لَيس بِواجبٍ، ولكنْ عليهِ قضاءُ يومٍ آخرَ بدلَ اليومِ الَّذي صامهُ وَأَفْسده بِالفطرِ.

ومنْ ذلكَ أيضًا: لوْ أنَّ رجلًا كانَ مُحرِمًا بِحجٍّ أَو عمرةٍ، ثمَّ تطيَّبَ نَاسيًا، فَحَجُّه صَحيحٌ؛ ولكنْ عليهِ أنْ يغسلَ أثرَ الطيبِ؛ لأَنَّه لَا زالَ فِي إحرامٍ.

ولو أنَّ رجلًا قالَ لِزَوجتِهِ: إنْ كَلمتِ فُلانًا فأنتِ طالقٌ، ثمَّ كلمتْ فُلانًا، ولمْ تعلمْ أَنَّه هُو، فإنَّها لا تَطْلُقُ، وليسَ عليهِ حِنثٌ؛ لأَنَّه حنث فِي هـذَا الطلاقِ جَاهلًا، والحانثُ جَاهلًا لَا شيءَ عليهِ.

ومنْ ذلكَ أيضًا: لَو أنَّ رجـلًا مُحرِمًا بحجٍّ أَو عمرةٍ وقـفَ عَلى عطارٍ، فأَخذ بِرأسِ إصبعهِ لِيَشَم طِيبًا، وهُو لَمْ يدرِ أَنَّه طيبٌ، فلَا شيءَ عَلَيْهِ، لكنْ عليهِ أنْ يغسلَ أثرَ الطيبِ.

مثالٌ آخرُ: لَو أنَّ رجلًا استكرهَ إِنسانًا عَلى الكفرِ وَالعياذُ بِاللهِ، وقالَ لهُ: إمَّا أنْ تكفرَ، وإمَّا أنْ أقتلكَ، فهذَا الرجلُ تَردد وارْتَبك؛ ولكنَّه مَضى وأجابَ الَّذي أكرهه عَلى إِكْراهه؛ فإنَّه لَيس عَليهِ شيءٌ.

ولوْ أنَّ رجلًا كَان مُحرِمًا بحجٍّ أَو عمرةٍ، ثمَّ رمَى صَيدًا وهوَ محرمٌ؛ لكنَّهُ لَا يظنُّ أَنَّه صيدُ محرم؛ فلا شيءَ عَلَيْهِ، لَا إثمَ وَلَا كَفارةَ.

وهذِهِ القاعِدَةُ لَيست مَكتوبةً مِن خطِّ عالمٍ أَو قولِ عالمٍ، بل هذِهِ القَاعدةُ منْ عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُلزِمَ شَخصًا فَعَلَ محظورًا جَاهلًا بشيءٍ منْ كفَّاراتِ القضاءِ إلَّا بدليلٍ؛ ولهذَا نقولُ: مَا ثبتَ بدليلٍ فإنَّهُ لَا ينفسخُ إلَّا بِدليلٍ.

ثمَّ إنَّ بعضَ العلماءِ يشددُ فِي هذَا ويوجبُ الكفَّارةَ عَلى مَن كانَ نَاسيًا أَو جَاهلًا أَو مُكرَهًا، وهذَا القولُ ضعيفٌ، ولَا أَدْري أَين تَكونُ حجةُ هذَا المفتِي عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إذَا كانَ اللهُ قَد وَسَّعَ عَلى عبادِهِ؛ فمنْ أَيْن تَأْتي الرُّخصةُ، فدَعِ الأمرَ عَلى مَا هوَ عليهِ وعَلَى رُخصتِهِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أعلمُ بعبادِهِ، وأعلمُ بِمصالحهمْ.

فَقولهُ تَعَالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَي: سَمِعنا بِآذَاننا، وَانقَدنا بِقُلوبنا، فَاسْتَسلمَ الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لهذَا الحكمِ، رَضُوا وسَلَّموا، ويسَّر اللهُ لهمْ.

وقولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ يَعْني نَسألكَ غُفرانك. والمغفرةُ هِي أنْ يسترَ اللهُ الذَّنبَ عَلى العبدِ، ويُسْقِط عُقوبتهُ.

وقَولهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ يَعنـي أنَّنا سنصيرُ إلى اللهِ كَـما قالُ تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، فَلْيتذكرِ الإنسانُ هذِهِ الملاقَاةَ، وكيـفَ يُلاقي اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِها، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وعندَ قولِهِ تَعَالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ﴾ يَنْبَغي لِلقارِئِ أنْ يَقفَ عَلى قَـولِهِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وأنْ يجـعلَ قولهُ: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ جملةً جديدةً؛ حتَّـى لَا يَلتبسَ عَلى السامعِ أنَّ مَعنى الآيةِ: سَمِعنا وأَطَعنا غُفرانكَ، والصوابُ أنَّ معناهُ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لِقولكَ: ربَّنا، ولكنَّنا نسألكَ ﴿غُفْرَانَكَ﴾. ومغفرةُ الذُّنوبِ هيَ

أَقْصى مَا يطلبهُ الطَّالبونَ؛ لأَنَّهُ إذَا غُفر لِلمرءِ حَصل لَه خلوٌّ منَ الذُّنوبِ، وانفكاكٌ منَ العيوبِ، وسلِمَ منْ أشياءَ كثيرةٍ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس العاشر:

الحمد لله ربِّ العالمينَ، وأُصلي وأُسلِّم عَلَى نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النبيِّينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٤-٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (ما) اسم موصول يعمُّ كلَّ ما فِي السماواتِ والأرضِ، فكل ما فِي السماوات والأرض فهو لله لا يَشْرَكُه فيه أحدٌ؛ كما قالَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فِي سُورَة فاطر: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٖ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

وفي الآية حصر؛ أي: حصر ملك السماوات والأرض لله وحده، والحصرُ تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ، وطريقُ الحصرِ فِي هَذِهِ الآية تقديم الخبرِ.

فلو أردنا أن نُعرِبها لقلنا: (ما) مبتدأ، و(لله) خبره، فقدّم الخبر، وتقديم الخبر يفيد الحصرَ والاختصاصَ، فمُلْكُ السماواتِ والأرضِ للهِ وحدَه، أما ملكنا نَحْنُ لما نملكه كملك الإِنْسَان لقلمِه، أو لساعتِه، أو لثوبِه، فهذا ملك قاصرٌ. ولهذا لا يَحِلُّ لنا أن نتصرَّفَ فِي هَذَا الملكِ إِلَّا حَسَب ما أَذِنَ اللهُ لنا فيه، أرأيتم لو أن إِنْسَانًا أراد أن يُحرِق مالَه، فهل يَملِك هذا؟

الجواب: لا؛ لأنَّ الله تَعَالَى يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥] يعني: فيفسدوها، ونهى النَّبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عن إضاعة المال[١].

قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ هَذِهِ الجملة شديدة عَلَى الإِنْسَان؛ أن الإِنْسَان إذا أَضمرَ فِي نفسِه شيئًا حَاسَبَه اللهُ، سواء أبداهُ أو أخفاهُ، وهَذَا صعب جدًّا؛ ولهذا نزلت الآية بعدها وهي قول الله تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فالحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، فما لا يُمكِنك مِمَّا تُحَدِّثُك به نفسُك فإنَّه لا يَضُرُّك شيئًا، ولو كانَ أعظمَ عظيمٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولِقَوْلِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ**

(١) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه، رقم (٥٩٣).

أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(١).

اللَّهُمَّ لك الحمدُ، هذه نعمة، فحديث النفسِ لا مُنتهى له، فالنفس تحدِّث الإِنْسَان بأشياءَ ربما تكون فظيعةً، وربما تكون كفرًا وشِركًا وإلحادًا تحدِّثه به، ولكنه لا يُؤاخَذ عَلَى هذا، إنَّما يجب عليه أن يفعلَ ما يطردُ به هَذَا الحَدِيثَ الَّذِي حدثتْ به النفسُ، وإنما يطرد هَذَا الحَدِيثَ شيئَانِ، وصفهما لنا طبيب الأُمَّة مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حيث قال: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»(٢).

وهاتان كلمتان إحداهما تستطيعها، وباختيارِك، وهي الانتهاءُ، والثَّانية بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: تستعيذ باللهِ، ومعنى الاستعاذةِ بالله: الالتجاءُ والاعتصامُ، فمعنى (أعوذ بالله من الشيطان): أَلْتَجِئ إِلَى اللهِ وأعتصِم به منَ الشيطانِ؛ لأنَّ الَّذِي يُلقِي هَذِهِ الوساوس فِي القلوبِ هُوَ الشيطانُ.

وجَاءَ النبيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحَدُنَا يَجِدُ الشَّيْءَ لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً -أي: فَحْمة مُحْتَرِقَة- أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ؟ قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ أَمْرَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ»(٣).

والصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شكَوْا إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا وقَالُوا: إِنَّا نَجِدُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

(٣) أخرجه أبو داود: أبواب النوم، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٢٤٩، رقم ١٠٤٣٦).

فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[١].

والصريحُ من كل شيءٍ: خالصُه، وإنما كانَ هَذَا صريحَ الإيمانِ لأنَّ الشيطانَ يحاول أن يكدِّر هَـذَا الصريحَ، ولو كانَ الصريحُ كدرًا ما حاولَ؛ ولهذا قيل لابن عبَّاس: إن اليهود تزعُم أنها لا توسوسُ في صلاتها -يعني ونحن المُسْلِمِـينَ نفكِّر، وفعلًا نحنُ نفكر كثيرًا بأشياءَ لا فائدة منها- فقال: «وما يَصنَعُ الشَّيْطَانُ بِالقَلْبِ الخَرَابِ؟»[٢]. يعني ماذا يفعل بقلبٍ خرِب، فما يَقْرَبه الشيطانُ؛ لأنَّه خَرِب، إنَّما يأتي الشيطانُ القلوبَ الصَّحيحةَ لِيُمْرِضَها، والصَّالحِة لِيُفْسِدَها.

وقال النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ**»[٣].

إذن هذه الآية من نعمـةِ اللهِ. وعليك أخـي المسلم ألَّا تستوليَ عليـك هَذِهِ الوساوسُ حتَّى تَنخدِعَ وتخضَعَ لها، بلِ اطرُدْها بشيئينِ هما الاستعاذةُ باللهِ والإعراضُ عنها، فانتهِ عنها وصُدَّ عنها ولا تهمّك، واشتغِلْ بما بين يديْك، وانسَها حتَّى تزولَ عنك بالكُلِّيَّة.

وهل قوله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص:٢٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، رقم (٧٢٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٦).

بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[١] يَشمَل الوساوسَ فِي العلاقاتِ بين الزَّوْجين، بمعنى لو أن الشيطانَ حدَّثك فِي نفسك بأنك طلقتَ زوجتَك، فهل تطلُق؟ مثل إِنْسَان يحدِّث نفسه ويقول: هَذِهِ زوجة ليست بصالحةٍ، وقد أتعبتني، وفعلتْ ما فعلتْ، ثمَّ يقول بنفسه: هِيَ طالِق، دون أن ينطِق به بلسانِه، فهل تَطْلُق أو لا؟

الجواب: لا تطلُق، ولهذا لِيَطْمَئِنَّ أولئك الَّذِينَ يُلقي الشيطانُ فِي قلوبهم أن طلَّقوا زوجاتِهم دون أن يتكلموا بذلك؛ لِيَطْمَئِنُّوا أن زوجاتِهم باقياتٌ، وأنهنَّ لم يَطْلُقنَ، وهذه من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ.

مثال: هَمَّ إِنْسَان أن يفعلَ معصيةً، ولكن تذكَّر عظمةَ اللهِ، وتذكَّر عقابَ المعاصي فِي القلوبِ؛ لأنَّ المعاصيَ سِهام القلوب تخرِق القلوب حتَّى تَتلَفَ، فلما تذكر هَذا خاف اللهَ وترك الهمَّ بالمعصيةِ، ماذا يكون عليه؟ وهل يأثم أو لا يأثم؟

الجواب: لا يأثم، بل يُؤجَر، فيكتبها الله تَعَالَى حسنةً كاملةً، ولله الحمدُ، قالَ فِي الحَدِيث: «**إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي**»[٢]. ومعنى من جرائي أي: من أجلي.

إذن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أن حديث النفسِ لا أثرَ له، ولكن اخشَ واحذرْ أن يتسلَّط عليك الشيطان حتَّى يكون هَذَا الحَدِيثُ انفعالًا وإرادةً فتهلِك.

إذن فِي قول الله تَعَالَى: **﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾** يكون الله قد أعلمنا فِي الآية الثَّانية **﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** أنَّه إذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٢٩).

كانَ هَذَا الأمر لَيْسَ بِوُسعنا فإننا غيرُ مكلَّفين به، ونبينا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أخبرنا أن الله تجاوز عنا ما حدثتْ به أنفُسنا ما لم نعمل أو نتكلم.

قوله: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني إذا حاسبنا الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى ما فِي قلوبنا فإن المشيئة التامَّة له؛ إن شاء غفرَ، وإن شاء عذَّب. وفي الآية إثباتُ مشيئةِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنه يفعل ما يشاء لا مُعَقِّبَ لحُكمه، ولا رادَّ لقضائِه، ولا يُسأل عما يفعل؛ لأَنَّه عَزَّوَجَلَّ لا يفعل شيئًا إِلَّا لحكمةٍ، سواء علِمناها أو لم نَعْلَمْها.

وفِي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. وهَذِهِ الآية أوجبتْ للعُصاة الَّذِينَ يعصون الله بغير الشركِ أن يتهاونوا، وإذا نهيتَه عن معصيةٍ ارتكبها فإنه يقول لك: اللهُ غفور رحيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فيوسوس الشيطانُ لهم ويجعلهم يعملون بالمتشابِه من القُرْآنِ، ويتركون المحكَم، فنقول: هل أنت عَلَى ثقةٍ من أن تكون ممن شاء الله أن يغفر لهم؟

الجواب: لا؛ لأَنَّه ما قالَ: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ولم يقيِّده، بل قيده، قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، فهل أنت عَلَى ثقة أنك ممن شاء الله أن يغفر له! فإنك لستَ عَلَى ثقة.

ثمَّ إن المعاصيَ يجرُّ بعضها البعضَ؛ ولذلك حرُم النظرُ للمرأةِ غير الَّتِي ليسَ بينك وبينها محْرَمِيَّة، وهو نظر فقط، ولكنه حرام؛ لأَنَّه يجرُّ إِلَى الزِّنَا، فالمعاصي فِي الواقع مُشترَك بعضُها ببعضٍ، فإذا تهاونتَ بمعصيةٍ هوَّن عليك الشيطانُ ما هُوَ أعظمُ منها، ثمَّ ما هُوَ أعظمُ، حتَّى يُوصِلك إِلَى الشركِ.

واستمِعْ إِلَى الَّذِينَ غمرتْ قُلُوبَهم المعصيةُ ماذا قَالُوا عن آياتِ الله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥] يعني هذه حكايات وقصص، ما هِيَ شيء، قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، فالمعاصي تجعل الإنسانَ يتصوَّر أن آياتِ اللهِ أساطير الأولين؛ لأنَّه لم يصل معناها إِلَى قلبه والعِيَاذُ باللهِ، فقلبه مغلَّف، فلا يصل الإيمان بهذه الآيات إِلَى قلبه ولا تفيد قلبَه شيئًا؛ لأَنَّه قدْ رانَ عَلَى قلبِه ما كانَ يَكسِبه. فاحذر يا أخي المعاصيَ، ولا تتهاون بها.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه الكلمة فيها عموم، فكل شيءٍ موجود هو قادرٌ عَلَى إعدامه بلحظةٍ، وكل شيءٍ معدوم هو قادر عَلَى إيجاده بلحظةٍ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

والقُدرة هِيَ فِعل الفاعلِ بلا عجزٍ، يعني أن يفعل الفاعل الشَّيْء بلا عجز.

والقوة: أن يفعل الشَّيْء بلا ضعف.

وانتبه للفرق، فكثير من النَّاس لا يفرِّق بين القُدرة والقوة، والواقع أن بينهما فرقًا، فالقوةُ ضِدُّها الضعفُ، والقُدرةُ ضِدها العجزُ.

واستمع للفرق بين هَذَا وهذا من القُرْآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤] فهَذِهِ تدلُّ عَلَى أن ضد القوة: الضعف، وضد القُدرة: العجز.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] ولم يقل: قويًّا؛ لأنَّ ضد العجزِ: القُدرة.

وأضرب مثلًا حِسِّيًّا يُبيِّن الفرقَ بين القُوة والقدرة: هَذَا رجل قلنا له: احمِلْ

هَذَا الحجرَ، فأراد أن ينقُله من الأرضِ فعجزَ، فنقول: هَذَا غير قادر، ولا نقول: غير قويٍّ.

رجلٌ آخرُ قلنا له: احمِلْ هَذَا الحَجَر، فحمله لكن على شِدَّة، فنقول: هَذَا غير قوي، ولا نقول: غير قادر؛ لأَنَّه زحزح بمشقَّة.

رجل ثالث قلنا له: احمِلْ هَذَا الحجرَ، فرفعه بدون كبير مجهود، فنقول: هذا قوي.

قالَ الله تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] والرَّسُول هو مُحَمَّد رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، و﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ هو ما ذكره اللهُ في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آمن بالكِتَاب والسُّنَّة؛ ولهذا كانَ هُوَ يشهد لِنَفْسِهِ بأنه رسول الله، ولا بدَّ أن يكون كذلك؛ لا بُدَّ أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

والإيمان باللهِ يَتَضَمَّن أربعةَ أمورٍ: الإيمان بوجودِه، والإيمان بربوبيَّته والإيمان بأُلُوهِيَّته، والإيمان بأسمائِه وصفاتِه.

قوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الملائكة هم عِباد خَلقَهم الله عَزَّوَجَلَّ ليقوموا بطاعتِهِ، وهم كما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر:١] فنؤمن بالملائكة عمومًا، ونؤمن بمَن عرَفْنا أسماءَهم خصوصًا، مثل جِبريل، وهو أفضلُ الملائكةِ، وهو مُوَكَّل بالوحيِ. وإِسْرَافِيل، وهو

مُوَكَّلٌ بِنَفْخِ الصُّور. ومِيكائيل، وهو موكَّل بالقَطْرِ والنباتِ.

وقد جمعَ النَّبيُّ ﷺ هَؤُلاءِ الثَّلاثة فِي حديثٍ واحدٍ؛ فِي استفتاح صَلَاة اللَّيْل، يقول فِي استفتاح صَلَاة اللَّيْل: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

اللهُ أكبرُ! الرَّسُول يقول: «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ**» فكيف بنا نَحْنُ المُعَرَّضين للخطأ! وأكثر النَّاس إذا قالَ قولًا فإنه يَظُنُّ أنَّ ما يقول هُوَ الصواب، وما عداه فهو خطأ، سُبْحَانَ اللهِ! فأنت ما تَدري، وهل هُديتَ إِلَى ما اختُلف فيه من الحقِّ بإذنِ اللهِ! فلستَ مَعصومًا، فقد تُخطِئ وقد تُصيب، وإذا كانَ النَّبي ﷺ يسأل ربَّه هَذَا السُّؤال، فجَدير بنا نَحْنُ أن نسألَ اللهَ هَذَا السُّؤال، ولا سيما عندما يَرِد علينا استفتاء، فإن الإِنْسَان ينبغي له أن يَلْجأَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ بقلبِه ولسانِه وحالِه أن يُوَفِّقَه للصوابِ؛ لأنَّ المفتيَ -يا إخواني- مُعَبِّرٌ عن اللهِ، وليست المسألة هيِّنةً.

ومع الأسف أن من النَّاس الآن مَن يَتسابقون إِلَى الفُتيا أيهم يُفتِي، وليتَ عنده من العلمِ ما يَجعله أهلًا للفُتيا، وقد كان السلفُ الصَّالِحُ لا يتسابقون للفتيا، ولكن يتدافعونها، وكل واحدٍ يقول: اذهبْ للثاني؛ لأنَّ الإِنْسَان يَخشَى.

ولولا أن الإِنْسَان يَخشَى من كِتمان العلمِ، أو أن السَّائل يذهب إِلَى إِنْسَان جاهلٍ ويُفتيه، لَكان الإِنْسَان يتوقَّف عن الفتيا لِيَسْلَمَ، فمَن استُفتيَ وعنده علمٌ فإن

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

عدمَ إقدامِه عَلَى الفتيا لَيْسَ بسلامةٍ، بل هُوَ عَطَب.

إذن هَؤُلاءِ الثَّلاثة كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يذكرهم فِي استفتاحِ صَلَاةِ اللَّيْلِ.

قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ نعرِف من الكتبِ أشياءَ ويَخفَى علينا أكثرُ الكتبِ، فنُؤمِن بالكُتُب إجمالًا، وأن كل رسول أرسله الله أرسلَ معه كِتابًا حقًّا.

وأوَّلُ ما يُذكَر منَ الكُتُب القُرْآنُ، والتَّوراة، وهي مُنزلة عَلَى مُوسَى، والإنجيل وهو مُنزل عَلَى عِيسَى، والزَّبُور وهو منزل عَلَى داودَ، وصُحف إبراهيم ومُوسَى، أما صُحف إبراهيمَ فلا نعرِف لها إِلَّا هَذَا الاسم، وأما صحف مُوسَى فقيل: إنها التوراة، وقيل غيرها، والله أعلم.

قوله: ﴿وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فلا نفرِّق بين نُوح ﷺ أوَّل الرسُل، ومُحَمَّد ﷺ آخِر الرسلِ، لا نُفَرِّق بالتصديق والإيمان، فنؤمن بأنهم رُسُل من عند اللهِ حقًّا، ونؤمن بما صحَّ عنهم من الأخبارِ، وأما الأحكامُ فإنَّ شَريعتنا ناسخة لجميعِ الشرائعِ، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، فله السيطرةُ عَلَى جميعِ الكتبِ، فلو جاء فِي التوراة والإنجيل وصحَّ صحَّةً لا ريبَ فيها حُكمٌ يخالفُ ما فِي القُرْآن فالعِبرةُ بما فِي القُرْآنِ.

وهَذَا بالنِّسْبَة للأحكامِ، أما الأخبارُ فإنَّها لا تُنسَخ، وكلُّ ما صحَّ من الأخبارِ عن الكتبِ السابقةِ فهو حق، لكن تعلمون أن الكتبَ السابقةَ لم يَتكفَّلِ اللهُ تَعالَى بحفظها، بل قال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤]، فجعل حِفظَها عَلَى مَن أُنزل عليهم، ولكنهم لم يقوموا بالحفظِ، ولكنهم حَرَّفوا وبدَّلوا وغيَّروا.

إذن الكتبُ أوَّلها القُرْآنُ، والرسل أوَّلهم نُوح، وآخرهم مُحَمَّد، صَلَّى الله عليهم وسلم أجمعين.

قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ الضمير يعود عَلَى الرَّسُول والمُؤْمِنِينَ، ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الرَّسُول ومن آمن به؛ لأَنَّه قَال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ليسوا يقولون: سمِعنا وعصَينا ولكن يقولون: سمعنا وأطعنا، أيِ: امتثلنا ما أُمرنا به، وتركنا ما نُهينا عنه. ومن الطاعةِ تصديقُ الخبرِ. ولهذا لو قالَ قائل: لماذا لا يقولون: سمِعنا وصدَّقنا؟

قلنا: لأنَّ الكتبَ فيها أوامرُ ونواهٍ، وفيها أخبارٌ، فالطاعةُ للأوامرِ والنواهي، والتصديق للأخبارِ.

نقول: ومن الطاعة أن نصدِّق بالأخبار؛ لأَنَّه يجب علينا أن نصدِّقَ بكل خبرٍ جاء فِي هَذِهِ الكتبِ إذا صحَّ به النقلُ.

ثمَّ إنه يجب أن نسمعَ ونطيع سواء علِمنا الحكمةَ أم لم نعلمْ، ومَن كانَ لا يطيع إِلَّا إذا علِم الحكمةَ فإِنَّه لَيْسَ بمؤمنٍ؛ لأَنَّه اتبع هواهُ. فإذا قالَ الإِنْسَان: أنا لا أُصلي حتَّى أعرف الحكمة من الصَّلاة، ولا أتطهَّر حتَّى أعرف الحكمة، قلنا: إذن لستَ بمؤمنٍ، فالمؤمن يقول: سمِعنا وأطعنا.

فإذا أُمرنا أن نصليَ الظُّهْر أربعًا فقال إنسان: وما الحكمة في أنها أربع؟ ولماذا لم تكن رَكْعَتَيْنِ أو سِتًّا؟

فنقول: هَذَا ليس بمؤمنٍ، فالمؤمن يقول: سمِعنا وأطعنا.

ولذلك قالَ الله تَعَالَى فِي سُورَة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

قوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ فإن قال قائل: لماذا نُصبت (غفرانك) مَعَ أنها فِي أوَّل الجملة، وكان فيما يبدو أن تكون بالرفعِ؛ لأنَّ الاسم إذا وقع فِي أولِ الجملةِ صار مبتدأً؟

فالجواب أن هَذِهِ منصوبة بفعلٍ محذوفٍ، أي: نسألك غفرانك.

سُبْحَانَ اللهِ! يقولون: سمعنا وأطعنا ثمَّ يقولون: نسألك غفرانك؛ لأنَّ الإِنْسَان وإنْ أطاع فقد يكون فِي عَمَلِه نقصٌ وقُصورٌ؛ ولهذا نصلي وأول ما نَبدأ به بعد الصَّلاة أن نقول: أستغفِر الله، أستغفر الله، أستغفر الله؛ لأنَّ الإِنْسَان لا يخلو من خَلَل.

وهنا قَالُوا: سمعنا وأطعنا ثمَّ قَالُوا: غفرانك؛ خشيةَ أن يكونَ فيما أطاعوا اللهَ شيءٌ من النقصِ، قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] بعدما يُصلون ويتهجَّدون يتفرَّغون للاستغفارِ، سُبْحَانَ اللهِ!

وهذه ملاحظة ينبغي للإِنْسَان أن ينتبهَ لها، فلا تقل: أنا صليتُ وانتهى وبَرِئَتِ الذِّمَّةُ، وحَصَلَتِ القُربَى من الله، فلعله يكون فيها نقصٌ.

قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ قد يقولُ المبتدِئُ فِي النحوِ: لماذا لم تكن (ربَّنا) صفة للكاف الَّتِي محلها الجرُّ؟

والجواب: أنها منادى منصوب حُذفت منه يا النداء، يعني: يا ربَّنا نسألك غفرانَك يا ربنا.

ونِعمَ الربُّ ربنا جَلَّوَعَلَا وما أقربَه من الداعي، وينزل ربنا عَزَّوَجَلَّ كل ليلة إِلَى سماء الدُّنيا حين يَبقَى ثُلُث اللَّيْل الآخِر فيقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[1]. اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يتعرَّضون لهذا النداءِ يا ربَّ العالمينَ.

قوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هل مراد إليك المصير فِي عِبادتنا فلا نَشرَع إِلَّا ما شَرَعْتَ، أو إليك المصير فِي تَدبير أمورنا، فأنتَ تدبِّر أمرنا، أو إليك المصير يومَ القيامةِ، أو يشمل هَذِهِ الثَّلاثة وغيرها ممَّا مصيرُه إِلَى الله؟

الجواب: يشمل كل هذا. وسنعطيكم فائدةً فِي التفسير: إذا رأيتَ الآيةَ تشمل معانيَ متعدِّدةً لا ينافي بعضُها بعضًا، وليس بعضها أولى من البعضِ، فاحمِلْها عَلَى العمومِ.

وهذه فائدةٌ تفيد طالبَ العلمِ، وانظروا إِلَى قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨] ماذا قالَ المفسِّرون فِي عَسْعَسَ؛ قَالُوا: أقبلَ، وبعضهم قال: أدبرَ، فبعضهم قال: إنَّما أقسم باللَّيْل حين إقباله، وبعضهم قالَ: أقسم باللَّيْل حين إدبارِه، فالآية إذن تشملُ المعنيينِ، وعسعسَ من أفعال الأضداد فِي اللُّغَة العَرَبِيَّة، وهي أفعال تكون للشيءِ وضده، فتُحمل الآية عَلَى العموم، يعني عَلَى المعنيينِ جميعًا، نقول: أقسم الله تَعَالَى باللَّيْل إذا أقبل واللَّيْل إذا أدبر؛ لأنَّ إقبال اللَّيْل وإدباره من أعظم آياتِ اللهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٣].

إذن قول الله تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ يشمل العمومَ؛ المصير فِي الآخرة، والمصير فِي الشَّرع، والمصير فِي القَدر.

وفي المصير إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ؛ قالَ الله تَعالَى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨].

قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] هَذِهِ نعمةٌ عظيمةٌ تُشبِهُ قول الله تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فكلُّ شيءٍ لا يُمكِنُك ولا تَستطيعه فهو ساقطٌ عنك غير مُكَلَّفٍ به.

وهذه قاعدة -يا إخواني- فِي المأموراتِ: كلُّ شيءٍ لا تَستطيعه فِي المأموراتِ يسقط عنك؛ لأنَّ اللهَ لا يُكلِّف نفسًا إِلَّا وُسْعَها.

ثمَّ إنَّه إذا كانَ لهذا الواجب بدلٌ أتيتَ بالبدلِ، وإن لم يكن له بدلٌ سقطَ عنك نهائيًّا.

مثال: إذا ظاهرَ الرجلُ من زوجتِه فقال لها -والعِيَاذُ باللهِ-: هِيَ عليه كظهرِ أُمِّه، وهَذَا مُنكَر وكذِب كما قالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢] فماذا عليه؟

أولًا: عليه أن يُعتِقَ رقبةً، هَذَا الواجب، فإذا لم يجد رقبةً إما لعدمِ المالِ عنده، وإما لعدمِ وجودِ الرقابِ، فإنه تسقُط الرقبةُ.

ثانيًا: فمَن لم يجد فصيامُ شهرينِ متتابعينِ، فيجب أن يصوم شهرينِ متتابعينِ لا يُفطِر بينهما إِلَّا بعُذر شرعيٍّ أو عذر قَدَرِيٍّ.

فإذا كان ما يستطيعُ الرجلُ لأنه ضعيفٌ، فلا يستطيع أن يصومَ شهرينِ متتابعينِ؛ لا فِي الشتاءِ ولا فِي الصيفِ، فيسقط الصِّيَامُ.

ثالثًا: فمَن لم يستطع فإطعام سِتِّين مِسكينًا.

فإذا ما وجد لأنه فقير فإنه لا يُطعم، ويسقط عنه، وانتهى الأمرُ.

ودليل هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فإذا كنت ما تستطيع فإنه يسقط عنك.

ونذكر قصة الرجل الَّذِي جامعَ زوجته فِي نهارِ رَمَضَان وهو صائم، وفيها فائدةٌ: جاء رجل إِلَى رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: «يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ». فهلكَ هُوَ بنفسِه وأهلك زَوجتَه، قَالَ: «**مَا لَكَ؟**» قَالَ: «وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ». فماذا كانَ من الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ أَنهَرَه؟

الجواب: ما نهره ولا زجره، بل أمرهُ بما يُبرِئ ذِمَّتَه، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«**هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**»، قَـالَ: لَا، فَقَالَ: «**فَهَـلْ تَجِدُ إِطْعَـامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا**». قَـالَ: لَا. كل المراتب الثَّلاث لا يستطيعها.

ثمَّ جلس الرجلُ، فجيءَ بتمرٍ إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال له الرَّسُول ﷺ: «**تَصَدَّقْ بِهَذَا**»، يعني أطعم به ستـينَ مِسكينًا، فقال الرجـل: «أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا[1] أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِـي». سُبْحَانَ اللهِ! الإِنْسَان عنده طمع، فضحك النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهكذا يُدعَى النَّاسُ إِلَى دينِ اللهِ؛ بالبشرِ والابتسامةِ والضحِك، والتيسيرِ والتبشيرِ، ما هُوَ بالعنفِ والغضبِ والغيظِ، ضحك النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُه ثمَّ قال: «**أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ**»[2]. فرجع الرجل الَّذِي خرج من عند زوجته خائفًا وهو غانمٌ معه تمرٌ لأهلِه.

وهل قالَ: فإذا قدرتَ بعد ذلك فأطعِمْ؟

الجواب: لا، إذن سقطَ عنه حتَّى الإطعامُ؛ لأَنَّه لا يستطيع، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

مثالٌ آخرُ: رجل قتل نفسًا خطأً، فقلنا له: أعتِقْ رقبةً، قالَ: ما عندي، فقلنا له: صمْ شهرينِ متتابعينِ، قال: ما أستطيع، فنقول: ما عليك شيء؛ لأنَّ الله ذكرَ خصلتينِ فِي كفَّارة القتلِ، وهما تحريرُ رقبةٍ، أو صيامُ شهرينِ متتابعينِ، ولم يذكر الإطعامَ.

---

(١) أي الحَرَّتين، والحرةُ أرض ذات حجارة سوداء، والمدينة بين حرتين.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء، فتصدق عليه فليكفر، رقم (١٩٣٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع، رقم (١١١١).

إذن إذا قالَ هَذَا الَّذِي وجبتْ عليه كفَّارةُ القتلِ: لا أجِد الرقبةَ قلنا: صمْ، قالَ: لا أستطيع الصِّيَام، قلنا: لَيْسَ عليك شيءٌ، وليس هناك إطعام. ونأخُذ هَذَا الحكم من قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فهَذا فِي الأوامرِ.

تأتي النواهـي: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فقـالَ الله جَلَّ وَعَلَا: «قَدْ فَعَلْتُ»[1] يعني لا أُؤاخذكم إنْ نَسِيتم أو أخطأتم، وهذا فِي النواهي، فإذا فعل الإِنْسَان معصيةً ناسيًا أو فعلَ معصيةً مُخطِئًا لا يعلم أنها حرامٌ، فلا شَيْءَ عَلَيْه، وكأنَّه لم يفعلْه.

ونضرب أمثلةً لهذا:

رجل يُصَلِّي، والذي يُصَلِّي لا يتكلَّم إِلَّا مَعَ الله؛ لأنَّ النَّبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ»[2].

لكن إذا قـرع على الإنسانِ الباب شخصٌ يستأذِن، فلـمَّا سمِع البابَ قالَ: تفضَّل، يقول ذلك للذي قـرعَ البابَ، لكنه ناسٍ أنَّه فِي صَلَاةٍ، فنقـول: لا تبطل صلاته؛ لأنَّه ناسٍ غافِلٌ.

رجل آخرُ يحب الخيرَ، ويحب أن يقومَ بالواجباتِ، فعطس إِلَى جانِبِه مصلٍّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، رقم (١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب: المصلي يناجي ربه عَزَّوَجَلَّ، رقم (٥٣١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، رقم (٥٥١).

وهو معه يُصَلِّي، فقال المُصَلِّي الَّذِي عطسَ: الحمد اللهِ، وهذا جائز، ومَشروعٌ أيضًا، فإذا عطستَ وأنتَ تصلي فقلِ: الحمدُ اللهِ. فهذا الثَّاني زميله الَّذِي إِلَى جانبه قالَ: يرحمك الله متأوِّلًا؛ لأنَّ (يرحمك الله) دعاء، وهو يتصوَّر أن الدُّعاء فِي الصَّلاة لا يُبطِل الصَّلاةَ، ولو كانَ بكافِ الخطابِ، وانتهتِ الصَّلاةُ، فقال له بعض الحاضرينَ: أَعِدِ الصَّلاةَ؛ لأنك تكلمتَ بكلامِ آدميينَ، لأنك خاطبتَ صاحبَك وقلتَ: يرحمك الله.

فماذا نقول له بناءً عَلَى القاعدة الَّتِي ذَكَرَها الله تعالى فِي الآية؟

نقول: لا شيء عليكَ، والذي قالَ: إن صلاتك باطلة لَيْسَ عَلَى صوابٍ؛ لأنَّ السنَّة تحكُم بين النَّاس، والسنةُ وقعتْ بمثل هَذِهِ الصورةِ، ولم يأمرِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ مَن تكلم بإعادةِ الصَّلاةِ، فمُعاويةُ بنُ الحَكَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل يُصَلِّي، فعطس رجلٌ من القومِ، فقال: الحمدُ اللهِ، فقال له معاوية: يَرحَمُكَ اللهُ، فرماه النَّاسُ بأبصارهم، يعني نظروا إليه نظرَ إنكارٍ؛ لأنَّ الإِنْسَان إذا نظر إليك نظرَ رِضا فما يُقال: رماك ببصرِه، لكن نظر إنكار.

فرموه بأبصارهم مُستنكِرين، فقال: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ[1]. يعني تكلَّم مرةً ثانيةً، فجعلوا يَضرِبون أفخاذَهم يُسكتونه، فسكتَ، وانتهتِ الصَّلاةُ.

فتكلم معه بعدما انتهتِ الصَّلاةُ مَن هو بالمُؤْمِنِينَ رءوف رحيم ﷺ، قالَ معاوية: فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي -فلا أنكرَ عليه بالوجهِ، ولا بالقول باللسانِ- قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ**

---

(١) كلمة توجع ونُدبة.

فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[١] ولم يأمرْه بالإعادةِ.

وهذا دليلٌ عَلَى أن مَن فعل محظورًا جاهلًا فليسَ عليه شيء.

وفِي حديث أبي هُرَيْرَةَ الثابت فِي الصَّحيح: «**مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ**»[٢].

فهَذَا إِنْسَان نسي أَنَّه صائمٌ، فمرَّ عَلَى البَرَّاد فشَرِبَ؛ لأَنَّه عَطْشَان، ونسي أنه صائم، فنقول له: لا شَيْءَ عَلَيْه.

رجل آخرُ معه عُنقود عِنَب، فجعل يأكل من العنقودِ ناسيًا أَنَّه صائم، فلما بقيَ حبةٌ واحدةٌ ذكر أَنَّه صائم، فقال: سآكُل هَذِهِ الحبة، فإنْ كانَ العنقودُ الأوَّل لا يُفَطِّرني؛ فهَذِهِ الحبةُ ما تُفطرني، وإنْ كانَ يُفَطِّرني فقدِ انتهَى الموضوعُ.

فنقول: أفطرَ بالحبَّة الأخيرة؛ لأَنَّه كانَ الواجب عليه أن يتوقفَ ويسأل، ولم يُفطِر بسائرِ العنقود.

ربما يقول قائل: هَذَا أكل الحبَّة جاهلًا، لكن نقول: هُوَ مفرِّط، فالواجبُ عليه أن يتوقَّف ويسألَ.

رجلٌ احتجمَ وهو صائمٌ، يَظُنّ أن الحِجامةَ لا تُفطِر، فلا يَفْسُد صومُه؛ لأَنَّه جاهِل.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيًا، رقم (١٩٣٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب أكل النَّاسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

رجلٌ أفطرَ يَظُنّ أن الشَّمْسَ قد غَرَبَتْ، ثمَّ تَبيَّن أنها لم تغربْ، فلا يفسُد صومُه.

رجل أكل بعد طلوع الفَجْر، يَظُنّ أن قوله تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] المراد بالخيوط الحبال، وجعل يأكل ويشرب حتَّى تبيَّن الحبلُ الأسودُ من الحبل الأبيض، فلا يفسد صومُه؛ لأنَّه كانَ جاهلًا.

وقد وقعتْ هاتانِ القصتانِ فِي عهد الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

أما الأولى فعن أسماء بنت أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَفْطَرْنا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ غَيْمٍ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ»[١]. ولم يأمرهم النَّبِي ﷺ بالقضاء.

ولو كانَ القضاءُ واجبًا لَأَمَرَهم به؛ لوجوب الإبلاغِ عليه، فلما لم يأمرْ به عُلِمَ أنَّه لَيسَ بواجبٍ، وهو داخل فِي القاعدة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

أما الثَّاني فعَدِيُّ بنُ حاتمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كانَ يريد أن يصوم، وفي الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] فجعلَ تحت وِسادته عِقالينِ -أي: حبلينِ- أحدهما أسودُ والثَّاني أبيضُ، وجعل يأكل وينظر إِلَى العقالين، فلمَّا تَبيَّنَ الأبيضُ منَ الأسودِ توقَّف، فأخبر بذلك النَّبِيَّ ﷺ، ولم يأمْره بالإعادةِ[٢]؛ لأنَّه كانَ جاهلًا متأوِّلًا، يَظُنّ أن هَذَا هُوَ معنى الآيةِ، فلهذا عفا عنه النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا أفطر فِي رمضان ثمَّ طلعت الشمس، رقم (١٩٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، رقم (١٩١٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول فِي الصوم يحصل بطلوع الفجر.. رقم (١٠٩٠).

رجل مُحرِم بالحجِّ، وفي ليلةِ العيدِ، وهي ليلةُ مُزْدَلِفَةَ، بعد أنْ رجعَ من عرفةَ، كانَ معَه زوجتُه، فجامَعَها يَظُنّ أن الحجَّ قدِ انتهَى؛ مُسْتَدِلًّا بقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الحجُّ عَرَفَةُ**»[1]. فقال: انتهينا من عرفةَ والحمدُ للهِ، إذن يجوز أن أُجامع زوجتي، فجامعها، وهذا الجماعُ وقع ليلةَ العيدِ قبلَ التحلُّل الأوَّل، والجماعُ قبل التحللِ الأولِ يُفسد النسُك، فمعناه أن الحـجَّ فَسَدَ؛ لأنَّ الجماع قبل التحلُّل الأول مَعَ العَمْدِ والذِّكر يترتَّب عليه خمـسةُ أمورٍ: الإثمُ، وفساد النسُك، والمُضِـيُّ فيه، والقضاء من العامِ القادم، وفِدْيَة وهي بَدَنَة. لكن هَذَا الرجل جاهل فجاء يسألنا، ماذا نقول له؟

نقول: الحجُّ صحيح، ولا شيء عليك؛ لأنك جاهـل، والربُّ عَزَّوَجَلَّ لما دعا المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قالَ الله: «**قَدْ فَعَلْتُ**»[2].

المهم -يا إخواني- خذوا هَذِهِ القاعدة معكم فِي الأوامر: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾، وفي النواهي: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ فقال الله تَعَالَى: «**قَدْ فَعَلْتُ**».

وذكرنا أمثلةً واقعـيةً من السنَّة فِي أن الإِنْسَان المخطِـئ لا يؤاخَـذ، والنَّاسيَ لا يؤاخَذ، ولكن لاحظوا أنَّه متى زال العذرُ وجبَ التوقُّف عن المحظورِ، يعني متى علِم الإِنْسَان بأنه الآن فِي محظور وجب أن يتوقف متى ذكرَ أنَّه فِي محظور.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، رقم (١٩٤٩)، والترمذي: أبواب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، رقم (٨٨٩)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، رقم (٣٠١٦)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، رقم (٣٠١٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، رقم (١٢٦).

قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ الإصرُ يعني الثقل والأغلال، فالمؤمنونَ من هَذِهِ الأُمَّة يسألونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ألا يَحمِل عليهم إصرًا كما حمله عَلَى الَّذِينَ من قبلهم، فقال الله: «قَدْ فَعَلْتُ»؛ بقوله تَعَالَى فِي وصف الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فالله تَعَالَى وضع الإصْر والأغلال الَّتِـي كانت عَلَى مَن سَبقَنا بهذا الرَّسُولِ الكريمِ صلوات اللهُ وسلامه عليه.

ونضرب لكم مثلًا ببني إسرائيلَ، عندما عَبَدوا العجلَ أَلْزَمَهُمُ اللهُ بأن يقتلوا أنفسَهم لِتَصِحَّ توبتُهم، فقيل لهم: لا توبةَ لكم إِلَّا أن تقتلوا أنفسكم، وهذا إصرٌ عظيم وغلٌّ، وتوبتنا نَحْنُ -والحمدُ للهِ- بيننا وبين الله، فإذا تاب الإِنْسَانُ إِلَى ربه وتمَّت شروط التَّوْبَة الخمسة، فإنَّها تُقبَل:

أولًا: الإخلاصُ، يعني بألَّا يحمل الإِنْسَان عَلَى التَّوْبَة مراعاة النَّاس، أو الرفعة عندهم، أو الجاه، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ثانيا: الندَم عَلَى فعل المعصيةِ.

ثالثًا: الإقلاع عن الذنبِ.

رابعًا: العزمُ عَلَى ألَّا يعودَ إليه.

أقول: العزم عَلَى ألا يعود، وليس: عدم الرجوع، فلو قلنا: عدم الرجوع فمعناه لو رجع إليه مرة ثانية لَبَطَلَتِ الأُولى، لكـن قلنا: العزم على ألا يعـود، ولا نقول:

ألا يعود؛ لأَنَّه إذا عزمَ ألا يعود ثمَّ سَوَّلَتْ له نفسه بعد ذلك أن يعودَ فالتَّوْبَة الأولى صحيحة.

خامسًا: أن تكونَ فِي وقتِ التَّوْبَة.

ووقت التَّوْبَة بالنِّسْبَة لكل واحد عَلَى انفراد قبل حضورِ الأجَلِ، والدَّليل قول الله تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨] فما ينفع، وفِرْعَوْن لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، انظروا يا إخواني الذل، أعوذ بالله من الذل! فِرْعَوْن ما قالَ: آمنتُ أَنَّه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، بل قال: آمنت أنَّه لا إله إِلَّا الَّذِي آمنت به بنو إسرائيل، فجعل نفسه تبعًا لبني إسرائيلَ، بينما كانَ بالأول يذبِّح أبناءهم ويَستحيي نِساءهم، فهذا ذُلٌّ، نسأل الله العافية! لكن قيل له: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ يعني الآن تتوب وتؤمن بأنه لا إلهَ إِلَّا الَّذِي آمنت بنو إسرائيل ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١-٩٢] يعني: نُبقِي بَدَنَكَ ظاهرًا، أما رُوحك ففي النَّار ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]. والذين كانوا خلفَه هم بنو إسرائيل، أي تكون علامة عَلَى أنك هلكتَ.

وبنو إسرائيل قد أفزعهم فِرْعَوْن، وآذاهم، وإذا غرِق فِرْعَوْن وقومه فقد يكون عند بني إسرائيل احتمال أن فِرْعَوْن لم يغرقْ، فأنجى اللهُ بَدَنَه حتَّى يكون علامةً عَلَى أنَّه هلكَ، فيطمئن بنو إسرائيلَ.

وهناك أيضًا وقتٌ لا تُقبَل فيه التوبةُ للناس عامةً، وهو إذا طلعتِ الشمسُ من مَغربها.

إذن شروط التَّوْبَة خمسة، وكلها سهلة يستطيع الإِنْسَان أن يقومَ بها بدون كُلفة، لكن بنو إسرائيل عليهم آصار وأغلال، ومن الآصار والأغلال أن الإِنْسَان إذا قتلَ أحدًا وجب عَلَى أولياء المقتول أن يقتلوا القاتل وجوبًا؛ لأَنَّه هكذا قالَ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥]، إِلَى قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، لكن هَذِهِ الأُمَّة قالَ الله لهم: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة:١٧٨] لما ذكر ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ قال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

فالمهم أن الله تَعَالَى رفع عنَّا -والحمد لله- الآصار الَّتِي كانت عَلَى من قبلنا.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ يسأل المؤمنون ربهم أَلَّا يُحمِّلَهم ما لا يُطيقون، ولو شاء لحَمَّلهم ما لا يُطيقون، ولكنه لرأفتِه ورحمتِه قالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ هَذِهِ ثلاثُ جُمَلٍ، ولكلٍّ منها معنًى: فالعفوُ فِي مقابل التفريطِ فِي الواجباتِ، والمغفرةُ فِي مُقابلِ المعاصِي وانتهاك المُحَرَّمات، والرحمةُ هِيَ إزالةُ أَثَرِ هَذِهِ الذنوبِ أو الإخلال بالواجبات.

إذن العفو فِي مُقابل التقصير فِي الواجب، والمغفرةُ فِي مقابل فِعل المعصية، والرحمةُ إزالة الأَثَر، بحيث يكون الإِنْسَان كأَنَّه لم يكنْ منه تفريطٌ فِي واجبٍ، ولا انتهاكٌ لمحرَّم.

والأصل فِي الكلمات التبايُنُ فِي المعنى وليس الترادُف، ولهذا قيل: العطف

يَقتضِي المُغايرةَ، فإذا وجدتَ كلمتينِ فلا تظنَّ أن معناهما واحدٌ، وأحيانًا يأتي عطف المرادف عَلَى مُرادفه، مثل قول الشاعر(١):

.... وَأَلْفَى قَوْلَـهَا كَـذِبًا وَمَيْنًـا

والمَين هُوَ الكذبُ.

قوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: وليُّ أمرِنا ومُدبِّرُنا، وناصرنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هَذَا من باب التَّوسُّل بالصِّفَة؛ لأنَّ الله مولى المُؤْمِنِينَ كما قالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠] نتوسل إِلَى الله تَعَالَى بكونِه مولانا أن ينصرنا عَلَى القوم الكافرينَ، وهل القوم الكافرون مُنفصِلون عنك أو متَّصلون بك؟ يعني هل الكافر واحدٌ آخرُ ثانٍ، أم شيء متصل بك؟

فإذا قابلنا الكفَّار فإننا نسأل الله أن ينصرنا عليهم، وهذا واضح، لكن هناك كافر يجـري منك مجرى الدم، وهو الشيطان، فالشيطان يجـري منِ ابنِ آدمَ مجْرَى الدمِ؛ كما قالَ النَّبِيُّ ﷺ ذلك(٢)، والشيطان كافر، فتسأل الله أن ينصرَك عليه بحيثُ لا تَنخدِع بغروره الَّذِي حَذَّرَكَ الله منه فِي قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]. وأما كفَّار بني آدم فظاهِر.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) عَجُز لبيت لعديِّ بنِ زيدٍ. انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ص:٧٠)، ولسان العرب (مين).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٨١)، ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم (٢١٧٥).

الدرس الحادي عشر: فوائدُ مِن آخرِ سُورَة البقرة:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٥-٢٨٦].

قوله: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ ليست منصوبة لأنَّها مفعولٌ لـ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾، بل هِيَ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: نسألُك غُفرانَك، ولهذا ينبغي للقارئِ أَنْ يقول: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ثمَّ يقف؛ لأنَّه لو وصلَ لَفَهِمَ السامعُ أننا سَمِعنا وأطعنْا الغُفرانَ، وليس كذلك، إذن، قِف: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ثمَّ تقول: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾، أي: نسألُك يا رَبَّنا غُفرانَك.

فِي الآية الَّتِي بعدها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] هِيَ ناسخة لقوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى ذكر فِي آيةٍ أخرى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾

[آل عمران:٢٩]، ولم يقل: «يُحاسبكم» لكن هنا قال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، فهي ناسخة؛ لأنَّ ما فِي النفوس -وهو حديثُ النفس- ليس فيه عُقوبة، إذ إنَّ حديثَ النَّفس لا يمكن للإِنْسَان أَنْ يتخلَّص منه، لذلك كانَ قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ناسخا لقوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

لو قال قائل: هل كُلُّ مَن هَمَّ بالحَسنة تُكتب له حَسنة؟ وهل كل مَن هَمَّ بالسيئة تُكتب عليه السيئة؟

نقول: هَذَا فيه تفصيل: إذا هَمَّ بالحَسنة، ثمَّ عَدَل عنها، مِثل مَن هَمَّ أَنْ يُصلِّيَ صَلَاة الضُّحى ثمَّ عَدَل عنها، فإنه يُكتَبُ له أجرٌ، وإن لم يُصَلِّ -سُبْحَانَ اللهِ- يُكتب له الأجر على النِّيَّة، فَنِيَّةُ الخيرِ خيرٌ، فتُكتَب له حسنةٌ كاملة.

وإذا نوى الحَسَنة وتمنَّاها وأرادها، ولكن لم يحصُل عليها، كرَجُل فقيرٍ يُشاهد رَجُلًا غَنِيًّا يتصدق بالمال، ويُنفقه فِي سبيل الله، فتمنَّى أَنْ يَكُونَ له مِثل ذلك المال، ليتصدَّقَ به، ويُنفقه فِي سبيل الله، فإنه يحصُل له ثوابُ نِيَّة هَذَا المتصدِّق، فهُما فِي الأجرِ سَواء.

وإذا هَمَّ بالحسنة وعمل لها أعمالها، ولكن لم يُقدَّرْ له تَكْمِيلُها، كرَجُلٍ هاجَرَ إِلَى الله ورسولِه ﷺ ثمَّ أَدْرَكَهُ الموتُ فِي أثناء الطريق، فإنه يُكتَبُ له الأجرُ كاملًا؛ لأَنَّه هَمَّ وعَمِل وشَرَع، لكن أدركه الموت، وفي هَذَا يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

وهناك قِصة وقعت والنبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّمَ واقف بعَرَفَة، أنَّ رَجُلًا كانَ مَعَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واقفًا بِعَرَفَة، فَوَقَصَتْهُ ناقتُه، فسَقَط منها فمات،

فجاؤوا إِلَى الرَّسُول ﷺ يستفتُونه وهو واقف بعرفةَ، ماذا يصنعون بالرَّجُل؟ فقال: «**اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلَا تُحَنِّطُوهُ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّ اللهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا**»[(١)]. اللهُ أكبرُ! يخرج مِن قَبره يقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبيك؛ لأنَّه لم يُدْرِكِ العملَ، أي: لم يدركْ إتمامَهُ، لكنه شرع فيه.

قالَ العُلَمَاء: يُؤخذ مِن هَذَا أن غُسل الميِّتِ فرضُ كفايةٍ، وأنه لا بُدَّ أَنْ يُغسل بالماء، وأن استعمال السِّدْر للمُحرِم لا يَضُرُّ، وأن تَغَيُّرَ الماء بالسِّدر ونحوه لا يُخرجه عن الطُّهوريَّة.

ويؤخذ منه أيضًا أَنَّ الميت إذا مات قبل أَنْ يَحِلَّ من إحرامه، فإنَّه يُكفَّن فِي ثياب الإحرام، يعني: لا نُحْضِرُ له خِرقة جديدة، بل نُكَفِّنُه فِي إزارِه ورِدائه؛ لأنَّه مُحْرِم، وأنه لا يُغطى رأسُه، وقد وَرَدَ أيضًا فِي رواية: «**وَلَا تُخَمِّرُوا وَجْهَهُ وَلَا رَأْسَهُ**»[(٢)]، يعني: يكون الرِّداء عَلَى كتفيه، والإزار فِي أسفَلِ بَدَنِه، ويُدفن، ولا يُحَنَّط، يعني: لا يُجعل فيه طِيب؛ لأنَّ الأمواتَ ينبغي أَنْ يُحَنَّطُوا، ويُجعل فيهم طِيب، أولًا: يُنَزَّهُوا عن الأذى، ثمَّ تُطَيَّبُ أبدانُهم؛ حتَّى يلاقوا الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى أحسَنِ حال.

ويؤخذ من هَذَا الحَدِيث أَنَّ الميت إذا مات فِي أثناء النُّسك، لا يُقضى عنه ما بقي، يعني: إِنْسَان حَجَّ الفريضة، وفي أثناء النُّسك مات، لا نقول: أَكْمِلُوا الفريضة عنه. والدَّلِيل أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يأمُرْهُمْ بقضاء النُّسك عن هَذَا الميت.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين، رقم (١٢٦٥)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، رقم (١٢٠٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب المناسك، باب المحرم يموت، رقم (٣٠٨٤) بزيادة تغطية الوجه، وأصل الحديث عند البخاري: كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين، رقم (١٢٦٥)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، رقم (١٢٠٦).

أما الهَمُّ بالسيئة: فإنْسَانٌ هَمَّ أَنْ يفعل فاحِشَةً -والعِيَاذُ باللهِ- ثُمَّ تَذَكَّرَ العَذاب والعقوبة، فترَكَها لله، فإنه تُكتب له حَسنة كاملة؛ لأنَّه ترَكَها لله، نَزَغَهُ الشيطانُ فَهَمَّ بالفاحشة، ثمَّ تَذَكَّرَ عَظَمَة الرب وعُقوبة الرَّبِّ، فترَكَها لله، فتُكتب له حسنة كاملة، وهذه نعمة ولله الحمد.

ولو هَمَّ بها، ولكن لم يُدركها، ولم يعمل عملًا، بل تمَنَّى، مِثل رَجُل رأى غَنِيًّا يَعْبَثُ بالمال، ويَتَخَوَّضُ فيه، ويُنفقه فِي المعاصي، ويُنفقه فيما لا خيرَ فيه، فتمنَّى أَنْ يَكُونَ له مِثل هَذَا المال ليعمَلَ فيه مِثل عمَلِ هَذَا الرجل، يقول: لو أَنَّ عندي مالَ فُلَان لَلَعِبْتُ القِمار، وتعامَلْتُ بالرِّبا، وغَشَشْتُ النَّاس، لَيْتَ عندي مالَ فُلَان أصنع مثل ما يصنع. نقول: هُما فِي الإثم سَواء.

الثَّالث: رَجُل هَمَّ بالسيئة وعمِل لها أعمالها، ولكن لم يُدْرِكْها، كَرَجُل هَمَّ بشُرب الخَمر -مثلًا- واشترى الخَمر، ووضع أوانيَ الخَمر، أو كُؤوس الخمر أمامه، ثمَّ جاءت الريح فأطارتها، وأراقتها، فندِم ألَّا يكون تمكَّن مِن شُربها، فإنه يكون عليه الوزر كاملًا؛ لأنَّه مُنِع منها بغير اختياره، ويَدُلُّ لهذا قول النَّبِـي ﷺ: «**إذَا التقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**». قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»(١). المقتول فِي النَّار! مِسكين فَقَدَ الحياة، فكيف يكون فِي النَّار؟ قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء:٩٣]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما، رقم (٢٨٨٨).

القاتل أمرُه معلوم، والمقتول كانَ حريصا عَلَى قَتْلِ صاحبه، لكن عَجَزَ.

فصار أيضًا تارِكُ السيئة الَّذِي هَمَّ بالسيئة ولم يفعلها له الأقسام الثَّلاثة، لكنه يزيد قِسما رابعًا: إذا هَمَّ بالسيئة وتركها لا لله، ولا عجزًا عنها، ولا شَرع فيها، لكن طابت نفسه، يعني: عَزَفت نفسه عنها؛ أَنَفَةً أو لغير ذلك مِن الأسباب، فهذا لا إثمَ عليه، ولا أَجْرَ له، وهذا يقع كثيرًا، يَهُمُّ الإِنْسَان بالمعصية، ثمَّ تَعْزف نفسُه عنها، نقول: هَذَا لَيْسَ عليه إثم؛ لأَنَّه لم يفعل ولم يَتَمَنَّ، وليس له أجرٌ؛ لأَنَّه لم يُخلِص فِي تركها لله عَزَّوَجَلَّ.

وفِي الآية نفسها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] الفَرق بين النسيان وبين الخطأ أَنَّ النسيان هُوَ أَنْ يَكُونَ عند الإِنْسَان عَلِمَ ثمَّ يَنسى، والخطأ أَلَّا يكونَ عند الإِنْسَان عِلمٌ أصلًا، فالخطأ أن يُخطِئ الإِنْسَان، وما عنده عِلم، فيفعَل شيئًا يظنُّه حلالًا وهو حرام، والنسيان: يدري أن هَذَا الشَّيْء حرام، لكنه نسي ففعلَهُ، فكان النسيان مسبوقًا بالعِلم، لكن طرأ ذُهول القلب عنه، وأما الخطأ فلم يُسبق بعِلم، وكلاهما فِي حُكم الله سَواء؛ لأَنَّ الله تعالى قال: «**قَدْ فَعَلْتُ**»[1]. يعني: لا أؤاخذكم بنسيانٍ ولا بجَهْلٍ.

رَجُل نسي التَّشَهُّد الأول فِي الصَّلاة، لا تبطل صلاته، لكن يَجْبُره بسجود السَّهْو.

رَجُل صائم فنَسي وأكَلَ وشَرِب فلا يبطل صومه، لأنَّ النَّبي ﷺ قال: «مَنْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، رقم (١٢٦).

نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»، ففي قوله: «فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ» دليل عَلَى أَنَّ الصَّوْم لا يَنْقُص، حتَّى لو أكلَ وشَبعَ، أو شَرِب ورَوِيَ، فالصَّوْم تامٌّ؛ لأنَّه قال: «فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ»[١]، لأنَّه بغير إرادة منه، رِزْقٌ ساقَهُ اللهُ إليه.

مُعاوِيَةُ بن الحَكم السُّلَمي -وهو غيرُ مُعاوِيَةَ بنِ أبي سُفيانَ- كانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبي ﷺ فعَطَسَ رَجُل مِن القوم، فقال العاطِسُ: الحَمْدُ لله، فسمِعَهُ معاويةُ، وكان الواجب عَلَى الإِنْسَان إذا سمع أخاه يحمد الله بعد العُطاس أَنْ يُشَمِّتَه، فيقول: يرحمك الله. فقال له معاوية: يرحمُك الله. هَذَا الأصلُ، فرماه النَّاس بأبصارهم، أي: جعلُوا ينظرون إليه بأبصارهم؛ إنكارًا لقوله، فقال: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ أي: أنَّه يندُبُ فَقْدَ أمِّه إيَّاه، وهذه كلمة تُقال عند التوجُّع أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فجعلَ الصحابة يَضْرِبُون عَلَى أفخاذِهم -يُسَكِّتُونَه- فسَكَت، ولما انتهى مِن الصَّلاة دعاه النَّبيُّ -صلواتُ الله وسلامُه عليه- قالَ مُعاوِيَةُ: فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي. فلا عَبَس بوجهه، ولا أغلَظَ له بقوله، وإنما قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[٢]، ولم يأمره بالإعادة، مَعَ أَنَّه تكلم؛ لأنَّه كانَ جاهلًا.

إذن، نأخُذ مِن هَذَا قاعدةً وهي: «كُلُّ مَن فَعَل مُحَرَّمًا جاهلًا أو ناسيًا، فإنَّه لا إثم عليه، ولا كَفَّارة عليه، ولا تَفْسُد عبادته بذلك، أيًّا كانَ ذلك المحرَّم».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، رقم (٦٢٩٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم (١١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

رَجُل جامَع زوجته فِي نهار رَمَضَان ويظن أَنَّ الشَّمْس قَدْ غَرَبت، فإذا بالشَّمْس مُحْتَجِبَةٌ بالسحاب فطلعت مِن وراء السحاب، فلا شَيْءَ عَلَيْه، لأَنَّه جاهِل، يَظُنّ أَنَّ الشَّمْس قَدْ غَرَبت، وتَبَيَّن أنها لم تغرُب.

وفي صحيح البخاري عن أسماءَ بنتِ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: أَفْطَرْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ غَيْمٍ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ[1]، هَذِهِ هِيَ نفس القضية، ولم يُؤمَروا بالقضاء، ولو كانَ القضاء واجبًا، لَأَمَرَهُم النَّبِي ﷺ به؛ لأَنَّه يكون مِن الشَّرع، والرَّسُول ﷺ أُمِرَ أَنْ يبلغ الشَّرع، ولو أمرهم به لنُقل إلينا؛ لأنَّ الحاجة تدعو لذلك، فلما لم يَكُن شيء مِن هذا، عُلِم أنَّ صومَهم ذلك اليومَ كانَ صحيحًا.

فمَن فعَل شيئًا مُحَرَّمًا جاهِلًا فلا شَيْءَ عَلَيْه، لا إثْم ولا قَضَاء فِي العبادةِ، ولا كفَّارة، مَهْمَا كانَ هَذَا المحرَّم، ولَسْنَا نقول: لأنَّ فُلَانًا قالَ فِي الكتاب الفُلَاني كذا وكذا، بل نقول: لأنَّ اللهَ قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: «قَدْ فَعَلْتُ»[2]، ولِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥].

فإذا قالَ قائل: أليس اللهُ قالَ عن آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] وآخَذَهُ اللهُ عَلَى هَذَا بأن أخرجَهُ مِن الجَنَّة، وهو يقول: ﴿فَنَسِىَ﴾ **فنقول:** إنَّ سُقوط الإثم بالنسيان جاء فِي شريعة الإسلام، أما ما قبل فإنَّ النِّسيانَ كان لا يُسقِط الإثم، هَذَا جواب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، رقم (١٩٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، رقم (١٢٦).

وهناك جواب آخر، وهو أَنَّ النسيانَ فِي هَذِهِ الآية بمعنى التَّرك، ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: تَرَكَ، وهناك شاهد عَلَى أَنَّ النسيان بمعنى التَّرك، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦]، وكذلك قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، أي: تَرَكَهم.

ولا يمكن أَنْ يَكُونَ النسيانُ فِي هَذِهِ الآية بمعنى الغَفْلَة؛ لأنَّ الله تعالى قالَ عن مُوسَى لما سأله فِرْعَوْن: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢]، ولعل هَذَا الوجهَ أقربُ مِن الوجه الأول أن آدمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ترَكَ عن عَمْدٍ، وليس عن نِسيان، ولهذا صار به التوبيخ شديدًا: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، ولكن ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

لعلنا نقتصر عَلَى هَذَا بالنِّسْبَة لآخِر سُورَة البقرة، وأهم شيء فيه مِن الناحية الفقهية الحُكمية هُوَ أَنَّ الإِنْسَان يُعذَر بالجهل، ولا يَلحقه إثْم، ولا قَضاء فِي عبادة، ولا كفَّارة؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالَ فِي قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] قال: «قَدْ فَعَلْتُ»، والحمد للهِ ربِّ العالمينَ.



تَمَّ المُجَلَّدُ الأَوَّلُ بِحَمدِ الله تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ المُجَلَّدُ الثَّانِي

وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ التَّفْسِيرِ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ)



فهرس الآيات

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث | الصفحة



فهرس الفوائد

الفائدة **الصفحة**



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

دروس العلم

دروس علوم القرآن

دروس التفسير

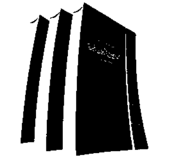


ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -
القصيم ، ١٤٣٩ هـ /١٨ مج .
٨٧٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين ؛ ١٧٧)
ردمك: ٣ - ٦٤- ٨٢٠٠- ٦٠٣- ٩٧٨ (مجموعة)
٠- ٦٥- ٨٢٠٠-٦٠٣- ٩٧٨ (ج١)
١- الفتاوى الشرعية. ٢- الفقه الحنبلي. أ . العنوان
ديوي ٢٥٨,٤ ٢٠٣٥ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠٣٥ / ١٤٣٩
ردمك: ٣-٦٤-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٦٥-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧- جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢- محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤